

المائريدي

بأمر من آل البيت

كتاب

تفسير المائريدي

المجلد الثاني

البقرة ١٢٢

آخر آل عمران

٢

دار
الكتب
العلمية
بيروت

تأويلات أهل السنة

تفسير المائريدي

تأليف

الإمام أبي منصور محمد بن محمد المائريدي

المتوفى ٢٢٢ هـ

تحقيقه

الدكتور مجدي باسلوم

المجلد الثاني

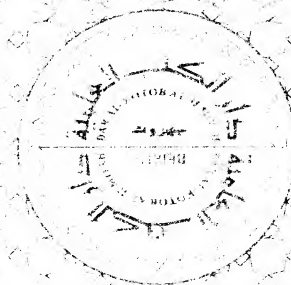
ص ١٢٢ (البقرة) - آخر سورة آل عمران

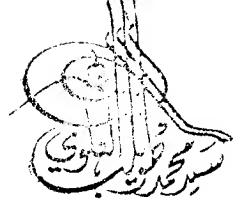


دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة ١٩٧١

بيروت - لبنان





نَوَائِلُ أَهْلِ السُّنَنِ

تفسير المائتين

تأليف

الإمام أبي منصور محمد بن محمد بن محمود المائتدي

المتوفى ٣٢٣ هـ

تحقيقه

الدكتور مجدي باسلوم

المجلد الثاني

المحتوى :

مِثْلُ الْآيَةِ (١٧٧) مِنْهُوَ الْبَقْرَةُ - إِلَى آخِرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

منشورات محمد رجاوي بنفوس

بيروت
دار الكتب العلمية

منشورات محمد صالح بيروت



بيروت
لبنان

دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright

All rights reserved

Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة

لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
جزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signé par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى

٢٠٠٥ م - ١٤٢٦ هـ

منشورات محمد صالح بيروت

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications, Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة: رمل الظريف، شارع البحري،ناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor

هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (٩٦١ ١)

فروع عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.

ص.ب: ٩٢٢٤ - بيروت - لبنان
رياض الصلح بيروت ١١٠٧ ٢٢٩٠

هاتف: ٩٦١ ٥٨٠٤٨١٠ / ٩٦١ ٥٨٠٤٨١٠
فاكس: ٩٦١ ٥٨٠٤٨١٠

<http://www.al-ilmiyah.com>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun-ilmiyah.com

الكتاب: تأويلات أهل السنة

TA'WILĀT AHL AS-SUNNAH

المؤلف: أبو منصور الماتريدي

المحقق: د. مجدي باسلوم

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات: 6230

سنة الطباعة: 2005 م

بلد الطباعة: لبنان

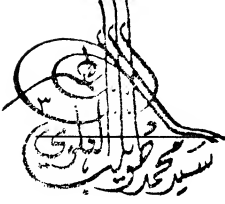
الطبعة: الأولى

ISBN 2-7451-4716-1



9 0000 >

9 782745 147165



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْفُرْسَاءِ وَحِينَ يُبَايِعُ الْأُولِيَاءَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

قيل: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ في نفس التوجه إلى ما ذكر دون الإيمان.

ويحتمل: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ في ذلك، ولكن البر لمن يقصد إليه، إذ قد يقع ذلك لحوائج تعرض، تخرج عن القرية.

ويحتمل: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ في التوجه إلى كذا، ولكن البر في الائتمار لأمره والطاعة له، والبر هو الطاعة في الحقيقة.

وقيل^(١): ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ تحويل الوجه إلى المشرق والمغرب، ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ ما ثبت في القلب من طاعة الله وصدقته الجوارح.

وقيل^(٢): ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ أن تصلوا ولا أن تعملوا غير الصلاة. كل ذلك يرجع إلى واحد. وجملته أن يقال: ليس البر كله ذلك، لكن ما ذكر، إذ ذلك الوجه هم استعظموه حتى قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَا تَبِعُوا قِيلَتَهُ﴾ [البقرة: ١٤٥]. والثاني: أن يكون ذلك بنفسه ليس ببر، وإنما صار بؤا بالأمر به، أو بما ذكر من الإيمان والخيرات. فلما زال عنه الوجهان سقط فعله أن يكون بؤا.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾، بأنه واحد، لاشريك له. يعنى صدق بالله بأنه واحد، لاشريك له.

﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وصدق بالبعث الذي [فيه] جزاء الأعمال، وصدق بالكتب، والملائكة، [والكتاب]^(٣) والنبين.

وللبر تأويلان:

أحدهما: ما قيل.

والثاني: على الإضمار؛ كأنه قال: ليس البر بر من يولى وجهه، ولكن البر بر من آمن بالله، كما قال: ﴿أَجْعَلْتُمْ سُبَاتَ الْحَاجِّ وَبَنَاءَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ

(١) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير عنه (٢٥٢٢، ٢٥٢٣، ٢٥٢٤).

(٢) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٥٢١، ٢٥٢٤)، وانظر الدر المنثور (١/٣١٠).

(٣) سقط في ط.

فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴿[التوبة: ١٩]، أَى أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ كَيِّمَانٍ مِنْ أَمْنٍ بِاللَّهِ؟

وقيل: أَجْعَلْتُمْ صَاحِبَ السَّقَايَةِ كَمَنْ أَمْنٍ بِاللَّهِ؟
وقيل^(١): إِنْ الْبَرِّ بِمَعْنَى: الْبَارِ، يَقُولُ لَيْسَ الْبَارُ مِنْ يَحُولَ وَجْهِهِ قَبْلَ كَذَا، وَلَكِنْ الْبَارُ «مَنْ أَمْنٍ بِاللَّهِ» الْآيَةُ.

وقوله: ﴿وَأَتَى أَلَمَالًا عَلَى حُبِّهِ﴾ .

قيل: أَعْطَى عَلَى حَاجَتِهِ.

وقيل: عَلَى قَلْتِهِ^(٢) أَثَرُ غَيْرِهِ عَلَى نَفْسِهِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].
وقيل^(٣): ﴿عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَى﴾ أَى ذَوَى قَرَابَتِهِ.

وفيه دلالة أَنَّ الْأَفْضَلَ أَنْ يَبْدَأَ بِصَلَةِ قَرَابَتِهِ، ثُمَّ الْيَتَامَى؛ لِأَنَّ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ حِفْظَهُمْ؛ وَلِأَنَّهُمْ أَوْعَفُ، فَيَبْدَأُ بِهِمْ قَبْلَ الْمَسَاكِينِ.

رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «لَيْسَ الْمَسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ. قِيلَ: فَمَا الْمَسْكِينُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَجِدُ مَا يَغْنِيهِ وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ، وَلَا يَفْطَنُ بِهِ فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ»^(٤).

(١) قَالَ الْبُغَوِيُّ (١/١٤٣).

(٢) فِي ب: عَاقَلْتَهُ.

(٣) قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ، أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ كَمَا فِي الدَّرِّ الْمَنْثُورِ (١/٣١٣).

(٤) وَرَدَ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ مَسْعُودٍ:

فَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣/٣٩٨) فِي الزَّكَاةِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُ الْفَقِيرُ النَّاسَ إِنْ كَانُوا عَلَى الْفَقْرِ﴾ (١٤٧٦، ١٤٧٩)، (٨/٥٠) فِي التَّفْسِيرِ بَابُ ﴿لَا يَسْتَأْذِنُ الْفَقِيرُ النَّاسَ إِنْ كَانُوا عَلَى الْفَقْرِ﴾ (٤٥٣٩)، وَمُسْلِمٌ (٢/٧١٩ - ٧٢٠) فِي الزَّكَاةِ، بَابُ الْمَسْكِينِ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى، وَلَا يَفْطَنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ (١٠١ - ١٠٣٩/١٠٢)، وَأَبُو دَاوُدَ (١/٥١٣) فِي الزَّكَاةِ، بَابُ مَنْ يَعْطَى مِنَ الصَّدَقَةِ وَحْدَ الْغَنَى (١٦٣١، ١٦٣٢)، وَالنَّسَائِيُّ (٥/٨٦) فِي الزَّكَاةِ، بَابُ تَفْسِيرِ الْمَسْكِينِ، وَمَالِكٌ (٢/٩٢٣)، فِي صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمَسَاكِينِ (٧)، وَأَحْمَدُ (٢/٢٦٠، ٣١٦، ٣٩٣، ٣٩٥، ٤٥٧، ٤٦٩)، وَالدَّارِمِيُّ (١/٣٧٩) فِي الزَّكَاةِ، بَابُ الْمَسْكِينِ الَّذِي يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَأَبُو يَعْلَى (٦٣٣٧)، وَالْحَمِيدِيُّ (١٠٥٩)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٧/١١) مِنْ طَرُقِ عَنْهُ.

وَأَمَّا حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ فَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١/٣٨٤، ٤٤٦)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيقَةِ (٧/١٠٨)، وَأَبُو يَعْلَى (٥١١٨) عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُسْلِمٍ الْهَجَرِيُّ عَنْ أَبِي الْأَحْوَسِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا، بِهِ.
قَالَ الْهَيْثَمِيُّ (٣/٩٥): رَوَاهُ أَحْمَدُ وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

﴿وَأَبْنِ السَّيْلَ﴾.

قيل^(١): هو الضيف ينزل بالمسلمين.

وقيل^(٢): هو المنقطع - حاج أو غاز - وقيل: هو المجتاز وهو واحد.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾.

قيل^(٣): هم المكاتبون.

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ ، ظاهر.

﴿وَالْمُؤْتَىٰ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾

يحتمل: العهود التي بينهم وبين الناس.

ويحتمل: العهود التي فيما بينهم وبين ربهم. وقد ذكرنا العهد من الله تعالى - ما

هو؟ - فيما مضى.

وفى حرف ابن مسعود، رضى الله عنه، (والموفين)^(٤) على النسق على الأول.

قيل: إذا عاهدت عهدًا بلسانك تفى به بعملك وفعلك.

ثم ليس فى القرآن آية أجمع لشرائط الإيمان من هذه، وكذلك روى عن رسول الله ﷺ، أنه سئل عن الإيمان، فقرأ هذه الآية^(٥).

وهكذا روى عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، أنه سئل عن الإيمان، فتلا هذه

الآية.

وقوله: ﴿وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾.

قيل: فى الآية تقديم وتأخير: «السائلين وفى الرقاب والصابرين». وعلى هذا يخرج

حرف ابن مسعود - رضى الله تعالى عنه: «والموفين بعهدهم».

وقوله: ﴿الْبَأْسَاءِ﴾.

من البأس، وهو الفقر.

﴿وَالضَّرَّاءِ﴾.

(١) قاله ابن عباس، أخرجه ابن أبى حاتم عنه كما فى الدر المنثور (٣١٣/١)، وقاله قتادة، أخرجه ابن جرير عنه (٢٥٤١).

(٢) قاله مجاهد وقتادة، أخرجه ابن جرير عنهما (٢٥٤٣، ٢٥٤٤)، وانظر تفسير البغوى (١٤٣/١).

(٣) قاله ابن جرير (١٠٣/١)، والبغوى (١٤٣/١).

(٤) ينظر: المحرر الوجيز (٢٤٤/١)، والبحر المحيط (٩/٢)، والدر المصون (٤٤٩/١).

(٥) أخرجه إسحاق بن راهويه فى مسنده وعبد بن حميد وابن مردويه عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبى ذر، وأخرجه ابن أبى حاتم من طريق آخر عنه كما فى الدر المنثور (٣١٠/١).

قيل^(١): هو المرض والسقم.
﴿وَحِينَ الْبَاسِ﴾.

قيل^(٢): عند القتال.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾.

فى إيمانهم، أنهم مؤمنون، وصبروا على طاعة ربهم.
وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

وقيل^(٣): الذين صدقوا فى إيمانهم وأولئك هم المتقون. روى عن عمرو بن شرحبيل^(٤)، أنه قال: «من عمل بهذه الآية فهو مستكمل الإيمان». قال الفقيه أبو منصور: تمام كل شىء باجتماع ما يزينه. ألا ترى أن المصلى إذا اقتصر على فرائضها لم يتم له؟! **قوله تعالى:** وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَابْتِغَاءً بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءً إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَعْنَدَىٰ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

قيل^(٥): نزلت الآية فى جيشين من العرب، كان وقع بينهما حرب وقتال، وكان لإحداهما فضل وشرف على الأخرى. فأرادوا بالعبد منهم الحر من أولئك، وبالأُنثى منهم الذكر. فأنزل الله تعالى: ﴿الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾. وهى منسوخة؛ لأن فيها قتل غير القتال. نسخها قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].
قيل: لا تسرف ولا تقتل غير قاتل وليك.

-
- (١) قاله ابن مسعود، أخرجه ابن جرير عنه (٢٥٤٧، ٢٥٤٨، ٢٥٤٩)، وعن قتادة (٢٥٥٠)، والربيع (٢٥٥١)، وغيرهم. وانظر الدر المنثور (٣١٥/١).
(٢) قاله ابن مسعود، أخرجه ابن جرير عنه (٢٥٥٦، ٢٥٥٧)، وعن مجاهد (٢٥٥٨)، وقاتدة (٢٥٥٩)، وغيرهم. وانظر الدر المنثور (٣١٥/١).
(٣) قاله الربيع بنحوه، أخرجه ابن جرير عنه (٢٥٦٤)، وانظر الدر المنثور (٣١٥/١).
(٤) عمرو بن شرحبيل الهمداني أبو ميسرة الكوفى أحد الفضلاء روى عن عمر وعلى وعنه أبو وائل والقاسم بن مخيمرة مات قديما. ينظر: الخلاصة (٢/٢٨٧) (٥٣١٣).
(٥) قاله الشعبي، أخرجه ابن جرير عنه (٢٥٦٦، ٢٥٦٩)، وعن قتادة (٢٥٦٧، ٢٥٦٨)، وانظر الدر المنثور (٣١٦/١).

وقيل: لا تسرف، أى: لا تمثل فى القتل.

وقيل: لا تسرف فى القتل، أى: لا تقتل أنت إذ هو منصور.

ثبت بهذا نسخها؛ إذ لم يؤذن بقتل غير القاتل.

وقوله أيضًا: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، ولا يحتمل نفس

غير القاتل يقتل بنفس. دليله قوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]،

ولا يتصدق على غير القاتل. ثبت أنها منسوخة^(١) بما ذكرنا.

وفى الثانى: قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُوايَ الْأَلْبَبِ﴾ [البقرة: ١٧٩]،

لما إذا هم بقتل آخر يذكر^(٢) قتل نفسه، فيرتدع عن قتله، فيحيا به النفسان جميعًا، فلو لزم

قتل غير القاتل لم يكن فيه حياة، إذ لا يخشى تلف نفسه.

ثم هذا يدل على وجوب القصاص بين الحر والعبد، وبين الكافر والمسلم، إذ لو لم

يجعل بينهما قصاص لم يرتدع أحد عن قتلهم، إذ لا يخشى تلف نفسه بهم. فدل أنهم

يقتلون بهم. والله أعلم.

هذا فيما يجعل الآية ابتداء، لا فى الحيين، اللذين ذكروا به.

ثم يقال: ليس فى ذكر شكل بشكل تخصيص الحكم فيه وجعله شرطًا ونفيه فى غير

شكله. دليله ما روى عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «خذوا عنى خذوا عنى، قد جعل الله

لهن سبيلًا، البكر بالبكر جلد مائة وتعريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم

بالحجارة»^(٣). ثم إذا زنى البكر بالثيب وجب ذلك الحكم، فدل أن ليس فى ذكر شكل

بشكل تخصيص فى الحكم، [ولكن فيه إيجاب الحكم]^(٤) فى كل شكل إذا ارتكب ذلك

وهو أن يقتل الحر إذا قتل آخر. والحرية لا تمنع الاقتصاص لفضله. وكذلك العبد إذا قتل

آخر يقتل به، والرق لا يمنع ذلك للذل الذى فيه.

وكذلك الأثنى تقتل إذا قتلت أخرى، ولا يمنع ما فيها من الضعف فى وجوب

القصاص. وبالله التوفيق.

(١) فى ط: أنفا منسوخها.

(٢) فى ب: تفكر.

(٣) أخرجه مسلم (١٣١٦/٣) كتاب الحدود، باب: حد الزنى، حديث (١٦٩٠/١٢)، وأبو داود (٤/

٥٦٩ - ٥٧٠) كتاب الحدود، باب: فى الرجم، حديث (٤٤١٥)، والترمذى (٤١/٤) كتاب

الحدود، باب: الرجم على الثيب، حديث (١٤٣٤)، والدارمى (١٨١/٢) كتاب الحدود، باب:

فى تفسير قول الله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، وأحمد (٣١٣/٥)، وأبو داود الطيالسى (٢٩٨/١ - منحة) رقم (١٥١٤).

(٤) سقط فى أ.

وله وجه آخر: وهو أنه قال: ﴿وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾. ومن الإناث إماء، وقد أمر بالاقتصاص بينهن، فلئن وجب تخصيص ما ذكر خاصًا، وجب أن يذكر عامًا ما ذكر فيه العموم.

فإن قيل: على عموم الاسم في أحدهما، وخصوص القول في الآخر. قيل: ليس هكذا. لو كان في ذكر الوفاق في الاسم منع الحق عن ذلك الوجه المذكور إذ ذكر في الخلاف لم يدخل فيما ذكر في الوفاق ما ليس منه. فإذا دخل علم أن ذكر الوفاق في الخلاف في حق إدخال ما ليس من شكله بمحل واحد.

ثم يقال: إن نفس العبد للعبد في حق الجناية، لا للمولى. إنما للمولى في نفسه الملك والمالية، ألا ترى أن العبد لو أقر على نفسه بالقصاص أخذ به، ولو أقر عليه مولاه لم يؤخذ به. فدل أن نفسه له، لا للمولى. فكان كنفس الحر للحر. فيجب أن يقتل الحر به، إذ هو ساوى الحر في حق النفس، فيجب أن يسوى بينهما في حق القصاص.

وقال بعض الناس: لا يقتل الحر بالعبد؛ لأنه أفضل منه. ثم هو يقول: إنه يقتل الذكر بالأنثى. وهو أفضل. وقال: إن القصاص إنما ذكر في المؤمنين. ثم قال بالعموم، وألزم قتل الكافر بالمؤمن، ولم يذكر في القصاص الكافر، وترك القصاص للكافر من المؤمن على عموم إيجاب القصاص على المؤمنين. فإذا جاز ترك القصاص، على ما ذكر فيه، وإدخال من لم يذكر في حق الاقتصاص، ما يجب إنكار مثله في الذي ذكر عقيب ذكر الحق؛ وهم بأجمعهم تحت الإيجاب المذكورين. ثم الإناث بالإناث مع اختلاف الأحوال يلزم القصاص، كيف لا يلزم مثله في الأحرار؟

والأصل في هذا: ألا يعتبر في الأنفس المساواة. ألا ترى أن الأنفس تقتل بنفس واحدة. هكذا روى عن عمر، رضى الله تعالى عنه، «أنه قتل رجلاً بامرأة». وروى أنه قتل سبعة نفر بامرأة، وقال: لو تمالأ عليها أهل صنعاء لقتلتهم^(١). وقال: وروى عن رسول الله ﷺ، أنه قال: لا يقتل مسلم بكافر^(٢).

ثم قال صاحب هذا القول: لو أن كافرًا قتل كافرًا ثم أسلم القاتل يقتل به. فهو قتل

(١) أخرجه مالك (٨٧١/٢)، ومن طريقه الشافعي (٣٣٣ - ترتيب المسند)، وعنه البيهقي (٤٠/٨) - (٤١)، وصححه العلامة الألباني في الإرواء (٢٢٠١).

(٢) طرف من حديث على، أخرجه البخاري (٢٧٥/١)، كتاب العلم باب كتابة العلم (١١١)، وأحمد (٧٩/١)، والترمذي (٨٠/٣) كتاب الديات باب ما جاء: لا يقتل مسلم بكافر (١٤١٢)، وابن ماجه (٢٤١/٤ - ٢٤٢)، كتاب باب لا يقتل مؤمن بكافر (٢٦٥٨)، والنسائي (٢٣/٨)، كتاب القسامة باب سقوط القود من المسلم للكافر.

مسلمًا تقيًا بڑا بكافر، إذ الإسلام يطهره. ولم يقتل مسلمًا فاسقًا ارتكب الكبيرة بالكافر، إذ القتل يفسقه.

والمسلم أحق أن يقتل بالكافر من الكافر بالمسلم. وذلك أن المسلم هتك حرمة الإسلام بقتل الكافر؛ لأنه اعتقد باعتقاد دين الإسلام حرمة دم الذمي، وهو بقتله كمستخف بمذهبه.

وأما الذمي فإنه لا يعتقد باعتقاد مذهبه حرمة دماء أهل الإسلام، فهو ليس بقتل المسلم كمستخف بمذهبه، والمسلم كمستخف بدينه^(١)، على ما ذكرنا. لذلك كان أحق بالقصاص من الكافر.

ألا ترى أن من قتل في الحرم قتل به؛ لأنه هتك حرمة الحرم كالمستخف به. وإذا قتل خارجًا منه، ثم التجأ إليه، لم يقتل به حتى يخرج منه؛ لأنه ليس كمستخف له، والأول مستخف؛ لذلك افترقا. فكذا الأول. والله أعلم. والخبر عندنا يحتمل وجهين:

أحدهما: قيل: إن قومًا قتل بعضهم بعضًا في الجاهلية، فأسلم بعضهم، فأراد أولئك أن يأخذوا من أسلم منهم بالقصاص، فقال رسول الله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر»، كما قال: «كل دم كان في الجاهلية فهو موضوع تحت قدمي هذا»^(٢).

والثاني: أنه أراد بالكافر المستأمن؛ لأنه قال: «لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده». فنسق قوله: «ذو عهد» على المسلم، فكان معناه: لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد به. فكل كافر لا يقتل به ذو عهد في عهده لم يقتل به المسلم. فالذمي يقتل به ذو العهد، لذلك يقتل به المسلم. والمسلم إذا قتل مستأمنًا لم يقتل به. وكذلك الذمي. فدل

(١) في ب: بمذهبه.

(٢) أخرجه أبو داود (٧١١/٤) كتاب: الديات، باب: في دية الخطأ شبه العمد، حديث (٤٥٨٨)، وابن ماجه (٨٧٧/٢) كتاب: الديات، باب: دية شبه العمد، حديث (٢٦٢٧)، والنسائي (٤١/٨) كتاب: القسامة، باب: دية شبه العمد، وابن الجارود في المنتقى رقم (٧٧٣). والبخارى في التاريخ الكبير (٤٣٤/٦)، والدارقطني (١٠٤/٣) كتاب: الحدود والديات وغيره، حديث (٧٨)، وابن حبان (١٥٢٦ - موارد)، والبيهقي (٤٤/٨) كتاب: الجنایات، باب: دية شبه العمد، كلهم من طريق خالد الحذاء عن القاسم بن ربيعة عن عقبة بن أوس عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية تعد وتدعى من دم أو مال تحت قدمي إلا ما كان من سقاية الحاج وسدانة البيت»، ثم قال: «ألا إن دية الخطأ ما كان بالسوط أو العصا مائة من الإبل، منها أربعون في بطونها أولادها»، صححه ابن حبان.

قلت: وأصله في صحيح مسلم (١٢١٨/١٤٧) عن جابر بن عبد الله في سياق طويل.

بما ذكرنا أنه أراد بالكافر المستأمن، لا الذمى. والله أعلم.

وقوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبَيْعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾.

اختلف فى تأويله:

قال بعضهم: هو القاتل. إذا عفى له: معناه: عنه. فيتبع الولي بأخذ الدية بالمعروف،

شاء القاتل أو أبى.

احتج بما روى عن رسول الله ﷺ فى رجل اختصم إليه فى قاتل أخيه، فقال: أتغفو

عنه؟ قال: لا. قال: أتأخذ الدية؟ قال: لا. قال: أتقتله؟ قال: نعم^(١).

عرض عليه الدية، ولو كان غير حقه لم يعرض عليه.

وقال فى بعض الأخبار: «ولى القتل بين خيرتين: بين قتل وأخذ دية».

وأما عندنا: تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ ليس هو القاتل؛ لأنه يكون

معفوا عنه؛ ولأنه لا يتبع أحدًا وهو المتبع، بل هو الولي؛ لأنه هو المعفو له، لا القاتل،

حيث أمر بالاتباع بالمعروف؛ كأنه قال: من بذل له وأعطى من أخيه شىء فاتباع

بالمعروف؛ وذلك جائز فى اللغة؛ العفو بمعنى البذل والإعطاء، على ما قيل: خذ ما آتاك

عفوًا صفوًا، أى فضلاً. وكذلك روى عن عبد الله بن عباس، رضى الله عنه، أنه قال:

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ﴾، أى: أعطى له^(٢). والحق عندنا: هو القود، لا غير، على ما جاء عن

رسول الله - ﷺ - أنه قال: «العمد قود إلا أن يعفو ولى المقتول»^(٣)، وقد روى فى بعض

الأخبار: «إلا أن تفادى»^(٤). والمفاداة: هو فعل اثنين، فلا يأخذه إلا عن تراض

(١) طرف من حديث وائل بن حجر، أخرجه مسلم (٣/١٣٠٧ - ١٣٠٨) كتاب القسامة، باب صحة

الإقرار بالقتل (٣٢/١٦٨٠)، والدارمى (٢/١٩١)، كتاب الديات، باب لمن يعفو عن قاتله، وأبو

داود (٤/١٦٩ - ١٧٠) كتاب الديات باب الإمام يأمر بالعفو عن الدم (٤٤٩٩، ٤٥٠٠، ٤٥٠١)،

والنسائى (٨/١٣)، كتاب القسامة باب القود.

(٢) أخرجه ابن جرير بنحوه (٢٥٨٠، ٢٥٨١، ٢٥٨٢، ٢٥٨٣).

(٣) أخرجه ابن أبى شيبه وإسحاق بن راهويه فى مسنديهما، والدارقطنى (٣/٩٤)، والطبرانى فى معجمه

عن ابن عباس كما فى نصب الراية للزيعلى (٤/٣٢٧)، واللفظ لابن أبى شيبه، وزاد إسحاق:

«والخطأ عقل لا قود فيه وشبه العمدة قتل العصا والحجر ورمى السهم فيه الدية مغلظة من أسنان

الإبل».

وللحديث طريق آخر أخرجه أبو داود (٤/١٨٣) كتاب الديات باب من قتل فى عمياء بين قوم

(٤٥٣٩، ٤٥٩١)، والنسائى (٨/٣٩)، كتاب القسامة، باب من قتل بحجر أو سوط، وابن ماجه

(٤/٢٢٦) كتاب الديات، باب من حال بين ولى المقتول وبين القود والدية (٢٦٣٥)، والبيهقى (٨/

٢٥، ٥٣).

(٤) طرف من حديث أبى هريرة.

أخرجه: البخارى (١/٢٧٧ - ٢٧٨)، كتاب العلم، باب كتابة العلم (١١٢)، ومسلم (٢/ =

واصطلاح منهما جميعاً.

وفى الآية دلالة: أن الحق: هو القصاص، لا غير، بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ أخبر أن المكتوب عليه والمحكوم القصاص، فلو كان الخيار بين القصاص والعفو وأخذ الدية - شاء أو أبى - لكن لا يكون مكتوباً عليه القصاص، ويذهب فائدة قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ إنما كان يكون عليه أحدهما، كما لا يقال فى الكفارة: بأن المكتوب عليه العتق، بل أحد الثلاثة. فلما قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ دل أن أخذ الدية كان كالخلف عنه.

وما روى عنه عليه السلام حيث قال لولى القتل: «أتعفو عنه؟» قال: «لا». فقال: «أتأخذ الدية؟» قال: «لا»^(١). إنما عرض عليه الدية، لما علم أن القاتل يرضى بذلك، على ما روى أن امرأة جاءت إلى رسول الله عليه السلام فأخبرته بغض زوجها. فقال لها: «أتردين عليه حديقته؟» قالت: نعم، وزيادة. فقال النبي عليه السلام: «أما الزيادة فلا»^(٢) وإنما قال لها ذلك لما علم رسول الله عليه السلام أنه يرضى بطلاقها إذا ردت عليه حديقته؛ فعلى ذلك الأول.

ولو كانت لفظة «العفو» تعبر عن إلزام الدية ما أحوجه إلى ذكر الإشارة إلى العفو مرة، وإلى أخذ الدية ثانياً؛ فثبت أن ليس للذى يعفو أن يأخذ الدية بالعفو.

وقيل فى قوله: ﴿فَمَنْ عَفَى لِمَنْ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَلْيَبِيعْ بِالْمَعْرُوفِ﴾: أصلها أنها نزلت فى دم بين نفر يعفو أحدهم عن القاتل، ويتبع الآخرون بالمعروف فى نصيبهم؛ لأنه ذكر «الشىء»، والشىء: هو العفو عن بعض الحق. فألزم الاتباع للآخرين عند عفو بعض حقه؛ ثبت أن العفو لا يلزم الدية.

وروى عن عمر^(٣) وعبد الله بن مسعود^(٤) وعبد الله بن عباس، رضى الله تعالى عنهم، أنهم أوجبوا فى بعض عفو الأولياء، للذين لم يعفوا - الدية، على ترك السؤال عمن عفا عنك عفوت بدية، ولو كان ثم حق ذكره له؛ فدل أن العفو لا يوجب الدية.

= (٩٨٨) كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها (١٣٥٥/٤٤٧).
(١) تقدم.

(٢) أخرجه البخارى (٣٩٥/٩) كتاب: الطلاق، باب: الخلع، حديث (٥٢٧٣)، والنسائى (١٦٩/٦) كتاب: الطلاق، باب: ما جاء فى الخلع، وابن ماجه (٦٦٣/١) كتاب: الطلاق، باب: المختلعة تأخذ ما أعطاها، حديث (٢٠٥٦)، والدارقطنى (٤٦/٤) كتاب: الطلاق والخلع والإيلاء (١٣٥)، والبيهقى (٣١٣/٧)، والبغوى فى شرح السنة (١٤١/٥ - ١٤٢) من طريق عكرمة عن ابن عباس به.

(٣) انظر السنن الكبرى للبيهقى (٥٩/٨ - ٦٠).

(٤) ينظر: التخرىج السابق.

والله أعلم.

ثم لا يخلو إما أن يكون حقه القصاص ثم له تركه بالدية؛ فهو إلزام بدل حق قَبْلَ^(١) آخر من غير رضاه، وذلك مما لم يعقل فى شيء، أو كلاهما، فهو أيضًا كذلك، لا يكون أحدهما إلا باجماعهما، أو أحدهما وهو مجهول؛ فالعفو عنه يبطل حقه، إذ العفو ترك. وقال: إن فى أخذ الدية إحياء النفس التى أمر الله بإحيائها، وفى الامتناع عن أداء الدية إليه والبذل له إذن بالقتل.

ومن قول الجميع: إن أحدا لو قال لآخر: اقتلنى، أنه لا يعمل بإذنه. فإذا كان معنى الامتناع عن أداء الدية هو إذن بالقتل، لم يأذن له.

يقال له: أبعدت القياس والتشبيه؛ لأن فيما نحن فيه إذنًا بالقتل، وظهر الأمر به، وفيما ذكرت لم يظهر، حيث قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ﴾، فأنى يشبه هذا بذلك ويقاس عليه؟ أو أن يقال: لو كان الأمر كما ذكرت لكان يجىء أن يكون الصلح على كل شيء ماله، وفيه تلف نفسه أن ليس له منعه.

ومن قول الجميع: إن له المنع وجائز وقوع الصلح على ما فيه تلف ماله. ثبت أن ما يقوم له وهم.

وبعد، فإن الذى ذكرت تدبير الحق عليه أن يفعل، لا تدبير الإلزام. ولو كان ذلك لازماً، لكان يقتله ببذله نفسه فيغرم فاعل ذلك؛ وهذا كما يغنى الرجل بشراء ما به قوام نفسه عند الضرورة إلا أن يلزم لو أبى ذلك، فمثله ديته، بمعنى أن فى ذلك تلف نفس تلك قيمته، فمثله الأول.

وما روى فى التخيير بين أخذ الدية، وما ذكر فهو - والله أعلم - على بيان الحل والرخصة على ما قيل: إن من حكم التوراة القتل، ولا يجوز لهم العفو ولا أخذ الدية، ومن حكم أهل الإنجيل العفو، لا يقتل بالقصاص، ولا تؤخذ الدية، فحكم الله عز وجل على أهل القرآن: أن جعل لهم القتل مرة، والعفو ثانياً، وأخذ الدية تارة؛ فدل أنه يخرج مخرج بيان الحل والرخصة. إذا طابت به نفس من عليه ذلك ببذله إذا طلب، ولا يوجب قطع الخيار من الآخر. ولهذا ما نقول فى قوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن مِّمَّائِ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقوله فى التخيير فى الكفارة: إن ذلك إلى من عليه، لا إلى من يأخذ. إذ الحق هاهنا من جانب واحد. فيجعل الخيار إلى من عليه إذا كان من كلا الجانبين يعتبر

رضاءهما جميعاً، والله أعلم.

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

لما ذكر من إباحة العفو في حكم القرآن، ولم يكن في حكم غيره من الكتب، وأخذ الدية أو القتل، ولم يكن في حكم التوراة والإنجيل إلا واحد. ويحتمل: أن كان في التوراة هذا أو هذا كما قال: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَّهُ﴾. واحتمل أنه ذكر القود شرعاً لنا، وقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾، لنا خاصة. وقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾.

فيه دلالة ألا يقطع صاحب الكبيرة عن رحمة الله؛ لأنه أخبر أن التخفيف رحمته في الدنيا، فإذا لم يوفهم^(١) في الدنيا من رحمته فلا يوفهم في الآخرة منها. وفي قوله: ﴿فَمَن عَفَى لَّهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾، دلالة ألا يزول اسم الإيمان بارتكاب الكبيرة؛ لأنه سماه أخاً من غير أخوة نسب؛ دل أنه أخوة في الدين [لأنه سماه أخاً]^(٢). وكذلك قوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ [الحجرات: ٩] أبقى لهم اسم الإيمان بعد البغي والقتل. دل أن ارتكاب الكبيرة لا يخرجهم من الإيمان.

وهذا يرد على المعتزلة قولهم؛ لأنهم يقولون: إن من ارتكب كبيرة أخرجته من الإيمان، وما ذكر من التخليد في قتل العمد يخرج على وجهين: أحدهما لاستحلال قتله، أو يتعمد ديته^(٣)، وإلا فيخرج الآيتان على التناقض في الظاهر لو لم يجعل على ما ذكرنا. والله أعلم.

وقوله: ﴿فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قيل: من اعتدى على القاتل بعد ما عفى عنه، أو بعد ما أخذ الدية.

وقيل: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾، أى: من بعد النهى عن قتله.

وقيل^(٤): إذا أرى من نفسه العفو، ثم أخذ الدية، ثم أراد قتله، فهو الاعتداء. ثم

اختلف بعد هذا بوجهين:

قال قوم: إذا فعل ذلك يترك القصاص فيه للعذاب المذكور في الآخرة: [وقال

(١) فى أ، ط: يواسيهم.

(٢) سقط فى أ، ط.

(٣) فى أ: بتعمد ديته.

(٤) قاله قتادة بنحوه، أخرجه ابن جرير (٢٦١٠، ٢٦١١)، وابن المنذر كما فى الدر المنثور (٣١٧/١).

غيرهم^(١) إذا اقتصر ارتفع عنه العذاب الأليم، وإن لم يقتص فلا. وجائز عندنا: أن يكون العذاب الأليم في الدنيا، إذ لم يخلق شيء من العذاب أشد من القتل؛ إذ القتل هو الغاية من الألم والوجع. والله أعلم. وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُوايَ الْأَلْبَبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. قيل: فيه بوجهين، وإلا فظاهر القصاص لا يكون حياة، لكن قيل^(٢): من تفكره في نفسه قتلها إذا قتل آخر ارتدع عن قتله، فتحيا النفسان جميعاً.

والثاني: من نظر فرأى آخر يقتل بغيره امتنع عن قتل [آخر ففيه حياته أو تذكر أنه مقتص منه إذا قتل حمله حبه في إحياء نفسه على أن يرتدع عن قتل]^(٣) كل، ففيه الحياة للأنفس جميعاً؛ ولهذا نقول بوجوب القصاص في الأنفس كلها وإن اختلفت أحوالها، إذ لو لم يجعل بين الأنفس على اختلاف الأحوال قصاص لم يكن في القصاص حياة. فأحق من يجعل فيه القصاص عند مختلف الأحوال لما يغضب الشريف على الوضيع فيحمله غضبه على قتله، فجعل القصاص، أو لما يستخف به.

وأما الوارث لما يطمع وصوله إلى مورثه فيحمله على قتله، فسبب القتل ليس ما يذكر، لكنه شدة الغضب^(٤)، وفي الموارث زيادة، وهو ما يصل إلى ماله، وفي الكافر من استخفافه بدينه^(٥) من المقتول، فطلب فيه المعنى الذي فيه الإحياء وهو حرمان الميراث؛ فعلى هذا التقدير يقتل المسلم بالكافر؛ لأن المسلم قد يستخف بالكافر في دار سلمه، فيحمله استخفافه إياه على قتله. ففيه معنى يدعو إلى الفناء، فيجب أن يقتص من المسلم بالكافر لتحقيق معنى الحياة. وعلى هذا التقدير يقتل الحر بالعبد؛ لأن الحر يستخف بالعبد، فيدعوه استخفافه به على قتله، فهو يقتل به.

أو نقول: يقتل الولد بالوالد لما يستعجل الوصول إلى ملكه، فيحمله على قتله؛ فلزم حفظ ما لأجله الحياة، ثم في الوالد شفقة ومحبة تمنع الوالد عن قتل ولده؛ لذلك انتهى عنه القصاص، وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يقاد الوالد بولده»^(٦). وبالله التوفيق.

(١) سقط في ط.

(٢) قاله قتادة بنحوه، أخرجه ابن جرير (٢٦٢٧، ٢٦٢٨)، وعبد الرزاق وعبد بن حميد كما في الدر المنثور (٣١٨/١).

(٣) ما بين المعقوفين سقط في أ، ط.

(٤) زاد في ب: إلى.

(٥) في أ: بذنبه.

(٦) أخرجه: الترمذی (١٩/٤) كتاب: الديات، باب: الرجل يقتل ابنه هل يقاد منه أم لا؟ حديث =

(١٤٠١)، وابن ماجه (٨٨٨/٢) كتاب: الديات، باب: لا يقتل الوالد بولده، حديث (٢٦٦١)، والدارمي (١٩٠/٢) كتاب: الديات، باب: القود بين الوالد والولد، والدارقطني (١٤٢/٣) كتاب: الحدود والديات، حديث (١٨٥)، والبيهقي (٣٩/٨) كتاب: الجنائيات، باب: الرجل يقتل ابنه، والسهمي في تاريخ جرجان (ص ٤٢٩ - ٤٣٠)، وأبو نعيم في الحلية (١٨/٤) كلهم من طريق إسماعيل بن مسلم عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «لا تقام الحدود في المسجد ولا يقاد بالولد الوالد». وقال الترمذي: لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث إسماعيل بن مسلم وإسماعيل تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه. ا هـ.

وقال أبو نعيم: غريب من حديث طاوس تفرد به إسماعيل عن عمرو. ا هـ.
قلت: لكنه لم يتفرد برفع هذا الحديث فقد توبع على رفعه.

تابعه سعيد بن بشير:

أخرجه الحاكم (٣٦٩/٤) من طريق أبي الجماهير محمد بن عثمان، ثنا سعيد بن بشير، ثنا عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ: «لا يقاد والد من ولده، ولا تقام الحدود في المساجد».

تابعه عبيد الله بن الحسن:

أخرجه الدارقطني (١٤٢/٣) كتاب: الحدود والديات، حديث (١٨٤)، والبيهقي (٣٩/٨) كتاب: الجنائيات، باب: الرجل يقتل ابنه، من طريق عقبة بن مكرم، ثنا أبو حفص التمار، ثنا عبيد الله بن الحسن العنبري عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس به.
وتابعه قتادة أيضاً:

أخرجه البزار كما في نصب الراية (٣٤٠/٤) عن قتادة عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس به.

ولأول الحديث شاهد من حديث جبير بن مطعم:

أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده كما في المطالب العالية (١٠٠/١) رقم (٣٦٠)، وعزاه الحافظ هناك للحارث.

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٨/٢)، وقال: رواه الطبراني في الكبير، وفيه الواقدي وهو ضعيف. ا هـ.

والحديث في المعجم الكبير (١٣٩/٢ - ١٤٠) رقم (١٥٩٠).

وفي الباب عن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو، وسراقة بن مالك.

حديث عمر بن الخطاب:

أخرجه ابن الجارود في المتتقى حديث (٧٨٨)، والدارقطني (١٤٠/٣ - ١٤١) كتاب: الحدود والديات، حديث (١٨٦)، والبيهقي (٣٨/٨) كتاب: الجنائيات، باب: الرجل يقتل ابنه، كلهم من طريق محمد بن عجلان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال: كانت لرجل من بني مدلج جارية فأصاب منها ابناً فكان يستخدمها، فلما شب الغلام دعا بها يوماً فقال: اصنعى كذا وكذا، فقال الغلام: لا تأتيك حتى متى تستأمر أمي؟ قال: فغضب أبوه فحذفه بسيفه فأصاب رجله أو غيرها فقطعها، فنزف الغلام، فمات فانطلق في رهط من قومه إلى عمر فقال: يا عدو نفسه أنت الذي قتلت ابنك؟ لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يقاد الأب بابنه» لقتلتك هلم ديتي، قال: فأثاه بعشرين أو ثلاثين ومائة بعير، قال: فتخير منها مائة فدفعها إلى ورثته وترك أباه.

قال البيهقي: وهذا إسناد صحيح.

وقال الحافظ في تلخيص الحبير (١٦/٤): «وصحح البيهقي سنده؛ لأن رواته ثقات».

قال الشيخ - رضى الله تعالى عنه - : الوالد يحب ولده؛ لأنه يرغب أن يكون له ولد. وأما الولد فإنما يحب والده له لنفسه ومنافع له. فإذا كان الولد له لم يقتص منه.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨١) **فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** (١٨٢) **فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**. وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ

وله طريق آخر:

أخرجه الترمذى (١٨/٤) كتاب: الديات، باب: الرجل يقتل ابنه، حديث (١٤٠)، وابن ماجه (٨٨٨/٢) كتاب: الديات، باب: لا يقتل الوالد بالولد، حديث (٢٦٦٢)، وأحمد (٤٩/١)، وابن أبى عاصم فى الديات (ص ٩٧)، وعبد بن حميد فى المنتخب من المسند (ص ٤٤) رقم (٤١)، والدارقطنى (١٤٠/٣) كتاب: الحدود والديات، كلهم من طريق الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يقاد الوالد بالولد».

قال الزيلعى فى نصب الراية (٣٣٩/٤): قال صاحب التنقيح: قال يحيى بن معين فى الحجاج: صدوق، ليس بالقوى، يدلّس عن محمد بن عبيد الله العزمرى عن عمرو بن شعيب. وقال ابن المبارك: كان الحجاج يدلّس، فيحدثنا بالحديث عن عمرو بن شعيب مما يحدثه العزمرى. اهـ.

لكن تابعه ابن لهيعة:

أخرجه أحمد (٢٢/١) من طريق ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال أبو حاتم الرازى: لم يسمع ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب شيئاً، انظر المراسيل لابن أبى حاتم (١١٤). حديث عبد الله بن عمرو:

تقدم من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

حديث سراقه بن مالك:

أخرجه الترمذى (١٨/٤) كتاب: الديات، باب: الرجل يقتل ابنه، حديث (١٣٩٩)، والدارقطنى (١٤٢/٣) كتاب: الحدود والديات، حديث (١٨٣) من طريق إسماعيل بن عياش عن المثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن سراقه بن مالك بن جشعم قال: «حضرت رسول الله ﷺ يقيد الأب من ابنه ولا يقيد الابن من أبيه».

قال الترمذى: حديث فيه اضطراب وليس إسناده بصحيح، والمثنى بن الصباح يضعف فى الحديث.

وقال الدارقطنى: والمثنى وابن عياش ضعيفان.

وقال الترمذى فى العلل الكبير (ص ٢٢٠): سألت محمداً - البخارى - عن هذا الحديث، فقال: هو حديث إسماعيل بن عياش وحديثه عن أهل العراق وأهل الحجاز كأنه شبه لا شيء، ولا يعرف له أصل. اهـ.

قال الزيلعى فى نصب الراية (٣٤٠/٤): قال فى التنقيح: حديث سراقه فى المثنى بن الصباح، وفى لفظه اختلاف. اهـ.

والحديث صححه الألبانى فى الإرواء (٢٦٩/٧) بمجموع طرقه.

بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ .

تكلموا فيه بأوجه :

قيل ^(١) : إنه منسوخ بما بين عز وجل فى آية أخرى من حق الميراث .

ومنهم من قال : لم ينسخ .

ثم قيل : فيه بوجهين :

قيل : إنه قد كان ذلك ؛ لأن الناس كانوا حديثى عهد فى الإسلام ، يسلم الرجل ولا يسلم أبواه . فقوله : ﴿ كُتِبَ ﴾ إنما وقع على من كان لا يرث .

ومنهم من يقول : بأنها كانت للوارث ولم ينسخ ، وإنما يقع الأمر فى غير من يرث ممن ذكر . لكن فى ذلك ذكر (كتب) ، وذلك إيجاب .

ولا يَحْتَمِلُ أن يفرض عليهم صلتهم مع التحذير عن اتخاذهم أولياء بقوله : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴾ [التوبة : ٢٢٣] ، وقوله : ﴿ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢٢] ، وفى إلزام الفرضية من حيث المعروف إبقاء الموالاة وإلزام المحبة ، وقد حذر وجود ذلك ؛ فثبت أن الآية فيمن يتوارثون اليوم لكنها نسخت . والله أعلم .

ومنهم من يقول : لا ، ولكنه وقع على من كان يرث وعلى من كان لا يرث بقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ ﴾ ، فهو كان مكتوباً عليهم مفروضاً فى حق الوصاية .

ثم من رأى نسخه استدل بقوله : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ [النساء : ١١] ، ذكر فيه الوصاية على بيان كل ذى حق حقه . فليس الذى أوصى الله يمنع وصايته التى كتب عليهم . لكن فى الآية دليل لم ينسخ بهذه لوجهين :

أحدهما : قوله : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ ﴾ . فهو وصيته ذكره كذكر الوصاية فى الأول ، ففيه جعل حق كالحق المجعول لهم إذا لم يذكر ذلك الوصية مع الميراث ثم نفاه .

والوجه الآخر : أنه قال : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَى بِهَا أَوْ دِينَ ﴾ [النساء : ١٢] ، فجعل حكم الإرث على ذكر الوصية ، والإرث بعد الوصية ؛ فبان أن لها حكم البقاء .

ثم قيل : فيه بوجهين :

قال قائلون : قوله : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ [النساء : ١١] ، لم يكن ميراثاً ، ولا هو

(١) قاله ابن عباس ، أخرجه ابن جرير عنه (٢٦٥٩ ، ٢٦٦٠) ، وعن ابن عمر (٢٦٦١) ، وعكرمة ، والحسن البصرى (٢٦٦٢) ، وغيرهم ، وانظر الدر المنثور (٣١٩/١) .

من أهل الميراث. فحدوث الإرث لا يمنع حق القطع عنه بالمكتوب الأول.
ومنها من جعل ذلك فيمن كان وارثاً. فورود البيان من بعد يقطع عنه المكتوب له.
ثم من الناس من ادعى نسخ هذا بقوله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرًا نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧]، ولو جعل الوصية له ما جعل الله لهم فيه من النصيب خص به الكثير دون القليل؛ فثبت أن ذلك (الكتاب) رفع عنهم مما جعل لهم الحق في الذي قل أو كثر.
ثم الوجه فيه عندنا: فهو أنه إن لم يكن نسخ بهذه الآيات، على ما قاله بعض الناس، فهو منسوخ بقوله ﷺ: «إن الله أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث». فبين أنه قد كان أعطى ذا حق حقه على رفع ما كانت لهم من الوصاية فيه.
ثم اختلفوا في الخبر الذي روى: «إن الله تبارك وتعالى قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث».

قال قائلون: فلا يجوز ورود النسخ على الآية؛ إذ السنة لا ترد على نسخ الكتاب.
وقال آخرون: لا، ولكنه من أخبار الآحاد. وأخبار الآحاد، على قولكم، لا ترد على نسخ خبر مثله، فكيف على كتاب رب العالمين؟

فأما الأول - في أن السنة لا تعمل في نسخ الكتاب - : فقد سبق القول فيه، أن الذي حملهم على هذا هو جهلهم بموقع النسخ، وإلا لو علموه ما أنكروه. وهو ما قلنا: إن النسخ بيان منتهى الحكم إلى الوقت المجعول^(١) له.

فأما من قال: بأنه من أخبار الآحاد، فإن الأصل في هذا أن يقال: إنه من حيث الرواية من الآحاد، ومن حيث علم العمل به متواتر.

ومن أصلنا: أن المتواتر بالعمل هو أرفع خبر يعمل، إذ المتواتر المتعارف قرناً بقرين مما عمل الناس به لم يعملوا به، إلا لظهوره، وظهوره يغني الناس عن روايته، لما علموا خلوه عن الخفاء.

ولهذا يقول في الخبر الذي جاء عن رسول الله ﷺ: «أنه نهى عن كل ذي ناب من السباع»^(٢)، فتد به الخبر المروي عن رسول الله ﷺ أنه من أخبار الآحاد. هو من حيث

(١) في أ، ط: المجعولة.

(٢) أخرجه مسلم (١٥٤٣/٣) كتاب: الصيد والذبائح، باب: تحريم أكل كل ذي ناب، حديث (١٦/١٩٣٤)، وأبو داود (٣٨٣/٢) كتاب: الأطعمة، باب: النهي عن أكل السباع، حديث (٣٨٠٣)، والدارمي (٨٥/٢) كتاب: الأضاحي، باب: ما لا يؤكل من السباع، وأحمد (٢٤٤/١)، ٢٨٩،

الرواية من الآحاد، ولكنه من حيث تواتر الناس للعمل به صار بحيث يوجب علم العمل .
فما لم يجز أن يجتمع الأمة على شيء علموا^(١) كله من كتاب أو سنة غير ما ورد، فيكونوا
قد اجتمعوا على تضييع كتاب أو سنة، فكذا هذا، لا يجوز أن يجتمع الناس على ترك
الوصية للوارث، وثم كتاب نسخه أو سنة أخرى يلزم العمل به؛ فلهذا قضينا بنسخه .
والله أعلم .

وقوله: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

قيل فيه بوجهين:

يحتمل: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ هذه الوصاية المكتوبة للوالدين، إن كان هذا أراد بقوله: ﴿كُتِبَ
عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٨] الآية، فإنما
إثمه عليه .

ويحتمل: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ الوصية ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ من الموصى ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ
يُبَدِّلُونَهُ﴾ .

ثم يحتمل بعد هذا وجهين:

يحتمل: أنه أراد تبديل الوصى بعد موت الموصى .

ويحتمل: تبديل من حضر الوصى ذلك الوقت من الشهود وغيره .

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أى: سميع لمقاتلته ووصايته . و ﴿عَلِيمٌ﴾ بجوره وظلمه، أو
﴿عَلِيمٌ﴾ بتبديله . والله أعلم .

وقوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ﴾ .

= (٣٠٢، ٣٧٣)، وابن الجارود (٨٩٢)، وابن حبان (٥٢٥٦ - الإحسان)، والطحاوى فى شرح
معانى الآثار (١٩٠/٤)، والبيهقى (٣١٥/٩) كتاب: الضحايا، باب: ما يحرم من جهة ما لا تأكل
العرب، وأبو نعيم فى الحلية (٩٥/٤)، والبغوى فى شرح السنة (٣٢/٦) من طريق أبى بشر -
والحكم عند بعضهم - عن ميمون بن مهران عن ابن عباس به .

وقد رواه ميمون بن مهران عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أخرجه أبو داود (٣٨٣/٢) كتاب:
الأطعمة، باب: النهى عن أكل السباع، حديث (٣٨٠٥)، والنسائى (٢٠٦/٧) كتاب: الصيد
والذبائح، باب: إباحة أكل لحوم الدجاج حديث (٤٣٤٨)، وابن ماجه (١٠٧٧/٢) كتاب:
الصيد، باب: أكل كل ذى ناب من السباع، حديث (٣٢٣٤)، والطحاوى فى شرح معانى الآثار
(١٩٠/٤)، وأحمد (٣٣٩/١)، والبيهقى (٣١٥/٩) كتاب: الضحايا، باب: ما يحرم من جهة
ما لا تأكل العرب، وابن الجارود (٨٩٣) من طريق على بن الحكم عن ميمون بن مهران عن
سعيد بن جبيرة عن ابن عباس .

(١) فى أ، ط: عملوا .

قيل: فيه بوجهين:

يحتمل: ﴿فَمَنْ حَافٌ﴾ أى: علم من الموصى ظلماً وجوراً على الورثة بالزيادة على الثلث، ﴿فَلَا إِنْهُمْ عَلَيْهِ﴾ فى تبديله ومنعه ورده إلى الثلث وقت وصاية الموصى. ويحتمل: ﴿فَمَنْ حَافٌ﴾ ، أى: علم من الموصى خطأ وجوراً بعد وفاته بالوصية، ﴿فَلَا إِنْهُمْ عَلَيْهِ﴾ فى تبديله ورده إلى ما يجوز من ذلك ويصح، وهو الواجب على الأوصياء أن يعملوا بما يجوز فى الحكم، وإن كان الموصى أوصى بخلاف ما يجيزه الحكم ويوجبه.

قال الشيخ - رحمه الله -: وكان صرف (الخوف) إلى (العلم) أولى؛ إذ هو تبديل الوصية وقد نهى عنه وأذن به للجور، فإذا لم يعلم فهو تبديل بلا عذر، وقد يخفف^(١) للخوف حق العلم إذا غلب الوجه فيه، كما أن أذن للإكراه إظهار الكفر، وذلك فى حقيقته خوف عما فى التحقيق على العلم بغلبته وجه الوفاء فى ذلك.

وقوله: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ ، يعنى بين الورثة بعد موت الموصى، ورد ما زاد على الثلث بين الورثة على قدر أنصائبهم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ، لجور الموصى وظلمه إذا بدل الوصى ذلك ورده إلى الحق.

ويحتمل: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ، لمن رد على الموصى جنفه وميله فى حال وصايته. والله أعلم.

والأصل فى أمر الوصاية للوارث، أن آيات الموارث لم تكن نزلت فى أول ما بهم حاجة إلى معرفة ذلك، فيجوز أن يكون فى الابتداء كانت الوصايا بالحق الذى اليوم هو ميراث، يبين ذلك ما روى عن رسول الله ﷺ فى ابنتى سعد^(٢)، الذى قتل بأحد، وقد كان استولى عمهما على ميراثه، فسألت أمهما عن ذلك، فقال: لم ينزل فيه شىء. ثم دعاهما، وأعطاهما ما بين

(١) فى أ: يخف.

(٢) هو: سعد بن الربيع بن عمرو بن أبى زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج.

الأنصارى الخزرجى الحارثى البدرى النقيب الشهيد الذى آخى النبى ﷺ بينه وبين عبد الرحمن ابن عوف، فعزم على أن يعطى عبد الرحمن شطر ماله، ويطلق إحدى زوجتيه، ليتزوج بها فامتنع عبد الرحمن من ذلك، ودعا له، وكان أحد النقباء ليلة العقبة.

ينظر: طبقات ابن سعد (٣/٧٧)، سير أعلام النبلاء (١/٣١٨-٣٢٠)، الجرح والتعديل (٤/

الله في كتابه في قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ...﴾^(١) الآية [النساء: ١١].

وكذلك كان للنساء الحول في تركة الأزواج وصية لهن؛ فعلى ذلك كان الأمر بالوصية، فقال الله عز وجل: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ [النساء: ١١] كالمبين بما كان قد أوجب التبين على الميت، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث»^(٢)، ومما يبين ذلك أنه معلوم أن تكون الوصية للوارث ليست تثبت فيما هي له؛ لأنه اليوم فيكون حصول الوصية بنصيب بعض الورثة على ذلك الوجه لا يجوز وصية الميت لأحد، فكذا للورثة. وهذا يبين أنها كانت في وقت لم يبين الميراث، فلا يكون الوصية لمن تثبت له وصية بنصيب غيره في التحقيق، فكان يجوز، ثم بطل ببيان السنة، إذ ليس في متلو القرآن حقيقة ذلك، وإنما يكون بحق الانتزاع منه والنسخ، ومعناه بالانتزاع أبعد عن الاحتمال منه بالسنة. ولا قوة إلا بالله.

ثم حق التواتر عندنا يقع بظهور العمل بالشئ على غير ظهور المنع منهم، والتكثير

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٥٢)، وأبو داود (٣/٣١٦) كتاب: الفرائض، باب: ميراث الصلب، حديث (٢٨٩٢)، والترمذي (٤/٤١٤) كتاب: الفرائض، باب: ميراث البنات، حديث (٢٠٩٢)، وابن ماجه (٢/٩٠٨) كتاب: الفرائض، باب: فرائض الصلب، حديث (٢٧٢٠)، وابن سعد (٣/٢/٧٨)، والحاكم (٤/٣٣٣ - ٣٣٤) كتاب: الفرائض، باب: إذا تحدثتم فتحدثوا بالفرائض، والبيهقي (٦/٢١٦) كتاب: الفرائض، باب: توريث ذوى الأرحام. قال الحاكم: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (٣/٢٩٠) كتاب: الوصايا، باب: الوصية للوارث، حديث (٢٨٧٠)، والترمذي (٤/٤٣٣) كتاب: الوصايا، باب: ولا وصية لوارث، حديث (٢١٢٠)، وابن ماجه (٢/٩٠٥) كتاب: الوصايا، باب: لا وصية لوارث، حديث (٢٧١٣)، وأحمد (٥/٢٦٧)، والطبراني (٢/١١٧ - منحة) رقم (٢٤٠٧)، وسعيد بن منصور (٤٢٧)، والدولابي في الكنى (١/٦٤)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/٢٢٧)، والبيهقي (٦/٢٦٤) كتاب: الوصايا، باب: نسخ الوصية للوالدين، كلهم من طريق إسماعيل بن عياش عن شريح بن مسلم عن أبي أمامة الباهلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبته عام حجة الوداع: «إن الله تبارك وتعالى قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث».

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفى الباب عن جماعة من الصحابة وهم عمرو بن خارجة، وأنس بن مالك، وابن عباس، وجابر، وعلى، وعبد الله بن عمرو، ومعاقل بن يسار، وزيد بن أرقم، والبراء، ومجاهد مرسلاً. وللحديث طريق آخر:

أخرجه الدارقطني (٤/١٥٢) كتاب: الوصايا، حديث (١٠)، والبيهقي (٦/٢٦٤) كتاب: الوصايا، باب: نسخ الوصية للوالدين والأقربين، من طريق زياد بن عبد الله عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن بن عمرو بن خارجة مرفوعاً بلفظ: «لا وصية لوارث إلا أن يجيز الورثة». وضعف البيهقي سنده.

عليهم فى الفعل^(١)، وفى هذا وجود ذلك من طريق الفعل^(٢).

ثم القول أيضًا من الأئمة بالفتوى به بلا تنازع ظهر فيهم مع ما قد ذكر الله فى المواريث: ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٢]، وتخصيص الورثة قصد مضارة بغيره، واستعمال الرأى فيما قد تولى قسمه على غير الذى قسم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

هؤلاء الآيات فيهن فرضية بقوله: ﴿كُتِبَ﴾، وأيد ذلك الإبدال فيها الإفطار لعذر والأمر بالقضاء، وذلك ليس بشرط الآداب مع الامتنان علينا بقوله عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾، أى يريد بكم الإذن لكم فى الفطر للعذر، ولو كان غير فرض بدؤه لم يكن الفطر للعذر بموضع الرخصة مع شرطه إكمال العدة فى القضاء معنى، وفى ذلك لزوم حفظ المتروك لثلا يدخل التقصير فى القضاء. وعلى ذلك إجماع الأمة. ثم بين عز وجل أن لم تكن هذه الأمة بمخصوصة فى الصيام^(٣)، بل هى أحق من فيهم

(١) فى أ: العقل.

(٢) فى أ: العقل.

(٣) الصوم فى اللغة: الإمساك مطلقا عن الطعام والشراب والكلام والنكاح والسير. قال تعالى - حكاية عن مريم عليها السلام - : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ والصوم مصدر: صام يصوم صوما وصياما. وفى الاصطلاح: هو الإمساك عن المفطر على وجه مخصوص. وقد وردت فى فضل الصوم أحاديث كثيرة، نذكر منها ما يلى:

عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - عن النبى ﷺ أنه قال: «من صام رمضان إيمانا واحتسابا، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه». وعن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - قال: كان النبى ﷺ يبشر أصحابه بقدوم رمضان، يقول: «قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، كتب الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر».

وعن سهل بن سعد - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «إن فى الجنة بابا، يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون، لا

استعمل العفو أو الصفح بما خصهم بأن جعلهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وأخبر أنه لم يجعل عليهم ﴿فِي الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ولا ألزمهم العبادات الشاقة فضلاً منه عليهم وتخصيصاً لهم؛ إذ جعلهم ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]، فقال عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾. لكن «كما» يحتمل وجهين:

يحتمل: العذر الذي كتب عليهم.

ويحتمل: الفرضية^(١) في الجملة لا عين ما فرض عليهم من حيث الإشارة إلى ذلك؛ ولذلك اختلف في (الكاف) في قوله: (كما) - أنها زائدة، أو حقيقية.

ثم اختلف فيما يأتيه ذلك الصيام: فمن الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، من جعله صوم عاشوراء^(٢) وأيام البيض^(٣). ثم استعملوا نسخ ذلك بصيام الشهر.

= يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق، فلم يدخل منه أحد». وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانَ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يَغْفَرَ لَهُ». ينظر: مغنى المحتاج (١/٤٢٠).

(١) في أ: الوصية.

(٢) اتفق الفقهاء على سنية صوم عاشوراء وتاسوعاء - وهما: اليوم العاشر، والتاسع من المحرم - لقول النبي ﷺ في صوم عاشوراء: «أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ»، ولحديث معاوية - رضى الله عنه - قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «هَذَا يَوْمُ عَاشُورَاءَ، وَلَمْ يَكْتُبِ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ، وَأَنَا صَائِمٌ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيَصُمْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَفْطِرْ»، وقول النبي ﷺ: «لَنْ بَقِيَتْ إِلَى قَابِلٍ لِأَصُومِنَ التَّاسِعَ».

وقد كان صوم يوم عاشوراء فرضاً في الإسلام، ثم نسخت فرضيته بصوم رمضان، فخير النبي ﷺ المسلمين في صومه، وهو اختيار كثيرين واختيار الشيخ تقي الدين من الحنابلة، وهو الذي قاله الأصوليون. وصوم يوم عاشوراء - كما سبق في الحديث الشريف - يكفر ذنوب سنة ماضية. والمراد بالذنوب: الصغائر، قال الدسوقي: فإن لم يكن صغائر، حلت من كبائر سنة، وذلك التحتيت موكل لفضل الله، فإن لم يكن كبائر رفع له درجات. وقال البهوتي: قال النووي في شرح مسلم عن العلماء: المراد كفارة الصغائر، فإن لم تكن له صغائر رجب التخييف من الكبائر، فإن لم تكن له كبائر رفع له درجات. وصرح الحنفية: بكراهة صوم يوم عاشوراء منفرداً عن التاسع، أو عن الحادى عشر. كما صرح الحنابلة: بأنه لا يكره أفراد عاشوراء بالصوم، وهذا ما يفهم من مذهب المالكية. قال الخطاب: قال الشيخ زروق في (شرح القرطبية): «استحب بعض العلماء صوم يوم قبله ويوم بعده، وهذا الذى ذكره عن بعض العلماء غريب لم أفق عليه. وذكر العلماء فى حكمة استحباب صوم تاسوعاء أوجها:

أحدها: أن المراد منه مخالفة اليهود فى اقتصارهم على العاشر، وهو مروي عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صوموا يوم عاشوراء، وخالفوا فيه اليهود وصوموا قبله يوماً أو بعده يوماً».

وقد روى مرفوعاً: «أن صوم شهر رمضان نسخ كل صيام كان»^(١).
وروى عن جماعة في أمر صوم عاشوراء: أنا كنا نصومه حتى نزل صوم الشهر، فلم

= الثاني: أن المراد به وصل يوم عاشوراء بصوم، كما نهى أن يصوم يوم الجمعة وحده.
الثالث: الاحتياط في صوم العاشر خشية نقص الهلال ووقوع الغلط، فيكون التاسع في العدد هو العاشر في نفس الأمر.

واستحب الحنفية والشافعية صوم الحادى عشر، إن لم يصم التاسع. قال الشربيني الخطيب: بل نص الشافعى في (الأم) و (الإملاء) على استحباب صوم الثلاثة.
ينظر: كشف القناع (٣٣٩/٢)، والإنصاف (٣٤٦/٣)، حاشية الطحاوى (٣٥٠)، حاشية الدسوقي (٥١٦/١).

(٣) اتفق الفقهاء على أنه يسن صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وذهب الجمهور منهم - الحنفية والشافعية والحنابلة - إلى استحباب كونها أيام البيض - وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر عربى - سميت بذلك؛ لتكامل ضوء الهلال وشدة البياض فيها؛ لما روى أبو ذر - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال له: «يا أبا ذر، إذا صمت من الشهر ثلاثة أيام، فصم ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة». قال الشافعية: والأحوط صوم الثانى عشر معها - أيضاً - للخروج من خلاف من قال: إنه أول الثلاثة، ويستثنى ثالث عشر ذى الحجة فلا يجوز صومه لكونه من أيام التشريق. فيبذل بالسادس عشر منه كما قال القليوبى. وذهب المالكية إلى كراهة صوم أيام البيض؛ فراراً من التحديد، ومخافة اعتقاد وجوبها. ومحل الكراهة: إذا قصد صومها بعينها، واعتقد أن الثواب لا يحصل إلا بصومها خاصة. وأما إذا قصد صيامها من حيث إنها ثلاثة أيام من الشهر فلا كراهة. قال المواق نقلاً عن ابن رشد: إنما كره مالك صومها لسرعة أخذ الناس بقوله، فيظن الجاهل وجوبها. وقد روى أن مالكا كان يصومها، وحض مالك - أيضاً - الرشيد على صيامها. وصوم ثلاثة أيام من كل شهر كصوم الدهر، بمعنى: أنه يحصل بصيامها أجر صيام الدهر بتضعيف الأجر: الحسنة بعشرة أمثالها، لحديث قتادة بن ملحان - رضى الله عنه - «كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نصوم البيض: ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة. قال: قال: وهن كهينة الدهر» أى: كصيام الدهر.

ينظر: حاشية القليوبى على شرح المنهاج للمحلى (٧٣/٢)، حاشية ابن عابدين (٨٣/٢).

(١) فى الباب عن عائشة وابن عمر وابن مسعود بنحوه.

حديث عائشة:

أخرجه البخارى (٧٧٠/٤) كتاب الصوم، باب صوم يوم عاشوراء (٢٠٠١، ٢٠٠٢)، ومسلم (٧٩٢/٢)، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٢٥/١١٣)، من طرق عنها قالت: كان يوم عاشوراء تصومه قريش فى الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه.

حديث ابن عمر:

أخرجه البخارى (٢٠٠٠)، ومسلم (١١٢٦/١١٧)، من طرق عنه بنحو اللفظ السابق.

حديث ابن مسعود:

أخرجه البخارى (٣١/٩) كتاب التفسير باب «يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ» (٤٥٠٣)، ومسلم (١١٢٧/١٢٢)، من طرق عنه بنحو لفظ حديث عائشة، وأخرجه ابن جرير (٢٧٣٥)، عن ابن عباس قال فى قوله تعالى: «يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ...» الآية: وكان ثلاثة أيام من كل شهر ثم نسخ ذلك بالذى أنزل من صيام رمضان.

يكن رسول الله ﷺ يأمرنا به ولا ينهانا^(١).

وأصل هذا أنه كان يصام، لو كان ابتداء الآية عليه بحق الفرض فأبدل ذلك بصوم الشهر، فارتفعت عنه الفرضية على ما إذا كان يخرج منه بالفداء لم يكن معه فرضية القضاء، وبقي الفصل فيه؛ النسخ لم يكن من حيث نفس الصوم، إذ مثله من النسخ يكون بغير الصوم ولا يصوم. فثبت أنه في نسخ الفرضية. فبقى فيه حق الأدب والفضل، وتبين النسخ الصوم إذ مثله، وإن ذلك غير صوم الشهر الذكر في صوم الشهر بقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا...﴾ الآية إذ ذلك كان غير موضع الشهر، ولو كان الكل واحدًا لكان الذكر في موضع منه كافيًا عن الإعادة؛ فثبت أنه على تناسخ الصيام. وقد روى [عن] معاذ^(٢)، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: «أحيل الصيام ثلاثة أحوال»^(٣). وبين الخبر على وجهه في ذلك.

ويحتمل: أن يكون المراد منه صوم الشهر، ويكون تكرار الذكر في الرخصة لمكان رفع الفداء، أو لمكان ذكر حق الامتنان بالتيسير، أو التحريض على حفظ العدد. والله الموفق.

وأى ذلك كان؟ فليس بنا حاجة إلى معرفة حقيقة ذلك؛ لأن كيفية الابتداء لم تكلف،

(١) أخرجه مسلم (٧٩٤/٢ - ٧٩٥) كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٢٨/١٢٥)، وأحمد (٩٦/٥، ١٠٥)، وابن خزيمة (٢٠٨٣) عن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بصيام يوم عاشوراء ويحثنا عليه ويتعاهدنا عنده فلما فرض رمضان لم يأمرنا ولم ينهنا ولم يتعاهدنا عنده.
(٢) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ - بمعجمة آخره - ابن عدى بن كعب بن عمرو بن أدى بن سعد بن على بن أسد بن سارفة بن تريد - بمثناة - ابن جشم بن الخزرج الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمن المدني، أسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة، وشهد بدرًا والمشاهد له مائة وسبعة وخمسون حديثًا، اتفقا على حديثين، وانفرد «البخارى» بثلاثة، و«مسلم» بحديث، وعنه ابن عباس وابن عمر ومن التابعين عمرو بن ميمون وأبو مسلم الخولاني ومسروق وخلق، وكان ممن جمع القرآن. قال النبي ﷺ: «يأتى معاذ يوم القيامة أمام العلماء». وقال ابن مسعود: كنا نشبهه بإبراهيم عليه السلام وكان أمة قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين، توفى في طاعون عمواس سنة ثمانى عشرة وقبر ببيسان في شقيقه. قال ابن المسيب: عن ثلاث وثلاثين سنة، وبها رفع عيسى عليه السلام.

ينظر: تهذيب الكمال (١٣٣٨/٣)، وتهذيب التهذيب (١٨٦/١٠) (٣٤٧)، وتاريخ البخارى الكبير (٣٥٩/٧)، والثقات (٣٦٨/٣)، وأسد الغابة (١٠٥/٣)، وطبقات الحفاظ (٢٤/٦)، وتجريد أسماء الصحابة (٨٠/٢)، والاستيعاب (١٤٠٢/٣).

(٣) أخرجه أبو داود (١٩٤/١)، كتاب الصلاة، باب كيف الأذان (٥٠٧)، وأحمد (٢٣٣/٥، ٢٤٦)، وابن خزيمة (٣٨١)، وابن جرير (٢٧٤٠)، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والحاكم وصححه البيهقي في سننه كما في الدر المنثور للسيوطي (٣٢٢/١).

وإنما كلفنا ما أبقي فرضه، وهو صيام الشهر الذى لم يختلف فى ذلك.

ثم قد خاطب جل ثناؤه بالصيام من قد آمن بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فكان فيما خاطب وجهان:

أحدهما: أنه خاطب المؤمنين فعرف المخاطبون أن الاسم يذكرهم؛ إذ لم يذكر عن أحد أنه ظن خروجه من حكم الآية، من حيث لم يكن وفاء بما به يستحق الاسم، وكذلك سائر عبادات الأفعال.

وهذا من أوضح ما يجب به العلم أن الإيمان ليس باسم لجميع القرب، بل تحقيقه يصير أفعال القرب قربًا.

وفيه إذ لم يقل: يأيها الذين، قلت: نحن مؤمنون به صلى الله تعالى عليه وسلم، دلالة ظاهرة على هجر هذا القول، وأنه من تلقين الشيطان ليبتل عليهم عقدهم، كما يبتل كل عقد يستعمله فيه صاحبه مما أراد إلزامه العقد^(١). والله أعلم.

والثانى: أن الله تعالى خص بالعبادات المؤمنين، وأنهن لا يلزمن غيرهم وإنما يلزم غيرهم فيها الاعتقاد، لا الأفعال التى هى تقوم بالاعتقاد، وليس الاعتقاد بواجب لمكان تلك الأفعال حتى تكون كالأسباب التى توجب بإيجاب أفعال بها تقوم، بل له أوجب غيره.

ألا ترى أنه لا يجوز أن يرتفع ذلك عن الخلائق بحال من الأحوال فى الدنيا والآخرة مع ارتفاع غير ذلك من العبادات؛ ثبت أن الأمر بذلك بحيث نفسه، لا لغيره.

ثم لا قيام لغيره مع عدمه؛ ثبت أن المعنى الذى به يصير المرء أهلًا لاحتمال فعل العبادات، لذلك لا يجوز الأمر بشئ منها دون ذلك. وله وجهان يحيلان الأمر أيضًا: أحدهما: العقل، أنه من البعيد أن يكون من لم يقبل العبودية، ولا أقر بالرسالة تؤمر بالعبادة واتباع الرسول بحق الرسالة، بل يقول: ألزمتونا الأول، حتى يكون الثانى، وهو كما أحال الناس المناظرة فى الرسل مع منكرو الصانع والمرسل، فمثله الأول، بل يجب كل قرينة به؛ إذ لا يكون إلا به. والله أعلم.

والثانى: القول بأن من أسلم بعد أوقات العبادات لا يلزمه القضاء. ثم لذلك وجهان من المعتبر:

أحدهما: بأنهم إذا لم يدخلوا فى خطاب القضاء، بما ليس معهم فى الحال ما يحتمل معه القضاء، فذلك خطاب الابتداء؛ إذ هو الذى به لزم القضاء فى الإسلام. والله

أعلم .

والثانى : أنه لا يلزم القضاء بعد الإسلام ، ولا يجوز الابتداء فى حاله . فكان ذا تكليف لم يجعل الله للمكلف وجه القيام ، وقد تبرأ الله عن هذا الوجه من التكليف بقوله عز وجل : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، مع ما بين الله تعالى بقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ﴾ [البقرة : ١٢٦] أن ما للكافر التمتع فى الدنيا ، لا العبادات فى ذلك . والله الموفق .

ثبتت بالآية التى ذكرنا جميع المؤمنين فى الخطاب ؛ إذ بين الرخصة لىذى^(١) العذر فى الإفطار على وجوب القضاء فإذا لم يحتمل خروج من له العذر فى الفطر عن أن يتضمنه الخطاب وجه ألزم القضاء ، ثبت أن من لا عذر له داخل فيه ولا يسعه الفطر ، وعلى هذا جاء ممن ابتلى بالجماع نهاراً أنه ﷺ أكد عليه الأمر وألزم الكفارة^(٢) على غير سؤال عن أحوال سوى ما علم من حاله أنه ليس بمريض ولا مسافر ، فكان فى ذلك دليل تأكيد الفرض ، وفى ذلك إيجاب الكفارة لتعديه على الصيام على حال لا يحتمل الإرخاص ، إذ قد كان تلك البلية فى الليالى ، فلم يؤمروا بها من حيث كانوا يملكون إبقاء الرخصة لأنفسهم لولا النوم ، وفى ذلك أن فرض الصيام يعم المؤمنين .
ثم قال الله عز وجل : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ .

والشهر اسم للكل ، ولو كان المراد راجعاً إليه لكان الصيام فى غيره ؛ لأنه عند هجوم غيره يتم شهوده ، ثم يتناقض ؛ لأنه قال : ﴿ فَلْيَصُمْهُ ﴾ ، ومحال أن يصوم فى غيره ابتداء ؛ فرجع التأويل إلى أن من شهد منكم شيئاً من الشهر ﴿ فَلْيَصُمْهُ ﴾ . فمن اعترضه الجنون^(٣)

(١) فى ط : الذى له .

(٢) هذا ثابت من حديث أبى هريرة :

أخرجه البخارى (٤/١٦٣) كتاب : الصوم ، باب : إذا جامع فى رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر ، حديث (١٩٣٦) ، ومسلم (٢/٧٨١ ، ٧٨٢) كتاب : الصيام ، باب : تغليظ تحريم الجماع فى نهار رمضان على الصائم ووجوب الكفارة الكبرى فيه وبيانها . . . إلخ ، حديث (١١١١/٨١) ، ومالك (١/٢٩٦) كتاب : الصيام ، باب : كفارة من أفطر فى رمضان ، حديث (٢٨) ، وأبو داود (١/٧٢٧) كتاب : الصيام ، باب : كفارة من أتى أهله فى شهر رمضان ، حديث (٢٣٩٠) ، والترمذى (٣/١٠٢) كتاب : الصوم ، باب : ما جاء فى كفارة الفطر فى رمضان ، حديث (٧٢٤) ، وابن ماجه (١/٥٣٤) كتاب : الصيام ، باب : ما جاء فى كفارة من أفطر يوماً من رمضان (١٦٧١) ، والدارمى (١/٣٤٣ - ٣٤٤) ، وأحمد (٢/٢٠٨ ، ٢٤١ ، ٢٨١) .
(٣) اختلف الفقهاء فيما إذا نوى الصيام من الليل ، ثم طرأ عليه إغماء أو جنون أو سكر : فإن لم يبق إلا بعد غروب الشمس ، فذهب المالكية والشافعية والحنابلة إلى عدم صحة صومه ؛ لأن الصوم هو الإمساك مع النية ، لقول النبى ﷺ : قال الله : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم ، فإنه لى وأنا أجزى =

فيه فهو ممن قد تضمنه الخطاب، ويجوز فى حالة الفرض أيضًا؛ إذ لو شهد ليلة الصيام فعزم على الصيام يجوز له فرضه، فدخل فى حق الخطاب، ثم اعترضه فى سائر الليالى عذر منع النية، لا عذر منع الصيام، فيقتضيه إذ هو أهل الحكم للآية التى ذكرنا، والقيام^(١) بذلك الفرض على ما وصفنا، ففاته بفوت النية كمن كان فوت لعذر المرض^(٢)

= به، يدع شهوته وطعامه من أجله» فأضاف ترك الطعام والشراب إليه، فإذا كان مغمى عليه فلا يضاف الإمساك إليه، فلم يجزئه. وذهب الحنفية إلى صحة صومه؛ لأن نيته قد صحت، وزوال الاستسعار بعد ذلك لا يمنع صحة الصوم، كالنوم. أما إذا أفاق أثناء النهار، فذهب الحنفية إلى تجديد النية إذا أفاق قبل الزوال، وذهب المالكية إلى عدم صحة صومه، وذهب الشافعية والحنابلة إلى أنه إذا أفاق فى أى جزء من النهار صح صومه، سواء أكان فى أوله أم فى آخره. وفرق الشافعية بين الجنون والإغماء، فالمذهب: أنه لو جن فى أثناء النهار بطل صومه، وقيل: هو كالإغماء. وأما الردة بعد نية الصوم فتبطل الصوم بلا خلاف.

ينظر: جواهر الإكليل (١/١٤٨)، والشرح الكبير للدردير (١/٥٢٠)، والمغنى (٣/٩٨).

(١) فى أ: للقيام.

(٢) المرض هو: كل ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من علة. قال ابن قدامة: أجمع أهل العلم على إباحة الفطر للمريض فى الجملة، والأصل فيه قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، وعن سلمة بن الأكوع - رضى الله تعالى عنه - قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان من أراد أن يفطر، يفطر ويفتدى، حتى أنزلت الآية التى بعدها يعنى قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤] فنسختها. فالمرضى الذى يخاف زيادة مرضه بالصوم أو إبطاء البرء أو فساد عضو، له أن يفطر، بل يسن فطره، ويكره إتمامه؛ لأنه قد يقضى إلى الهلاك، فيجب الاحتراز عنه. ثم إن شدة المرض تجيز الفطر للمريض. أما الصحيح إذا خاف الشدة أو التعب، فإنه لا يجوز له الفطر، إذا حصل له بالصوم مجرد شدة تعب، هذا هو المشهور عند المالكية، وإن قيل بجواز فطره. وقال الحنفية: إذا خاف الصحيح المرض بغلبة الظن فله الفطر، فإن خافه بمجرد الوهم، فليس له الفطر. وقال المالكية: إذا خاف حصول أصل المرض بصومه، فإنه لا يجوز له الفطر - على المشهور - إذ لعله لا ينزل به المرض إذا صام. وقيل: يجوز له الفطر. فإن خاف كل من المريض والصحيح الهلاك على نفسه بصومه، وجب الفطر. وكذا لو خاف أذى شديدا، كتعطيل منفعة، من سمع أو بصر أو غيرهما؛ لأن حفظ النفس والمنافع واجب، وهذا بخلاف الجهد الشديد، فإنه يبيح الفطر للمريض، قيل: والصحيح أيضا.

وقال الشافعية: إن المريض - وإن تعدى بفعل ما أمره - يباح له ترك الصوم، إذا وجد به ضررا شديدا، لكنهم شرطوا لجواز فطره نية الترخص - كما قال الرملى واعتمده - وفرقوا بين المرض المُطَبَّق، وبين المرض المتقطع: فإن كان المرض مطبقا، فله ترك النية فى الليل. وإن كان يُحتمل وينقطع، نظر: فإن كان محموما وقت الشروع فى الصوم، فله ترك النية، وإلا فعليه أن ينوى من الليل، فإن احتاج إلى الإفطار أفطر. ومثل ذلك الحصاد والبناء والحارس - ولو متبرعا - فتجب عليهم النية ليلا، ثم إن لحقتهم مشقة أفطروا. قال النووي: ولا يشترط أن ينتهى إلى حالة لا يمكنه فيها الصوم، بل قال أصحابنا: شرط إباحة الفطر أن يلحقه بالصوم مشقة يشق احتمالها، وأما المرض اليسير الذى لا يلحق به مشقة ظاهرة فلم يجز له الفطر، بلا

والسفر^(١) والحيض ونحو ذلك بعد أن علم أنه ممن تضمنه الآية، فعليه قضاؤه.

= خلاف عندنا، خلافا لأهل الظاهر. وخوف الضرر هو المعتبر عند الحنابلة، أما خوف التلف بسبب الصوم فإنه يجعل الصوم مكروها، وجزم جماعة بحرمة، ولا خلاف في الإجزاء؛ لصدوره من أهله في محله، كما لو أتم المسافر. قالوا: ولو تحمل المريض الضرر، وصام معه، فقد فعل مكروها؛ لما يتضمنه من الإضرار بنفسه، وتزكية تخفيفاً من الله وقبول رخصته، لكن يصح صومه ويجزئه؛ لأنه عزيمة أبيع تركها رخصة، فإذا تحمله أجزأه؛ لصدوره من أهله في محله، كما أتم المسافر، وكالمريض الذي يباح له ترك الجمعة، إذا حضرها. قال في (المبدع): فلو خاف تلفاً بصومه، كره، وجزم جماعة بأنه يحرم. ولم يذكروا خلافاً في الإجزاء. ولخص ابن جزى من المالكية أحوال المريض بالنسبة إلى الصوم، وقال: للمريض أحوال:

الأولى: ألا يقدر على الصوم أو يخاف الهلاك من المرض أو الضعف إن صام، فالفطر عليه واجب.

الثانية: أن يقدر على الصوم بمشقة، فالفطر له جائز، وقال ابن العربي: مستحب.

الثالثة: أن يقدر بمشقة، ويخاف زيادة المرض، ففي وجوب فطره قولان.

الرابعة: ألا يشق عليه، ولا يخاف زيادة المرض، فلا يفطر عند الجمهور، خلافا لابن سيرين. ونص الشافعية على أنه إذا أصبح الصحيح صائماً، ثم مرض، جاز له الفطر بلا خلاف لأنه أبيع له الفطر للضرورة، والضرورة موجودة، فجاز له الفطر.

ينظر: المجموع (٦/٢٥٨)، كشاف القناع (٢/٣١٠)، الإنصاف (٣/٢٨٦).

(١) يشترط في السفر المرخص في الفطر ما يلي:

أ - أن يكون السفر طويلاً مما تقصر فيه الصلاة، قال ابن رشد: وأما المعنى المعقول من إجازة الفطر في السفر فهو المشقة، ولما كانت لا توجد في كل سفر، وجب أن يجوز الفطر في السفر الذي فيه المشقة، ولما كان الصحابة كأنهم مجمعون على الحد في ذلك، وجب أن يقاس ذلك على الحد في تقصير الصلاة.

ب - ألا يعزم المسافر الإقامة خلال سفره مدة أربعة أيام بلياليها عند المالكية والشافعية، وأكثر من أربعة أيام عند الحنابلة، وهي نصف شهر أو خمسة عشر يوماً عند الحنفية.

ج - ألا يكون سفره في معصية، بل في غرض صحيح عند الجمهور؛ وذلك: لأن الفطر رخصة وتخفيف، فلا يستحقها عاص بسفره؛ بأن كان مبنياً سفره على المعصية، كما لو سافر لقطع طريق مثلاً. والحنفية يجيزون الفطر للمسافر، ولو كان عاصياً بسفره، عملاً بإطلاق النصوص المرخصة، ولأن نفس السفر ليس بمعصية، وإنما المعصية ما يكون بعده أو يجاوره، والرخصة تتعلق بالسفر لا بالمعصية.

د - أن يجاوز المدينة وما يتصل بها، والبناءات والأبنية والأخبية.

وذهب عامة الصحابة والفقهاء، إلى أن من أدرك هلال رمضان وهو مقيم، ثم سافر، جاز له الفطر؛ لأن الله تعالى جعل مطلق السفر سبب الرخصة، بقوله: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَكْبَارِ أُخْرٍ﴾، ولما ثبت من «أن رسول الله ﷺ خرج في غزوة الفتح في رمضان مسافراً، وأفطر». ولأن السفر إنما كان سبب الرخصة لمكان المشقة. وحكى النووي عن أبي مخلد التابعي أنه لا يسافر، فإن سافر لزمه الصوم وحرم الفطر. وعن سويد بن غفلة التابعي: أنه يلزمه الصوم بقية الشهر، ولا يتمتع السفر، واستدل لهما بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ أَشْهُرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. وحكى الكاساني عن علي وابن عباس - رضي الله تعالى عنهم - أنه إذا أهل في المصر، ثم سافر، لا يجوز له أن يفطر. واستدل لهم بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ

الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» ، ولأنه لما استهل في الحضر لزمه صوم الإقامة، وهو صوم الشهر حتما، فهو بالسفر يريد إسقاطه عن نفسه فلا يملك ذلك، كالיום الذي سافر فيه، فإنه لا يجوز له أن يفطر فيه.

وفى وقت جواز الفطر للمسافر ثلاث أحوال:

الأولى: أن يبدأ السفر قبل الفجر، أو يطلع الفجر وهو مسافر، وينوى الفطر، فيجوز له الفطر إجماعاً - كما قال ابن جزى - لأنه متصف بالسفر، عند وجود سبب الوجوب.

الثانية: أن يبدأ السفر بعد الفجر، بأن يطلع الفجر وهو مقيم ببلده، ثم يسافر بعد طلوع الفجر، أو خلال النهار، فإنه لا يحل له الفطر بإنشاء السفر بعدما أصبح صائماً، ويجب عليه إتمام ذلك اليوم، وهذا مذهب الحنفية والمالكية، وهو الصحيح من مذهب الشافعية، ورواية عن أحمد، وذلك تغليبا لحكم الحضر. ومع ذلك لا كفارة عليه في إفطاره عند الحنفية، وفي المشهور من مذهب المالكية، خلافا لابن كنانة، وذلك للشبهة في آخر الوقت. ولأنه لما سافر بعد الفجر صار من أهل الفطر؛ فسقطت عنه الكفارة. والصحيح عند الشافعية: أنه يحرم عليه الفطر حتى لو أفطر بالجماع لزمته الكفارة. والمذهب عند الحنابلة وهو أصح الروايتين عن أحمد، وهو ما ذهب إليه المزني وغيره من الشافعية: أن من نوى الصوم في الحضر، ثم سافر في أثناء اليوم، طوعاً أو كرها، فله الفطر بعد خروجه ومفارقتة بيوت قريته العامة، وخروجه من بين بنيانها، واستدلوا بما يلي: ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَنْبَاءِ أُخَرٍ﴾، وحديث جابر - رضى الله تعالى عنه - أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة عام الفتح فصام حتى بلغ كُرَاعَ الْعَمِيمِ، وصام الناس معه، فقليل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام، وإن الناس ينظرون فيما فعلت، فدعا بقدر من ماء بعد العصر، فشرب - والناس ينظرون إليه - فأفطر بعضهم، وصام بعضهم، فبلغه أن ناساً صاموا، فقال: «أولئك العصاة». وحديث ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - قال: «خرج رسول الله ﷺ عام الفتح إلى مكة، في شهر رمضان، فصام حتى مر بغدير في الطريق، وذلك في نحر الظهيرة. قال: ففطش الناس، جعلوا يمدون أعناقهم، وتتوق أنفسهم إليه. قال: فدعا رسول الله ﷺ بقدر من ماء، فأمسكه على يده، حتى رآه الناس، ثم شرب؛ فشرب الناس». وقالوا: إن السفر مبيح للفطر، فإباحته في أثناء النهار كالمرض الطارئ ولو كان بفعله. وقال الذين أباحوه من الشافعية: إنه تغليب لحكم السفر. وقد نص الحنابلة المؤيدون لهذا الرأي على أن الأفضل لمن سافر في أثناء يوم نوى صومه إتمام صوم ذلك اليوم، خروجا من خلاف من لم يبح له الفطر، وهو قول أكثر العلماء؛ تغليبا لحكم الحضر، كالصلاة.

الثالثة: أن يفطر قبل مغادرة بلده. وقد منع من ذلك الجمهور، وقالوا: إن رخصة السفر لا تتحقق بدونه، كما لا تبقى بدونه، ولما يتحقق السفر بعد، بل هو مقيم وشاهد، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، ولا يوصف بكونه مسافرا حتى يخرج من البلد، ومهما كان في البلد فله أحكام الحاضرين؛ ولذلك لا يقصر الصلاة. والجمهور الذين قالوا بعدم جواز الإفطار في هذه الصورة، اختلفوا فيما إذا أكل، هل عليه كفارة؟ فقال مالك: لا. وقال أشهب: هو متأول. وقال غيرهما: يكفر. وقال ابن جزى: فإن أفطر قبل الخروج، ففي وجوب الكفارة عليه ثلاثة أقوال، يفرق في الثالث بين أن يسافر فتسقط، أو لا فتجب.

ويتصل بهذه المسائل في إفطار المسافر: ما لو نوى في سفره الصوم ليلا، وأصبح صائماً، من غير أن ينقض عزمته قبل الفجر، لا يحل فطره في ذلك اليوم عند الحنفية والمالكية، وهو وجه محتمل عند الشافعية، ولو أفطر لا كفارة عليه؛ للشبهة. قال ابن عابدين: وكذا لا كفارة عليه

= بالأولى، لو نوى نهارا. وقال ابن جزى: من كان فى سفر، فأصبح على نية الصوم، لم يجز له الفطر إلا بعذر، كالتغذى للقاء العدو، وأجازه مطرف من غير عذر، وعلى المشهور: إن أفطر، ففى وجوب الكفارة ثلاثة أقوال: يفرق فى الثالث بين أن يفطر بجماع فتجب، أو بغيره فلا تجب. لكن الذى فى (شرح خليل)، وفى (حاشية الدسوقي): أنه إذا بيت نية الصوم فى السفر وأصبح صائما فيه ثم أفطر، لزمته الكفارة سواء أفطر متأولا أم لا. فسأل سحنون ابن القاسم، عن الفرق بين من بيت الصوم فى الحضر ثم أفطر بعد أن سافر بعد الفجر من غير أن ينويه فلا كفارة عليه، وبين من نوى الصوم فى السفر ثم أفطر فعليه الكفارة؟ فقال: لأن الحاضر من أهل الصوم، فسافر فصار من أهل الفطر؛ فسقطت عنه الكفارة، والمسافر مخير فيهما، فاختار الصوم وترك الرخصة، فصار من أهل الصيام، فعليه ما عليهم من الكفارة. والشافعية فى المذهب، والحنابلة قالوا: لو أصبح صائما فى السفر، ثم أراد الفطر، جاز من غير عذر؛ لأن العذر قائم - وهو السفر - أو لدوام العذر - كما يقول المحلى. ومما استدلوا به حديث ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما -: «... فصام حتى مر بغدير فى الطريق»، وحديث جابر - رضى الله تعالى عنه -: «... فصام حتى بلغ كراع الغميم» قال ابن قدامة: وهذا نص صريح، لا يعرج على ما خالفه. قال النووى: وفيه احتمال لإمام الحرمين، وصاحب (المهذب): أنه لا يجوز؛ لأنه دخل فى فرض المقيم، فلا يجوز له الترخص برخصة المسافر، كما لو دخل فى الصلاة بنية الإتمام، ثم أراد أن يقصر، وإذا قلنا بالمذهب، ففى كراهة الفطر وجهان، وأصحهما: أنه لا يلزمه ذلك، للحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ فعل ذلك. وزاد الحنابلة: أن له الفطر بما شاء، من جماع وغيره، كأكل وشرب؛ لأن من أبيع له الأكل أبيع له الجماع، كمن لم ينو، ولا كفارة عليه بالوطء؛ لحصول الفطر بالنية قبل الجماع، فيقع الجماع بعده. هذا وتسقط رخصة السفر بأمرين اتفاقا:

الأول: إذا عاد المسافر إلى بلده، ودخل وطنه، وهو محل إقامته، ولو كان دخوله بشئ نسيه، يجب عليه الصوم، كما لو قدم ليلا، أو قدم قبل نصف النهار عند الحنفية. أما لو قدم نهارا، ولم ينو الصوم ليلا، أو قدم بعد نصف النهار - عند الحنفية، ولم يكن نوى الصوم قَبْلًا - فإنه يمسك بقية النهار، على خلاف وتفصيل فى وجوب إمساكه.

الثانى: إذا نوى المسافر الإقامة مطلقا، أو مدة الإقامة التى تقدمت فى شروط جواز فطر المسافر فى مكان واحد، وكان المكان صالحا للإقامة، لا كالسفينة والمفازة ودار الحرب فإنه يصير مقيما بذلك، فيتم الصلاة، ويصوم ولا يفطر فى رمضان؛ لانقطاع حكم السفر. وصرحوا بأنه يحرم عليه الفطر - على الصحيح - لزوال العذر، وفى قول يجوز له الفطر؛ اعتبارا بأول اليوم. قال ابن جزى: إن السفر لا يبيح قصرا ولا فطرا إلا بالنية والفعل، بخلاف الإقامة؛ فإنها توجب الصوم والإتمام بالنية دون الفعل. وإذا لم ينو الإقامة لكنه أقام لقضاء حاجة له، بلا نية إقامة، ولا يدرى متى تنقضى، أو كان يتوقع انقضاءها فى كل وقت - فإنه يجوز له أن يفطر، كما يقصر الصلاة. قال الحنفية: ولو بقى على ذلك سنين. فإن ظن أنها لا تنقضى إلا فوق أربعة أيام عند الجمهور، أو خمسة عشر يوما عند الحنفية، فإنه يعتبر مقيما؛ فلا يفطر ولا يقصر، إلا إذا كان الفرض قتالا - كما قال الغزالي - فإنه يترخص على أظهر القولين، أو دخل المسلمون أرض الحرب أو حاصروا حصنا فيها، أو كانت المحاصرة للمصر على سطح البحر، فإن لسطح البحر حكم دار الحرب. ودليل هذا أنه ﷺ أقام بتبوك عشرين يوما يقصر الصلاة، ويلاحظ أن الفطر كالفطر الذى نصوا عليه فى صلاة المسافر، من حيث الترخص، فإن المسافر له سائر رخص السفر.

وعلى ذلك فى الصبى والكافر لم يدخلا فى معنى الآية، ولا كانا يحتملان فى حال قضاء فرض الصيام، فالقضاء فى غيره عن ذلك لا يعمل فى حق الفرض. لذلك لم يلزم. وقد روى عن محمد^(١)، رحمه الله، على هذا: أن من أدرك مجنوناً ثم أفاق فى بعض الشهر، أنه لا يقضى ما مضى، على ما ذكرت.

وعن أبى حنيفة - رضى الله تعالى عنه -: أنه يقضى، إن كان فى أول الشهر بالغاً، لما أخبر أن صيامه لم يجز لعدم النية، والصبى والكافر بنفسه، ومن فوته لعدم النية، فهو داخل فى حكم فرضه، فعليه القضاء. والله الموفق.

ومن جن الشهر كله لا يقضى لشروط الشهود، وهو لم يشهد شيئاً منه مع إمكان الإسقاط بدليل آخر، وإن كان حق الخطاب فى الظاهر قد اقتضاه على مثل المريض الذى لا يصح، والمسافر الذى لا يقيم. والله الموفق.

وفى قوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، دلالة أن ابتداء الآية فى غير صوم الشهر؛ إذ صوم الشهر يحفظ بالأهلة لا بالأيام، لكن الله تعالى إذ علم الأمر الظاهر فى الخلق أنهم يعدونه بالأيام وإن كان لهم عن ذلك غنى.

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشهر هكذا وهكذا وبأصابع يديه كلتيهما، وعقد أصبعها منها فى آخر المرات»^(٢).

وجاء عن غير واحد أنهم قالوا: «ما كنا نصوم على عهد رسول الله ﷺ تسعة وعشرين أكثر مما نصوم ثلاثين»^(٣). فجائز ذكر قوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، يعنى يعدها الخلق. والله الموفق.

== ينظر: المجموع (٢٥٨/٦)، تبين الحقائق (٢١٦/١)، الدر المختار ورد المحتار (٥٢٧/١).

(١) هو محمد بن الحسن بن فرقد. نسبته إلى بنى شيبان بالولاء. أصله من (حرسا) من قرى دمشق، منها قدم أبوه العراق، فولد له محمد بواسط سنة ١٣١ هـ، ونشأ بالكوفة. إمام فى الفقه والأصول، ثانى أصحاب أبى حنيفة بعد أبى يوسف. من المجتهدين المتسبين. هو الذى نشر علم أبى حنيفة بتصانيفه الكثيرة، مات محمد بالرى سنة ١٨٩ هـ.

من تصانيفه: الجامع الكبير، والجامع الصغير، والمبسوط، والسير الكبير، والسير الصغير، والزيادات. وهذه كلها التى تسمى عند الحنفية كتب ظاهر الرواية وله كتاب الآثار.

ينظر: الفوائد البهية ص (١٦٣)، والبداية والنهاية (٢٠٢/١٠).

(٢) أخرجه البخارى (٦١٤/٤) كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة (١٩٠٨)، ومسلم (١٢، ١٥، ١٦/١٠٨٠) من طرق كثيرة عن عبد الله بن عمر.

(٣) أخرجه أحمد (٩٧/١)، وأبو داود (٧١٠/١) كتاب الصيام، باب الشهر يكون تسعاً وعشرين (٢٣٢٢)، والترمذى (٦٨/٢) كتاب الصوم، باب ما جاء أن الشهر يكون تسعاً وعشرين (٦٨٩). وابن خزيمة (١٩٢٢)، والبيهقى (٢٥٠/٤).

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ، أى: ما حرم عليكم من أنواع اللذات بكف الأنفس عن الذى به يدعو إليها من الأغذية.

أو ﴿تَتَّقُونَ﴾ نقمة الله فى الآخرة، ومخالفته فى الفعل فى الدنيا. وقد جعل الله جل ثناؤه عباداته أعواناً للمعتادين بها على الكف عن المعاصى، والخلاف لله فى الشهوات، فقال: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وغير ذلك. والله الموفق.

والأصل: أن العبادات تذكر أصحابها عظم أحوالهم فى أوقات فيها من المقام بين يدي الجبار، وتطلعهم على الموعد لهم فى الميعاد. وهما أمران عظيمان:

أحدهما: فى الزجر بما يعلم من عظم المقام واطلاع الواحد القهار عليه.

والثانى: فى الترغيب بما يشعر قلبه من لذيذ الموعد ما يضمن له كل لذة دونه، وتنقطع شهواته التى بينه وبين ما وعد. والله أعلم.

ثم قال: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ...﴾ الآية، من غير أن ذكر فطرًا، فلا أشار إلى ما ذكر من السفر والمرض اللذين جعلاً له تأخير الصيام إلى أيام آخر، ولا أشار إلى تعيين تلك الأيام.

وكذلك قال مثله فيما كان عرف الوقت لابتداء الصيام بقوله عز وجل: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾ على أثر المعرف له بقوله عز وجل: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ ، لكن الفطر يعرف أنه مضمّر فيه بالعقل والسمع:

فأما السمع: فما جاء من الآثار فى الإذن بالإفطار للسفر والمرض؛ دل أن فى ذكر العدة ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ إضمار فطر. والله أعلم.

والعقل: أن الله تعالى جعل المرض والسفر سببى الرخص، فلا يجوز أن يصيرا سببى زيادة فرض على ما كان قبل اعتراضهما، على أن قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ دليل أنه لو كان يلزم القضاء مع فرض فعل الصوم لكان ذلك عسرًا وحرَجًا فى الدين، وقد أخبر الله تعالى أنه ما يجعل علينا الحرج فى الدين.

وعلى ذلك قال بعض الناس: يلزمهما القضاء إن أفطرا أو لا، محتجًا بما لم يذكر فى القرآن الإفطار، وذكر ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ كأنه جعل الوقت لهما غير الذى هو لغيرهما.

يؤيد ذلك المروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الصائم فى السفر كالمفطر»^(١)،

(١) أخرجه ابن ماجه (١٦٤/٣) كتاب الصيام، باب ما جاء فى الإفطار فى السفر (١٦٦٦) من طريق =

ومعلوم أن على المفطر في الحضر القضاء. فكذلك الصائم في السفر.
ولكن الآية عندنا على الإضمار، وعلى ذلك يجرى ذكر الرخص على إثر ذكر الحضر^(١)، كقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ، لِيَعْبُدَ اللَّهُ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] من غير ذكر الأكل أنه على إباحته.

وقال الله عز وجل: ﴿وَأْتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، ثم قال عز وجل: ﴿فَإِنْ أَحْصَيْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦] ولم يذكر منه الإحلال، لكنه معلوم أنه على الشك ما لم يوجد؛ إذ لا يكون العذر سبب الزيادة في الفرض. وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦]، ثم قال عز وجل: ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ...﴾ الآية [البقرة: ١٩٦]، وذلك على إطلاق الحلق، ثم يلزمه الفداء؛ لأن الأذى والمرض يلزمانه. فمثله الأول.

ثم الأصل: أنه لا أحد يلزم فرض صيام الشهر في غيره إذا لم يدرك الشهر، وقد أمر من نحن في ذكره؛ فبان أنه لزمه بإدراك الشهر لإدراك وقت الإمكان بلا عذر. وقال: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، وقال: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ ليعلم أن الذي يلزمه بالشهر في أوقات الإمكان. وذلك على ما يلزم الإحداث الطهارة لأوقات عبادة لا تقوم دونها، وفعل الجنابات لأوقات الحلول وإن تأخرت فمثله أمر الشهر.

دليله ما بينا، وما ثبت عن رسول الله ﷺ وعن صحابته: فعل الصيام في ذلك الوقت والفطر جميعاً؛ ثبت أن الصوم يجوز على المرض والسفر؛ إذ هما لأنفسهما لا يناقضان الصيام بما جاز معهما، وقد أمر به المتمتع وهو المسافر، أن ليس ذلك على حاضري المسجد الحرام، وذابح الصيد والمبادئ^(٢) بهما لا يضادان الصيام، ثم كان القضاء عن الشهر بظاهر التلاوة؛ فبان أنه يجوز فيهما.

== أسامة بن زيد عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «صائم رمضان في السفر كالمفطر في الحضر».

قال البوصيري: هذا إسناد ضعيف ومنقطع، أسامة بن زيد هو ابن أسلم ضعيف، وأبو سلمة بن عبد الرحمن لم يسمع من أبيه شيئاً قاله ابن معين والبخاري.

قلت: وللحديث طريق أخرى، أخرجه النسائي (١٨٣/٤)، كتاب الصيام، باب قوله: «الصائم في السفر كالمفطر في الحضر»، من طريق ابن أبي ذئب عن الزهري عن أبي سلمة عن عبد الرحمن ابن عوف موقوفاً.

(١) في أ: الخطر.

(٢) في أ: والمنادى.

وإذا جاز ثبت أن التأخير رخصة والفضل فى الفعل . والله أعلم .
والخبر على من يجهد الصيام حتى خيف عليه ، وكذلك ما جاء من الآثار : « أن ليس من البر الصيام فى السفر »^(١) . والله أعلم .
وعلى هذا يخرج قول أصحابنا فى المكروه على الفطر^(٢) : أنه إن كان مريضاً أو مسافراً

(١) أخرجه البخارى (١٨٣/٤) كتاب: الصوم، باب: قول النبى ﷺ لمن ظلل عليه واشتد الحر: «ليس من البر الصوم فى السفر»، حديث (١٩٤٦)، ومسلم (٧٨٦/٢) كتاب: الصوم، باب: جواز الصوم والفطر فى شهر رمضان للمسافر فى غير معصية...، حديث (١١١٥/٩٢)، وأبو داود (٧٩٦٢) كتاب: الصوم، باب: اختيار الفطر، حديث (٢٤٠٧)، والنسائى (١٧٥/٤) كتاب: الصوم، باب: العلة التى من أجلها قيل ذلك، وذكر الاختلاف على محمد بن عبد الرحمن فى حديث جابر بن عبد الله فى ذلك، والطائلى (١٨٩/١) كتاب: الصوم، باب: الرخصة فى الفطر للمسافر فى رمضان حديث (٩١٠)، وأحمد (٢٩٩/٣)، والذامى (٩/٢) كتاب: الصوم، باب: فى السفر، والطحاوى فى شرح معانى الآثار (٦٢/٢) كتاب: الصوم فى السفر، وأبو نعيم فى الحلية (١٥٩/٧)، والبيهقى (٢٤٢/٤) كتاب: الصوم، باب: تأكيد الفطر فى السفر إذا كان يجهد الصوم، والخطيب (١١٨/١٢)، وابن خزيمة (٢٥٤/٣)، وأبو يعلى (٤٠٣/٣)، وابن الجارود فى المنتقى رقم (٣٩٩) من حديث جابر .

(٢) الإكراه: هو حمل الإنسان غيره، على فعل أو ترك ما لا يرضاه بالوعيد . ومذهب الحنفية والمالكية أن من أكره على الفطر فأفطر قضى . قالوا: إذا أكره الصائم بالقتل على الفطر، بتناول الطعام فى شهر رمضان، وهو صحيح مقيم فمرخص له به، والصوم أفضل، حتى لو امتنع من الإفطار حتى قتل، يثاب عليه؛ لأن الوجوب ثابت حالة الإكراه، وأثر الرخصة فى الإكراه هو سقوط المأثم بالترك، لا فى سقوط الوجوب، بل بقى الوجوب ثابتاً، والترك حراماً، وإذا كان الوجوب ثابتاً، والترك حراماً، كان حق الله تعالى قائماً، فهو بالامتناع بذل نفسه لإقامة حق الله تعالى؛ طلباً لمرضاته، فكان مجاهداً فى دينه، فيثاب عليه . وأما إذا كان المكروه مريضاً أو مسافراً، فالإكراه - كما يقول الكاسانى - حينئذ مباح مطلق، فى حق كل منهما، بل موجب، والأفضل هو الإفطار، بل يجب عليه ذلك، ولا يسعه ألا يفطر، حتى لو امتنع من ذلك، فقتل، يَأْثَم . ووجه الفرق: أن فى الصحيح المقيم كان الوجوب ثابتاً قبل الإكراه من غير رخصة الترك أصلاً، فإذا جاء الإكراه - وهو سبب من أسباب الرخصة - كان أثره فى إثبات رخصة الترك، لا فى إسقاط الوجوب . وأما فى المريض والمسافر، فالوجوب مع رخصة الترك، كان ثابتاً قبل الإكراه؛ فلا بد أن يكون للإكراه أثر آخر لم يكن ثابتاً قبله، وليس ذلك إلا إسقاط الوجوب رأساً، وإثبات الإباحة المطلقة؛ فنزل منزلة الإكراه على أكل الميتة، وهناك يباح له الأكل، بل يجب عليه؛ فكذا هنا . وفرق الشافعية بين الإكراه على الأكل أو الشرب، وبين الإكراه على الوطء: فقالوا فى الإكراه على الأكل: لو أكره حتى أكل أو شرب لم يفطر، كما لو أوجر فى حلقه مكرهاً؛ لأن الحكم الذى يبنى على اختياره ساقط لعدم وجود الاختيار . أما لو أكره على الوطء زنى، فإنه لا يباح بالإكراه، فيفطر به، بخلاف وطء زوجته . واعتمد العزيزى الإطلاق، وتجهه بأن عدم الإفطار لشبهة الإكراه على الوطء، والحرمة من جهة الوطء، فعلى هذا يكون الإكراه على الإفطار مطلقاً بالوطء والأكل والشرب، إذا فعله المكروه لا يفطر به، ولا يجب عليه القضاء إلا فى الإكراه على الإفطار بالزنى؛ فإن فيه وجهاً بالإفطار والقضاء عندهم . وهذا الإطلاق عند الشافعية، هو مذهب الحنابلة أيضاً: فلو أكره على الفعل، أو فعل به ما أكره عليه، بأن صب فى حلقه مكرهاً أو نائماً، كما لو أوجر المعنى عليه معالجة لا

لا يسعه ألا يفطر لما جاء فى ذلك من الوعيد فى الفعل فى السفر فى حال الضرورة، ويسعه لو كان صحيحاً مقيماً لما لم يذكر له الرخصة، ويلزمه فيه القضاء، مع ما فيه؛ إذ لم يكن ظهر الإذن فى تلك الحال كان كفه عنه تعظيماً لأمر دينه، من غير أن ذكر له فى الدين النهى عنه، فهو فى سعة، وليس كالمكره على أكل الميتة، ما ليس ذلك بذى بدل. وقد فرق بين ذى بدل وما لا بدل له، نحو إتلاف مال آخر، وأكل الميتة، ولأن علته الاضطرار وليست علة الفطر فى السفر تلك، إذ قد يجوز، لا له، فهو عذر النفس، لا ضرورة النفس؛ فكأنه غير معقول العلة، وفيه تعظيم الدين. وليس فى أكل الميتة وما ذكر. ولا قوة إلا بالله.

ثم السفر الذى له الرخص^(١): أجمع أنه لم يرد به المكان، لما جاء الفطر فى الأمصار، ثبت أنه لنفس السفر.

ثم كان السفر - حقيقته الظهور [و] الخروج عن الأوطان، وقد يكون مثله فى الخروج عن الأوطان إلى الضياع ونحوه، ولم يؤذن فى الفطر؛ ثبت أنه راجع إلى الحد، وعلى ذلك متفق القول.

ثم كان الحد المرخص عندنا: الخروج على قصد سفر ثلاثة أيام لخصال ثلاث: أحدها: الإجماع على أن هذا الحد مرخص ودونه تنازع. والتنازع يوجب النظر؛ لا الفتوى^(٢) بالرخص، وفى ذلك أمر بفعل الصيام.

والثانى: مجيء الخبر من وجهين:

أحدهما: فى تقدير مسح السفر بثلاثة أيام، ومعلوم أنه جعل للسفر حداً ووقتاً لفعل رخصة المسح وأوقات الأفعال على اختلافها. يتفق على أنها لا تقصر عن احتمال الأفعال على الوفاء، وليس بما لم يدخل الليالى فى حق السفر عبرة؛ لأن الأسفار وإن كانت مؤسسة على قطع الطرق والسير فيها، فإن دوام السير يحجف صاحبه ويهلكه، وفى ذلك منع السفر؛ ثبت أن أوقات السعى والسير مشترطة داخلية فى حق السفر.

لذلك صارت الليالى كالمعفوة، فتكون محيطة بما فيها من فعل المسح.

والثانى: ما جاء من الأثر فى النهى عن سفر ثلاثة أيام إلا لمحرّم^(٣). وهو المنهى لما

= يفطر، ولا يجب عليه القضاء؛ لحديث: «وما استكروها عليه».

ينظر: البدائع (٩٦/٢، ٩٧)، والإقناع وحاشية البيجرى (٣٢٩/٢)، وكشاف القناع (٢/٢٢٠).

(١) فى أ: المرخص.

(٢) فى ط: للفتوى.

(٣) ورد من حديث ابن عمر، وأبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى، وابن عباس.

جاء به النهي، وفيما دونه تنازع، لم يوجب الرخصة للإشكال في حق التمام لما له الرخصة على ما كان لما له النهي. والله أعلم.

والوجه الثالث: أن السفر عذر، والنهيات في الأعذار الثلاث، فكذلك بالأيام؛ إذ بها يسافر. وقال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْنِجْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦].

وأما المرض فلم يجز أن يكون اسمه سبباً للرخصة؛ إذ ربما كان المرض يخفف الصيام ويسهل عليه سبيل فعله.

ومن البعيد الترخيص بما يسهل فيه الفعل، والتضييق^(١) لما يشتد؛ فثبت أنه ليس لاسم المرض. وعلى ذلك الإجماع فهو - والله أعلم - لما يخاف أن يزداد له بترك الأكل الداء، ويقبح على المرء اكتساب الداء وتعاطي الضارية، فرخص له الفطر بذلك، وذلك معنى البشرية، إذ به تخفيف ما به أو منع، أو ما يعتريه من الضرر، ولهذا ما رخص أصحابنا لمن به رمد يخاف الزيادة فيه.

وقد روى عن أنس بن مالك، رضى الله تعالى عنه، أن النبي ﷺ قال: «يفطر المريض

حديث ابن عباس:

أخرجه البخارى (١٤٢/٦ - ١٤٣) كتاب: الجهاد، باب: من اكتب فى جيش، فخرجت امرأته حاجة أو كان له عذر هل يؤذن له؟ حديث (٣٠٠٦)، ومسلم (٩٧٨/٢) كتاب: الحج، باب: سفر المرأة مع محرم إلى حج أو غيره حديث (٤٢٤ / ١٣٤١)، وأحمد (٢٢٢/١)، والطيالسى (١/ ١٢٤ - منحة) رقم (٥٨٣)، وأبو يعلى (٢٧٩/٤) رقم (٢٣٩١)، وابن خزيمة (٢٥٢٩)، والطحاوى فى شرح معانى الآثار (١١٢/٢)، وابن حبان (٣٧٦٣، ٣٧٦٤ - الإحسان) من طريق عمرو عن أبى معبد عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يخلون رجل بامرأة ولا تسافر امرأة، إلا ومعها ذو محرم».

حديث أبى سعيد الخدرى:

أخرجه البخارى (٧٣/٤) كتاب: جزاء الصيد، باب: حج النساء، حديث (١٨٦٤)، ومسلم (٩٧٦، ٩٧٥/٢) كتاب: الحج، باب: سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، حديث (٤١٥)، ١٨٢٧/٤١٦. وأحمد (٣٤/٣، ٧١)، والحميدى (٧٥٠)، وأبو يعلى (٣٨٨/٢ - ٣٨٩) رقم (١١٦٠) من طريق قزعة عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً بلفظ: «لا تسافر المرأة يومين من الدهر إلا ومعها زوجها أو ذو محرم منها».

وأخرجه أبو داود (٥٣٩/١) كتاب: المناسك، باب: فى المرأة تحج بغير محرم، حديث (١٧٢٦)، والترمذى (٤٧٢/٣) كتاب: الرضاع، باب: كراهية أن تسافر المرأة وحدها حديث (١١٦٩) من طريق الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفراً فوق ثلاثة أيام فصاعداً إلا ومعها أبوها أو أخوها أو زوجها أو ابنها أو ذو محرم منها».

وقال الترمذى: حسن صحيح.

(١) فى ب: والنفس.

والجبلى إذا خافت أن تضع ولدها، والمرضع إذا خافت الفساد على ولدها»^(١) ثبت أن الرخصة لما يخاف من فساد ينزل^(٢). ولا قوة إلا بالله.

(١) أخرجه أحمد (٢٩/٥)، وأبو داود (٢/٧٩٦، ٧٩٧) كتاب: الصوم، باب: اختيار الفطر، الحديث (٢٤٠٨)، والترمذى (٢/١٠٩)، كتاب: الصوم، باب: الرخصة فى الإفطار للجبلى والمرضع الحديث (٧١١)، وابن ماجه (١/٥٣٣) كتاب: الصيام، باب: الإفطار للحامل والمرضع، الحديث (١٦٦٧)، والطحاوى فى «شرح معانى الآثار» (١/٤٢٣) كتاب: الصلاة، باب: صلاة المسافر، والبيهقى (٣/١٥٤) كتاب: الصلاة، باب: السفر فى البحر كالسفر فى البر، كلهم من طريق عبد الله بن سودة عن أنس بن مالك رجل من بنى عبد الله بن كعب، قال: «أغارت علينا خيل رسول الله ﷺ، فأتيت رسول الله ﷺ، فوجدته يتعدى، فقال: ادن فكل، فقلت: إني صائم، فقال: ادن أحدثك عن الصّوم؛ أو الصيام، إن الله وضع عن المسافر شطر الصلاة، وعن الحامل أو المرضع الصوم؛ أو الصيام، والله لقد قالهما النبى ﷺ كليهما أو أحدهما، فيألف نفسى ألا أكون طعمت من طعام النبى ﷺ».

وقال الترمذى: (حديث حسن، ولا نعرف لأنس بن مالك هذا عن النبى ﷺ غير هذا الحديث الواحد).

(٢) الفقهاء متفقون على أن الحامل والمرضع لهما أن تفطرا فى رمضان، بشرط أن تخافا على أنفسهما أو على ولدهما المرض أو زيادته، أو الضرر أو الهلاك، فالولد من الحامل بمنزلة عضو منها؛ فالإشفاق عليه من ذلك كالإشفاق منه على بعض أعضائها. قال الدردير: ويجب - يعنى الفطر - إن خافنا هلاكاً أو شديداً أذى، ويجوز إن خافنا عليه المرض أو زيادته. ونص الحنابلة على كراهة صومهما، كالمرضى. ودليل ترخيص الفطر لهما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَنْكَارِهِ أُخْرِجُوا﴾ وليس المراد من المرض صورته، أو عين المرض، فإن المريض الذى لا يضره الصوم ليس له أن يفطر، فكان ذكر المرض كناية عن أمر يضر الصوم معه، وهو معنى المرض، وقد وجد هاهنا، فيدخلان تحت رخصة الإفطار. وصرح المالكية بأن الحمل مرض حقيقة، والرضاع فى حكم المرض، وليس مرضاً حقيقة. وكذلك - من أدلة ترخيص الفطر لهما - حديث أنس بن مالك الكعبى - رضى الله تعالى عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة، وعن الحامل أو المرضع الصوم أو الصيام»، وفى لفظ بعضهم: «عن الجبلى والمرضع». وإطلاق لفظ الحامل يتناول - كما نص القليوبى - كل حمل، ولو من زنى، وسواء أكانت المرضع أم لا للرضيع أم كانت مستأجرة لإرضاع غير ولدها، فى رمضان أو قبله، فإن فطرها جائز، على الظاهر عند الحنفية، وعلى المعتمد عند الشافعية، بل لو كانت متبرعة ولو مع وجود غيرها، أو من زنى، جاز لها الفطر مع الفدية. وقال بعض الحنفية، كابن الكمال والبهيسى: تقيد المرضع بما إذا تعينت للإرضاع، كالظفر بالعقد، والأم بأن لم يأخذ ثدى غيرها، أو كان الأب معسراً؛ لأنه حينئذ واجب عليها، لكن ظاهر الرواية خلافه، وأن الإرضاع واجب على الأم ديانة مطلقاً وإن لم تعين، وقضاء إذا كان الأب معسراً، أو كان الولد لا يرضع من غيرها. وأما الظئر فلأنه واجب عليها بالعقد، ولو كان العقد فى رمضان، خلافاً لمن قيد الحل بالإجارة قبل رمضان، كما قال بعض الشافعية - كالغزالي -: يقيد فطر المرضع، بما إذا لم تكن مستأجرة لإرضاع غير ولدها، أو لم تكن متبرعة، لكن المعتمد المصحح عندهم خلافه، قياساً على السفر فإنه يستوى فى جواز الإفطار به من سافر لغرض نفسه، وغرض غيره، بأجرة وغيرها.

ينظر: الشرح الكبير (١/٥٣٦)، جواهر الإكليل (١/١٥٣)، البدائع (٢/٩٧)، كشاف القناع (٢/٣١٣).

وعن عبد الله بن عمر، رضى الله تعالى عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من مات من طعام أو شراب وهو يقدر فله النار» وبالله المعونة.
وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾.

قال قائلون: يطيقون الفداء. وذلك فى الأمر الأول فى المسافر والمريض أن له أن يقضى فى أيام أخر، وأن يفدى. وفيه: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أى: أن تقضوا الصيام - والله أعلم - إذ قد يحتمل أيضًا أن كانت الرخصة من قبل فيمن عليه بالخيار بين أن يصوم وبين أن يفدى، والصوم خير على ما ذكر فى الآية، ثم نسخ ذلك، إن كان على التأويل الأول بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ اشْهَرُ فَلْيَصُمْهُ...﴾ الآية، أنه ألزم القضاء على كل حال، وإن كان الثانى فقوله: ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾، أنه ألزم الفعل على حال، وبمثل ذلك خبر معاذ فى إحالة الصيام^(١): أنه كان للمرء خيار بين الفطر والفداء وبين الصيام، ثم نسخ. فى قوله: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ على أثر ذكر السفر والمرض دلالة جعل الصيام فى السفر^(٢) خيرًا من الفطر والفداء فى غيره، وإن احتمل الذى ذكرت. والله أعلم.

(١) تقدم.

(٢) ذهب الأئمة الأربعة، وجماهير الصحابة والتابعين إلى أن الصوم فى السفر جائز صحيح منعقد، وإذا صام وقع صيامه وأجزأه. وروى عن ابن عباس وابن عمر وأبى هريرة - رضى الله عنهم - أنه غير صحيح، ويجب القضاء على المسافر إن صام فى سفر. وروى القول بكرهه. والجمهور من الصحابة والسلف، والأئمة الأربعة، الذين ذهبوا إلى صحة الصوم فى السفر، اختلفوا بعد ذلك فى أيهما أفضل: الصوم أم الفطر، أو هما متساويان؟

فمذهب الحنفية والمالكية والشافعية، وهو وجه عند الحنابلة: أن الصوم أفضل، إذا لم يجهد به الصوم ولم يضعفه، وصرح الحنفية والشافعية بأنه مندوب. قال الغزالي: والصوم أحب من الفطر فى السفر؛ لتبرئة الذمة، إلا إذا كان يتضرر به. وقيد القليوبى الضرر بضر لا يوجب الفطر. واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾؛ فقد دلت الآيات على أن الصوم عزيمة والإفطار رخصة، ولا شك فى أن العزيمة أفضل، كما تقرر فى الأصول، قال ابن رشد: ما كان رخصة، فالأفضل ترك الرخصة. وبحديث أبى الدرداء المتقدم قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ فى شهر رمضان، فى حر شديد... ما فىنا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة». وقيد الحدادى - صاحب الجوهرة من الحنفية - أفضلية الصوم - أيضا - بما إذا لم تكن عامة رفقة مفطرين، ولا مشتركين فى النفقة، فإن كانوا كذلك، فالأفضل فطره موافقة للجماعة.

ومذهب الحنابلة: أن الفطر فى السفر أفضل، بل قال الخرقي: والمسافر يستحب له الفطر، قال المرداوى: وهذا هو المذهب. وفى (الإقناع): والمسافر سقر قصر يسن له الفطر، ويكره صومه ولو لم يجد مشقة، وعليه الأصحاب، ونص عليه، سواء وجد مشقة أو لا، وهذا مذهب ابن عمر وابن عباس - رضى الله عنهم - وسعيد والشعبي والأوزاعي. واستدل هؤلاء بحديث جابر - رضى الله تعالى عنه - : «ليس من البر الصوم فى السفر»، وزاد فى رواية: «عليكم برخصة الله التى رخص لكم

ثم الدلالة على النسخ في الوجه الذى ذكرت. ومتفق القول على أن المطلق لم يكن له الخروج من ذلك بالفداء. فبذلك^(١) عرف النسخ مع ما ثبت من قطع الآية على القضاء فى أحد الوجهين، وفعل الصيام فى الآخر.

وعلى ذلك معتبر القول^(٢) فى الشيخ الفانى الذى لا يقوم للقضاء أن له الفطر والفداء؛ لأن الصوم قد ثبت أنه يحتمل الوفاء بالفداء لكن نسخ بالصيام، فإذا ارتفع الصيام بالعجز عمن يحتمل الخطاب بعبادات الأموال وهم المشايخ، جاز أن يخاطبوا بالصيام ليخرجوا عنه بالفداء. وعلى ذلك ما جاء فى الأثر عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصيام عن الميت^(٣)، أنه الصيام الذى هو صيام من لا يحتمل فعله وهو الفداء. والله أعلم.

وقد قرئ^(٤) ﴿يُطَوَّقُونَهُ﴾ بمعنى يُكَلَّفُونَهُ، ولا يطيقونه، لكن فى الآية ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ولو كان «لا يطيقونه»: لا يرغبون فيه، إلا أن يشترط فيه طاقة الجهد. والله أعلم.

وقوله عز وجل: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾.

من زيادة فداء، وما يستزيد من الخيرات التى لم يفترض ليعود به الخير. أو ﴿تَطَوَّعَ﴾ فيما أذن له فى الفداء بالصوم. والله أعلم.

= فاقبلوها». قال المجد: وعندى لا يكره لمن قوى، واختاره الآجرى.

قال النووى والكمال بن الهمام: إن الأحاديث التى تدل على أفضلية الفطر، محمولة على من يتضرر بالصوم، وفى بعضها التصريح بذلك، ولا بد من هذا التأويل؛ ليجمع بين الأحاديث، وذلك أولى من إهمال بعضها، أو ادعاء النسخ، من غير دليل قاطع. والذين سوا بين الصوم وبين الفطر، استدلوا بحديث عائشة - رضى الله عنها - أن حمزة بن عمرو الأسلمى - رضى الله تعالى عنه - قال للنبي ﷺ: «أصوم فى السفر؟» - وكان كثير الصيام - فقال: «إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر». ينظر: الدر المختار (١١٧/٢)، حاشية القليوبى (٦٤/٢)، الوجيز (١٠٣/١)، الهداية وفتح القدير (٢٧٣/٢).

(١) فى أ: فذلك.

(٢) فى ب: القوم.

(٣) أخرجه البخارى (١٩٢/٤) كتاب: الصيام، باب: من مات وعليه صوم، حديث (١٩٥٢)، ومسلم (٨٠٣/٢) كتاب: الصيام، باب: قضاء الصيام عن الميت، حديث (١٥٣/١٥٧)، وأبو داود (٧٩١ - ٧٩٢) كتاب: الصوم، باب: فيمن مات وعليه صيام، حديث (٢٤٠٠)، والنسائى فى الكبرى (١٧٥/٢) رقم (٢٩١٩)، وأحمد (٩٦/٦)، وابن الجارود فى المنتقى رقم (٩٤٣)، والطحاوى فى «مشكل الآثار» (٣/١٤٠ - ١٤١)، وأبو يعلى (٣٩١/٧) رقم (٤٤١٧)، وابن خزيمة (٢٠٥٢)، وابن حبان (٣٥٧٤ - الإحسان)، والدارقطنى (١٩٤/٢ - ١٩٥)، والبيهقى (٤/٢٥٥) كتاب: الصيام، باب: من قال: يصوم عنه وليه، والبغوى فى شرح السنة (٣/٥٠٩)، وابن حزم فى المحلى (٢/٧) من حديث عائشة.

(٤) ينظر: الدر المصون (١/٤٦٢)، والمحرم الوجيز (١/٢٥٢)، والبحر المحيط (٢/٤١).

وروى عن عائشة^(١)، رضى الله تعالى عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسموا شهر رمضان رمضان، فإنما هو اسم من أسماء الله تعالى. انسبوه إلى ما نسبته لكم القرآن»^(٢). وقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

أضاف عز وجل الفعل إلى الشهر بقوله: ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾؛ فلذلك إذا قصد به صوم الشهر جائز الصوم وإن لم ينو الفرض سوى ما ذكرنا. وكذلك سائر الفرائض نحو الظهر والعصر ينوى ذلك، فيكون ذلك على ما جعله الله من فرض وإن لم ينو الفرض. ولا قوة إلا بالله.

وعلى ذلك من نوى بالصيام غير صيام الشهر جائز عن صيام الشهر، لما أمرنا بصيام الشهر ولم نؤمر بأن نجعل ذلك لشيء سواه، والشهر موجود لنفسه لا يحتاج صاحبه إلى أن يوجد له كان من ذلك على كل حال. وكذلك كل حق معين فى شيء لم يزل عنه نيته إلى غيره؛ كمن يأمر إنساناً بشراء شيء بعينه لم يتحول عنه بالنية، على أن ذلك كالظهر والعصر ونحو ذلك؛ فيحال على تحقيق ذلك قصد غير، وبعد فإن كلا يجمع ألا يجوز غير؛ فثبت أن استحقاق الشهر بصومه لا يستحق عليه غيره من الصيام فجاز عنه.

وعلى ذلك أجاز أبو حنيفة فى السفر غيره، من حيث أذن له فى تأخير هذا، أو غيره فرض عليه نحو صوم الظهر والقتل، ولا رخصة له فى تأخيره، فجاز فيه؛ إذ هو وقت صيام حول إلى وقت غيره، فصار هذا الوقت بالحكم لغيره، وليس كنية المتطوع؛ لأنه فى موضع الرخصة وفى العمل به وقد يكون له مقدار التطوع من الفضل على غيره فهو أولى به. ولما قد يجوز النفل بلا نية نفل، فكأنه لم ينو النفل. فهو رجل لم يعمل برخصة الله بل عمل بوجه العزم. ولا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

قيل^(٣): ﴿تَتَّقُونَ﴾ الأكل والشرب والجماع.

ويحتمل: ﴿تَتَّقُونَ﴾ المعاصى؛ لأن النفس إذا جاعت شبت عن جميع ما تهوى

(١) عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما التيمية، أم عبد الله الفقيه أم المؤمنين الربانية، حبيبة النبى ﷺ لها ألفان ومائتان وعشرة أحاديث قال عروة: ما رأيت أعلم بالشعر من عائشة. وقال القاسم: كانت تصوم الدهر. وقال هشام بن عروة: توفيت سنة سبع وخمسين. ودفنت بالبيقاع. ينظر: الخلاصة: (٣٨٧/٣) (١٠٦).

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عدى والبيهقى فى سننه (٢٠١/٤)، والديلمى كما فى الدر المنثور (٣٣٤/١) عن أبى هريرة مرفوعاً وموقوفاً «لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله ولكن قولوا شهر رمضان».

(٣) قاله السدى، أخرجه ابن جرير عنه (٢٧٣٣)، وانظر تفسير البغوى (١٤٩/١)، والدر المنثور (١/٣٢٣).

وتشتهى. وإذا شبعت تمت الشهوات، وتتمنى ما تهوى.

ويحتمل: ﴿تَتَقَوَّنَ﴾ عذاب الله وعقابه. والله أعلم.

وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

ألزم بعض الناس على المريض والمسافر قضاء عدة الأيام وإن صاموا، فاستدلوا بظاهر الآية فقالوا: أوجب عليهم القضاء على غير ذكر الإفطار فيها.

واحتجوا أيضًا بما روى عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «الصائم في السفر كالمنفطر في الحضر»^(١)، فقد حقق له حكم الإفطار في أن لا صوم له؛ فدل أنه لم يجز، فكان كتقديم الصوم عن وقته.

وأما عندنا: فهو على إضمار الإفطار، كأنه قال: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ فأفطر، ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. وهو كما ذكر عز وجل في المتأذى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ يَدُ أَدَى مِنْ زَأْسِهِ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ سُكٌّ﴾ [البقرة: ١٩٦]، أى: من كان به أذى فرفع من رأسه ففدية. وكما قال في المضطر: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، ومثله كثير في القرآن. فلا يجوز لأحد أن يأتي ذلك، ولأن المرض والسفر أعذار رخص الإفطار فيها تخفيفًا وتوسيعًا على أربابها، فلو كان على ما قال هو لكان فيه تضيق عليهم؛ ولأنه إذا قضى في عدة من الأيام إنما يقضى عن ذلك الوقت، فلو لم يجز الفعل في ذلك الوقت وفي تلك الحال، لكان لا يأمر بالقضاء عن ذلك الوقت ولا عن تلك الحال؛ فدل أنه على ما ذكرنا. والله أعلم.

وأصله: ما روى عن رسول الله ﷺ، أنه صام في السفر^(٢)، وروى أنه أفطر^(٣)، وروى عن الصحابة، أنهم صاموا في السفر^(٤). ولو كان لا يجوز لكان لا معنى لصومهم.

(١) تقدم.

(٢) في الباب عن أبي الدرداء:

أخرجه البخارى (٦٩٢/٤) كتاب الصوم (١٩٤٥)، ومسلم (٧٩٠/٢)، كتاب الصيام، باب التخيير في الصوم (١١٢٢/١٠٨) من طريق أم الدرداء عنه قال: «خرجنا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره في يوم حار حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا ما كان من النبي ﷺ وابن رواحة».

(٣) في الباب عن ابن عباس:

أخرجه البخارى (١٩٤٤)، ومسلم (١١١٣/٨٨) من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عنه أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة في رمضان فصام حتى بلغ الكديد أفطر فأفطر الناس.

(٤) في الباب عن أنس بن مالك:

أخرجه البخارى (١٩٤٧)، ومسلم (١١١٨/٩٨) من طريق حميد الطويل عنه قال: كنا نسافر مع النبي ﷺ فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم.

وأما قوله: «الصائم في السفر كالمفطر في الحضر»، فهو عندنا: إذا كان الصوم أجهده وضعفه لزمه أن يفطر، صار كالذي أفطر في الحضر. والله أعلم.

وروى عن أنس -رضي الله عنه [أنه]^(١) - قال: «الصوم أفضل والفطر رخصة»^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾.

قرأ بعضهم^(٣): «وعلى الذين يُطَوَّقُونَهُ»، فمعناه يكلفونه. وقال بعضهم: «لا يطيقونه». لكن هذا لا يحتمل؛ وذلك أنه قال: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، دل أن قوله: «لا يطيقونه» لا يحتمل.

وقيل: كان أول ما ترك الصوم كان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً كل يوم، فلما نزل صوم شهر رمضان نسخ ما كان قبله عمن يطيق الصوم، ويثبت الرخصة لمن لا يطيق من نحو الشيخ الفاني، والحبلى والمرضع إذا خافت على ولدها. وقيل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾، أى: الفدية.

وقيل^(٤): ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾، ثم عجزوا، ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كل يوم. وقيل: إن المريض والمسافر إن شاء أفطرا وقضيا، وإن شاء أفطرا وفديا. لكن ذلك كله منسوخ بما ذكرنا بنزول ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾.

وروى عن أنس، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: «أحيل الصوم ثلاثة أحوال: فمرة يقضى، ومرة يطعم، ومرة يصام، ثم نسخ هذا كله»^(٥).

ثم الأصل في هذا: أن من عجز عن قضاؤه جعل له الخروج بالفداء بعجزه عن ابتدائه، من نحو الشيخ الفاني وغيره.

ومن لم يعجز عن قضاؤه، لم يجعل له الخروج بالفداء، من نحو المرضع والحبلى والمريض والمسافر؛ لأنهم لم يعجزوا عن غير المفروض والبدل أبداً، إنما يجب إذا عجز عن إتيان الأصل. والله أعلم.

وقوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾.

يحتمل: زيادة الطواف.

(١) سقط في ط.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد كما في الدر المنثور (١/٣٤٦).

(٣) منهم عبد الله بن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٧٧٢، ٢٧٧٣، ٢٧٧٤، ٢٧٧٥، ٢٧٨٥)، وعن عائشة (٢٧٧٩)، وعكرمة (٢٧٧٦)، وغيرهم.

(٤) قاله عكرمة، أخرجه ابن جرير عنه (٢٧٧٨).

(٥) تقدم عن معاذ بن جبل.

ويحتمل: نفس الحج .

ويحتمل: أصل التطوع أن كل ما يتطوع به فهو خير له إذا تطوع فى الأصل خير .

وقوله عز وجل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ .

قوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ .

قيل: يهتدون به الطريق المستقيم .

وقيل^(١): بيان للناس من الضلالة .

وقوله: ﴿وَبَيَّنَّا مَنَ الْهُدَى﴾ .

قيل: حجج للناس إذا تأملوه .

وقيل^(٢): ﴿وَبَيَّنَّا مَنَ الْهُدَى﴾ أى: فيه الحلال، والحرام، والأحكام، والشرائع .

وقوله: ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ .

قيل: يفرق بين الحق والباطل .

وقيل: ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ ، المخرج فى الدين من الشبهة والضلالة .

قال ابن عباس^(٣) - رضى الله تعالى عنه - : «نزل الفرقان إلى السماء الدنيا من اللوح

جملة فى شهر رمضان فى ليلة القدر - فى ليلة مباركة - جملة واحدة، ثم أنزل بعد ذلك

على مواقع النجوم رسلاً رسلاً فى الشهور والأيام على قدر الحاجات» .

وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ .

يحتمل قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾ وهو مقيم صحيح، ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ . ثم رخص

للمريض والمسافر الإفطار بقوله عز وجل: ﴿فَمَن كَانَ مِنْكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ

أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ .

ويحتمل قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾ أى: من شهد منكم بعقله الشهر ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾

فلا يدخل فى الخطاب المجانين ولا الصبيان، ألا ترى أن أول الخطاب خرج للمؤمنين

بقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ فهو لاء لم يدخلوا فيه؛ فدل أن

قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾ أى: شهد منكم بعقله، ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ .

ثم يحتمل أن تكون فرضية الصوم بقوله عز وجل: ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ .

(١) انظر: تفسير البغوى (١/١٥١) .

(٢) قاله السدى، أخرجه ابن جرير عنه (٢٨٣٠)، وانظر تفسير البغوى (١/١٥١) .

انظر: تفسير البغوى (١/١٥١) .

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٨٢٣، ٢٨٢٤، ٢٨٢٥، ٢٨٢٦، ٢٨٢٨، ٢٨٢٩)، وانظر الدر المنثور (١/

ويحتمل: لا بهذا، ولكن بقوله: ﴿وَلَكُمْ مِلَّةٌ﴾؛ إذ لا يجب إكمال العدة لما مضى إلا على حق الفرضية.

والثانى: قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ يَكُفِّرَ عَنْكُمْ أَلْسِنَكُمْ﴾، بما رخص للمريض والمسافر الإفطار، ولو كان غير فرض لم يكن لما ذكر من الامتنان علينا بالتيسير معنى؛ لأن المنة لا تذكر فيما له تركه؛ فدل أنه فرض.

ويحتمل: أن يكون فرضيته بقوله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾؛ لأن قوله: ﴿كُتِبَ﴾، أى: فرض. فدل هذه الآيات على أنه فرض.

ثم اختلف فى قضاء ما فات منه برخصة الإفطار فى السفر أو فى المرض: قال بعضهم^(١): لا يجوز إلا متتابعًا. وكذلك روى فى حرف أبى بن كعب فى قوله: «فعدة من أيام آخر متتابعات»^(٢).

وأما عندنا: فإنه يجوز متتابعًا ومتفرقًا؛ اتباعًا لما روى عن خمسة من أصحاب رسول الله ﷺ، أنهم قالوا: «إن شاء تابع، وإن شاء فرق» سوى أن عليًا^(٣)، رضى الله تعالى عنه، قال: يتابع، لكنه إن فرق جاز، ثم عن على، وعبد الله بن عباس، وأبى سعيد الخدرى^(٤)، وأبى هريرة، رضى الله تعالى عنهم، وآخر لست أذكره، أنهم قالوا: بجواز ذلك^(٥)، ولا يحتمل أن التابع شرطًا فيه خفى ذلك على هؤلاء، أو تركوه إن عرفوه؛ فدل

(١) قلت: روى فى ذلك حديثا مرفوعا عن أبى هريرة أخرجه الدارقطنى بإسناد ضعيف عنه مرفوعا كما فى الدر المنثور (٣٤٨/١) بلفظ: «من كان عليه صوم من رمضان فليسرده ولا يفرقه».

(٢) أخرجه ابن المنذر والدارقطنى وصححه، والبيهقى فى سننه عن عائشة كما فى الدر المنثور (١/٣٤٨). قالت: نزلت (فعدة من أيام آخر متتابعات) فسقطت (متتابعات) قال البيهقى: أى نسخت.

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة (٩١٣٦) من طريق أبى إسحاق عن الحارث عنه قال: «من كان عليه صوم رمضان فليصمه متصلا ولا يفرقه».

(٤) سعد بن مالك بن سنان - بنونين - ابن عبد بن ثعلبة بن عبيد بن خدرة - بضم المعجمة - الخدرى أبو سعيد، بايع تحت الشجرة، وشهد ما بعد أحد، وكان من علماء الصحابة، له ألف ومائة حديث وسبعون حديثًا، اتفقا على ثلاثة وأربعين، وانفرد البخارى بستة وعشرين، ومسلم باثنين وخمسين وعنه طارق بن شهاب، وابن المسيب، والشعبى، ونافع، وخلق. قال الواقدي: مات سنة أربع وسبعين.

ينظر: تهذيب الكمال (٤٧٣/١)، تهذيب التهذيب (٤٧٩/٣)، تقريب التهذيب (٢٨٩/١)، خلاصة تهذيب الكمال (٣٧١/١)، الكاشف (٣٥٣/١)، تاريخ البخارى الكبير (٤٤/٤).

(٥) أخرجه ابن أبى شيبة عن ابن عباس وأبى هريرة (٩١١٤)، (٩١١٦) قالوا: لا بأس بقضاء رمضان متفرقا.

وأخرجه أيضًا عن أنس (٩١١٥) قال: إن شئت فاقض رمضان متتابعًا وإن شئت متفرقا.

وعن معاذ بن جبل (٩١١٩) أنه سئل عن قضاء رمضان قال: أحص العدة وصم كيف شئت.

أنه لا يصح ذكر التتابع شرطاً فيه، وليس كذكر التتابع في صوم كفارة اليمين في حرف ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه؛ لأنه لم يخالفه أحد من الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، في ذلك، فصار كالمتلو. وهاهنا قد خالفوا أبيًا في حرفه؛ فلم يصر كالمتلو؛ لذلك افترقا. والله أعلم.

وقراءة أبى إن ثبتت عنه، فهو على الأرب؛ لما ذكر من إجماع الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، وبما أنه وجب بوقت، وكل ذى وقت فليس التتابع بشرط فيه في غير ذلك الوقت.

ولو كان التتابع شرطاً، لكان حق الإفطار يلزم الكل؛ حتى يكون القضاء موصولاً أو الابتداء.

فأما إذا جاز التفريق بين بعض له حكم الابتداء وبعض له حكم القضاء، لجاز في غيره من الأبعاض؛ إذ كل ذلك له في الابتداء جاز الفعل والترك. فصار حق كل يوم في القضاء لنفسه لا لغيره؛ إذ كذلك حقه في الترك القضاء، وفي الفعل في الابتداء. ولا قوة إلا بالله.

وما ذكر من المسائل فهي مبنية على هذا الذى ذكرت: أن التتابع للفعل لا يحتمل اعتراض رخصة التفريق على إمكان الجمع؛ ثبت أن الجمع شرط فيه. وما نحن فيه يحتمل صوم كل يوم على الانفراد أن يؤخر فعله في الشهر بالرخصة عن غيره كذلك القضاء. والله أعلم.

وبعد، لو كان التتابع شرطاً لم يكن لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، وقوله عز وجل: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾، كبير فائدة؛ لأن في التتابع شرط الجملة، لا أن يكلف له العدد، وعلى الرجل أن يتم المدة التى للقضاء، لا أن يحفظ الحساب لإكمال العدة. والله أعلم. والأصل: أن كل صوم يؤمر بالتتابع بحيث الفعل يكون التتابع شرطاً فيه حيثما كان الفعل. وكل صوم يكون التتابع فيه بحيث الوقت، ففوت ذلك الوقت يسقط حق التتابع. ولهم على هذا مسائل:

إذا قال: «لله على أن أصوم شعبان»، فلزمه أن يصوم متتابعاً، لكنه إذا فات شيء منه يقضى إن شاء متتابعاً، وإن شاء متفرقاً؛ لأن التتابع بحيث الوقت يسقط لسقوطه.

= وعن ابن عمر (٩١٣٢) قال: صمه كما أفطرته.

وعن أبى عبيدة بن الجراح (٩١٣٣) سئل عن قضاء رمضان متفرقاً قال: أحص العدة وصم كيف شئت.

ولو قال: «لله عليّ أن أصوم شهرًا متتابعًا»، يلزمه أن يصوم متتابعًا، لا يخرج من نذره إلا به؛ لأن التتابع ذكر للصوم، فهو لا يسقط عنه أبدًا.

والثاني: ما قال عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ ، واليسر رخصة، لم يجز أن يجعل فيه ما هو عسر وضيق: وهو التتابع. والله أعلم.

ثم في قوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ ، دلالة أنه إذا صام من غيره لم يجز؛ لأنه أضاف عز وجل الصوم إلى الشهر، وأشار إليه بقوله عز وجل: ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ فلو جاز له أن يصوم من^(١) غيره لكان فيه صرف إلى غير ما جعله الله، وفي ذلك خوف اعتراض لأمره، وإشراك في حكمه. ونسأل الله العصمة من الزيغ عن الحق.

وأما قوله عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ .

قالت المعتزلة: من صام في السفر أو في المرض فعل ما لم يرد الله؛ لأن الله عز وجل أخبر أنه لم يرد العسر، وإنما أراد اليسر، فإذا صام في المرض أو في السفر أراد العسر، والله تعالى أخبر أنه لم يرد، فدل أنه فعل ما لم يرد الله.

لكن الوجه عندنا: أن قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ ، معناه: أراد الله بكم اليسر لما رخص لكم الإفطار في السفر؛ لأنهم أجمعوا على أن الصوم في السفر أفضل، والإفطار رخصة، ولا جائز أن يقال: لم يرد الله ما هو أفضل، وأراد ما هو دونه على قولهم، ولكن يقال: أراد لمن أفطر اليسر، وأراد لمن ترك الإفطار العسر، وإرادته نافذه، فلا جائز أن ينفذ في وجه ولا ينفذ في وجه آخر.

وقوله عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ ، أى: يريد أن ييسر عليكم بالإذن في الفطر، لا أن يعسر عليكم بالنهي عنه.

وقد يحتمل الفعل، لكنه لم يذكر عن أحد أن الله تعالى أراد به اليسر فصام؛ فثبت أن الإرادة موجبة، مع ما لا يحتمل على قولهم أن يكون الصائم في السفر غير مراد، وقد قضى به فرض الله، وأطاع الله فيه. والمعتزلة يقولون بالإرادة في كل فعل الطاعة فضلًا عن الفريضة.

وقوله: ﴿وَلْيُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُكُمْ﴾ .

قيل^(٢): يعنى تعظمون الله، ﴿عَلَىٰ مَا هَدَيْتُكُمْ﴾ لأمر دينه. ويجوز أن يريد بالتعظيم الأمر بالشكر لما أنعم عليهم من أنواع النعم من التوحيد والإسلام وغيره.

(١) في ب: عن

(٢) قاله ابن جرير (١٦٣/٢)، والبعوى (١٥٣/١).

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

أى: ربكم بهذه النعم التى أنعمها عليكم.
ويحتمل: أنه أمر بالتعظيم له والشكر لما رخص لهم الإفطار فى السفر والمرض.
والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦) أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الْاَصِيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ لَبَاسٌ لَّهُمْ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْاَيْلِ وَلَا تُبْشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

هو على الإضمار - والله أعلم - كأنه قال: وإذا سألك عبادى: «أين أنا عن إجابتهم»، فقل لهم: إنى قريب الإحسان، والبر، والكرامة لمن أطاعنى.
ويحتمل: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. قرب العلم والإجابة، لا قرب المكان والذات كقرب بعضهم من بعض فى المكان؛ لأنه كان ولا مكان، ويكون على ما كان، وكذلك قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧] وكقوله: ﴿وَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ﴿وَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، كل ذلك يرجع إلى قرب العلم والإحاطة وارتفاع الجهات، لا قرب الذات على ما ذكرنا.

وإن كانت القصة على ما قاله بعض أهل التفسير^(١): بأن اليهود قالوا: كيف يسمع ربك دعاءنا، وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء مسيرة خمسمائة عام، وأن غلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام؟! فنزل قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، هذا لما لم يعرفوا الصانع؛ ألا تراهم جعلوا له الولد، وجعلوا له شركاء، فخرج سؤالهم، إن كان، مخرج سؤال المتعنت^(٢)، لا سؤال المسترشد.

(١) ذكره البغوى (١/١٥٥)، من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس.

(٢) فى أ: التعنت.

وقوله: ﴿أُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا﴾.

أى: أقبل توحيد الموحد. وكذلك قال ابن عباس، رضى الله تعالى عنه، فى قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦]، أى: وحدونى أغفر لكم.

وقيل: ﴿أُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ ، على حقيقة الإجابة.

وقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾.

أى: إلى ما دعوتهم.

يحتمل: على ما ذكرنا فى قوله: ﴿أُجِيبْ﴾ لكم، إذا استجبت لى بالطاعة والائتمار. ويحتمل: ﴿أُجِيبْ﴾ لكم، إذا أخلصتم الدعاء لى.

ويحتمل: على ابتداء الأمر بالتوحيد، كأنه قال: وحدونى.

ألا ترى أنه قال: ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ إذا فعلوا ذلك.

وقوله: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ﴾.

سماه ﴿لَيْلَةُ الصِّيَامِ﴾. الليل مضاف إلى يومه، كأنه قال: ليلة يوم الصوم، وإن لم

يكن فيها صوم فى الحقيقة؛ لانتظار الصيام فيها بالنهار، على ما جاء عن رسول الله ﷺ إذ قال: «منتظر الصلاة ما دام ينتظرها فى الصلاة»^(١)، وكذلك قوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، أضاف الصوم إلى الشهر يدخل فيه الليل والنهار؛ لأن اسم الشهر يجمع الليل والنهار جميعاً.

وقوله: ﴿الرَّفْتُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾.

قيل^(٢): ﴿الرَّفْتُ﴾، الجماع. وهو قول ابن عباس، رضى الله تعالى عنه.

وقيل^(٣): ﴿الرَّفْتُ﴾، هو حاجات الرجال إلى النساء من نحو الجماع، والمس،

والتقبيل وغيره.

وقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

(١) أخرجه مالك (١٠٨/١ - ١١٠) فى كتاب الجمعة (١٦)، وأحمد (٤٨٦/٢)، وأبو داود (٦٣٤/١)، (٦٣٥) كتاب الصلاة، باب تفريع أبواب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة (١٠٤٦)، والترمذى (٢/٣٦٢ - ٣٦٣) أبواب الصلاة، باب ما جاء فى الساعة التى ترجى فى يوم الجمعة (٤٩١)، والنسائى (١١٣/٣ - ١١٥) كتاب الجمعة، باب ذكر الساعة التى يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة، والبغوى فى شرح السنة (٥٥٤/٢)، عن عبد الله بن سلام بنحوه.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٩٢٨، ٢٩٢٩، ٢٩٣٠، ٢٩٣٤)، وانظر الدر المنثور (٣٥٩/١)، وتفسير البغوى (١٥٦/١).

(٣) قاله الزجاج كما فى تفسير البغوى (١٥٧/١).

قيل^(١): هن ستر لكم عما لا يحل، وأنتم ستر لهن أيضاً. يعف الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل.

وقيل^(٢): هن سكن لكم، وأنتم سكن لهن. يسكن الزوج بالزوجة، والزوجة بالزوج. وهو كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ لِّإِسَاءِكُمْ﴾، [النبا: ١٠] أى: سكنا، ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [غافر: ٦١].

ويحتمل: أن يكون أحدهما لباس الآخر بالليالي. والله أعلم.
وقوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾.
﴿تَخْتَانُونَ﴾ وتخونون واحد.

قيل^(٣): نزلت الآية فى شأن عمر، رضى الله تعالى عنه، وذلك أن الناس إذا صاموا، ثم نام أحد منهم، حرم عليهم الطعام والجماع حتى يفطر من الغد، فواقع عمر، رضى الله تعالى عنه، امرأته يوماً بعد ما نام أو نامت. فغدا إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فنزل قوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾، أى: تظلمون؛ لأن كل خائن ظالم نفسه، فتاب الله عليه وعفا عنه، ثم رخص لهم المباشرة بقوله: ﴿فَالَّذِينَ بَشِرْتُمْ بِهِ﴾ على الرخصة، هو على الإباحة، لا على الأمر به.
وقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾.

أى: اتبعوا^(٤).

﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

قيل: فيه بوجوه:

قيل^(٥): ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، من الولد.

وقيل^(٦): ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، من ليلة القدر، وما فيه من نزول الرحمة.

(١) قاله ابن جرير (١/١٦٩).

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى، أخرجه ابن جرير عنهم (٢٩٤٢، ٢٩٣٨، ٢٩٣٩، ٢٩٤٠)، وانظر الدر المنثور (١/٣٥٨ - ٣٥٩).

(٣) أخرجه ابن جرير من طرق عن ابن عباس (٢٩٤٨، ٢٩٤٩، ٢٩٥٠، ٢٩٥١)، وانظر الدر المنثور (١/٣٥٧).

(٤) فى أ: ابتغوا.

(٥) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٩٧٨)، وعن مجاهد (٢٩٧٣، ٢٩٧٩، ٢٩٨٠)، والحاكم (٢٩٧٤)، وعكرمة (٢٩٧٥)، وغيرهم.

وانظر الدر المنثور (١/٣٥٩).

(٦) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٢٩٨٥، ٢٩٨٦)، وانظر الدر المنثور (١/٣٥٩).

وقيل^(١): ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، من الرخصة، والإباحة في الجماع في ليلة الصيام، والأكل بعد النوم وهو كما جاء: «من لم يقبل رخصنا كما يقبل عزائنا، فليس منّا»^(٢).

وقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾.

ذكر عن عدى بن حاتم^(٣)، أنه قال: كنت أضع خيطين تحت وسادتي بعد نزول هذه الآية: أحدهما أبيض، والآخر أسود، فكنت أنظر فيه متى ما تبين لى إلى أن أتيت رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: «إن وسادك لعريض»^(٤)، يعنى أن الفجر هو المتعرض في الأفق.

وروى عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لا يغرنكم الفجر المستطيل، إنما الفجر

(١) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير عنه (٢٩٨٧، ٢٩٨٨).

(٢) في الباب عن عبد الله بن عمر: أخرجه أحمد (١٠٨/٢)، وابن حبان في صحيحه (٤٥١/٦) (٢٧٤٢)، (٣٣٣/٨) (٣٥٦٨)، والبخاري (٤٦٩/١) (٩٨٨)، (٩٨٩ - كشف الأستار)، والبيهقي (٣/١٤٠) كتاب الصلاة؛ باب كراهية ترك التقصير والمسح على الخفين وما يكون رخصة رغبة عن السنة.

والخطيب في تاريخه (٣٤٧/١٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٠٧٨) قال الهيثمي في المجمع (١٦٥/٣):

رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، والبزار، والطبراني في الأوسط، وإسناده حسن ١ هـ. وله شاهد من حديث ابن عباس:

رواه الطبراني في الكبير (١١٨٨٠، ١١٨٨١)، وابن حبان في صحيحه (٦٩/٢) (٣٥٤)، والبزار (٩٩٠ - كشف)، وأبو نعيم في الحلية (٢٧٦/٨). قال الهيثمي في المجمع (١٦٥/٣):

رواه الطبراني في الكبير، والبزار، ورجال البزار ثقات، وكذلك رجال الطبراني ١ هـ. وللحديث شواهد أخرى يراجع لها مجمع الزوائد (١٦٥/٣ - ١٦٦).

(٣) عدى بن حاتم بن عبد الله بن سعيد بن حشر بن امرئ القيس بن عدى الطائي الجواد ابن الجواد. وفد في شعبان سنة سبع، وروى ستة وستين حديثاً، اتفق على ستة، وانفرد البخاري بثلاثة، و مسلم بحدِيثين. وعنه هشام بن الحارث وخيثمة بن عبد الرحمن والشعبي وابن سيرين وطائفة. قال ابن سعد: توفي سنة ثمان وستين. ينظر الخلاصة (٢٢٣/٢) (٤٨١٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣٨/٩) كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ...﴾ (٤٥٠٩، ٤٥١٠)، ومسلم (٧٦٦/١) كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر (١٠٩٠/٣٣)، وأحمد (٣٧٧/٤)، وأبو داود (٧١٧/١)، كتاب الصيام باب وقت السحور (٢٣٤٩)، والترمذي (٨٠/٥) كتاب تفسير القرآن، باب (من سورة البقرة) (٢٩٧٠، ٢٩٧١)، والنسائي (١٤٨/٤) كتاب الصيام، باب تأويل قول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ...﴾ الآية وابن خزيمة (١٩٢٥، ١٩٢٦).

المستطير في الأفق»^(١).

وروى أنه قال: «الفجر فجران: فجر مستطيل في السماء، وفجر مستطير في الأفق، هو الذي يحرم الطعام على الصائم ويحل الصلاة»^(٢).

وروى أنه قال: «لا يغرنكم أذان بلال^(٣)، فإنه إنما يؤذن بالليل ليوظ نائمكم ويرجع قائمكم»^(٤).

وفى بعض الأخبار قال: «لا يغرنكم أذان بلال عن سحورك، فإنه إنما يؤذن بليل»^(٥)، أو كلام نحو هذا.

والأصل في هذا: أن الله عز وجل جعل حد الصيام من وقت تبين النهار إلى وقت غيبوبة الشمس وأباح من وقت غيبوبة الشمس إلى وقت تبين النهار، الطعام، والشراب، والجماع تخفيفاً منه.

وقوله: ﴿وَلَا تُبْشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾.

وقد اختلف أهل التأويل في معنى المباشرة:

قيل^(٦): ﴿المباشرة﴾ عنى الله به: الجماع وما دون الجماع، فإنما نهوا عنها.

(١) أخرجه مسلم (٧٦٩/٢) كتاب الصيام باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر (٤١/١٠٩٤)، وأحمد (٧/٥، ٩، ١٣، ١٨)، وأبو داود (٧١٦/١) كتاب الصيام، باب وقت السحور (٢٣٤٦)، والترمذي (٧٩/٢) كتاب الصوم، باب ما جاء في بيان الفجر (٧٠٦)، والنسائي (٤/١٤٨) كتاب الصيام، باب كيف الفجر، وابن خزيمة (١٩٢٩)، والدارقطني (١٦٦/٢، ١٦٧) عن سمرة بن جندب بالفاظ متقاربة.

(٢) أخرجه الحاكم (١٩١/١) عن جابر بلفظ:

«الفجر فجران، فأما الفجر الذي يكون كذب السرحان فلا تحل الصلاة فيه ولا يحرم الطعام، وأما الذي يذهب مستطيلاً في الأفق فإنه يحل الصلاة ويحرم الطعام». قال البيهقي: روى موصولاً ومرسلاً والمرسل أصح.

(٣) هو بلال بن رباح المؤذن مولى أبي بكر، له كنى شهد بدراً والمشاهد كلها وسكن دمشق. له أربعة وأربعون حديثاً، اتفقا على حديث وانفرد البخاري بحديثين ومسلم بحديث. قال أنس: بلال سابق الحيشة. قال عمر: أبو بكر سيدنا وأعنت سيدنا. وكان بلال ممن عذب في الله تعالى. مات سنة عشرين، عن بضع وستين سنة. ينظر الخلاصة (١٤٠/١) (٨٦٥).

(٤) أخرجه البخاري (٣١١/٢) كتاب الأذان، باب الأذان قبل الفجر (٦٢١)، ومسلم (٢/٧٦٨-٧٦٩) كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر (١٠٩٣/٣٩) عن ابن مسعود بلفظ:

«لا يمتنع أحدكم - أو أحداً - منكم أذان بلال من سحوره فإنه يؤذن أو ينادى - بليل؛ ليرجع قائمكم ولينبه نائمكم وليس أن يقول الفجر أو الصبح. وقال: بأصابعه ورفعها إلى فوق وطأطأ إلى أسفل - حتى يقول هكذا».

(٥) انظر ما تقدم.

(٦) قاله عطاء أخرجه ابن جرير عنه (٣٠٤٥)، وعن الضحاك (٣٠٤٦، ٣٠٤٧، ٣٠٤٨)، والربيع =

وقيل: ﴿المباشرة﴾ كناية عن الجماع.

ثم قوله: ﴿وَلَا تَبْشُرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾، فيه أدلة من أوجه الآية، كأنها نزلت في نازلة بلوا بها، لا أن كانوا يباشرون نساءهم في المساجد؛ لأن المساجد كانت أجل عندهم من أن يجعلوها مكاناً لوطء النساء. ولكنه - والله أعلم - أن الاعتكاف^(١): هو اللبث في مكان، يأخذ الحق في نفسه عند عكوفه في المسجد وخروجه منه، فذكر أن العكوف نفسه يحرم الجماع في الأحوال كلها، ليس كالصوم الذي يحرم حالاً دون حال في الوقت الذي لم يكونوا فيها، ليعلموا أن حكم المساجد أخذ لهم وليسوا هم

= (٣٠٤٩)، وقادة (٣٠٥٠)، وغيرهم.

وانظر الدر المنثور (٣٦٣/١).

(١) الاعتكاف لغة: الافتعال، من عكف على الشيء، عكوا وعكفا من بابي: قعد، وضرب: إذا لازمه وواظب عليه، وعكفت الشيء: حبسته. ومنه قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَنَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مِنْكُمْ﴾. وعكفته عن حاجته: منعه. والاعتكاف: حبس النفس عن التصرفات العادية. وشرعا: اللبث في المسجد على صفة مخصوصة بنية. والاعتكاف فيه تسليم المعتكف نفسه بالكلية إلى عبادة الله تعالى طَلَبَ الزَّلفى، وإبعاد النفس من شغل الدنيا التي هي مانعة مما يطلبه العبد من القربى، وفيه استغراق المعتكف أوقاته في الصلاة إما حقيقة أو حكماً؛ لأن المقصد الأصلي من شرعية الاعتكاف انتظار الصلاة في الجماعات، وتشبيه المعتكف نفسه بالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون.

والاعتكاف سنة، ولا يلزم إلا بالنذر، لكن اختلف الفقهاء في مرتبة هذه السنة:

فقال الحنفية: إنه سنة مؤكدة في العشر الأواخر من رمضان، ومستحب فيما عدا ذلك.

وفي المشهور عند المالكية: أنه مندوب مؤكد وليس بسنة. وقال ابن عبد البر: إنه سنة في رمضان ومندوب في غيره.

وذهب الشافعية إلى أنه سنة مؤكدة، في جميع الأوقات، وفي العشر الأواخر من رمضان أكد؛ اقتداء برسول الله ﷺ وطلباً لليلة القدر.

وقال الحنابلة: إنه سنة في كل وقت، وأكده في رمضان، وأكده في العشر الأخير منه.

قال ابن المنذر: أجمع أهل العلم على أن الاعتكاف سنة، لا يجب على الناس فرضاً، إلا أن يوجب المرء على نفسه الاعتكاف نذراً، فيجب عليه. ومما يدل على أنه سنة فعل النبي ﷺ ومدامته عليه تقرباً إلى الله تعالى، وطلباً لثوابه، واعتكاف أزواجه معه وبعده. أما أن الاعتكاف غير واجب فلا أن أصحاب النبي ﷺ لم يلتزموا الاعتكاف كلهم، وإن صح عن كثير من الصحابة فعله. وأيضاً فإن النبي ﷺ لم يأمر أصحابه بالاعتكاف إلا من أَرَادَهُ، لقول النبي ﷺ: «من كان اعتكف معي، فليعتكف العشر الأواخر» أى من شهر رمضان، ولو كان واجبا لما علقه بالإرادة.

ويلزم الاعتكاف بالنذر؛ لقول النبي ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه»، وعن عمر - رضى الله عنه - أنه قال: يا رسول الله، إنى نذرت أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام، فقال النبي ﷺ: «أوف بنذرك».

ينظر: البيجرمى على المنهج (٢/٥٩١)، المغنى (٢/١٨٣)، الفتاوى الهندية (١/٢١١)،

الشرح الصغير (١/٧٢٥).

فيها. ولو لم يكن شرطاً في ذلك لكان قوله: ﴿وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ﴾ كافياً إذ لم يكونوا في المساجد وقت لحوق النهي للمباشرة. والله أعلم.

وفيه دليل أن الاعتكاف لا يكون إلا في المسجد^(١)، حيث خص المساجد دون غيرها من الأمكنة.

وفيه دليل أن المعتكف قد يخرج من معتكفه^(٢)، لكنه لا يخرج إلا لما لا بد

(١) أجمع الفقهاء على أنه لا يصح اعتكاف الرجل والخشي إلا في مسجد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ﴾ في المسجد، وللتابع؛ لأن النبي ﷺ لم يعتكف إلا في المسجد. واتفقوا على أن المساجد الثلاثة أفضل من غيرها، والمسجد الحرام أفضل، ثم المسجد النبوي، ثم المسجد الأقصى. واتفقوا على أن المسجد الجامع يصح فيه الاعتكاف، وهو أولى من غيره بعد المساجد الثلاثة، ويجب الاعتكاف فيه إذا نذر الاعتكاف مدة تصادفه فيها صلاة الجمعة؛ لثلا يحتاج إلى الخروج وقت صلاة الجمعة، إلا إذا اشترط الخروج لها عند الشافعية.

ثم اختلفوا في المساجد الأخرى التي يصح فيها الاعتكاف: فذهب الحنفية والحنابلة إلى أنه لا يصح الاعتكاف إلا في مسجد جماعة. وعن أبي حنيفة: أنه لا يصح الاعتكاف إلا في مسجد تقام فيه الصلوات الخمس؛ لأن الاعتكاف عبادة انتظار الصلاة، فيختص بمكان يصلى فيه، وصححه بعضهم. وقال أبو يوسف ومحمد: يصح في كل مسجد. وصححه السروجي. وعن أبي يوسف: أنه فرق بين الاعتكاف الواجب والمسنون، فاشتراط للاعتكاف الواجب مسجد الجماعة، وأما النفل فيجوز في أي مسجد كان. ويعني الحنفية بمسجد الجماعة: ما له إمام ومؤذن، أدبت فيه الصلوات الخمس أو لا. واشترط الحنابلة لصحة الاعتكاف في المسجد أن تقام الجماعة في زمن الاعتكاف الذي هو فيه، ولا يضر عدم إقامتها في الوقت الذي لا يعتكف فيه، وخرج من ذلك المرأة والمعدور والصبي ومن هو في قرية لا يصلى فيها غيره؛ لأن الممنوع ترك الجماعة الواجبة، وهي منتفية هنا. والمذهب عند المالكية والشافعية أنه يصح الاعتكاف في أي مسجد كان.

ينظر: ابن عابدين (٢/٤٤١)، حاشية العدوي (١/٤١٠)، المجموع (٦/٤٨٣)، مغنى المحتاج (١/٤٥٠).

(٢) اتفق الفقهاء على أن الخروج من المسجد للرجل والمرأة - وكذلك خروج المرأة من مسجد بيتها عند الحنفية - إذا كان لغير حاجة فإنه يفسد الاعتكاف الواجب، وألحق المالكية وأبو حنيفة - في رواية الحسن عنه - بالواجب الاعتكاف المندوب أيضاً، سواء أكان الخروج يسيراً أم كثيراً. أما إذا كان الخروج لحاجة فلا يبطل الاعتكاف في قولهم جميعاً إلا أنهم اختلفوا في الحاجة التي لا تقطع الاعتكاف ولا تفسده على النحو التالي:

أ - الخروج لقضاء الحاجة والوضوء والغسل الواجب:

اتفق الفقهاء على أنه لا يضر الخروج لقضاء الحاجة والغسل الذي وجب مما لا يفسد الاعتكاف، لكن إن طال مكثه بعد ذلك فسد اعتكافه. قال ابن المنذر: أجمع أهل العلم على أن للمعتكف أن يخرج من معتكفه للغائط والبول؛ لأن هذا مما لا بد منه، ولا يمكن فعله في المسجد، فلو بطل الاعتكاف بخروجه له لم يصح لأحد الاعتكاف، ولأن النبي ﷺ كان يعتكف، وقد علمنا أنه كان يخرج لحاجته. وروى عائشة أن النبي ﷺ كان لا يدخل البيت إلا لحاجة إذا كان معتكفاً، وله الغسل والوضوء والاعتسال في المسجد إذا لم يلوث المسجد عند

الحنفية والحنابلة. وعند الشافعية إن أمكنه الوضوء في المسجد لا يجوز له الخروج في الصباح، والثاني: يجوز. وذهب المالكية إلى كراهة دخول منزل أهله وبه أهله - أى زوجته - إذا خرج لقضاء الحاجة؛ لثلا يطرأ عليه منهما ما يفسد اعتكافه. أما إذا كان له منزلان فيلزمه أقربهما عند الشافعية والحنابلة، واختلفت الحنفية في ذلك. وإذا كانت هناك ميصأة يحتشم منها لا يكلف التطهر منها، ولا يكلف الطهارة في بيت صديقه، لما في ذلك من خرم المروءة، وتزيد دأر الصديق بالمنة بها. أما إذا كان لا يحتشم من الميصأة فيكلفها. وألحقوا بالخروج لما تقدم: الخروج للقيء وإزالة النجاسة، فلا يفسد الاعتكاف أيضا في قولهم جميعا. ولا يكلف الذي خرج لحاجة الإسراع، بل له المشى على عادته.

ب - الخروج للأكل والشرب:

ذهب الحنفية والمالكية والحنابلة إلى أن الخروج للأكل والشرب يفسد اعتكافه إذا كان هناك من يأتيه به، لعدم الضرورة إلى الخروج، أما إذا لم يجد من يأتيه به فله الخروج؛ لأنه خروج لما لا بد منه. وذهب الشافعية والقاضى من الحنابلة إلى أنه يجوز له الخروج للأكل؛ لأن الأكل في المسجد يُستحب منه. وكذا للشرب إذا لم يكن في المسجد ماء. وخص الشافعية جواز الخروج للأكل إذا كان اعتكافه في مسجد مطروق، أما إذا كان المسجد مهجورا فلا يحق له الخروج.

ج - الخروج لغسل الجمعة والعيد:

ذهب المالكية إلى أن للمعتكف الخروج لغسل الجمعة والعيد وإخرا أصابه فلا يفسد الاعتكاف خلافا للجمهور. وصرح الشافعية والحنابلة بأنه لا يجوز الخروج لغسل الجمعة والعيد؛ لأنه نفل وليس بواجب وليس من باب الضرورة. فإن اشترط ذلك جاز.

د - الخروج لصلاة الجمعة:

من وجبت عليه الجمعة، وكان اعتكافه متابعا، واعتكف في مسجد لا تقام فيه الجمعة فهو آثم، ويجب عليه الخروج لصلاة الجمعة؛ لأنها فرض. فإذا خرج للجمعة فقد ذهب الحنفية والحنابلة إلى أن خروجه للجمعة لا يفسد اعتكافه؛ لأنه خروج لما لا بد منه، كالخروج لقضاء الحاجة. وبه قال سعيد بن جبيرة والحسن البصرى والنخعي وأحمد وعبد الملك بن الماجشون وابن المنذر. وذهب المالكية في المشهور عندهم والشافعية إلى أن خروج المعتكف لصلاة الجمعة يفسد اعتكافه وعليه الاستئناف؛ لأنه يمكن الاحتراز من الخروج بأن يعتكف في المسجد الجامع، فإذا لم يفعل وخرج بطل اعتكافه، واستثنى الشافعية ما لو شرط الخروج في اعتكافه لصلاة الجمعة، فإن شرطه يصح، ولا يبطل اعتكافه بخروجه. وذهب الحنفية إلى أن الخروج لصلاة الجمعة يكون وقت الزوال، ومن بعد مسجد اعتكافه خرج في وقت يدركها. أما الحنابلة فإنهم قالوا بجواز التكبير إليها. واتفقوا على أن المستحب بعد صلاة الجمعة التعجيل بالرجوع إلى مكان الاعتكاف. لكن لا يجب عليه التعجيل؛ لأنه محل للاعتكاف، وكره تنزيها المكث بعد صلاة الجمعة؛ لمخالفة ما التزمه بلا ضرورة.

هـ - الخروج لعيادة المرضى وصلاة الجنائز:

اتفق الفقهاء على عدم جواز الخروج لعيادة المريض وصلاة الجنائز؛ لعدم الضرورة إلى الخروج، إلا إذا اشترط الخروج لهما عند الحنفية والشافعية والحنابلة. ومحل ذلك ما إذا خرج لقصد العيادة وصلاة الجنائز. أما إذا خرج لقضاء الحاجة ثم عرج على مريض لعيادته، أو لصلاة الجنائز، فإنه يجوز بشرط ألا يطول مكثه عند المريض، أو بعد صلاة الجنائز عند الجمهور، بألا يقف عند المريض إلا بقدر السلام؛ لقول عائشة - رضى الله عنها -: «إن كنت أدخل البيت للحاجة، والمريض فيه فما أسأل عنه إلا وأنا مارة». وفي سنن أبى داود مرفوعا

منه، على ما جاء عن رسول الله ﷺ: «أنه كان لا يخرج إلا لحاجة الإنسان»^(١)، وحاجة الإنسان يحتمل وجهين:

يحتمل: لما يرفع إليه من الحوائج.

ويحتمل: حاجة الإنسان: الحاجة المعروفة التي لا يحتمل قضاؤها في المسجد.

ثم الضرورة تقع بالخروج في العكوف بوجهين: مرة في نفسه، ومرة في أفعال يكتسبها.

وبهذا يقول أصحابنا، رحمهم الله تعالى، في فرضية الخروج إلى الجمع؛ لأن من اعتكف على ألا يشهد الجمعة لا يؤذن له في ذلك، لما لا جائز أن يؤذن بإيجاب قرابة هي ليست عليه بتضييع أخرى هي عليه؛ إذ ذلك فرض كفاية يسقط بأداء البعض، لذلك كان ما ذكرنا.

فإن قيل: روى أنه كان [يخرج]^(٢) لاتباع الجنائز وعبادة المريض.

= عنها: «أنه عليه الصلاة والسلام كان يمر بالمريض، وهو معتكف، فيمر كما هو ولا يعرج يسأل عنه». فإن طال وقوفه عُرِفًا، أو عدل عن طريقه وإن قل لم يجز، وعند أبي يوسف ومحمد: لا ينتقض الاعتكاف إذا لم يكن أكثر من نصف النهار. أما المالكية فإنهم مع الجمهور في فساد الاعتكاف لخروج عبادة المريض وصلاة الجنائز، إلا أنهم أوجبوا الخروج لعبادة أحد الأبوين المريضين أو كليهما، وذلك لبرهما؛ فإنه أكد من الاعتكاف المنذور، وبطل اعتكافه به ويقضيه. - والخروج في حالة النسيان:

ذهب الحنفية والمالكية إلى أن الخروج من المسجد عمدا أو سهوا يبطل الاعتكاف. وعللوا ذلك بأن حالة الاعتكاف مُذَكَّرَةٌ، ووقوع ذلك نادر، وإنما يعتبر العذر فيما يغلب وقوعه. وذهب الشافعية والحنابلة إلى عدم البطلان إذا خرج ناسيا، لقول النبي ﷺ: «عفى لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

ز- الخروج لأداء الشهادة:

ذهب الحنفية والمالكية إلى أن الخروج لأجل الشهادة مفسد للاعتكاف. وصرح المالكية بأن من وجبت عليه شهادة، بألا يكون هناك غيره، أو لا يتم النصاب إلا به لا يخرج من المسجد لأدائها، بل يجب أن يؤديها في المسجد إما بحضور القاضي، أو تنقل عنه. وذهب الشافعية والحنابلة إلى أنه يلزمه الخروج لأداء الشهادة متى تعينت عليه ويأثم بعدم الخروج، وكذلك التحمل للشهادة إذا تعين، فيجوز له الخروج ولا يبطل اعتكافه بذلك الخروج؛ لأنه خروج واجب على الأصح عند الشافعية، أما إذا لم تعين عليه، فيبطل اعتكافه بالخروج.

ينظر: الشرح الكبير مع حاشية الدسوقي (١/٥٤٣)، تبين الحقائق (١/٣٥٠)، وابن عابدين (٢/٤٤٥)، كشف القناع (٢/٣٥٦)، الروضة (٢/٤٠٤)، بدائع الصنائع (٣/١٠٧١).

(١) أخرجه الدارقطني، والبيهقي في الشعب من طريق الترمذي عن سعيد بن المسيب وعن عروة عن عائشة قالت: «... والسنة في المعتكف ألا يخرج إلا لحاجة الإنسان».

انظر الدر المنثور (١/٣٦٤).

(٢) سقط في ط.

قيل: إن ثبت هذا فهو إذ خرج لوجه أذن [له] ^(١) بالخروج لذلك الوجه فخرج ثم عاد مريضاً، أو شهد جنازة، وذلك جائز، ولو كان يؤذن لذلك لكان يؤذن لكل قربة؛ إذ الجنازة إذا شيعها الكافي سقط فرض التشيع، فإذا لم يؤذن في غير هذا، وهذا مثل ذلك، أو دونه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي ذلك دليل أن الخبر على ما بينت، والله أعلم.

وروى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، أنها قالت: «إن من السنة ألا يخرج المعتكف من معتكفه» ^(٢). دل هذا من عائشة، رضى الله تعالى عنها، أن خبر على بن أبي طالب، رضى الله تعالى عنه، على ما ذكرنا، إن ثبت.

وفي قوله: ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ دليل أن الاعتكاف يكون في جميع المساجد؛ لأنه عم المساجد.

وما روى: أن «لا اعتكاف إلا في المسجد الحرام» ^(٣) إن ثبت، فهو على التناسخ؛ لأن النبي ﷺ اعتكف في مسجد المدينة ^(٤)، فدل فعله أنه منسوخ. والله أعلم.

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِّلنَّاسِ لَمَّا هُمْ يَتَّقُونَ﴾.

قيل ^(٥): ﴿تِلْكَ﴾ المباشرة معصية، ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ في الاعتكاف، فحد الأمر ألا تقربوها.

وقيل: إنه جعل لكل طاعة وأمر ونهى حداً وغاية، فلا يجاوز ولا يقصر عنه.

وقيل ^(٦): ﴿تِلْكَ﴾ فرائض الله.

(١) سقط في ط.

(٢) تقدم.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣١٦/٤) عن ابن مسعود.

(٤) ورد في معناه أحاديث منها:

حديث عائشة: أخرجه البخاري (٣١٨/٤) كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف في العشر الأواخر (٢٠٢٥)، ومسلم (٨٣١/٢) كتاب الاعتكاف، باب اعتكاف العشر الأواخر من رمضان (٥/١١٧٢).

حديث أبي هريرة وعائشة معا:

أخرجه أحمد (٢٨١/٢)، (١٦٩/٦)، والترمذي (١٤٧/٢) كتاب الصوم، باب ما جاء في الاعتكاف (٧٩٠).

حديث عبد الله بن عمر:

أخرجه البخاري (٢٠٢٦)، ومسلم (١١٧١/١).

(٥) قاله الضحاك، أخرجه ابن أبي حاتم عنه كما في الدر المنثور (٣٦٦/١).

(٦) قاله شهر بن حوشب كما في تفسير البغوي (١٥٩/١).

وقيل: ﴿تِلْكَ﴾ سنن الله. وكان الأول أقرب والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾.

قيل^(١): لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، ولا تدلوا بها إلى الحكام. وقراءة أبي^(٢):

«فلا تدلوا بها إلى الحكام»، وجهان:

على إضمار لا؛ كقوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٤٢]، أى:

ولا تكتموا الحق.

وقيل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ بما تلبسوا على الحكام، وتقيموا على ذلك

حججاً باطلة، على ما جاء عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه المسلم فكأنما قضيت له بقطعة من النار»^(٣).

(١) قاله قتادة بنحوه، أخرجه ابن جرير (٣٠٧٠)، وابن المنذر كما فى الدر المنثور (٣٦٦/١).

(٢) ينظر: اللباب فى علوم الكتاب (٣/٣٢٤)، والدر المصون (١/٤٧٧).

(٣) أخرجه مالك (٧١٩/٢) كتاب: الأقضية، باب: الترغيب فى القضاء حديث (١)، والبخارى (١٢/٣٣٩) كتاب: الحيل، باب: (١٠) حديث (٦٩٦٧)، ومسلم (٣/١٣٣٧) كتاب: الأقضية، باب: الحكم بالظاهر واللعن بالحجة حديث (٤/١٧١٣)، وأبو داود (٤/١٢) كتاب: الأقضية، باب: فى قضاء القاضى إذا أخطأ حديث (٣٥٨٣)، والترمذى (٣/٦٢٤) كتاب: الأحكام، باب: التشديد على من يقضى له بشئ حديث (١٣٣٩)، والنسائى (٨/٢٣٣) كتاب: آداب القاضى، باب: الحكم بالظاهر، وابن ماجه (٢/٧٧٧) كتاب: الأحكام، باب: أقضية الحاكم لا تحل حراماً حديث (٢٣١٧).

والشافعى (٢/١٧٨) كتاب: الأحكام فى الأقضية حديث (٦٢٦)، والحميدى (١/١٤٢) رقم (٢٩٦)، وابن الجارود فى المنتقى رقم (٩٩٩)، وأبو يعلى (١٢/٣٠٥) رقم (٦٨٨٠)، وابن حبان (٥٠٤٧، ٥٠٤٩ - الإحسان)، والدارقطنى (٤/٢٣٩ - ٢٤٠) كتاب: الأقضية والأحكام حديث (١٢٧)، والبيهقى (١٠/١٤٣) كتاب: آداب القاضى، باب: من قال: ليس للقاضى أن يقضى بعلمه، والطحاوى فى شرح معانى الآثار (٤/١٥٤) باب الحاكم يحكم بالشئ فيكون فى الحقيقة بخلافه فى الظاهر، والطبرانى فى الكبير (٢٣/٣٤٣) رقم (٧٩٨)، والبعوى فى شرح السنة (٥/٣٤٧) كلهم من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة زوج النبى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بشئ من حق أخيه فلا يأخذنه فإنما أقطع له قطعة من النار».

وقال الترمذى: حسن صحيح.

وأخرجه البخارى (٥/١٠٧) كتاب: المظالم، باب: إثم من خاصم فى باطل وهو يعلمه، =

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾، جعل مال أخيه كماله، ونفس أخيه كنفسه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. فإذا أكل مال أخيه بالباطل لزمه مثله، جعل كأكل ماله بباطل، وجعل قتل نفس أخيه بالباطل كقتل نفسه بالباطل؛ لأنه إذا قتله بباطل قتل به.

ثم من الناس من استدل بهذا على أبي حنيفة، رضى الله تعالى عنه، فيما يقول بمضى العقد إذا شهد الشهود على ذلك عند الحاكم، وقضى به، ثم ظهر أن الشهود شهود زور؛ حيث قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾، وكما روى من الوعيد للأخذ مكان ما أخذ قطعة من نار، فإذا لم يحل ذلك لم يمض العقد.

غير أن الأصل عندنا في كل ما لو اجتمع الخصمان على ذلك بسبب جعل ذلك لهما، فإذا قضى الحاكم بذلك السبب نفذ.

وقوله: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

يعنى: طائفة من أموال الناس.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآهِلَةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا آبَائِهِمْ مِنْ ظُهُورِهِمْ ۖ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۚ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٨٩﴾ وَفَتَلَوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْتَلُونَكَ ۖ وَلَا تَعْدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۝١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۖ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُفْتَلُوا فِيهِ ۚ فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ فَاتَّخِذُوا مِنْ دِمَائِهِمْ حَتَّىٰ تُؤَدُّوا إِلَيْهَا ۚ وَإِنْ أُنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٩١﴾ فَإِنْ أُنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٩٢﴾

= حديث (٢٤٥٨)، ومسلم (١٣٣٨/٣) كتاب: الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللعن بالحجة حديث (١٧١٣/٤)، وأحمد (٣٠٨/٦)، والدارقطني (٢٣٩/٤) كتاب: الأقضية والأحكام حديث (١٢٦)، والطحاوى فى شرح معانى الآثار (١٥٤/٤)، والبيهقى (١٤٣/١٠) كتاب: آداب القاضى، باب: من قال: ليس للقاضى أن يقضى بعلمه، كلهم من طريق الزهرى عن عروة عن زينب عن أم سلمة به.

وللحديث طريق آخر عن أم سلمة.

أخرجه أبو داود (١٢/٤) كتاب: الأقضية، باب: فى قضاء القاضى إذا أخطأ حديث (٣٥٨٤)، وأحمد (٣٢٠/٦)، وابن أبى شيبه (٢٣٣/٧ - ٢٣٤) رقم (٣٠١٦)، وابن الجارود رقم (١٠٠٠)، وأبو يعلى (٣٢٤ - ٣٢٥) رقم (٦٨٩٧)، والطحاوى فى شرح معانى الآثار (١٥٤ - ١٥٥)، وفى المشكل (٢٢٩/١ - ٢٣٠).

والدارقطني (٢٣٨/٤ - ٢٣٩) كتاب: الأقضية والأحكام، والحاكم (٩٥/٤)، والطبرانى فى الكبير (٢٩٨/٢٣) رقم (٦٦٣)، والبغوى فى شرح السنة (٣٤٩/٤) كلهم من طريق أسامة بن زيد عن عبد الله بن رافع عن أم سلمة به.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبى.

وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئْتَهُ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتِ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .
وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ .
يحتمل: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ ، أى: سألوكم عن الأهلة .

ويحتمل: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ [أنهم يسألونك]^(١) من بعد، فإن كان على هذا ففيه دليل رسالته؛ لأنه كان كما أخبر من السؤال له .

ثم معنى السؤال عن الأهلة - والله أعلم - هو أنهم لما رأوا الشمس تطلع دائماً على حالة واحدة، ورأوا القمر مختلف الأحوال من الزيادة والنقصان فحملهم ذلك على السؤال عن حال القمر، فأخبر - عز وجل - أنه جعل الهلال معرّفاً للخلق الأوقات والآجال والمدد ومعرفة وقت الحج؛ لأنه لو جعل معرفة ذلك بالأيام لاشتد حساب ذلك عليهم، ولتعذر معرفة السنين والأوقات بالأيام. فجعل - عز وجل - بلطفه وبرحمته، الأهلة ليعرفوا بذلك الأوقات والآجال، ويعرفوا وقت الحج، ووقت الزكاة؛ طلباً للتخفيف والتيسير عليهم .

ثم قال: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، جعل الأهلة كلها وقتاً للحج . ولهذا قال أصحابنا: إنه يجوز الإحرام فى الأوقات كلها، على ما يجوز بقاء الإحرام فى الأوقات كلها .

وأما أفعال الحج: فإنها لا تجوز إلا فى وقت فعل الحج، وهو قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فإنما هى على أفعال فيه، دليله قوله: ﴿فَمَنْ وَضَّ فِيهِكَ الْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ولا تفرض من الحج فى غير الإحرام؛ دل أنه عنى به أفعال الحج، وقد جاء: أنه سمي الإحرام على الانفراد حجاً، وسمى الطواف بالبيت حجاً، والوقوف حجاً، وقال: «الحج عرفة»^(٢) وسمى الذبح حجاً، حيث قال: «أفضل الحج

(١) سقط فى أ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٥/٢، ٤٨٦) كتاب: المناسك (الحج)، باب: من لم يدرك عرفة، حديث (١٩٤٩)، والترمذى (٢٣٧/٣) كتاب: ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج، حديث (٨٨٩)، والنسائى (٢٥٦/٥) كتاب: الحج، باب: فرض الوقوف بعرفة، وابن ماجه (١٠٠٣/٢) كتاب: المناسك، باب: من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع، حديث (٣٠١٥)، والطيالسى (١/٢٢٠) كتاب: الحج والعمرة، باب: وجوب الوقوف بعرفة وفضله، والدعاء عن ذلك، حديث (١٠٥٦)، وأحمد (٣٣٥/٤)، والدارمى (٥٩/٢) كتاب: المناسك، باب: بما يتم الحج، وابن

العج والثج»^(١). وإنما سمي كلاً منها حجاً؛ لما جعل لها أوقاًتا معلومة يؤدي فيها.

== الجارود (ص: ١٦٥) باب المناسك، حديث (٤٦٨)، والدارقطنى (٢/٢٤٠، ٢٤١) كتاب: الحج، باب: المواقيت، حديث (١٩)، والحاكم (١/٤٦٤) كتاب: المناسك، والبيهقى (٥/١١٦) كتاب: الحج، باب وقت الوقوف لإدراك الحج.

وابن حبان (١٠٠٩ - موارد)، وابن خزيمة (٤/٢٥٧) رقم (٢٨٢٢)، والطحاوى فى شرح معانى الآثار (٢/٢٠٩ - ٢١٠)، والحميدى (٢/٣٩٩) رقم (٨٩٩)، وأبو نعيم فى الحلية (٧/١١٩ - ١٢٠) من طريق بكير بن عطاء عن عبد الرحمن بن يعمر الدبلى قال: شهدت رسول الله ﷺ، وهو واقف بعرفة، وأتاه ناس من أهل نجد فقالوا: يا رسول الله، كيف الحج؟ قال: «الحج عرفة».

قال الترمذى: وقال ابن أبى عمر: قال سفيان بن عيينة: وهذا أجود حديث رواه سفيان الثورى. وقال ابن ماجه: قال محمد بن يحيى - الذهلى -: ما أرى للثورى حديثاً أشرف منه. وصححه الحاكم وابن خزيمة وابن حبان.

وللحديث شاهد من حديث ابن عباس: أخرجه الطبرانى فى الأوسط كما فى مجمع الزوائد (٣/٢٥٤) من طريق خفيف عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ: «الحج عرفات».

وقال الهيثمى: وفيه خفيف وثقه ابن معين وغيره وضعفه أحمد وغيره ا. ه. وخفيف: ابن عبد الرحمن الجذرى، قال الحافظ فى التقریب (١/٢٢٤): صدوق سيع الحفظ خلط بآخره ورمى بالإرجاء.

(١) أخرجه الترمذى (٣/١٨٩) كتاب الحج: باب ما جاء فى فضل التلبية والنحر حديث (٨٢٧)، وابن ماجه (٢/٩٧٥) كتاب المناسك: باب رفع الصوت بالتلبية حديث (٢٩٢٤)، والدارمى (٢/٣١) كتاب المناسك: باب أى الحج أفضل، وأبو يعلى (١/١٠٨ - ١٠٩) رقم (١١٧)، والبيهقى (٥/٤٢) كتاب الحج: باب رفع الصوت بالتلبية، والحاكم (١/٤٥١) كلهم من طريق محمد بن أبى فديك عن الضحاك بن عثمان عن محمد بن المنكدر عن عبد الرحمن بن يربوع عن أبى بكر الصديق قال: سئل رسول الله ﷺ: أى العمل أفضل؟ قال: «العج والثج».

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى، وقال الترمذى: حديث أبى بكر حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبى فديك عن الضحاك بن عثمان، ومحمد بن المنكدر لم يسمع من عبد الرحمن بن يربوع وقد روى محمد بن المنكدر عن سعيد بن عبد الرحمن بن يربوع عن أبیه غير هذا الحديث وروى أبو نعيم ضرار بن صرد هذا الحديث عن ابن أبى فديك عن الضحاك عن عثمان عن محمد بن المنكدر عن سعيد بن عبد الرحمن بن يربوع عن أبیه عن أبى بكر عن النبى ﷺ وأخطأ فيه ضرار.

قال أبو عيسى: سمعت أحمد بن الحسن يقول: قال أحمد بن حنبل: من قال فى هذا الحديث: عن محمد بن المنكدر عن ابن عبد الرحمن بن يربوع عن أبیه فقد أخطأ.

وقال: وسمعت محمداً يقول: وذكرت له حديث ضرار بن صرد عن ابن أبى فديك فقال: هو خطأ فقلت: قد رواه غيره عن ابن أبى فديك أيضاً مثل روايته فقال: لا شيء، إنما رواه عن ابن أبى فديك ولم يذكروا فيه عن سعيد بن عبد الرحمن، ورأيت يضعف ضرار بن صرد ا. ه.

قال الزيلعى فى (نصب الراية) (٣/٣٤ - ٣٥): وهذه الرواية التى خطأها أحمد والبخارى هى عند ابن أبى شيبه فى مسنده. فقال: حدثنا محمد بن عمر الواقدى ثنا ربيعة عن عثمان والضحاك جميعاً عن محمد بن المنكدر عن سعيد بن عبد الرحمن بن يربوع عن أبى بكر الصديق سئل

وأما الإحرام فإنه جعل الأشهر كلها وقتًا له بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾.

وقوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾.

لا معنى لعطف هذا على الأول إلا على إضمار السؤال، كأنهم سألوه عن الأهلة وعن إتيان البيوت من ظهورها، فأخبر: أن ليس البر في إتيان البيوت من ظهورها.

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَوْبَيْهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَتْلِحُونَ﴾.

ثم اختلف في قصة هذا الكلام:

قال بعضهم^(١): إن بعض العرب إذا أحرم أحدهم لم يدخل بيته من بابه، ولكن يدخل من ظهر البيت؛ مخافة تغطية الرأس إذا دخل من بابه.

وقيل: إن بعض العرب إذا خرج أحدهم لحاجة ولم يقض حاجته، فرجع لم يدخل البيت من بابه، ولكن يدخل من وراء ظهره، يكره دخول بيت غير منجس - يتطهرون به - ويتفاءلون قضاءها ثانيًا. فقال الله عز وجل: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ﴾ فيما تصنعون، ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ

= رسول الله ﷺ... الحديث، وذكر شيخنا الذهبي في ميزانه عبد الرحمن بن يربوع فقال: ما روى عنه سوى ابن المنكدر، وهذا غلط فإن البزار قال في مسنده عقيب ذكره لهذا الحديث عن عبد الرحمن بن يربوع: قديم حدث عنه عطاء بن يسار ومحمد بن المنكدر وغيرهما، وأظن أن الذي أوقع الذهبي في ذلك كون المزى في كتابه لم يذكر راويًا عنه غير ابن المنكدر، وكثيرًا ما وقع له مثل ذلك في كتبه، والله أعلم.

وقال الدارقطني في كتاب العلل: هذا حديث يرويه محمد بن المنكدر واختلف عنه فرواه ابن أبي فديك عن الضحاك بن عثمان عن محمد بن المنكدر عن عبد الرحمن بن يربوع عن أبي بكر، وقال: ضرار بن صرد عن ابن أبي فديك عن الضحاك عن ابن المنكدر عن سعيد بن عبد الرحمن بن يربوع عن أبيه، ورواه الواقدي عن ربيعة بن عثمان والضحاك جميعًا عن محمد بن المنكدر عن سعيد بن عبد الرحمن بن يربوع عن أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - وقال الواقدي أيضًا: عن المنكدر بن محمد عن أبيه بن عبد الرحمن بن سعيد بن يربوع عن جبير بن الحويرث عن أبي بكر، والقول الأول أشبه بالصواب، وقال أهل النسب: إنه عبد الرحمن بن سعيد بن يربوع ومن قال: سعيد بن عبد الرحمن فقد وهم أ. هـ.

وللحديث شواهد كثيرة من حديث ابن مسعود وجابر وابن عمر.
حديث ابن مسعود:

أخرجه أبو حنيفة في مسنده رقم (٢٢٣) عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الحج العج والثج»، وأخرجه أبو يعلى (١٩/٩) رقم (٥٠٨٦): حدثنا أبو هشام الرفاعي قال حدثنا أبو أسامة حدثنا أبو حنيفة به.

وذكره الهيثمي في (المجمع) (٢٢٧/٣)، وقال: رواه أبو يعلى وفيه رجل ضعيف.

(١) قاله البراء، أخرجه ابن جرير عنه (٣٠٨٢، ٣٠٨٣)، وعن ابن عباس (٣٠٩٢)، ومجاهد (٣٠٨٥)، (٣٠٨٦)، وغيرهم. وانظر الدر المنثور (٣٦٨/١).

أَتَقَى^(١) ، واتبع أمر الله، وانتهى عما نهى عنه، ويأتى ﴿الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ .
 ويحتمل: أن يكون على التمثيل والرمز، ليس على التحقيق؛ كقوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وكقوله: ﴿بَدَّ فَرْقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠١]، فهو ليس على حقيقة الطرح وراء الظهر، ولكن كانوا لا يسمعون كلام الله ولا يعثون به. وكذلك كلام رسول الله ﷺ: لا يسمعون ولا يكثرثون إليه، فأخبر أنه كالمنبوذ والمطروح وراء الظهر لما لم يعملوا به؛ فعلى ذلك الأول، أخبر أنه ﴿لَيْسَ أَلَرَّ﴾ فى ترك اتباع محمد ﷺ والائتمار بأمره، أى: ليس فعل البر مخالفة محمد ﷺ [فيما يأمر]^(١)، ولكن البر فى الاتباع له والائتمار بأمره.

وقال القرامطة: إن المراد من الأبواب هو على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه، والبيوت بيوت^(٢) رسول الله ﷺ. أمروا بإتيان رسول الله ﷺ من عند على، رضى الله تعالى عنه، على ما جاء أنه قال: «أنا مدينة العلم^(٣) وعلى بابها^(٤)». فمن أراد الدخول فى البيت، لا بد من أن يأتى الباب فيدخل من الباب.

لكن الجواب لقولهم على قدر ما تأولوا - أنه ذكر البيوت^(٥)، وذكر الأبواب أيضًا والبيوت كثيرة، والأبواب كذلك أيضًا، فعلى وغيره من الصحابة من نحو أبى بكر، وعمر، وعثمان، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فيه شرع سواء؛ ألا ترى أنه قال: «أنا مدينة الحكمة^(٦)»، والمدينة لا يعرف لها باب واحد، بل يكون لها أبواب؛ فدل أن تأويلهم فى على، رضى الله تعالى عنه، خاصة، لا يصح. وبالله العصمة.

وقوله: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾.

أى: اتقوا الله ولا تعصوه، ولا تتركوا أمره، وانتهوا عن مناهيه.

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا﴾.

(١) سقط فى ط.

(٢) فى أ: هو.

(٣) فى ب: الحكمة.

(٤) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١١/٦٥ - ٦٦) (١١٠٦١)، والعقلى (٣/١٥٠)، والحاكم (١/١٢٦ - ١٢٧)، وصححه من حديث ابن عباس.

قال الذهبى فى تلخيص المستدرک: موضوع.

وقال الهيثمى فى المجمع (٩/١١٧): وفيه عبد السلام بن صالح الهروى وهو ضعيف.

(٥) فى أ: البيت.

(٦) أخرجه ابن عدى (٥/١٧٧) فى ترجمة: عثمان بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، ثم ساق له جملة من أحاديثه وذيلها بقوله: ولعثمان غير ما ذكرت من أحاديث موضوعات.

﴿سَبِيلَ اللَّهِ﴾: دينه وطاعته، أى: فى إظهار دينه.

قيل^(١): هى أول آية نزلت فى الأمر بالقتال.

وقيل: أول آية نزلت فى الأمر بالقتال قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا﴾

[الحج: ٣٩].

ويحتمل: أنه أخبر كأنهم نهوا أولاً ثم أذن لهم فقاتلوا فأنكر عليهم، فأنزل الله أنه أذن لهم إخباراً. فلا يدرى أيتهما أول، ولكن فيه الأمر بالقتال، والنهى عن الاعتداء هاهنا:

قيل^(٢): هو نهى عن قتل الذرارى والنساء والشيخ الفانى، على ما جاء أنه بعث سرية أوصى لهم ألا يقتلوا وليداً ولا شيخاً^(٣).

وقيل: نهاهم أن يقاتلوهم^(٤) فى الشهر الحرام إلا أن يبدأهم المشركون بالقتال. والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

أى أنه لا يحب الاعتداء، لم يحب من اعتدى.

وقوله: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ﴾.

قيل: لفظ ﴿حَيْثُ﴾ يعبر عن المكان؛ فيه إذن بقتلهم فى جميع الأماكن، وفى تعميم الأمكنة تعميم الأوقات، فهو على عموم المكان إلا فيما استثنى من المسجد الحرام مطلقاً.

وأما قوله: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْفَرَارِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فالاستثناء فيه مقيد، فلا يخرج عن^(٥) ذلك العام. والله أعلم.

(١) قاله الربيع بن أنس، أخرجه ابن جرير عنه (٣٠٩٥)، وانظر تفسير البغوى (١/١٦١).

(٢) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٣١٠٠)، وعن عمر بن عبد العزيز (٣٠٩٧، ٣١٠١)، وانظر الدر المنثور (١/٣٧٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٨٦/٣) كتاب: الجهاد، باب: فى دعاء المشركين، حديث (٢٦١٤)، والبيهقى (٩٠/٩) كتاب: السير، باب: ترك قتل من لا قتال فيه من الرهبان والكبير وغيرهم، من رواية خالد ابن الفرز قال: حدثنى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «انطلقوا بسم الله وعلى ملة رسول الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة، ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين».

وخالد بن الفرز روى له أبو داود، وقال الحافظ فى التقریب (١/٢١٧): مقبول.

يعنى عند المتابعة، وإلا فهو لين الحديث.

(٤) فى ط: يقاتلوا.

(٥) فى ب: على.

ثم منهم من جعل لهم القتال^(١) فى الحرم وفى أشهر الحج بظاهر هذه الآية. ومنهم من قال: لا يقتل فيهما جميعاً.

وقال أصحابنا - رحمهم الله تعالى: يقتل فى الشهر الحرام^(٢)، ولا يقتل فى الحرم إلا أن يبدأهم بالقتال، فحينئذ يقتلهم. وكذلك يقولون فيمن قتل آخر ثم التجأ إلى الحرم: لم يقتل فيه، ولكن لا يؤاكل ولا يشارب ولا يجالس حتى يضطر فيخرج، فيقتل. وإذا قتل فى الحرم يقتل. فعلى ذلك لا يقاتل فى الحرم إلا أن يبدأهم بالقتال، فعند ذلك يحل القتل.

وإنما لم يحل القتال فى الحرم إلا أن يبدأهم به، وإن كان ظاهر قوله: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ﴾ يبيح القتل فى الأمكنة كلها، بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَنُوا فِيهِ﴾، استثنى الحرم دون غيره من الأماكن.

وأما قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧] ظاهر هذه الآية يحرم القتال فى أشهر الحج، لكن فيه دليل حل القتال بقوله: ﴿وَأَلْفَتْنَاهُ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفَتِلْ﴾ [البقرة: ٢١٧]، يعنى بالفتنة الشرك، جعل القتل فيه كبيراً، ثم أخبر أن الشرك فيه أكبر وأعظم من القتل.

فالأصل عندنا: أن الابتلاء إذا كان من وجهين يختار الأيسر منهما والأخف؛ فلذلك قلنا: إنه يختار القتل فى الحرم على بقاء الفتنة - وهو الشرك - إذ هو أكبر وأعظم. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾.

يحتمل: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ﴾ من مكة كما ﴿أَخْرِجُوكُمْ﴾ عام الحديبية.

ويحتمل: أن أمرهم بأن يضيّقوا عليهم ويضطروهم إلى الخروج كما فعل أهل مكة بهم.

ويحتمل: الإخراج على ما جاء: «ألا لا يحجن مشرك بعد عامى هذا»^(٣).

(١) فى ب: المقتل.

(٢) فى ب: أشهر الحرم.

(٣) أخرجه البخارى (٢٨٧/٤) كتاب الحج باب لا يطوف بالبيت عريان (١٦٢٢) ومسلم (٩٨٢/٢) كتاب الحج باب لا يحج البيت مشرك (١٣٤٧/٤٣٥) وأبو داود (٥٩٩/١) كتاب المناسك باب يوم الحج الأكبر (١٩٤٦) والنسائى (٢٣٤/٥) كتاب المناسك باب قوله عز وجل ﴿حُدُوا زَيْنَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ من طريق حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة أخبره أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه بعثه

ويحتمل: أن يمنعوهم عن الدخول فيه؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وكقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، المنع عن الشرك إخراجاً.
وقوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِمَّنْ الْقَتْلُ﴾.

أى: الشرك أعظم جرماً عند الله من القتل فيه.
وقوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ كما ذكرنا أن هذا وقوله: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ﴾، كله يخرج على المجازاة لهم.
وفيه لغة أخرى: «ولا تقتلوه عند المسجد الحرام حتى يقتلوكم فيه».
فإذا قتلونا لا سبيل لنا أن نقتلهم، فما معنى هذا؟
قيل: يحتمل قوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ﴾، أى: إذا قتلوا واحداً منكم فحينئذ تقتلونهم، أو لا تقتلوه حتى يبدءوا هم بالقتل^(١)، أو أن يقول: لا تقتلوه حتى يقتلوا بعضكم، فإذا فعلوا ذلك فحينئذ تقتلونهم. والله أعلم.
وقوله: ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

أى هكذا جزاء من لم يقبل نعم الله، ولم يستقبلها بالشكر.
ويحتمل: كذلك جزاء من بدأ بالقتال فى الحرم أن يقتل.
وقوله: ﴿فَإِنْ أَنهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.
يحتمل وجهين:

يحتمل: ﴿فَإِنْ أَنهَوْا﴾ عن الشرك، وأسلموا يتغمدهم الله برحمته.
ويحتمل: ﴿فَإِنْ أَنهَوْا﴾ عن بدء القتال، وأسلموا، فإن الله يرحمهم ويغفر ذنوبهم.
وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾.
أنه أمرنا بالقتال مع الكفرة ليسلموا.

فإن قيل: أيش الحكمة فى قتل الكفرة، وهو فى الظاهر غير مستحسن فى العقل؟
قيل: إنا نقاتلهم ليسلموا، ولا نقتلهم إلا أن يأبوا الإسلام، فإذا أبوا ذلك ثم لم نقتلهم لا يسلمون أبداً؛ لذلك قتلناهم، إذ فى القتل ذهاب الفتنة.
ويحتمل: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، على وجه الأرض، أى تطهر من الشرك.

= فى الحجة التى أمره عليها رسول الله قبل حجة الوداع يوم النحر فى رهط يؤذن فى الناس: «ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان».
(١) فى ط: يبدءهم بقتلكم.

وقال قوم: ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ هاهنا العذاب، أى: قاتلوا حتى لا يقدرُوا عليه كفار.
وقوله: ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾.

أى: ليكون ﴿الدين﴾ دين الله فى الأرض لا الشرك. و ﴿الدين﴾: الحكم.
وقوله: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

فإن قيل: فإذا صار الدين كله لله، فلا ظالم هنالك، فما معنى هذا الكلام؟
قيل: يحتمل: أن لا عدوان إلا على الظالم الذى أحدث الظلم من بعد.

ويحتمل: أن لا عدوان إلا على من بقى منهم مع الظلم.

فإن قيل: فلم سمى عدواناً، والعدوان هو ما لا يحل؟

قيل: لأنه جزاء العدوان، وإن لم يكن هو فى الحقيقة عدواناً، فسمى باسمه كما سمى
جزاء السيئة سيئة وإن لم يكن هو سيئة فى الحقيقة؛ كقوله: ﴿وَحَزَّوْا سَيِّئَةً سَبَّحُوا بِهَا﴾
[الشورى: ٤٠]، وكما سمى جزاء الاعتداء اعتداء وإن لم يكن هو فى الحقيقة اعتداء؛
فكذلك الأول.

وقوله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾.

قيل^(١): خرج النبى ﷺ فى الشهر الحرام يريد مكة فصدّه المشركون عن دخولها،
فجاء من عام قافل فى الشهر الحرام فدخلها وأقام ثلاثاً، وقضى عمرته التى فاتته فى العام
الأول، فسميت عمرة القضاء، فذلك تأويل قوله: ﴿وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾، هذه الثانية صارت
قصاصاً بالأول.

وقيل: إن [فى] الجاهلية كانوا يعظمون الشهر الحرام، ولا يقاتلون فيه، فلما أن ظهر
الإسلام عظمه أهل الإسلام أيضاً، ولم يقاتلوا فيه، حتى جعل الكفار يغيرون على أهل
الإسلام ويستنصرون عليهم، حتى نسخ ذلك وأمرُوا بالقتال فيه بقوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ
مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، كأنه
قال: ما هتكتكم من حرمة الشهر قصاص لما هتكوا.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾.

قد ذكرنا هذا فيما تقدم.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

يحتمل: ﴿وَاتَّقُوا﴾ مخالفة الله.

(١) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٣١٣٦، ٣١٤٤)، وعن قتادة (٣١٣٩)، ومقسم (٣١٤٠)،
وغيرهم. وانظر الدر المنثور (٣٧٢/١ - ٣٧٣).

أو: ﴿وَأَنفِقُوا﴾ عذاب الله .

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ .

يعنى: مع المؤمنين جملة .

ويحتمل: ﴿وَأَنفِقُوا﴾ القتال فى الحرم قبل أن يبدءوا هم ، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فى

النصر والمعونة لهم .

وقوله: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمُ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾ .

قيل فيه بوجوه:

قيل^(١): [أمر بالإنفاق ترتيباً]^(٢) على الخروج إلى الجهاد، وإلا فكل منفق على نفسه

بما يعلم حاجته إليه، ولا يلقي نفسه فى الهلاك من حيث منع الإنفاق .

وقيل^(٣): فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمُ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾ ، هو أن يذنب ذنباً ثم يئأس عن

العفو عنه .

وقيل: ﴿وَأَنفِقُوا﴾ أى: لا تضنوا بالإنفاق مخافة الفوت فى الوقت الثانى؛ فإنه يخلف

لكم ما أنفقتم .

وقيل: ﴿وَأَنفِقُوا﴾ أى: أعينوا أصحابكم، ولا تلقوهم إلى الهلكة بترك المعونة لهم

بالإنفاق والتجهيز لهم .

وقيل: ﴿وَأَنفِقُوا﴾ أى: تصدقوا، فإن فيه حياة أبدانكم وأنفسكم .

وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ .

قيل^(٤): ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ إلى أصحابكم بالإعانة والتصدق .

وقيل^(٥): ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ الظن بالله فى الإنفاق .

وقيل: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ الظن بربكم فى الخروج إلى الغزو .

ويحتمل: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ أى أسلموا .

(١) قاله حذيفة، أخرجه ابن جرير عنه (٣١٥٠، ٣١٥١)، وعن ابن عباس (٣١٥٢، ٣١٥٣، ٣١٥٤، ٣١٥٥)، وعكرمة (٣١٥٦)، ومجاهد (٣١٦٠)، وبتادة (٣١٦١، ٣١٦٢)، وغيرهم، وانظر الدر المنثور (١/٣٧٤) .

(٢) فى ط: الإنفاق ترغيباً .

(٣) قاله البراء بن عازب، أخرجه ابن جرير عنه (٣١٧٣، ٣١٧٤، ٣١٧٥، ٣١٧٦، ٣١٧٧، ٣١٧٨)، وعن عبيدة (٣١٧٩، ٣١٨٠، ٣١٨١)، وانظر الدر المنثور (١/٣٧٥) .

(٤) قاله ابن زيد، أخرجه ابن جرير عنه (٣١٩٠) .

(٥) قاله عكرمة، أخرجه ابن جرير عنه (٣١٨٩)، وانظر الدر المنثور (١/٣٧٥) .

وعلى ذلك يخرج قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعنى: المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ سُلْكٍ فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعَمْرِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا سُوْقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَكَزَرَدُوا فَإِنَّك خَيْرَ الزَّادِ النَّفَقَىٰ وَاتَّقُوا رَبَّ الْآلَسْبِ﴾.

وقوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ﴾

اختلفوا فى تأويله وفى قراءته:

قال بعض الناس^(١): العمرة فريضة بهذه الآية؛ لأنه أمر بإتمامها كما أمر بإتمام الحج^(٢).

وقيل^(٣): هى الحجة الصغرى.

وأما عندنا: هى ليست بفريضة، وليس فى قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ﴾ دليل

(١) قاله على، أخرجه ابن جرير عنه (٣٢١٧)، وعن ابن مسعود (٣٢١٨)، والشعبى (٣٢١٠)، ومسروق (٣٢١١، ٣٢١٢)، وغيرهم، وانظر الدر المنثور (١/٣٧٦).

(٢) ذهب المالكية وأكثر الحنفية إلى أن العمرة سنة مؤكدة فى العمر مرة واحدة، وذهب بعض الحنفية إلى أنها واجبة فى العمر مرة واحدة على اصطلاح الحنفية فى الواجب. والأظهر عند الشافعية - وهو المذهب عند الحنابلة - أن العمرة فرض فى العمر مرة واحدة، ونص أحمد على أن العمرة لا تجب على المكى؛ لأن أركان العمرة معظمها الطواف بالبيت وهم يفعلونه فأجزأ عنهم. وقد استدلت الحنفية والمالكية على سنية العمرة بأدلة، منها: حديث جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال: سئل رسول الله ﷺ عن العمرة أواجبة هى؟ قال: «لا»، وأن تعتمروا هو أفضل، وبحديث طلحة بن عبيد الله - رضى الله عنه - «الحج جهاد والعمرة تطوع».

واستدل الشافعية والحنابلة على فرضية العمرة بقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ﴾، أى: افعلوها تأمناً؛ فيكون النص أمراً بهما فيدل على فرضية الحج والعمرة. وبحديث عائشة - رضى الله تعالى عنها - قالت: قلت: يا رسول الله، هل على النساء جهاد؟ قال: «نعم، عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة».

ينظر: المنهاج للنووى وشرحه للمحلى بحاشيتى القليوبى وعميرة (٩٢/٢)، والمغنى (٣/٢٢٣، ٢٢٤)، والفروع لابن مفلح (٣/٢٠٣)، وكشاف القناع (٢/٣٧٦).

(٣) ورد فى معناه حديث أخرجه الشافعى فى الأم عن عبد الله بن أبى بكر أن فى الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم «أن العمرة هى الحج الأصغر».

وهو قول ابن مسعود، أخرجه ابن مردويه، والبيهقى فى سننه والأصبهاني فى الترغيب عنه كما فى الدر المنثور (١/٣٧٦، ٣٧٨).

فرضيتها^(١)؛ لأننا لم نعرف فرضية الحج بهذه الآية، ولكن إنما عرفناه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

ثم فى الأمر بالإتمام وجوه:

أحدها: أنهم كانوا يفتتحون الحج بالعمرة، فأمرُوا بإتمامها، على ما روى عن عمر، رضى الله عنه، قال: «متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ، وأنا^(٢) أنهى عنهما وأعاقب عليهما متعة الحج، ومتعة النساء»^(٣).

والثانى: أنهم كانوا لا يجعلون العمرة لله، فأمرُوا بجعلها لله.

وعلى ذلك روى فى حرف ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، أنه قرأ: «وأتموا»^(٤) الحج والعمرة لله^(٥) [بالرفع على الابتداء، ويحتمل الأمر بالإتمام ما روى عن على وابن مسعود رضى الله عنهما سئلا عن قول الله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾] قالوا^(٦): «من تمامهما أن تحرم من دويرة أهلك»^(٧).

واحتمج أصحابنا، رحمهم الله تعالى، أيضاً بما روى عن جابر رضى الله تعالى عنه: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، العمرة واجبة هى؟ قال: لا. وأن تعتمر خير لك»^(٨).

وروى أيضاً عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «الحج مكتوب، والعمرة تطوع»^(٩)، وفى بعضها قال: «الحج جهاد، والعمرة تطوع»^(١٠).

وعن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: «الحج فريضة، والعمرة تطوع»^(١١).

(١) فى أ: فريضة.

(٢) فى أ: وإنما.

(٣) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٢٠٦/٧)، وأصله فى صحيح مسلم (١٧/١٤٠٥).

(٤) فى ط: وأقيموا.

(٥) أخرجه ابن جرير (٣١٩١)، وأبو عبيد فى فضائله وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى كما فى الدر المنثور (٣٧٦/١).

(٦) بدل ما بين المعقوفين فى ط: وعن على وأبى هريرة رضى الله عنهما قال: إن.

(٧) أخرجه ابن جرير (٣١٩٨، ٣١٩٩)، ووكيع وابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس فى ناسخه والحاكم وصححه، والبيهقى فى سننه عن على بن أبى طالب.

وأخرجه ابن أبى عدى والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعاً كما فى الدر المنثور (٣٧٦/١).

(٨) أخرجه أحمد (٣١٦/٣، ٣٥٧)، والترمذى (٢٥٩/٢) كتاب الحج، باب ما جاء فى العمرة أواجبة هى أم لا (٩٣١)، وأبو يعلى (١٩٣٨)، وابن خزيمة (٣٠٦٨)، والدارقطنى (٢٨٥/٢، ٢٨٦)، والحاكم (٦٣٧/٣)، والبيهقى (٣٤٩/٤).

(٩) أخرجه ابن أبى داود عن أبى صالح ماهان مرسلاً كما فى كنز العمال (١١٨٧٩).

(١٠) أخرجه الشافعى فى الأم، وعبد الرزاق، وابن أبى شيبه وعبد بن حميد عن أبى صالح ماهان مرسلاً كما فى الدر المنثور (٣٧٨/١).

(١١) أخرجه ابن أبى شيبه وعبد بن حميد كما فى الدر المنثور (٣٧٨/١).

وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها، قالت: «قلت: يا رسول الله، أكل أهلك يرجع بحجة وعمرة غيرى؟ قال: انفرى فإنه يكفيك»^(١). إلى هذه الأخبار ذهب أصحابنا. والأصل: احتج أصحابنا أيضًا بشيء من النظر؛ وذلك أن الله تعالى فرض الصلاة والزكاة والصيام فى أوقات خصها بها، وأجمع أهل العلم أن المتطوع بالصدقة والصلاة والصيام يفعل ذلك متى شاء، ثم أجمعوا أن العمرة لا وقت لها؛ فدل ذلك على أنها تطوع؛ إذ لو كانت فريضة كان لها وقت مخصوص يفعل فيه غيرها من الفرائض. فإن قيل: إن الحج التطوع مخصص بوقت كمخصص المفروض منه، فكما لا يدل الخصوص الذى فى الحج التطوع على وجوبه، فكذلك العموم الذى فى العمرة لا يدل أنها تطوع

قيل: وجدنا الفرض كله مخصوصًا بوقت، ووجدنا التطوع على ضربين: منه ما هو مخصوص؛ كالحج، ومنه ما هو غير مخصوص؛ كالصلاة والصيام والصدقة. فلما لم نجد فى الفرض ما ليس بمخصص بوقت، [جعلنا كل ما ليس بمخصص بوقت تطوعًا]^(٢) غير فرض.

واحتجوا أيضًا: بأننا وجدنا العمرة تفعل فى أشهر الحج، ولم نجد صلاتين تفعلان فى وقت واحد فريضتين، ولكن تفعل الصلاة التطوع فى وقت الفريضة؛ فثبت لما جاز أن يجمع بين فعل الحج والعمرة فى وقت واحد أنها تطوع؛ كالصلاة التى تفعل فى وقت الظهر وغيرها.

واحتج من جعلها فرضًا بأن قال: لم نجد شيئًا يتطوع به إلا وله أصل فى الفرض^(٣)، فلو كانت العمرة تطوعًا لكان لها أصل فى الفرض.

قيل: العمرة إنما هى الطواف والسعى، ولذلك أصل فى الفرض - فرض الحج - مع ما أنا وجدنا الاعتكاف تطوعًا، وليس له أصل فى الفرض. فعلى ذلك العمرة.

والأصل: أن كل ما يتدئ الله إيجابه على عباده فإنه يوجب فعلها بأوقات أو يجعل لأدائها أوقات، والعمرة ليس لوجوبها وقت، ولا لأدائها. ثبت أنها ليست مما أوجبه الله تعالى. وقوله: ﴿إِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا زُورًا حَتَّىٰ تَبْلُغَ الْهَدْيَ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ سُلْكٍ﴾.

قوله: ﴿إِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ الآية على الإضمار، كأنه قال - والله أعلم -:

(١) أخرجه الطحاوى فى شرح معانى الآثار (٢/٢٠١).

(٢) سقط فى ط.

(٣) فى ب: القرآن.

فإن أحصرتم: عن الحج، فأردتم أن تحلوا فاذبحوا ما استيسر من الهدى؛ إذ الإحصار^(١) نفسه لا يوجب الهدى، لكنه إذا أراد الخروج منه يخرج بهدى^(٢)؛ وعلى ذلك يخرج

(١) من معاني الإحصار في اللغة: المنع من بلوغ المناسك بمرض أو نحوه، وهو المعنى الشرعى أيضا، على خلاف عند الفقهاء فيما يتحقق به الإحصار.

وقد استعمل الفقهاء مادة (حصر) بالمعنى اللغوى فى كتبهم استعمالا كثيرا، ومن أمثلة ذلك: قول صاحب «تنوير الأبصار» وشارحه فى (الدر المختار): (والمحصور فاقد الماء والتراب الطهورين، بأن حبس فى مكان نجس، ولا يمكنه إخراج مطهر، وكذا العاجز عنهما لمرض - يؤخر الصلاة عند أبى حنيفة، وقالوا: يشبه بالمصلين وجوبا، فيركع ويسجد إن وجد مكانا يابسا، وإلا يومئ قائما ثم يعيد). ومنه أيضا قول صاحب (تنوير الأبصار): (وكذا يجوز له أن يستخلف إذا حصر عن قراءة قدر المفروض). وقال أبو إسحاق (الشيرازي): (ويجوز أن يصلى بتيمم واحد ما شاء من النوافل؛ لأنها غير محصورة، فخف أمرها). إلا أنهم غلبوا استعمال هذه المادة (حصر)، ومشتقاتها فى باب الحج والعمرة للدلالة على منع المَحْرَم من أركان النسك؛ وذلك اتباعا للقرآن الكريم، وتوافقت على ذلك عباراتهم حتى أصبح (الإحصار) اصطلاحا فقها معروفا ومشهورا.

ويعرف الحنفية الإحصار بأنه: هو المنع من الوقوف بعرفة والطواف جميعهما بعد الإحرام بالحج الفرض، والنفل، وفى العمرة عن الطواف. وهذا التعريف لم يعترض عليه. ويعرفه المالكية بأنه: المنع من الوقوف والطواف معا أو المنع من أحدهما. ويمثل مذهب الشافعية هذا التعريف الذى أورده الرملى الشافعى فى (نهاية المحتاج)، ونصه: (هو المنع من إتمام أركان الحج أو العمرة). وينطبق هذا التعريف للشافعية على مذهب الحنابلة فى الإحصار؛ لأنهم يقولون بالإحصار عن أى من أركان الحج أو العمرة، على تفصيل يسير فى كيفية التحلل لمن أخصر عن الوقوف دون الطواف.

واختلف الفقهاء فى المنع الذى يتحقق به الإحصار هل يشمل المنع بالعدو والمنع بالمرض ونحوه من العلل، أم يختص بالحصر بالعدو؟ فقال الحنفية: الإحصار يتحقق بالعدو، وغيره: كالمرض، وهلاك النفقة، وموت محرم المرأة أو زوجها فى الطريق، ويتحقق الإحصار بكل حابس يحبسه - يعنى المحرم - عن المضى فى موجب الإحرام. وهو رواية عن الإمام أحمد. وهو قول ابن مسعود، وابن الزبير، وعلقمة، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، ومجاهد، والنخعى، وعطاء، ومقاتل بن حيان، وسفيان الثوري، وأبى ثور. ومذهب المالكية: أن الحصر يتحقق بالعدو، والفتنة، والجس ظلما. كذلك هو مذهب الشافعية والمشهور عند الحنابلة، مع أسباب أخرى من الحصر بما يقهر الإنسان، كمنع الزوج زوجته عن المتابعة.

واتفقت المذاهب الثلاثة على أن من يتعذر عليه الوصول إلى البيت بحاصر آخر غير العدو، كالحصر بالمرض أو بالعرج أو بذهاب نفقة ونحوه - أنه لا يجوز له التحلل بذلك. لكن من اشترط التحلل إذا حبسه حابس له حكم خاص عند الشافعية والحنابلة. وهذا القول ينفى تحقق الإحصار بالمرض ونحوه من علة، وهو قول ابن عباس وابن عمر وطاوس والزهرى وزيد بن أسلم ومروان بن الحكم.

ينظر: نهاية المحتاج (٤٧٣/٢)، تحفة المحتاج (٢٠٠/٤)، فتح القدير (٢٩٥/٢).

(٢) الهدى: هو ما يهدى إلى الحرم من حيوان وغيره. لكن المراد هنا وفى أبحاث الحج خاصة: ما يهدى إلى الحرم من الإبل والبقر والغنم والماعز خاصة.

قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، كأنه قال - والله أعلم - : من كان منكم مريضًا أو على سفر فأفطر، فعدة من أيام أخر، وكقوله: ﴿أَوْ بِرَأْسِهِ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، والله أعلم - أو به أذى [فلو أزال]^(١) من رأسه ففدية، و إلا كون الأذى فى رأسه لا يوجب عليه الفداء حتى يزيل، كقوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٣]، أى من اضطر فأكل منها غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه. والاضطرار نفسه لا يوجب الإثم.

ثم اختلف أهل العلم فى الإحصار: ما هو؟ وبم يكون؟ وهل يحل؟
 روى عن ابن مسعود^(٢)، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: «إذا أحصر الرجل من مرض أو حبس أو كسر أو شبه ذلك، بعث الهدى وواعد يوم النحر ومكث على إحرامه على أن يبلغ الهدى محله، وعليه الحج والعمرة جميعًا من قابل».
 وعن^(٣) عروة بن الزبير^(٤) قال: «الحصر^(٥) من كل شىء يحبسه: عدو ومرض».
 وروى مرفوعًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كسر أو عرج فقد حل، وعليه الحج

وقد ذهب جمهور العلماء إلى وجوب ذبح الهدى على المحصر لى يتحلل من إحرامه، وأنه لو بعث به واشتره، لا يحل ما لم يذبح. وهو مذهب الحنفية والشافعية والحنابلة وقول أشهب من المالكية. وذهب المالكية إلى أن المحصر يتحلل بالنية فقط، ولا يجب عليه ذبح الهدى، بل هو سنة، وليس شرطاً. وقد استدل الجمهور بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ قَوْمًا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ على ما سبق. واحتج الجمهور أيضاً بالسنة: «بأن رسول الله ﷺ لم يحل يوم الحديبية ولم يحلق رأسه حتى نحر الهدى»؛ فدل ذلك على أن من شرط إحلال المحصر ذبح هدى إن كان عنده. وأما وجه قول المالكية ودليلهم فهو دليل من جهة القياس، وهو كما ذكره أبو الوليد الباجى أنه تحلل مأذون فيه، عارٍ من التفريط وإدخال النقص؛ فلم يجب به هدى، أصل ذلك: إذا أكمل حجه.

ينظر: الهداية وشروحها (٢/٢٩٧)، البدائع (٢/١٧٧ - ١٧٨)، متن التنوير ورد المختار (٢/٣٢١)، المذهب (٨/٢٤٢)، المغنى (٣/٣٥٧، ٣٥٨)، الكافى (١/٦٢٥).

- (١) سقط فى أ.
- (٢) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق إبراهيم عن علقمة عنه كما فى الدر المنثور (١/٣٨٣).
- (٣) زاد فى أ، ب: وعن ابن الزبير.
- (٤) أخرجه ابن جرير (٣٢٣٧)، وابن أبي شيبه كما فى الدر المنثور (١/٣٨٤).
- وهو: عروة بن الزبير بن العوام الأسدى، أبو عبد الله المدنى، أحد الفقهاء السبعة، وأحد علماء التابعين، وقال الزهرى: عروة بحر لا تكدره الدلاء، مات سنة اثنتين وتسعين، وقال خليفة: سنة ثلاث. وقال ابن سعد: سنة أربع. وقال يحيى بن بكير: سنة خمس. قلت: قيل: عروة عن أبيه مرسل ينظر الخلاصة (٢/٢٢٦) (٤٨٢٦).
- (٥) فى أ، ب: المحصر.

من قابل»^(١)، ومعنى قوله: «فقد حل»، أى جاز له أن يحل [لا أن يحل]^(٢) بغير دم؛ لأن الله تعالى أذن له فى الإحلال بدم.

وهذا عندنا كقول رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل وأدبر النهار وغابت الشمس فقد أفطر»^(٣)، فمعناه: فقد حل له الإفطار. فعلى ذلك الأول: حل له أن يحل. ثم قال بعض أهل اللغة من نحو الكسائى وأبى معاذ: إن الإحصار من المرض، والحصر من العدو.

فإن قيل: روى عن ابن عباس^(٤) وابن عمر^(٥)، رضى الله تعالى عنهما، أنهما قالوا: «لا حصر إلا عن حصار العدو».

ولكن فى هذا نسخ الكتاب بقولهما، إن ثبت، وهو لا يرى نسخ الكتاب بالسنة فضلاً أن يراه بقول واحد من الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، مع ما ترك قولهما؛ لأنه روى عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: ذهب الحصر.

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣/٢) كتاب: المناسك (الحج)، باب: الإحصار، حديث (١٨٦٢)، والترمذى (٢٧٧/٣) كتاب: الحج، باب: ما جاء فى الذى يهل بالحج فيكسر أو يعرج، حديث (٩٤٠)، والنسائى (١٩٨/٢) كتاب: الحج، باب: فيمن أحصر بعدو، وابن ماجه (١٠٢٨/٢) كتاب: المناسك، باب: المحصر، حديث (٣٠٧٧)، والحاكم (٤٧٠/١) كتاب: المناسك، والبيهقى (٢٢٠/٥) كتاب: الحج، باب: من رأى الإحلال بالإحصار بالمرض. وأبو نعيم فى الحلية (٣٥٧/١ - ٣٥٨)، وابن سعد فى الطبقات (٢٣٨/٤)، والطبرانى فى الكبير (٢٥٣/٣)، والدارقطنى (٢٧٨/٢) كتاب: الحج، باب: المواقيت من طريق عكرمة عن الحجاج بن عمرو الأنصارى قال: قال رسول الله ﷺ: «من كسر أو عرج فقد حل وعليه حجة أخرى».

قال عكرمة: فذكرت ذلك لأبى هريرة وابن عباس فقالا: صدق.

قال الترمذى: هذا حديث حسن.

وقال الحاكم: صحيح على شرط البخارى، ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

(٢) سقط فى أ، ط.

(٣) أخرجه البخارى (٢٣١/٤)، كتاب الصوم: باب متى يحل فطر الصائم حديث (١٩٥٤)، ومسلم (٧٧٢/٢)، كتاب الصيام، باب بيان وقت انقضاء الصوم وخروج النهار، حديث (١١٠٠/٥١)، والترمذى (٨١/٣)، كتاب الصوم: باب ما جاء إذا أقبل الليل وأدبر النهار، حديث (٦٩٨)، وأحمد (٢٨/١)، (٣٥، ٤٨)، وعبد الرزاق (٧٥٩٥)، وابن الجارود فى المتقى رقم (٣٩٣)، وأبو نعيم فى الحلية (٣٧١/٨ - ٣٧٢)، والبيهقى (٢١٦/٤) كتاب الصيام: باب الوقت الذى يحل فيه فطر الصائم، والبعغوى فى شرح السنة (٤٧١/٣) كلهم من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عاصم ابن عمر عن عمر به.

وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير (٣٢٤١، ٣٢٤٢)، وانظر الدر المنثور (٣٨٤/١).

(٥) أخرجه ابن أبى شيبة كما فى الدر المنثور (٣٨٤/١).

ثم يقال للشافعي - رحمه الله تعالى - : إذا جاز أن تجعل المرأة بمنزلة المحصر من غير أن تخاف عدوًا، لكنها لما منعها من له أن يمنعها جعلتها محصرة، فهلا جعلت المريض مثلها، وإن كان النص في القرآن جاء في المحصر من العدو على زعمك؟ فقال: لأن المرأة حبسها من له أن يحبسها، فهي أشد حالا ممن حبسه عدو، وليس له أن يحبسها.

فيقال له: المريض أمرضه من له أن يمرضه فاجعله أشد حالا من الذي حبسه عدو وليس له أن يحبسها، أو فرق بين المرأة والمريض، فقال: بل بينهما فرق. وذلك أن الخائف بعدو يخاف القتل على نفسه، وقد أباح الله للخائف في القتال أن يتحيز إلى فئة، فينتقل بذلك من الخوف إلى الأمن.

قيل له: كما رخص للخائف في ذلك فقد رخص للمريض ألا يحضر القتال؛ فالرخصة له أكثر من الرخصة للخائف.

فإن قال: إن المريض لا يبرأ بالقعود، والخائف يأمن. قيل له: إن الرخص التي جعلت للأعذار لا تجعل لترفعها^(١)، ولكن الرخصة لتؤفقه المشقة. فيقال له أيضا: قد جعلت المرأة محصرة إذا منعها زوجها وهي لا تخاف القتل على نفسها. فبطلت علتها وانتقضت.

فإن قال: إنكم لم تجعلوا من ضل الطريق محصرًا وهو ممنوع من المضى على حجه، فما الفرق بينه وبين المريض؟ فيقال: لو جعلنا الضال عن الطريق محصرًا، لم يجز له أن يحل من إحرامه إلا بدم يوجهه إلى الحرم فيذبح عنه.

وإذا وجد من يذهب إلى الحرم فيذبح هديه، فليس بضال؛ لأنه قد وجد دليلًا يدلّه على طريقه؛ لذلك افترقا.

وبعد، فإن المرض أحق أن يكون عذرًا في ذلك من العدو وغيره؛ لأنه يقاتل العدو والسباع فيدفع عن نفسه الإحصار، والمرض لا سبيل له إلى دفعه. دل أنه أحق أن يجعل عذرًا.

وقال بعضهم: يكون محصرًا من الحج، ولا يكون من العمرة؛ لأن الحج مما يحتمل الفتور، والعمرة لا.

وأما عندنا: فإنه يكون محصرًا منهما جميعًا؛ لأن الله عز وجل ذكر الإحصار على إثر

(١) في ط: لترخصها.

ذكر العمرة بقوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، وروى فى الخبر، يرويه ابن عمر، رضى الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ خرج معتمراً، فحال كفار قريش بينه وبين البيت الشريف، فنحر هديه، وحلق رأسه بالحديبية^(١)، وقوله: ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾، فيه دلالة أن المحصر يبقى حراماً على حاله، لا يحل حتى ينحر عنه الهدى.

واختلف أهل العلم: أين يذبح الهدى؟

فنعندنا: أنه لا يجوز أن يذبح إلا فى الحرم؛ روى عن ابن مسعود^(٢) - رضى الله تعالى عنه - أنه قال: «يبعث بهدى ويؤاخذهم يوماً، فإذا نحر عنه حل». وعن ابن عباس^(٣)، رضى الله تعالى عنهما، مثل ذلك. وعن ابن الزبير^(٤) وعروة ابن الزبير - رضى الله تعالى عنهما -: أن المحصر يبعث بالهدى فإذا نحر عنه حلق.

وظاهر القرآن يدل على ما روى عن هؤلاء؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾، فجعل للهدى محلاً يبلغه، وبين موضع محله فقال: ﴿هَدْيًا يَبْلُغُ الْكَعْبَةَ﴾ [المائدة: ٩٥]، وكانت الكعبة محلاً لجزاء الصيد والدم المحصر.

قال الشيخ - رحمه الله -: المحل: اسم الموضع الذى يحل فيه. ولو كان كل موضع له محلاً لم يكن لذكر المحل فائدة.

واحتج من خالف أصحابنا رحمهم الله بما روى أن النبى ﷺ ذبح الهدى يوم الحديبية ثم قال: ولم يبلغنا أنه نحره فى الحرم. قيل روى أنه نحر هديه يوم الحديبية فى الحرم، يرويه مروان بن الحكم.

وعن ابن عباس - رضى الله عنه - قال: نزل رسول الله ﷺ الحديبية فحال المشركون بينه وبين دخول مكة، وجاء سهيل بن عمرو يعرض عليهم الصلح فصالحهم رسول الله

(١) أخرجه البخارى (٤٦٨/٤ - ٤٦٩) كتاب المحصر باب إذا أحصر المعتمر (١٨٠٦، ١٨٠٩)، وابن جرير (٣٣٢١).

(٢) أخرجه ابن جرير من (٣٢٩٩) إلى (٣٣٠٤).

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٣٠٥، ٣٣٠٦، ٣٣١١).

(٤) هو: عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدى أبو خبيب - بمعجمة مضمومة - المكى ثم المدنى، أول مولود فى الإسلام وفارس قريش. له ثلاثة وثلاثون حديثاً، اتفقاً على حديث، وانفرد البخارى بستة، وانفرد مسلم بحديثين. وعنه ابنه عباد وعامر، وأخوه عروة وعطاء وطاوس. شهد اليرموك وبويع بعد موت يزيد، وغلب على اليمن والحجاز والعراق وخراسان، وكان فصيحاً شريفاً شجاعاً لسنّاً أطلّس. قتل بمكة سنة ثلاث وسبعين، ومولده بعد الهجرة بعشرين شهراً، ينظر الخلاصة (٢/ ٥٦) (٣٤٩٦).

ﷺ وأمرهم أن يسوقوا البدن حتى تنحر حيث شاء، ولا يتوهم أن يكون النبي ﷺ يهدى الهدى فى الحل وقد أطلق له المشركون أن ينحرها حيث شاء ولا يتوهم أن يكون النبي ﷺ وهو بقرب الحرم بل هو فيه .

وروى عن مروان والمصور بن مخزومة قالوا: نزل رسول الله ﷺ بالحديبية فى الحل وكان يصلى فى الحرم، هذا يبين أنه كان قادرًا أن ينحر هديه فى الحرم حيث كان يصلى . ولا يحتمل أن يترك نحر الهدى فى الحرم وهو على ذلك قادر، ولأن الحديبية مكان مجمع الحل والحرم جميعًا فإنما ذبح فى الحرم لا فى الحل؛ لما ذكرنا أنه لا يحتمل أن يذبح فى الحل، وله سبيل [إلى] الذبح فى الحرم .

فإن قيل: حل النبي ﷺ عام الحديبية من إحصاره بغير [هدى؛ لأن الهدى إلى نحره كان هديًا ساقه لعمرته لا لإحصاره، فنحر هديه على النية الأولى، وحل من إحصاره بغير] (١) دم .

قلنا: ليس الأمر عندنا هكذا؛ لأنه لا يتوهم على النبي ﷺ أن يكون حل بغير دم، وقد أمر الله المحصر بالدم .

فإن قال كذلك قال: وليس فى حديث صلح الحديبية أنه نحر دمين، وإنما نحر دمًا واحدًا (٢)، فما وجه ذلك عندهم؟

قيل: وجه ذلك عندنا - والله أعلم - أن الهدى الذى ساقه كان هدى متعة أو قران فلما منع عن البيت سقط عنه دم القران فجاز له أن يجعله من دم الإحصار . فإن قيل: فكيف قلنا: إن النبي ﷺ أزال الهدى عن سبيله، وأنت تزعم أن من باع هديه فهو مسيء؟ قيل له: إن النبي ﷺ لم يصرف الهدى عن نحره لله والتقرب به إليه، وإنما صرف النية إلى ما هو أفضل منها وأوجب، فكان ذلك فى فعله متبعا والذى باعه صرفه عن سبيله وترك أن ينحره بعد أن كان نوى به القربة فكان مسيئا، ومما يدل على أن النبي ﷺ جعل الهدى لإحصاره ما روى أنه لم يحلق حتى نحر هديه، وقال: «يأيتها الناس انحروا وحلوا» .

ثم المسألة ما يجب على المحصر بالحج والعمرة من القضاء إذا حل، فعلى قول أصحابنا إذا كان محرما بالحج يلزمه الحج مكان الأول وعمرة بتفويت الحج؛ قال الله

(١) ما بين المعقوفين سقط فى ط .

(٢) من حديث المسور بن مخزومة وقزوان بن الحكم، أخرجه البخارى (٣/ ٢٥٢ - ٢٥٨)، كتاب الشروط، باب (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، وأحمد (٤/ ٣٢٣، ٣٢٨)، وأبو داود (٢/ ٩٣ - ٩٤) كتاب الجهاد، باب فى صلح العدو (٢٧٦٥) .

تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِّنْ تَمَنَعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ اختلف أهل العلم فى تأويل ذلك، فروى عن ابن عباس - رضى الله عنه - فيما يكون الرجل به محصرا أنه قال: فإذا أمنتُم من الخوف أو المرض فمن تمتع بالعمرة أى اعتمر فى أشهر الحج، كأنه يقول: إن عليه لإحلاله بغير الطواف عمرة، فإن أخرها حتى يقضيها مع الحج فى أشهره فعليه لجمعه بينهما دم، وروى عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال فى رجل أهل بعمرة وأحصر: يبعث بهديه، فإذا بلغ الهدى محله حل، فإن اعتمر من وجهه ذلك إذا برأ فليس عليه هدى، وإن اعتمر من قابل بعد حج فليس عليه هدى، فإن وصلها من قابل بعد حج فعليه هدى، والحاج إذا أحصر فإنه يبعث بهدى، فإذا بلغ محله حل، وإن اعتمر من وجهه ذلك إذا برأ فإنه يحج من قابل وليس عليه هدى، وإن لم يزر البيت حتى يحج وجعلها سفرا واحدا كان عليه هدى آخر، سفران وهدى أو هديان وسفر.

وقال قوم: عليه حج واحد.

وروى عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنه - قال: أمر الله بالقصاص فيأخذ منكم العدد، أى حجة بحجة وعمرة بعمرة.

وروى فى خبر عمر، رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ لما قال: «فقد حل وعليه الحج من قابل»^(١)، هذا يدل على قول ابن عباس، رضى الله تعالى عنه، لأنه قال: «وعليه الحج من قابل»^(٢)، ولم يذكر عمرة.

إلا أنه قد يجوز أن يكون عليه العمرة وإن لم تذكر فى الحديث، كما أن الدم عليه واجب وإن لم يذكر فى الحديث، فعلى ذلك العمرة يجوز وجوبها وإن لم تذكر. أما إيجابهم العمرة لفسخ الحج بغير طواف وحجة مكان حجته: فإن كان التأويل فى قوله: ﴿فَمَنْ تَمَنَعَ بِالْعِمْرَةِ﴾ أى: بالعمرة التى لزمته بإحلاله كما قال ابن مسعود وابن عباس وابن الزبير - رضى الله عنهم - فكفى به حجة، وإن كان تأويل الآية غير ذلك فإننا وجدنا من يفوته الحج يلزمه أن يطوف بالبيت ثم يجب بعد ذلك قضاء الحج فأوجبوا على المحصر عمرة مكان الطواف الذى يجب على من يفوته الحج وأوجبوا الحج لما دخل فيه.

فإن قيل يجب أن تسقط عنه العمرة التى يجب على من يفوته الحج لأن الذى يفوته الحج لا يحل منه بدم وإنما يحل بالطواف، والمحصر قد حل بالدم فقام الدم الذى لزمه يحل به مقام الطواف الذى يفوته الحج.

(١) تقدم.

(٢) تقدم.

قيل له: إن المحصر لو لم يذبح عنه هديا احتاج أن يقوم على إحرامه حتى يصل إلى البيت فيطوف به ولو إلى سنين ثم يحج بعد ذلك مكان الحجة التي دخل فيها فجعل له أن يتعجل إلى الخروج من إحرامه ويؤخر الطواف الذي لزمه بدم يهريقه فبالدم جاز له أن يحل ولم يبطل الطواف عنه وإذا لم يبطل الدم عنه الطواف ولم يجعل بدلاً منه فعليه أن يأتي به بإحرام جديد فيكون ذلك عمرة.

فإن قيل: ما الدليل على أن الدم الذي يحل به المحصر جعل عليه ليتعجل به الإحلال، ولم يجعل بدلاً عن الطواف؟

قيل: لأن أهل العلم أجمعوا على أن الذي يفوته الحج ليس له أن يفسخ الطواف الذي لزمه بدم يهريقه يجعله بدلاً عن الطواف، فدل أنه إنما يهريق الدم ليتعجل به إلى الإحلال، لا بدلاً عن الطواف. والله أعلم.

وقوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

روى عن علي^(١) وابن عباس^(٢)، رضى الله تعالى عنهما، أنهما قالوا: «شاة» وأصحابنا، رحمهم الله تعالى، يرون الشاة مجزئاً في المتعة، والإحصار، والفدية، والحجّة لهم في ذلك ما ذكرنا من قول الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وما روى عن رسول الله ﷺ، أنه قال لكعب بن عجرة^(٣): «النسك شاة»^(٤)، وإجماع الناس على أنها مجزئة في الأضحية.

ثم المسألة في المحرم إذا حلق رأسه من أذى:

رخص الله تعالى للمتأذى حلق رأسه بفدى، بقوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾، روى في الخبر عن كعب بن عجرة، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا كعب، أيؤذيك هوام رأسك، قلت: نعم يا رسول الله. قال: فاحلقه، واذبح شاة أو أطعم ستة مساكين». وقال كعب: فنيّ نزلت هذه الآية^(٥).

(١) أخرجه ابن جرير (٣٢٦٨، ٣٢٦٩)، وانظر الدر المنثور (٣٨٦/١).

(٢) أخرجه ابن جرير من (٣٢٤٤) إلى (٣٢٥٠)، وانظر الدر المنثور (٣٨٦/١).

(٣) كعب بن عجرة بن أمية بن عدى بن عبيد بن الحارث القضاعى البلوى حليف القواقل أبو محمد المذنى روى سبعة وأربعين حديثاً اتفقا على حديثين، وانفرد مسلم بمثلهما. وعنه بنوه محمد، وإسحاق، وعبد الملك. قال خليفة: مات سنة إحدى وخمسين، ينظر الخلاصة (٣٦٥/٢) (٥٩٥٩).

(٤) أخرجه ابن مردويه والواحدى عن ابن عباس كما فى الدر المنثور (٣٨٦/١).

(٥) أخرجه البخارى (٤٨٣/٤) كتاب المحصر، باب قول الله تعالى: ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ وهى إطعام ستة مساكين (١٨١٥)، ومسلم (٨٦٠/٢) كتاب الحج، باب جواز حلق الرأس للمحرم (١٢٠١/٨٢)،

ثم اختلف أهل العلم فى الذبح: أين يذبح؟

قال أصحابنا - رضى الله تعالى عنهم -: لا يجوز أن يذبح الفدية إلا بمكة^(١).

وأما الصدقة والصوم فإنه يأتى به حيث شاء.

وذلك عندهم بمنزلة هدى المتعة؛ لأن هدى المتعة إنما وجب بجمعه بين الحج والعمرة فى سفر واحد؛ ولأنه لو شاء أن يفرد لكل واحد منهما سفرًا فعل، فبأخذه بالرخصة لزمه دم.

وكذلك دم الفدية إنما وجب لأخذه بالرخصة فى حلق رأسه، فصار سبيل الدمين سواء، يجبان بمكة، وكذلك دم الإحصار إنما وجب؛ لأنه أخذ بالرخصة فى حلق رأسه فحل من إحرامه. ولا يجوز أن يذبح إلا بمكة. فدم الفدية أينما كان إنما وجب؛ لأنه رخص له فى حلق مثل ذلك.

= وأحمد (٢٤١/٤، ٢٤٢، ٢٤٣)، وأبو داود (٥٧٤/١) كتاب المناسك، باب فى الفدية (١٨٥٦)، ١٨٥٧، ١٨٥٨، ١٨٥٩، ١٨٦٠)، والنسائي (١٩٤/٥) كتاب المناسك، باب فى المحرم يؤذيه القمل فى رأسه، والترمذى (٢٧٦/٢ - ٢٧٧) كتاب الحج، باب ما جاء فى المحرم يحلق رأسه (٩٥٣).

(١) ذهب الشافعية والحنابلة فى رواية إلى أن المحصر يذبح الهدى حيث أحصر، فإن كان فى الحرم ذبحه فى الحرم، وإن كان فى غيره ذبحه فى مكانه. حتى لو كان فى غير الحرم وأمكنه الوصول إلى الحرم فذبحه فى موضعه أجزأه على الأصح فى المذهبين. وذهب الحنفية - وهو رواية عن الإمام أحمد - إلى أن ذبح هدى الإحصار مؤقت بالمكان، وهو الحرم، فإذا أراد المحصر أن يتحلل يجب عليه أن يبعث الهدى إلى الحرم فيذبح بتوكيله نيابة عنه فى الحرم، أو يبعث ثمن الهدى ليشتري به الهدى ويذبح عنه فى الحرم. ثم لا يحل يبعث الهدى ولا بوصوله إلى الحرم، حتى يذبح فى الحرم، ولو ذبح فى غير الحرم لم يتحلل من الإحرام، بل هو محرم على حاله. ويتواعد مع من يبعث معه الهدى على وقت يذبح فيه ليتحلل بعده. وإذا تبين للمحصر أن الهدى ذبح فى غير الحرم فلا يجزئ. وفى رواية أخرى عن أحمد: أنه إن قدر على الذبح فى أطراف الحرم ففيه وجهان. وقد استدلل الشافعية والحنابلة بفعل النبى ﷺ فإنه نحر هديه فى الحديبية حين أحصر، وهى من الحل؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَالْمَذَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ يَحِلَّهُ﴾. واستدلوا كذلك من جهة العقل بما يرجع إلى حكمة تشريع التحلل من التسهيل ورفع الحرج، كما قال فى المعنى: (لأن ذلك يفضى إلى تعذر الحل؛ لتعذر وصول الهدى إلى الحرم) أى: وإذا كان كذلك دل على ضعف هذا الاشتراط. واستدل الحنفية على توقيت ذبح الهدى بالحرم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْمَذَىٰ يَحِلَّهُ﴾، وتوجيه الاستدلال بالآية عندهم من وجهين: الأول: التعبير (الهدى). الثانى: الغاية فى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْمَذَىٰ يَحِلَّهُ﴾ وتفسير قوله: ﴿يَحِلَّهُ﴾ بأنه الحرم. واستدلوا بالقياس على دماء القربيات؛ لأن الإحصار دم قرابة، والإراقة لم تعرف قرابة إلا فى زمان، أو مكان، فلا يقع قرابة دونه. أى دون توقيت بزمان ولا مكان، والزمان غير مطلوب؛ فتعين التوقيت بالمكان.

ينظر: الهداية وشروحا (٢/٢٩٧)، شرح الكنز (٢/٧٨)، والبدائع (٢/١٧٩)، المجموع (٨/

والصدقة: هي ثلاثة أصع على ستة مساكين، على ما ذكر في خبر كعب بن عجرة، رضى الله تعالى عنه.

فأما الصوم: فإن المتمتع إذا لم يجد هديا، صام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع [إلى أهله]^(١). فأجمعوا على أن له أن يصوم السبعة بمكة وفي غيرها. فصوم الفدية كذلك. وكذلك الثلاثة الأيام إذا صامها بعد إحرامه بالعمرة عندنا، وبعد إحرامه بالحج عند مخالفينا بمكة أو غيرها، فهي مجزئة. وكذلك صيام الفدية تجزئه حيث صامه قياسا على صوم المتمتع.

فأما الصدقة: فإن الشافعى رحمه الله ذكر أنها لا تجزئ إلا بمكة.

وقال: لأن أهل الحرم ينتفعون بها كما ينتفعون بالهدى.

فيقال له: أرأيت إن ذبح الهدى بغير مكة، ثم تصدق به على أهل الحرم هل يجزئه ذلك؟ فإن قال: لا، قيل له: قد بطلت علتك حيث لم يجز التصدق على أهل الحرم، وبأن أن الدم خص بأن يهراق في الحرم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾. فأما الصدقة فهي مجزئة حيث كانت.

ثم اختلف في الذى يحلق قبل أن يذبح بغير أذى:

فقال أبو حنيفة - رضى الله تعالى عنه - : يجب عليه دم. والحجة له: بأن الله - تبارك وتعالى - منع المحصر من الحلق ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾، فإن حلق رأسه لأذى فعليه دم آخر؛ لأن الآية الكريمة فى الحلق فى المحصر، فإذا كان الذى يصيبه الأذى فى رأسه قبل الوقت الذى أذن له فيه فدية، بل الذى يحلق رأسه بغير أذى أخرى أن يكون عليه الفدية. وأبو حنيفة، رضى الله تعالى عنه، يزيد فى التغليظ عليه، فيقول: لا يجزئه غير الدم، ويخير صاحب الأذى بين الدم، والصدقة، والإطعام، كما أخبر الله تعالى. فدلّل القرآن شهد لمذهبه.

وخالفه جماعة من أهل العلم فيمن حلق قبل أن يذبح وليس بمحصر، ووافقوه فى المحصر. واحتجوا بما روى عن النبى ﷺ، أنه لما سئل عن رجل حلق قبل أن يذبح فقال: «اذبح ولا حرج»^(٢). لكن قوله: «افعل ولا حرج»، يرجع إلى الإثم، دون الكفارة،

(١) سقط فى ط.

(٢) أخرجه مالك (٤٢١/١) كتاب: الحج، باب: جامع الحج، حديث (٢٤٢)، والبخارى (٥٦٩/٣) كتاب: الحج، باب: الفتيا على الدابة عند الجمرة، حديث (١٧٣٦)، ومسلم (٩٤٨/٢) كتاب: الحج، باب: من حلق قبل النحر، أو نحر قبل الرمي، حديث (١٣٠٦/٣٢٧)، وأبو داود (٢/٥١٦، ٥١٧) كتاب: المناسك (الحج) باب فيمن قدم شيئا قبل شيء فى حجه، حديث (٢٠١٤)، =

افعل: أى لو فعلت لم يكن عليك حرج؛ لأن الكفارة قد تجب^(١) فى أشياء يفعلها الرجل خطأ وعلى جهة الجهل، إنما تجب فى ذلك؛ فلا حجة لمن احتج بهذا الحديث فى زوال الكفارة.

وأصله فى ذلك: أن أحوال الضرورة سبب تخفيف الحكم وتيسيره، لم يجز إيجاب ذلك الحكم فى غير أحوال الضرورة والعذر. وعلى هذا يخرج قولهم فى جميع الأصول: إن الحكم فى حال الاضطرار والعذر خلاف ما هو فى حال الاختيار. ولهم على هذا مسائل مما يكثّر عددها.

وفى الآية دليل لزوم الفداء على المتدين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا﴾، وقد ذكرنا أن فيه إضمارًا. ثم معروف حاجة المريض فى حال مرضه إلى الدهن، فصار كأنه مذكور فى الآية. والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحُجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

وقد ذكرنا هذا وأقوايلهم.

وقوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحُجِّ﴾.

اختلف أهل التأويل فيه:

قال بعضهم: من حين يحرم آخرها يوم عرفة.

وعن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، قال: «ولا تصومهن حتى تحرم»^(٢).

والترمذى (٢٥٨/٣) كتاب: الحج، باب: ما جاء فيمن حلق قبل أن يذبح، أو نحر قبل أن يرمى، حديث (٩١٦)، وابن ماجه (١٠١٤/٢) كتاب: المناسك، باب: من قدم نسكا قبل نسك، حديث (٣٠٥١)، والشافعى (٣٧٨/١) كتاب: الحج: الباب السابع فى الأفراد والقران والتمتع، حديث (٩٧٤)، والطيالسى (٢٢٤/١) كتاب: الحج والعمرة، باب: النحر والحلق والتقصير، وحل ما يحرم على المحرم بعد ذلك ما عدا النساء، حديث (١٠٨٣)، وأحمد (١٥٩/٢)، والدارمى (٢/٦٤) كتاب: المناسك، باب: من قال: ليس على النساء حلق، وابن الجارود (ص: ١٠١٤) كتاب: المناسك، حديث (٤٨٧)، والطحاوى فى شرح معانى الآثار (٢٣٧/٢) كتاب: مناسك الحج، باب: من قدم فى حجه نسكا قبل نسك، والبيهقى (١٤١/٥) كتاب: الحج، باب: التقديم والتأخير فى عمل يوم النحر، والحميدى (٢٦٤/١) رقم (٥٨٠)، والنسائى فى الكبرى (٤٤٧/٢) من طرق عن الزهرى عن عيسى بن طلحة عن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ سأل رجل فقال: ذبحت قبل أن أحلق قال: «أحلق ولا حرج» فسأله آخر فقال: حلقت قبل أن أذبح قال: «أذبح ولا حرج»، قال آخر: ذبحت قبل أن أرمى قال: «أرم ولا حرج». وقال الترمذى: حسن صحيح.

(١) فى ط: تحجب.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٤٨٨).

وعن ابن عباس، رضى الله تعالى عنه، قال: «ما بين الهلال ويوم عرفة»^(١)، وعن على، رضى الله تعالى عنه، قال: «فصيام ثلاثة أيام فى الحج»، اختلف أهل التأويل فيه قبل يوم التروية بيوم، ويوم التروية، ويوم عرفة^(٢). فإن فات ذلك صام ثلاثة أيام بعد أيام التشريق.

أما تأخير الصوم [حتى يكون آخره يوم عرفة لما لعله يجد الهدى، ومثال ذلك ما أمر المتيمم عن تأخير الصلاة]^(٣) رجاء أن يجد الماء فيغنيه عن التيمم، فعلى ذلك يؤخر الصوم حتى يكون آخره يوم عرفة رجاء أن يجد الهدى.

وأما ما اختلفوا فيه من صيامهن حلالا بعد العمرة، فإن من لم يجوز ذلك ذهب إلى أن الله تعالى قال: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾، فتأول ذلك على الإحرام. وقد يجوز أن يكون الأمر كما قال، ويجوز أن يكون معناه: فى أشهر الحج.

ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾^(٤)، ومعناه - والله أعلم -: أن الحج يفعل فى هذه الأشهر، ولفعله أشهر معلومات. فلما احتملت الآية ما ذكرنا وجدنا السنة فى المتمتع أن يحرم بالحج عشية التروية^(٥)، كذلك روى عن جابر بن عبد الله^(٥)، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: «قدمنا مكة مع رسول الله ﷺ مهلين بالحج لأربع ليال مضين من ذى الحجة، فطاف بالبيت سبعا، وسعى بين الصفا والمروة، ولم يحل؛ لأنه كان ساق الهدى وأمر من لم يسق الهدى أن يطوف ويسعى ويقصر ثم يحل.

فلما كان يوم التروية أمرهم أن يلبوا بالحج، فإذا كنا نأمر المتمتع أن يحرم بالحج عشية التروية، فكيف يصوم الثلاثة الأيام بعد ذلك، وإنما بقى له يوم واحد؟ فدل ما وصفناه: أنه يجوز له أن يصومهن حلالاً بعد العمرة. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾.

اختلف فيه:

قيل: إذا رجع من منى.

(١) أخرجه ابن جرير (٣٤٤٤، ٣٤٨٩)، وانظر الدر المنثور (١/٣٨٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٤٤٣)، وانظر الدر المنثور (١/٣٨٧).

(٣) سقط فى ط.

(٤) وهو يوم الثامن من ذى الحجة، وينطلق فيه الحجاج إلى منى، ويحرم المتمتع بالحج، أما المفرد والقارن فهما على إحرامهما، ويبيتون بمنى اتباعا للسنة، ويصلون فيها خمس صلوات: الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر. وهذا فجر يوم عرفة.

(٥) أخرجه أحمد (٣/٣٦٦، ٣٨١).

وقيل: إذا أتى وقت الرجوع.

وقيل^(١): إذا رجعتكم إلى أهليكم.

وقوله: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

قيل: تلك العشرة وإن كانت متفرقة، فهي كالموصولة في حق الحج.

وقيل^(٢): ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾، عن الهدى وافية، أى: يكمل بها حق الدم.

وقيل^(٣): ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾، فى حق الثواب، أى: ثوابها كثواب الهدى. والله

أعلم.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

جعل الحكم الذى ذكره فى المتمتع والمحصر، لمن لا يحضر أهله المسجد الحرام؛

عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: «ليس على أهل مكة هدى فى المتعة».

ولأن أهل مكة لو كانوا كغيرهم لم يكن للمخصوص معنى.

وإذا كان المعتمر فى أشهر الحج إذا رجع إلى أهله ثم حج من عامه ذلك فلا هدى

عليه، فالمكى مقيم فى منزله بعد عمرته فهو أخرى ألا يجب عليه دم المتعة إن حج من

عامه ذلك، ولكنه إن تمتع فعليه دم الحلال؛ لأنه منهي^(٤) عن التمتع.

ثم اختلف أهل التأويل فى ﴿حَاضِرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، من هم؟

قال أصحابنا - رحمهم الله تعالى - : كل من كان من أهل المواقيت فما دونها إلى

مكة، فلهم أن يدخلوها بغير إحرام، فلهم جميعاً حكم حاضرى المسجد الحرام.

وروى عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنه، : أنه خرج من مكة يريد المدينة، فلما بلغ

قديداً بلغه أن بالمدينة جيشين من جيوش الفتنة، فرجع ودخلها بغير إحرام.

وعندنا: إذا جاوز جميع المواقيت ثم رجع فعليه الإحرام.

وقال آخرون: ليس حاضرى المسجد الحرام.

وأما [الدليل]^(٥) لأصحابنا، رحمهم الله تعالى، ما ذكرنا.

(١) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير عنه (٣٤٩٥)، وعن عطاء (٣٤٩٦، ٣٤٩٨)، وإبراهيم (٣٤٩٧)، وغيرهم وانظر الدر المنثور (٣٨٩/١).

(٢) قاله الحسن، أخرجه ابن جرير عنه (٣٥٠٢، ٣٥٠٣)، وانظر الدر المنثور (٣٨٩/١).

(٣) قاله البغوى فى تفسيره (١٧٠/١).

(٤) فى ط: منتهى.

(٥) سقط فى ط.

وأما قولنا: ليس عليهم إحصار؛ لأن الإحصار هو الجيش والحيلولة بينهم وبين دخولهم مكة، فإذا كانوا هم فيها قادرون على الطواف بالبيت فى كل وقت، كذلك بطل الإحصار.

وقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾.

عن ابن عمر^(١)، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذى الحجة^(٢).

(١) أخرجه ابن جرير (٣٥٣٥، ٣٥٣٦)، وانظر الدر المنثور (١/٣٩٣).

(٢) ذهب الأئمة الثلاثة - أبو حنيفة والشافعى وأحمد - وأصحابهم إلى أن وقت الإحرام بالحج: شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة. وهو مذهب جمهور الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وذهب مالك إلى أن وقت الحج شوال وذو القعدة وشهر ذى الحجة إلى آخره. وليس المراد أن جميع هذا الزمن الذى ذكره وقت لجواز الإحرام، بل المراد أن بعض هذا الزمن وقت لجواز ابتداء الإحرام، وهو من شوال لطلوع فجر يوم النحر، وبعضه وقت لجواز التحلل، وهو من فجر يوم النحر لآخر ذى الحجة. وعلى هذا فالميقات الزمانى بالنسبة للإحرام متفق عليه، إنما مرتب على مذهب المالكية جواز تأخير الإحلال إلى آخر ذى الحجة. وهذا الذى ذهب إليه المالكية قد حكى أيضا عن طاوس، ومجاهد، وعروة بن الزبير، والربيع بن أنس، وقتادة.

والأصل للفرقيين قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ رَمِيَ فِيهِمْ الْحَجُّ فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ فالجمهور فسروا الآية بأن المراد شهران وبعض الثالث. واستدلوا بالأثار عن الصحابة. كما يدل لهم أن أركان الحج تؤدى خلال تلك الفترة. وأما المالكية فدليلهم واضح، وهو ظاهر الآية؛ لأنها عبرت بالجمع (أشهر)، وأقل الجمع ثلاث؛ فلا بد من دخول ذى الحجة بكامله. ثم اختلف الجمهور فى نهار يوم النحر هل هو من أشهر الحج أو لا؛ فقال الحنفية والحنابلة: هو من أشهر الحج. وقال الشافعية: آخر أشهر الحج ليلة يوم النحر. وهو مروي عن أبى يوسف. وفى وجه عند الشافعية فى ليلة النحر: أنها ليست من أشهر الحج. والأول هو الصحيح المشهور.

وقد استدلت الحنفية والحنابلة بحديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات فى الحجة التى حج فقال: «أى يوم هذا؟» قالوا: يوم النحر. قال: «هذا يوم الحج الأكبر» أخرجه أبو داود وابن ماجه. قالوا: ولا يجوز أن يكون يوم الحج الأكبر ليس من أشهره. ويشهد له حديث بعث أبى بكر أبا هريرة يؤذن فى الناس يوم النحر: ألا يحج بعد العام مشرك؛ فإنه امتثال لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ...﴾ الآية والحديث متفق عليه. واحتجوا بالدليل المعقول؛ لأن يوم النحر فيه ركن الحج، وهو طواف الزيارة، وفيه كثير من أفعال الحج، منها: رمى جمره العقبة، والنحر، والحلق، والطواف، والسعى، والرجوع إلى منى. ومستبعد أن يوضع لأداء ركن عبادة وقت ليس وقتها، ولا هو منه. واستدل الشافعية برواية نافع عن ابن عمر أنه قال: «أشهر الحج شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة» أى عشر ليال. وعن ابن مسعود وابن عباس وابن الزبير مثله. رواها كلها البيهقى، وصحح الرواية عن ابن عباس. ورواية ابن عمر صحيحة.

ينظر: غاية المنتهى (٢/٢٩٥)، (٢/٢٩٦)، الهداية (٢/٢٢٠)، رد المحتار (٢/٢٠٦، ٢٠٧)، شرح المحلى على المنهاج (٢/٩١)، نهاية المحتاج (٢/٣٨٧)، المغنى (٣/٢٩٥).

وعن ابن عباس^(١)، رضى الله تعالى عنه [..] ^(٢)، وعن الحسن^(٣)، والشعبي^(٤)، ومجاهد^(٥)، وابن جبير، وإبراهيم^(٦)، وعطاء^(٧) مثله.

وعن عبد الله بن مسعود^(٨)، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: إنها شوال، وذو القعدة، وذو الحجة.

ونرى أن عبد الله بن مسعود، رضى الله تعالى عنه، أراد ما أراده الأولون؛ لأنه لا يبقى بعد أيام منى [شئ] من مناسك الحج، فكيف تكون الأيام التي بعد النفر من أيام الحج، ولا عمل فيها للحجاج؟

ثم المسألة - فيمن يحرم بالحج قبل أشهر الحج، ما عليه^(٩)؟ وهل يجوز إحرامه؟

- (١) أخرجه ابن جرير من (٣٥٢٣) إلى (٣٥٢٧)، وانظر الدر المنثور (١/٣٩٣).
- (٢) سقط في ط.
- (٣) أخرجه ابن أبي شيبه كما في الدر المنثور (١/٣٩٣).
- (٤) أخرجه ابن جرير (٣٥٣١) والشعبي هو: أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذى كبار ولد لست سنين خلت من خلافة عمر رضى الله عنه، وتوفى بالكوفة سنة أربع وقيل ثلاث، وقيل ست، وقيل سبع وقيل خمس ومائة. ينظر: وفيات الأعيان (٣/١٢).
- (٥) أخرجه ابن جرير (٣٥٣٣، ٣٥٤٥) وهو: مجاهد بن جبر بإسكان الموحدة مولى السائب بن أبي السائب أبو الحجاج المكي المقرئ الإمام المفسر عن ابن عباس وقرأ عليه. قال مجاهد: عرضت على ابن عباس القرآن ثلاثين مرة، وأم سلمة وأبى هريرة وجابر وعن عائشة فى البخارى ومسلم قال شعبة والقطان وابن معين وأبو حاتم الرازي: لم يسمع منها. لكن قد صرح مجاهد فى بعض رواياته بسماعه منها وعنه عكرمة وعطاء وقتادة والحكم بن عتيبة وأيوب وخلق. وثقة ابن معين وأبو زرعة. قال ابن حبان مات بمكة سنة اثنتين أو ثلاث ومائة وهو ساجد ومولده سنة إحدى وعشرين. ينظر: تهذيب التهذيب (١٠/٤٢)، تقريب التهذيب (٢/٢٢٩)، خلاصة تهذيب الكمال: (٣/١٠)، الكاشف: (٣/١٢٠)، تاريخ البخارى الكبير: (٧/٤١١)، الجرح والتعديل: (٨/١٤٦٩).
- (٦) أخرجه ابن جرير (٣٥٢٨، ٣٥٣٠).
- (٧) أخرجه ابن جرير (٣٥٤٢)، وانظر الدر المنثور (١/٣٩٣) وهو: عطاء بن أبى رباح بن صفوان الفهرى، من كبار التابعين، وأجلاء الفقهاء، ولد باليمن سنة (٢٧هـ - ٦٤٨م)، ونشأ بمكة، وسمع العبادة الأربعة، ورافع بن خديج، وجماعات آخرين من الصحابة، وروى عن جماعات من التابعين، كالزهرى، وقتادة، وغيرهم، وخلائق من غيرهم وانتهت فتوى أهل مكة إليه وإلى مجاهد فى زمانهما، وتوفى رحمه الله سنة (١١٥هـ - ٧٣٤م).
- انظر ترجمته فى: تهذيب التهذيب (٧/١٩٩)، تذكرة الحفاظ (١/٩٨)، ميزان الاعتدال، طبعة عيسى الحلبى (٣/٧٠)، تهذيب الأسماء (١/٣٣٣)، حلية الأولياء (٣/٣١٠)، وفيات الأعيان (٣/٢٦١).

- (٨) أخرجه ابن جرير (٣٥٢٢)، وانظر الدر المنثور (١/٣٩٣).
- (٩) ذهب الحنفية والمالكية والحنابلة إلى أنه يصح الإحرام بالحج قبل أشهر الحج، وينعقد حجا، لكن مع الكراهة. وهو قول إبراهيم النخعى، وسفيان الثورى، وإسحاق بن راهويه، والليث بن سعد. وذهب الشافعية إلى أنه لا ينعقد الإحرام بالحج قبل أشهره؛ فلو أحرم به قبل هلال شوال لم ينعقد

عن ابن عباس^(١)، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: من سنة الحج ألا يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج.

وعن جابر^(٢)، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: لا يحرم بالحج قبل أشهر الحج. فأصحابنا، رحمهم الله تعالى، يكرهون الإحرام قبل أشهر الحج، واتبعوا فى كراهيتهم ما روى عن السلف النهى عن ذلك، لكنهم يقولون: إن أحرم يجوز.

واحتج بعض أصحابنا فى ذلك بأن قال: للحج ميقات ووقت، وأجمعوا أن من أحرم بالحج قبل الميقات بإحرامه صحيح، فعل ذلك من أحرم قبل وقته بإحرامه صحيح^(٣).

وقال بعضهم: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾، الأشهر كلها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [التوبة: ٣٦]، وهى الأشهر كلها، وهى معلومة؛ [وهى]^(٤) كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]. فإن كان هذا تأويل الآية، ففيه دليل جواز الإحرام بالحج فى الأشهر كلها.

وقال آخرون: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾، [أى فى أشهر معلومات]^(٥) وهو ما ذكرنا من قول جماعة من السلف، قالوا: إنها شوال، وذو القعدة، وعشر من ذى الحجة، غير أنه يتوجه وجهين:

أحدهما: أن لفعل الحج أشهر معلومات، دليله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ وَضَّ فِيهِكَ الْحَجَّ﴾، سماه حجًا بعد سبب الإلزام، فثبت أن ما بعد الإحرام حج.

والوجه الثانى: أن للحج أشهر معلومات، لا يدخل فيها غيره، ثم أدخل فيها العمرة رخصة، دليله: قوله ﷺ: «دخلت العمرة فى الحج [إلى يوم القيامة] هكذا، [وشبك بين أصابعه]»^(٦)، فيكون معناه: أن للحج أشهر، أى: لفعله أشهر معلومات. والله أعلم.

= حجا، وانعقد عمرة على الصحيح عندهم. وبه قال عطاء وطاوس ومجاهد وأبو ثور. ينظر: الهداية (٢/٢٢١)، رد المحتار (٢/٢٠٦، ٢٠٧)، شرح الزرقانى (٢/٢٤٩)، الشرح الكبير (٢/٢٢)، حاشية العدوى (١/٤٥٧)، المغنى (٣/٢٧١).

(١) أخرجه الشافعى فى الأم، وابن أبى حاتم وابن مردويه ومن طريق آخر عنه أخرجه ابن أبى شيبة وابن خزيمة والحاكم وصححه، والبيهقى كما فى الدر المنثور (١/٣٩٤).

(٢) أخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا بنحوه كما فى الدر المنثور (١/٣٩٤).

(٣) سقط فى ط.

(٤) سقط فى ط.

(٥) سقط فى ط.

(٦) أخرجه مسلم (٢/٨٨٦-٨٩٢) كتاب الحج باب حجة النبى ﷺ (١٤٧/١٢١٨) من حديث جابر، وأخرجه الترمذى (٢/٢٥٩) أبواب الحج (٩٣٢) من حديث ابن عباس وأخرجه (٤/٤٥٤) كتاب المناسك باب التمتع بالعمرة إلى الحج (٢٩٧٧) من حديث سراقبة بن جعشم.

وقوله: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾.

اختلف فيما به فرض الحج؟

قال بعضهم: إذا نوى الحج صار محرماً، لبي أو لم يلب.

وقال آخرون: إذا نوى أن يعمل بجميع ما أمر وأن ينتهي عن جميع ما نهى، صار بذلك محرماً.

وأما عندنا: فإن تأويل قوله: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾، أى: لبي فيهن بالحج.

دليله ما روى عن ابن مسعود^(١)، وابن عباس^(٢)، وابن عمر^(٣)، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، أنهم قالوا: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾، أى: لبي. وأما بالنية مجرداً فإنه لا يكون محرماً.

وما روى أيضاً عن رسول الله ﷺ، أنه قال لعائشة، رضى الله تعالى عنها، وقد رآها حزينة: «ما لك؟ فقالت: أنا قضيت عمرتى، وألفانى الحج عاركا. فقال: ذلك شئ كتبته الله تعالى على بنات آدم، فحجى وقولى ما يقول المسلمون فى حجهم»^(٤).

فبين قول رسول الله ﷺ لعائشة، رضى الله تعالى عنها، [رد حجى وقولى ما يقول المسلمون فى حجهم أن التلبية واجبة إذ كان المسلمون يفعلونها وأمر عائشة رضى الله عنها]^(٥) باتباعهم فيها.

وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها، أنها قالت: «لا يحرم إلا من أهل أو لبي».

فدلت هذه الأحاديث النبوية على أن التلبية فرض الحج، وعن هؤلاء الأئمة وأمثالهم الذين نأخذ منهم الدين فلا تجوز مخالفتهم ولا العدول عن سبيلهم^(٦).

(١) أخرجه ابن أبى شعبة كما فى الدر المنثور (٣٩٤/١).

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم كما فى الدر المنثور (٣٩٤/١).

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٥٥٧، ٣٥٦١)، وانظر الدر المنثور (٣٩٤/١).

(٤) أخرجه البخارى (٥٣٢/١) كتاب الحيض، باب الأمر بالنفساء إذا نفست (٢٩٤)، ومسلم (٢/٨٧٣)، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام (١٢١١/١١٩) بنحوه.

(٥) سقط فى ط.

(٦) التلبية شرط فى الإحرام عند أبى حنيفة ومحمد وابن حبيب من المالكية؛ فلا يصح الإحرام بمجرد النية، حتى يقرنها بالتلبية أو ما يقوم مقامها مما يدل على التعظيم من ذكر ودعاء أو سوق الهدى. فإذا نوى النسك الذى يريده من حج أو عمرة أو هما معا ولبي فقد أحرم، ولزمه كل أحكام الإحرام، وأن يمضى فى أداء ما أحرم به. والمعتمد عندهم أنه يصير محرماً بالنية لكن عند التلبية، كما يصير شارعاً فى الصلاة بالنية، لكن بشرط التكبير، لا بالتكبير. وقد نقل هذا المذهب عن عبد الله بن مسعود، وابن عمر، وعائشة، وإبراهيم النخعى، وطاوس ومجاهد، وعطاء بل ادعى فيه اتفاق السلف. وذهب غيرهم إلى أن التلبية لا تشترط فى الإحرام، فإذا نوى فقد أحرم بمجرد النية،

وقال أصحابنا - رحمهم الله تعالى - : إن خرج رجل مع بدنته وقلدها ونوى الإحرام فهو محرم، ويقوم ذلك الفعل منه مقام التلبية.

والحجة لذلك: أن النبي ﷺ قال لأصحابه، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فى حجته لما أمرهم بأن يحلوا العمرة، فقالوا له: إنك لم تحل. قال «إني قلدت الهدى، فلا أحل من إحرامى إلى يوم النحر»^(١).

وقال: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت، ما سقت الهدى»^(٢). فأخبر النبي ﷺ أن الذى منعه من الحل تقليده الهدى، وأن ذلك قام مقام الإحرام لو جده بعد الطواف. وروى عن على، وعبد الله بن مسعود، وجابر، رضى الله تعالى عنهم، أنهم قالوا: إذا قلد فقد أحرم.

وكذلك قال عبد الله بن عباس^(٣) - رضى الله تعالى عنه - : إذا قلد - [وهو]^(٤) يريد الحج أو العمرة - فقد أحرم.

وما روى عن عائشة - رضى الله تعالى عنها - : لا يحرم إلا من أهل أو لى^(٥)، فذلك

= ولزمته أحكام الإحرام، والمضى فى أداء ما أحرم به. ثم اختلفوا: فقال المالكية: هى واجبة فى الأصل، والسنة قرننها بالإحرام. ويلزم الدم بطول فصلها عن التية. ولو رجع ولبى لا يسقط عنه الدم. وسواء أكان الترك أو طول الفصل عمدا أم نسيانا. وذهب الشافعية والحنابلة - وهو منقول عن أبى يوسف - إلى أن التلبية سنة فى الإحرام مطلقا.

ينظر: متن الكنز (١/٩٠)، رد المحتار (٢/٢١٣، ٢١٤)، المبسوط (٤/٦) (١٨٧)، الشرح الكبير (٢/٤٠)، المجموع (٧/٢٢٦، ٢٢٧)، المغنى (٣/٢٨٨).

(١) أخرجه البخارى (٣/٥٦٠) كتاب: الحج، باب: من لبّد رأسه عند الإحرام وحلق، حديث (١٧٢٥)، ومسلم (٢/٩٠٢) كتاب: الحج، باب: بيان أن القارن لا يتحلل إلا فى وقت تحلل الحاج المفرد، حديث (١٧٦)، وأبو داود (٢/٣٩٨) كتاب: المناسك (الحج)، باب: فى الإقران، حديث (١٨٠٦)، وابن ماجه (٢/١٠١٢، ١٠١٣) كتاب: المناسك، باب: من لبّد رأسه، حديث (٣٠٤٦)، والنسائى (٥/١٣٦) كتاب: الحج، باب: التلبيد عند الإحرام، والبيهقى (٥/١٣٤) كتاب: الحج، باب: من لبّد أو ضفر أو عقص حلق، وأحمد (٦/٢٨٣)، وأبو يعلى (١٢/٤٧٧)، رقم (٧٠٥٠)، وابن حبان (٣٩٣٣)، والإحسان، والطحاوى (٢/١٤٤)، والبعثى فى شرح السنة (٢/٤٧)، عن حفصة أنها قالت: يا رسول الله ما شأن الناس حلوا بعمرة ولم تحلل أنت من عمرتك؟ قال: «إني لبّدت رأسى وقلدت هدى، فلا أحل حتى أنحر».

(٢) أخرجه البخارى (٤/٣١٢) كتاب: الحج، باب: تقضى الحائض المناسك كلها (١٦٥١)، ومسلم (٢/٨٨٣)، كتاب: الحج، باب: بيان وجوه الإحرام (١٤١/١٢١٦)، وأبو داود (١/٥٥٦)، كتاب: المناسك، باب: فى أفراد الحج (١٧٨٩)، والنسائى (٥/١٤٣)، كتاب: المناسك، باب: الكراهية فى الثياب المصبغة للمحرم.

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة (١٢٦٩٩، ١٢٧٠٥، ١٢٧٠٦)، وأخرجه أيضًا عن ابن عمر (١٢٧١١).

(٤) سقط فى ط.

(٥) أخرجه ابن أبى شيبة (١٢٧١٦).

عندنا في الذي يقلد بدنته ولا يخرج معها، لا يصير محرماً.
ألا ترى ما روى عن عائشة، رضي الله تعالى عنها، أنها قالت: كان النبي ﷺ يبعث
بهدية ويقيم، فلا يحرم عليه شيء^(١).

وقوله: ﴿فَلَا رَفَثٌ﴾.

قيل: ﴿الرَّفَثُ﴾، جميع حاجات الرجال إلى النساء.

وقال ابن عباس^(٢) - رضي الله تعالى عنه - : ﴿الرَّفَثُ﴾، الجماع. وعن عبد الله بن
عمر^(٣)، رضي الله تعالى عنه، مثله.

وأجمع أهل العلم أن المحرم لا يجوز له أن يقبل امرأته، ولا يمسه بشهوة^(٤).
ويوجبون على من فعل ذلك دماً.

روى عن ابن عمر^(٥) - رضي الله تعالى عنه - : إذا باشر المحرم امرأته أهرق دمًا.

وعن علي^(٦) - رضي الله تعالى عنه - قال: إذا قبل المحرم امرأته فعليه دم.

وسئلت عائشة، رضي الله تعالى عنها، عما يحل للمحرم من امرأته؟ فقالت: يحرم
عليه كل شيء سوى الكلام.

وقوله: ﴿وَلَا فُسُوقٌ﴾.

قيل^(٧): ﴿الْفُسُوقُ﴾، السب^(٨).

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨/٤)، كتاب الحج، باب تقليد الغنم (١٧٠١، ١٧٠٢، ١٧٠٣، ١٧٠٤)،
ومسلم (٩٥٧/٢) كتاب الحج، باب استحباب بعث الهدى (١٣٢١/٣٥٩)، من طرق عنها بألفاظ
متقاربة.

(٢) أخرجه ابن جرير من (٣٥٩٧) إلى (٣٦٠٣)، وانظر الدر المنثور (٣٩٦/١).

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٦٢١، ٣٦٢٩)، وانظر الدر المنثور (٣٩٦/١).

(٤) المقدمات المباشرة أو القريبة، كاللمس بشهوة، والتقبيل، والمباشرة بغير جماع: يجب على من
فعل شيئاً منها الدم سواء أنزل ميثاً أو لم ينزل. ولا يفسد حجه اتفاقاً بين الحنفية والشافعية
والحنابلة، إلا أن الحنابلة قالوا: إن أنزل وجب عليه بدنة. ومذهب المالكية: إن أنزل بمقدمات
الجماع ميثاً فحكمه حكم الجماع في إفساد الحج، وعليه ما على المجامع، وإن لم ينزل فليهد
بدنة.

ينظر: الهداية (٢/٢٣٧، ٢٣٨)، حاشية العدوى (١/٤٨٩)، نهاية المحتاج (٢/٤٤٦)،
المغنى (٣/٣٣٨).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣٨٠٥) بنحوه.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣٨٠٣) بنحوه.

(٧) قاله ابن عمر، أخرجه ابن جرير عنه (٣٦٦٠، ٣٦٦٢)، وعن ابن عباس (٣٦٦١، ٣٦٦٨)،
ومجاهد (٣٦٦٣، ٣٦٦٩)، وغيرهم، وانظر الدر المنثور (٣٩٦/١).

(٨) في أ، ط: السباب.

وقيل: هو كل فسق، والفسق حقيقة الخروج من أمر الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، أى: خرج. وقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾.

قيل^(١): «الجدال»، المراء. وذلك أن العرب كانت تؤخر الأشهر الحرم وتعجل، وفي ذلك نزل قوله: ﴿إِنَّمَا السَّبْتُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧]، فبين رسول الله ﷺ، وقال: «إن السنة قد استدارت كهيتها يوم خلق السموات والأرض»^(٢)، فعلى ذلك استدار وقت الحج إلى حيث جعل، لا يتقدم أبداً ولا يتأخر، فلا تماروا فيه. وعن ابن عباس^(٣)، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: لا تجادل صاحبك حتى تغضبه. وأشبه الأمور - والله أعلم - بتأويل الآية: أن الله سبحانه وتعالى [أمر بحفظ]^(٤) اللسان والفرج فى الإحرام عن كل ما يذكر من فسوق، ومعصية، ومجادلة، ومخاصمة، وعن الرفث بالفعل والقول؛ لأنه يروى أن الفضل بن عباس^(٥) كان رديف^(٦) رسول الله ﷺ [من المزدلفة إلى منى]^(٧)، وكان الفتى يلاحظ النساء وينظر إليهن، فجعل النبي ﷺ يصرف وجهه بيده من خلفه، فقال النبي ﷺ: «إن هذا يوم من ملك سمعه، وبصره، ولسانه غفر له، أو كما قال»^(٨).

وروى عنه ﷺ، أنه قال: «من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه»^(٩).

(١) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٣٦٩٥، ٣٦٩٦)، وعن مجاهد (٣٦٨٣)، وإبراهيم (٣٦٨٧)، وقتادة والزهرى (٣٦٩٣، ٣٦٩٨)، وغيرهم. وانظر الدر المنثور (٣٩٦/١).

(٢) يأتي تخريجه.

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٦٧٤، ٣٦٧٥، ٣٦٨١)، وانظر الدر المنثور (٣٩٦/١).

(٤) فى ط: يحفظ.

(٥) الفضل بن العباس بن عبد المطلب الهاشمى، ابن عم النبي ﷺ، كان وسيماً جميلاً. له أربعة وعشرون حديثاً، اتفقا على حديثين. وعنه: أخوه وأبو هريرة وكريب. قال ابن سعد: شهد الفتح وحنيناً. قال الواقدي: مات فى طاعون عمواس سنة ثمانى عشرة، وقيل: قتل يوم اليرموك. وقيل: بدمشق، وعليه درع النبي ﷺ.

ينظر: الخلاصة (٣٣٥/٢، ٣٣٦)، (٥٧١٦)، تهذيب الكمال (١٠٩٥/٢) تهذيب التهذيب (٨/٢٨٠)، (٥١٢)، الكاشف (٣٨٢/٢)، تاريخ البخارى الكبير (١١٤/٧).

(٦) فى أ، ب: ردف.

(٧) سقط فى أ.

(٨) أخرجه أحمد (٣٢٩/١، ٣٥٦)، وابن خزيمة (٢٨٣٣، ٢٨٣٤)، وله طريق أخرى، أخرجه الطبرانى فى الكبير (٢٣٢/١٢) (١٢٩٧٤) عن ابن عباس.

(٩) أخرجه البخارى (٣٨٢/٣) كتاب الحج: باب فضل الحج المبرور حديث (١٥٢١)، (٢٥/٤) كتاب المحصر: باب قول الله تعالى ﴿فَلَا رَفْثَ﴾ حديث (١٨١٩)، وباب قول الله عز وجل ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾

وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾.

ويجزيه؛ [وفيه]^(١) ترغيب منه في كل خير.

وقوله: ﴿وَتَكَرَّذُوا فَإِنَّكُمْ خَيْرَ الْأَزَادِ النَّقِيُّ﴾.

قيل^(٢): ﴿وَتَكَرَّذُوا﴾ للحج والعمرة ما تكفون به وجوهكم عن المسألة، ولا تخرجوا

بلا زاد لتكونوا عيالاً على الناس.

ويحتمل: أن يكون الأمر بالتزود للمعاد، يدل عليه قوله: ﴿فَأِنَّكُمْ خَيْرَ الْأَزَادِ النَّقِيُّ﴾،

يقول: إن تقوى الله خير زاد من زاد الدنيا.

وقوله: ﴿وَأَتَّقُوا يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾.

يحتمل: ﴿وَأَتَّقُوا﴾، المعاصي والمناهي وكل فسق.

ويحتمل: على التقديم والتأخير، كأنه قال: «تزودوا يا أولى الأبواب»، ﴿وَأَتَّقُوا﴾ في

المسألة من الناس.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ

عَرَفَتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَسْعَرِ الْحَرَامِ وَادْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ

لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ

مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَنَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا

إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آتَيْنَاكَ لَهُمْ نَصِيبًا مِمَّا

وَلَا يَدْعُونَ فِي الْحَجِّ حَدِيث (١٨٢٠)، ومسلم (٩٨٣/٢) كتاب الحج: باب في فضل الحج

والعمرة حديث (١٣٥٠/٤٣٨)، والنسائي (١١٤/٥)، كتاب الحج: باب فضل الحج، والترمذي

(١٧٦/٣)، كتاب الحج: باب ما جاء في ثواب الحج والعمرة حديث (٨١١)، وابن ماجه (٢/

٩٦٤ - ٩٦٥) كتاب المناسك: باب فضل الحج والعمرة حديث (٢٨٨٩)، وأحمد (٢/٢٤٨،

٤١٠، ٤٨٤)، والطبراني (٢٠٢/١ - منحة) رقم (٩٧٥)، والدارمي (٣١/٢) كتاب المناسك:

باب في فضل الحج والعمرة، وأبو يعلى (٦١/١١) رقم (٦١٩٨)، وأبو نعيم في الحلية (٨/

٣١٦)، وابن خزيمة (١٣١/٤) رقم (٢٥١٤)، وابن حبان رقم (٣٧٠٢ - الإحسان)، والبيهقي

(٦٧/٥)، كتاب الحج: باب لا رقت ولا فسوق ولا جدال في الحج، والخطيب في تاريخ بغداد

(٢٢٢/١١)، والحميدي (٤٤٠/٢) رقم (١٠٠٤)، والبعثي في شرح السنة (٤/٤) كلهم من طريق

أبي حازم عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح.

(١) سقط في أ.

(٢) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٣٧٥٢)، ومن طريق أخرى أخرجه البخاري (١٥٢٣)، وعبد

ابن حميد وأبو داود، والنسائي وابن المنذر وابن حبان والبيهقي كما في الدر المنثور (٣٩٨/١).

كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٨﴾ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَآتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٩٩﴾ .
وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ .

قيل^(١): التجارة، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يتحرجون من التجارة في عشر من ذى الحجة، فلما أن كان الإسلام امتنع أهل الإسلام عن التجارة، وأحبوا أن يكون خروجهم للحج خاصة، دون أن يختلط غيره من الأعمال، فرخص الله عز وجل للحاج وطلب الفضل.

وروى عن ابن عمر - رضى الله تعالى عنه - : أن رجلاً سأله، فقال: إنا قوم نكرى، ويزعمون أنه ليس لنا حج، [فهل لنا حج؟] فقال: أستم تحرمون وتقفون؟ فقال: بلى . قال: فأنتم حجاج . وقال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله عما سألتني عنه مثله، فلم يجبه حتى أنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فقال النبي ﷺ: «أنتم حجاج»^(٢) [وروى عن ابن عباس رضى الله عنه مثله]^(٣).

وأصحابنا، رحمهم الله تعالى، يرون حج الأجير والتاجر تأمناً، وظاهر القرآن يدل على ذلك . وكان عند القوم أن الاستئجار على الطاعة لا يجوز أمراً ظاهراً حتى سألوا فى هذا .

وأصله: أن الحج لا يمنع أفعال غيره، فأشبه الصوم، ويجوز فيه الإجارة، كذا فى هذا .

وأما الصلاة فهى مانعة لما سواها من الأفعال؛ فاختلفا .

وقوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ .

قيل: إن أهل الجاهلية كانوا يفيضون من عرفات قبل غروب الشمس، ومن مزدلفة بعد طلوع الشمس، فأمر أهل الإسلام بالخلاف فى الحالين جميعاً: أن يجعلوا الإفاضة من عرفة بعد الغروب، ومن المزدلفة قبل طلوع الشمس . والله أعلم .

(١) قاله ابن عباس بنحوه، أخرجه البخارى (٤٥١٩)، وابن جرير (٣٧٧٢)، وسفيان وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه كما فى الدر المنثور (٤٠٠/١).

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٧٦٨)، وعبد الرزاق، وسعيد بن منصور وابن أبى شعبة وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى عن أبى أمامة التيمى عنه كما فى الدر المنثور (٤٠١/١).

(٣) سقط فى ط .

وفى الخبر: «خالفوهم فى الرجعتين جميعاً»^(١).
والإفاضة: هى الإسراع فى المشى فى اللغة.
وقيل: الإفاضة: الانحدار.
وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾.
يعنى المزدلفة.

[ويحتمل قوله ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ وجهين:
يحتمل: صلاة المغرب والعشاء]^(٢)
ويحتمل: الدعاء^(٣) فيهما جميعاً.

وقال ابن عباس^(٤) - رضى الله تعالى عنهما -: ﴿الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾، الجبل وما حوله، وهو الجبل الذى يوقف عليه يقال له: «قزح»، وسمى «جمعاً»، أيضاً [لأنه يجمع بين المغرب والعشاء فى وقت العشاء، وقيل: يسمى جمعاً]^(٥) لأنه اجتمع فيه آدم وحواء.

وروى عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: سمي العرفات عرفات؛ لأن جبريل، صلوات الله تعالى عليه، لما علم إبراهيم - عليه السلام - المناسك كان يقول له: عرفت عرفت^(٦). والله أعلم بذلك.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾
يحتمل وجوهاً:

يحتمل: الأمر بالذكر أمر بالشكر له على ما أنعم عليهم من أنواع النعم.
ويحتمل: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ﴾، وأرشدكم لأمر المناسك.

ويحتمل: الأمر بالتوحيد؛ كأنه قال: وحدوه كما وفقكم لدينه، وعلى ذلك يخرج قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾، عن الهدى، وعن المناسك، وعن معرفة النعم والشكر. والله أعلم.

(١) أخرجه الحاكم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن المسور بن مخرمة بنحوه كما فى الدر المنثور (١/٤٠٢).

(٢) سقط فى ط.

(٣) فى أ: الدماء.

(٤) أخرجه ابن جرير (٣٨٢٣، ٣٨٢٥)، وانظر الدر المنثور (١/٤٠٤).

(٥) سقط فى ط.

(٦) أخرجه ابن جرير (٣٨٩٨)، ووكيع كما فى الدر المنثور (١/٤٠١).

قال الشيخ - رضى الله تعالى عنه - : الهدى على وجهين :
هدى : عرف ، ليوحده .

وهدى : وفق ، لطاعتهم .

وقوله : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفْكَصَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .
قيل ^(١) : إن أهل الحرم كانوا لا يقفون بعرفات ، ويقولون : [إنما] نحن أهل حرم الله ، لا نفيض كغيرنا ، ممن قصدنا ، فأنزل الله فيهم : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفْكَصَ النَّاسُ﴾ ، أمرهم بالوقوف بعرفات ، والإفاضة منها من حيث أفاض غيرهم من الناس .
وذكر عن عائشة ، رضى الله تعالى عنها ، أنها قالت : كانت قريش ، ومن كان على دينها يقفون بالمزدلفة ولا يقفون بعرفة ، [وكان من سواهم يقفون بعرفة] . فأنزل الله تعالى : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفْكَصَ النَّاسُ﴾ ^(٢) .

وفيه دليل أن الوقوف بعرفة فرض ^(٣) ، وعلى ذلك جاءت الآثار ؛ روى عن رسول الله

(١) قاله قتادة بنحوه ، أخرجه ابن جرير عنه (٣٨٤٠) ، وعن السدى (٣٨٤١) ، والربيع (٣٨٤٢) ، وغيرهم ، ينظر : الدر المنثور (٤٠٩/١) .

(٢) أخرجه البخارى (٤٥٢٠) ، ومسلم (١٢١٩/١٥١) ، وأبو داود (١٩١٠) ، والترمذى (٨٨٤) ، والنسائى (٢٥٤/٥) ، والطبرى (٣٨٣٤) .

(٣) المراد من الوقوف بعرفة : وجود الحاج فى أرض (عرفة) ، بالشروط والأحكام المقررة . والوقوف بعرفة ركن أساسى من أركان الحج ، يختص بأنه من فاته فقد فاته الحج . وقد ثبتت ركنية الوقوف بعرفة بالأدلة القاطعة من الكتاب والسنة والإجماع : أما القرآن فقوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفْكَصَ النَّاسُ﴾ . فقد ثبت أنها نزلت تأمر بالوقوف بعرفة . وأما السنة : فعدة أحاديث ، أشهرها حديث : «الحج عرفة» . وأما الإجماع : فقد صرح به عدد من العلماء ، وقال ابن رشد : أجمعوا على أنه ركن من أركان الحج ، وأنه من فاته فعليه حج قابل .

ويبدأ وقت الوقوف بعرفة من زوال الشمس يوم عرفة - وهو تاسع ذى الحجة - ويمتد إلى طلوع الفجر الصادق يوم عيد النحر حتى لو وقف بعرفة فى غير هذا الوقت كان وقوفه باطلا اتفاقا فى الجملة . وقد أجمعوا على أن آخر وقت وقوف عرفة هو طلوع الفجر يوم النحر . أما ابتداء وقت الوقوف بعرفة فقد وقع فيه اختلاف : فذهب الحنفية والشافعية إلى أن أوله زوال شمس يوم عرفة . وذهب مالك : إلى أن وقت الوقوف هو الليل ، فمن لم يقف جزءا من الليل لم يجزئ وقوفه وعليه الحج من قابل ، وأما الوقوف نهارا فواجب ينتج بالدم بتركه عمدا بغير عذر . وعند الحنابلة : وقت الوقوف من طلوع الفجر يوم عرفة إلى طلوع الفجر من يوم النحر .

وقد قسم الحنفية والحنابلة زمان الوقوف إلى قسمين :

- زمان الركن الذى تتأدى به فريضة الوقوف بعرفة : وهو أن يوجد فى عرفة خلال المدة التى عرفناها عند كل ، ولو زمانًا قليلا جدا .

- زمان الواجب : وهو أن يستمر من وقف بعد الزوال إلى أن تغرب الشمس ، فلا يجاوز حد عرفة إلا بعد الغروب ، ولو بلحظة . وهو المقصود بقولهم : أن يجمع بين الليل والنهار بعرفة . فلو فارق عرفة قبل الغروب وجب عليه دم عند الجمهور ، أما إذا لم يقف بعرفة إلا بعد المغرب فلا شيء

عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الحج عرفة، من أدرك عرفة بليل، وصلى معنا بجمع، فقد تم حجه»^(١).

ويحتمل في قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفْكَصَ النَّاسُ﴾، معنى آخر: وهو أنهم رأوا غيرهم من أهل الآفاق فإذا قصدوا على الإحرام من وراء الحرم، وهم أمروا بالإحرام [في الحرم]^(٢)، فلما خصوهم بذلك ظنوا أن قضاء غيره من المناسك في الحرم. والله أعلم.

قال الشيخ أبو منصور - رحمة الله تعالى عليه - : أمر بالإفاضة بحرف «ثم»، بعد ذكر المزدلفة^(٣) والإفاضة من عرفات بتقديم المزدلفة، فَبَانَ أن حرف «ثم» مما قد يبتدأ به أيضًا.

وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾. قيل فيه بوجهين:

قيل^(٤): إنهم في الجاهلية كانوا إذا قضوا المناسك يجتمعون في مكان ويذكرون آباءهم ومنابقيهم ويفتخرون بذلك، فلما أن أسلموا أمرهم أن يذكروا ربهم في الإسلام كذكورهم آباءهم في الجاهلية أو أشد ذكرا، فإنه أولى بذلك من الآباء.

وقيل: أن يكونوا يذكرون آباءهم - ما أنعم عليهم وأحسن إليهم - فقال: اذكروا لي

= عليه.

وأما المالكية فزمان الركن عندهم هو الوقوف ليلا، أما نهارا فواجب. وأما الشافعية: فالمعتمد عندهم أن الجمع بين الليل والنهار بعرفة سنة ليس واجبا، لكن يستحب له بتركه الفداء استجبابا، وفي أي وقت وقف بعرفة من بعد الزوال إلى فجر يوم النحر أجزأه.

ينظر: المسلك المتقسط ص (٥١، ٥٢، ١٢٩ - ١٣٩)، شرح الزرقاني (٢/ ٢٦٩)، شرح الرسالة وحاشية العدوى (١/ ٤٧٥)، شرح المنهاج (٢/ ١١٤)، نهاية المحتاج (٢/ ٤٢٢ - ٤٢٣)، مغنى المحتاج (١/ ٤٩٦ - ٤٩٨)، المغنى (٣/ ٤١٤ - ٤١٦).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سقط في ط.

(٣) يسن للحاج أن يبيت بالمزدلفة ليلة عيد النحر، ويمكث بها حتى يطلع الفجر، ثم يقف للدعاء ويمكث فيها حتى يسفر جدا، ثم يدفع إلى منى، فهذا سنة عند الحنفية والشافعية، مندوب عند المالكية، مستحب عند الحنابلة. وذلك لفعله ﷺ، قال جابر: «حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئا، ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام...».

ينظر: المسلك المتقسط ص (٥١، ٥٢)، المجموع (٨/ ١٢٩)، الشرح الكبير (٢/ ٤٤)، المغنى (٣/ ٤٢٣).

(٤) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير عنه (٣٨٥٦، ٣٨٥٧)، وعن قتادة (٣٨٥٨، ٣٨٥٩)، وأخرجه وكيع وعبد بن حميد عن عطاء كما في الدر المشور (١/ ٤١٧).

فيما تذكرون آباءكم مكان آبائكم [فإني أنا] ^(١) الذي أنعمت عليكم [وعلى آبائكم] ^(٢)، فاجعلوا ذلك لى دون آبائكم.

وقوله: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَنَا فِي الْآخِرَةِ مِّنْ خَلْقٍ﴾.
[وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آدَبَ النَّارِ﴾]

وقوله: ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ^(٣).
وقوله: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَنَا فِي الْآخِرَةِ مِّنْ خَلْقٍ...﴾ الآية فى قوم لا يؤمنون بالبعث والإحياء بعد الموت، [طلبوا] ^(٤) خيرات الدنيا، ولم يطلبوا الخيرات فى الآخرة، فأعطوا ما سألوا من حسنات الدنيا، وهو كقوله: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، فأعطوا ما سألوا من نصيب؛ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠]، أى يؤتى حرث الدنيا والآخرة، فمن كان ركونهم إلى الدنيا وميلهم إليها لم يركنوا إلى دعاء غيرها، وأما من آمن بالبعث والإحياء بعد الموت فإنهم سألوا خيرات الدنيا والآخرة جميعاً بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آدَبَ النَّارِ﴾، طلبوا حسنات الدنيا؛ لأن الدنيا جعلها محل الزاد للآخرة، لأنه جعلها لهم، إنما خلقهم للآخرة؛ كقوله: ﴿وَتَسَوَّدُوا فَأَبَتْ كَيْدَ الرَّادِ الْفَقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

ثم اختلف فى ﴿الْحَسَنَةَ﴾ فى الدنيا، و ﴿الْحَسَنَةَ﴾ فى الآخرة:

قيل ^(٥): حسنة الدنيا: العلم والعبادة، وحسنة الآخرة: الجنة والمغفرة.

وقيل ^(٦): حسنة الدنيا: النصر والرزق، وحسنة الآخرة: الرحمة والرضوان. وكله

واحد.

وروى عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إن لله عبداً يحيون فى عافية، ويموتون فى عافية، ويدخلون الجنة فى عافية. قيل: يا رسول الله، بم؟ قال: بكثرة قولهم: ﴿رَبَّنَا

(١) سقط فى أ، ط.

(٢) سقط فى ط.

(٣) ما بين المعقوفين سقط فى أ.

(٤) سقط فى ط.

(٥) قاله الحسن، أخرجه ابن جرير عنه (٣٨٨١، ٣٨٨٢، ٣٨٨٣)، وابن أبى شيبه وعبد بن حميد والذهبي فى فضل العلم والبيهقي فى شعب الإيمان كما فى الدر المنثور (٤١٩/١).

(٦) قاله سفيان الثوري بنحوه، أخرجه ابن جرير عنه (٣٨٨٤).

مَآئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١﴾.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

قيل فيه بوجوه:

قيل: فيه تقديم وتأخير، كأنه قال: حسابه سريع.

وقيل^(٢): ﴿سَرِيعُ﴾، كما أن الإبطاء في الحساب يكون للتفكر فيه والاستذكار وحفظ عقد الأصابع أو لشغل شغله، فالله - تعالى - يتعالى عن ذلك أن يوصف به أو يشغله شيء.

وقيل: ﴿سَرِيعُ﴾، أى قريب، كأن قد جاء، كقوله: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]،

وكقوله: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧]، وكقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١]، أى قرب.

وقيل: كناية عن عذاب شديد، أى شديد العقاب والعذاب، [وهو كقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١] ^(٣) وهو كقوله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب»^(٤).

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾.

قيل: إنه يحتمل وجهين:

قيل: إنه أراد بالأيام المعدادات أيام النحر والذبح، أى: اذكروا الله بالنحر والذبح في أيامكم. فهو عند أبي حنيفة، رحمه الله تعالى، يوم النحر ويومان بعده.

وقيل^(٥): أراد بالأيام المعدادات أيام رمى الجمار، دليله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، وهى أيام التشريق، وهى ثلاثة أيام بعد النحر.

وروى عن علي^(٦)، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: «الأيام المعدادات: يوم النحر ويومان بعده، اذبح في أيها شئت، وأفضلها أولها».

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن مسعود بدون ذكر الآية كما في كنز العمال (١١٢٤٧).

(٢) قاله ابن جرير (٣١٤/٢)، والبغوي (١٧٨/١).

(٣) سقط في ط.

(٤) أخرجه البخاري (٢١٥/١٣)، كتاب الرقاق باب من نوقش الحساب عُذِّبَ (٦٥٣٦)، ومسلم (٤/٢٢٠٥)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٧٦/٧٩) (٤٧/٦)، (١٠٨، ٩١، ١٢٧)، وأبو داود (٢٠١/٢) كتاب الجنائز باب عيادة النساء (٣٠٩٣)، والترمذي (٢٢٣/٤) كتاب صفة القيامة (٢٤٢٦).

(٥) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه من (٣٨٨٩) إلى (٣٨٩٥)، وعن عطاء (٣٨٩٦، ٣٨٩٧)، ومجاهد (٣٨٩٨، ٣٨٩٩، ٣٩٠٠، ٣٩٠١)، وغيرهم.

(٦) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٤٢٠/١).

وكذلك روى عن عمر، رضى الله تعالى عنه. والله أعلم.
 وقوله: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.
 قيل^(١): ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، أى: بعد يوم النحر [بيومين]^(٢). يقول: من نفر من
 منى قبل غروب الشمس فى اليوم الثانى فلا إثم عليه، ومن لم ينفر حتى غربت الشمس
 وأقام إلى الغد - اليوم الثالث - فرمى الجمار، ثم ينفر فلا إثم عليه.
 وقيل: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، من أيام التشريق فلا إثم عليه، ومن تأخر إلى اليوم
 الثالث من أيام التشريق فلا إثم عليه.

ثم لا يحتمل قوله: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، أن
 يكونا جميعاً على الرخصة، التعجيل والتأخير جميعاً، فلا يلحقه الإثم بكليهما؛ لأنه إذا
 كان التعجل هو الرخصة فالتأخر لا يكون رخصة، وإذا كان التأخر هو الرخصة فالتعجل
 ليس برخصة، لكن الوجه فيه - والله أعلم - ما روى عن ابن عباس^(٣)، رضى الله تعالى
 عنه، أنه قال: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ غفر له، ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ غفر له ما كان له من الإثم
 والذنب فى اليوم الذى أخر. والله أعلم.

ويحتمل: أنه خير، أى: إن فعل ذا أو فلا إثم عليه.
 وعن ابن مسعود^(٤)، رضى الله تعالى عنه، أنه قال فى قوله تعالى: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾:
 رجع مغفوراً له.

وقوله: ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.
 قيل فيه بوجوه:
 قيل^(٥): ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾، قتل الصيد فى الإحرام، وعلى ذلك قوله: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ أى
 فلا تستحلوا قتل الصيد فى الإحرام.
 وقال^(٦) ابن عباس - رضى الله تعالى عنه -: من اتقى معاصى الله جملة.

(١) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٣٩٣٤)، وعن عطاء والحسن وعكرمة ومجاهد والسدى وغيرهم (٣٩٢٠، ٣٩٢١، ٣٩٢٢، ٣٩٢٣، ٣٩٢٤)، وانظر الدر المنثور (٤٢٣/١ - ٤٢٤).

(٢) سقط فى ط.

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٩٤٤)، وانظر الدر المنثور (٤٢٤/١).

(٤) أخرجه ابن جرير (٣٩٤٦)، وانظر الدر المنثور (٤٢٤/١).

(٥) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٣٩٥٧)، وعن أبى صالح (٣٩٥٦)، وانظر الدر المنثور (٤٢٣).

(٦) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٣٩٥٥)، وانظر الدر المنثور (٤٢٣/١).

وقيل: ﴿لَمِنَ أَتَقَى﴾ جميع ما يحرم عليه الإحرام من الرث، والفسوق، والجدال وغيره، وعلى ذلك قوله: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، خوفهم عز وجل ليتقوا الله في كل وقت كل معصية. خرج الخطاب في الظاهر للمؤمنين، ويحتمل أن يكون للكفار أيضًا، يأمرهم أن يتقوا الشرك وإشراك غيره في أفعالهم، لما أوعدهم بالحشر والجزاء لأعمالهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَكَتٌ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَهُنَالِكَ الْخَرْتُ وَالْسَّلُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ إِلْهَادٌ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْهَاتٍ اللَّهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾. قيل^(١): إن رجلاً من الكفار كان يأتي رسول الله ﷺ فيخبره أنه يحبه وكان يعد له الإيمان والمتابعة له في دينه، ويحلف على ذلك، وكان النبي ﷺ يعجبه ذلك ويدنيه في المجلس، وفي قلبه خلاف ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ...﴾ الآية.

وقيل^(٢): إنها نزلت في المنافقين؛ لأنهم كانوا يرون من أنفسهم الموافقة له في الدين، ويظهرون أنهم على دينه ومذهبه، ويضمرون الخلاف له في السر والعداوة، ويحلفون على ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ...﴾ الآية. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾

قيل^(٣): أشد الخصام.

وقيل^(٤): أجدل بالباطل.

وقيل^(٥): أظلم في الخصومة، لا يستقيم أبداً.

(١) قاله السدي بنحوه، أخرجه ابن جرير عنه (٣٩٦٤)، وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٤٢٧/١).

(٢) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٣٩٦٥)، وابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٤٢٧/١).

(٣) قاله ابن عباس بنحوه، أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٤٢٨/١)، وهو قول ابن جرير (٣٢٧/٢).

(٤) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٣٩٧٦)، وعن قتادة (٣٩٧٧، ٣٩٧٨)، وانظر الدر المنثور (٤٢٨/١).

(٥) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير عنه (٣٩٧٩، ٣٩٨٠)، وعن السدي (٣٩٨١)، وانظر الدر المنثور =

وقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الْفُسَادَ﴾.

قيل فيه بوجوه:

قيل: ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ﴾، أى يقتل النساء، وهن حرث، كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ
لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وفى إهلاك النساء إهلاك [النسل]^(١).

وقيل^(٢): أراد بالحرث: الحرث نفسه - وهو الزرع، والنسل والدواب - يحرق
الحرث، ويعقر الدواب وكل حيوان.

وقيل^(٣): إنهم كانوا يسعون بالفساد ويعملون بالمعاصى، فيمسك الله تعالى عنهم
المطر، فيهلك كل شيء من الناس وغيرهم.

ويحتمل^(٤): ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ﴾، قتل ولد آدم، وفى إهلاكهم إهلاك كل حرث؛
لأنهم هم الذين يحرقون ويتناسلون. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾، ظاهر.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَادُّ﴾.

﴿قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾. عن صنيعك، وهو السعى فى الأرض بالفساد، حملته الحمية على
الإثم تكبراً منه. قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ﴾، يقول - والله أعلم -:
أعرض عنه، واتركه وصنيعه، فإن جهنم مصيره ومأواه.

وروى عن عبد الله بن مسعود، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: «إن أبغض الناس من
يقال له: اتق الله، فيقول: عليك نفسك»^(٥).

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾.

يحتمل: ﴿يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ﴾، أى يهلك نفسه، أى يبيع نفسه فى عبادة الله تعالى
وطاعته. فذلك شراؤه إياها.

ويحتمل: ﴿يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ﴾، أى يبذل نفسه للجهاد فى سبيل الله، وهو كقوله:

= (١/٤٢٨).

(١) سقط فى ط.

(٢) قاله ابن عباس، أخرجه وكيع والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم كما
فى الدر المنثور (١/٤٢٩).

(٣) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير عنه (٣٩٨٥)، وابن أبي حاتم كما فى الدر المنثور (١/٤٢٩).

(٤) قاله ابن جريج، أخرجه ابن جرير عنه (٣٩٨٦).

(٥) أخرجه وكيع وابن المنذر والطبرانى والبيهقى فى الشعب كما فى الدر المنثور (١/٤٣٠).

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْلِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْلِلُونَ وَيُقْلِلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، فهؤلاء بذلوا أنفسهم لذلك بتفضيل الله عز وجل ببذل الجنة لهم، فهو الشراء. والله أعلم. وهو ما روى أن أبا بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه، ألقى نفسه على رسول الله ﷺ عندما هم المشركون بقتله.

وفيه دلالة أن أبا بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه، كان أشجع الصحابة وأصلبهم، وإن كان ضعيفاً في نفسه، لما لم يتجاسر أحد من الصحابة على مثله. وما روى أيضاً أنه خرج لمقاتلة أهل الردة وحده. فدل هذا كله أنه كان أشجعهم وأصلبهم في الدين. وقيل^(١): إن هذه الآية نزلت في صهيب^(٢)، ابتاع دينه بأهله وماله على ذلك والله أعلم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَبَادِ﴾

يحتمل: أن أراد كل العباد، وهو أن الكافر إذا أسلم وأخلص دينه لله تعالى يتغمده في رحمته ويقبل منه ذلك، ويتجاوز عنه عما كان منه في الشرك والكفر. والله أعلم. ويحتمل: أن أراد بالعباد: المؤمنين خاصة، رحيم بهم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَفْسُكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠) سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنَ ءَايَةٍ يُبَيِّنُ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢).

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً﴾.

﴿السِّلَاحِ﴾، فيه لغتان: بالكسر والنصب. فمن قرأ^(٣) ذلك بالكسر فهو الإسلام.

(١) قاله سعيد بن المسيب، أخرجه ابن سعد والحاثر بن أبي أسامة في مسنده وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر عنه كما في الدر المنثور (٤٣٠/١).

(٢) هو: صهيب بن سنان الرومي أبو يحيى النمرى، سبته الروم فابتاعته كلب، فقدمت به مكة، فابتاعه ابن جدعان فأعتقه، صحابى مشهور. شهد بدرًا. له أحاديث. انفرد له البخارى بحديث ومسلم بثلاثة. وعنه ابن عمر، وابن أبي ليلى، وابن المسيب. قال ابن سعد: مات بالمدينة سنة ثمان وثلاثين. وقال يعقوب بن سفيان: سنة أربع، وصلى عليه سعد. ينظر: الخلاصة (٤٧٢/١) (٣١١٦).

(٣) ينظر: اللباب (٤٧٣/٣)، (٤٧٤)، والدر المصون (٥١٠/١)، والبحر المحيط (١١٨/٢)، والسبعة =

ومن قرأ ذلك بالنصب فهو الصلح؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا...﴾ [الحجرات: ٩] إلى آخر الآية.

فإن قيل: كيف أمر بالدخول، وهم فيه؛ لأنه خاطب المؤمنين بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا؟﴾

قيل: بوجوه:

أحدها: أنه يحتمل قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بألسنتهم، آمنوا بقلوبكم. ويحتمل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ببعض الرسل من نحو عيسى، وموسى، وغيرهم من الأنبياء، آمنوا بمحمد ﷺ.

وقيل: أمره إياهم بالدخول أمر بالثبات عليه.

وقيل: إنه تعالى إنما أمرهم [بالدخول]^(١) فيه؛ لأن للإيمان حكم التجدد والحدوث فى كل وقت، لأنه فعل، والأفعال تنقضى ولا تبقى، كأنه قال: يأبها الذين آمنوا فيما مضى من الأوقات، آمنوا فى حادث الأوقات. وعلى هذا يخرج تأويل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكُنَّ الَّذِينَ نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالِكُنَّ الَّذِينَ نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ السَّيِّطِينَ إِنَّهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ قد ذكرنا تأويله فيما تقدم.

وقوله: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ ءَلْبَيْتُكُمْ﴾.

أى: ملتزم وتركتم من بعد ما ظهر لكم الحق.

وقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

قيل: ﴿عَزِيزٌ﴾ أى متقم بميلكم وترككم الحق بعد الظهور.

ويحتمل: ﴿عَزِيزٌ﴾، أى غنى عن طاعتكم له وعبادتكم إياه.

وقيل: ﴿عَزِيزٌ﴾، من أن يقهر أو يذل أو يغلب؛ لأن العزيز نقيض الذليل.

وقيل: ﴿عَزِيزٌ﴾، لا يقدر أحد أن يصل إليه، أو يقهره إلا ذل^(٢) بنفسه، كما يقال:

عزيز لا يرام.

وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ

= ص (١٨١)، والعنوان ص (٧٣)، وشرح الطيبة (٤/٩٥، ٩٦).

(١) سقط فى أ.

(٢) فى ط: الإذلال.

نَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٢٠٨﴾ .

قيل فيه بوجوه:

قيل: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ﴾ بأمره . وهو قول الحسن .

وقيل: ﴿يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ﴾ ، أى أمر الله ؛ وهو كقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣] ، وكقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] على إضمار الأمر فيه . وقيل: قوله: ﴿فِي ظُلُلٍ﴾ ، فى بمعنى (الباء) ، وكأنه قال: يأتىهم الله بظلل من الغمام ، وذلك جائز - استعمال (فى) مكان (الباء) ؛ لأنهما جميعاً من حروف الخفض ، والعرب تفعل ذلك ولا تأبى .

والأصل فى هذا ونحوه: أن إضافة هذه الأشياء إلى الله - عز وجل - لا توجب حقيقة وجود تلك الأشياء منه على ما يوجد من الأجسام ، لما يجوز إضافته إلى ما لا يوجد منه تحقيق ذلك ، نحو ما يقال: جاءنى أمر فظيع ، و﴿جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١] ، وجاء فلان بأمر كذا ، وجاءكم رسول . فذكر المجيء والإتيان لا على تحقيق وجود ذلك منه ، فعلى ذلك يخرج ما أضاف الله - عز وجل - إلى نفسه من المجيء والإتيان والاستواء ، [ليس على تحقيق المجيء والإتيان والاستواء]^(١) منه على ما يكون من الأجسام .

وفى الشاهد أن ملوك الأرض يضيفون إلى أنفسهم ما عمل بأمرهم من غير أن يتولوها بأنفسهم . وكذلك أضاف جل ذكره أمر القيامة إلى نفسه لفضل ذلك الأمر .

ثم الأصل: أن الإتيان والانتقال والزوال فى الشاهد إنما يكون لختلين: إما لحاجة بدت ، فيحتاج إلى الانتقال من حال إلى حال ، والزوال من مكان إلى مكان ليقضيها . أو لسأمة ووحشة تأخذها ، فينتقل من مكان إلى مكان لينفى عن نفسه ذلك . وهذان الوجهان فى ذى المكان ، والله - تعالى - يتعالى عن المكان ، كان ولا مكان فهو على ما كان . فالله - تعالى - يتعالى عن أن تمسه حاجة أو تأخذها سأمة . فبطل الوصف بالإتيان والمجيء والانتقال من حال إلى حال أو من مكان إلى مكان . وبالله التوفيق .

وقيل: إن النص قد ورد بالاستواء والمجيء ، و[ورد]^(٢) الخبر بالنزول ، والرؤية . ثم قد ورد السمع بأن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ، لزم نفى التشبيه فيما ورد عن ذاته ، ولزم الإقرار بما جاء من عنده من غير طلب الكيفية له والتفسير . فالسبيل فيه الإيمان

(١) سقط فى ط .

(٢) سقط فى ط .

بالتنزيل، والكف عن التفسير. والله أعلم.

وفى الشاهد الإتيان فى العرض: ظهوره، وفى الجسم: نقله من مكان إلى مكان، وهو - جل ذكره - جل أن يوصف بجسم أو عرض. كذلك إتيانه لا يشبه إتيان الأجسام والأعراض، ويكون إتيان لا يعرف كيفيته، وكما جاز أن يكون هو مثبتاً بدليل لا يشبهه عرض ولا جسم. والله أعلم.

وقوله: ﴿سَلِّ بَنَىٰ إِسْرَءِيلَ كَمَآ آتَيْنَهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ يَّبَيِّنُهَا﴾.

يحتمل وجوها:

يحتمل: أن يكون أمر الله عز وجل نبيه ﷺ، بسؤاله إياهم عما آتاهم من الآيات، على إثر سؤال كان منهم، بطلب الآيات، فقال: سلهم يا محمد كم آتيناكم^(١) وأجدادهم من الآيات على يدى موسى، فكفروا به، ولم يؤمنوا. فأنتم - وإن آتيناكم آيات - لا تؤمنون أيضاً. يخبر نبيه عليه السلام أن سؤالهم أن كان سؤال تعنت، لا سؤال قبول وتصديق. والله أعلم.

ويحتمل: أن يكون لا على إثر سؤال كان منهم، ولكن على الابتداء أن سل علماء بنى إسرائيل [وأئمتهم كم آتيناكم من آية منه فجحدوها وكنتموها وهو كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَن يَلْعَلُوهُ عُلَمَؤُا۟ بَنَىٰ إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] ^(٢) الآية.

ويحتمل: ﴿سَلِّ﴾، لا على الأمر به فى التحقيق، [لكن على التحقيق] ^(٣) والتبيين أنك لو سألتهم لأخبروك.

أو يكون المراد من ذلك فى الذين تضيق صدورهم عند الإخبار أنهم لو جاءتهم الآيات التى سألوا عنها لا يؤمنون، ليخبروا بذلك فتطمئن لذلك قلوبهم، فتزول عنها المخاطر وأنواع الوسواس. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾.

قيل ^(٤): ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾، دين الله، من بدله بعد ظهوره وبيانه.

وقيل ^(٥): ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾، يعنى محمداً ﷺ، أى: من كفر به بعدما علم أنه رسول الله.

ويحتمل: ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾، النعم المعروفة التى كان آتاهم من المن، والسلوى، والغمام

(١) فى أ: آتينا آباءهم.

(٢) سقط فى ط.

(٣) سقط فى ب.

(٤) قاله ابن جرير بنحوه (٢/٣٤٥).

(٥) قاله البغوى فى تفسيره (١/١٨٤).

وغيره مما لم يؤت أحدًا من العالمين مثله .

وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

خوفهم عز وجل وحذرهم على تبديل ذلك وتركه والكفر بنبيه ﷺ بعد معرفتهم أنه حق . والله أعلم .

ويكون تبديل نعمة الله بتوجيه الشكر إلى غيره، وهو أن يعبد غيره . والله أعلم .

وقوله: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَسَخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

قال الحسن: زين لهم الشيطان ذلك، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤] . ولكن معناه - والله أعلم - أى زين لهم [التزيين ثم] ^(١) التزيين يكون بوجهين:

يزينه الطبع لقرب الشهوات، والعقل لقيام الأدلة، فيكون التزيين بالثواب .

وأما ما زين للذين كفروا الحياة الدنيا لما ركب فيهم من الشهوات وميل الطبع إليه .

وأما الوجهان الآخران منهما للمؤمنين .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾

يحتمل وجهين:

يحتمل: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ ، فى الحجة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١] .

ويحتمل: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ ، فى الجزاء والثواب .

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

يحتمل وجوهاً:

يحتمل: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ، بغير تبعة .

ويحتمل: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ، لا على قدر الأعمال، ولكن على قدر الشهوة وزيادة

عليها؛ لأن رزق الجنة على ما تنتهى إليه الشهوات، ورزق الدنيا مقدر على قدر الحاجة والقوت؛ إذ لا أحد يبلغ مناه فى الدنيا وحاجته، وفى الآخرة كل ينال فوق مناه .

ولأن أكل ^(٢) الشهوة فى الدنيا هو المؤذى .

ويحتمل: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ، أى من غير أن ينقص ذلك عن ملكه وخزائنه، وإن عظم

عطاياه وكثر مناله، ليس كخزائن المخلوقين تنتقص بالدفع وتنفذ . والله أعلم .

(١) سقط فى ط .

(٢) فى أ: كل .

قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَرَزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ قَلِيلًا لِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

وقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ ، قال أبو موسى الأشعري^(١)، رضى الله تعالى عنه، وآخر معه من الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، قالوا: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ، كلهم كفار إلى أن بعث الله عز وجل فيهم النبيين .

وقال عبد الله بن مسعود^(٢) - رضى الله تعالى عنه - : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ، مؤمنين كلهم زمن نوح، عليه السلام، الذين كانوا فى السفينة إلى أن اختلفوا من بعد، فبعث الله فيهم النبيين .

وقال بعضهم: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ، مؤمنين كلهم زمن آدم، عليه الصلاة والسلام، إلى أن أنزل الله الكتاب عليهم وبعث فيهم الرسل .

ولو قيل بغير هذا كان أقرب .

قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ، يعنى صنفاً واحداً .

ومعنى الأمة معنى الصنف، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ

(١) عبد الله بن قيس بن سليمان بن خضار بفتح المهملة وتشديد المعجمة الأشعري أبو موسى، هاجر إلى الحبشة وعمل على زبيد وعدن، وولى الكوفة لعمر والبصرة، وفتح على يده تستر وعدة أمصار. له ثلاثمائة وستون حديثاً، اتفقا على خمسين، وانفرد البخارى بأربعة، ومسلم بخمسة وعشرين. وعنه ابن المسيب وأبو وائل وأبو عثمان النهدي وخلق. قال الهيثمى: توفي سنة اثنتين وأربعين. وقيل غير ذلك .

وعمل للنبي ﷺ على زبيد، وعدن، وساحل اليمن. واستعمله عمر بن الخطاب على الكوفة والبصرة. وشهد وفاة أبى عبيدة بن الجراح بالأردن. وشهد خطبة الجابية. وقدم دمشق على معاوية. ينظر: تهذيب الكمال (١٥/٤٤٦ - ٤٥٣)، والخلاصة (٢/٨٩) (٣٧٣٩)، والثقات (٣/٢٢١)، وتهذيب التهذيب (٥/٣٦٢، ٣٦٣)، والإصابة ت (٤٨٩٨)، وسير أعلام النبلاء (٢/٣٨٠)، وشذرات الذهب (١/٢٩، ٣٠).

(٢) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس (٤٠٥١)، وقتادة (٤٠٥٢) بنحوه، وانظر الدر المنثور (١/٤٣٥).

إِلَّا أُمُّ أَثْلَكُمُ ﴿٣٨﴾ [الأنعام: ٣٨]، يعنى: أصنافا.

ثم خص الله تعالى صنفاً بيعث الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم من بين غيرها من الأصناف تفضيلاً^(١) لهم وإكراماً، وبعث كل رسول إلى قومه فيهم كفار وفيهم مؤمنون؛ لأن الأرض لا تخلو من ولى أو نبى، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، ليعلموا أن سائر أصناف الخلق خلقوا لهم ولحاجاتهم. وهو قول الحسن.

وكذلك قول أبى حنيفة - رضى الله تعالى عنه - : أن الأرض لا تخلو عن نبى أو ولى. والله أعلم.

وقوله: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ الْبَنِينَ مُبَشِّرِينَ﴾ ، لمن أطاعه، ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ ، لمن عصاه. وجائز أن تكون البشارة والندارة جملة^(٢) عن الوقوع بما به يقعان مختلف؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١]، وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾

يحتمل قوله: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ ، وجهين:

يحتمل: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ ، الكتاب المنزل عليهم بالحق فيما بينهم، وهو كقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا يُسْذِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢].

وقرأ بعضهم^(٣): ﴿لِيَحْكُمَ﴾ ، بالياء، وقرأ آخرون: «لتحكم»، بالتاء.

فمن قرأ بالياء جعل الكتاب هو المنذر.

ومن قرأ بالتاء صير الرسول هو المنذر؛ فكذلك فى هذا: ليحكم الكتاب بينهم بالحق،

وليحكم الرسول بالكتاب فيما بينهم بالحق.

وقوله: ﴿فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾

يحتمل قوله: ﴿فِيهِ﴾ وجوهاً:

يحتمل: ﴿فِيهِ﴾ ، فى محمد ﷺ.

ويحتمل: ﴿فِيهِ﴾ ، فى دينه.

ويحتمل: ﴿فِيهِ﴾ ، فى كتابه.

وقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

(١) فى أ: تفضلاً.

(٢) زاد فى ب: له

(٣) ينظر: الباب (٣/٥٠٥، ٥٠٦)، والدر المصون (١/٥١٩)، والمحرم الوجيز (١/٢٨٦).

أى: ما اختلفوا فيه إلا من بعد ما جاءتهم البينات والعلم، إما من جهة العقل، وإما من جهة السمع والكتب والخبر، وإما من جهة المعاينة والمشاهدة لكنهم تعاندوا وكابروا وكفروا به بغيًا.

وقوله: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.

قيل^(١): ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، أى: حسدًا بينهم.

وقيل^(٢): ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، ظلماً منهم، ظلّموا محمدًا ﷺ.

وقوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾.

تأويله - والله أعلم - أى هدى الله الذين آمنوا، ولم يختلفوا من بين الذين اختلفوا.

ويحتمل: هدى الله من أنصف ولم يعاند، ولم يهد الذين عاندوا ولم ينصفوا.

وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾^(٣)، قيل: بأمره، وقيل: بفضله.

لكن قوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾، بأمره، لا يحتمل، ولكن ﴿بِإِذْنِهِ﴾، أى: بمشيئته وإرادته.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

فيه دلالة أنه من شاء أن يهتدى فاهتدى، ومن لم يشأ أن يهتدى لم يهتد؛ لأنه لو كان شاء أن يهتدوا جميعًا [أنه من شاء أن يهتدوا جميعًا]^(٤)، على مايقوله المعتزلة، لكان يقول: والله يهدى إلى صراط مستقيم، ولم يقل: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾، [فدل قوله: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾]^(٥) على أنه شاء إيمان من آمن، ولم يشأ إيمان من لم يؤمن، فالآية تنقض على المعتزلة قولهم: إنه شاء أن يؤمنوا، لكن آمن بعضهم ولم يؤمن البعض.

وفى قوله: ﴿فَعَبَّ اللَّهُ إِلَيْكِنَّ﴾، دلالة على ألا يفهم من البعث والإتيان والمجىء الانتقال من مكان إلى مكان، ولا الزوال من موضع إلى موضع؛ لأنه ذكر البعث، وهم كانوا بين ظهرانيهم، فدل أنه يراد الوجود، لاغير.

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَرَزُلُوكُمْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

قيل: معنى قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، على إسقاط «الميم».

(١) انظر: تفسير البغوى (١/١٨٧).

(٢) ينظر: التخرىج السابق.

(٣) زاد فى ط: يحتمل وجوها.

(٤) سقط فى أ.

(٥) سقط فى ط.

وقيل^(١): ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ ، بمعنى: «بل حسبتم». وقوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾. قيل^(٢): شبه الذين خلوا من قبلكم.

وقيل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ﴾، خبر الذين خلوا من قبلكم، وقيل^(٣): سنن الذين خلوا من قبلكم من البلاء والمحن التي أصابت الماضين من المؤمنين.

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ...﴾ الآية، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة قبل أن تبتلوا كما ابتلى من قبلكم، أى: لا تظنوا ذلك عمله^(٤)، وإن كان فيهم من قد يدخل - والله أعلم - كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٤].

وقيل: إن القصة فيه أن المنافقين قالوا للمؤمنين: لم تقتلون أنفسكم وتهلكون أموالكم؛ فإنه لو كان محمد نبياً لم يسلط عليه؟ فقال المؤمنون لهم: إن من قتل منا دخل الجنة. فقالوا: لم تمثون الباطل والبلايا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾، من غير أن تبتلوا وتصيبكم الشدائد، ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ﴾.

وقوله: ﴿وَزُلْزِلُوا﴾

قيل^(٥): حركوا.

وقيل: جهدوا.

وقوله: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ﴾

قيل فيه بوجهين:

قيل: يقول الرسول والمؤمنون جميعاً: ﴿مَتَى نَصُرُ اللَّهَ﴾، ثم يقول الله لهم: ﴿أَلَا إِنَّا نَصُرُ اللَّهَ قَرِيبٌ﴾.

وقيل: يقول المؤمنون ﴿مَتَى نَصُرُ اللَّهَ﴾ ثم يقول الرسول: ألا إن نصر الله قريب ويحتمل هذا في كل رسول بعثه الله تعالى إلى أمته يقول هذا، وأمته يقولون أيضاً.

(١) قاله الزجاج كما فى تفسير البغوى (١/١٨٧).

(٢) قاله البغوى (١/١٨٧).

(٣) قاله قتادة، أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم كما فى الدر المنثور (١/٤٣٧).

(٤) فى أ، ط: جملة.

(٥) قاله البغوى (١/١٨٧).

ويحتمل: إن كان هذا في رسول دون رسول، على ما قاله بعض أهل التأويل: أنه فلان. وليس لنا إلى معرفة ذلك سبيل إلا من جهة السمع، ولا حاجة إلى معرفته.
[وفى قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ الآية^(١)].

وفى قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ١٦].
وفى قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وجه آخر، وهو أنهم - والله أعلم - ظنوا لما أتوا بالإيمان أن يدخلوا الجنة، ولا يتلون بشيء من المحن والفتن، وأنواع الشدائد، فأخبر الله عز وجل أن في الإيمان المحن والشدائد لا بد منها، كقوله عليه السلام: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»^(٢). والله أعلم.

وكقوله: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]، ولأن الإيمان من حيث نفسه ليس بشديد؛ لأنه معرفة حق وقول صدق، ولا فرق بين قول الصدق وقول الكذب، ومعرفة الحق ومعرفة الباطل في احتمال المؤمن، والإيمان: مخالفة الهوى والطبع، وذلك في أنواع المحن. والله أعلم.
وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَاللَّذِينَ الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

فظاهر هذا السؤال^(٣) لم يخرج له الجواب؛ لأن السؤال «عما ينفق»، فخرج الجواب «على من ينفق»، غير أنه يحتمل أن يكون (ماذا) بمعنى (من)، وذلك مستعمل في اللغة، غير ممتنع.

ويحتمل: أن يكونوا سألوا سؤاليين:

أحدهما: عما ينفق؟

والثاني: على من ينفق؟ فخرج لأحدهما الجواب على ما كان من السؤال: «على من ينفق»، ولم يخرج جواب ما كان من السؤال: «عما ينفق». وهذا أيضًا جائز، كثير في القرآن: أن يكثر الأسئلة، ويخرج الجواب لبعض ولم يخرج لبعض، ويكون جواب

(١) سقط في ط.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٧/١١) كتاب الرقاق: باب حجبت النار بالشهوات (٦٤٨٧)، ومسلم (٤/٢١٧٤) كتاب الجنة: وصفة نعيمها (٢٨٢٢-٢٨٢٣).

(٣) في ط: القول.

سؤال: «مِمَّ^(١) ينفق؟» في قوله تعالى: ﴿قُلِ اَلْعَفْوُ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فيكون على ما ذكر. والله أعلم.

ويدل لما قلنا، أنه كان ثم سؤالان، أن أحدهما: «عما ينفق» والآخر: «على من ينفق»، ما روى عن عمرو بن الجموح الأنصارى^(٢)، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: يا رسول الله، كم ننفق؟ وعلى من ننفق؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ...﴾^(٣) الآية.

ثم اختلف في هذه النفقة: قال بعضهم^(٤): هذه النفقة كانت تطوعا، فنسخت بالزكاة. وقيل: هذه النفقة صدقة يتصدقون بها على الوالدين والأقربين الذين يرثون، فنسختها آية المواريث.

وقيل: فيه الأمر بالإنفاق على الوالدين والأقربين عند الحاجة، وكان هذا أقرب. والله أعلم. وفيه دلالة لزوم نفقة الوالدين والمحارم.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِيَارِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ.

وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

والكراهة المذكورة هاهنا والمحبة: هي كراهة الطباع والنفس، [ومحبة الطباع

(١) في ب: ثم.

(٢) عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصارى السلمى، من بنى جشم بن الخزرج. شهد العقبة، ثم شهد بدرًا، وقتل يوم أحد شهيدا، ودفن هو وعبد الله بن عمرو حرام فى قبر واحد، وكانا صهرين. ينظر الاستيعاب (٢٥٣/٣) (١٩٢٥).

(٣) أخرجه ابن المنذر كما فى الدر المنثور (٤٣٧/١).

(٤) قاله السدى وابن جريج وابن أبى نجیح وابن زيد، أخرجه ابن جرير عنهم (٤٠٧١، ٤٠٧٢، ٤٠٧٣، ٤٠٧٤)، وانظر الدر المنثور (٤٣٧/١).

والنفس،] لا كراهة الاختيار. ولا يكون فى كراهة الطباع خطاب؛ لأن طبع كل أحد ينفر عن القتال والمجاهدة مع العدو، لا أنهم كرهوا ذلك كراهة الاختيار؛ لأنه لا يحتمل أن يكون أصحاب رسول الله ﷺ يؤمرون بالقتال والمجاهدة مع العدو ثم هم يكرهون عما أمروا اختياراً منهم؛ لأن ذلك دأب أهل النار، فثبت أنه على ما ذكرنا من نفور كل طبع عن احتمال الشدائد والمشقة وكراهيته.

وقوله: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾. يحتمل هذا فى القتال خاصة، وهو أن يكونوا كرهوا القتال؛ لما فيه من المشقة والشدّة، ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ لما فيه من الفتح والظفر وسعة العيش ومنال الثواب والدرجات فى الآخرة.

﴿وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا﴾، يعنى التعود على الجهاد، ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾، لما فيه من اجتراء العدو والأسر والقتل والذل والصغار وقطع الثواب فى الآخرة. ويحتمل هذا فى كل أمر يحب [الرجل] فى الابتداء ويكون عاقبته شراً له، ويكره أمراً فيكون عاقبته خيراً له. هذا لجهلنا بعواقب الأمور وخواتيمها؛ ليعلم أن ليس إلينا من التدبير فى شىء. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، [أى: ويعلم]^(١) ما هو خير لكم فى العواقب مما هو شر لكم، «وأنتم لا تعلمون».

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْفَرَّارِ قُلْ فِيهِ قُلٌ قِتَالٌ فِيهِ كِبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

معناه - والله أعلم -: يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام وفى المسجد الحرام، ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كِبِيرٌ﴾، لو لم يكن من الكفرة ما ذكر من الصد عن رسول الله ﷺ، والكفر به، وإخراج أهله منه، لكن إذ فعلوا ذلك، لم يكن القتال بجنبه كبيراً، بل الكفر فيه أكبر من القتل. فكأنه - والله أعلم - ذكر هذه الأحرف وعننى به الكناية عن الكفر، ثم جعل الكفر أكبر من هذا كله مع المعرفة أن الذى يؤذيه أقل منه. ثم ألزمهم اختيار الأيسر عند البلوى بما بين. والقتال بنفسه كبير؛ لأن فيه تفران الخلق، ولم يخلقوا للفناء.

ثم فيه نقض على المعتزلة بوجهين:

أحدهما: أنه ذكر القتل، وجعل الكفر أكبر منه، ولو أوجب القتل التخليد، ما أوجب الكفر، لكان فيه التساوى، ولا يكون الكفر أكبر من القتل فبان أن الكبيرة لا توجب

التخليد ما أوجب الكفر. والله أعلم.

والثاني: قال: والكفر أكبر منه، فصيره أكبر، ثم [لا يخلو أكبره]^(١) من أن يكون بنفسه، أو بالكافر، أو بالله. ولا يحتمل أن يكون بالكافر؛ لأن فعل الكفر أصغر عنده من فعل الزنى والقتل؛ لأنه يدين بالكفر ويستحسنه، ويستقبح ذلك. فبان أنه يكبر نفسه أو بالله.

فإن قالوا: بنفسه.

قيل لهم: لما جاز أن يكون كبره بغير من ينشئه لما لا جاز خلقه بغير من يفعله، أو يكون بالله؟ وهو قولنا.

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْبَلُونَكَ حَتَّىٰ يَرْضَوْكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾

فيه دلالة إثبات رسالة نبينا محمد ﷺ؛ لأنه أخبر أنهم يفعلون كذا، فكان كما قال: فدل أنه إنما عرف ذلك بالله عز وجل.

وقوله: ﴿إِنِ اسْتَطَعُوا﴾، ولكن لا يستطيعون أن يردوكم عن دينكم.

ففيه إياس الكفرة عن رد هؤلاء إلى دينهم، وأمن هؤلاء عن الرجوع إلى دينهم.

وقيل: (إن) بمعنى (لو)، أى: لو قدروا أن يردوكم عن دينكم إلى دينهم لفعلوا.

أخبر الله عز وجل عما ودوا^(٢) إن استطاعوا، لكن الله بما أكرمهم وبشرهم من النصر وإظهار الدين لا يستطيعون على ذلك أظهر بقوله: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

ذكر إحباط الأعمال، بالموت على الكفر، والعمل يحبط بالكفر دون الموت.

والوجه فيه: أنه لا يحتمل أن يكون الموت هو سبب إحباط الأعمال، بل الكفر بنفسه إذا وجد؛ إذ الموت لا صنع فيه للعباد، والكفر فيه لهم اختيار، لم يجر جعل العمل حبطاً بما لا صنع له فيه، دل أن الكفر هو المحبط، لا الموت، ولكن ذكر الموت فى هذا لما فيه تمام الحبط والإبطال، وما لم يمت ترجى له المنفعة بحسناته؛ لأنه إذا كفر جحد تلك الحسنات فأبطلها، فإذا أسلم بعد ذلك ندم على جعل ذلك باطلاً، فصار مقابلاً لسيئاته

(١) فى ط: لأكبره.

(٢) فى ب: ردوا.

بحسنات، فهو حالة الانتفاع به كما قال عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُدْخِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].
وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

أما في الدنيا: فذهاب التعظيم والإجلال والثناء الحسن الذي يستوجب^(١) بالخير والدين عند الناس، فإذا ارتد عن الإسلام حبط ذلك كله وصار على أعين الناس أخف من الكلب والخنزير.

وأما حبطه في الآخرة: فذهاب ثواب أعماله، وكأن ما يستوجب المرء من الثواب إنما يستوجب بما يأتي من الأعمال ويحضرها عند الله، لا بالعمل نفسه؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الَّتِي جَنَّتْ عَنِ تَجَرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ قَرَّبَ﴾ [طه: ٧٥-٧٦]، دل هذا أن الثواب إنما يستوجب بإحضاره وإتيانه عند الله، لا بالعمل نفسه. والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

تضمن قوله: ﴿ءَامَنُوا﴾ الإيمان بالله، والإيمان بجميع ما جاء به الرسل من الرسالات وغيرها.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾.

الهجرة تكون على وجهين:

أحدهما: الهجرة المعروفة التي كانت إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، وهو كقوله: ﴿وَمَنْ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرْغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]. ثم روى عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لا هجرة بعد فتح مكة»^(٢).

(١) في ب: لا يستوجب.

(٢) وأما حديث يعلى بن أمية فأخرجه النسائي (١٤١/٧) في البيعة، باب البيعة على الجهاد (١٤٥/٧) في ذكر الاختلاف في انقطاع الهجرة، وأحمد (٣٢٣/٤، ٣٢٤)، والطبراني في الكبير (٢٥٧/٢٢، ٢٦٤، ٦٦٥)، والبيهقي (١٦/٩)، من طريق ابن شهاب عن عمرو بن عبد الرحمن بن أمية أن أباه أخبره أن يعلى قال: جئت إلى رسول الله ﷺ بأبي يوم الفتح، فقلت: يا رسول الله، بايع أبي على الهجرة. قال رسول الله ﷺ: «أبايعه على الجهاد، وقد انقطعت الهجرة».

وأما حديث أبي سعيد الخدري فأخرجه أحمد (٢٢/٣)، (١٨٧/٥)، والطيالسي (٦٠١)، (٩٦٧، ٢٢٠٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٠٩/٥)، عن أبي البختري الطائي عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت هذه السورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾... الآية =

والهجرة الثانية: هجرة الآثام والإجرام، فهي لا ترتفع أبدًا. وقال الحسن^(١) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أى بالعداوة منه لمن كفر بالله.

وقال أبو بكر الصديق^(٢) - رضى الله تعالى عنه - : أن يهجر قومه وداره ويخرج لله . وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ . المجاهدة تكون على وجوه:

مجاهدة العدو، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس .

وقوله: ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ .

فيه دلالة على أن الذى يحق رجاءه يعمل ما ذكر الله .

وقوله: ﴿رَحِمَتَ اللَّهُ﴾ ، يحتمل وجهين: الرحمة: الجنة، والرحمة: المغفرة .

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

لما كان منهم من التقصير فيما ذكر من المجاهدة والمهاجرة .

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ عَنْ اللَّهِ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا

= قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها وقال: «الناس حيز، وأنا وأصحابي حيز»، وقال: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية» فقال له مروان: كذبت. وعنده رافع بن خديج وزيد بن ثابت، وهما قاعدان معه على السرير. فقال أبو سعيد: لو شاء هذان لحدثاك، ولكن هذا يخاف أن تنزعه من عرافة قومه، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة، فسكتا، فرفع مروان عليه الدرة ليضربه، فلما رآيا ذلك قالوا: صدق.

أما قول ابن عمر فأخرجه البخارى (٢٦٧/٧)، فى مناقب الأنصار، باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٨٩٩)، (٦٢٠/٧) فى المغازى، باب (٥٣) (٤٣٠٩ - ٤٣١١) من طريق عطاء عن ابن عمر كان يقول: لا هجرة بعد الفتح.

وفى لفظ آخر: قلت لابن عمر - رضى الله عنهما - : إني أريد أن أهاجر إلى الشام. قال: لا هجرة، ولكن جهاد. فانطلق فاعرض نفسك، فإن وجدت شيئا وإلا رجعت.

وأما قول عمر فأخرجه النسائى (١٤٦/٧) فى البيعة، باب الاختلاف فى انقطاع الهجرة، وأبو يعلى فى مسنده (١٨٦)، عن شعبة عن يحيى بن هانى عن نعيم بن دجاجة قال: سمعت عمر يقول: لا هجرة بعد وفاة رسول الله ﷺ.

(١) يأتى فى سورة النساء.

(٢) يأتى فى سورة النساء.

أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا» .

﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ ، بعد الحرمة ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ ، قبل الحرمة ، ﴿وَإِثْمُهُمَا﴾ ، بعد الحرمة ﴿أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ ، قبل التحريم .

والمنفعة فى الميسر: بعضهم ينتفع به، وبعضهم يخسر، وهو القمار .
وذلك أن نفراً كانوا يشترون الجزور فيجعلون لكل رجل منهم سهماً، ثم يقرعون، فمن خرج سهمه برئ من الثمن حتى يبقى آخر رجل، فيكون ثمن الجزور عليه وحده، ولا حق له فى الجزور، ويقتسم الجزور بقيتهم .

وقيل: يقسم بين الفقراء؛ فذلك الميسر .
ثم قال: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ ، فى ركوبهما؛ لأن فىهما ترك الصلاة، وترك ذكر الله، وركوب المحارم والفواحش .

ثم قال: ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ ، يعنى التجارة، واللذة، والربح .
ثم اختلف فيه :

قال قوم: إن الخمر محرمة بهذه الآية حيث قال: ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ ، والإثم محرم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

وقال قوم: لم تحرم بهذه الآية؛ إذ فيها ذكر النفع، ولكن حرمت بقوله: ﴿إِنَّمَا الْحَبْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَهْصَابُ وَالْأَذْلَمُ رِجْسٌ﴾ [المائدة: ٩٠]، والرجس محرم، وقال الله تعالى: ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠]، وعمل الشيطان محرم .

ثم أخبر فى آخرها أنه: ﴿يُوقَعُ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ فِي الْحَبْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٩١]، وذلك كله محرم .

والأصل عندنا فى هذا: أنهم أجمعوا على حرمة الميسر مع ما كان فيه من المنافع للفقراء وأهل الحاجة والمعونة لهم؛ لأنهم كانوا يقتسمون على الفقراء، فإذا حرم الله هذا ثبت أن المقرون به أحق فى الحرمة مع ما فيه من الضرر الذى ذكرنا . والله أعلم .

وقال الشيخ، رحمه الله تعالى، فى قوله: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنْ الْحَبْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾: ولم يبين فى السؤال أنه عن أى أمرهما كان السؤال؟ وأمكن استخراج حقيقة ذلك عن الجواب بقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ ، كأن السؤال كان «عما فىهما»؟ فقال: فىهما كذا .

وعلى ذلك قوله: ﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنْ آلِيتِنِ﴾ [البقرة: ٢٢٠] كأن السؤال عما يعمل فى أموال اليتامى، من المخالطة وأنواع المصالح، وكذلك قوله: ﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنْ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، كأنه قال: عن غشيان فى المحيض، إذ فى ذلك جرى الجواب فلم يبين

فى السؤال لما فى الجواب دليله، أو لما كان الذين سألوا معروفين يوصل بهم إلى حقيقة ذلك. والله أعلم.

وقيل: هذه الآية تدل على حرمتها بما قال: ﴿فِيهِمَا إِنْتُمْ كَبِيرٌ﴾، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْإِنْتُمْ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ثبت أن الإثم محرم. وأكثر السلف على أن الحرمة فيهما ليست بهذه الآية، ولكن بقوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ يَجْسُ﴾ [المائدة: ٩٠].

وقوله: ﴿فِيهِمَا إِنْتُمْ كَبِيرٌ﴾، يبلغ أمر الخمر^(١) والميسر إلى ما يكون فيهما ﴿إِنْتُمْ كَبِيرٌ﴾، من نحو ما بين عند السكر والميسر فى سورة المائدة من وقوع العداوة والبغضاء والصد عما ذكر، ﴿فِيهِمَا إِنْتُمْ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ﴾، فى ذلك الوقت بوجوه: أما فى الخمر: إلى أن يسكر، وفى التجارة فيها.

وفى الميسر: لما كان يفرق ما فيه ذلك على الفقراء، وما فيه من^(٢) التجارة ونحو ذلك.

وعلى التأويل الأول يخرج قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِنْتُمْ كَبِيرٌ﴾، أى: فى الشرب والعمل إذ حرما، ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾، قبل أن يحرما. والله أعلم.

ثم الذى علينا: أن نعرف حرمتها اليوم إن كانت فى هذه الآية أو لم تكن، فينتهى الانتفاع بهما ويحذر ذلك، وقد بين الله الكافى من ذلك فى سورة المائدة، وجاءت الآثار فى تحريمهما، على ما فى الميسر من الخطر والجهالة^(٣) التى جاءت الآثار على كون أمثالها فى حكم الربا، وفى الخمر ما لا يتخذ للمنافع وإنما يتخذ للهو والطرب، وكل ذلك مما نهينا عنه، مع ما فى ذلك من ذهاب العقل الذى هو أعز ما فى البشر، وغلبة السفه فى أهله. فحقيق لمن عقل اتقاه لو كان حلالاً؛ لما فى ذلك من التبذير، فكيف وقد ظهرت الحرمة.

ثم كان معلوماً علة حرمة الخمر إذا سكر منها الشارب، ثم جاء به القرآن، وليست تلك العلة فى شرب القليل منه، فلم يلحق بحق القليل غيرها، وألحق بالكثير كل شراب يعمل ذلك العمل، لما فيه المعنى الذى ذكره، إذ كانت الخمر لا تتخذ فى المتعارف للمصالح ولا لأنواع المنافع، بل تتخذ لما ذكرت من اللهو والطرب، ولا يستعمل شربها

(١) فى ب: الشرب.

(٢) فى ط: على.

(٣) فى ط: الحظر والجهالة، وفى ب: الخطأ.

إلا المعروفون بالفسق، فتكون حرمة الخمر بعينها، لا ما ذكرت من قصد العواقب بها. وكل جوهر لا يتخذ لا يقصد باتخاذ ذلك فهو غير محرم بعينه. والله أعلم. وقوله: ﴿وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾.

﴿الْغَفْوُ﴾: هو الفضل عن القوت، وذلك أن أهل الزروع كانوا يتصدقون بما يفضل عن قوت سنة، وأهل الغلات يتصدقون بما يفضل عن قوت الشهور، وأهل الحرف والأعمال يتصدقون بما يفضل عن قوت يوم، ثم نسخ ذلك بما روى عن أنس بن مالك، رضى الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «الزكاة نسخت كل صدقة كانت، وصوم شهر رمضان نسخ كل صوم كان، والأضحية نسخت كل دم كان»^(١). فإن ثبت هذا فهو ما ذكرنا.

وروى عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، قال: كان هذا قبل أن تفرض الصدقة^(٢).

دليل ذلك ظهور أموال كثيرة لأهلها فى الصحابة، رضوان الله تعالى عنهم أجمعين، إلى يومنا لم يخرجوا من أملاكهم، ولا تصدقوا بها، ولا أنكر عليهم؛ فثبت أن الأمر فى ذلك منسوخ، أو هو على الأدب.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

قيل^(٣): أما فى الدنيا: فتعلمون أنها دار بلاء وفناء، وأما الآخرة: دار جزاء وبقاء، فتفكرون فتعملون للباقية منها.

وقال الحسن^(٤): إى - والله - ومن تفكر فيهما ليعلمن أن الدنيا دار بلاء، وأن الآخرة دار بقاء.

وعن ابن عباس^(٥) - رضى الله تعالى عنه - : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾،

قال: يعنى فى زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها. بل يعلم بالتفكر أن الدنيا للزوال، علم أنها هى للتزود لدار القرار، فيصرف سعيه إلى التقديم، وجهده فى فكاك

(١) أخرجه الدارقطنى (٢٨١/٤)، والبيهقى (٢٦٢/٩)، عن عائشة، وفى إسناده متروك.

(٢) أخرجه ابن جرير (٤١٧٧، ٤١٧٨)، وانظر الدر المنثور (٤٥٣/١).

(٣) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير عنه (٤١٨٢، ٤١٨٤)، وعن ابن جريج (٤١٨٣)، وانظر الدر المنثور (٤٥٦/١).

(٤) أخرجه عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الصعق بن حزن عنه كما فى الدر المنثور (٤٥٦/١).

(٥) أخرجه ابن جرير (٤١٨١)، انظر الدر المنثور (٤٥٦/١).

رقيبته وإعتاقها. ولا قوة إلا بالله.

وفى قوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ دلالة جواز تأخير البيان؛ لأنه أمر بالتفكير والتدبر، وجعل لهم عند الفكر الوصول إلى المراد فى الخطاب، فدل أنه يتأخر عن وقت قرع الخطاب السمع.

وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾.

كان فى السؤال إضماراً؛ لأنه قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾، ولم يبين فى أى حكم، وإضماره - والله أعلم - أن يقال: يسألونك عن مخالطة اليتامى. يبين ذلك قوله: ﴿وَإِنْ تَخَاطَبُوهُمْ فَاخْوَانُكُمْ﴾ أن السؤال كان عن المخالطة.

وكذلك قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ولم يبين فى أى حكم، فكأنه قال: يسألونك عن شرب الخمر والعمل بالقمار والميسر، ثم قال: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، دل قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أن السؤال كان عن شرب الخمر والعمل بالميسر. وهذا جائز فى اللغة، وفى القرآن كثير أن يكون فى الجواب بيان السؤال أنه عما كان وإن لم يذكر فى السؤال؛ كقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، دل ما ذكر من الفتيا أن الاستفتاء كان عن الميراث. وكذلك قوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَصَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ يَكْتُمُوهُنَّ وَالسَّفْهُنَ مِنْ أَوْلَادِنَ وَأَنْ تَقُولُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٢٧]، دل قوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ أن السؤال كان عن نساء اليتامى. وهذا جائز، وربما يخرج الجواب على إثر نوازل، فيعرف مراده بالنوازل دون ذكر السؤال.

ثم السؤال يحتمل وجهين:

يحتمل: أن يكون عن مخالطة الأموال والأنفس جميعاً بقوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ وإن تَخَاطَبُوهُمْ فَاخْوَانُكُمْ، فإنما حملهم - والله أعلم - على سؤال المخالطة، ما قيل: لما نزل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وقوله: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ [النساء: ٦]، أشفق المسلمون من خلطة اليتامى، فعزلوا لهم بيتاً، وعزلوا طعامهم وخدمهم وثيابهم، فشق ذلك عليهم جميعاً، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فنزلت هذه^(١)

(١) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٤١٩٢، ٤١٩٤، ٤١٩٦)، وعن الشعبي (٤١٩٣)، وعطاء ابن أبى رباح (٤١٩٥)، وانظر الدر المنثور (٤٥٦/١).

الآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ...﴾ الآية.

وفى الآية دليل جواز المناهذات والمؤاكلات فى الأسفار وغيرها حيث أباح لهم المخالطة بأموال اليتامى. فإذا احتمل ذلك مال الصغار من اليتامى فاحتماله فى مال الكبير أشد؛ إذ مال الكبير يحتمل الإباحة والإذن، ومال الصغير لا.

وفى الآية دليل جواز القليل من المعروف واليسير منه فى ملك الصغير، واحتماله ذلك؛ لأنه - جل وعز - أباح لهم المخالطة مع اليتامى على العلم فى الاستيفاء مبلغ الكبير بل يقصر عنه.

وفيه دليل أن علة الربا ليس هو الأكل، على ما قاله بعض الناس، ولكن هو الكيل والوزن؛ لأنه أباح لهم المخالطة فى المأكول من الطعام والمشروب من الشراب، على غير كيل ولا وزن، على العلم بقصور الصغير عن الاستيفاء قدر الكبير وبلوغه مبلغه، فلو كان علته الأكل لكان لا يبيح لهم أكل الربا؛ فدل أن علته ليس الأكل، ولكن هى الفضل عن الكيل أو الوزن فى الجنس.

وفيه دليل جواز بيع الثمرة بالثمرتين لخروجه عن الكيل. وهكذا كل شيء خرج عن الكيل والوزن، لترك للناس مكاييله وموازنته، وإن كان كيليًا يجوز بيع واحد باثنين. والله أعلم.

وفيه دليل أن لا بأس بأن يؤدب الرجل اليتيم بما هو صلاح له. وذلك كما يؤدب ولده وأن يعلمه بما فيه الاعتقاد لمحاسن الأخلاق والتوسيع، كما أمر بالصلاة إذا بلغ سبعًا، والضرب عليها إذا بلغ عشراً اعتيادًا. ألا ترى أنه روى فى الخبر: «شر الناس الذى يأكل وحده ويشرب وحده». وفى المخالطة التخلق بالأخلاق الحسنة، وفى تركها التخلق بالأخلاق السيئة، والاعتقاد بعبادة السوء.

وقوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾، فيه دليل إضمار، وهو طلب الصلاح لهم: إما بالتولى لهم فى أموالهم والنظر لهم بما يعقب نفعًا لهم، وطلب التخلق بالأخلاق الحسنة والاعتقاد بالعبادة المحموده؛ فذلك (إصلاح) خير، بطلبكم الصلاح لهم، أو خير لهم بما يعود نفع ذلك إليهم. وإلا فظاهر الصلاح حسن لكل أحد، فلا وجه لتخصيصهم به؛ فدل أنه على طلب النفع والنظر لهم. والله أعلم.

[وقوله: ﴿وَأَن تَحْلُطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾]، فيه دليل الترغيب؛ كقوله: ﴿أَدْعُوهُمْ إِلَىٰ بَابِهِمْ وَهُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، رغبتهم عز وجل بما أخبر أنهم ﴿فَأِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾، بطلب الصلاح والنظر والنفع لهم، إذ

يستوجب بعضهم قبل بعض المعونة لهم والحفظ والصلاح، كقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. دل قوله: ﴿فَأَخَوُكُمْ فِي الَّذِينَ﴾، على أن الصغير قد يعق والديه في أمر الدين، ويجوز منهم التدين إذا عقلوه وإن لم يكونوا بلغوا. والله أعلم.

ثم أوعدهم عز وجل بقوله:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾.

أى - والله أعلم - يعلم طالب النفع والنظر لهم من طالب الفساد والإسراف فى أموالهم.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ﴾.

قيل^(١): يضيق عليكم، ولم يأذن لكم بالمخالطة معهم.

وقيل: لأعتكم، فلم يرض لكم فى الخلطة.

وقيل: لأخرجكم. وهو واحد.

وأصل العنت: الإثم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، يعنى: أثمتم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

فيه وعيد لهم على ما ذكرنا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

اختلف أهل التأويل فى تأويل هذه الآية:

فقال قائلون^(٢): الحظر على كل مشرك ومشركة - كتابيًا كان أو غير كتابي - ثم نسخ بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]. فالإماء على الحصر؛ لأنه إنما استثنى الحرائر دون الإماء بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥].

وقال آخرون: هو على المشركات خاصة دون الكتابيات، والكتابيات مستثنيات،

(١) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٤٢٠٧)، وانظر الدر المنثور (٤٥٧/١).

(٢) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٤٢١٥)، وعن عكرمة والحسن البصرى (٤٢١٦)، ومجاهد (٤٢١٧، ٤٢١٨)، والربيع (٤٢١٩)، وانظر الدر المنثور (٤٥٨/١).

فدخلت كل كتابية - حرة كانت أو أمة - [تحت الاستثناء]^(١)؛ لأن الاستثناء إذا كان عن جملة الأديان سوى دين الكتابيات لم يحتمل دخول بعض أهل ذلك الدين دون بعض، والذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا أَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾، فجعل الأمة المؤمنة خيراً بالنكاح من المشركة، ومن قوله إنه بالقدرة على طول الحرة الكافرة لا يباح له نكاح الأمة المؤمنة. فبان أن موقع الآية ليس على التناسخ على ما يقوله على أن الإمام يدخلن تحت قوله عز وجل: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾، دليله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْنَ يَصِفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]. فثبت أنهن قد يتعففن فيستوجبن اسم الإحصان، وقد جعل شرط الحل هو ذكر الإحصان. وقوله أيضاً: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَلْيَنكِحْكُمُ عَلَى الْإِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣]، وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، مستثناً الإمام من جملة المحصنات؛ دل أنهن دخلن في الخطاب. وقد أجمع على أنهن تحل لنا بالسبي، وكل مذكور في الكتاب يستوى الحل فيه إلا من جهة العدو. فإذا أبيح لنا تزويج المسيبات منهن كالحرائر، ثبت أنه محكوم بحكمهن في النكاح. فبطل قول من أبطل نكاح الإمام؛ إذ ثبت أن الآية بخلاف ما قال. وبالله التوفيق.

ثم الآية تضمنت أحكاماً:

منها: أن من قول أصحابنا - رحمهم الله تعالى أجمعين - : أن المناهى بحيث النهى لا توجب الحرمة.

والثاني: أن الآية كيف كان حملها على الخصوص في بعض أحق والعموم في بعض ومخرج الخطابين واحد.

والثالث: أن في الآية ذكر المنع، لعله وهى الدعوة إلى النار، فكيف لم يلزم حفظ ما لأجله وجب الحرمة على وجوده؟ وهذا هو الأصل: أن تحفظ الأحكام المعللة^(٢) بالعلل ما دامت توجد العلل.

والرابع: البيان في تولى النكاح؛ إذ للأولياء خرج الخطاب بقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾.

وأما قولنا في النهى: فإن النهى يوجب الانتهاء، ولكن لا يوجب الحرمة إلا بدليل يقوم على مراد الحرمة في النهى، لما رأينا من المناهى كثيرة لم توجب الحرمة، فلو كان

(١) سقط في أ.

(٢) في أ: المعلقة.

نفس النهى موجباً ذلك لوجب أن يوجب فى كل ذلك، فلما لم يوجب ذلك، دل أن نفسه لا توجب الحرمة، ولكن الدليل هو الموجب للحرمة.

وأما قولهم وسؤالهم عن الخصوص والعموم: فذلك جائز عندنا، خروج الآية على العموم يعقل بها الخصوص. وهو كثير فى القرآن مما لا يحتاج إلى ذكره وشرحه، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿لَيْنَ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ [المائدة: ١٢]، عقل إيجاب تعظيم الرسل [والأنبياء والإيمان لهم على العموم، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فى حق البعض دون البعض]^(١)، وكذا قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، فالتخلف غير موجود فى بعض الأحيان، وإن حق النهى عن الرغبة عن نفسه أخذ الجميع، فعلى ذلك هاهنا يجوز خروجه عاماً يخص بالعقول.

وأما قولهم: وجوب الحكم لعله، وهو الدعاء إلى النار، فله وجهان: أحدهما: أن الكتابى أقر بكتاب^(٢)، يقدر على إلزام الدين بالدعاء إليه، ففيه رجاء الإسلام، وغيرهم من أهل الشرك لا طمع [فيهم]^(٣) بمثله.

والثانى: أن علة الحظر قوله: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾، والزوجات لا يدعون أزواجهن إلى ذلك، بل الأزواج هم الأصل فى الدعاء، وهم الأمراء على الزوجات، والزوجات بين الأتباع للأزواج والمذلللات فى أيديهم؛ لذلك أبيع.

ثم الأصل: أن النكاح جعل لأمرين: إما لإبقاء النسل، وإما للتحصن والتعفف عن السفاح. ثم قد ينكح من لا نسل فيه، فما بقى إلا وجه المنع عن السفاح. ثم الدعاء إلى النار أعظم من السفاح، بهذا لم يبيح النكاح.

ثم الدلالة على تخصيصها على وجهين:

أحدهما: قول الخصوم بالنسخ: أنه ورد على بعض دون بعض، وما ذلك إلا الخصوص.

والثانى: أن ذكر ذلك فى الكتابيات لم يجر بحيث إظهار ما يحل وما يحرم، إذ شرط نكاحهن إنما هو عند العجز عن الحرائر، فجرى الذكر فيهن، إذ هن الأصل فى عقود النكاح، وأن الإماء دخيلات فى حق النكاح، وإنما جرى الذكر فى حلهن بملك اليمين؛

(١) بدل ما بين المعقوفين فى أ: والأنبياء الكل وبعضها للخاص.

(٢) فى ط: بالكتاب.

(٣) سقط فى ط.

لذلك ترك ذكرهن مع ما يجوز دخول الإماء في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥]؛ لما أوجب لهن العفة والتحصن بقوله: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ فَإِنْ أُتِيَ بِفَحْشَةٍ فَلَعْنَيْنِ يَصِفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، وبقوله: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَفَّحَاتٍ وَلَا مُنْخَذَاتٍ آخِذَاتٍ﴾ [النساء: ٢٥].

وأما قولهم: خاطب الأولياء في النهي بقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾، وخاطب الأولياء أيضًا في الأمر بإنكاح الأيامي بقوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِيَابِكُمْ﴾، فدل أن الولي شرط في جواز النكاح.

فجوابنا: أنه إنما خاطب الأولياء في النهي عن النكاح، وفي الأمر بالنكاح، لما العرف في الأمة ألا يتولى النساء [النكاح]^(١) بأنفسهن، بل الأولياء هم الذين يتولون عليهن النكاح برضايتهن وأمرهن وتديبرهن؛ لذلك خرج الخطاب للأولياء مع ما ليس في تخصيص [الأولياء]^(٢) بالخطاب دليل إخراج النساء عن ولاية النكاح. ألا ترى أنه ذكر في الآية (الصلاح) بقوله: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِيَابِكُمْ﴾، لم يصر ذلك شرطًا في الجواز، فعلى ذلك الأولى. وهذا يدل أيضًا على أن ليس في تخصيص المحصنات من الكتابيات حظر نكاح الإماء منهن.

والثاني: أن قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾، يحتمل أن يكون في الصغار خاصة، نهى الأولياء عن تزويج الصغار من المسلمين المشركات من غير الكتابيات. فإذا كان محتملاً ما ذكرنا، لم يكن لمخالفتنا الاحتجاج به علينا في إبطال نكاح المرأة نفسها دون وليها. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ﴾.

اختلف في تأويله:

قال قوم^(٣): هو في غير الكتابيات، يبين ذلك قوله: ﴿أَيَّامٌ لَّكُمْ لَكُمْ الطَّبِيبُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، فنسق الكتابيات بالإحلال على ما لم يختلف فيه أحوال الحل من أول الإسلام إلى الأبد ولا من قبل ذلك نحو الطبيات من الطعام - من طعام المؤمنين

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في ط.

(٣) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير عنه (٤٢٢٠، ٤٢٢١، ٤٢٢٢)، وعن سعيد بن جبير (٤٢٢٣)، وانظر

الدر المنثور (١/٤٥٨).

وأهل الكتاب ونحو المحصنات من المؤمنات، فمثله الكتابيات، إذ نَسَقَ^(١) نكاحهن على من ذكر. ولو كان التأويل هذا، كانت الآية نطقت بآلا تنكحوا المشركات غير الكتابيات؛ فلا يكون في الآية تحريم الإماء من أهل الكتاب، ولا النهي عن ذلك، وإنما يعرف إن كان يجوز أو لا، بدليل آخر سوى هذه الآية.

فإن قيل: على ذلك لِمَ لا كانت آية الإحلال في التخصيص بذكر المحصنات دليلاً على حرمة نكاح الإماء؟

قيل: يكون الجواب لأوجه:

أحدها: أن ذكر الحل في حال لا يدل على الحرمة في غيرها. كذلك ذكر الحل في صنف لا يدل على حرمة في غيره. ولو كان ذا يدل، لكان يجيء أن يكون حكم ما لا يرد فيه السمع مخالفاً لما يرد فيه. وذلك فاسد؛ إذ السمع هو دليل الحكم فيما لا سمع فيه بالمعنى الذى ضمن فيه. والله أعلم. وأيد ذلك قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥]، ثم هن يحللن وإن لم يؤتين أجورهن؛ فمثله الأول.

والثاني: أنه منسوق^(٢) على مثله في المؤمنات. ثم لم يكن ذلك في المؤمنات على تحريم الإماء؛ فمثله في الكتابيات.

فإن قيل: لما بين في إماء المؤمنات؟

قيل لهم: لم يزعم أحد أن ذلك على نسخ هذه الآية؛ فثبت أنه ليس في الذكر في المحصنات تحريم الغير؛ فكذلك في المنسوق على ذلك مع ما لو كان في مثل هذا الاستدلال على الحرمة، لكان في قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾؛ إذ وقع على غير الكتابيات - دليل على الإحلال، فيكون ذكر الحرمة في نوع دليل الحل في غيره على مثل ذكر الحل في نوع. وفي ذلك تناقض الأدلة. والله أعلم.

ووجه آخر: أن ﴿وَالْمُحْصَنَاتِ﴾، يحتمل أن يريد به العفاف، وأهل الصلاح، والإماء قد يستحققن هذا الاسم، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ فَإِنَّ أُتِيَ بِفَجَشَةٍ﴾، وقوله: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُنْجَذَاتٍ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥] وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ﴾ [النساء: ٢٤] وإذا استحققن الاسم فهن في الآية حتى يظهر الإخراج. والله

(١) في ط: يسبق.

(٢) في ط: مسوق.

أعلم.

وبعد، فإننا نقول: أكثر ما فى ذلك أن يكون فى ذلك النهى عن تزوج الإمام من أهل الكتاب، فإن النهى فى ذلك لا يدل على الحرمة؛ لأنه معلوم المعنى الذى له يقع النهى عن نكاح الإمام - أنه لمكان رق الأولاد، ولمكان مخالطة الإمام الرجال وخلوتهن بالموالى - وذلك مما ينفر عنه الطباع، ثم كان^(١) النساء الزانيات جميع ذلك فيهن موجود، والنهى قائم، وقد يلحق أولادهن أعظم الشين^(٢) الذى يضعف على الرق، ثم لم يمنع النهى جواز نكاحهن بما هو نهى نفار الطباع، لا معنى فى ذلك له بكون الحرمة؛ فمثله أمر الإمام. والله الموفق.

ثم دليل حلهن: أن كل امرأة حرمت لنفسها، فسواء وجه الحل بها فى ملك اليمين والنكاح، وكل امرأة كانت حرمتها بالحق فيختلف فيها المكان، فإذا كانت هذه محللة بملك اليمين ثبت أنها لم تحرم لنفسها، فهى تحل بالنكاح كما تحل بملك اليمين. على هذا الأصل أمر المجوسيات والمحارم ونحوها. والله أعلم.

وقال قوم^(٣): الآية فى جميع المشركات والكتابات، ثم نسخت الكتابات بالآية التى فى سورة المائدة، وكان النسخ بشرط الإحصان، فبقيت الإمام على الحرمة. دليل ذلك وجهان:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾، أنه يدخل فى ذلك الكتابى وغيره؛ فكذا فى الأول.

والثانى: قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ...﴾ الآية.

[والثالث]^(٤): أن الكتابى مشرك فى الحقيقة، إذ هو بما لا يغفر له، والكتابى فى الدعاء إليها وغيره سواء؛ فلذلك كان على ما ذكرت.

فنحن نقول فى ذلك - وبالله التوفيق - : ليس فيما ذكر دليل على ما ادعى؛ لأنه جائز خروج آية واحدة فى أمرين يختلف موقعهما من الخصوص والعموم بالدليل [نحو قوله]^(٥): ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا

(١) فى ط: كانت.

(٢) فى أ: الشىء.

(٣) تقدم.

(٤) سقط فى ط.

(٥) سقط فى أ، ط.

يَأْتِيهِمْ عَنْ نَفْسِهِ... ﴿الآية [التوبة: ١٢٠]﴾، أنه قد يجوز التخلف عنه لعذر، ولا يجوز الرغبة عنه بحال، وقال في قوله: ﴿لَيْنَ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ ﴿الآية [المائدة: ١٢]﴾، أن ليس كل ذلك مما يقتضى عموم الخلق وإن كان الظاهر فى الكل بالمخرج واحد، ثم ما ذكرت من الآية دليل الفصل.

والثانى: أنه يجوز أن تكون الآية فى غير أهل الكتاب. دليل ذلك الأمر بالمعروف من التفرقة فى التسمية، وإن كانوا فى الشرك مجتمعين؛ قال الله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ يَكُونُوا مُلَكًا كَرِيمًا﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [البينة: ٦]، وغير ذلك مما قد فصل^(١) الله بينهم فى النسبة وإن كانوا فى حقيقة الشرك مجتمعين، فجائز أن تكون الآية على ذلك، ثم حرم تزويج المسلمات من أهل الكتاب لا بهذه الآية، لكن بغيرها من الأدلة. ألا ترى أنا لا نترك ممالك أهل الإسلام تحت أيديهم لا بهذه الآية؟! فمثله أمر الإنكاح. والله أعلم.

ثم فى الآية دليل ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا أَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ حَرِيرٌ مِنْ مُشْرِكٍ...﴾ ﴿الآية﴾، وكل يجمع ألا يحل نكاح الأمة المؤمنة على الحرة الكتابية، فلو كانت هى مرادة فى هذه الآية لكان نكاح من هو خير منها فى النكاح لا يحرم عليه، حتى إن الذى يقول بهذا التأويل يحرم لطول الكتابية فضلا عن نكاحها. ولا قوة إلا بالله. وقوله: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾، دليل أن الإماء غير داخلات فى الخطاب؛ لأنهن لا يدعون بل الغالب عليهن أن يتبعن ويحببن لمن هن تحتهم فيما دعين إليه، لا أن يدعون. هذا الأمر المتعارف. والله أعلم.

ثم نقول: جعل كأن الآية نزلت فى الكتابيات، فقال: «ولاتنكحوا الكتابيات»، فإن الكتاب فى جميع ما جرى به الذكر فى حقوق النكاح والطلاق والأحكام تضمن خطاب الأحرار، خاصة فيما أبهم، وعرف أمر الحرمة فى الإماء والعبيد بالأدلة العقلية مما دلت عليه أحكام السمع؛ فكذا هذا. والله الموفق.

وقوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾، محمول على التحريم باتفاق الأمة وإن احتمل ما هو بهذا المخرج على غير التحريم، على أن الله تعالى قد بين بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ

الْمُؤْمِنَاتِ مَهْجَرَاتٍ فَامْتَحَنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ ﴿١٠﴾ [الممتحنة: ١٠]، أن النكاح قد انفسخ حيث أباح لغير الأزواج التزوج. وفى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، أنه الاستمتاع بذوات الأزواج إذا سبين، وقال: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا عِصْمَ الْكُوفَرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، ذكر جملة النساء ونهى الرجل^(١) عن التمسك بعصمتهن. واسم الشرك اسم لفريق بالإطلاق، واسم الكفر للجملة، على ما قال: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢] الآية، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ...﴾ الآية [البينة: ٦]، وغير ذلك مما جمع فى اسم الكفر وعرف^(٢) بأسماء المذاهب، وجعل اسم (الشرك) فى التفريق^(٣). فدلّت هذه الآيات على الحرمة فى قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا...﴾ الآية، ويدل قوله فى آخر الآية: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ على ذلك، ومعلوم أن أول دعائهم إلى النكاح، فصير ذلك سبباً للنار، وما يوجبها حرام.

ثم فيها دلالة عموم الآية فى الذكور؛ لأنه فى تعارف الخلق: أن الرجال هم الذين يدعون، لا النساء، والنساء تتبعهم. وذلك المعنى فى رجال أهل الكتاب وغيرهم سواء، فتكون الحرمة فيهم سواء. وعلى ذلك المروى من الخبر: أن رجلاً أسلم وتحتة ثمانى نسوة وأختان ونحو ذلك فأسلمن. دل أنهن يتبعن الرجال، لا أنهن يدعون إلى ما يخترن من الدين. والله أعلم.

ثم الدليل على أن النهى أيضاً نهى تحريم فى قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾، أنه لولا خبث فيهن فى الحقيقة يوجب حرمة الاستمتاع لكان لا ينهى عن التناكح، وذلك من أبلغ أسباب دعوتهن إلى الإسلام بما ذكرت من الفرق فى طاعتهن الأزواج فيما يختارون من الدين فى المتعارف بمن رويت فيهن الخبر، وخاصة ذلك فى الشركات أحق فى الحل منه فى الكتابيات؛ إذ هن إنما أخذن دينهن عن آبائهن بالاعتقاد والتقليد، ومعلوم اعتيادهن ما فيه رضا الأزواج وإيثار ذلك على ما فيه رضا الآباء حتى يؤثرنهم عليهم بما جعل الله بينهم مودة ورحمة. والكتابيات أخذن دينهن بما علمن أنه دين الرسل وأنهن أمرن بالتمسك به. فإذا نهوا عن نكاح المشركات وأبيحوا نكاح الكتابيات -

(١) فى ط: الرسل.

(٢) فى أ: وفرق.

(٣) فى ط: الطريق.

والإسلام فيهن بالنكاح أرجى - ثبت أن ذلك كان لخبث نهوا، وقد حرم الله الخبائث. والله أعلم.

ثم الله - سبحانه وتعالى - أخبر أنه حرم الخبائث وأحل الطيبات، فلولاً أن فيما حرم خبثاً، يحتمل الوقوف عليه، وفيما أحل طيباً لسوى الحرمة والحل^(١) له - كان كذلك لم يحتمل التسمية فى وصف التحريم والتحليل هو لا غير. وهذا كما وصف المؤمن بالحياة والسمع والبصر، والكافر بضد ذلك بما فى كل معنى ذلك، لا أنه اسم لقب دون أن يكون له حقيقة له يسمى. فمثله الذى ذكرت.

ثم كان (الخبث) يكون من وجهين:

من خبث الأحوال، ومن خبث الأفعال، وله سمي الكفر (رجساً)، وكذا الخمر والميسر، وذلك كله بخبث الأفعال. وعلى ذلك يجوز أن يكون تحريم تزويج المسلمات المشركين لخبث الفعل: وهو خوف وقوع الكفر؛ إذ من يتبعن الرجال فيما يؤثرون من الأفعال ويقلدونهم الدين، فيكون التحريم لهذا الخوف؛ إذ هو الوجه الذى عليه جرى حرمان النكاح من ذلك نحو نكاح ما كثر عدد من بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْبَاقِ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنً وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ﴾ [النساء: ٣]، فممنع عن الخمس، وأكثر الخوف وقوع الجور الذى هو فى العقل خبيث، ونكاح الأمة بعد الحرية؛ إذ الطبع ينفر عن مناكحة من يخالط الرجال ويخلو بهم، لا يؤمن عليه السفاح، فما يؤثر مثلها عند الغناء بالحرية عندها إلا لأمر حدث بينهما مما يبعث ذلك على الجور، فنهوا عن ذلك. وكذلك نكاح المحارم بما قد يجرى من الأمور فى النكاح مما يحمل على تضييع الحدود وأنواع الشوز الذى يمنع ذلك القيام بحق النسب وصلته، فيكون فى ذلك تضييع الفرض. وكذلك محارم المرأة، وعلى هذا يجب تحريم المسلمة على الكتابى وغيره لخوف وقوع فعل الخبث بينهما، وهو الكفر. ولم يقع النهى عن نكاح الزانية والزانى على ذلك؛ لأنه ليس فى الطباع احتمال اتباع أحدهما الآخر فى ذلك الوجه بل ينفر عن ذلك أشد النفار، فلا يخاف فيه هذا، فهو على الأدب بما يلحق الولد الطعن وصاحبه يشتم به، لا أن يلحقه وصفه موافقة ما ثم إلا لمكان الآخر يكون النهى نهى تحريم، بل كان على الإرشاد بما يلحق من الطعن دون ما أن يحدث من تعدى حد أو جور فى الفعل. وعلى ذلك أمر نكاح الأمة. والله أعلم.

ثم وجه التفصيل بين الكتابية والمشرقة - والله أعلم - فى إباحة التناكح: أن المشرقة

(١) فى ب: واحلل.

آثرت فعل البهيمى فى الدين على فعل البشرى، والكتابية آثرت فعل البشرى، وهو ما يدعو إليه العقل لا الطباع؛ لأنهم يرجعون فى الاختيار إلى الإيمان بالرسول لكن أنهى إليهم أنهم نهوا عن الإيمان بمن يدعوهم إليه، فاعتقدن على ذلك بالآثار عندهن من الحجج، كما اعتقدنا نحن بأن لا نبى بعد نبينا محمد ﷺ، لكن خبرنا صحيح وخبرهم فاسد. وإلا فوجه الاعتقاد على ما فى العقل ذلك. وأما المشركة لم تختار ذلك بحجة أنما كان لوجود الآباء على ذلك من غير الإنهاء إلى من فى العقل اتباعه؛ كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ ۖ...﴾ الآية [الزخرف: ٢٢]، فحرم علينا نكاحها لخبث اختيارها^(١) واتباع فعل البهيمى، وإيثاره على فعل البشرى. والله أعلم.

وعلى ذلك لو أسلمت لم يعظم درجة إسلامها، لولا أنا نرجو من رحمة الله أن الله - إذا قبلت هى الإسلام - بالاختيار لينير قلبها حتى ينشرح صدرها للحق لكان لا يكون لإسلامها فضل حمد^(٢). والله الموفق.

ووجه آخر: أن الكتابية لما آمنت بكتب الأنبياء، عليهم الصلوات والسلام، فى الجملة، فقد آمنت بذلك بالرسول جميعاً، لكنها كذبت [- من كذبت -]^(٣) لما وقع الخبر عندها بخلاف الحقيقة، فأمكن أن تنبه عن حقيقة ذلك بالكتاب الذى آمنت به؛ ليكون إيمانها فى الحقيقة إيماناً بمن كذبت بما ظنت أن فى ذلك الكتاب تصديقاً. والمشركة احتيج فيها إلى ابتداء الإلزام، لا أن كان معها ما به اللزوم مما قد وجد إيمانها به. والله أعلم. وعلى هذا لا يسلم للمرتد حق الكتاب إذا اختاره؛ لأننا نعلم أنه يظهر ذلك؛ لا أنه فى الحقيقة مختار؛ إذ كتابنا مصدق كتابهم، فلم يجوز أن تظهر له بما به التصديق التكذيب ليرجع إلى رد هذا بقبول الآخر. فلذلك لم تحل ذبائهم. والله أعلم.

ودليل النهى عن النكاح والإنكاح حتى يكون الإيمان، [أن الإيمان]^(٤) معروف عندهم، يعلمون به حقيقة الشرط. والله أعلم.

ومخاطبات الأولياء فى قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾، يخرج على الأمر المعروف من التولى، أو على الوقت الذى إليهم حق التولية، أو على أن الحق لهن عليهم فى التزويج إذا أردن، فهوا عن ذلك؛ ليعلم أن لا حق يجب لهم فى ذلك. والله أعلم^(٥).

(١) فى أ، ط: اختيار.

(٢) فى ب: جهد.

(٣) سقط فى أ.

(٤) سقط فى أ.

(٥) فى أ: والله الموفق.

وقوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ ، يحتمل وجهين:

أحدهما: الخبر عما يدعو بعضهم بعضاً إلى عبادة غير الله، وذلك دعاء إلى النار، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، بما يوجب الفعل الذى دعوا إليه ذلك فكأنما دعوا إلى ذلك، إذ هو المقصود من الثانى. وعلى ذلك تسمية الجزاء باسم العمل الذى له الجزاء. والله أعلم.

ويحتمل: ﴿يَدْعُونَ﴾ فى التناكح للهو واستكثار الأتباع فى معاداة الله تعالى ومعاداة أوليائه بالتناكح، والله يدعو الى التعفف واستكثار الأتباع على ما ينال به مغفرته ورحمته. والله أعلم.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾، يعنى: يدعون إلى العمل الذى يستوجب به النار. ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾، يعنى يدعو إلى العمل الذى يوجب لهم الجنة والمغفرة والله أعلم، وقوله: ﴿وَيَسِّرْ لَنَا سُبُلَهُمْ لِنَسْأَلَ الْغَفْلَةَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَلُّوا نَكَاحَ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَظْهَرْنَ فَإِذَا تَظْهَرْنَ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ (٢٢٢) يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ.

وقوله: ﴿وَسَلُّوا نَكَاحَ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَظْهَرْنَ فَإِذَا تَظْهَرْنَ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾.

دل جوابه على أن السؤال كان عن قربان النساء فى الحيض^(١)، أو كان عن موضع

(١) الحيض لغةً مصدر حاض، يقال: حاض السيل، إذا فاض، وحاضت السمرة: إذا سال صمغها، وحاضت المرأة: سال دمها. والمرءة خيضة، والجمع: حيض، والقياس: خيضات. والحياض: دم الحيضة. والحيضة بالكسر: الاسم، وخرقة الحيض، هى الخرقة التى تستنفر بها المرأة. وكذلك المحيضة، والجمع: المحايض. وفى حديث بثر بضاعة: «تُلْقَى فِيهَا الْمَحَايِضُ». والمرأة: حائض؛ لأنه وصف خاص. وجاء (حائضة) أيضاً: بناء له على حاضت، وجمع الحائض: حَيِّضٌ وحوائض، وجمع الحائضة: حائضات. وتحيضت المرأة: قعدت عن الصلاة أيام حيضها.

وللحيض فى الاصطلاح تعريفات كثيرة، وهى متقاربة فى الغالب: فقد عرفه صاحب «الكنز» من الحنفية بقوله: هو دم ينفضه رحم امرأة سليمة عن داء وصغر. وقال ابن عرفة من المالكية: الحيض: دم يلقيه رحمٌ معتادٌ حَمْلُهَا دون ولادة. وعرفه الشافعية بأنه: دم جِلَّةٌ يخرج من أقصى رحم المرأة بعد بلوغها على سبيل الصحة من غير سبب فى أوقات معلومة. وعرفه الحنابلة بأنه: دم طبيعة يخرج مع الصحة من غير سبب ولادة من قعر الرحم يعتاد أنشئ إذا بلغت فى أوقات معلومة. وللحيض أسماء منها: الطمث، والعراك، والنفاس.

الحيض. فأخبر - عز وجل - أنه ﴿أَذَى﴾. والعرب تفعل ذلك - ربما أن تفهم من الجواب مراد السؤال، وربما تبين المراد فى السؤال - وإذا جاز أن يتبع غير وقت الأذى وقت الأذى بالاتصال [ومن بعد انقطاع الدم قبل أن تغتسل يجوز أن تتبع غير مكان الأذى مكان الأذى بالاتصال]^(١)، والله أعلم، ولا يحتمل أن يكون الأمر بالاعتزال يقع على اعتزال الأبدان والأشخاص بالاتفاق؛ إذ كل يجمع أن له أن يمسه باليد وأن يقبلها وغير ذلك، إلا أنهم اختلفوا فى موضع الاستمتاع:

قال أبو حنيفة - رضى الله تعالى عنه -: يستمتع بها ما فوق السرة وما تحت الركبة، ويجتنب غير ذلك^(٢).

وقال محمد - رضى الله تعالى عنه -: يجتنب شعار الدم، على ما جاء عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، أنها قالت: «يتقى شعار الدم، وله ما سوى ذلك». ثم دل هذا

= ينظر: لسان العرب والقاموس المحيط (حيض)، حاشية ابن عابدين (١/١٨٨)، حاشية الدسوقي (١/١٦٨)، معنى المحتاج (١/١٠٨).

(١) سقط فى ط.

(٢) اتفق الفقهاء على حرمة وطء الحائض فى الفرج؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْزِلُوا نِسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾. ولقول النبي ﷺ: «اصنعوا كل شئ إلا النكاح»، وحكى النووى الإجماع على ذلك، واستثنى الحنابلة من به شُبِّحَ لا تندفع شهوته بدون الوطء فى الفرج، ويخاف تشقق أنثيه إن لم يطأ، ولا يجد غير الحائض، ألا يقدر على مهر امرأة أخرى. واختلف الفقهاء فى الاستمتاع بما بين السرة والركبة؛ فذهب جمهور الفقهاء - الحنفية والمالكية والشافعية - إلى حرمة الاستمتاع بما بين السرة والركبة، لحديث عائشة - رضى الله عنها - قالت: «كانت إحدانا إذا كانت حائضاً فأراد رسول الله ﷺ أن يباشرها أمرها أن تنزّر ثم يباشرها. قالت: وأيكم يملك إربه كما كان رسول الله ﷺ يملك إربه؟!»، وعن ميمونة - رضى الله عنها - نحوه، وفى رواية: «كان يباشر المرأة من نساءه وهى حائض إذا كان عليها إزار»، ولأن ما بين السرة والركبة حريم للفرج، ومن يرعى حول الحمى يوشك أن يخالف الحمى. وقد أجاز الحنفية والشافعية الاستمتاع بما بين السرة والركبة، من وراء حائل. ومنعه المالكية. كما منع الحنفية النظر إلى ما تحت الإزار، وصرح المالكية والشافعية بجوازه ولو بشهوة. ونص الحنفية على عدم جواز الاستمتاع بالركبة، لاستدلالهم بقوله ﷺ: «ما دون الإزار»، ومحلّه العورة التى يدخل فيها الركبة. وأجاز المالكية والشافعية الاستمتاع بالسرة والركبة. وقد ذكر الحنفية والشافعية حكم مباشرة الحائض لزوجها، وقرروا أنه يحرم عليها مباشرتها له بشئ مما بين سرتها وركبتها فى جميع بدنه. وذهب الحنابلة إلى جواز الاستمتاع من الحائض بما دون الفرج، فله أن يستمتع بما بين السرة والركبة، وهذا من مفردات المذهب. ويستحب له حينئذ ستر الفرج عند المباشرة، ولا يجب على الصحيح من المذهب، قال فى (النكت): وظاهر كلام إمامنا وأصحابنا: أنه لا فرق بين أن يأمن على نفسه موقعة المحظور أو يخاف، وصوب المرداوى أنه إذا لم يأمن على نفسه من ذلك حرم عليه؛ لئلا يكون طريقاً إلى موقعة المحظور. ينظر: حاشية ابن عابدين (١/١٩٥)، حاشية الدسوقي (١/١٧٣)، معنى المحتاج (١/١١٠)، المجموع (٢/٣٦٨).

الخبر على أن النهي في الموضع الذي فيه الأذى. دليله: أول الآية: ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾. وحجة أبي حنيفة، رضى الله تعالى عنه، ما روى أنه قال: لها ما تحت السرة، وله ما فوقها، وما روى أن أزواج الرسول ﷺ إذا حضن أمرهن أن يتزرن ثم يضاجعهن^(١).

وأما محمد، رحمه الله تعالى، فإنه ذهب إلى ما ذكرنا: أنه ينهى عن قربان ذلك الموضع للأذى، وأما الموضع الذى لا أذى فيه فلا بأس. ويجوز أن ينهى عن قربان هذه الأعضاء من نحو الفخذ وغيرها؛ لاتصالها بالموضع الذى فيه الأذى.

ويحتمل أن يكون ذكر الإزار كناية عن الموضع الذى فيه الأذى؛ وعلى ذلك روى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، أنها سئلت: عما يحل للرجل من امرأته وهى حائض؟ فقالت: «يحل له كل شيء إلا النكاح»^(٢). وسئلت: عما يحل للمحرم من امرأته؟ فقالت: لا يحل له شيء إلا الكلام.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ أى: لا تجامعهن.

﴿حَتَّى يَظْهَرْنَ﴾ فيه لغتان:

فى حرف بعضهم ﴿يَظْهَرْنَ﴾ بضم الهاء وتخفيفها^(٣)، وفى حرف آخرين بتشديد الهاء وفتحها:

فمن قرأ بالتخفيف فهو عبارة عن انقطاع الدم، ومن قرأ بالتشديد فإنه عبارة عن حل قربانها بعد الاغتسال.

ثم من قول أصحابنا - رحمهم الله تعالى - : إن المرأة إذا كانت أيامها عشرا تحل لزوجها أن يقربها قبل أن تغتسل^(٤)، وإذا كانت أيامها دون العشر لم يحل له أن يقربها إلا

(١) فى الباب عن عائشة وميمونة.

حديث عائشة:

أخرجه البخارى (٥٣٦/١) كتاب الحيض، باب مباشرة الحائض (٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢)، ومسلم (٢٤٢/١)، كتاب الحيض، باب مباشرة الحائض (٢٩٣/١).

حديث ميمونة:

أخرجه البخارى (٣٠٣)، ومسلم (٢٩٤/٣) فى الكتاب والباب السابق.

(٢) أخرجه ابن جرير من (٤٢٤٥) إلى (٤٢٥١)، وانظر الدر المنثور (٤٦٣/١).

(٣) ينظر: اللباب (٧٤/٤)، وشرح الطيبة (٩٩/٤)، والعنوان (٧٤)، وإتحاف الفضلاء (٤٣٨/١).

(٤) ذهب جمهور الفقهاء - المالكية والشافعية والحنابلة - إلى أنه لا يحل وطء الحائض حتى تطهر - بانقطاع الدم - وتغتسل. فلا يباح وطؤها قبل الغسل، قالوا: لأن الله تعالى شرط لحل الوطء شرطين: انقطاع الدم، والغسل، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَظْهَرْنَ﴾ أى: ينقطع دمهن ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أى: اغتسلن بالماء ﴿فَأَوْفُرْنَ﴾. وقد صرح المالكية بأنه لا يكفى التيمم لعذر بعد انقطاع الدم فى حل الوطء؛ فلا بد من الغسل حتى يحل وطؤها. وفرق الحنفية بين أن ينقطع الدم لأكثر مدة

بعد الاغتسال .

ويحتمل: أن تكون الآية فيما كانت أيامها دون العشر في اللغتين؛ إذ الغالب كان على أن الحيض لا يحيط بكل وقت، على ما روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لحمنة بنت جحش: «تَحِيْضِي فِي عِلْمِ اللَّهِ مِنَ الشَّهْرِ سِتًّا أَوْ سَبْعًا»^(١). فعلى ذلك أنه إنما يحل قربانها بالاغتسال .

قال الشيخ - رحمه الله تعالى - في قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾: إنه على ما دون العشر من المدة [بما]^(٢) الغالب كان على ألا يمتد إلى أكثر الوقت ولا يقصر عن الأقل، على ما روى عن رسول الله ﷺ، أنه قال في النساء: «هن ناقصات عقل ودين»^(٣). ووصف نقصان دينهن: أن تحيض إحداهن في الشهر ستًا أو سبْعًا، ووصفهن جملة بنقصان دينهن، ثم ذكر ما بين في التفسير عن الجملة، ثبت أن ذلك كان الغالب في الجملة حتى خرج عليه الجواب أنه لا يمتد إلى الأكثر ولا يقصر^(٤) عن الأقل. والله أعلم.

وأيد هذا ما أخبر عن ابتداء الآية أنه الأذى، وأمر بالاعتزال، ثم جعل لها بعد الانقطاع قبل الاغتسال حكم الأذى؛ فلم يجز أن يجعل الحكم لما ليس بحقيقة حكم الأذى، فيجعل للطهر الذي هو ضده ذلك الحكم، والله أعلم، وبما [أنه] ليس لذلك حكم الأذى

= الحيض وبين أن ينقطع لأقله، وكذا بين أن ينقطع لتمام عاداتها وبين أن ينقطع قبل عاداتها: فذهبوا إلى أنه إذا انقطع الدم على أكثر المدة في الحيض ولو حكما بأن زاد على أكثر المدة، فإنه يجوز وطؤها بدون غسل، لكن يستحب تأخير الوطء لما بعد الغسل. وإن انقطع دمها قبل أكثر مدة الحيض أو لتمام العادة في المعتادة بأن لم ينقص عن العادة، فإنه لا يجوز وطؤها حتى تغتسل أو تيمم، أو أن تصير الصلاة ذئنا في ذمتها، وذلك بأن يبقى من الوقت بعد الانقطاع مقدار الغسل والتَّخْرِيمَةُ فإنه يحكم بطهارتها بمضى ذلك الوقت، ولزوجها وطؤها بعده ولو قبل الغسل. وإذا انقطع الدم قبل العادة وفوق الثلاث، فإنه لا يجوز وطؤها حتى تمضي عاداتها وإن اغتسلت؛ لأن العود في العادة غالب، فكان الاحتياط في الاجتناب، فلو كان حيضها المعتاد لها عشرة فحاضت ثلاثة وطهرت ستة لا يحل وطؤها ما لم تمض العادة.

ينظر: حاشية ابن عابدين (١/١٩٥)، حاشية الدسوقي (١/١٧٣)، مغنى المحتاج (١/١١٠)، المجموع (٢/٣٦٨)، كشاف القناع (١/١٩٩).

(١) أخرجه أبو داود (١/٧٦ - ٧٧) كتاب الطهارة، باب من قال إذا أقبلت الحيضة تدع الصلاة (٢٨٧)، والترمذي (١/٢٢١ - ٢٢٢) كتاب الطهارة، باب المستحاضة تجمع بين الصلاتين بغسل واحد (١٢٨)، وابن ماجه (١/٢٠٣) كتاب الطهارة باب ما جاء في المستحاضة التي قد عدت أيام أقرانها (٦٢٢).

(٢) سقط في أ، ط.

(٣) أخرجه البخاري (١/٥٣٩) كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم (٣٠٤)، ومسلم (١/٨٧)، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات (٨٠) عن أبي سعيد الخدري.

(٤) في أ: يقتصر.

فى العشر إن كان الوقت يضيق عنه فى رفع الصلاة، فكذا فى أمر القربان. والله أعلم.
وعلى ما ذكرت من العرف ينصرف أمر الوقت: أنها لو أخرت الاغتسال عن وقت الصلاة فإن^(١) للزوج أن يقربها بما لزمها من قضاء الصلاة، وهذا النوع من الأذى لا يمنع لزوم القضاء. وحصل الخطاب على الوقت بالعرف أنهم لا يتأخرون، وبما ذكرت عن لزوم القضاء الذى يمنعه حكم الأذى، وبذلك صار غسل الحيض كغسل غيره من الأحداث، وهو لا يمنع القربان. والله أعلم.

وحرم إتيان الأدبار^(٢)، بما عليه اتفاق الآثار، وبما خص المكان بالأمر بالقربان، وبما أمر بالاعتزال للحيض، ولو كان يحل غشيانهن فى الأدبار لم يكن للأمر بالاعتزال معنى؛ إذ قد بقى أحد الموضعين من المقصود بالغشيان لو احتمل. والله أعلم.

والأصل فى ذلك: أن الحل فى الابتداء لم يتعلق بقضاء الشهوات، ولا كان هذا لها، وإنما القضاء للشهوات خاصة الجنة، فأما الدنيا فإنما جعلت لقضاء الحاجات؛ إذ بها يكون بقاء النسل والأبدان، وبها يكون قوام الأبدان ودوام الحياة إلى انقضاء الأعمار، وركبت فيهم الشهوات لتبعثهم على قضاء تلك الحاجات؛ إذ لولا الشهوات لكان كل أمر من ذلك على الطباع يكون كالأدوية الكريهة والمحنة الشديدة، فخلق الله تعالى فيهم الشهوات ليدوم ما به جرى تدبيره فى أمر العالم، ولا تتعلق الحاجات بإتيان الأدبار. ولو أحلت لكان الحل لحق الشهوة خاصة، والدنيا لم تخلق لها؛ فلذلك لم تجعل بها حل مع ما لو كان يحتمل ذلك لاحتمل التناكح فى نوع؛ فإذا لم يحتمل بان أن ذلك إنما جعل للنسل. والله الموفق.

وقال بشر: إذ حرم الغشيان للحيض بما هو أذى، وهو يكون على ما يتقذر، فالذى مجراه الدبر والذى منه يخرج من الأذى أوحش وأخبث، وذلك قائم فى كل الأوقات، كقيام الحيض فى أوقاته، فالحرمة لذلك أشد، ذكر بوجه، أمكن أن يبسط ما قال على الذى وصفته. والله أعلم.

وقوله: ﴿فَأَوْهَبَ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمْ اللَّهُ﴾.

قيل فيه بوجه:

(١) فى أ: كان.

(٢) اتفق الفقهاء على تحريم الإتيان فى دبر الرجال، وهو ما يسمى بالواط، وقد ذمه الله تعالى فى كتابه المجيد، وعاب من فعله، فقال: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَفَعَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. وقال النبى ﷺ: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط» ثلاثا.

قيل^(١): معنى قوله: ﴿مَنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾: لا تأتوهن صائمات، ولا معتكفات، ولا مصليات.

ويحتمل: لا تأتوهن حِيضًا، ولكن ﴿فَأَتُوهُنَّ﴾ طهرا.

وقيل^(٢): ﴿فَأَتُوهُنَّ﴾ فى الموضع الذى أباح لكم إتيانها، وهو القبل، ولا تأتوهن فى أدبارهن.

ويشبه - إذ «حيث» يعبر به عن المكان - أن يكون ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أن تبتغوا الولد، بقوله: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ من الذنوب.

﴿وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾.

من الأحداث والأذى.

والثانى: ممن فعل هذا قبل النزول ﴿الْمُطَهِّرِينَ﴾ أنفسهم بالتكفير، والتواب هو الرجاء عما ارتكب، والتارك عن العود إلى ذلك، غير مصر على الذنب.

ويحتمل: التواب: الذى لا يرتكب الذنب.

وقوله: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ﴾.

الحَرْث: هو الزرع. وفيه دليل النهى عن الاعتزال عنها؛ لأن الزرع إذا ترك سُدى فيضيع ويخرب.

وفيه دليل أن الإباحة فى إتيان النساء طلب التناسل والتوالد، لا قضاء الشهوة؛ لأنه سُمى ذلك حرثًا، والحرث ما يحْرث فيتولد من ذلك الولد.

وفيه دليل أن الإتيان فى غير موضع الحرث يحرم منهن، وعلى ذلك جاءت الآثار أنها سميت اللوطية الصغرى^(٣)، ما جاء أنه نهى عن إتيان النساء فى محاشهن، يعنى: فى أدبارهن^(٤)، وفى بعض الأخبار: إتيان النساء فى أدبارهن كفر^(٥).

(١) قاله البغوى فى تفسيره (١٩٧/١).

(٢) قاله ابن عباس أخرجه ابن جرير عنه (٤٢٧٩، ٤٢٨٠، ٤٢٨٢)، وعن عكرمة (٤٢٨١)، ومجاهد (٤٢٨٣، ٤٢٨٤، ٤٢٨٥، ٤٢٨٦)، وغيرهم، وانظر الدر المنثور (٤٦٦/١).

(٣) فى الباب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أخرجه أحمد (١٨٢/٢، ٢١٠)، والنسائى فى الكبرى (٣٢٠/٥).

(٤) فى الباب عن جابر بن عبد الله:

أخرجه الحسن بن عرفة فى جزئه وابن عدى والدارقطنى عنه كما فى الدر المنثور (٤٧١/١)، وروى عن ابن مسعود مرفوعا وموقوفا، والموقوف أصح قاله ابن كثير نقله السيوطى فى الدر (٤٧٣/١).

(٥) فى الباب عن أبى هريرة مرفوعا وموقوفا.

وقوله: ﴿فَأْتُوا حَرَكَكُمْ أَلَّا شَيْئًا﴾.

يعنى: على أى جهة شئتم بعد أن يكون ذلك فى المزروع، ولا بأس بالاعتزال عنها إذا أذنت؛ لما ذكرنا أن الأمر بذلك أمر بطلب النسل، لا قضاء الشهوة. فإذا كان كذلك فلها ألا تتحمل مشقة تربية الولد، وأما الزوج فإنما عليه المؤنة، وذلك مما ضمن الله لكل ذى روح بقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]؛ لذلك نهى هو عن الاعتزال^(١) دون إذنهما، ولم تنه هى عن الإذن عن ذلك. والله أعلم.

= فأما المرفوع فأخرجه ابن عدى، وأما الموقوف: فأخرجه عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والنسائى والبيهقى كما فى الدر المنثور (١/٤٧٢)، والموقوف أصح قاله ابن كثير. (١) العزل عن الزوجة والأمة: هو أن يجامع الرجل حليلته، فإذا قارب الإنزال نزع وأنزل خارج الفرج، وسبب ذلك إما العزوف عن علوق المرأة وتكوين حمل فى رحمها، وإما أسباب صحية تعود إلى المرأة أو إلى الجنين أو إلى الطفل الرضيع.

وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى جواز عزل السيد عن أمته مطلقا سواء أذنت بذلك أو لم تأذن؛ لأن الوطء حقه لا غير، وكذا إنجاب الولد وليس ذلك حقا لها. واختلف الفقهاء فى الزوجة الحرة على رأيين:

الرأى الأول: الإباحة مطلقا أذنت الزوجة أو لم تأذن، إلا أن تركه أفضل وهو الراجح عند الشافعية؛ وذلك لأن حقها الاستمتاع دون الإنزال، إلا أنه يستحب استئذانها. الرأى الثانى: الإباحة بشرط إذنهما، فإن كان لغير حاجة كره، وهو قول عمر وعلى وابن عمر وابن مسعود ومالك، وهو الرأى الثانى للشافعية، وبه قال الحنفية، إلا أنهم استثنوا ما إذا فسد الزمان فأباحوه دون إذنهما.

واستدل القائلون بالإباحة المطلقة بما روى عن جابر - رضى الله عنه - قال: «كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل»، وفى رواية مسلم، «كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ فبلغ ذلك النبى ﷺ فلم ينهنا».

واستدل القائلون بالإباحة بشرط الاستئذان بما روى الإمام أحمد فى مسنده، وابن ماجه عن عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - أنه قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يعزل عن الحرة إلا بإذنهما»، وأخرج عبد الرزاق والبيهقى عن ابن عباس قال: «نهى عن عزل الحرة إلا بإذنهما» وأما أدلة الكراهة: إن كان العزل بدون عذر؛ فلائنه وسيلة لتقليل النسل، وقطع اللذة عن الموطوءة؛ إذ قد حث النبى ﷺ على تعاطى أسباب الولد فقال: «تناكحوا تكثروا»، وقال: «تزوجوا الودود الولود؛ فإنى مكاثركم بكم الأمم».

والعذر فى العزل يتحقق فى الأمور التالية:

- إذا كانت الموطوءة فى دار الحرب وتخشى على الولد الكفر.
- إذا كانت أمة ويخشى الزوج الرق على ولده.
- إذا كانت المرأة يمرضها الحمل أو يزيد فى مرضها.
- إذا خشى على الرضيع من الضعف.
- إذا فسد الزمان وخشى فساد ذريته.

ينظر: بلغة السالك (٢/٢٨٢)، مغنى المحتاج (٢/٣٩٣)، المبدع (٥/٣٣٧)، ابن عابدين (٣/١٧٦)، المغنى بأعلى الشرح الكبير (٨/١٣٤).

وأما الاعتزال عن الإماء وملك اليمين فإنه لا بأس؛ لأنه لا يطلب النسل من الإماء في المتعارف؛ لذلك لم يكره، ولأن في إحيالهن إتلافًا، وللرجل ألا يتلف ملكه؛ لذلك افترقا. والله أعلم.

والأصل: أن الشهوات مجعولة لما بها إمكان قضاء الحاجات التي يقضى بها جرى تدبير العالم، وبه يكون دوام النسل، وبقاء الأبدان، والحاجة لا تحتمل الوقوع في الأدبار؛ لذلك لم يجعل فيها.

وقوله: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾.

قيل فيه بوجهين:

قيل^(١): ﴿وَقَدِّمُوا﴾ العمل الصالح.

وقيل^(٢): ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ من الولد تحفظونه عند الزيغ عما لا يجب.

وقوله: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

يحتمل قوله: ﴿أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ﴾، أى: ما قدمتم من العمل الصالح فتجزون على

ذلك؛ كقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠].

ويحتمل: ﴿أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ﴾، أى: ملاقو ربكم بوعدته ووعيده.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُلُوِّ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

قيل^(٣): كان الرجل يحلف ألا يصنع المعروف، ولا يبر، ولا يصلح بين الناس، فإذا

أمر بذلك، قال: إني حلفت على ذلك، فنهوا عن ذلك، يقول: لا تحلفوا على أمر هو لى

معصية ألا تصلوا القرابة، وألا تبروا، وألا تصلحوا بين الناس، وصلة القرابة خير لكم من

الوفاء باليمين فى معصية الله تعالى. و«العرضة» العلة، يقول: لا تعللوا، أى: لا يمنعكم

أن تبروا أو ما ذكر.

(١) قاله السدى كما فى تفسير ابن جرير (٤١١/٢).

(٢) قاله عكرمة، أخرجه ابن أبى حاتم عنه كما فى الدر المنثور (٤٧٨/١).

(٣) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٤٣٦٤)، وعن إبراهيم (٤٣٦٥، ٤٣٦٦، ٤٣٦٧)، ومجاهد

(٤٣٦٨)، وغيرهم، وانظر الدر المنثور (٤٧٩/١).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

حرفان يخرجان على الوعيد: ﴿سَمِيعٌ﴾ بمقالتكم وأيمانكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بإرادتكم فى حلفكم.

وقوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

قال الشيخ - رحمه الله تعالى - فى قوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: إن كسب القلوب لا يكون عقدًا ولا حنثًا، إنما هو تعمد الكذب.

كقوله: ﴿وَأَنسَ عَلَيْكُمُ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥] فعلى ذلك أمر يمين اللغو والتعمد. وهذا يبين أن اليمين يكون فى موجود، لا فيما يوجد؛ إذ فيه وصف المأثم، وفيما يكون لم يكسب قلبه ما يأثم فيه. فعلى ذلك أمر اللغو؛ فهو فى الماضى، ولا يأثم بالخطأ، ويأثم فى غير اللغو بالتعمد.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِّنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَبٍّ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرْتُمْ أَيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، وبين أن المؤاخذه تكون فى هذا بالكفارة وفى الأول بالمأثم، وفى اللغو لا يؤاخذ بهما، فلزم تسليم البيان لما جاء فى كل ذلك، ثم جميع المؤاخذات فى كسب القلب بالمأثم ولزوم التوبة؛ فكذا فى هذا.

وقد روى عن رسول الله ﷺ فى أمر اللعان، أنه قال: «إن أحدكما كاذب، فهل منكما من تائب؟»^(١) ومعلوم كذب أحدهما ولزوم التوبة، مع ما فى تركه الوعيد الشديد من الغضب أو اللعن. ولو كانت فيه كفارة لكان لا سبيل إلى العلم بها إلا بالبيان؛ فهى أحق أن يبين لو كانت واجبة، دل ما لم يبين أنها غير واجبة على أنها تجب للحنث، والحنث عقيب العقد يدفعه، وكان هاهنا ملاقيا له، فهو يمنعه على نحو جميع الحرمات التى تفسخ الأشياء، فهى عند الابتداء تمنع. وليس ذلك كالطلاق ونحوه؛ لما قد يكون بلا شرط، واليمين لا يصح إلا به ولم يكن فأنفذ.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ﴾. وقد يخرج مخرج الاستخفاف بالحلف بالله كاذبًا والجرأة على الله، فيجىء أن يكون كفرًا، لولا أن المؤمن يخطر بباله ما يحمله على ذلك دون قصد

(١) أخرجه البخارى (٥٧٤/١٠) كتاب الطلاق، باب قول الإمام للمتلاعنين: إن أحدكما كاذب (٥٣١٢)، ومسلم (١١٣١/٢ - ١١٣٢) كتاب اللعان (١٤٩٣/٥)، وأبو داود (٦٨٦/١) كتاب الطلاق، باب فى اللعان (٢٢٥٧)، والنسائى (١٧٧/٦) كتاب الطلاق باب التفريق بين المتلاعنين.

الاستخفاف به . وعلى ذلك أمر اللعان، أن رسول الله ﷺ لم يقل: أحكما كافر، فهل منكما من مؤمن؟ لأنهما لم يقصدا ذلك القصد . فكذا كل حالف على تعمد الكذب . والله الموفق .

وقوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ ، قال سعيد بن جبير^(١): هذا محمول على قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ ، أى: لا يؤاخذكم الله بنقض أيمانكم التي حلفتم بها؛ لأنها معصية لله، ولكن يؤاخذكم بحفظها والمضى عليها .

ثم اختلفوا فى اللغو ما هو؟

قال بعضهم: هو الإثم .

وقيل: هو الغلط .

ثم اللغو المذكور الذى أخبر أن لا مؤاخذة على صاحبه يحتمل ألا يؤاخذ بالإثم، ويحتمل ألا يؤاخذ بالكفارة، بل إنما يؤاخذ بالكفارة بما يعقد .

ثم ذكر فى الآية الثانية: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]، ولو حمل على أنه لا يؤاخذ فى هذا أيضاً بالإثم وقع الكلام - بحيث لا يفيد - فى حد التكرار .

والأصل عندهم: بأن حمله على ما يفيد أحق من حمله على ما لا يفيد؛ فثبت أن الأول فى نفي الإثم، والثانى فى نفي الكفارة .

وعلى هذا القول فى الغموس: إنه لعظم الوزر والإثم لم يلزم أن يكفر، فليس فيه الكفارة^(٢) .

(١) أخرجه ابن جرير (٤٤٤٨) بنحوه .

(٢) اليمين الغموس: هى الكاذبة عمدا فى الماضى أو الحال أو الاستقبال، سواء أكانت على النفى أم على الإثبات، كأن يقول: والله ما فعلت كذا، وهو يعلم أنه فعله، أو: والله لقد فعلت كذا، وهو يعلم أنه لم يفعله، أو: والله ما لك على ذين، وهو يعلم أن للمخاطب ديناً عليه، أو: والله لا أموت أبداً . وكان يقول: إن كنت فعلت كذا، أو: إن لم أكن فعلته، أو إن كان لك على دين، أو: إن مت فأنا يهودى أو نصرانى . هذا تعريفها عند الحنفية . وذهب المالكية إلى أن الغموس: هى الحلف بالله مع شك من الحالف فى المحلوف عليه، أو مع ظن غير قوى، أو مع تعمد الكذب، سواء أكان على ماض نحو: والله ما فعلت كذا، أو: لم يفعل زيد كذا، مع شكه فى عدم الفعل، أو ظنه عدمه ظناً غير قوى، أو جزمه بأنه قد فعل، أم كان على حاضر نحو: والله إن زيدا لمنطلق أو مريض، وهو جازم بعدم ذلك، أو متردد فى وجوده على سبيل الشك أو الظن غير القوى، أم كان على مستقبل نحو: والله لآتينك غداً، أو: لأقضيئك حقك غداً، وهو جازم بعدم ذلك، أو متردد فى حصوله على سبيل الشك أو الظن غير القوى . وقال الشافعية والحنابلة: إن الغموس هى المحلوفة على ماض مع كذب صاحبها وعلمه بالحال .

والحنفية والشافعية والحنابلة لا يوافقون المالكية على التوسع في تفسير الغموس.
والإتيان باليمين الغموس حرام، ومن الكبائر بلا خلاف؛ لما فيه من الجرأة العظيمة على الله تعالى، حتى قال الشيخ أبو منصور الماتريدي ما قاله كما بالمتن؛ ثم إنه لا يلزم من كونها من الكبائر أن تكون جميعها مستوية في الإثم، فالكبائر تتفاوت درجاتها حسب تفاوت آثارها السيئة: فالحلف الذي يترتب عليه سفك دم البريء، أو أكل المال بغير حق أو نحوهما، أشد حرمة من الحلف الذي لا يترتب عليه شيء من ذلك.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في ذم اليمين الغموس وبيان أنها من الكبائر والترهيب من الإقدام عليها، منها: ما روى عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان» قال عبد الله: ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله - عز وجل - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية. وعن وائل ابن حجر - رضى الله عنه - قال: جاء رجل من حضرموت ورجل من كندة إلى النبي ﷺ فقالا للحضرمي: يا رسول الله، إن هذا قد غلبني على أرض كانت لأبي، فقال الكندى: هي أرضي في يدى أزرعها ليس له فيها حق، فقال النبي ﷺ للحضرمي: «ألك بينة؟» قال: لا، قال: «فلك يمينه». قال: يا رسول الله، إن الرجل فاجر، لا يبالي على ما حلف عليه، وليس يتورع عن شيء فقال: «ليس لك منه إلا يمينه». فانطلق ليحلف، فقال رسول الله ﷺ: لما أدبر: «لئن حلف على مال ليأكله ظلما ليلقين الله وهو عنه معرض». وقال الرسول ﷺ فيما رواه عنه عبد الله بن أنيس - رضى الله عنه - : «من أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، والذي نفسى بيده لا يحلف رجل على مثل جناح بعوضة إلا كانت كُيًّا في قلبه يوم القيامة». وعن جابر بن عتيك - رضى الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة»، فقال رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله، قال: «وإن كان قضيبا من أراك».

إن حرمة اليمين الغموس هي الأصل، فإذا عرض ما يخرجها عن الحرمة لم تكن حراما، ويدل على هذا: أولا قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فإذا كان الإكراه يبيح كلمة الكفر فيباحته لليمين الغموس أولى. وثانيا آيات الاضطراب إلى أكل الميتة وما شاكلها، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فإذا أباحت الضرورة تناول المحرمات أباحت النطق بما هو محرم.

والإكراه يبيح بعض المذاهب في بيان ما تخرج به اليمين الغموس عن الحرمة:

(أ) قال الدردير في (أقرب المسالك وشرحه)، والصاوى في (حاشيته) ما خلاصته: لا يقع الطلاق على من أكره على الطلاق ولو ترك التورية مع معرفته بها، ولا على من أكره على فعل ما علق عليه الطلاق. وندب أو وجب الحلف ليسلم الغير من القتل بحلفه وإن حنث هو، وذلك فيما إذا قال ظالم: إن لم تطلق زوجتك، أو إن لم تحلف بالطلاق قتل فلانا، قال ابن رشد: إن لم يحلف لم يكن عليه حرج، أى: لا إثم عليه ولا ضمان، ومثل الطلاق: النكاح والإقرار واليمين.

(ب) قال النووي: الكذب واجب إن كان المقصود واجبا، فإذا اختفى مسلم من ظالم، وسأل عنه وجب الكذب بإخفائه، وكذا لو كان عنده أو عند غيره ودعية، وسأل عنها ظالم يريد أخذها وجب عليه الكذب بإخفائها، حتى لو أخبره بدعية عنده فأخذها الظالم قهرا وجب ضمانها على

وله وجه آخر: وهو أن سبب الحنث في اللغو والغموس تلاقى العقد، فلم يصح به اليمين؛ لأن الحنث نفسه يسقط اليمين، فإذا لاقى الحنث اليمين منع صحتها ووجوبها. فإذا كانت هذه اليمين غير صحيحة في العقد، لم يلزم الكفارة؛ لخروجها عن الشرط. ثم لم يزل عنه - في الغموس - الإثم؛ لتعمده الكذب.

وقال الفقيه أبو منصور - رحمه الله تعالى -: والقياس عندى في التعمد بالحلف على الكذب أن يكفر؛ ولهذا ما لحقه الوزر لما أن الأيمان جعلت للتعظيم لله - تعالى - بالحلف فيها، والحالف بالغموس مجترئ على الله - تعالى - مستخف به؛ ولهذا نهى رسول الله ﷺ عن الحلف بالآباء والطواغيت^(١)؛ لأن في ذلك تعظيمًا لهم وتبجيلًا. فالحالف بالغموس كالذى هو مجترئ ومستخف، فالوزر له بالجرأة لازم، ثم المتعمد مجترئ مستخف بالله - تعالى - على المعرفة؛ لأنه لا يسع، فسييله سبيل أهل النفاق - إظهارهم الإيمان بما فيه استخفاف، وإن كان سببًا للتعظيم، للاستخفاف لزهم العقوبة بذلك، كذا الأول، ولكنه بالحلف خرج فعله على الجرأة للوصول إلى مناه وشهوته، لا للقصد إليه. وعلى ذلك يخرج قول أبى حنيفة - رضى الله تعالى عنه - فى سؤال السائل: إن العاصى مطيع للشيطان، ومن أطاع الشيطان كفر، كيف لا كفر العاصى؟ فقال: لأنه خرج فعله فى الظاهر مخرج الطاعة له، لا أن القصد يكون طاعته، وإنما يكفر بالقصد لا بما يخرج فعله فعل معصية؛ فكذا الأول. والله أعلم.

وعلى ذلك جاء فى أمر اللعان من القول بأن «أحدكما كاذب فهل منكما من تائب»، فقيه وجهان:

= المودع المخبر، ولو استحلفه عليها لزمه أن يحلف، ويؤزى فى يمينه، فإن حلف ولم يور حنث على الأصل، وقيل: لا يحنث.

(ج) وقال موفق الدين بن قدامة: من الأيمان ما هى واجبة، وهى التى ينجى بها إنسانا معصوما من هلكة، كما روى عن سويد بن حنظلة قال: خرجنا نريد النبى ﷺ ومعنا وائل بن حجر، فأخذه عدو له، فتخرج القوم أن يحلفوا، فحلفت أنا: إنه أخى، فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال النبى ﷺ: «صدقت، المسلم أخو المسلم» فهذا ومثله واجب؛ لأن إنجاء المعصوم واجب، وقد تعين فى اليمين فيجب، وكذلك إنجاء نفسه، مثل: أن تتوجه عليه أيمان القسامة فى دعوى القتل عليه وهو برىء.

ينظر: الشرح الصغير بحاشية الصاوى (١/٤٥٠ - ٤٥١)، الأذكار للنووى ص (٣٣٦، ٣٣٧)، المغنى على الشرح الكبير (١١/١٦٦ - ١٦٧)، فتح القدير (٣/٤)، أسنى المطالب (٤/٢٤٠ - ٢٤١).

(١) فى الباب عن عبد الرحمن بن سمرة. أخرجه مسلم (٣/١٢٦٨) كتاب الأيمان، باب من حلف باللات والعزى (٦/١٦٤٨)، وأحمد (٥/٦٢)، والنسائى (٧/٧) كتاب الأيمان، باب الحلف بالطواغيت.

أحدهما : أنه لم يأمر بالإيمان، ولا قال: أحكما كافر؛ فثبت أنه لا يكفر به .
والثاني: أنه أمر بالتوبة، وقد يعلم من كذب أن عليه ذلك مع ما فى القرآن من اللعن والغضب، ولم يأمر بالكفارة - وهى لا تعلم إلا بالبيان - فهى أحق أن تبين لو كانت واجبة . والله أعلم .

والأصل عندنا فى اليمين الغموس: أنه آثم، وعليه التوبة، والتوبة كفارة . وهكذا فى كل يمين فى عقدتها معصية أن تلزمه الكفارة وهى التوبة . وأما الكفارة التى تلزم فى المال، فهى لا تلزم بالحنث؛ لأنه بالحنث يآثم، والحنث نفسه إثم؛ لذلك لم يجز إلا بالحنث . وما رويت من الأخبار . من قوله - عليه الصلوات والسلام-: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، فليكفر عن يمينه، ثم ليأت الذى هو خير»^(١): أنه إذا كان يمينه بمعصية يصير باليمين آثماً، فيكلف بالتوبة .

(١) أما الرواية فوردت من حديث أبى هريرة، من رواية أبى حازم عنه، أخرجه مسلم (٣/ ١٢٧١) - (١٢٧٢) كتاب: الأيمان، باب: نذب من حلف يميناً، فرأى غيرها خيراً منها أن يأتى الذى هو خير، ويكفر عن يمينه، حديث (١١/ ١٦٥٠)، والبيهقى (١٠/ ٣٢٢) كتاب: الأيمان، باب: من حلف على يمين فرأى خيراً منها، فليأت الذى هو خير، وليكفر عن يمينه بلفظ «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، فليأتها وليكفر عن يمينه» ومن رواية عبد العزيز بن المطلب عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة لفظ الباب، أخرجه مسلم (١٣/ ١٢٧٢) كتاب: الأيمان، باب: نذب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها حديث (٣/ ١٦٥٠) من حديث عدى بن حاتم أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف وأبو داود الطيالسى (١/ ٢٤٧) كتاب: الأيمان والنذور باب: من حلف على يمين فرأى خيراً منها، فليأت الذى هو خير، وليكفر عن يمينه، حديث (١٢١٨)، وأحمد (٤/ ٢٥٦) - (٢٥٧ - ٢٥٨)، والدارمى (٢/ ١٨٦) كتاب: الأيمان والنذور: (٧٨٥) باب: من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، ومسلم (٣/ ١٢٧٢ - ١٢٧٣) كتاب: الأيمان، باب: نذب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها، أن يأتى الذى هو خير، يكفر عن يمينه، حديث (١٦، ١٨/ ١٦٥١)، والنسائى (٧/ ١٠ - ١١) كتاب: الأيمان والنذور، باب: الكفارة بعد الحنث حديث (٣٧٨٦)، وابن ماجه (١/ ٦٨١) كتاب: الكفارات، باب: من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، حديث (٢١٠٨) والحاكم (٤/ ٣٠٠ - ٣٠١) كتاب: الأيمان والنذور، باب: لا نذر فى معصية الرب، ولا فى قطيعة الرحم، والبيهقى (١٠/ ٣٢٢) كتاب: الأيمان، باب: من حلف على يمين فرأى خيراً منها، فليأت الذى هو خير، وليكفر عن يمينه، بلفظ: «فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه» . ومن حديث عبد الرحمن بن سمرة بلفظ «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فأت الذى هو خير، وكفر عن يمينك» . ومنهم من قال: «كفر عن يمينك، واث الذى هو خير» .

والحديث أخرجه أحمد (٥/ ٦٢ - ٦٣)، والدارمى (٢/ ١٨٦) كتاب: الأيمان والنذور، باب: من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، والبخارى (١١/ ٥١٦ - ٥١٧) كتاب: الأيمان والنذور، باب: قول الله تعالى: ﴿لَا يَأْخُذْكُمْ اللَّهُ بِاللَّغوِ فِي أَيْمانِكُمْ﴾ حديث (٦٦٢٢)، ومسلم (٣/ ١٢٧٣ - ١٢٧٤) كتاب: الأيمان، باب: نذب من حلف يميناً، فرأى غيرها خيراً منها، حديث (٩/ ١٦٥٢)، وأبو داود الطيالسى (١/ ٢٤٧) كتاب: الأيمان والنذور: «باب من

= حلف على يمين فرأى خيرًا منها، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»، حديث (١٢١٩)، والنسائي (١٢/٧) كتاب: الأيمان والنذور، باب: الكفارة بعد الحنث، وأبو داود (٥٨٤/٣) كتاب: الأيمان والنذور، باب: الرجل يكفر قبل أن يحنث، حديث (٣٢٧٧)، وابن الجارود في المنتقى ص (٣١٠) باب من جاء في الأيمان حديث (٩٢٩)، والبيهقي (٣١/١٠) كتاب: الأيمان «باب من حلف على يمين فرأى خيرًا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه». والخطيب في تاريخ بغداد (٤٠٠/٢) من طرق عن الحسن عن عبد الرحمن به. ومن حديث عبد الرحمن بن أذينة عن أبيه أخرجه الطيالسي (٢٤٧/١) كتاب: الأيمان والنذور: «باب من حلف على يمين، فرأى خيرًا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»، حديث (١٢٢٠).

ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رواه أحمد (٢٠٤/٢) بلفظ «فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»، ورواه الطيالسي (٢٤٧/١) كتاب: الأيمان والنذور، باب: من حلف على يمين فرأى خيرًا منها، حديث (١٢٢١)، وأحمد (٢١٢/٢)، وأبو داود (٥٨٢/٣) كتاب: الأيمان والنذور، باب: اليمين في قطيعة الرحم، حديث (٣٢٧٤)، وابن ماجه (٦٨٢/١) كتاب: الكفارات، باب: من قال كفارتها تركها، حديث (٢١١١) بلفظ «فليدعها وليأت الذي هو خير، فإن تركها كفارتها».

وقال أبو داود: الأحاديث كلها عن النبي ﷺ «وليكفر عن يمينه» إلا فيما لا يعاب به يعنى فمن ترك ذكر الكفارة، وقال تركها كفارتها.

ومن حديث مالك الجشمي رواه النسائي (١١/٧) كتاب: الأيمان والنذور، باب: الكفارة بعد الحنث، وابن ماجه (٦٨١/١) كتاب: الكفارات، باب: من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها، حديث (٢١٠٩).

وأما الرواية الثانية وهى تقديم الكفارة، فوردت من حديث أبى هريرة أيضا من رواية مالك، وسليمان بن بلال عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رواه مالك (٤٧٨/٢) كتاب: النذور والأيمان، باب: ما تجب فيه الكفارة من الأيمان، حديث (١١).

وأحمد (٣٦١/٢)، ومسلم (١٢٧٢/٣)، كتاب: الأيمان، باب: من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها، حديث (١٢)، والترمذي (١٠٧/٤) كتاب: الأيمان والنذور، باب: ما جاء في الكفارة قبل الحنث، حديث (١٥٣٠)، والبعوى في التفسير، والبيهقي (٥٣/١٠) كتاب: الأيمان، باب: الكفارة قبل الحنث.

ومن حديث عدى بن حاتم أخرجه مسلم (١٢٧٣/٣) كتاب: الأيمان، باب: ندب من حلف يمينًا، فرأى غيرها خيرًا منها، حديث (١٦٥١/١٧).

ومن حديث أم سلمة، الطبراني (٢٣/ رقم ٦٩٤)، والقضاعي في مسند الشهاب (٣٠٨/١) حديث (٥١/٤).

ومن حديث عبد الرحمن بن سمرة أيضًا أخرجه أحمد (٦٢/٥ - ٦٣)، والدارمي (١٨٦/٢) كتاب: النذور والأيمان، باب: من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها، والبخاري (٥١٦/١١) - (٥١٧) كتاب: الأيمان والنذور، باب: قول الله تعالى: ﴿لَا يَأْخُذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ حديث (٦٦٢٢)، ومسلم (١٢٧٣/٣) كتاب: الأيمان، باب: ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها، حديث (١٦٥٢/١٩)، والطيالسي المسند ص (١٩٢)، حديث (١٣٥١)، وأبو داود (٥٨٥/٣) كتاب: الأيمان والنذور، باب: الرجل يكفر قبل أن يحنث، حديث (٣٢٧٨).

فإن قيل: الحلف بالطلاق، والعتاق، والحج بالماضي يلزم، كيف لا لزمته الكفارة؟ قيل: لأن الطلاق، والعتاق، والحج يلزم دون ذكر ما ذكر، إذا قال: (على حجة)، أو (أنت طالق)، أو (هو حر). ولو قال: (والله) ألف مرة، دون ذكر ذلك الفعل لا يكون يمينًا، ولا يلزمه شيء؛ لذلك افترقا. والله أعلم.

وقوله: ﴿لَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَابِهِمْ رَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ قَامُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

وقوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرَیَصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾

قال الشيخ - رحمه الله تعالى -: الإيلاء معلوم في اللغة أنه اليمين^(١). وكذلك كان

= والنسائي (١٠/٧) كتاب: الأيمان والنذور، باب: الكفارة قبل الحنث، والبيهقي (٥٢/١٠ - ٥٣) كتاب: الأيمان، باب: الكفارة قبل الحنث، والخطيب في تاريخ بغداد (٢٢٨/٤). ومن حديث أبي موسى:

أخرجه الطيالسي (٢٤٧/١) كتاب: اليمين والنذور، باب: من حلف على يمين فرأى خيرًا منها، حديث (١٢١٧)، وأحمد (٣٩٨/٤)، والبخاري (٥١٧/١١) كتاب: الأيمان والنذور، باب: قول الله تعالى لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم حديث (٦٦٢٣)، ومسلم (٣/ ١٢٦٨ - ١٢٦٩) كتاب: الأيمان، باب: نذب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها، حديث (١٦٤٩/٧) وأبو داود (٥٨٣/٣ - ٥٨٤) كتاب: الأيمان والنذور، باب: الرجل يكفر قبل أن يحنث، حديث (٣٢٧٦)، والنسائي (٩/٧ - ١٠) كتاب: الأيمان والنذور، باب: الكفارة قبل الحنث، وابن ماجه (٦٨١/١) كتاب: الكفارات، باب: من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها، حديث (٢١٠٧)، والطبراني في المعجم الصغير (٥٦/١ - ٥٧) والبيهقي (٥١/١٠) كتاب: الأيمان، باب: الكفارة قبل الحنث، عنه عن النبي ﷺ في قصة وفيه قول النبي ﷺ «والله إن شاء الله لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيرًا منها، إلا كفرت عن يميني، وأتيت الذي هو خير» وله طرق وألفاظ.

ومن حديث عائشة:

الحاكم (٣٠١/٤) كتاب: الأيمان والنذور، باب: لا نذر في معصية الرب، ولا في قطيعة الرحم، بنحو حديث أبي موسى، وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، ومن حديث أبي الدرداء رواه الحاكم (٣٠١/٤)، والبيهقي (٥٢/١٠) كتاب: الأيمان، باب: الكفارة قبل الحنث.

(١) الإيلاء في اللغة معناه: الحلف مطلقًا، سواء أكان على ترك قربان الزوجة أم على شيء آخر، مأخوذ من: ألى على كذا، يؤلى إيلاءً وألّيةً: إذا حلف على فعل شيء أو تركه. كان الرجل في الجاهلية إذا غضب من زوجته حلف ألا يطأها السنة والسنتين، أو ألا يطأها أبداً، ويمضي في يمينه من غير لوم أو حرج، وقد تقضى المرأة عمرها كالمعلقة: فلا هي زوجة تتمتع بحقوق الزوجة، ولا هي مطلقة تستطيع أن تتزوج برجل آخر، فيغنيها الله من سعته. فلما جاء الإسلام أنصف المرأة، ووضع للإيلاء أحكاماً خففت من أضرارها، وحدد للمؤلى أربعة أشهر، وألزمه إما بالرجوع إلى معاشرته زوجته، وإما بالطلاق عليه، قال الله تعالى: ﴿لَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَابِهِمْ رَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ قَامُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ابن عباس - رضى الله عنه - يقرأ: ﴿لِلَّذِينَ يُقْسِمُونَ مِنْ نَسَائِهِمْ﴾^(١).

= والإيلاء فى الاصطلاح - كما عرفه الحنفية - : أن يحلف الزوج بالله تعالى، أو بصفة من صفاته التى يحلف بها، ألا يقرب زوجته أربعة أشهر أو أكثر، أو أن يعلق على قربانها أمراً فيه مشقة على نفسه، وذلك كأن يقول الرجل لزوجته: والله لا أقربك أربعة أشهر، أو ستة، أو يقول: والله لا أقربك أبداً، أو مدة حياتي، أو والله لا أقربك ولا يذكر مدة، وهذه صورة الحلف بالله تعالى، أما صورة التعليق، فهو أن يقول: إن قربتك فله على صيام شهر، أو حج، أو إطعام عشرين مسكينا، ونحو ذلك مما يكون فيه مشقة على النفس، فإذا قال الزوج شيئاً من هذا اعتبر قوله إيلاء. أما إذا امتنع الرجل من قربان زوجته بدون يمين، فإنه لا يكون إيلاء، ولو طال مدة الامتناع حتى بلغت أربعة أشهر أو أكثر، بل يعتبر سوء معاشرة يتيح لزوجته طلب الفرقة عند بعض الفقهاء، إذا لم يكن هناك عذر يمنع من قربانها. وكذلك لو حلف الزوج بغير الله تعالى كالنبي والولي ألا يقرب زوجته، فإنه لا يكون إيلاء؛ لأن الإيلاء يمين، والحلف بغير الله تعالى ليس يميناً شرعاً؛ لقول النبي ﷺ: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت». ومثل هذا لو علق الرجل على قربان زوجته أمراً ليس فيه مشقة على النفس: كصلاة ركعتين أو إطعام مسكين، لا يكون إيلاء. وكذلك لو كانت المدة التى حلف على ترك قربان الزوجة فيها أقل من أربعة أشهر لا يعتبر إيلاء؛ وذلك لقول الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ فإنه سبحانه ذكر للإيلاء فى حكم الطلاق مدة مقدرة هى أربعة أشهر؛ فلا يكون الحلف على ما دونها إيلاء فى حق هذا الحكم.

وقد وافق الحنفية - فى أن الإيلاء يكون بالحلف بالله تعالى وبالتعليق - المالكية، والشافعية فى الجديد، وأحمد بن حنبل فى رواية. وخالف فى ذلك الحنابلة فى الرواية المشهورة، فقالوا: الإيلاء لا يكون إلا بالحلف بالله تعالى، أما تعليق الطلاق أو العتق أو المشى إلى بيت الله تعالى على قربان الزوجة فإنه لا يكون إيلاء؛ لأن الإيلاء قسم، والتعليق لا يسمى قسماً شرعاً ولا لغة، ولهذا لا يؤتى فيه بحرف القسم، ولا يجاب بجوابه، ولا يذكره أهل العربية فى باب القسم، وعلى هذا لا يكون إيلاء.

وحجة الحنفية ومن وافقهم: أن تعليق ما يشق على النفس يمنع من قربان الزوجة خوفاً من وجوبه، فيكون إيلاء كالحلف بالله تعالى، والتعليق - وإن كان لا يسمى قسماً شرعاً ولغة - لكنه يسمى حلفاً عرفاً. ومذهب الحنفية أن الإيلاء يكون بالحلف على ترك قربان الزوجة أربعة أشهر أو أكثر. ومذهب الجمهور - المالكية والشافعية والحنابلة - إلى أن الإيلاء لا يكون إلا بالحلف على ترك قربان الزوجة أكثر من أربعة أشهر.

والحكمة فى موقف الشريعة الإسلامية من الإيلاء هذا الموقف: أن هجر الزوجة قد يكون من وسائل تأديبها، كما إذا أهملت فى شأن بيتها أو معاملة زوجها، أو غير ذلك من الأمور التى تستدعى هجرها؛ علماً ثوب إلى رشدتها ويستقيم حالها، فيحتاج الرجل فى مثل هذه الحالات إلى الإيلاء، يقوى به عزمه على ترك قربان زوجته تأديباً لها ورغبة فى إصلاحها، أو لغیر ذلك من الأغراض المشروعة؛ فلهذا لم تبطل الشريعة الإسلامية الإيلاء جملة، بل أبقت مشروعاً فى أصله؛ ليمكن الالتجاء إليه عند الحاجة.

ينظر: بدائع الصنائع (٣/ ١٧١)، الخرشي (٣/ ٢٣٠)، حاشية الدسوقي (٢/ ٤٢٧)، مغنى المحتاج (٣/ ٣٤٤)، المغنى لابن قدامة (٧/ ٢٩٨).

(١) أخرجه عبد الرزاق وأبو عبيد فى فضائله وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن الأنبارى فى المصاحف كما فى الدر المنثور (١/ ٤٨٢).

وما هو لليمين من الحكم، لا يجب لغيرها نحو الكفارة التي تجب للحنث فيها، ثم يجب له على كل حال، على أى وصف كانت اليمين. فكذلك حكم الإيلاء. وهو قول عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس، رضى الله تعالى عنهما.

وروى عن علي^(١) - رضى الله تعالى عنه - التفريق بين الغضب والرضا. ثم أوجب التربص للمؤلى. فمن كانت يمينه بدون أربعة أشهر فهو بعد المدة ليس بمؤلى، فلم يلزمه الحكم الذى جعل الله للإيلاء؛ ألا ترى أنه فى المدة ذكر (الفى)^(٢)، وهو لو وجد منه لم يجب عليه ما فى الفى من

(١) أخرجه عبد بن حميد كما فى الدر المنثور (١/٤٨٣).

(٢) الفى: هو أن يرجع الزوج إلى معاشرة الزوجة التى آلى منها، بحيث تعود الحياة الزوجية بينهما إلى ما كانت عليه قبل الإيلاء. وللفى طريقان: إحداهما أصلية، والأخرى استثنائية أما الأصلية: فهى الفى بالفعل، وأما الاستثنائية: فهى الفى بالقول.

أ - الفى بالفعل:

المراد بالفعل الذى يكون فينا وينحل به الإيلاء: إنما هو الجماع، ولا خلاف فى هذا لأحد من الفقهاء. قال ابن المنذر: أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أن الفى: الجماع، ولا يكون ما دون الجماع فينا. وينبنى على الفى بالفعل انحلال الإيلاء، ولزوم مقتضى اليمين؛ لأنه بالجماع يتحقق الحنث، واليمين لا تبقى بعد الحنث؛ إذ الحنث يقتضى نقض اليمين، والشئ لا يبقى مع وجود ما ينقضه.

فإن كانت اليمين قسما بالله تعالى أو بصفة من صفاته التى يحلف بها: كعزة الله وعظمته وجلاله وكبريائه لزمته كفارة يمين فى قول أكثر أهل العلم، وعند بعض العلماء لا تجب عليه الكفارة. وإن كانت اليمين بتعليق شئ على قربان الزوجة لزمه ما التزمه من ذلك، فإن كان المعلق على قربان طلاقاً أو عتقاً وقع الطلاق والعتق وقت حصول الفى؛ لأن الطلاق والعتق متى علق حصوله على حصول أمر فى المستقبل، ووجد المعلق عليه، وقع الطلاق وثبت العتق بمجرد وجوده، كما هو مذهب الفقهاء. وإن كان المعلق على قربان صلاة أو صياماً أو حجاً أو صدقة: فإما أن يعين لأدائه وقتاً أو لا يعين، فإن عين للأداء وقتاً كان يقول: إن قربت زوجتى مدة خمسة أشهر فعلى صلاة مائة ركعة فى يوم كذا - مثلاً - لزمته الصلاة فى الوقت الذى عينه. وإن لم يعين للأداء وقتاً وجب عليه فعل ما التزمه فى أى وقت أراد، ولا إثم عليه فى التأخير، وإن كان الأفضل الأداء فى أول وقت يمكنه الأداء فيه؛ خوفاً من انتهاء الأجل قبل أن يودى ما وجب عليه.

ب - الفى بالقول:

إذا آلى الرجل من زوجته كان الواجب شرعاً عليه أن يفى إليها بالفعل، فإن لم يقدر على الفى بالفعل لزمه الفى بالقول، كأن يقول: فئتُ إلى زوجتى فلانة، أو: رجعت عما قلت، أو: متى قدرت جامعتهما، وما أشبه ذلك من كل ما يدل على رجوعه عما منع نفسه منه باليمين. والحكمة فى تشريع الفى بالقول: أن الزوج لما آذى زوجته بالامتناع من قربانها، وعجز عن الرجوع، وكان فى إعلان الوعد به إرضاء لها لزمه هذا الوعد؛ ولأن المقصود بالفية ترك الإضرار الذى قصده الزوج بالإيلاء، وهذا يتحقق بظهور عزمه على العود إلى معاشرتها عند القدرة. ولا يصح الفى بالقول إلا إذا توافرت فيه الشرائط الآتية:

الشريطة الأولى: العجز عن الجماع، فإن كان الزوج قادراً على الجماع لا يصح منه الفى =

بالقول؛ لأن الفئء بالجماع هو الأصل، إذ به يندفع الظلم عن الزوجة حقيقة، والفئء بالقول خلف عنه، ولا عبرة بالخلف مع القدرة على الأصل، كالتميم مع الوضوء. والعجز نوعان: عجز حقيقى وعجز حكمى، فالعجز الحقيقى: مثل أن يكون أحد الزوجين مريضا مرضا يتعذر معه الجماع، أو تكون المرأة صغيرة لا يجامع مثلها، أو تكون زَنَفاء: وهى التى يكون بها انسداد موضع الجماع من الفرج، بحيث لا يستطيع جماعها، أو يكون الزوج مَجْبُوبا: وهو الذى استوصل منه عضو التناسل، أو يكون عَنِيْثًا: وهو من لا يقدر على الجماع مع وجود عضو التناسل لضعف أو كبر سن أو مرض، أو يكون أحد الزوجين محبوسا حيسا يحول دون الوصول إلى الجماع، أو يكون بينهما مسافة لا يقدر على قطعها فى مدة الإيلاء. والعجز الحكمى: هو عندما يكون المانع عن الجماع شرعيا، كأن تكون المرأة حائضا عند انقضاء مدة التربص عند الفقهاء الذين يقولون بالفئء بعد انقضاء مدة الإيلاء، أو يكون الزوج مُحْرَما بالحج وقت الإيلاء من زوجته، وبينه وبين التحلل من الإحرام أربعة أشهر، وهذا عند الفقهاء الذين يقولون: الفئء لا يكون إلا فى مدة الإيلاء. فإن كان العجز حقيقيا انتقل الفئء من الفعل إلى القول بالاتفاق، وإن كان العجز حكما انتقل الفئء من الفعل إلى القول أيضا عند المالكية والحنابلة وفى قول مرجوح للشافعية. ولا ينتقل عند أبى حنيفة وصاحبيه والشافعى. وصرح الشافعية بأنه يطالب بالطلاق. وحجة القائلين بالانتقال: أن العجز الحكمى كالعجز الحقيقى فى أصول الشريعة، كما فى الخلوة بالزوجة؛ فإنه يستوى فيها المانع الحقيقى والمانع الشرعى فى المنع من صحة الخلوة، فكذلك الفئء فى الإيلاء يقوم فيه العجز الحكمى مقام العجز الحقيقى فى صحة الفئء بالقول بدلا من الفئء بالفعل. وحجة القائلين بعدم الانتقال: أن الزوج قادر على الجماع حقيقة، والامتناع منه إنما جاء بسبب منه، فلا يسقط حقا واجبا عليه. وأيضا: فإن الزوج هو المتسبب باختيائه فيما لزمه بطريق محظور فلا يستحق التخفيف.

الشريعة الثانية: دوام العجز عن الجماع إلى أن تمضى مدة الإيلاء، فلو كان الزوج عاجزا عن الجماع فى مبدأ الأمر، ثم قدر عليه فى المدة بطل الفئء بالقول، وانتقل إلى الفئء بالجماع، حتى لو ترك الزوجة ولم يقربها إلى أن مضت أربعة أشهر بانت منه عند الحنفية؛ وذلك لما سبق من أن الفئء باللسان بدل عن الفئء بالجماع، ومن قدر على الأصل قبل حصول المقصود بالبدل بطل حكم البدل، كالتميم إذا قدر على الماء قبل أداء الصلاة. وإذا آلى الرجل من زوجته وهو صحيح، ثم مرض، فإن مضت عليه مدة وهو صحيح يمكنه الجماع فيها، فلا يصح فئئهُ بالقول؛ لأنه كان قادرا على الجماع مدة الصحة، فإذا لم يجامع مع القدرة عليه يكون قد فرط فى إيفاء حق زوجته؛ فلا يعذر بالمرض الحادث. أما إذا لم تكن مضت عليه مدة - وهو صحيح يمكنه الجماع فيها - فإن فئئهُ بالقول يكون صحيحا؛ لأنه إذا لم يقدر على الجماع فى مدة الصحة لقصرها، لم يكن مفرطا فى ترك الجماع، فكان معذورا. هذا ما صرح به الحنفية، وهو ما يفهم من عبارات المذاهب الأخرى.

الشريعة الثالثة: قيام النكاح وقت الفئء بالقول، وذلك بأن يكون الفئء حال قيام الزوجية، وقبل حصول الطلاق البائن من الزوج. أما لو آلى الرجل من زوجته، ثم أوقع عليها طلاقا بائنا، وفَاء بالقول لم يكن ذلك فيئا، وبقي الإيلاء؛ لأن الفئء بالقول حال قيام النكاح إنما يرفع الإيلاء فى حق حكم الطلاق؛ لإيفاء حق الزوجة بهذا الفئء، والمطلقة بائنا ليس لها الحق فى الجماع، حتى يكون الرجل مضرا بها بالامتناع من جماعها، ووقوع الطلاق بالإيلاء كان لهذا السبب، ولم يوجد، فلا يقع عليها طلاق بمضى المدة، لكن يبقى الإيلاء؛ لأنه لم يوجد ما يرفعه وهو

الكفارة؟! فكذا بمضى المدة لا يلزمه الطلاق. وبه يقول على وابن عباس وابن مسعود - رضى الله تعالى عنهم - فيقول ابن مسعود: يلزمه حكم يمين يوم، وابن عباس يقول: الإيلاء يمين الأبد. وذلك عندنا على إرادة الإتمام، ولو جعله شرطاً لكان الحكم يلزمه بمضى الأربعة الأشهر؛ فلا وجه للزيادة عليه، وهو قول عبد الله بن مسعود: يلزمه بدونه.

ثم اختلف الصحابة - رضى الله تعالى عنهم - فى الوقف بعد الأربعة الأشهر، على اتفاقهم على حق لزوم الطلاق أو حقه بمضى المدة، ثم لا يجوز أن يحلف بحق الطلاق فيلزم، ويجوز أن يحلف بالطلاق فيلزم؛ لذلك كان الطلاق أحق مع ما ذلك زيادة فى المدة للتربص. وجميع المدد التى جعلت بين الزوجين لم تحتمل الزيادة عليها لما جعلت له المدة، فمثله مدة الطلاق. وهذا على أن الله - تعالى - حذر نقض اليمين بقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١]، وأطلق فى هذا أربعة أشهر، بما روى فى قراءة أبى بن كعب، أنه

= الحنث، ولهذا لو تزوجها ومضت مدة الإيلاء بعد الزواج من غير فئى وقع عليها الطلاق عند الحنفية، وأمر بالفئى إليها أو طلاقها عند الجمهور، وهذا بخلاف الفئى بالفعل، فإنه يصح بعد زوال النكاح وثبوت البينة بسبب آخر، كالخلع أو الطلاق على مال، فإنه بالفئى بالفعل - وإن كان محرماً - يبطل الإيلاء؛ لأنه إذا وطئها حنث فى يمينه، وبالحنث تنحل اليمين ويبطل الإيلاء، ولكن لا ترجع المرأة إلى عصمته، ويعتبر أنما بالطوع فى عدة البينة. هذا، وسواء أكان الفئى بالفعل أم بالقول فإن له وقتاً تختلف آراء الفقهاء فيه على الوجه الآتى: يرى الحنفية أن الفئى يكون فى مدة الإيلاء، وهى الأربعة الأشهر. فإن حصل الفئى فيها، وكان الفئى بالفعل، حنث الزوج فى يمينه، وانحل الإيلاء بالنسبة للطلاق، حتى لو مضت أربعة أشهر لا نبين الزوجة. وإن حصل الفئى بالقول انحل الإيلاء فى حق الطلاق، وبقي فى حق الحنث، حتى لو فاء الزوج بالقول فى المدة، ثم قدر على الجماع بعد المدة وجامعها، لزمته الكفارة؛ لأن وجوب الكفارة معلق بالحنث، والحنث هو فعل المحلوف عليه، والمحلوف عليه هو الجماع؛ فلا يحصل الحنث بدونه. وإن لم يحصل الفئى فى مدة الإيلاء بالفعل ولا بالقول، وقع الطلاق بمضيها عند الحنفية كما تقدم. ويرى المالكية والشافعية والحنابلة: أن الفئى يكون قبل مضى الأربعة الأشهر، ويكون بعدها، إلا أنه إن حصل الفئى قبل مضى هذه المدة فالحكم كما سبق فى الكلام على مذهب الحنفية، وإن حصل الفئى بعد مضيتها ارتفع الإيلاء فى حق الطلاق وفى حق الحنث جميعاً. وكذا إن حدد مدة فى يمينه ففاء بعد مضيتها. أما إن كان الفئى قبل مضيتها، فإن الزوج يحنث فى يمينه، وتلزمه كفارة اليمين إن كانت اليمين قسماً، ويلزمه ما التزمه إن لم تكن اليمين قسماً، عند من يرى صحة الإيلاء فى حالتى القسم والتعليق. ومنشأ الاختلاف بين الفقهاء فى ذلك يرجع إلى اختلافهم فى فهم قول الله تعالى: ﴿لَلَّذِينَ يُؤْثِرُونَ بَيْنَهُمْ رَبُّهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ قَامُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: هل الفئنة مطلوبة خارج الأربعة الأشهر أو فيها؟ ينظر: البدائع (١٧٣/٣)، الشرح الكبير على حاشية الدسوقي (٤٣٨/٢)، مغنى المحتاج (٣/٣٥٠)، المغنى لابن قدامة (٣٢٧/٧).

قرأ: «إِنْ فَاءُوا فِيهِنَّ»، يعنى فى الأربعة الأشهر، ففى غير ذلك حكم النهى له أخذ. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ .

كقوله: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَأَسْكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِتَعْنَدُوا﴾ [البقرة: ٢٣١]. وليس ذلك على إحداثه بعد مضى المدة، كذلك الأول. والله أعلم.

ثم اختلف فيه على وجوه:

قال ابن مسعود^(١) - رضى الله تعالى عنه -: الإيلاء على يوم فقط، وأما التربص بأربعة أشهر؛ لأنه لم يذكر فى الكتاب للإيلاء مدة، وإنما ذكر المدة للتربص. وقال ابن عباس^(٢) - رضى الله تعالى عنه -: الإيلاء على الأبد، ذهب فى ذلك إلى أن الإيلاء كان طلاق القوم، والطلاق يقع إلى الأبد.

وقال آخرون: من ترك القربان فى حال الغضب فهو مؤل، وإن لم يحلف. لكن هذا ليس بشئ؛ لأن الله تعالى ذكر الإيلاء، والإيلاء هى اليمين. دليله ما ذكرنا [من حرف ابن مسعود وابن عباس: ﴿لِلَّذِينَ يَقْسِمُونَ﴾؛ فدل هذا أن حكم الإيلاء لا يلزم إلا باليمين على ترك القربان]^(٣).

وروى عن على بن أبى طالب^(٤) - رضى الله تعالى عنه -: أن رجلاً سأله - أنه حلف ألا يقرب امرأته سنتين. فقال: هو إيلاء، وأنها تبين إذا مضت أربعة أشهر. فقال: إنما حلفت ذلك لمكان ولدى. فقال: لا يكون إيلاء. فرأى فى ذلك إيلاء إذا كان عاصياً وإذا كان إيلاؤه هو ترك قربانه إياها بمكان الولد لم ير ذلك إيلاء. ثم لا يجوز أن يحمل ما حمل هؤلاء. أما ما حمل على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه، واعتباره بالعصيان وغير العصيان، فالإيلاء هو اليمين، والأيمان لا يختلف وجوبها ووجوب أحكامها فى حال العصيان وفى حال الطاعة. فعلى ذلك حكم الإيلاء.

ولو حمل على ما حمل ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، لكان لا يبقى الإيلاء بعد مضى اليوم، فإذا لم يكن يمين بعد اليوم لم يبق حكمها.

(١) أخرجه عبد بن حميد عن ابن أبى ليلى كما فى الدر المنثور (١/٤٨٤).

(٢) أخرجه الشافعى وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى فى سننه كما فى الدر المنثور (١/٤٨٢).

(٣) ما بين المعقوفين سقط فى ط.

(٤) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد كما فى الدر المنثور (١/٤٨٣).

ولو حمل على ما قال ابن عباس، رضى الله تعالى عنه، لكان لا فائدة لذكر التربص. فإذا بطل ما ذكرنا ثبت قولنا: إن مدة الإيلاء إذا قصرت عن أربعة أشهر لم يلزمه حكم الإيلاء. ولو كان على الأبد لكان لا فائدة في ذكر المدة، وألا يعتبر العصيان ولا الطاعة ولا الغضب ولا الرضاء على ما ذكرنا.

وروى فى بعض الأخبار، أنه قال: الإيلاء ليس بشيء. معناه ما قيل: إن الإيلاء كان طلاق القوم، فقلوه: «ليس بشيء» يقع للحال دون مضى المدة [ثم اختلفوا أيضًا بعد مضى المدة]^(١) قيل أن يفىء إليها فى المدة.

قال أصحابنا - رحمهم الله تعالى -: إذا مضت أربعة أشهر وقع الطلاق. وقال قوم: إنه يوقف بعد مضى المدة، [فأما أن يفىء إليها، وإما أن يطلقها]^(٢). واحتجوا فى ذلك إلى أن الله تعالى ذكر الفىء بعد [تربص]^(٣) أربعة أشهر بقوله: ﴿رَبِّصْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءَ﴾؛ لذلك كان له الفىء بعد مضى الأربعة الأشهر، وروى فى بعض الأخبار الوقف فيه، وروى عن عمر^(٤) وعلى^(٥) وعثمان^(٦) وعائشة^(٧) وابن عمر^(٨) - رضى الله تعالى عنهم - فى المولى: إذا مضت أربعة أشهر فأما أن يفىء وإما أن يطلق. إلى هذا يذهبون. لكن هذا يحتمل أن يكون من الراوى دون أن يكون ما قالت الصحابة. وأما عندنا: إن قولهم: ذكر الفىء بعد تربص أربعة أشهر، فذلك لا يوجب الفىء بعد مضيتها؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَأَنْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، ليس أنه يمسكها بعد مضى الأجل، ولكن معناه: إذا قرب انقضاء أجلهن فأمسكوهن. فعلى ذلك جعل لهم الفىء، إذا قرب انقضاء أربعة أشهر.

وأما ما روى من (الوقف)، فليس فيه الوقف بعد مضى أربعة أشهر، يحتمل الوقف فى الأربعة الأشهر.

(١) سقط فى ط.

(٢) بدل ما بين المعقوفين فى أ: فإن فاء إليها، وإلا تطلق.

(٣) سقط فى ط.

(٤) أخرجه ابن جرير (٤٦١٥، ٤٦١٦، ٤٦١٧)، وانظر الدر المنثور (٤٨٥/١).

(٥) أخرجه ابن جرير من (٤٦١٨) إلى (٤٦٢٤)، ومالك، والشافعى وعبد بن حميد والبيهقى كما فى الدر المنثور (٤٨٥/١).

(٦) أخرجه ابن جرير (٤٦٢٥)، والشافعى، والبيهقى، كما فى الدر المنثور (٤٨٥/١).

(٧) أخرجه ابن جرير من (٤٦٣٣-٤٦٣٧)، والشافعى والبيهقى كما فى الدر المنثور (٤٨٦/١).

(٨) أخرجه البخارى (٥٢٩١)، وابن جرير من (٤٦٣٨) إلى (٤٦٤٥)، ومالك والشافعى وعبد بن حميد والبيهقى كما فى الدر المنثور (٤٨٥/١).

وأما عندنا: فإنها تَبَيَّنُ إذا مضت أربعة أشهر؛ لما روى عن سبعة من أصحاب رسول الله ﷺ، أو ثمانية، أنهم قالوا: إذا مضت أربعة أشهر بانت منه، من نحو: عمر وعلى وابن مسعود وعثمان وابن عباس وجابر وزيد بن ثابت^(١)، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فاتبعناهم.

ثم اختلف في الطلاق إذا وقع:

قال قوم: هو رجعى. وهو قول أهل المدينة. فهو على قولهم؛ تعُتُّ^(٢)؛ لأن الزوج يقدم إلى الحاكم، فيطلق عليه الحاكم، ثم كان له حق المراجعة، فيكلف^(٣) الحاكم العنت.

وأما عندنا: فهو بائن. وعلى ذلك جاءت الأخبار، روى عن ابن عباس^(٤) - رضى الله تعالى عنه - أنه قال: إذا مضت أربعة الأشهر فهي تطليقة بائنة. وعن ابن مسعود^(٥) - رضى الله تعالى عنه - مثله. وروى عن أبي بن كعب^(٦) - رضى الله تعالى عنه - فى قوله: «فإن فاءوا» أى فيهن يعنى فى الأربعة الأشهر، «فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ» فثبت أنه جعل الرحمة والمغفرة فيها.

والثانى: قوله: «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا»، ولو لم يجعل له القربان والنقض فى المدة لكان لا سبيل له إلى نقضها بعد مضى المدة؛ إذ هى تتأكد؛ فثبت أنه لا بما اعتبروا يلزم.

ثم قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ» يحتمل وجهين:

يحتمل: بما جعل له الخروج مما ضيق على نفسه؛ لأنه لا تطول عليه المدة.

ويحتمل: أن المغفرة كانت بما ارتكب ما إذا مضى عليه وجد ذاته مستحقاً للعقوبة،

فغفر له صنيعه، ورحمه بأن يجاوز عنه ما فعل.

وقوله: «وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ» :

روى عن ابن عباس^(٧) - رضى الله تعالى عنه - أنه قال: عزيمة الطلاق مضي أربعة

(١) أخرجه عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى كما فى الدر المنثور (١/٤٨٦).

(٢) فى ب: لغت.

(٣) فى أ، ب: فيكلفون.

(٤) تقدم.

(٥) تقدم.

(٦) أخرجه أبو عبيد فى فضائله وابن المنذر كما فى الدر المنثور (١/٤٨٤).

(٧) أخرجه ابن جرير من (٤٥٧٨) إلى (٤٥٨٤)، وعبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور =

أشهر. وقد ذكرنا قول الصحابة - رضى الله تعالى عنهم - : إن عزيمة الطلاق [انقضاء]^(١) أربعة أشهر.

وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

سميع: بإيلائهم^(٢)، عليم: بترك الفىء وتحقيق حكمه، أو عليم بما أراد بالإيلاء، كأنه قال: إنه عن علم بما يكون من خلقه وبما به صلاحهم وما إليه مرجعهم، خلقهم، وهو السميع بجميع ما به تناجوا وأسروا وجهروا. والله الموفق.

و الفىء: الجماع، وهو الرجوع فى الحاصل؛ لأنه حلف ألا يقربها، فإذا قربها رجع عن ذلك. وهكذا روى عن ابن عباس^(٣) وابن مسعود^(٤) - رضى الله تعالى عنهما - أنهما قالا: الفىء: الجماع.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَتُ يَرْبِصَتْ أَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٢٨) **أُطْلِقَ مَرَّتَانِ فَإِنْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيعُ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٢٩) **فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾****

ثم اختلف الناس فى الأقراء فى قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَتُ يَرْبِصَتْ أَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾: قال بعضهم: الأقراء: الأقرء: هى الأطهار^(٥).

= وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى كما فى الدر المنثور (٤٨٦/١).

(١) سقط فى ط.

(٢) فى أ: بالإيلاء.

(٣) أخرجه ابن جرير من (٤٥١٣) إلى (٤٥١٦)، وعبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن

حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه كما فى الدر المنثور (٤٨٤/١).

(٤) أخرجه ابن المنذر كما فى الدر المنثور (٤٨٤/١).

(٥) قال الفيومى: القرء فيه لغتان: الفتح وجمعه قُرُوءٌ وأقُرُوء، مثل قُلُسٍ وقُلُوسٍ وأقُلُسٍ، والضم،

ويجمع على: أقراء، مثل: قُئِلَ وأقْفَال، قال أئمة اللغة: ويطلق على الطهر والحيض.

واختلف الفقهاء فى معنى القرء اصطلاحاً على قولين:

القول الأول: وهو قول كثير من الصحابة - رضوان الله عليهم - وفقهاء المدينة، ومالك

والشافعى وأحمد فى إحدى الروايتين عنه: أن المراد بالأقراء فى العدة: الأطهار، والطهر

عندهم هو المَحْتَوَش بين دمين وهو الأظهر عند الشافعية - لا مجرد الانتقال إلى الحيض،

واستدلوا على قولهم بما يلى:

= - بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أى: فى عدتهن أو فى الزمان الذى يصلح لعدتهن، فاللام بمعنى (فى)، ووجه الدلالة: أن الله - عز وجل - أمر بالطلاق فى الطهر، لا فى الحيض لحرمته بالإجماع؛ فيصرف الإذن إلى زمن الطهر، ففيه دليل على أن القراء هو الطهر الذى يسمى عدة، وتطلق فيه النساء.

- وبقول النبى ﷺ: «مُرَّةٌ فليراجعها، ثم ليتركها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التى أمر الله عز وجل أن يُطلق لها النساء». فالرسول ﷺ أشار إلى الطهر وأخبر أنه العدة التى أمر الله تعالى أن تطلق لها النساء؛ فصح أن القراء هو الطهر. كما أن العدة واجبة فرضاً إثر الطلاق بلا مهلة فصح أنها الطهر المتصل بالطلاق، لا الحيض الذى لا يتصل بالطلاق، ولو كان القراء هو الحيض لوجب عندهم على أصلهم فيمن طلق حائضاً أن تعد بتلك الحيضة قراء، ولكن لا يعتد بها.

- وبحديث عائشة - رضى الله عنها - قالت: «إنما الأقراء الأطهار».

- ولأن القراء مشتق من الجمع، فيقال: قرأت كذا فى كذا، إذا جمعته فيه، وإذا كان الأمر كذلك كان بالطهر أحق من الحيض؛ لأن الطهر اجتماع الدم فى الرحم، والحيض خروجه منه، وما وافق الاشتقاق كان اعتباره أولى من مخالفته، ويجمع على: أقراء وقُرُوء وأقُرُوء.

القول الثانى: المراد بالقراء: الحيض، وهو ما ذهب إليه جماعة من السلف كالخلفاء الأربعة وابن مسعود - رضى الله عنهم - وطائفة كثيرة من الصحابة والتابعين وبه قال أئمة الحديث والحنفية وأحمد فى رواية أخرى حيث نقل عنه أنه قال: كنت أقول: إنها الأطهار، وأنا اليوم أذهب إلى أنها الحيض. وقال ابن القيم: إنه رجع إلى هذا، واستقر مذهبه عليه فليس له مذهب سواه. واستدلوا على قولهم بالكتاب والسنة والمعقول.

- أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَالْمَطْلَقَتُ يَرِيضُكَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَ قُرُوءٍ﴾ فقد أمر الله تعالى بالاعتداد بثلاثة قروء، ولو حمل القراء على الطهر لكان الاعتداد بطهرين وبعض الثالث؛ لأن بقية الطهر الذى صادفه الطلاق محسوب من الأقراء عند القول الأول، والثلاثة اسم لعدد مخصوص، والاسم الموضوع لعدد لا يقع على ما دونه؛ فيكون ترك العمل بالكتاب، ولو حمل على الحيض يكون الاعتداد بثلاث حيض كوامل؛ لأن ما بقى من الطهر غير محسوب من العدة عندهم فيكون عملاً بالكتاب؛ فكان الحمل على ذلك أولى لموافقة لظاهر النص وهو أولى من مخالفته.

- وأما السنة فما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «طلاق الأمة اثنتان، وعدتها حيضتان»، ومعلوم أنه لا تفاوت بين الحرة والأمة فى العدة فيما يقع به الانقضاء؛ إذ الرق أثره فى تنقيص العدة التى تكون فى حق الحرة لا فى تغيير أصل العدة، فدل على أن أصل ما تنقضى به العدة هو الحيض.

ولأن المعهود فى لسان الشرع استعمال القراء بمعنى الحيض، قال النبى ﷺ: «تدع الصلاة أيام أقرائها»، وقال لفاطمة بنت أبى حُبَيْش: «انظرى إذا أتى فَرْوُكُ فلا تصلى، فإذا مَرَّ قَرْوُكُ فتطهري ثم صلى ما بين القراء إلى القراء» فهذا دليل على أنه لم يعهد فى لسان الشرع استعماله بمعنى الطهر فى موضع، فوجب أن يحمل كلامه على المعهود فى لسانه.

وأما المعقول: فهو أن هذه العدة وجبت للتعرف على براءة الرحم، والعلم ببراءة الرحم يحصل بالحيض لا بالطهر؛ فكان الاعتداد بالحيض لا بالطهر.

ينظر: المصباح المنير (القراء) الدسوقي (٢/٤٦٩)، جواهر الإكليل (١/٣٨٥)، الفواكه الدوانى (٢/٩١)، روضة الطالبين (٨/٣٦٦)، مغنى المحتاج (٣/٣٨٥)، تفسير القرطبي (٣/١١٣)، إعلام الموقعين (١/٢٥)، المغنى لابن قدامة (٧/٤٢٥).

وقال آخرون: هي الحيض. وهو قولنا. وعلى ذلك اختلف الصحابة:
قال عمر^(١) وعلى^(٢) وعبد الله بن مسعود^(٣) - رضى الله تعالى عنهم أجمعين - هي
الحيض.

وقالت عائشة^(٤) وزيد بن ثابت^(٥) وابن عمر^(٦) - رضى الله تعالى عنهم - هي
الأطهار. وبه أخذ أهل المدينة، وقالوا: قلنا ذلك بالسنة والأخبار عن الصحابة - رضوان
الله تعالى عليهم أجمعين - واللسان، والمناقضة:

أما السنة: فقوله لعمر: «مر ابنك فليراجعها، ثم ليطلقها وهي طاهر أو حامل من غير
جماع؛ فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن تطلق لها النساء»^(٧)؛ فدل أن العدة التي تطلق

(١) أخرجه ابن جرير (٤٦٨٤، ٤٦٨٥، ٤٦٩٠).

(٢) أخرجه ابن جرير (٤٦٩٣، ٤٦٩٧، ٤٧٠٢، ٤٧٠٣)، وانظر الدر المنثور (١/٤٩٠).

(٣) أخرجه ابن جرير (٤٦٧٩، ٤٦٨٧، ٤٦٨٨، ٤٦٩٢) عنه وعن عمر معا، وانظر الدر المنثور (١/٤٩٠).

(٤) أخرجه ابن جرير (٤٧٠٤، ٤٧٠٥، ٤٧٠٦، ٤٧١٠)، وانظر الدر المنثور (١/٤٩٠).

(٥) أخرجه ابن جرير (٤٧٠٨، ٤٧١٥، ٤٧١٨، ٤٧١٩) وانظر الدر المنثور (١/٤٩٠).

(٦) أخرجه ابن جرير (٤٧٠٩، ٤٧١١، ٤٧١٢)، وانظر الدر المنثور (١/٤٩٠).

(٧) أخرجه مالك (٥٧٦/٢) كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في الأقراء (٥٣)، والبخاري (٣٤٥/٩)
كتاب: الطلاق، حديث (٥٢٥١)، ومسلم (١٠٩٣/٢) كتاب: الطلاق، باب: تحريم طلاق
الحائض بغير رضاها، حديث (١٤٧١/١)، وأحمد (٦/٢)، والشافعي (٣٢/٢ - ٣٣)
كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في أحكام الطلاق، حديث (١٠٢، ١٠٤)، والدارمي (١٦٠/٢)
كتاب: الطلاق، باب: السنة في الطلاق، والطالسي (١٨٥٣)، وأبو داود (٦٣٢/٢، ٦٣٤)
كتاب: الطلاق، باب: طلاق السنة، حديث (٢١٧٩)، والنسائي (١٣٨/٦) كتاب: الطلاق،
باب: وقت الطلاق للعدة، وابن ماجه (٦٥١/١) كتاب: الطلاق، باب: طلاق السنة، حديث
(٢٠١٩)، وابن الجارود في المتقى رقم (٧٣٤)، والمروزي في السنة (٢٤٠)، والدارقطني (٤/
٦ - ١١) كتاب: الطلاق والخلع والإيلاء، والبيهقي (٣٢٣/٧ - ٣٢٤) كتاب: الخلع والطلاق،
باب: ما جاء في طلاق السنة، وابن حبان (٤٢٤٩ - الإحسان)، والبعغوي في شرح السنة (٥/
١٤٨) من طرق عن نافع عن ابن عمر به.

وأخرجه البخاري (٥٢١/٨) كتاب: التفسير، باب: سورة الطلاق، حديث (٤٩٠٨)، ومسلم
(١٠٩٤/٢) كتاب: الطلاق، باب: تحريم طلاق الحائض بغير رضاها وأنه لو خالف وقع الطلاق،
حديث (٤، ٥ / ١٤٧١)، وأبو داود (٦٣٤/٢ - ٦٣٥) كتاب: الطلاق، باب: في طلاق السنة،
حديث (٢١٨٢، ٢١٨١)، والنسائي (١٣٨/٦) كتاب: الطلاق، باب: وقت الطلاق، والترمذي
(٤٧٩/٣) كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في طلاق السنة، حديث (١١٧٦)، وابن ماجه (١/
٦٥٢) كتاب: الطلاق، باب: الحامل كيف تطلق، حديث (٢٠٢٣)، والدارمي (١٦٠/٢)
كتاب: الطلاق، باب: السنة في الطلاق، وابن الجارود (٧٣٦)، وأبو يعلى (٣٢٩/٩) رقم
(٥٤٤٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار، والدارقطني (٦/٤، ٧) كتاب: الطلاق والخلع
والإيلاء وغيره، والبيهقي (٣٢٤/٧) كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في طلاق السنة وطلاق

لها النساء هي الأطهار.

لكن الجواب لهذا من وجهين:

أحدهما: أنه جعل ذلك عدة للطلاق، لا عدة عن الطلاق. والعدة للطلاق غير العدة عن الطلاق؛ وكذا نقول في الطهر الذي تطلق فيه النساء: إنها عدة للطلاق، لا عنها. والثاني: أن من قول الرجل أن له الإيقاع في آخر أجزاء الطهر، وقد ذكر في الخبر: «الطلاق قبْل عدتهن»^(١)، ولو كان المعنى به: الطهر، لكان الطلاق في آخر أجزاء الطهر قبل الحيض - في آخر أجزاء الطهر، لا في القبْل. فثبت أن القول بجعل الطهر عدة عن

= البدعة، من طرق عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه به.

وقال الترمذی: حديث حسن صحيح.

وأخرجه البخاری (٢٦٤/٩) كتاب: الطلاق، باب: إذا طلقت الحائض تعتد بذلك الطلاق، حديث (٥٢٥٢)، ومسلم (١٩٠٧/٢) كتاب: الطلاق، باب: تحريم طلاق الحائض بغير رضاها... حديث (١١، ١٤٧١/١٢)، وأحمد (٦١/٢، ٧٤)، والطحاوی فی شرح معانی الآثار (٥٢/٣)، وابن الجارود (٧٣٥)، والدارقطني (٤/٥ - ٦) كتاب: الطلاق والخلع والإيلاء وغيره، من طريق شعبة عن أنس بن سيرين عن ابن عمر قال: طلق ابن عمر امرأته وهي حائض، فذكر عمر للنبي ﷺ فقال: «ليراجعها» قلت: تحتسب؟ قال: «فمه».

وأخرجه البخاری (٢٦٤/٩) كتاب: الطلاق، باب: إذا طلقت الحائض تعتد بذلك الطلاق، حديث (٥٢٥٣)، والنسائي (١٤١/٦) كتاب: الطلاق، باب: الطلاق لغير العدة، والطحاوی فی شرح معانی الآثار (٥٢/٣)، وعبد الرزاق (٣٠٨/٦) رقم (١٠٩٥٥)، والطحاوی فی شرح معانی الآثار (٥٢/٣)، والبيهقي (٣٢٧/٧) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض فردها عليه رسول الله ﷺ حتى طلقها وهي طاهر.

وأخرجه البخاری (٢٦٩/٩) كتاب: الطلاق، باب: من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق، حديث (٥٢٥٨)، ومسلم (١٠٩٦/٢، ١٠٩٧) كتاب: الطلاق، باب: تحريم طلاق الحائض بغير رضاها حديث (٩، ١٤٧١/١٠)، وأبو داود (٦٦٢/١) كتاب: الطلاق، باب: في طلاق السنة، حديث (٢١٨٣)، والنسائي (١٤١/٦) كتاب: الطلاق، باب: الطلاق لغير العدة ما يحتسب منه على المطلق، والترمذی (٤٧٨/٣) كتاب: الطلاق واللعان، باب: ما جاء في طلاق السنة، حديث (١١٧٥)، وابن ماجه (٦٥٠/١) كتاب: الطلاق، باب: طلاق السنة، حديث (٢٠٢٢)، وعبد الرزاق (٣٠٩/٦) رقم (١٠٩٥٩)، والطحاوی (١٦٠٣)، والبيهقي (٥٢/٣)، والبيهقي (٣٢٥ - ٣٢٦) من طريقين: عن أبي غلاب يونس بن جبير قال: قلت لابن عمر: رجل طلق امرأته وهي حائض، فقال: تعرف ابن عمر؟ إن ابن عمر طلق امرأته، وهي حائض فأتى عمر النبي ﷺ فذكر ذلك له فأمره أن يراجعها، فإذا ظهرت فأراد أن يطلقها فيطلقها. قلت: فهل عد ذلك طلاقاً؟ قال: رأيت إن عجز واستحجم.

(١) أخرجه مسلم (١٤٧١/١٤) عن ابن عمر قال:

وقرأ النبي ﷺ: «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبْلِ عدتهن».

وقال الحافظ في التلخيص (٤١٨/٣): وقال ابن عبد البر:

هي قراءة ابن عمر وابن عباس وغيرهما، لكنها شاذة لكن لصحة إسنادها يحتج بها، وتكون مفسرة لمعنى القراءة المتواترة.

الطلاق بعيد.

وأما اللسان فهو قول الناس: قرأ الماء في حوضه^(١)، وقرأ الطعام في شذقه، أى: حبس، والطهر بسبب حبس الدم.

لكن عندنا: الطهر جبلة وأصل، وعليها خلقت وأنشئت، والحيض عارض، فإذا كان في الرحم دم خرج، وإلا كانت على أصل خلقتها طاهراً؛ لأن الطهر يحبس الدم، فإذا كان هذا ما ذكرنا بطل احتجاجه باللغة واللسان.

وأما المناقضة [ف] هى أن يقول: جعلتم هى معتدة مع زوال الأذى عنها ما لم تغتسل فى إبقاء حق الرجعة.

فأما دعوى المناقضة فهى بعيدة؛ لأن الكتاب جعلها باقية ما لم تغتسل على حكم الأذى؛ فإن كان فيه طعن فعلى الكتاب.

وقال: ذكر الله تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ باسم التذكير، لا باسم التأنيث؛ فدل أنه أراد الأطهار، يقال: ثلاثة رجال، وثلاث نسوة، فإذا أدخل فيه (الهاء) عقل أنه أراد الطهر. قيل: إن اللغة لا تمنع^(٢) عن تسمية شىء واحد باسم التذكير والتأنيث كالبر والحنطة ونحو ذلك إذا لم يكن من ذى روح، فإذا كان كذلك فلا دلالة فيه على جعل ذلك طهراً. وقال: القرء: هو الانتقال من حال الى حال؛ يقال: أقرأ النجم: إذا غاب، وقرأ: إذا طلع، ونحوه.

لكن هذا ليس بشىء؛ لأنه لو كان القرء هو الانتقال من حال إلى حال لكان يقال للنجم إذا طلع: أقرأ؛ فيكون الاسم للظهور، لا للغيوبة، أو لهما جميعاً؛ فلا دلالة فى ذلك. وأما الأصل عندنا: فقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، فأمر بالإمسك عند بلوغ أجلهن. والبلوغ: اسم للتمام. ثم لا يخلو بلوغ الأجل من أن يكون بالإشراف على أول أجزاء الطهر أو عند انتهائه. فإن كان على انتهاء الطهر فلا غاية له ينتهى إليه ليقطع عليه الحكم، وإن كان على الإشراف عليه أيضاً كذلك، ثم لو حمل على الانتهاء أيضاً يبعد بما يعرف ذلك بالحيض الذى يقطع جهة الإمساك؛ فحمل على ما يعرف، لا على ما لا يعرف - والله أعلم فثبت أنه الحيض؛ لأن لها الغاية.

والثانى: قوله تعالى: ﴿وَالَّتِى يَسْنَى مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤]، كذا اتفقوا فيه أنه مذكور على البدل، ولم يعرف ذكر الأبدال فى

(١) فى ب: جوفه.

(٢) فى أ: تمتنع.

الأشياء إلا على أثر الأصول حيثما ذكر - ذكر الحيض عند ذكر البذل - فبان أن المبدل من ذلك إنما هي الحيض، المجعولة أصولاً في تنقضى العدة هو الحيض .
واحتجوا بقوله ﷺ: «عدة الأمة حيضتان»^(١)؛ ثبت أن أصل ما به تنقضى العدة هو الحيض .

[ثم الدليل على أن المراد من قوله: ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ﴾، وإن احتمل الطهر، يرجع الى الحيض [وجوه: أحدها:]^(٢) أن (ثلاثة) اسم لتمام العدد، فيصير كأنه قال: ثلاثة أطهار، لو أراد به الطهر، أو ثلاثة حيض، لو أراد به الحيض . ثم هم على اختلافهم اتفقوا على أنه بالحيض ثلاثة، وبالطهر طهران وبعض الأول. ثبت أن الحيض أولى مع ما كان فيه الاحتياط إذ احتمل الوجهين أن يدخل جميعاً في الحق لا يزال بعد أن ثبت إلا بالبيان، ويبين ذا أن في الخبر تلك العدة التي أمر الله أن تطلق لقبها النساء، أنه الحيض حتى يكون قبله الطهر مع ما يحتمل عدة فعل الطلاق في الانقضاء^(٣) يبين ذلك ما روى عن

(١) أخرجه أبو داود (٦٦٥/١) في الطلاق، باب في سنة طلاق العبد (٢١٨٩)، والترمذي (٤٨٨/٣) في الطلاق، باب ما جاء أن طلاق الأمة تطليقتان (١١٨٢)، وابن ماجه (٦٧٢/١) في الطلاق، باب في طلاق الأمة وعدتها (٢٠٨٠)، والدارقطني (٣٩/٤)، والحاكم (٢٠٥/٢)، والبيهقي (٣٦٩/٧) عن أبي عاصم نا ابن جريج عن مظاهر عن القاسم بن محمد عن عائشة قال رسول الله ﷺ: «طلاق الأمة تطليقتان وقروها حيضتان» قال أبو عاصم: فلقيت مظاهراً فحدثني عن القاسم عن عائشة عن النبي ﷺ مثله إلا أنه قال: «وعدها حيضتان» .
قال أبو داود: وهو حديث مجهول .

وقال الترمذي: حديث عائشة حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث مظاهر ابن أسلم، ومظاهر لا نعرف له في العلم غير هذا الحديث .
وقال البيهقي بإسناده عن ابن حماد ويقول: قال البخاري: مظاهر بن أسلم عن القاسم عن عائشة: ضعفه أبو عاصم .

ويشهد له حديث ابن عمر، أخرجه ابن ماجه (٢٠٧٩)، والدارقطني (٣٨/٤)، والبيهقي (٧/٣٦٩) عن عمر بن شبيب المسلمي عن عبد الله بن عيسى عن عطية عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ: «طلاق الأمة اثنتان، وعدتها حيضتان» . وقال البيهقي والدارقطني: تفرد به عمر بن شبيب المسلمي، هكذا مرفوعاً، وكان ضعيفاً، والصحيح ما رواه سالم ونافع عن ابن عمر موقوفاً .
وأخرجه مالك (٥٧٤/٢) في الطلاق، باب ما جاء في طلاق العبد (٥٠)، ومن طريقه أخرجه البيهقي (٧/٣٦٩) عن نافع عن ابن عمر موقوفاً .

وأخرجه الدارقطني (٣٨/٤) عن سالم ونافع عن ابن عمر موقوفاً .
وقال الدارقطني: وهذا هو الصواب، وحديث عبد الله بن عيسى عن عطية عن ابن عمر عن النبي ﷺ منكر غير ثابت من وجهين:

أحدهما: أن عطية ضعيف، وسالم ونافع أثبت منه وأصح رواية .

والوجه الآخر: أن عمر بن شبيب ضعيف الحديث، لا يخبر بروايته .

(٢) سقط في ط .

(٣) في ط: لا الانقضاء .

رسول الله ﷺ، أنه قال: «إن عدة الأمة حيضتان»^(١). وهى بعض عدة الحرة، ووقت طلاقها وقت طلاق الحرة. فبان أن العدة اثنتان [والثانى: ذكر الحيض عند ذكر البذل وذلك حكم الأبدال أن يذكر أصولها عند ذكرها].

والثالث: قوله ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ والبلوغ اسم للتمام ووفاء بعد المراجعة من بعد الإشراف عليه، وهو بالطهر لا يعلم حتى يرى الدم؛ لأن الطهر لا غاية له، وذلك يمنع على قولهم الرجعة؛ فثبت أنه الحيض؛ لأن له الغاية، وإن لم ينقطع الدم وقت ولما كان الطلاق وقت ابتداء الحرمة، وذلك طهر، ووقت تقضى العدة وقت تمام ذلك، فهو التطهر، مع ما ينقضى سبب الملك بالطلاق، ووقته الطهر، وبقيّة الملك بتقضى العدة، فيجب أن يكون وقته الطهر على إلحاق جميع الفروع مع الأصول، وإلحاق التوابع بالمتبوعين، ولا قوة إلا بالله^(٢).

ثبت أن أصل ما به تنقضى العدة هو الحيض^(٣).

وقال الشافعى: قوله ﷺ: «عدة الأمة حيضتان» أى: قرءان والقرءان هما الطهران. فيقال له: [أبلغت فى المقلة]^(٤)، وأفرطت فى الحجاج، حيث فهمت من الحيض القرء، وهو أوضح عند أهل اللسان بالسماع من المفهوم له به مع ما فى ذلك تجهيل رسول الله ﷺ باللسان، وهو أفصح العرب وأعلم البشر، حيث عبر عن الطهر بالحيض. ووجه آخر: أنهم اتفقوا على أنه لو طلق فى بعض الطهر فالبقية منه عدة، ومثله من الاعتداد قرءان ونصف، والكتاب أوجب الاعتداد بالثلاث؛ فثبت أن الأمر بالاعتداد أمر بالحيض، لا بالإطهار للمعنى الذى وصفنا، وإن كان القرء اسماً للطهر والحيض فى اللغة.

ثم الأصل فى المسألة: أن أول ابتداء الحل لزوجها ولغيره بالطهر، وكذلك نهاية الحل إنما جعلت بالأطهار.

ثم الأصل: أن ابتداء حرمتها على الزوج الأول بالطهر، فيجعل انتهاء الحرمة فى مثله بالطهر. وحاصل هذا أنه جعل نهاية الحل فيه وفى غيره بما به ابتداء الحل، فكذا يجعل نهاية الحرمة فيه وفى غيره بما به ابتدأه. وإذا ثبت أن المنظور فى الحل والحرمة فى الابتداء بالابتداء، وجب أن يكون المنظور فى الحل والحرمة بالانتهاء.

(١) تقدم.

(٢) ما بين المعقوفين سقط فى ط.

(٣) ما بين المعقوفين سقط فى أ.

(٤) فى أ: فى العقلة.

ثم فى قوله: ﴿وَالْمُطَلَّفَتُ يَرْبِصُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾، وفى قوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾، وفى قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي قُلَّ إِصْلَاحٌ لَّهَا خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْهَا لَمْ تَجِدُوا لَهُمْ مَا أَقْرَأَ؟﴾، وفى أى مكان؟، ولم يبين المخالطة فى ماذا، وفى أى شىء؟ فالاختلاف فيه باق إلى يوم التناد؛ فبطل قول من ينكر تأخر البيان، وثبت قول من أقر به. وبالله التوفيق. وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُنَّ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. وفى الآية دلائل:

أحدها: أن ذكر حرمة الكتمان فيمن آمن ليس بشرط فيه دون غيره؛ إذ قد يلزم ذلك من هو غير مؤمن، إذ هو غير مستحسن فى العقل. ففيه الدليل على أن الحكم الموجب لعلة يجوز لزومه فيما ارتفعت عنه تلك العلة وعدمت وهو كقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، وقد يلزم (إصلاح ذات البين) فى غير الإيمان، وكذا قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وقد يلزم ترك الربا للمعاهد، وقد يجوز ذلك للمسلم فى غير داره؛ فدل أن الحكم إذا ذكر لعلة^(١) فى أحد لا يمنع لزوم ذلك فى غير المذكور. قال الشيخ - رحمه الله تعالى - : فيه دليل على أن إضافة الحكم إلى سبب لا يمنع حقه ارتفاعه. وفيه دليل ألا يحل ذلك لمن قد آمن فى الخلق؛ لأن حقه التصديق وإظهار الحق، وفى الكتمان والتكذيب ترك ما فيه من الشرط. والله أعلم. ثم اختلف فى قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾.

قال بعضهم: الحبل والحيض. وكذلك روى عن على وعبد الله بن مسعود وعبد الله ابن عباس^(٢)، رضى الله تعالى عنهم، أنهم قالوا: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾: الحبل والحيض؛ فثبت أن موضع الحيض الرحم. ثم الرحم يشغله الحبل عن خروج الدم؛ فبان أن الحامل لا تحيض. وعلى ذلك قوله ﷺ: «إنما ذلك دم عرق انقطع»^(٣). وهو الأمر الظاهر المتعارف فى النساء أن الحبل يحبس الدم. وقال بعض أهل التأويل: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾: الحبل خاصة دون الحيض؛ لوجهين:

(١) فى ط: العلة.

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٩١٠٣).

(٣) أخرجه الدارقطنى (٢١٦/١)، والبيهقى (٣٥٤/١) عن عائشة بنحوه.

أحدهما: أنهن فى الجاهلية كن يكتمن ذلك فيلحقن بغير الآباء، فأوعدن على ذلك بعد الإسلام؛ فثبت أن الحيض لا يحتمل.

والثانى: أن الحيض لا ينسب بكونه فى الرحم، فإذا كان غير منسوب إليه لم يحتمل كونه فيه. والله أعلم.

لكن الوجه فيه ما ذكرنا من قول الصحابة، وما فيه من الدلالة أنهم مؤتمنات فيما يخبرن؛ لوجهين:

أحدهما: ما جاء فى الخبر من أن الأمانة أن تؤتمن المرأة على فرجها^(١).

والثانى: لولا أنها ممن يقبل خبرها فيه^(٢) لما أوعدن على الكتمان.

ثم يحتمل الكتمان من وجهين:

أحدهما: أن يكتمن ذلك يستوجب به الإنفاق من عند أزواجهن بقولهن: العدة باقية، وذلك يحتمل الحيض والحبل جميعاً.

ويحتمل: ما قاله بعض أهل التأويل من إبقاء حق الرجعة.

ويحتمل قول أبى حنيفة، رحمه الله تعالى، فى كتمانها، إذ قال فى المرأة إذا جاءت بولد فى العدة، فشهدت امرأة على الولادة والحبل: لم يكن ظاهراً أن يقبل قولها؛ إذ هى أمرت بالإظهار، والكتمان أورث تهمة فى القبول.

ويحتمل: ألا يحل لهن أن يكتمن الحبل فيلحقن بغيرهم من الأزواج. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَيُعَوِّلْنَهُنَّ أَتَقِي رِيْهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾.

يحتمل وجهين:

يحتمل: أنهن لا يملكن الرجعة، ولا منع أزواجهن عن المراجعة، بل ذلك إلى بعولتهن.

ويحتمل: ﴿أَتَقِي رِيْهِنَّ﴾ فى نكاح فى العدة، لا فى حق الرجعة؛ إذ الزوج يملك نكاحها فى العدة، وغيره من الناس لا يملك، كقوله: ﴿وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ الْيَكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾.

وقوله: ﴿وَيُعَوِّلْنَهُنَّ﴾، فيه دليل أن قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾، إنما عنى به المطلق طلاقاً لم يقطع على نفسه جهة العود.

وقوله فى ذلك: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾، يحتمل وجوهاً:

(١) ينظر: أحكام القرآن (١/ ٣٧١).

(٢) فى أ: خبر فيها، وفى ب: فيما تخير.

يحتمل: إصلاح ما بينهن.

ويحتمل: إن أرادوا إمساكنهم بالمعروف، كقوله: ﴿وَلَا تُنْكُوهُنَّ فِرَارًا﴾، فهو ممسك لها وإن كان مضراً.

ثم الأصل في هذا: أنه وإن قال: ﴿فَأُنْكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، ليس على ألا يصير ممسكاً لها بغير المعروف.

وأصل هذا: أن ليس في القول بأن ﴿لَمْ تَفْعَلُوا﴾، دليل الجواز، والفساد إذا فعل ذلك.

ثم اختلف في قوله: ﴿فِي ذَلِكَ﴾، أى: في الوقت الذي يعيده به، أو ﴿فِي ذَلِكَ﴾ القروء. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

روى عن ابن عباس^(١)، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: إني أحب أن أتزين لامرأتي كما أحب أن تزين لى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. وقال آخرون: لهن من الكفاف ما عليهن من الخدمة.

وقال غيرهم: لهن من الحق في المهور بتسليم الأزواج إليهن ما عليهن من تسليم الألبضاع^(٢) إلى الأزواج؛ فيدل هذا على أن الخلوة، والتسليم منها، يحل محل قبض الحق منها لزوجها.

وقيل: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾، الحقوق ما تلزمهن من حقوق الأزواج، يلزم مثلها على الأزواج لهن، وإن كانت مختلفة.

وقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قيل^(٣): هو الطلاق بيد الرجل وليس بيدها.

وقيل^(٤): هي الإمارة والطاعة والأمر.

وقيل^(٥): هي ما فضل الله به عليها من الجهاد والميراث وغيره.

(١) أخرجه ابن جرير (٤٧٧٢)، ووكيع وسفيان بن عيينة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٤٩٣/١).

(٢) في أ: البضاع.

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي مالك كما في الدر المنثور (٤٩٤/١).

(٤) قاله زيد بن أسلم، أخرجه ابن جرير عنه (٤٧٧٦)، وعن ابن زيد (٤٧٧٧)، وانظر الدر المنثور (١/٤٩٤).

(٥) أخرجه ابن جرير وعبد بن حميد عن مجاهد كما في الدر المنثور (٤٩٣/١).

وقيل: لهم من الفضيلة من الولايات والشهادات والعقل، وذلك ليس لهم.

وقيل: هي فضيلة في الحق وبما ساق إليها من المهر.

وقال الشيخ أبو منصور، رحمه الله تعالى، في قوله: ﴿وَلَكِنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾، أى من الحقوق على الأزواج. ثم يحتمل حقوقهن المهر والنفقة، ويحتمل ما أتبع من قوله: ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾، ويحتمل قضاء ما لها من الحوائج خارج البيت مما به قوام دينها ووقايتها عن النار. وعليها من الحقوق:

مقابل الأول: البذل له وألا يوطئن فرشهن أحداً.

ومقابل الثانى: أن يحسن إليهن فى البر باللسان والقول المعروف الذى فيه تطيب نفسه به، كما وصف الحميدة منهن. «من إذا نظرت إليها سرتك، وإذا دعوتها أجابتك، وإذا غبت عنها حفظتك فى مالك ونفسها».

ومقابل الثالث: ألا تتلقاه بمكروه، ولا تقابله بما يضجره ويغضبه مع الخدمة وكفاية الداخل مما به قوام دينه. والله أعلم.

و «الدرجة»: التى ما له من الملك فيها، والفضل فى الحقوق عليها، وما جعل «قواماً عليها»، وغير ذلك. والله أعلم.

ويحتمل: ما لهم من قوله: ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾، وعليهن بذل حقهم المعروف، والإحسان إليهم فيما يبغيون من الخدمة والقيام بكفاية داخل البيت، مع حفظ ماله عندها. والله أعلم.

وقوله عز وجل: ﴿الطَّلَقُ مَرَّتَيْنِ﴾.

فيه دلالة أنه يطلق بنتين بمرتين.

وقوله: ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾.

أن له الرجعة بعد طلاقين، بذكره مرتين. وفيه أن المطلق فى الطهر الثالث من غير رجعة مطلق للسنة؛ لما خير بين الإمساك أو التسريح من غير مراجعة، وهو على مالك؛ لأنه يقول: ليس له أن يزيد على تطلقه واحدة إلا أن يراجع.

والتسريح بإحسان: هو التغطية الثالثة، كذلك روى عن رسول الله ﷺ، أنه سئل عن «التسريح بإحسان»، فقال: «هو التغطية الثالثة»^(١).

(١) أخرجه ابن جرير (٤٧٩٥، ٤٧٩٦، ٤٧٩٧)، ووكيع وعبد الرزاق وسعيد بن منصور وأحمد وعبد ابن حميد وأبو داود فى ناسخه وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن أبى رزين الأسدى كما فى الدر المنثور (١/٤٩٥).

فإن قيل: أيش الحكمة فى ذكر (المعروف) فى الإمساك، و (الإحسان) فى التسريح. قيل: وذلك أن فى (التسريح) قطع الحقوق التى أوجبها النكاح، فأمر عند قطعها عنها بالإحسان إليها مبتدئا، والإحسان أبداً إنما يكون عند ابتداء الفعل، لا عند المكافأة. وأما (المعروف) فى الإمساك فالنكاح أوجب ذلك؛ كقوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾. قيل^(١): «الميثاق الغليظ»: الحقوق التى أوجب النكاح. وهذا - والله أعلم - وجه الحكمة، و (المعروف) ما عرفنا فى النكاح، و (الإحسان) هو ما يبتدئ مما لم يعرفنا.

وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾.

فظاهر هذه الآية الكريمة يوجب ابتداء الخطاب للأزواج، ثم آخرها يوجب الخطاب لهما جميعاً، ثم آخرها يوجب الخطاب لغير الأزواج يحفظ عليهما حدود الصحبة، فيشبه أن يكون فى الآية الإضمار (فهما الحكمين)، فيكون كقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾، فيكونان هما اللذان يحفظان عليها الحد والمحدود.

ويحتمل: أن يكون الخطاب فى قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ للحكام؛ لأنهم هم الذين يتولون النظر فى أمور الناس ليقوموهم على حفظ حدود الله.

ثم القول عندنا فى قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾، إذا كان النشوز واقعاً من قبل الزوج فإنه لا يحل له أخذ شىء على الخلع استدلالاً بقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَاتٍ زَوْجٍ ءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء: ٢٠]. وأما إذا كان النشوز من قبلها فإنه لا بأس أن يأخذ قدر المهر، ويكره الزيادة [وتجوز]^(٢). أما قدر المهر فإنه لا بأس إذا كان من قبلها استدلالاً بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾، ذكر رفع الحرج عن الذى فدى فيما عنه نهى فى غير هذا وهو المؤتمن؛ لذلك قلنا: إنه يجوز إذا كان النشوز من قبلها قدر المهر. وأما الزيادة فإنها تكره استدلالاً بما روى فى الخبر: أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فذكرت بغض زوجها، فقال: «أتردين عليه حديثه؟» فقالت: نعم، وزيادة. فقال: «أما الزيادة

(١) باتى.

(٢) سقط فى ط.

فلا»^(١). ففيه الدلالة أن الشوز إذا كان من قبلها فإنه يجوز قدر المهر.

وقال ابن داود^(٢): خالف الشافعي ظاهر الكتاب فيما جعل له أخذ ما فدى والزيادة، والكتاب رفع الحرج عن أخذ ما فدى، لم يجعل له غيره بقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

وقال ابن شريح^(٣): ما ذلك الأخذ في الطلاق، إنما ذلك في الطلاق كرها؛ لأنه ليس في الآية ذكر الطلاق. واستدل بقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤]، فجعل له أكل ما أخذ بالوصف الذي ذكره، ثم كان له أخذ ما تبذل في غير الطلاق، فعلى ذلك في الطلاق [وفي الطلاق]^(٤) أحق. والله أعلم.

والأصل عندنا: جواز ما بذلت أخذه مما احتيج به الرجل إن كان له ذلك في غير الطلاق، وهو في الطلاق أجوز؛ لأنها تنتفع، غير أنه يكره له الفضل لما ذكرنا من الآية والخبر. ثم يجوز هو لأنه تبادل، فكان كالعقود التي تكره لربح ما لم يضمن على الجواز

(١) أخرجه البخاري (٣٩٥/٩) كتاب: الطلاق، باب: الخلع، حديث (٥٢٧٣)، والنسائي (١٦٩/٦) كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في الخلع، وابن ماجه (٦٦٣/١) كتاب: الطلاق، باب: المختلعة تأخذ ما أعطاها، حديث (٢٠٥٦)، والدارقطني (٤٦/٤) كتاب: الطلاق والخلع والإيلاء (١٣٥)، والبيهقي (٣١٣/٧)، والبلغوي في شرح السنة (١٤١/٥ - ١٤٢) من طريق عكرمة عن ابن عباس به.

وأخرجه أبو داود (٦٧٧/١) كتاب: الطلاق، باب: في الخلع، حديث (٢٢٢٩)، والترمذي (٤٩١/٣) كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في الخلع، حديث (١١٨٥) مكرر من طريق عكرمة عن ابن عباس بلفظ: إن امرأة ثابت بن قيس اختلعت منه فجعل النبي ﷺ عدتها حيضة. وقال الترمذي: حسن غريب.

وقال أبو داود: وهذا الحديث رواه عبد الرزاق عن معمر بن عمرو بن مسلم عن عكرمة عن النبي ﷺ مراسلاً.

(٢) هو: أبو بكر محمد بن داود وكان فقيهاً أديباً شاعراً ظريفاً وكان يناظر أبا العباس ابن شريح وخلف أباه في حلقته. وحكى القاضي أبو الحسن الخريزي أن أبا بكر لما جلس بعد وفاة أبيه في حلقته يفتي استصغروه فدرسوا إليه رجلاً فقالوا له: سله عن حد السكر ما هو؟ فأثاه الرجل فسأله عن حد السكر ما هو ومتى يكون الإنسان سكراناً؟ فقال محمد: إذا عزبت عنه الهموم وباح بسره المكتوم، فاستحسن ذلك منه وعلم موضعه من أهل العلم. ينظر: طبقات الشيرازي (ص ١٧٥).

(٣) هو: أبو أمية شريح بن الحارث القاضي: قال المدائني: مات سنة اثنتين وثمانين، قال الأشعث: مات وهو ابن مائة وعشرين سنة. وروى أن علياً عليه السلام قال: اجتمعوا لي القراء، فاجتمعوا في رحبة المسجد، قال: إني أوشك أن أفارقكم، فجعل يسألهم: ما تقولون في كذا؟ ما تقولون في كذا؟ وبقي شريح فجعل يسأله فلما فرغ قال: اذهب، فأنت من أفضل الناس أو من أفضل العرب، وقيل: إنه استقضاه عمر على القضاء بالكوفة وبقي في القضاء خمسا وسبعين سنة ثم استعفى الحاجاج فأعفاه. ينظر: طبقات الشيرازي (ص ٨٠).

(٤) سقط في أ.

فكذا هذا.

والأصل: بأن الطلاق بالبذل بينها، وهو لو لم يملك البينة مطلقاً لم يملكه بما شرط؛ فثبت أنه يملك.

وأصله: أنه بالطلاق، ويصرف إليها ما ملك عليها بالعقد فانتفعت بإزاء ما بذلت؛ لذلك سلم للزوج ما أخذ. والله أعلم.

قال: ويكره أخذ الزيادة بما فيه رفع النكاح، فيصير أخذ ما يأخذ بالذى أعطى، فما يفضل عليه ليس بإزائه بدل، وذلك وصف الربا. والله أعلم.

ثم اختلف في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾:

قيل: ﴿يَخَافَا﴾ علما، يعنى الرجل والمرأة.

وقيل: علم الحكمان ألا يقيما حدود الله. وعلى ذلك قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُفِيَا حُدُودَ اللَّهِ﴾، ﴿خِفْتُمْ﴾ يعنى علمتم.

وقيل: الخوف هو الخوف، فكأنه أقرب؛ لأن العلم يكون فيما مضى من الحال أنهما أقاما حدوداً أو لم يقيما. وأما الخوف فى حادث الوقت أمكن؛ لأنه لا يعلم باليقين؛ لذلك كان ما ذكرنا، وهو كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥].

ثم اختلف فى قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا أَفَدَّتْ بِهِ﴾:

قال بعضهم^(١): أراد بقوله: (عليهما)، (عليه) خاصة. وهذا جائز فى اللغة إضافة الشيء إلى الاثنين، والمراد واحد منهما، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من أحدهما، ومثله كثير.

وقال آخرون^(٢): أريدا جميعاً: المرأة بالفداء، والزوج بالأخذ؛ لأن الزوج نهى عن أخذ شيء مما آتاه بقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾، ثم أباح ورفع الحرج منه بالأخذ على الشرط.

وقيل: أراد بذلك الزوج خاصة. وهو ما ذكرنا. والله أعلم.

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾.

قيل: إذا لم يفهم بحد من حدود الله تعالى ما يفهم من حد الخلق، كيف فهم من استواء الرب ومجيئه من قوله: ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾، و ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ ما فهم من استواء

(١) قاله ابن جرير (٢/٤٨١).

(٢) بنظر: السابق.

الخلق ومجيئهم؟ والاستواء والمجىء إلى احتمال معان أن ينفى عنه التشبيه أكثر من احتمال الحدود التي في الشاهد. فإذا لم يفهم من هذا ذلك لم يجز أن يفهم من الأول ما فهموا، وقد قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وقوله: ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾.

قيل: أحكام الله وسننه.

وقيل: أوامره ونواهيه.

[وقيل: آدابه وهو واحد.]^(١)

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

يحتمل وجهين:

يحتمل: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ مستحلاً بها، فيكفر بتعديه ذلك، فهو ظالم - ظلم كفر.

ويحتمل: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ﴾ تجاوز أمر الله وما نهاه عنه غير مستحل لها، فهو ظالم نفسه، غير كافر.

وقوله: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾.

هذه الآية رجعت إلى الأولى قوله: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾، فإن طلقها بعد التطليقتين تطليقة أخرى ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾، وقوله: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾، قيل: التطليقة الثالثة، وعلى ذلك جاء الخبر، وهو واحد عندنا، يدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾.

ويحتمل: عقد النكاح خاصة، دون الجماع من الثاني؛ إذ ليس في الآية ذكر الدخول بها. وأما عندنا: فهو على الجماع في النكاح الثاني، يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا، حتى تذوق من عسيلته ويذوق من عسيلتها»^(٢)، فيكون النكاح مضمراً، وهو أولى؛ لأن الآية في عقوبة الأول ولا يشتد عليه النكاح حتى يتصل به الوطء^(٣).

وفيه دلالة على كراهية التطليقة الثالثة - إذ هي لا تحل له بعدها إلا بعد دخول زوج آخر بها، وذلك مما ينفر عنه الطبع ويكرهه.

(١) سقط في ط.

(٢) أخرجه البخارى (٢٧٦/١٠) كتاب اللباس، باب الإزار المهدب (٥٧٩٢)، ومسلم (١٠٥٥/٢) كتاب النكاح، باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره (١٤٣٣/١١١).

(٣) في ب: الأول.

وقوله: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

فيه دليل على أن في التراجع إيجاب عقد بهما جميعاً؛ فدل على قطع رجعه الثاني المحل^(١) للزوج الأول، وذلك أن لا رجعة فيه لغيره. وقوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾، أضاف (الرد) إلى الأزواج؛ فدل أنهم ينفردون به دونهن.

ثم ذكر الكتاب: ﴿فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾، جعل سبب الحل على الزوج الأول نكاح الثاني، لم يجز أن ينهى عنه، وقد جعل هو سبب رفع الحرمة؛ إذ مثل^(٢) هذا - في أحكام الله تعالى - لا يوجد ولا يستقيم وهو كالوضوء فيما جعل سبباً لإقامة الصلاة، ولم يجز أن يجعل سبباً لها ثم يكره الإقدام عليه وينهى عنه، وكالتحريم إذ جعل سبباً للدخول بها في الصلاة لم يجز النهي عنها، وبها قوامها. كذا هذا، لما جعل سبباً لرفع الحرمة به لا جائز أن ينهى عنه.

ثم فيه دلالة جواز نكاح المحلل. فإن سئلنا عن قوله عليه الصلاة والسلام: «لعن الله المحلل والمحلل له»^(٣). قيل: لحق اللعن لأجل النكاح على قصد الفراق والطلاق، ليس لأجل التحليل على الأول، ورفع الحرمة عنه، دليله قوله عليه الصلاة والسلام: «إن

(١) في أ: الحل.

(٢) في أ، ط: في.

(٣) حديث على:

أخرجه أحمد (٨٧/١)، ١٠٧، ١٢١، ١٣٣، ١٥٠، ١٥٨، وأبو داود (٥٦٢/٢) كتاب: النكاح، باب: في التحليل، حديث (٢٠٧٦)، والترمذي (٤٢٧/٣) كتاب: النكاح، باب: المحلل والمحلل له، حديث (١١١٩) وابن ماجه (٦٢٢/١) كتاب: النكاح، باب: المحلل والمحلل له، حديث (١٩٣٥)، وأبو يعلى (٣٢٣/١ - ٣٢٤) رقم (٤٠٢)، والبيهقي (٢٠٨/٧) كتاب: النكاح، باب: في نكاح المحلل، كلهم من طريق عامر الشعبي عن الحارث عن أبي ابن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله المحلل والمحلل له».

حديث ابن مسعود:

أخرجه أحمد (٤٤٨/١)، والترمذي (٤٢٨/٣ - ٤٢٩) كتاب: النكاح، باب: المحلل والمحلل له، حديث (١١٢٠)، والنسائي (١٤٩/٦) كتاب: النكاح، باب: إحلال المطلقة ثلاثاً، والدارمي (١٥٨/٢) كتاب: النكاح، باب: في النهي عن التحليل، والبيهقي (٢٠٨/٧) كتاب: النكاح، باب: ما جاء في نكاح المحلل، من طرق عن سفيان عن أبي قيس عن هزيل ابن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال: لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرجه أحمد (٤٥٠/١ - ٤٥١)، وأبو يعلى (٤٦٨/٨) رقم (٤٠٥٤)، والبخاري في شرح السنة (٧٨/٥) من طريق عبد الكريم الجزري عن أبي واصل عن عبد الله بن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ لعن المحلل والمحلل له.

الله لا يحب كل ذواق مطلق؛ وذلك لقصده الفراق بالنكاح، إذ النكاح بنى فى الأصل على البقاء والدوام عليه، وفيه التعفف، وفى الطلاق زوال ما به يقصد؛ فلهذا لحقه ما لحقه من اللعن.

ثم المحلل له لما طلب بنكاح الزوج الثانى ما ينفر عنه الطباع ويكرهه من عودها إليه بعد مضاجعة غيره إياها، واستمتاعه بها منع لهذا المعنى عن إيقاع الثالثة، لكن إذا تفكر حرمتها عليه إلا بنكاح آخر، انزجر عن ذلك.

ثم العقد نفسه لا ينفر عنه الطباع ولا يكرهه؛ ثبت أن الدخول شرط فيه ليكون زوجاً ومنعاً عن ارتكابه.

وقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾، يخرج على الترخيص؛ وذلك - والله أعلم - أن الطلاق يحرمها عليه ويبينها منه كما تحرم عليه هى بأنواع الحرم يحرم فأخبر - عز وجل - وأباح له النكاح بعد وقوع الحرمة - أن هذه الحرمة ليست كغيرها من الحرم التى لا ترتفع أبداً. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجَلَهُنَّ فَأَسْكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّعَعْدَتِكُمْ وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ عَيْتَكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَمْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجَلَهُنَّ فَأَسْكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرِزْقِهِنَّ﴾، ذكر فى الآية الأولى (الإمساك)، والإمساك المعروف: هو إمساكها على ما كان من الملك. وذكر فى الآية الأخيرة (الرد)، والرد لا يكون إلا بعد الخروج من الملك. هذا هو الظاهر فى الآية. لكن بعض أهل العلم يقولون: إنه يمسكها على الملك الأول ويردها من الحرمة إلى الحل؛ لأن من مذهبهم: أن الطلاق يوجب الحرمة، ولا يخرجها من ملكه. وهذا جائز أن يحرم المرأة على زوجها وهى بعد فى ملكه. فإذا كان كذلك فأمر بالإمساك على الملك الأول وبالرد من الحرمة إلى الحل. وهو قول أهل المدينة أى يردها من العدة إلى ما لا عدة، ويمسكها بلا عدة. وأما عندنا: فهو واحد بحدث الإمساك، دليله قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّعَعْدَتِكُمْ﴾، ولو لم يكن الإمساك سوى القصد إليه، لكان لم يكن بالقصد إليها مضراً. وهو فيما أمر بالإمساك بالمعروف فيه وجهان:

أحدهما: هو أن يمسكها على ما كان يمسكها من قبل من مراعاة الحقوق ومحافظة الحدود.

ويحتمل ما قيل: ألا تطول عليها العدة، على ما ذكر في القصة من تطويل العدة عليها، وفيه نزلت الآية.

وفيه دلالة أن الزوج يملك جعل الطلاق بائناً بعدما وقع رجعيًّا؛ لأنه يصير بائناً بتركه المراجعة؛ فعلى ذلك يملك إلحاق الصفة من بعد وقوعه، فيصير بائناً. والله أعلم. وقوله: ﴿وَلَا تُنْسِكُوهُمْ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

قال الشيخ - رحمه الله تعالى -: الأصل عندنا في المناهي: أنها لا تدل على فساد الفعل ولا تستدل بالنهي على الفساد، كقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ ، على ذلك قوله: ﴿وَلَا تُنْسِكُوهُمْ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ ، أنه يصير ممسكًا لها وإن كان فيه ضرارًا لها، وهكذا هذا في كل ما يشبه هذا من قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا﴾ [النساء: ٢٥]، أنه إذن بالفعل في حال فهو وإن أوجب نهيًا في الفعل، فذلك لا يدل على الفساد في حال أخرى.

وقوله: ﴿وَلَا تَنْخَدُوا بِآيَةِ اللَّهِ هُزُؤًا﴾.

معناه - والله أعلم - أي لا تعملوا بآيات الله عمل من يخرج فعله بها مخرج فعل الهازئ؛ لأنه معقول أن أهل الإيمان والتوحيد لا يتخذون آيات الله هزؤًا، ولا يقصدون إلى ذلك.

وقيل: إنهم في الجاهلية كانوا يلعبون بالطلاق والعناق، ويمسكونهم بعد الطلاق والعناق على ما كانوا يمسكون قبل الطلاق وقبل العناق، فنهوا عن ذلك بعد الإسلام والتوحيد.

ثم اختلف في ﴿آيَةِ اللَّهِ﴾:

قيل: حجج الله.

وقيل: أحكام الله.

وقيل: دين الله.

ويحتمل: ﴿آيَةِ اللَّهِ﴾، الآيات المعروفة.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيَّكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قوله: ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ ، يحتمل وجوها:

يحتمل: ﴿يَقَمَّتْ﴾ ههنا محمداً ﷺ، وهو من أعظم النعم.

ويحتمل^(١): ﴿يَقَمَّتْ﴾، الإسلام وشرائعه.

ويحتمل: ﴿يَقَمَّتْ﴾، هي التي أنعمها على خلقه جملة.

النعمة على ثلاثة أوجه:

النعمة بالإسلام، تقتضى منه المحافظة.

والنعمة الخاصة، تقتضى الشكر.

والنعمة العامة جملة، تقتضى منه التوحيد.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْزَلْ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾، وهو القرآن. ففيه دلالة أن ﴿الْكِتَابِ﴾، هو

منزل، ليس كما يقول القرامطة^(٢)؛ لأنهم يقولون: بأن محمداً ﷺ ألف القرآن، وإنما كان

(١) قاله ابن جرير (٤٩٦/٢)

(٢) وأما تسميتهم بالقرامطة ففي سبب ذلك ستة أقوال:

أحدها: أنهم سموا بذلك؛ لأن أول من أسس لهم هذه المحنة محمد الوراق المقرمط، وكان كوفياً.

والثاني: أن لهم رئيساً من السواد من أنباط، يلقب: بقرمطويه فنسبوا إليه.

والثالث: أن قرمطاً كان غلاماً لإسماعيل بن جعفر فنسبوا إليه؛ لأنه أحدث لهم مقالاتهم.

والرابع: أن بعض دعائهم نزل برجل يقال له: كرمية، فلما رحل تسمى قرمط بن الأشعب، ثم أدخله في مذهبه.

الخامس: أن بعض دعائهم رجل يقال له: كرمية، فلما رحل تسمى باسم ذلك الرجل، ثم خفف الاسم فقيل: قرمط، قال أهل السير: كان ذلك الرجل الداعي من ناحية خوزستان، وكان يظهر الزهد والتقشف، ويسف الخوص، ويأكل من كسبه، ويحفظ لقوم ما صرموا من نخلهم في حظيرة، ويصلى أكثر الناس، ويصوم، ويأخذ عند إفطاره من البقال رطلاً من التمر فيفطر عليه، ويجمع نواه فيدفعه إلى البقال، ثم يحاسبه على ما أخذ منه، ويحط من ذلك ثمن النوى.

فسمع التجار الذين صرموا نخلهم فوثبوا عليه وضربوه، وقالوا: لم ترض بأن أكلت التمر حتى بعت النوى. فأخبرهم البقال في الحال، فندموا على ضربه، وسألوه الإحلال، فازداد بذلك نبلا عند أهل القرية، وكان إذا قعد إليه إنسان ذاكره أمر الدين وزهده في الدنيا، وأعلمه أن الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم وليلة، ثم أعلم الناس أنه يدعو إلى إمام من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم مرض ومكث مطروحاً على الطريق، وكان في القرية رجل يحمل على أثار له، وكان أحمر العينين، وكان أهل القرية يسمونه كرمية لحمرة عينيه، وهو بالنبطية: حار العين، فكلم البقال كرمية هذا في أن يحمل هذا العليل إلى منزله، ويوصى أهل الإشراف عليه والعناية به، ففعل، فأقام عنده حتى برئ، ثم كان يأوى إلى منزله ودعا أهل القرية إلى أمره فأجابوه، وكان يأخذ من الرجل إذا دخل في دينه ديناراً، ويزعم أنه يأخذ ذلك إلى الإمام، فمكث يدعو أهل القرى فيجيبونه، واتخذ منهم اثني عشر نقيباً، وأمرهم أن يدعوا الناس إلى دينه، وقال لهم: أنتم كحواري عيسى بن مريم عليهما السلام، فشغل أكرة تلك الناحية عن أعمالهم بما رسمه لهم من الخمسين صلاة التي ذكر أنها فرضت عليهم.

وكان للهيصم في تلك الناحية ضياع، فوقف على تقصير أكرته في العمارة، فسأل عن ذلك،

يوحى إليه كما يتوهم الرجل شيئاً فيجعله كلاماً.

وقوله: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ، اختلف فيه :

قيل: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ، الفقه .

وقيل: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ، الحلال والحرام .

وقيل: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ، المواعظ .

وقيل: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ، هى الإصابة: إصابة موضع كل شىء منه .

وقيل: ﴿الحكمة﴾ ، القرآن ، وهو من الإحكام والإتقان ، كأنه قال - عز وجل - :

«اذكروا ما أعطاكم من الفقه والإصابة والكتاب المحكم والمتقن الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» .

وقوله: ﴿يُعْطِكَ بِهِ﴾ ، يعنى بالقرآن .

فأخبر أن رجلاً قدم عليهم فأظهر لهم مذهباً من الدين ، وأعلمهم أن الله عز وجل قد افترض عليهم خمسين صلاة فى اليوم والليلة ، وقد اشتغلوا بها فوجه إليه فجىء به فسأله عن أمره ، فأخبره بقصته ، فحبسه فى بيت ، وحلف بقتله ، وأقفل عليه ، وترك المفتاح تحت وسادته ، ونام ، فرقت له جارية ، فأخذت المفتاح ، وفتحت وأخرجته ، ثم أعادت المفتاح إلى موضعه ، فلما أصبح الهيصم فتح الباب ، فلم يجده فشاع ذلك الخبر ، فعبر به أهل تلك الناحية وقالوا: قد رفع .

ثم ظهر فى موضع آخر ولقى جماعة من أصحابه فسألوه عن قصته ، فقال: ليس يمكن أحداً أن يؤذنى . ثم خاف على نفسه ، وخرج إلى الشام ، وتسمى باسم الرجل الذى كان فى منزله كرميته ، ثم خفف فقيل: قرمط ، وفشا أمره وأمر أصحابه ، وكان قد لقى صاحب الزنج فقال له: أنا على مذهب ورائى مائة ألف سيف ، فناظرنى ، فإن اتفقنا ملت بمن معى إليك ، وإن تكن الأخرى انصرفت ، فناظره فاختلفا ففارقه .

السادس: أنهم لقبوا بهذا نسبة إلى رجل من دعائهم يقال له: حمدان بن قرمط ، وكان حمدان هذا من أهل الكوفة يميل إلى الزهد ، فصادفه أحد دعاة الباطنية فى طريق ، وهو متوجه إلى قرية وبين يديه بقر يسوقها ، فقال حمدان لذلك الداعى وهو لا يعرفه: أين تقصد؟ فسمى قرية حمدان ، فقال له: اركب بقرة من هذه البقر لتستريح من المشى . فقال: إني لم أؤمر بذلك: قال كأنك لا تعمل إلا بأمر؟ قال: نعم! فقال حمدان: وبأمر من تعمل؟ قال: بأمر مالكى ومالكك ومالك الدنيا والآخرة ، فقال: ذلك الله عز وجل ، قال: صدقت قال: وما غرضك فى هذه البقرة؟ قال: أمرت أن أدعو أهلها من الجهل إلى العلم ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن الشقاوة إلى السعادة ، وأستقذهم من ورطات الذل والفقر ، وأملكهم مالا يستغنون به من التعب والكد ، فقال له حمدان: أنقذنى أنقذك الله ، وأفض على من العلم ما تحيينى به ، فما أشد حاجتى إلى ذلك ، فقال: ما أمرت أن أخرج السر المكنون إلى كل أحد إلا بعد الثقة به ، والعهد إليه ، فقال له: فاذكر عهدك ، فإنى ملتزم به . فقال: أن تجعل لى وللإمام على نفسك عهد الله وميثاقه ألا تخرج سر الإمام الذى ألقيه إليك ولا تنفسى سرى أيضاً . فالتزم حمدان عهده ، ثم اندفع الداعى فى تعليمه فنون جهل ، حتى استدرجه واستغواه واستجاب له فى جميع ما دعاه إليه ، ثم انتدب للدعوة ، وصار أصلاً من أصول هذه البدعة فسمى أتباعه القرمطية .

وفى قوله: ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَالِمٌ﴾، تخويف وتحذير، ليعلموا أن كل شيء فى علمه، وأنه لا يعزب عنه شيء فى علمه. وبالله العصمة.

وقوله: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

اختلف فى تأويله:

قال قائلون: فيه دليل فساد النكاح دون الأولياء، واحتجوا بأن قالوا: قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾، ولا ينهى عن القول من غير أن يعمل، إذ القول فيما لا يعمل غير ضار لعضلها به؛ فثبت أنه عامل، وأن له فيه حقاً إلى أن نهوا، ثبت أن قوله: «لا تعضل»، منع؛ إذ لو لم يجعل منعاً لم يكن ضاراً به.

وقال آخرون: فيه دليل جواز نكاحهن دون الأولياء؛ لأنه تعالى قال: ﴿أَنْ يَنْكِحْنَ﴾، واستدلوا: بأن النكاح على وجود العضل يجوز، ولو كان العضل سبب المنع فى الجواز لم يحتمل جوازه إذا فات. وفيه أن العضل إذا لم يكن، جاز للنساء تولى النكاح. واحتجوا أيضاً بما أضاف النكاح إليهن بقوله: ﴿أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾، وقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، وأضاف الإنكاح إلى الأولياء على إرادة إدخال الصغار، والثانى على وجوب الحق لهن عليهم، لا أن يجب لهم عليهم.

ثم الأصل: بأن كل نكاح أريد بالذكر الصغار وأضيف الإنكاح إلى الأولياء؛ كقوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، وقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١]، مع ما احتمل دخول البالغين فى هذا، دليله قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا أَفْدَتَ بِهِ﴾، والفدية لا تصح^(١) من الصغار، وقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾، والصغار لا يخاطبن بإقامة حدود الله، وقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وإن كان متأخراً فى الذكر.

بهذا قيل إن وقوع الإنكاح بالإضافة فى الصغار إلى الأولياء، وفى الكبار إليهن، ثم ذكر الكفاءة والمهر، وجرى إضافته إلى الأولياء، لذلك كان لهم التعرض فى فسخه.

ثم قوله: ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾، رجع ذلك إلى المهر؛ لأن (التراضى) فعل

اثنين، والمهر يتعرف بهما؛ لأن القصة فى امرأة بعينها وكانت ظهرت كفاءة زوجها لها، وقال فى الكفاءة: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ﴾ [البقرة: ٢٣٤] ، ووجود الكفاءة إنما تكون من إحدى الجانبين، فذكر ذلك مضافاً إلى الأولياء، لم يجز دونهم.

والأصل فى مسألة النكاح: أن الحق فى النكاح لها على الولى، لا للولى عليها، دليله: ما يزوج على الولى إذا عدم، ويجوز^(١) عليه إذا وجد، وزوج عليه إذا أبى، وهى لا تجبر بإرادة الولى إذا أبت؛ فبان أن الحق لها قبله، ومن ترك حق نفسه فى عقد له قبل آخر لم يوجب ذلك فساده. والله أعلم.

وقوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ ، فيه دليل على أن النهى عن العضل إنما كان فى الأزواج كانوا لهن، دليله قوله: ﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾ ، ولا يسمى (الأزواج) إلا بعد النكاح، ويدل أيضاً قوله: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ ، ذكر (الطلاق) فدل أنه كان فى أزواج كان لهن.

ويحتمل: أن يكون فى الابتداء من غير أن كان ثم نكاح، وجائز تسمية الشىء باسم ما يثول الأمر إليه لقرب حالهن بهم.

وأما أهل التفسير بأجمعهم قالوا: إن الآية نزلت فى أخت معقل بن يسار المزنى، أن زوجها قد طلقها وانقضت عدتها، ثم أراد الزوج أن يتزوجها ثانية وتهوى المرأة ذلك، فيقول الولى: لا أزوجه إياه؛ فنزل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ، وهو يحتمل المعنى الذى ذكرنا. والله أعلم.

وقوله: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ . قيل: ﴿يُوعِظُ بِهِ﴾ ، أى ينهاكم به، كقوله: ﴿يُعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧]، أى: ينهاكم.

وقيل: ﴿يُوعِظُ بِهِ﴾ ، أى: يؤمر به.

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ .

قيل: إذا وضعن أنفسهن حيث هوين فذلك أزكى وأطهر لكم من العضل من ذلك؛ ولعل العضل يحملهن^(٢) على الفساد والريبة.

وقيل: المراجعة خير لكم من الفرقة، وأطهر لقلوبكم من الريبة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

(١) فى أ: ويخير.

(٢) فى ط: يحملن.

أى: الله يعلم من حب كل واحد منهما صاحبه، وأنتم لا تعلمون ذلك. ويحتمل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ فيما صلاحكم، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضَعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَوْلُ اللَّهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾.

وقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾.

قال بعضهم^(١): ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾، هن المطلقات، يرضعن أولادهن، وهو كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦]، ذكر هاهنا الأجر، وذكر هناك الرزق والكسوة، وهما واحد.

وقال آخرون: لا، ولكن قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ هن^(٢) المنكوحات، وقوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ هن المطلقات. دليل ذلك: ذكر الأجر فى أحدهما، والرزق والكسوة فى الأخرى، على أن المنكوحة إذا استؤجرت على رضاع ولدها منه لم يستوجب الأجر، ويستوجب قبل الزوج الرزق والكسوة؛ فدل هذا على أن ذكر الأجر فى المطلقات، وذكر الرزق والكسوة فى المنكوحات.

فإن قيل: ما فائدة ذكر الرزق والكسوة فى المنكوحة فى الرضاع، وقد يستوجب ذلك فى غير الرضاع؟

قيل: فائدة ذكر الرزق والكسوة فيه - والله أعلم - لأنها تحتاج إلى فضل طعام وفضل كسوة لمكان الرضاع؛ ألا ترى أن لها أن تفطر لذلك؟! فثبت أن لها فضل حاجة فى حال الرضاع ما لا يقع لها تلك الحاجة فى غير حال الرضاع؛ فخرج ذكر الرزق والكسوة فيه - والله أعلم - ذكر تلك الزيادة والفضل، والله أعلم.

وفى القرآن دليل أن مؤنة الرضاع على الأب من أوجه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكَاتَرْتُمْ فَسَرُّضْ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦].

(١) قاله الربيع، أخرجه ابن جرير عنه (٤٩٦٩).

(٢) فى ط: من.

والثانى: قوله عز وجل: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

والثالث: قوله تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ﴾.

فثبت أنه حق على الوالد إلى أن ذكر فيه إيتاء الأجر.

وفيه دلالة على أن شرط الطعام والكسوة للظئر يجوز بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾، غير أن الكسوة لا تجوز إلا بإعلام الجنس، والطعام يجوز؛ لأن الظئرة تكسى كسوة الأهل وتطعم طعامهم. فلا بد في الكسوة من إعلام جنسه، إذ لا يجوز أن تكون كسوة واحدة لها وللأهل، ويجوز في الطعام ذلك؛ لأن الكسوة ليست بذى غاية تعرف، فاحتيج إلى ذكر الجنس ليقع في حد قرب المعرفة والعلم^(١)، وأما الطعام فهو ذو غاية عند الناس غير متفاوت ولا متفاضل عندهم؛ لذلك جاز هذا، ولم يجز الآخر إلا أن يعلم الجنس، فإذا علم الجنس فحينئذ يصير عندهم كالطعام. والله أعلم.

قال الشيخ - رحمه الله تعالى - فدل على جوازه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾، أى - والله أعلم - مثل ما على المولود له، ويكون ذلك بعد موته؛ لذلك يجوز شرط الكسوة والطعام في الرضاع.

وقوله: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ﴾، ليس فيه جعل الحولين شرطا في الرضاع لوجوه:

أحدها: قوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ﴾، فلو لم يحتمل الزيادة والنقصان لم يكن لقوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ﴾ معنى.

والثانى: الإرادة والقدرة ربما تذكر على غير إرادة وقدرة في الحقيقة، ولكن على إرادة حقيقة الفعل. دليله قوله ﷺ: «من أراد الحج فليفعل كذا، ومن استطاع أن يفعل كذا فليفعل»^(٢)، ليس ذلك على حقيقة^(٣) القدرة والإرادة، ولكن هذا - والله أعلم - على معنى: «من فعل كذا فليفعل كذا»؛ فكذلك الأول ليس على حقيقة الإرادة، ولكن تذكر ذلك لما لم يكن الفعل إلا بقدرة وإرادة. والله أعلم.

والثالث: لا يخلو «الحولين» من أن يقدر بالأهله فقد ينتقص عن سنتين، أو أن يقدر بالأيام فقد يزداد على المعروف من الوقت؛ فثبت أنه بحيث الاحتمال لما ذكرنا؛ إذ

(١) فى أ: والعمل.

(٢) أخرجه مسلم (٣٩٥/٤) كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام (١٢١١/١١٤) عن عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ فقال: «من أراد منكم أن يهل بحج وعمره فليفعل...» الحديث.

(٣) فى ب: إرادة.

يحتمل ﴿لَمَنْ أَرَادَ﴾ أن يزيد حتى يتم، أو ﴿لَمَنْ أَرَادَ﴾ أن يقتصر على التمام، على أن الآية ليست في حق الحرمة، لكنها في حق الفعل؛ إذ قد يجب الحرمة لا بحولين. وروى عن ابن عباس^(١)، رضى الله تعالى عنهما، في تأويل قوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقوله: ﴿وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، قال: إن كان الحمل ستة أشهر، ففصله في عامين، وإن كان الحمل تسعة أشهر، فيقدر الباقي؛ فدل هذا على أن (الحولين) ليسا بشرط في الفطام، ولا وقت له، لا يجوز الزيادة عليه ولا النقصان. والله أعلم.

وقد ذكرنا أن قوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، يحتمل وجهين: قيل: إنه في المطلقة، وقيل: إنه في المنكوحة. وقد دللنا على أنه في المنكوحة. والله أعلم.

وقوله: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

قال قوم: قوله: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾، إلا ما يسع ويحل. لكن هذا لو كان على ما ذكر لكان بالأمر يحل ويسع، فكان كأنه قال: لا تكلف إلا ما تكلف. وذلك لا يكون. وقال قوم^(٢): ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾، يعنى: طاقتها وقدرتها. وهذا أشبه، ومعناه: لا يكلف الزوج بالإففاق عليهما والكسوة إلا ما يحتمل ملكه وإن كانت حاجاتها^(٣) تفضل عما يحتمله ملكه، لم يفرض عليه إلا ما احتمله ملكه - والله أعلم - كقوله: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكُلْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا ءَاتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧]. ثم اختلف في تحريم الرضاع في حال الكبير^(٤):

(١) أخرجه ابن جرير (٤٩٥٣)، وسعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم والبيهقي في سننه (٥١٢/١).

(٢) قاله سفيان أخرجه ابن جرير عنه (٤٩٧٦).

(٣) في أ، ب: حاجتهم.

(٤) لا خلاف بين الفقهاء في أن ارتضاع الطفل وهو دون الحولين يؤثر في التحريم؛ فقد قال الشافعية والحنابلة وأبو يوسف ومحمد - وهو الأصح المفتى به عند الحنفية - إن مدة الرضاع المؤثر في التحريم حولان؛ فلا يحرم بعد حولين. واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ﴾، وقالوا: جعل الله الحولين الكاملين تمام الرضاعة، وليس وراء تمام الرضاعة شيء. وقال عز من قائل: ﴿وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ وقال: ﴿وَحَمْلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وأقل الحمل ستة أشهر فتبقى مدة الفصال حولين، ولحديث: «لا رضاع إلا ما كان في الحولين»، ولحديث أم سلمة مرفوعاً: «لا يحرم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام». وقال ابن تيمية: وقد ذهب طائفة من السلف والخلف إلى أن إرضاع الكبير يُحرّم. واحتجوا بما في صحيح مسلم وغيره عن زينب بنت أم سلمة أن أم سلمة قالت لعائشة: إنه يدخل عليك الغلام الأفيع الذي ما أحب أن يدخل عليّ، فقالت عائشة: أما لك في رسول الله أسوة حسنة؟ قالت: إن

قال قوم: يحرم. ورووا في ذلك أحاديث.

وقال أصحابنا - رحمهم الله تعالى - : لا يحرم. وذهبوا في ذلك إلى الآثار رويت عن رسول الله ﷺ، أنه عليه السلام سئل عن الرضاع، فقال: «ما أنبت اللحم وأنشز العظم»^(١)، وفي بعضها عنه: «لا رضاع بعد حلم، ولا رضاع بعد فصال»^(٢). وروى عن علي بن أبي طالب وابن عباس^(٣)، رضى الله تعالى عنهم، أنهما قالا: لا رضاع بعد الحولين. وعن علي وابن مسعود^(٤)، رضى الله تعالى عنهما، أنهما قالا: لا رضاع بعد الفطام أو الفصال، الشك منا. وروى عن رسول الله ﷺ في بعض الأخبار: أنه دخل على عائشة، رضى الله تعالى عنها، فرأى معها رجلاً، فرأت عائشة، رضى الله تعالى عنها، الكراهة في وجهه، فقالت: «إنه أخى من الرضاعة أو عمى»، فقال لها رسول الله ﷺ: «انظرون من أخوانكن، ما الرضاعة؟ إنما الرضاعة من المجاعة»^(٥).

= امرأة أبى حذيفة قالت: يا رسول الله، إن سالماً يدخل على وهو رجل، وفي نفس أبى حذيفة منه شيء، فقال رسول الله ﷺ: «أرضعيه حتى يدخل عليك»، وفي رواية لمالك في الموطأ قال: «أرضعيه خمس رضعات»؛ فكان بمنزلة ولده من الرضاعة. وهذا الحديث أخذت به عائشة، وأبى غيرها من أزواج النبي ﷺ أن يأخذن به، مع أن عائشة روت عنه ﷺ قال: «الرضاعة من المجاعة»، لكنها رأت الفرق بين أن يقصد رضاعة أو تغذية: فمتى كان المقصود الثاني لم يحرم إلا ما كان قبل الفطام، وهذا هو إرضاع عامة الناس. وأما الأول فيجوز إن احتيج إلى جعله ذا مَحْرَمٍ. وقد يجوز للحاجة ما لا يجوز لغيرها، وهذا قول متوجه. وقال: رضاع الكبير تنتشر به الحرمة في حق الدخول والخلوة إذا كان قد تربى في البيت بحيث لا يحتشمون منه للحاجة، وهو مذهب عائشة وعطاء والليث.

وقال المالكية: يشترط في التحريم أن يرتضع في حولين أو بزيادة شهر أو شهرين، وألا يفطم قبل انتهاء الحولين فطاماً يستغنى فيه بالطعام عن اللبن، فإن فطم واستغنى بالطعام عن اللبن ثم رضع في الحولين فلا يحرم. وقال أبو حنيفة: مدة الرضاع المحرم حولان ونصف ولا يحرم بعد هذه المدة، سواء أفطم في أثناء المدة أم لم يفطم، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَأَنهَنِيكُمُ اللَّيْلِيَّ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ قال: فأثبت سبحانه الحرمة بالرضاع مطلقاً عن التعرض لزمان الرضاع، إلا أنه قام الدليل على أن زمان ما بعد الحولين والنصف ليس بمراد؛ فيعمل بإطلاقه فيما وراءه. واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَحَلْمُهُمْ فَصْلُهُمْ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ أى: ومدة كل منهما ثلاثون شهراً.

ينظر: بدائع الصنائع (٦/٤)، وابن عابدين (٤٠٣/٢)، والمغنى (٥٤٢/٧)، وكشاف القناع (٤٤٥/٥)، ونهاية المحتاج (١٦٦/٧)، (١٧٥).

(١) أخرجه أحمد (٤٣٢/١)، وأبو داود (٦٢٧/١)، كتاب النكاح باب في رضاعة الكبير (٢٠٥٩)، (٢٠٦٠)، والبيهقى (٤٦١/٧).

(٢) أخرجه الطيالسى، والبيهقى وعبد الرزاق وابن عدى من طرق عن جابر كما في الدر المنثور (١/٥١٣).

(٣) أخرجه ابن جرير (٤٩٦٥، ٤٩٦٦، ٤٩٦٧)، وأخرجه عنه وعن ابن عمر (٤٩٥٩، ٤٩٦٠).

(٤) أخرجه ابن جرير (٤٩٦١، ٤٩٦٤)، وانظر الدر المنثور (١/٥١٣).

(٥) أخرجه البخارى (١٤٦/٩) كتاب: النكاح، باب: من قال: لا رضاع بعد حولين، حديث =

وروى عن أبي موسى الأشعري - رضى الله تعالى عنه - : أن رجلاً قال له : إن امرأتى أَرْضَعْتَنِي ، أتحرم على؟ فقال : نعم . فبلغ ذلك ابن مسعود ، رضى الله تعالى عنه ، فأثابه ، فقال له : أأنت تفتى بكذا؟ فقال : نعم ، فقال : كذبت ، أو كلام نحو هذا؛ إنما الرضاعة من المجاعة^(١) . إلى هذه الأخبار ذهب أصحابنا ، رحمهم الله تعالى ، فى نفى تحريم الرضاع بعد الفطام وبعد الكبر .

وأصله : أن ينظر : فإن كان غذاؤه باللبن أو أغلب غذائه فهو يحرم ، وإذا كان بالطعام أو غالب غذائه [به]^(٢) فهو لا يحرم .

وأصله : ما ذكر فى الخبر : « ما أنبت اللحم وأنشز العظم ، فهو يحرم »^(٣) ، فإذا كان غذاؤه بالطعام سوى اللبن ، فالطعام هو الذى ينبت اللحم وينشز العظم ، فلم يحرم . ثم الأصل : بأن كل مذكور على الكمال والتمام لا يمتنع عن احتمال الزيادة والنقصان . دليله قوله ﷺ : « من أدرك عرفة بليل وصلى معنا بجمع فقد تم حجه » ، وقوله عليه السلام : « إذا فعلت هذا فقد تمت حجتك »^(٤) ، وقوله : « إذا فعلت هذا فقد تمت صلاتك »^(٥) . وصفهما بالتمام والحرمة باقية .

= (٥١٠٢) ، ومسلم (١٠٧٨/٢) كتاب : الرضاع ، باب : إنما الرضاعة من المجاعة ، حديث (٣٢/١٤٥٥) ، وأحمد (٩٤/٦) ، والطيالسى (١٤١٢) ، وسعيد بن منصور (٢٧٦/١) رقم (٩٦٤) ، والدارمى (١٥٨/٢) كتاب : النكاح ، باب : فى رضاعة الكبير ، وأبو داود (٢/٥٤٨) كتاب : النكاح ، باب : فى رضاعة الكبير ، حديث (٢٠٥٨) ، والنسائى (١٠٢/٦) كتاب : النكاح ، باب : القدر الذى يحرم من الرضاعة ، وابن ماجه (٦٢٦/١) كتاب : النكاح ، باب : لا رضاع بعد فصال ، حديث (١٩٤٥) ، وابن الجارود ص (٢٣٢) كتاب : النكاح ، حديث (٦٩١) ، والبيهقى (٧/٤٦٠) كتاب : الرضاع ، باب : رضاع الكبير . والبيغوى فى شرح السنة (٥/٦٥) ، والقضاعى فى مسند الشهاب رقم (١١٧٦ ، ١١٧٧) من طريق مسروق عن عائشة به .

(١) تقدم .

(٢) سقط فى ط .

(٣) تقدم .

(٤) أخرجه أحمد (٤/٣٠٩ ، ٣١٠) ، وأبو داود (١/٥٩٩) ، كتاب المناسك ، باب من لم يدرك عرفة (١٩٤٩) ، والترمذى (٢/٢٢٦) كتاب الحج ، باب ما جاء فىمن أدرك الإمام بجمع (٨٨٩) ، والنسائى (٥/٢٦٤) كتاب المناسك ، باب فىمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة .

(٥) طرف من حديث عن رفاعه بن رافع :

أخرجه أحمد (٤/٣٤٠) ، وأبو داود (١/٢٨٨) ، كتاب الصلاة ، باب صلاة من لا يقيم صلبه فى الركوع والسجود (٨٥٧) ، والترمذى (١/٣٣٢) ، كتاب الصلاة ، باب ما جاء فى وصف الصلاة (٣٠٢) ، والنسائى (٣/٦٠) كتاب السهو ، باب أقل ما يجزئ من عمل الصلاة ، وابن ماجه (١/٣٧٦) كتاب الطهارة ، باب ما جاء فى الوضوء على ما أمر الله تعالى (٤٦٠) .

ثم قدر أبو حنيفة - رضى الله تعالى عنه - ، الزيادة بستة أشهر ، ذهب فى ذلك إلى أن الفطام ربما يعترض ويعترى فى حال - وهو حال الحر والبرد - ما لو منع الرضاع منه لأورث هلاك الصبى وتلفه ، لما لم يعود بغيره من الطعام ، ففيه خوف هلاكه ، فإذا كان فيه خوف هلاكه ، لما ذكرنا ، استحسّن أبو حنيفة ، رضى الله تعالى عنه ، إبقاها بعد الحولين لستة أشهر ، إذ على هذين الحالين تدور السنة . والله أعلم .
وقال زفر^(١) : بزيادة سنة ، ذهب فى ذلك إلى أنه لما جاز أن يزداد بالاجتهاد على حولين بستة أشهر ، جاز أن يزداد بالاجتهاد على الحولين بسنة .

قال الشيخ - رحمه الله تعالى - : وعلى ما زيد على المذكور من الحبل مثل أقل وقت الرضاع ، يزداد على المذكور من الرضاع مثل أقل الحبل ، أو لما احتمل الأقل الانتقال إلى الوسط يحتمل الوسط الانتقال إلى الأكثر ، وذلك فى قوله : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف : ١٥]

وقوله : ﴿ لَا تُضَكَّرُ وَلَدَةٌ يُولَدُهَا ﴾ ، يحتمل وجهين :
يحتمل : ﴿ لَا تُضَكَّرُ وَلَدَةٌ يُولَدُهَا ﴾ ، فى ترك الإنفاق عليهما .
ويحتمل : ﴿ لَا تُضَكَّرُ وَلَدَةٌ يُولَدُهَا ﴾ فى انتزاع الولد منها ، وهى تريد إمساكه .
وقوله تعالى : ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُهَا ﴾ ، كذلك يحتمل وجهين :
[ويحتمل : لا يضار الوالد بولده فى ردها الولد عليه ورميه إليه بعد ما]^(٢) ألف الولد الأم .

ويحتمل : لا يضار الوالد فى تحميل فضل النفقة عليه وملكه لا يحتمل ذلك ، بل إنما يحمل عليه ما احتمله ملكه .
وفى قوله : ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُهَا ﴾ ، دليل أنه إنما يسمى (الوالد) على المجاز ، ليس على التحقيق ؛ لأنه لم يلد هو ، إنما ولد له ؛ فثبت أن الرجل يستحق اسم الفعل بفعل غيره ، وكل معمول له يستحق اسم الفاعل وإن لم يعمل هو ، نحو ما سمي (والداً) ، وإن لم يلد هو ، وإنما ولد له .

(١) زفر بن الهذيل بن قيس العنبرى ، من تميم ، أبو الهذيل : فقيه كبير ، من أصحاب الإمام أبى حنيفة . أصله من أصبهان . أقام بالبصرة وولى قضاءها وتوفى بها سنة ١٥٨ وهو أحد العشرة الذين دونوا الكتب ، جمع بين العلم والعبادة . وكان من أصحاب الحديث فغلب عليه (الرأى) وهو قياس الحنفية ، وكان يقول : نحن لا نأخذ بالرأى ما دام أثر . وإذا جاء الأثر تركنا الرأى . ينظر الأعلام (٤٥/٣) (٧٣١) .

(٢) بدل ما بين المعقوفين فى ط : ويحتمل ﴿ لَا تُضَكَّرُ وَلَدَةٌ يُولَدُهَا ﴾ فى انتزاع الولد منها وهى تريد .

ففيه دلالة أن من حلف: (لا يعتق)، و (لا يطلق) فأمر غيره، ففعل، حث وجعل كأنه هو الفاعل. والله أعلم.

ثم اختلف في تأويل قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾. قال بعضهم^(١): هو معطوف على قوله: ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ يَوْلَاهَا﴾ معناه: ألا يضار الوارث أيضًا باليتيم.

وقال آخرون: هو معطوف على الكل: على النفقة، والكسوة، والمضاربة. وقال غيرهم: هو راجع إلى النفقة والكسوة دون المضاربة. وهو قولنا؛ لوجهين: أحدهما: أن نسق الكلام إنما هو على قوله: ﴿وَعَلَى الْوَالِدِ لَوْ رَزَقْنَهُ وَكَسَوْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، فنسقه على حرف (على) أولى من نسقه على حرف (لا)، [ليصح، إذ]^(٢) لو حمل على قوله: ﴿لَا تُضَارُّ﴾ لكان ما يوازيه من الكلام، إنما هو: الوارث مثل ذلك. والثاني: أنه لو حمل على إضرار من الوارث بالولد في الميراث لقال: وعلى المورث بحق الميراث، فلا ضرر يقع فيه، بل يقع^(٣) الإنفاق؛ فثبت أن حمله عليه أحق. ثم اختلف في قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾:

قال بعضهم: أراد (بالوارث) الوالد، والأم، والجدة، ولا يدخل ذو الرحم المحرم فيه. ذهبوا في ذلك إلى ما روى عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنه، أنه قال ذلك. وأما أصحابنا، رحمهم الله تعالى، ذهبوا إلى ما روى عن عمر^(٤)، رضى الله تعالى عنه، أنه أوجب النفقة على العم، وقال: لو لم يبق من العشيرة إلا واحد لأوجبته عليه النفقة. وروى أيضًا عن زيد بن ثابت^(٥)، رضى الله تعالى عنه أنه قال في قوله تعالى:

(١) قاله الضحاك والشعبي ومجاهد وسفيان، أخرجه ابن جرير عنهم (٥٠٣٦، ٥٠٣٧، ٥٠٣٨، ٥٠٤٠)، وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي من طريق مجاهد والشعبي عن ابن عباس كما في الدر المنثور (٥١٤/١).

(٢) في ط: يتضح أن.

(٣) في ب: يمنع

(٤) أخرجه ابن جرير (٤٩٩٢، ٤٩٩٤)، وسفيان وعبد الرزاق وأبو عبيد في الأموال وعبد بن حميد وابن أبي حاتم في ناسخه والبيهقي كما في الدر المنثور (٥١٤/١).

(٥) أخرجه عبد بن حميد عن حماد كما في الدر المنثور (٥١٤/١) زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان بمعجمة ابن عمرو النجاري المدني كاتب الوحي وأحد نجباء الأنصار، شهد بيعة الرضوان، وقرأ على النبي ﷺ، وجمع القرآن في عهد الصديق. وولى قسم غنائم اليرموك. له اثنا وتسعون حديثًا. اتفقا على خمسة وانفرد البخاري بأربعة، ومسلم بواحد. روى عنه ابن عمر وأنس وسليمان ابن يسار، وابنه خارجة بن زيد وخلق. قال يحيى بن سعيد: لما مات زيد قال أبو هريرة: مات خير الأمة. توفي سنة خمس وأربعين. وقيل: سنة ثمان. وقيل: سنة إحدى وخمسين. ينظر: الخلاصة

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾: النفقة على كل ذى الرحم المحرم على قدر موارثهم. فاتبعنا الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فى ذلك. وفى الكتاب دليل وجوب النفقة على المحارم، قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالَكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاحِمُهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١]، فإنما يأكل بحق، لا بالرضاء.

ألا ترى أنه يأكل من بيت الأجنبى إذا بذل ورضى، فلو لم يكن أكله من بيت هؤلاء بحق لم يكن للتخصيص فائدة.

فإن عورض (بالصديق)، أنه لا يفرض عليه [قيل: لما أنه لو فرض عليه]^(١) لانقطعت الصداقة بينهما. ثم لقائل أن يقول: كيف لا أوجبت النفقة على كل وارث على ظاهر الآية؟

قيل: الآية مخصوصة بالإنفاق؛ لأن المرأة وارثة، ولا تفرض عليها نفقة الزوج؛ دل أنه أراد وارثا دون وارث، وهو الوارث من الرحم المحرم. والله أعلم. وقوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾.

قيل^(٢): فإن أراد الأبوان فصال الصبى وفطامه بدون الحولين ليس لهما إلا بتراضيهما جميعاً واتفاقهما على ذلك، وأما بعد تمام الحولين فإنه إذا أراد أحدهما [الفصال دون الآخر يفصل وأصله واحد بأن الفصال بعد الحولين فصال على التمام والكمال فجاز أن يفصل غا أراد أحدهما]^(٣). وأما الفصال قبل الحولين فصال عن غير تمام ذكره الكتاب، فلا يفصل إلا باجتماعهما واتفاقهما على ذلك. وأما ما بعد الحولين هو على تمام النص، فجاز ذلك لرأى واحد منهما، وما قبله لا يجوز إلا لرايهما جميعاً.

وأصله: أنه بالحولين قد ظهر التمام والكفاية، ثم بالنص، وما دونه يعلم بالاجتهاد، وعند التنازع يزول موضع بيان الصواب فيرد إلى الحد المذكور، مع ما فى القرآن للتمام ذكر إرادة الفرد، وللفضل التشاور. والله أعلم.

== (١/٣٥٠) (٢٢٤٥).

(١) سقط فى ط.

(٢) قاله ابن عباس والسدى والضحاك، أخرجه ابن جرير عنهم (٤٠٤٥، ٤٠٤٤، ٤٠٤٦)، وانظر الدر

المنثور (١/٥١٥).

(٣) سقط فى ط.

ثم إن الزوجين يحكمان عن أنفسهما برضاع ولدهما لذلك يحتج^(١) إلى نظير غيرهما، ولا إلى رأى آخر، لما لا يجوز أن يعدم شفقتهما جميعاً عن ولدهما. وأما إذا كان الحكم لغيرهما أو على غيرهما فلا بد من أن يحكم غيره، دليله: قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، وكقوله: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥]، فهذا الحكم على غيرهما؛ ولذلك احتيج إلى غيرهما؛ وذلك الزوجان يحكمان على أنفسهما وينظران لولدهما؛ لذلك افترقا. والله أعلم.

و (الجناح) و (الخرج) واحد: وهو الضيق، ومعناه: أى لا ضيق ولا تبعة عليهما، ولا إثم إذا أرادا فطامه بدون الحولين.

وقوله: ﴿وَلَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا وَلَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُمْ بِالْمَقْرُوفِ﴾. فيه دلالة جواز الرضاع بعد الحولين وحرمة؛ لأنه ذكر فى قوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ بتراضيهما بدون الحولين.

[ثم قوله: ﴿وَلَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا وَلَدَكُمْ﴾ يصير استرضاعا بعد الحولين]^(٢) إذ ذكر الرضاع فى الحولين بقوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾، وذكر الفصال بدون الحولين بقوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ فحصل قوله: ﴿وَلَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا وَلَدَكُمْ﴾ بعد الحولين. وهذا يدل لقول أبى حنيفة، رضى الله تعالى عنه، ويقوى مذهبه.

ويحتمل: أن تكون الآية فى جواز استرضاع غير الأمهات إذا أبت الأم رضاعه؛ وهو كقوله: ﴿وَلَإِنْ تَعَاسَرْتُم فَسَرِّضُوهُ لِأَخْرَى﴾ [الطلاق: ٦].

وقوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾، يعنى إذا سلمتم الأمر لله تعالى، ﴿مَّا ءَاتَيْتُم بِالْمَقْرُوفِ﴾، أى قبلتم، ليس هو على الإيتاء، ولكن على القبول، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] [ليس هو الإيتاء نفسه، ولكنه على القبول كأنه قال: فإن تابوا وقبلوا إقامة الصلاة وعهدوا إيتاء الزكاة فخلوا سبيلهم]^(٣) فعلى ذلك الأول.

و﴿ءَاتَيْتُمْ﴾ أى قبلتم إيتاء ما عهدوا وهو الأجر. وقد يكون ﴿مَّا ءَاتَيْتُمْ﴾، أى: عقدتم عقد الإيتاء؛ إذ الإيتاء هو الإعطاء والعطية عقدتم

(١) فى أ: يجتمع.

(٢) سقط فى ط.

(٣) سقط فى ط.

التسليم عليه. وذلك دليل لقول من يفرق بين قوله: أعطيتني كذا، فلم أقبضه. [وسلمتني فلا أقبضه]^(١) والله أعلم.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

أى: فيما أمركم من الإنفاق، والكسوة، ونهاكم من إضرار أحدهما صاحبه.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وهو وعيد على ما سبق من الأمر والنهي.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَذَرْتُمُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

قيل: هي ناسخة لقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، إنها وإن كانت مقدمة في الذكر، وتلك مؤخرة، ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، ناسخة لتلك. إلى هذا يذهب عامة أهل التأويل؛ ألا ترى إلى ما جاء في الخبر: أن امرأة أتت رسول الله ﷺ، [فذكرت: أن بنتاً لها توفي عنها زوجها، واشتكت عينها، وهي تريد أن تكحلها. فقال رسول الله ﷺ: «قد كانت»^(٢) إحدانك في الجاهلية تجلس حولاً في منزلها ثم تخرج عند رأس الحول، فترمي بالبعر، وإنما هي أربعة أشهر وعشرا»^(٣). فثبت

(١) سقط في أ.

(٢) ما بين المعقوفين سقط في أ، وفي ب: وهي معتقدة فاستأذنته في الكحل والتدهن، فقال رسول الله ﷺ: إن أحدكن كانت.

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٤/٩ - ٤٨٥) كتاب: الطلاق، باب: تحد المتوفى عنها أربعة أشهر وعشرا، حديث (٥٣٣٦، ٥٣٣٧)، ومسلم (١١٢٤/٢) كتاب: الطلاق، باب: وجوب الإحداد في عدة الوفاة، حديث (١٤٨٨/٥٨)، ومالك (٥٩٧/٢) كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في الإحداد، حديث (١٠٣)، والنسائي (٢٠٥/٦) كتاب: الطلاق، باب: النهي عن الكحل للحادة، وأبو داود (٧٠١/١) كتاب: الطلاق، باب: إحداد المتوفى عنها زوجها، حديث (٢٢٩٩)، والترمذي (٣/٤٩٢) كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في عدة المتوفى عنها زوجها، حديث (١١٩٧)، وأحمد (٦/٢٩١ - ٢٩٢)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٧٥ - ٧٦)، وابن الجارود (٧٦٨)، وأبو يعلى (٣٩٦ - ٣٩٧) رقم (٦٩٦١)، والبيهقي (٤٣٩/٧) كتاب: العدد، باب: كيف الإحداد، والبغوي في شرح السنة (٢٢٠/٥) من طريق حميد بن نافع عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة به.

أن ما كان ذلك مما تقدم الأمر به، نسخ بالثاني.

وقال آخرون: إنه قد أثبت في الآية متاعاً أو وصية، ثم ورد النسخ على كل وصية كانت للوارث بقوله ﷺ: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث»^(١). وإلا كان الاعتداد الواجب اللازم هو أربعة أشهر وعشراً.

(١) أخرجه أبو داود (٢٩٠/٣) كتاب: الوصايا، باب: الوصية للوارث، حديث (٢٨٧٠)، والترمذي (٤٣٣/٤) كتاب: الوصايا، باب: ولا وصية لوارث، حديث (٢١٢٠)، وابن ماجه (٩٠٥/٢) كتاب: الوصايا، باب: لا وصية لوارث، حديث (٢٧١٣)، وأحمد (٢٦٧/٥)، والطيالسي (٢/١١٧ - منحة) رقم (٢٤٠٧)، وسعيد بن منصور (٤٢٧)، والدولابي في الكنى (٦٤/١)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢٢٧/١)، والبيهقي (٢٦٤/٦) كتاب: الوصايا، باب: نسخ الوصية للوالدين، كلهم من طريق إسماعيل بن عياش عن شرحبيل بن مسلم عن أبي أمامة الباهلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبته عام حجة الوداع: «إن الله تبارك وتعالى قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث».

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وأخرجه ابن الجارود في المنتقى رقم (٩٤٩) من طريق الوليد بن مسلم قال: ثنا ابن جابر، ثنا سليم بن عامر، سمعت أبا أمامة، فذكر الحديث.

وفى الباب عن جماعة من الصحابة وهم عمرو بن خارجة، وأنس بن مالك، وابن عباس، وجابر، وعلى، وعبد الله بن عمرو، ومعتل بن يسار، وزيد بن أرقم، والبراء، ومجاهد مرسلًا. حديث خارجة:

أخرجه الترمذي (٤٣٤/٤) كتاب: الوصايا، باب: لا وصية لوارث، حديث (٢١٢١)، والنسائي (٢٤٧/٦) كتاب: الوصايا، باب: إبطال الوصية للوارث، وابن ماجه (٩٠٥/٢) كتاب: الوصايا، باب: لا وصية لوارث، وأحمد (١٨٦/٤، ١٨٧)، والدارمي (٤١٩/٢) كتاب: الوصايا، باب: الوصية للوارث، والطيالسي (١٣١٧)، وأبو يعلى (٧٨/٣) رقم (١٥٠٨)، والبيهقي (٢٦٤/٦) كتاب: الوصايا، باب: نسخ الوصية للوالدين، كلهم من طريق شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم عن عمرو بن خارجة؛ أن النبي ﷺ خطب على ناقته وأنا تحت جرائنها، وإن لعبها يسيل بين كتفي، فسمعتة يقول: «إن الله عز وجل أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث».

قال الترمذي: حسن صحيح.

وللحديث طريق آخر:

أخرجه الدارقطني (١٥٢/٤) كتاب: الوصايا، حديث (١٠)، والبيهقي (٢٦٤/٦) كتاب: الوصايا، باب: نسخ الوصية للوالدين والأقربين، من طريق زياد بن عبد الله عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن بن عمرو بن خارجة مرفوعاً بلفظ: «لا وصية لوارث إلا أن يجيز الورثة». وضعف البيهقي سنده.

وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٠٢/٤) رقم (٤١٤٠) من طريق عبد الملك بن قدامة الجمحي عن أبيه عن خارجة بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح وأنا عند ناقته: «ليس لوارث وصية، قد أعطى الله عز وجل كل ذي حق حقه، وللعاهر الحجر».

وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه عبد الملك بن قدامة الجمحي وثقه ابن معين وضعفه الناس.

قلت: وثقه أيضا يعقوب بن سفيان فقال في المعرفة والتاريخ (١/٤٣٥): مدني ثقة. لكن عبد الملك هذا ضعفه الجمهور.

قال البخاري في الضعفاء (٢٢٠): يعرف وينكر.

وقال أبو زرعة الرازي: منكر الحديث «سؤالات البرذعي» ص (٣٥٦).

وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث «علل الحديث» (٢٤٣٥).

وقال النسائي: مدني ليس بالقوى «الضعفاء والمتروكين» (٤٠٣).

وقال الدارقطني: مدني يترك «سؤالات البرقاني» (٣٠١).

حديث أنس:

أخرجه ابن ماجه (٩٠٦/٢) كتاب: الوصايا، باب: لا وصية لوارث، حديث (٢٧١٤)، والدارقطني (٧٠/٤) كتاب: الفرائض، حديث (٨)، والبيهقي (٢٦٤/٦ - ٢٦٥) كتاب: الوصايا، باب: نسخ الوصية للوالدين والأقربين، من طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سعيد بن أبي سعيد عن أنس به.

قال البوصيري في الزوائد (٣٦٨/٢): هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات.

حديث ابن عباس:

أخرجه الدارقطني (٩٧/٤) كتاب: الفرائض، حديث (٨٩)، والبيهقي (٢٦٣/٦) كتاب: الوصايا، باب: نسخ الوصية للوالدين والأقربين، من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس. قال البيهقي: عطاء هو الخراساني لم يدرك ابن عباس ولم يره. قاله أبو داود وغيره. وأخرجه البيهقي (٢٦٣/٦ - ٢٦٤) من طريق يونس بن راشد عن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس.

قال الحافظ في التلخيص (٩٢/٣): حديث حسن.

حديث جابر:

أخرجه الدارقطني (٩٧/٤) كتاب: الفرائض، حديث (٩٠) من طريق فضل بن سهل: ثنا إسحاق بن إبراهيم الهروي، ثنا سفيان عن عمر عن جابر به. قال الدارقطني: الصواب مرسل.

قال أبو الطيب آبادي في التعليق المغني (٩٧/٤): إسحاق بن إبراهيم الهروي ثم البغدادي أبو موسى، وثقه ابن معين وغيره، وقال عبد الله بن علي بن المديني: سمعت أبي يقول: أبو موسى الهروي روى عن سفيان عن عمرو عن جابر: «لا وصية...» الحديث. كأنه سفيان عن عمرو مرسلًا، كذا في الميزان. ا. هـ.

وللحديث طريق آخر:

أخرجه الدارقطني (١٥٢/٤) كتاب: الوصايا، حديث (١٢) من طريق نوح بن دراج عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا وصية لوارث، ولا إقرار بدين».

حديث علي:

أخرجه الدارقطني (٩٧/٤) كتاب: الفرائض، حديث (٩١) من طريق يحيى بن أبي أنيسة عن أبي إسحاق الهمداني عن عاصم بن ضمرة عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «الدين قبل الوصية، ولا وصية لوارث».

ومن طريق يحيى أخرجه ابن عدى في الكامل (١٩٠/٧).

وأمكن أن يستدل بقوله: ﴿فَإِنْ حَرَجْنٰ﴾ ، إذ كان على إثر قوله: ﴿عَيَّرَ إِخْرَاجًا﴾ أن قوله، ﴿فَإِنْ حَرَجْنٰ﴾، كان النهى على (الإخراج)، دون (الخروج). وهذا أصل فى الوصايا بالمتاع: ألا يمنع الرد وإن أجبر على التسليم.

وفى الآية دلالة جواز الوصية بالسكنى إذا بطلت بحق الميراث، لا بحق الوصية - والله الموفق - وهو جائز فيمن لم تنسخ له الوصية.

وأمكن الاستدلال بالآية على عدة الوفاة بالحبل إن ثبت ما روى: «أنه يكون أربعين يوماً نطفة، وأربعين يوماً علقه، وأربعين يوماً مضغة، ثم ينفخ فيه الروح فى العشرة»^(١).

ويحيى بن أبى أنيسة: =

قال أحمد: متروك الحديث.

وقال ابن المدينى: لا يكتب حديثه.

وقال ابن معين: ليس بشيء.

وقال البخارى: لا يتابع فى حديثه، وليس بذلك.

وقال النسائى: متروك الحديث.

أسند ذلك ابن عدى فى الكامل عنهم.

حديث عبد الله بن عمرو:

أخرجه الدارقطنى (٩٨/٤) كتاب: الفرائض، حديث (٩٣)، وابن عدى فى الكامل (٨١٧/٢) من طريقين عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن النبى ﷺ قال فى خطبته يوم النحر: «لا وصية لوارث إلا أن يجهز الورثة».

حديث معقل بن يسار:

أخرجه ابن عدى فى الكامل (٢١١/٥) من طريق على بن الحسن بن يعمر: ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال: قال معقل بن يسار: كنا بـ «منى»، وكان رسول الله ﷺ يخطب ولعاب ناقته بين كتفى، ففهمت من كلامه قال: «لا وصية لوارث».

قال ابن عدى: هذا الحديث باطل بهذا الإسناد.

حديث زيد بن أرقم والبراء:

أخرجه ابن عدى فى الكامل (٣٥٠/٦) من طريق موسى بن عثمان الحضرمى عن أبى إسحاق عن البراء وزيد بن أرقم قالوا: كنا مع النبى ﷺ يوم غدیر خم ونحن نرفع غصن الشجرة عن رأسه فقال: «إن الصدقة لا تحل لى ولا لأهلى، لعن الله من ادعى إلى غير أبيه، ولعن الله من تولى غير موالیه، الولد للفراس، وللعاقر الحجر، ليس لوارث وصية».

قال ابن عدى: موسى بن عثمان، حديثه ليس بمحفوظ.

وقال أبو حاتم: متروك.

ينظر: اللسان (١٢٥/٦)، والميزان (٢١٤/٤).

مرسل مجاهد:

أخرجه البيهقى (٢٦٤/٦) كتاب الوصايا، باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين من طريق الشافعى عن ابن عيينة عن سليمان الأحول عن مجاهد به.

(١) أخرجه البخارى (٣٥٠/٦) فى بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨)، وباب خلق آدم (٣٣٣٢)، (٤٨٦/١١) فى القدر فى أوله (٦٥٩٤)، و (٤٤٩/١٣) فى التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَفَتْ

فإذا كان ما ذكرنا أمرت بتربص أربعة أشهر وعشر ليتبين الحبل إن كان بها. وإذا كان بهذا معنى العدة^(١) فإذا ولدت بدونه انقضت العدة. والله أعلم.

فإن قيل: الأمة أليست لا تختلف عن الحرة في تبين الحبل، ثم لم يجعل عدتها أربعة أشهر وعشرا، فإذا لم يجعل ذلك كيف لا بان أن الأمر بتربص أربعة أشهر وعشرا إلا لهذا المعنى؟

قيل: لوجهين:

أحدهما: أن الحرائر هن الأصول في النكاح، وفيهن تجرى الأنكحة، فيخرج الخطاب لهن.

والثاني: أنها حق أخذت الحرة، والحقوق التي تأخذ الحرائر هن الأصول في النكاح، إذا صرف ذلك إلى الإماء تأخذ نصف ما تأخذ الحرائر.

والثالث: أنه لا يقصد آجالهن؛ لما فيه رق الولد واكتساب الذل والدناءة.

وروى عن علي بن أبي طالب^(٢)، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: تعتد أبعد الأجلين احتياطاً. ذهب في ذلك إلى أن الاعتداد بوضع [الحبل إذا ذكر]^(٣) في الطلاق، ولم يذكر في الوفاة؛ فيحتمل أن يكون ذلك في الوفاة كهو في الطلاق ويحتمل ألا يكون، فأمرها بذلك احتياطاً.

وأما عندنا: ما روى عن عمر^(٤)، وعبد الله بن مسعود^(٥)، وعبد الله بن عباس^(٦)،

= كَمَثَلًا لِّبَيَاتٍ أَلْمُزْتَلِيزِينَ ﴿٧٤٥٤﴾، ومسلم (٢٠٣٦/٤ - ٢٠٣٧) في القدر، باب كيفية الخلق آدمي (٢٦٤٣/١)، وأبو داود (٦٤٠/٢) في السنة، باب في القدر (٤٧٠٨)، والترمذي (٣٨٨/٤) في القدر، باب ما جاء أن الأعمال بالخواتيم (٢١٣٧)، وابن ماجه (٢٩/١) في المقدمة باب في القدر (٧٦)، وأحمد (٣٨٢/١، ٤٣٠)، والحميدي (٦٩/١) (١٢٦)، والطيالسي (٣١/١) (٥٨)، وأبو يعلى (٥١٥٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣٨٧/٨)، وابن الجوزي في مشيخته ص (١٠٣ - ١٠٤)، والخطيب في تاريخ بغداد (٦٠/٩)، والبغوي في شرح السنة (١٣٣/١) (٧٠) من طريق الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً به.

وأخرجه أحمد (٤١٤/١) من طريق سلمة بن كهيل، وأخرجه الطبراني في الصغير (٧٤/١) من طريق ابن عون، وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١٧٠/١٠) من طريق حبيب بن حسان ثلاثتهم عن زيد بن وهب به.

(١) في أ: المدة.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٤٣٠/٧).

(٣) سقط في ط.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٤٣٠/٧).

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٤٣٠/٧).

(٦) أخرجه ابن جرير (٥٠٧٤)، وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه والبيهقي في سننه كما في الدر المنثور (٥٧٥/١).

رضى الله تعالى عنهم، أنهم قالوا: إذا وضعت ما فى بطنها، وزوجها على السرير، انقضت عدتها. وكذلك روى عن رسول الله ﷺ: «أن امرأة مات عنها زوجها، وكانت حاملاً، فوضعت بعد ذلك بأيام، فأذن لها بالنكاح»^(١).

ثم الأمر بالإحداد أربعة أشهر وعشراً، ما روى عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاثة أيام إلا المرأة على زوجها، فإنها تحد أربعة أشهر وعشراً»^(٢).

فإن قيل: أليس وجب ذلك على المطلقة، والخبر إنما جاء فى الموت، [قيل: ليس للموت ما وجب ولكن لمعنى فى الموت]^(٣) وهو فوت النعمة فى الدين، وذلك الفوت فى الطلاق كهو فى الموت؟!!

ألا ترى أنه لم يجب ذلك فى موت أبيها ولا فى موت ولدها، دل أنه لم يجب للموت نفسه، ولكن لفوت النعمة فى الدين؛ ألا ترى أنه روى فى الخبر أن المرأة الصالحة مفتاح الجنة، فأمرت بإظهار الحزن على ما فات منها من النعمة بترك الزينة والتشوف؛ إذ النكاح نعمة. ثم الدخول بها سواء فى وجوب المهر والعدة وترك الزينة وإظهار الحزن على فوت النعمة، وأما المطلقة قبل الدخول بها لم يلزمها ذلك؛ لأن العدة لم تلزمها فتتجدد لها النعمة، لما لها أن تنكح للحال، فتكتسب نعمة. والله أعلم. ألا ترى أن الصبى الصغير إذا مات عن امرأته تلزمها أربعة أشهر وعشر، دل هذا على أن وجوبها لفوت النعمة. والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قوله: ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ [قيل: لا تبعة عليكم ولا إثم] ﴿فِيمَا فَعَلْنَ﴾ قيل: تزين

(١) أخرجه مالك (٢/٥٩٠) كتاب: الطلاق، باب: عدة المتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملاً، حديث (٨٦)، والبخارى (٨/٦٥٣) كتاب: التفسير، باب: سورة الطلاق، حديث (٤٩٠٩)، ومسلم (٢/١١٢٢ - ١١٢٣) كتاب: الطلاق، باب: انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، حديث (٥٧/١٤٨٥)، والترمذى (٢/٣٣٢ - ٣٣٣) كتاب: الطلاق، باب: ما جاء فى الحامل المتوفى عنها زوجها تضع، حديث (١١٩٤)، والنسائى (٦٠/١٩١ - ١٩٢) كتاب: الطلاق، باب: عدة الحامل المتوفى عنها زوجها، وأحمد (٦/٤٣٢)، والدارمى (٢/١٦٥ - ١٦٦) كتاب: الطلاق، باب: فى عدة الحامل المتوفى عنها زوجها والمطلقة، والطيالسى (١٥٩٣)، وابن الجارود، حديث (٧٦٢)، وابن حبان (٤٢٨٣ - الإحسان)، والبيهقى (٧/٤٢٩).

(٢) تقدم.

(٣) سقط فى ط.

بعد انقضاء عدة، وقيل: المعروف هو وضعهن أنفسهن^(١)، أى فى الأكفاء بمهر مثلهن. قد ذكرنا هذا فيما تقدم.

وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾. قيل: (التعريض) هو أن يرى من نفسه الرغبة فيما يكتنى به من الكلام، على ما ذكر فى الخبر: أن فاطمة بنت قيس لما استشارت رسول الله ﷺ فقال لها: «إذا انقضت عدتك فأذنينى، فاستأذنته فى رجلين كانا خطباها، فقال لها: أما فلان فإنه لا يرفع العصا عن عاتقه، وأما فلان فإنه صعلوك لا شىء له؛ فعليك بأسامة بن زيد»^(٢). فكان قوله عليه

(١) سقط فى ط.

(٢) أخرجه مالك (٥٨٠/٢ - ٥٨١) كتاب: الطلاق، باب: ما جاء فى نفقة المطلقة، حديث (٦٧)، ومن طريقه أحمد (٤١١/٦ - ٤١٢)، ومسلم (١١١٤/٣) كتاب: الطلاق، باب: المطلقة ثلاثا لا نفقة لها، حديث (١٤٨٠/٣٦)، وأبو داود (٧١٢/٢ - ٧١٣) كتاب: الطلاق، باب: فى نفقة المبتوتة، حديث (٢٢٨٤)، والنسائي (٧٥/٦ - ٧٦) كتاب: النكاح، باب: إذا استشارت المرأة رجلاً فيمن يخطبها هل يخيرها بما يعلم، والبيهقى (١٨٠/٧ - ١٨١) كتاب: النكاح، باب: من أباح الخطبة على خطبة أخيه، وابن الجارود رقم (٧٦٠)، وابن حبان (٤٢٧٦) - (الإحسان)، والطحاوى فى شرح معانى الآثار (٦٥/٣)، وابن سعد فى الطبقات (٢١٣/٨ - ٢١٤) عن عبد الله ابن يزيد مولى الأسود بن سفيان عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن فاطمة بنت قيس به. وأخرجه مسلم (١١٩/٢) كتاب: الطلاق، باب: المطلقة ثلاثا لا نفقة لها، حديث (٤٧/٤٨٠)، والترمذى (٤٤٢/٣) كتاب: النكاح، باب: ما جاء ألا يخطب الرجل على خطبة أخيه، وابن ماجه (٦٠١/١) كتاب: النكاح، باب: لا يخطب الرجل على خطبة أخيه، حديث (١٨٦٩) من طريق وكيع ثنا سفيان عن أبى بكر بن أبى الجهم بن صخير العدوى، قال: سمعت فاطمة بنت قيس تقول: قال لى رسول الله ﷺ: «إذا حلت فأذنينى» فأذنته، فخطبنى معاوية وأبو الجهم بن صخير، وأسامة بن زيد، فقال رسول الله ﷺ: «أما معاوية فرجل ترب لا مال له، وأما أبو الجهم فرجل ضراب للنساء، ولكن أسامة بن زيد فقالت بيدها هكذا أسامة أسامة، فقال لها رسول الله ﷺ: طاعة الله وطاعة رسوله خير لك، فتزوجته فاغتبطت». وأخرجه مسلم (١١٩/٢) من طريق عبد الرحمن عن سفيان به.

وأخرجه مسلم (١٢٠/٢) كتاب: الطلاق، باب: المطلقة ثلاثا لا نفقة لها، حديث (٥٠/١٤٨٠)، والترمذى (٤٤١/٣ - ٤٤٢) كتاب: النكاح، باب: ما جاء لا يخطب الرجل على خطبة أخيه، حديث (١١٣٥) من طريق شعبة عن أبى بكر بن أبى الجهم قال: دخلت أنا وأبو سلمة بن عبد الرحمن على فاطمة بنت قيس، فحدثتنا: أن زوجها طلقها ثلاثا، ولم يجعل لها سكنى ولا نفقة. قالت: ووضع لى عشرة أفقرة عند ابن عم له: خمسة شعيرا، وخمسة برا. قالت: فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له. قالت: فقال: «صدق» قالت: فأمرنى أن أعتد فى بيت أم شريك. ثم قال لى رسول الله ﷺ: «إن بيت أم شريك بيت يغشاه المهاجرون، ولكن اعتدى فى بيت ابن أم مكتوم. فعسى أن تلقى ثيابك ولا يراك. فإذا انقضت عدتك فجاء أحد يخطبك، فأذنينى».

فلما انقضت عدتى، خطبنى أبو الجهم ومعاوية. قالت: فأتيت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له فقال: «أما معاوية فرجل لا مال له. وأما أبو جهم فرجل شديد على النساء».

السلام: «فأذنيني» كناية خطاب إلى أن أشار على أسامة، دون ما ذكره أهل التأويل: «إنك لجميله»، و «إنك لتعجبيني»، و«ما أجاوز إلى غيرك»، أو «إنك لنافعه»، ومثل هذا لا يحل أن يشافه لامرأة أجنبية لا يحل له نكاحها.

وفى الآية دلالة أن لا بأس للمتوفى عنها زوجها بالخروج بالنهار [لما ذكر من التعريض]^(١) لأن الرجل لا يأتيها منزلها فيعرض لها، ولكن المرأة قد تخرج من منزلها فتصير في مكان احتمال التعريض، فعند ذلك يقول لها ما ذكرنا. وعلى ذلك جاءت الآثار؛ روى عن رسول الله ﷺ: «أن امرأة مات زوجها، فأتته، فاستأذنته للاكتحال، لم يأت أنه نهاها عن الخروج»^(٢). وما روى عن عمر، وابن مسعود، رضى الله تعالى عنهما، بالإذن لهن بالخروج بالنهار، والنهي عن البيتوة في غير منزلهن. ولأن المتوفى عنها زوجها مؤنتها على نفسها، فلا بد لها من الخروج. وأما المطلقة فإن مؤنتها على زوجها، والزوج هو الذى يكفى مؤنتها ويزيح علتها؛ لذلك افترقا. والله أعلم.

ثم (التعريض) لا يجوز في المطلقة لوجهين:

أحدهما: ما ذكرنا ألا يباح لها الخروج من منزلها ليلاً ولا نهاراً، والمتوفى عنها زوجها

== قالت: فخطبني أسامة بن زيد، فتزوجني، فبارك الله لى فى أسامة.
قال الترمذى: هذا حديث صحيح، وقد رواه سفيان الثوري عن أبي بكر بن أبي الجهم نحو هذا الحديث. ١. هـ.

وهو الحديث السالف.

وأخرجه النسائي (٢٠٧/٦ - ٢٠٨) كتاب: الطلاق، باب: الرخصة في خروج الميتة من بيتها في عدتها لسكناها، وأحمد (٤١٤/٦)، والحاكم (٥٥/٤) من طريق ابن جريج عن عطاء: أخبرني عبد الرحمن بن عاصم؛ أن فاطمة بنت قيس أخبرته - وكانت عند رجل من بنى مخزوم - أنه طلقها ثلاثاً وخرج إلى بعض المغازي، وأمر وكيله أن يعطيها بعض النفقة فتقاتلتها، فانطلقت إلى بعض نساء النبي ﷺ، فدخل رسول الله ﷺ وهي عندها فقالت: يا رسول الله هذه فاطمة بنت قيس طلقها فلان، فأرسل إليها ببعض النفقة فردتها، وزعم أنه شئ تطول به قال: «صدق» قال النبي ﷺ: «فانتقلى إلى أم كلثوم فاعتدى عندها»، ثم قال: «إن أم كلثوم امرأة يكثر عوادها فانتقلى إلى عبد الله بن أم مكتوم، فإنه أعمى» فانتقلت إلى عبد الله فاعتدت عنده حتى انقضت عدتها ثم خطبها أبو الجهم ومعاوية بن أبي سفيان، فجاءت رسول الله ﷺ تستأمره فيهما، فقال: «أما أبو الجهم فرجل أخاف عليك قسفاسته للعصا وأما معاوية فرجل أملتق من المال» فتزوجت أسامة ابن زيد بعد ذلك وأسامة بن زيد هو: أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي أبو محمد وأبو زيد الأمير حب رسول الله ﷺ وابن حبه وابن حاضته أم أيمن. له مائة وثمانية وعشرون حديثاً، أمّره النبي ﷺ على جيش فيهم أبو بكر وعمر، وشهد مؤتة. قالت عائشة: من كان يحب الله ورسوله فليحب أسامة. توفي بوادي القرى، وقيل بالمدينة سنة أربع وخمسين عن خمس وسبعين سنة. ينظر الخلاصة (٦٦/١) (٣٥١).

(١) سقط في ط.

(٢) تقدم.

يباح لها الخروج. وإنما ذكر الله سبحانه وتعالى التعريض في المتوفى عنها زوجها، لم يذكره في المطلقة.

والثاني: أن في تعريض المطلقة اكتساب عداوة وبغض فيما بينه وبين زوجها؛ إذ العدة من حقه. دليله: أنه إذا لم يدخل بها لم تلزمها العدة، وأما المتوفى عنها زوجها لزمها العدة وإن لم يدخل بها؛ لذلك يجوز التعريض في المتوفى عنها زوجها، ولا يجوز في المطلقة.

قال الشيخ: -رحمه الله تعالى-: «ولأن زوجها في الطلاق حي، يعلم ما يحدث بينهما الضغن والمكروه في الحال، وليس ذلك في الوفاة».

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَكَنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾، يعني أخفيتم تزويجها في السر.

وقوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرْنَهُنَّ﴾

سرًا وعلانية. وقيل: يعني الخطبة في العدة.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾

قيل فيه بأوجه:

قيل^(١): لا تأخذوا منهن عهدًا ألا يتزوجن غيركم.

وقيل: ﴿لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾، يعني الزنى. و (السر) الزنا في اللغة.

وقيل^(٢): (السر) الجماع؛ تقول: آتيت الأربعة والخمسة ونحوه.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

يقول لها قولًا لينًا حسنًا، ولا يقول لها قولًا يحملها على الزنى، أو على ما يظهر من نفسها الرغبة فيه، على ما ذكر في الآية: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وأن يعد لها عدة حسنة، أو أن يبر ويحسن إليها لترغب فيه، ولا يقول لها ما لا يحل ولا يجوز. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾

قيل: هو على الإضمار، كأنه قال: «لا تعزموا على عقدة النكاح».

وقيل: ﴿وَلَا تَعْرِمُوا عُقْدَةَ﴾، لا تعقدوا ﴿النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾، يعني

(١) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والشعبي وغيرهم، أخرجه ابن جرير عنهم (٥١٥٧، ٥١٥٨، ٥١٦٠) وانظر الدر المنثور (٥١٨/١).

(٢) قاله جابر بن زيد وأبى مجلز والحسن وغيرهم، أخرجه ابن جرير عنهم (٥١٣٩، ٥١٤٠، ٥١٤٤)، وانظر الدر المنثور (٥١٨/١).

بالتكتاب: ما كتب عليها من العدة حتى تنقضى تلك^(١).

وفيه دليل حرمتها على الأزواج لبقية الملك، فالخطاب للأجنيين، لا للأزواج؛ إذ للأزواج الإقدام على النكاح وإن كن في عدة منهم.

قال الشيخ، رضى الله تعالى عنه، فى قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾: حمل على التحريم، وإن احتمل الذى هو بهذا المخرج غير التحريم؛ لاتفاق الأمة على صرف المراد إليه، ولقوله: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾، أى: ما كتب عليها من التبرص، ولما كان النهى عن ذلك بما لزمها العدة للزوج الأول فهى باقية بها على ما سبق من النكاح المحرّم لها على غيره؛ فلذلك بقيت الحرمة، ولهذا جاز لمن له العدة النكاح فيها؛ إذ لا يجوز أن يمنع حقه. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾.

وهو حرف وعيد، أى يعلم ما تضمرون فى القلوب وتظهرون باللسان من التعريض، ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ ولا تخالفوا أمره ونهيه.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ فَهَيِّءْ﴾.

فيه إطماع المغفرة وإمهال العقوبة من ارتكب النهى وخالف أمره. والله أعلم. ﴿وَأَعْلَمُوا...﴾ الآية، حذره علمه بما فى أنفسهم، ليكونوا مراقبين له فيما أسروا [وأعلنوا]^(٢)، وليعلموا أنهم مؤاخذون بما أضمرُوا من المعاصى والخلاف له، وأن الذى لا يؤاخذ به العبد هو الخطر بالبال، لا بالعزم عليه والاعتقاد.

ثم أخبر أنه ﴿عَفُوٌّ﴾؛ ليعلموا أن استتار ذلك مما غفره وأنهم قد استوجبوا بفعلهم الخزى، لكن الله بفضله ستره عليهم ليشكروا عظيم نعمه، أو لئلا ييأسوا من رحمته فيستغفروه.

وذكر ﴿فَهَيِّءْ﴾؛ لئلا يغتروا بما لم يؤاخذوا بجزء ما أضمرُوا فى ذلك الوقت، فيظنون الغفلة عنه، كقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرَبُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّوْهُنَّ عَلَى التَّوَسُّعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٣٦) وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ

(١) فى أ: ذلك.

(٢) سقط فى ط.

النِكَاحِ وَأَنْ تَعْمُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٦﴾
 وقوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَىٰ الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

فيه دليل رخصة طلاق غير المدخولات بهن في الأوقات كلها؛ إذ لا يتكلم بنفى الجناح إلا في موضع الرخصة، ولم يخص وقتاً دون وقت. وأما المدخولات بهن فإنه عز وجل ذكر لطلاقهن وقتاً بقوله: ﴿إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]؛ لذلك قال أصحابنا - رحمهم الله تعالى - : أن لا بأس للرجل أن يطلق امرأته في حال الحيض [إذا لم يدخل بها]^(١).

وجهه: أنه إذا كان دخل بها فعرف وقت طهرها مما سبق من الدخول بها، فأمر بالطلاق في ذلك الوقت ليكون أدعى إلى المراجعة إذا ندم على طلاقها. وأما التي لم يدخل بها لا يعرف وقت طهرها لما لم يسبق منه ما به يعرف ذلك الوقت، فلم يؤمر بحفظ ذلك الوقت. ولأنه إذا لم يدخل بها فإن الطلاق بينهما منه، فجعل كل الأوقات له وقتاً للطلاق، لما لم يجعل له حق المراجعة قبلها ليكون بعض الأوقات له أدعى إلى ذلك. والله أعلم.

والثاني: أن المدخول بها يتوهم علوقها منه، فجعل لطلاقها وقتاً لتستبين حالها: أحامل، أم لا؟ لئلا يندم على طلاقها؛ لأن الرجل إذا طلق امرأته ثم علم أنها حامل يندم على طلاقها؛ لذلك كان الجواب ما ذكرنا. والله أعلم.

وفيه دليل رخصة طلاق الميبين^(٢) منه إذا لم يملك إمساكها عند الندامة. لأن الطلاق قبل الدخول تبين المرأة من زوجها.

والأصل في الأمرين - جعل الطلاق في وقت حلها للأزواج. وكل الأوقات في غير المدخول بها وقت الحل.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾

معناه - ولم تفرضوا لهن فريضة، كأنه عطف على قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، إلى قوله عز وجل: ﴿مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾، دليله قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾، دل الأمر بالمتعة أن قوله تعالى: ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ﴾، معناه - ولم تفرضوا لهن. ودل قوله عز وجل: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، أن ذلك في غير المفروض لها؛ حيث أوجب في المفروض نصف المفروض

(١) بدل ما بين المعقوفين في أ، ط: إذا كان لهم لم يدخل بها.

(٢) في أ: الميبين.

وأوجب ثمَّ المتعة. ثمَّ يجيء في القياس أن يوجب في غير المفروض نصف مهر المثل إلا المتعة؛ لأنه إذا دخل بها أوجب كل مهر المثل كما أوجب كل المفروض عند الدخول بها، ونصف المفروض عند عدم الدخول بها، لكن أوجب المتعة لوجهين:

أحدهما: أن مهر المثل إنما يقدر بها إذا دخل بها، فإذا لم يدخل بها لم يعرف الزوج ما قدر مهر مثلها؟، فإذا لم يعرف ما قدر مهر مثلها لم يعرف النصف من ذلك.

والثاني: أنهم أوجبوا المتعة تخفيفاً وتيسيراً؛ لأن الحاكم يلحقه فضل كلفة وعناء في تعرف حالها وحال نساءها، إذ مهر المثل إنما يعتبر بنسائها، وليس ذلك في المتعة. والله أعلم.

ثم قدر المتعة: يعتبر شأنه اعتباراً بقدرها؛ لأنه لو اعتبر شأنه قدر ما أوجب لها غناها وغناء أهلها، ومهر المثل لا يبلغ ذلك، فكان في ذلك تفضيل المتعة على مهر المثل - وقد ذكرنا أن المتعة أوجب تخفيفاً - ولو نظر إلى قدرها دون قدره لكلف الزوج ما لا طاقة له به ولا وسع؛ لذلك وجب النظر إلى قدره اعتباراً بقدرها. والله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ تَقْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، أو نسق على قوله: ﴿مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾، فهو على: «المالم تفرضوا لهن فريضة»، وعلى ذلك قوله: ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وعلى هذا إجماع القول في جواز النكاح بغير تسمية.

وفى ذلك دليل أن قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْظِمِينَ﴾ [النساء: ٢٤]، هو ما يتنق من النكاح بالمال، لا بتسمية المال، فيكون النكاح موجباً له، به يوصل إلى حق الاستمتاع، لا بالتسمية؛ ولهذا كان لها حق حبس نفسها عنه حتى يسلم إليها ما منع عن الملك إلا مهر به مسمى أو غير مسمى، كقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَنَّ النَّبِيَّ إِنَّا أَهْلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتَيْتُ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ...﴾ الآية [الأحزاب: ٥٠].

وإذا جاز النكاح بلا تسمية لم يفسده فساد التسمية، بل الذي أفسد في أعلى أحواله كأنه لم يكن، وعلى ذلك اتفاق فيما يتزوج المرأة على ما لا يحل من خمر أو ميتة أو نحو ذلك أن يجوز؛ فيكون في ذلك أمران:

أحدهما: أن ما لا يتعلق جوازه بالشرط، ففساد الشرط لا يفسد.

والثاني: أن تبين موضع النهي عن الشغار أنه غير مفسد العقد^(١)؛ لأنه في جعل ذلك بدلاً للبضع، والله تعالى لم يجعل التسمية شرطاً لجوازه ليفسد لفسادها. والله أعلم. ثم جعل الطلاق قبل المماسة سبباً لإسقاط بعض ما أوجب العقد، فهو - والله أعلم - لما لم يوصل إليه كمال ما له قصد النكاح، إذ هو مجعول للتعفف، وحقيقته في إمكان الاستمتاع، لا بالعقد، ولولا ذلك لما جعل النكاح، ولم يبطل كل المهر لما تقلب في الملك الذي له البدل، إذ هو في الحقيقة للملك، لا للاستمتاع. دليل ذلك: ما لا يزداد لكثرة الاستمتاع؛ فثبت أنه بدل الملك في الثقل فيه، إذ ليس هو سبباً لفسخ السبب الموجب للملك، الذي له وجب البدل، بل هو ثقل فيه، لم يرفع عنه البدل كله. والله أعلم. فأوجب عز وجل نصف المهر، وأسقط نصفه بما قد فقد أحد القصدين ووجد الآخر. والله أعلم.

ثم إذا لم تكن التسمية جعل الله تبارك وتعالى المتعة مقام نصف المسمى عند التسمية، وإن كان لو تركا، والتدبير بعد بيان الواجب فيما لم يسم مهر المثل نحو وجوب المسمى فيما سمي، لكان الذي يغلب على الوهم أنا لا ندرك تدبيرنا غير نصف مهر المثل، فتولى الله سبحانه وتعالى بيان ذلك ليعلم الناس - والله أعلم - أن الله تعالى بين كل ما بالخلق إليه حاجة على قدر ما يحتمله وسعهم ويبلغه عقولهم، وأن الذي لا يحيط به تدبرهم، بين لهم بالإشارة إليه تفضلاً منه على عباده ليؤلف به بينهم، ويمنعهم عن التنازع. والله أعلم. ثم لم يبين^(٢) لنا ماهية المتعة بالإشارة إليها. ومعلوم أن قدر الذي يتبين فيما علم قصور التدبير عن الإحاطة بدرك ذلك النوع من الحكمة فيما لم يبين، فهو - والله أعلم - بما علم أن العقول تبلغه، وأنه بالتدبير فيما يتبين وجه الوصول إليه. ولا قوة إلا بالله. ثم قد بين أن الحق أؤكد عند التسمية، منه فيما لم يكن التسمية، بوجهين:

أحدهما: بقوله تعالى: ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ﴾، فيما كان الطلاق قبل المماسة، وعند التسمية أوجب نصف المسمى، احتمله وسعه أو لا. ومعلوم أن الاحتمال على قدر الموسع أخف مما كان يجب احتماله عند الخروج من الموسع. والله أعلم. والثاني: بما علم من وقوع الاختلاف يكون بين الأمة فيما لا تسمية إذا مات أحد الزوجين في حق إكمال المهر وارتفاع ذلك بما كان ثم تسمية، فهو الدليل على أن الحق في أحد الزوجين^(٣) أؤكد منه في الآخر، على أن العقود والفسوخ كلها تثبت لها عند

(١) في ط: مفيد الفعل.

(٢) في أ: بين.

(٣) في أ: الزوجين.

تسمية البذل، ولا يجب شيء من ذلك بنفس العقد البذل حتى يستوفى فى بعض ذلك، ولا يجب شيء فى البعض على كل حال؛ فثبت به ما ذكرت، فأوجب ما ذكرت - ألا يراد بالمتعة نصف مهر المثل؛ إذ قد ثبت بالبيان الأول أن التدبير لا يوجب الزيادة عليه، وبالبيان الثانى أن الأمر فيه محمول على التيسير والتخفيف، ومن البعيد المجاوزة بالأمر المؤسس على التخفيف على المؤسس بالتعليظ فى التعليظ.

ولم يبين لنا ماهية المتعة - ما هى؟

ومعروف أن المتعة هى التى يتمتع بها، وأن مهر المثل مما قد يتمتع به. فجعلنا نصف مهر المثل نهاية المتعة بما هو النهاية فيما كان مبنياً على التعليظ، فلا يجاوز بها.

ذلك مع ما فيه وجهان:

أحدهما: إحالة وجوبها أكثر من مهر مثلها، فيكون الدخول بها سبباً لإسقاط الحق، وقد جعله الله تعالى سبباً لمنع السقوط؛ فثبت أن مهر المثل معتبر فى المتعة.

والثانى: أنها بحكم البذل عن ذلك. دليله وجهان:

أحدهما: أن المطالبة^(١) كانت بمهر المثل، والطلاق سبب إسقاط حقوق النكاح لإيجابها؛ فثبت أن المتعة كانت مكان ما فيه المطالبة، لا أن حدث الوجوب بالطلاق. والثانى: أنه متى وجب مهر المثل لم يوجد لها نحو أن يدخل بها. ثبت أنها كانت بدلاً، فلا يزداد البذل، مع ما كان التحويل إلى غير نوع مهر المثل. إنما هو - والله أعلم - لما قد يتعذر تعرفه، أو أن لم يعرف ذلك بالاجتهاد والتفحص عن أحوالها ومحلها ومحل قومها، وفى ذلك مؤن وتكلف. ثم بعد العلم بذلك لا بد من الاجتهاد فى الوسط من ذلك، ثم فى أمرها منهم، فجعل الله تفضله من الوجه الذى للمرء سبيل العلم به عن ذلك التكلف. أو لو رفع هو إلى الحاكم أمكنه الوصول إلى العلم به بدون ما ذكرت من النظر. فكان ذلك - والله أعلم - نحو ما فرض الله تعالى من زكاة الإبل، لا فيها إذا صار بحيث لو كانت فيها لكانت جزءاً يتعذر أخذ مثله، ثم التسليم إلى الشراء، فجعل فى ذلك بدلاً على أن الذى عليه لو خرج بتسليم العين جاز؛ فمثله ما نحن فيه.

وهذا هو وجه جعل الله تعالى متعة على أنها كانت واجبة نحو الإمساك، لو رام ذلك، إذ عليه النفقة والكسوة، فإذا طلقها فجعلت هى مكان مهر المثل إذا فات السبب الذى كان

(١) فى أ، ط: المطابقة.

يجب بحققها، فجعلت واجبه بحق غيرها حتى لا يقع فى الطلاق وجوب أمر لم يكن فيما تقدم، لو أريد بها الإمساك. ومن البعيد أن يزداد كسوة المرأة على مهرها أو نصف مهرها فى الحق. ولا قوة إلا بالله.

ثم ليس فى ظاهر الآية إبطال المهر فيما لم يسم، ولا النصف فيما سمي. وإنما فى الأول الأمر بالمتعة، وفى الثانى بيان أن لها نصف الفرض.

والقول: بأن نصف هذا العبد لفلان، أو لفلان، كذا من الحق لا يبطل عنه الحقوق جملة، أو عن النصف لآخر بذلك القول، بل فيه بيان ذلك أنه له وغيره متروك لدليله. ولا قوة إلا بالله.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، ليس فى ذلك أن لا عدة عليهن، ولكن فيه أن لا عدة لهن، ويجوز أن تكون عليها، لا له. وكذلك عندنا: العدة هى التى عقيب الخلوة لا يملك هو فيها إمساكها، ويلزمه المؤن فكأنها عليه، لا له فى المعتبر.

فلما ذكرت يبطل قول من ادعى أن القول بالمهر والعدة فيما لا مماسة فيه خلاف الظاهر - والله أعلم - مع ما لو كان فى الظاهر ذلك لأمكن أن يكون من المسيس الإمكان، لا حقيقته. دليل ذلك: أنه لو وجدت القبلة أو المعانقة فى المأ من الخلق لوجد المسيس فى الحقيقة، ولم يجب به ذلك؛ فثبت أن المراد من ذلك معنى فى المسيس، لا ما يلحقه اسمه.

ثم الذى يؤيد أنه الإمكان والاجتماع وجهان:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْبَدَالَ زَوْجٍ مَّكَاتٍ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَنْتَاخُذُوهُنَّ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا طُبِينَا ﴿٢٣٦﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢٣٧﴾﴾ [النساء]، فأعظم عليه أخذ شيء مما آتاها بما كان من إفضاء بعض إلى بعض. والإفضاء فى اللغة معروف: أنه الانضمام، لا المجامعة، مع ما كانت المجامعة إلى الأزواج، يضاف فعلها، وفى هذا إضافة الإفضاء إلى كل واحد منهما. ثبت أنه فى معنى ذلك من كل واحد منهما نحو الذى من الآخر، وذلك يكون فى الاجتماع خاصة. والله أعلم.

والثانى: وجود القول من خمسة من نجباء الصحابة الخلفاء، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فمن دونهم ممن لا يحتمل خفاء الآيات عليهم، ومن شهد الخطاب أحق بفهم الحقيقة من المراد أن يسألوا عن ذلك من أن يطلعهم على حقيقته إذا كان بحيث احتمال

الخفاء، والخاصة النجباء الذين يعلمون أنهم أئمة الخلق، وعلى الافتداء بهم حث الأمة، مع ما فى ذلك عدول عن الظاهر، وقول بالذى لا يحتمل فهمه عنه؛ ثبت أن كان ذلك منهم عن بيان من رسول الله ﷺ، أو عن دليل شهوده أظهر المراد. ولا قوة إلا بالله.

على أن فى الآية، لو كان فى تصريح جماع، لكان يلزم ذلك بالخلوة لوجهين سوى ما ذكرت:

أحدهما: جرى أحكام الكتاب والسنة فى البذل لأشياء مقصودة اسمًا وتحقيقًا يستوجب حق العرفاء بها بحق شرط الله القبض فى الرهن، والقتال فى المغانم، والإيتاء فى الأجور والمهور والخروج لأمر الهجرة وأمر رؤيا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لما أسلما لأمر الله، فعلى ذلك أمر [المهور والعدة فى الخلوة إذ هى سلمت نفسها لذلك، وعلى ذلك أمر] ^(١) الخروج من الأمانات بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، ولو كان لا يخرج إلا بإدخال فى الأيدى فى الحقيقة، لكان لا سبيل إلى القيام بما كلف الله تعالى. وعلى ذلك إجماع القول فى الإجازات إذا أمكن الانتفاع بها. والله أعلم.

والثانى: أن النساء لا يملكن من تسليم ما عليهن من الحق، ومحال أن يلزمهن من الحق أكثر مما ذكر، لكن الله تعالى وسعهن؛ فثبت أن ليس عليهن غير الذى فعلن، فاستوجبن ما لهن، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] والله أعلم.

ثم قد أجمع على وجوب المهر فى موت أحدهما، وأن الموت لا يسقطه، وإن لم يكن ثم دخول. فهو - والله أعلم - أن المقصود بالنكاح الملك وقيام الزوجية إلى موت أحدهما، وإن كان ذلك الاستمتاع وقد وجد تمامه. وقد بينا أن المهر للملك، لا لنفس الاستمتاع، فوجب كماله وإن مات أحدهما، لما بلغ الملك نهايته.

وعلى هذا يخرج قولنا فيما لم يسم لها المهر؛ إذ مهر المثل إنما هو بدل الملك. دليله: أنه يوجب لها المطالبة به عند قيامه وإن لم يسم به.

وأصله: ما بينا من تعلق هذا الملك بالبذل حكمًا، وإن لم يكن تعلق به شرطًا، وقد وجد ثم.

(١) ما بين المعقوفين سقط فى ط.

وعلى هذا روى عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، فى ذلك، وقام معقل بن سنان^(١) فقال: «نشهد أن رسول الله ﷺ قضى فى بروع بنت واشق^(٢) بمثل الذى قضيت أنت». فسر به عبد الله لموافقة رأيه ما روى له عن رسول الله ﷺ^(٣).

وإذا ثبت ذلك فعلى ذلك، إذ المعقول بالنكاح أن تبذل المرأة نفسها له ليستمتع بها، فإذا جاءت الخلوة وجد تمام المقصود منها بالنكاح، على ما وجد فى موت أحدهما، فيجب كمال المهر كما وجب بالأول، ويستوى فى ذلك مهر المثل والمسمى. والله أعلم.

وعلى ذلك فيما لم يوجب جعله بذل المنفعة، إذ هو قيمة البضع، ويجب قيمة الأشياء بإتلافها، ولم يوجد هاهنا. وعندنا: أنه وإن كانت قيمة ذلك فهى بدل ملك ذلك، لا بدل الانتفاع نفسه، إذ لا يجب فى الزنى؛ ثبت أنه للملك يجب أو لشبهته، وقد وجد فى الأول على تمام ما رجع إليه المقصود، وجب على ما مر بيانه. والله أعلم.

وأوجب قوم فى المسماة بعد النكاح نصف المسمى إذا طلق قبل الدخول استدلالاً بظاهر الآية. ولكن التسمية عند الناس إنما تكون فى العقد حتى لا يعرف لها وجود غيرها، وهى التسمية فى العقد، فهى المرادة فى الخطاب، إذ هى المعروفة من الفرض، ثم غيرها بحق الاستدلال، فإن ألزم الدليل لها حق التسمية فى العقد لزم، وإلا لا. ثم وجد جميع الأسباب التى تحتلل الاعتياض جعل ذكر الفرض بعد السبب كلا ذكر، فمثله أمر النكاح، فأوجب ذلك فساد التسمية، فلم يجب المسمى من بعد إلا حيث يوجبه الدليل، وقد قام دليل الوجوب عند وجود ما له حكم الدخول بها، يجب عند ذلك، وإلا لا.

ثم وجه لزوم القول بما يخرج على أحوال أحديهما أن لهذا التسمية إذا جازت جازت بحق مهر المثل، إذ كل سبب ليس له عوض بالحكم لم يجز. ثم كان مهر المثل يسقط قبل الدخول بها، كذلك الواجب به. والله أعلم. وأيضاً فإن الحكم يوجب تبين مهر

(١) معقل بن سنان الأشجعى أبو محمد، صحابى له أحاديث. وعنه علقمة ومسروق. قتل فى الحرة صبرا. ينظر: الخلاصة (٤٥/٣) (٧١١٢).

(٢) بروع بنت واشق الأشجعية مات عنها زوجها هلال بن مرة الأشجعى، ولم يفرض لها صداقا. فقضى لها رسول الله ﷺ بمثل صداق نساها. ينظر: الاستيعاب (٣٥٧/٤) (٣٢٨٩).

(٣) أخرجه أحمد (٤٨٠/٣)، (٢٨٠/٤)، وأبو داود (٦٤٣/١)، كتاب النكاح باب فيمن تزوج ولم يسم صداقا (٢١١٤، ٢١١٥)، والترمذى (٤٣٦/٢)، كتاب النكاح باب ما جاء فى الرجل يتزوج المرأة فيموت عنها (١١٤٥) والنسائى (١٢١/٦) كتاب النكاح، باب إباحة التزويج بغير صداق وابن ماجه (٣٣٥/٣)، كتاب النكاح باب الرجل يتزوج ولا يفرض لها فيموت على ذلك (١٨٩١).

المثل ليدفع إليها، إذ لها حق الامتناع إلا به، فاصطلاحها على ما سميا من بعد له حق ما فى الحكم ذلك وهو التبيين، ولو بينه الحاكم لكان يسقط. فمثله هذا. والله أعلم.

والثالث: أنه معلوم أنه لو كان الذى فى علم الله تعالى من طلاقها، لو كان ظاهراً وقت التسمية، لكان حقها عليه المتعة، ولم يكن^(١) يجب النظر إلى مهر المثل إلا من وجه تحديد المتعة. فكذلك إذا ظهر - والله أعلم - وأمكن أن يقال: الأصل فى ذلك أن المتعة ليس يوجبها الطلاق، ولكن النكاح يوجب، ثم كان الواجب بالنكاح مجهول، لا يدرى أهو مهر المثل أو المتعة؟؛ إذ لا يجوز أن يجبا، ولا أن يوجب الطلاق أحدهما، لما هو بيان ذلك؛ فثبت أن الواجب فى الحقيقة أحدهما، لكن لها مطالبة مهر المثل فى الظاهر، ولها التسمية عنه بما العرف فى النكاح أنه للدوام ثم هو للاستمتاع، فحمل الأمر على ذلك الظاهر وبه أجزت التسمية. فلما ورد الطلاق قبل الدخول ظهر حقيقة الواجب، فبطل الذى كان بحق المهر، لما ظهر أن الواجب فى علم الله تعالى المتعة. والله أعلم.

وعلى أصل هذا المعتبر أمر المفروض الظاهر أنه نوع الإيمان، وذلك مما لا يزداد ولا ينتقص، فيجب بالطلاق نصف مهرهن. ثم إذا كان من نوع ما يزداد وينقص فيحدث أحد الوجهين، فليس فى الكتاب تسمية ذلك النوع على المعروف، ولا القضاء فيه بشيء. ومعلوم أن ذلك لو كان فى يدى الزوج ليجب نصف ذلك فيما كان الطلاق قبل الدخول بها، فيصير بحكم المفروض. وإن لم يكن بما كان حدث من الحق، أو بما كان فى علم الله تعالى أن الحق فى ذلك النصف؛ إذ ذلك حكم الطلاق قبل الدخول بها على حق المنصوص، فيكون الذى حدث من النصف حقه، أو بما كان ذلك مهراً والحادث محتمل جعله مهراً، فهو فيه على ما عليه معتبر الحقوق من لحوق الفروع الأصول. فإذا كان ذلك بعد القبض فقد انتهى أمر الحق، وحدث ما حدث على ملكها، إذ على ذلك يحدث. فقلنا: لو نقص المهر فى العين لكان يصير النصف له بحق بعض القبض فيه، ثم نقض العقد، وإذا كان كذلك لا يخلو أمر الزيادة من أن يرد عليه فيرجع بشيء لم يسلم إليها، وذلك فضل على ما أخذ من الحق يأخذه بالحكم، فيكون ربا؛ لأنه لم يسمه، ولا يسلم إليه، فزال المعنى الذى هو لها فيه، فيكون أخذه بلا عوض فى عقد التبادل، فيصير ربا، ولو أبقي له على فسخ القبض فى المهر والعقد فيصير ذلك لما فضل من أصل قد فسخ العقد فيه مما لم يكن لها إلا ببدل بلا بدل، وذلك وصف الربا، وقد حرم الله الربا؛

(١) فى أ: ولو لم يكن.

فيجب بالضرورة جعل المفروض كالهالك، فيجب نصف القيمة ليزول معنى الربا. والله أعلم.

وعلى ما ذكرت يخرج قول أبى يوسف، رحمه الله تعالى، فى العلة والهيئة^(١): أنه يظهر الواجب فى الحكم.

وعند أبى حنيفة، رضى الله تعالى عنه، ذلك فى حق النقض يصير كذلك، دليله: ما لم يكن يجوز فيه تقلب الزوج، لو كان منه، ثم النقض لا يرد على ما ليس له حكم المهر، فيبقى ذلك للمرأة على ما كان لها قبل الطلاق؛ إذ الطلاق نقض الملك فى المهر، وليس ذلك بمهر. والله أعلم.

قال الشيخ - رحمه الله تعالى -: والمذكور من المتعة فيما فيه الدخول يحتمل ما عليه فى حال النكاح من الكسوة والنفقة، إلى تمام العدة، فتكون الآية فى ذكر النفقة بعد الفراق؛ إذ لا يجوز أن يكون الطلاق سبباً لإيجاد حق غير واجب قبله. ويحتمل أن يكون فى حق المتبرع شرط عليه ليكون تسريحاً بالإحسان على ما رغب فى غير المدخول بها من الإتمام؛ إذ لا يجوز أن يكون ذلك بدلاً فيكون لملك واحد بدلين، مع ما جعل الله تعالى الطلاق سبباً لتخفيف الحقوق على الزوج، ورفع المؤنة، ورد الأمر إلى الغناء بالآخر بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠]، لم يحتمل به الوجوب، فيصير سبباً لإلزام المؤنة. ولا قوة إلا بالله.

وقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

فيه دليل لأبى حنيفة، رضى الله تعالى عنه، حيث قال: إن الذمى إذا تزوج امرأة ولم يسم لها صداقاً، ثم طلقها قبل أن يدخل بها، لا متعة لها؛ لأن الله تعالى إنما أوجب المتعة على المحسنين، والذمى ليس بمحسن. والدليل على أن المتعة إنما أوجبت تخفيفاً، ومهر المثل لا؛ لأن مهر المثل أوجب على المرء احتمله ملكه أو لم يحتمل، والمتعة لم تلزم إلا ما احتمله ملكه؛ فبان أنها أوجبت تخفيفاً فإذا كان تخفيفاً؛ لم يزد على مهر المثل.

والثانى: أن المتعة أوجبت بدلاً عن نصف مهر المثل، ثم لا جائز أن يراد بالبدل المبدل، كما قيل فى سائر الأبداً. والله أعلم.

والمتعة - هى ثلاثة أثواب؛ لأنه يخرجها من المنزل، وأقل ما تخرج المرأة من المنزل إنما تخرج بثلاثة أثواب.

(١) فى أ: والهبة.

فإن قال لنا قائل: إن الكتاب ذكر المتعة للمطلقة قبل المماسة إذا لم يفرض لها فرض، وذكر أنه في نصف المفروض إذا طلقها قبل المماسة، وأنتم أوجبتم كل المسمى وكل مهر المثل إذا خلا بها ولم يمسه.

قيل له: في الآية بيان وجوب المتعة في حال وبيان وجوب نصف المهر في حال، وليس في بيان وجوب النصف نفى وجوب الكل؛ لأنه إذا قيل: «لفلان نصف هذا الشيء»، ليس فيه دليل أن النصف الآخر ليس له، فإذا كان ما ذكرنا ليس لمخالفتنا الاحتجاج علينا بظاهر الكتاب، ولا السنة إلى مخالفة الآية، فصار معرفة ذلك بتدبير آخر من جهة الكتاب، مع ما أنه لا يوجب المهر كله لعين الميسس، فكانا - نحن وهو - اتفقنا جميعًا على إيجابه لا بالكتاب. والله أعلم.

وإن شئت قلت: إن الخلوة لا توجب كمال الصداق، وإنما يوجبه صحة العقد. دليله: مطالبة المرأة الزوج بكماله بعد صحة النكاح؛ فدل أن وجوبه لا بالخلوة، ولكن بصحة العقد، فالكلام إنما وقع في إسقاط البعض، فيسقط إذا قام دليل الإسقاط. والله أعلم.

وإن شئت قلت: إن المرأة لا تملك سوى تسليم نفسها إليه، فالعقد إنما وقع على ما يقدر على تسليمه إليه، ليس على ما لا تقدر؛ لأنها لا تقدر على تسليم الاستمتاع إليه؛ إذ لو كان العقد واقعًا على ذلك لكان يبطل؛ لأن من باع ما لا يقدر على تسليمه إلى المشتري لبطل العقد بأصله، فعلى ذلك عقد النكاح إذا جعل واقعًا على تسليم الاستمتاع إليه كان باطلًا كالبيع للمعنى الذى وصفناه. والله أعلم.

ثم اختلف في المرأة التي مات عنها زوجها ولم يدخل بها ولا فرض لها مهرًا: روى عن عبد الله بن مسعود، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: لها مهر مثلها، وروى عن رسول الله ﷺ «أنه قضى لبروع بنت واشق بمهر مثلها»^(١).

وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه^(٢)، أنه قال: لها المتعة بكتاب الله تعالى. وقال: لا ندع كتاب الله بقول أعرابي. ذهب - والله أعلم - إلى أن الكتاب ذكر المتعة في الطلاق، ثم كان ذلك الحكم في غير الطلاق كهو في الطلاق؛ فعلى ذلك الفرقة التي وقعت بالموت توجب المتعة كوجوبها في الفرقة الواقعة في غير الطلاق، كقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْصِدْنَ بِنَفْسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ذكر (المطلقات)، ثم

(١) تقدم.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبيهقي كما في الدر المنثور (١/٥٢٢).

كانت التي وقعت الفرقة عليها بغير طلاق يلزمها ما يلزم المطلقة، ومثل ذلك كثير مما يكثر ذكره. والله أعلم.

وأما عندنا فإنه لا تلزم المتعة، ولكن يلزم مهر المثل لوجوه:
أحدها: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، ذكر في الطلاق قبل الدخول نصف المفروض، وفي الدخول كل المفروض؛ فعلى ذلك ما أوجب من الحكم في التي لم يدخل بها ولم يسم لها مهراً دون ما أوجب في حكم الدخول. والله أعلم.

والثاني: أن المقصود بالنكاح إنما يكون إلى موت أحد الزوجين، فإذا كان كذلك لزم كل المسمى أو كل مهر المثل. والله أعلم.

والثالث: الخبر الذي ذكرنا: أنه قضى بمهر المثل، وخبر أمثال هؤلاء مقبول إذا كانت البلية في مثله بلية خاصة، إذ بمثل هذا لا يبلى إلا الخواص من الناس؛ لذلك كان ما ذكرنا.

وقوله: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُورَ أَوْ يَعْفُوا أَلَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ذهب قوم إلى ظاهر الآية - أنه ذكر فيها ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، ولم يخص المفروض في العقد دون المفروض بعد العقد، فكله مفروض، فلها نصف المفروض سواء كان المفروض في العقد أو بعد العقد.

وعلى ذلك قال قوم: إن الرجل إذا تزوج امرأة على جارية ودفعتها إليها، فولدت عندها ولداً، ثم طلقها قبل الدخول بها، أن لها نصف الجارية؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، وأنتم لا تجعلون له نصف ما فرضتم، فخالفتهم ظاهر الكتاب.

أما الجواب لمن جعل المفروض بعد العقد كهو في العقد فيما جعل لها نصف ما فرض، فإن الخطاب من الله تعالى إنما خرج في المفروض في العقد لا في المفروض بعد العقد؛ [لأنه لم يتعارف الفرض بعد العقد، فإذا لم يتعارف في الناس الفرض بعد العقد^(١) إنما يتعارف في العقد، خرج الخطاب على هذا المتعارف فيهم، وهو المفروض في العقد، فيجعل لها نصف ذلك وما يفرض بعد العقد وإنما يفرض بحق مهر المثل، فإذا وجد الدخول وجب ذلك، وإلا لم يجب.

(١) ما بين المعقوفين سقط في ط.

وأما جواب من قال: بأنه إذا تزوجها على جارية ودفعها إليها، فولدت ولدًا، أن له نصف ما فرض - فإننا نقول: إن الآية ليست فى الفرض الذى معه آخر ولدًا أو غيره؛ ألا ترى أن الجارية إذا كانت عند الزوج فولدت ولدًا فإن لها نصف الجارية ونصف الولد، والولد لم يكن فى الفرض وقت العقد؟ فعلى ذلك الآية ليست فى الجارية التى ولدت عندها، ولكن فى الفرض الذى لا زيادة معه. ثم لا يخلو إما أن يجعل نصف الجارية لها دون الولد، فقد فسخ العقد فى الأصل فبقى الولد بلا أصل، فذلك ربا. أو يجعل له نصف الجارية مع نصف الولد، وهو غير مفروض، والله تبارك وتعالى إنما جعل له نصف ما فرض؛ فبطل قول من قال ذلك. والله أعلم.

قال الشيخ، رضى الله تعالى عنه، فى قوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾، قيل: يريد به المؤمنين فيكون فى هذا التأويل دلالة على ما قاله أبو حنيفة. رضى الله تعالى عنه: أن لا تلزم الذمى المتعة.

وقيل: على من قصدهم الإحسان إلى الأزواج ويتقون الخلاف، لما كان عليه النكاح من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. والله الموفق.

واعتل قوم فى حق العدة وكمال المهر، أنه ذكر فيه الطلاق لا على تخصيص الحكم له، بل بكل ما يكون^(١) به تسريحها فمثله يكون ذكر المماساة - لا على تخصيص، ولكن بكل ما يكون به تحقيقها. ولا قوة إلا بالله.

قال: وقدرت المتعة فى الاختيار بالقدر الذى كان يمتعها بالإمساك، إذ لا بد من كسوتها، ليعلم أن ليس للفرار عن ذلك الحق يطلق، أو بما به يخرجها من منزله فأمر أن يمتعها بما به التى تخرج من المنازل. وأقل ذلك ثلاثة أثواب. والله أعلم.

وفى هذه الآيات دلالة واضحة على أن الشيء التافه لا يحتمل أن يكون مهزأ؛ لما أوجب عند العدم، فيما لا تسمية فيه، الشيء الخطير، وهو الذى يمتعها، وأقل ما تمتع هى له فيه ثلاثة أثواب وفيما سمى أمرا عند ذلك بالعفو وجب، لا يحث على العفو عنها، ولا يرغب بين الزوجين إلا الأخذ بالفضل بمثله دل أن لذلك حدًا قد يجرى بمثله التنازع، فيرغبون فى إبقاء ذلك واختيار ما به التآلف على أن الله - جل ثناؤه - قد جعل بناء النكاح بالأموال وبها أحل، وقال فى ذى العذر: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ...﴾ [النساء: ٢٥]، الآية، ولو كان بحبة طول حرة لكان لا أحد يعجز عنها فيشترط ذلك فى

(١) فى أ: يكون بكل ما صح.

تزويج المملوكة وبخاصة على قول من لا يبيح إلا بالضرورة، فمن رأى يضطر إلى حبة يتوق إلى الاستمتاع فضلاً من أن يتخير، ثم على ذلك قال فى الإمام: ﴿وَأَنُؤْهِكَ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ والحبة معلوم أنها أنكر من المنكر؛ فثبت أن مهر الحرائر بيّن ويظهر فى أهل الحاجة، وأن القول بجعل الحبة مهراً تاماً ووصف ملكها بملك الطول قولاً مهجوراً، لا معنى له. وبعد فإن الناس قد أجمعوا على أنها لا تملك (المعروف) ببضعها، والبدل للزوج بلا بدل يلزمه، فصار كمتولى العقد على ما ليس لها، وحظ القليل فى مثله والكثير فى المنع واحد. فقياس ذلك ألا يكون الحط من مهر مثلها، والحبة لا تكون مهر مثل أخت امرأة فى العالم، فلا يجىء أن يجوز الحط ولكن أجيز العشرة بالاتفاق، ولم يجز الأكثر للتنازع، وقد بينا الفساد من طريق التدبير. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْقُوبَ﴾

قيل^(١): المرأة.

وقوله: ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاءِ﴾.

اختلف أهل التأويل فيه:

قال على وابن عباس^(٢) - رضى الله تعالى عنهما هو: الزوج - وقال قوم: هو الولي.

وأمكن أن يكون قول من قال بأنه الولي؛ لما أن المهور فى الابتداء كانت للأولياء.

دليل ذلك قول شعيب لموسى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكْثَمَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَذَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي

ثَمَنِي جِجْجَ﴾ [القصص: ٢٧] شرط المهر لنفسه، وكما روى من الشغار، ثم نسخ من بعد

وصار ذلك للنساء بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾

[البقرة: ٢٢٩]، وقوله: ﴿وَأَنُؤْهِكَ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَكُلُوهُ هَنِيئًا

مَرِيئًا﴾ [النساء: ٢٠]، وقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَأَتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ

فِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء: ٢٠]، ولأنهم أجمعوا على ألا يجوز لأحد

المعروف فى ملك الآخر إلا بإذنه؛ فعلى ذلك لما ثبت أن المهر لها لا يجوز للولي المعروف فيه.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْقُوبَ﴾، يعنى المرأة تترك النصف ولا تأخذ منه شيئاً. وقوله:

﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاءِ﴾، يعنى الزوج يجعل لها كل الصداق، يقول: كانت فى

(١) قاله ابن عباس وعكرمة والضحاك ومجاهد والربيع وغيرهم، أخرجه ابن جرير عنهم (٥٢٥٥)، ٥٢٥٦، ٥٢٥٧، ٥٢٥٨، ٥٢٦٠، وانظر الدر المنثور (١/٥٢١).

(٢) أخرجه ابن جرير (٥٣٠٤)، وانظر الدر المنثور (١/٥٢١).

حبالتى ومنعتها من الأزواج. وترك المرأة له النصف، فتقول: لم ينظر إلى عورتى، ولا تمتع^(١) بى. وهو على الإفضال، وعلى ذلك يخرج قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، [أن يتفضل أحدهما على الآخر بترك النصف أو بإتمام الكل، ومعنى قوله ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾]^(٢) أى لا تنسوا الفضل الذى فى ابتداء الأمر؛ لأن أمر النكاح فى الابتداء مبنى على التشفع والإفضال، فرغبهما عز وجل على ختم ذلك على الإفضال على مابنى عليه. والله تعالى أعلم.

وفيه دلالة على أن (العفو) هو الفضل فى اللغة، وهو البذل، تقول العرب: عفوت لك، أى: بذلته. فإن كان (العفو) هو البذل فكأن قوله: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَكُمْ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]، أى ترك له وبذل، ﴿فَالْيَاغُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، يكون فيه دليل لقول أصحابنا - رحمهم الله تعالى - فى ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. ومعناه - والله أعلم -: حق على المتقى أن يرغب فيه، وكذا قوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾، أن يرغب فيه.

ثم لإضافة ذلك إلى الرجال وجهان:

أحدهما: لما أنهم هم الذين تركوا حقهم، ومن عندهم جاء هذا التقصير. والثانى: أن فى تسليم ذلك من الرجال الكمال، وهم فى الأصل موصوفون بالكمال، ومن عندهم يستوفى ما فيه الكمال.

قال الشيخ - رحمه الله تعالى - فى قوله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾: يحتمل اشتراك الزوجين فى ذلك، لا معنى الأخذ بالعفو والفضل أولى لمن يريد اتقاء دناءة الأخلاق، أو أولى الفضل ممن أكرم باتقاء الخلاف لله تعالى.

ويحتمل: الأزواج بما قد ضمنوا الإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان، فهو أقرب إلى وفاء ذلك واتقاء الخلاف له، على أن سبب الفراق جاء منه، فذلك أقرب لاتقاء الجفاء منهم، وأظهر للعدر لهم فيما اختاروا. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

حرف وعيد عما فيه التعدى ومجاوزة الحدود^(٣) والخلاف لأمره.

(١) فى أ: تمتع.

(٢) ما بين المعوفين سقط فى ط.

(٣) فى أ: الحد.

قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ رِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾. وقوله: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

و (المحافظة) هو المفاعلة والمفاعلة هي فعل اثنين. فهو - والله أعلم - أنه إذا حفظها على وقتها ولم يسهو عنها حفظته، وهو كما ذكر في آية أخرى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وفي حرف ابن مسعود - رضى الله تعالى عنه - : ﴿إن الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر﴾. فعلى ذلك إذا حفظها على أوقاتها مع أحكامها وسننها، ولم يدخل ما ليس فيها - من الكلام، والالتفات، وغير ذلك مما نهى عنه - حفظته. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفَرَةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقوله: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَعْفَرَةٍ﴾ [الحديد: ٢١]، من المفاعلة، فإذا بادر إليها بدرت إليه. وبالله التوفيق.

وقوله عز وجل: ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾.

اختلف أهل العلم في تأويله:

قال بعضهم: ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾، أراد كل الصلاة لا صلاة دون صلاة. وهو - والله أعلم - أن الصلاة هي الوسطى، هي من الدين. وهو على ما جاء: الإيمان كذا كذا بضعة، أعلاها كذا كذا، وأدناها كذا، فعلى ذلك قوله: والصلاة هي الوسطى من الدين، ليست بأعلاها ولا بأدناها، ولكنها الوسطى من الدين.

وقال آخرون: ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾، هي صلاة العصر. وعلى ذلك روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هي العصر»^(١). وذكر في حرف حفصة^(٢) - رضى الله تعالى عنها -:

(١) أخرجه مسلم (٤٣٧/١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر (٦٢٨/٢٠٦)، وأحمد (٣٩٢/١)، وابن ماجه (١٨/٢)، كتاب الصلاة، باب المحافظة على صلاة العصر (٦٨٦)، والترمذى (٢٢٢/١) كتاب الصلاة، باب ما جاء فى الصلاة الوسطى أنها العصر، (١٨١) عن ابن مسعود وفى الباب عن سمرة بن جندب. أخرجه أحمد (٧/٥، ٨، ١٢)، والترمذى (١٨٢) فى المصدر السابق.

(٢) هي: حفصة بنت عمر أمير المؤمنين وأمها زينب بنت مظعون روت عن النبي ﷺ وعن عمر، وروى عنها أخوها عبد الله وابنه حمزة وزوجته صفية بنت أبي عبيد وحارثة بن وهب والمطلب بن أبي وداعة وأم مبشر الأنصارية وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وغيرهم. وكانت قبل أن يتزوجها الرسول ﷺ عند حصن بن حذافة وكان ممن شهد بدرا ومات بالمدينة فانقضت عدتها فتزوجها رسول الله ﷺ بعد عائشة. وتوفيت رضى الله عنها سنة ٤١هـ وقيل سنة ٤٥هـ، وقيل سنة ٢٧هـ، حكاه أبو بشر الدولابى وهو غلط. ينظر: الإصابة (٥١/٨) ت (٢٩٤)، الاستيعاب (٧٣٤/٢) ت (٣٢٤٨).

أنها هي صلاة العصر^(١).

وقال قائلون: هي الفجر؛ ذهبوا في ذلك إلى أن النهار يجمع الصلاتين، والليل بطرفيه كذلك، فالفجر أوسطها. وكذلك روى عن ابن عباس^(٢) - رضى الله تعالى عنه - أنه قال: هي الفجر.

وقال آخرون: هي الظهر؛ ذهبوا في ذلك إلى أنها إنما تقام وسط النهار، فسميت بذلك. وكذلك روى عن ابن عمر^(٣) - رضى الله تعالى عنه - أنه قال: هي صلاة الظهر. ومن قال: هي العصر، ذهب في ذلك إلى ما روى من الخبر، وإلى أن العصر هي الواسطة من صلاتي النهار وصلاتي الليل؛ لأن صلاتين بالنهار قبلها، وصلاتين بالليل بعدها، فهي الواسطة.

والقياس: أن تكون هي المغرب؛ لأن الظهر سميت أولى، والعصر تكون الثانية، فالمغرب هي الواسطة. لكن لم يقولوا به.

وفيه دلالة أن الصلاة وتر؛ لأن الشفع مما لا وسطى له.

ثم جهة الخصوصية - أيها كانت؟ فإن كانت عصرًا: فهو ما ذكر أن الكفرة حملوا على أصحاب رسول الله ﷺ في صلاة العصر^(٤)، فلم يتهياً لهم إقامتها، فقالوا: احفظوا عليهم صلاة هي أكرم عليهم من أنفسهم وأموالهم. فظهر بهذا أن لها فضلاً وخصوصية من عند الله ورسوله. وما روى في الخبر أيضاً من قوله ﷺ: «من فاتته العصر وتر أهله وماله»^(٥). فإن كانت فجرًا؛ فلأن الكتاب ذكرها بقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، ولما قيل: إن ملائكة الليل والنهار يشهدونها^(٦)، فظهرت لها الخصوصية والفضل.

(١) أخرجه ابن جرير من (٥٤٦٤) إلى (٥٤٦٨)، وانظر الدر المنثور (١/٥٣٧).

(٢) أخرجه ابن جرير من (٥٤٧٥) إلى (٥٤٨٢)، وانظر الدر المنثور (١/٥٣٥).

(٣) أخرجه ابن جرير (٥٤٥٨، ٥٤٥٩، ٥٤٦٠)، وانظر الدر المنثور (١/٥٣٧).

(٤) في أ: الظهر.

(٥) أخرجه البخاري (٣٠/٢) كتاب الصلاة باب إثم من فاتته العصر (٥٥٢)، ومسلم (١/٤٣٥)، كتاب المساجد باب التغليظ في تفويت العصر (٢٠٠/٦٢٦).

(٦) ورد في معناه حديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون».

أخرجه البخاري (١/٢٢١) كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر (٥٥٥)، ومسلم (١/٤٣٩) كتاب المساجد، باب فضل صلاة الصبح والعصر (٢١٠/٦٣٢).

ومن قال: إنها ظهر، ذهب إلى خصوصيتها وفضيلتها ما جاء عن رسول الله ﷺ أنه كان يصلى قبل الظهر أربعاً إذا زالت الشمس، وقال: إن أبواب السماء تفتح في ذلك الوقت^(١).

قال الشيخ - رحمه الله تعالى - في قوله: ﴿وَالصَّلَاةُ أُلُوسَطَى﴾: تكلم فيه بوجهين: أحدهما: أن الصلاة هي الوسطى، من أمر الدين فهي على أن الأرفع من أمر الدين^(٢) هو التوحيد والإيمان وذلك هو الذى لا يرتفع بعذر، ولا يسقط بسقوط المحنة، إذ ذلك فى الدارين جميعاً وهو الإخلاص، ونفى جميع معانى الخلق به عمن يوحد ويؤمن به وسائر العبادات قد يقدم مع وجود أمور الدنيا والدين والمعاش معها وفى حالها بالذى به قوامها، والتوحيد لا، ثم الصلاة مما بها ترك جميع ما ذكرت فى حال فعلها فيما به فعلها، فهي تشبه الإيمان من هذا الوجه، ثم تسقط هي للأعذار، ولا تجب فى غير دار المحنة على ما عليه أمر غيرها من العبادات؛ فصارت بذلك الوسطى من أمر الدين. والله الموفق.

والثانى: أن تكون هي صلاة من جملتها، فتذكر بحرف التخصيص لها من الجملة، لوجهين:

أحدهما: لبيان جملة الفرائض أنها وتر، لا الشفع؛ إذ لا وسطى للشفع، فيكون فى ذلك بطلان قول قوم أنكروا العدد لها، وقوم زعموا أنها صلاتان فى الجملة. والله أعلم. والثانى: أن يراد بذلك التفضيل للصلاة من الصلوات^(٣) فى الحث على فعلها والترغيب فى محافظتها، ويجىء أن تكون تلك معروفة عند الذين خطبوا، إما بالاسم أو بحال من النواز؛ لأنه لا يحتمل أن يرغب فى فعل لا يعلم حقيقة ذلك. والله أعلم. ثم يكون لاختلاف من لم يشهد النوازل التى عرفت المراد، فقال كل مبلغ جهده فيما أدى إليه رأى من الترغيب فى الفعل أنه على ذلك، لكنهم اختلفوا:

فمنهم من اعتبر بالركعات، فقال: أكثرها أربع، وأقلها ركعتان، والوسطى منها ثلاث، فصرف التأويل إلى المغرب. واستدل فى الترغيب [بما جاء «إن الله وتر يحب الوتر» وبما جاء من الترغيب]^(٤) فى تعجيلها والمبادرة فى فعلها، حتى لم يؤذن بالاشتغال عنها عند

(١) أخرجه أحمد (٤١١/٣)، والترمذى (٤٨٨/١) كتاب الصلاة، باب ما جاء فى الصلاة عند الزوال (٤٧٨)، والبخارى فى شرح السنة (٢/٤٣٤ - ٤٣٥).

(٢) فى ب: المؤمنين.

(٣) فى أ: الصلاة من الصلاة.

(٤) سقط فى ط.

هجوم وقتها لنافلة وللحاجة. وذلك بعض ما يعرف من معنى المحافظة، وهى أن الصلوات جعلن متصلات الأوقات، وهى الوسطى منهن. والله أعلم.

وقوم ردوا إلى صلاة الفجر بما فى ذلك من الترغيب والتخصيص بالأمر، كقوله: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وما أخبر من شهود ملائكة الليل والنهار، ولأن وقتها الوسط من أحوال الخلق، إذ أحوالهم تكون سكوتاً مرة، وانتشاراً ثانياً، وبذلك ختم أوقات السكون وافتتاح أحوال الانتشار، ووسط الشيء: هو الذى فيه حظ الحواشى، وقد وجد ذلك فى وقت هذه الصلاة. والله أعلم.

ومنهم من صرف إلى العصر بما جاء فى ذلك من الترغيب ومن الوعيد فى ترك ذلك، وبها ختم أحوال الزلات التى تدخل فى المكاسب، فتكون بها التوبة عنها والاستغفار منها. ولا قوة إلا بالله.

وقوله تعالى: ﴿حَفِظُوا﴾ على مخاطبة الجملة على الاشتراك؛ إذ المفاعلة اسم^(١) ذلك على تضمن الترغيب فى الجماعات، أو على لزوم كثرة عدد الصلاة، أو على ما خرج الأمر بالمسارعة^(٢) إلى الخيرات والمسابقة لها، وكل فى ذلك - والله أعلم - على أن الظهر سميت أولى، فعلى ذلك تكون المغرب الوسطى.

وقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

قيل: خاشعين خاضعين فيها^(٣)، لا يدخل فيها ما ليس منها؛ وعلى ذلك روى عن زيد ابن أرقم، أنه قال: كنا نتكلم فى الصلاة على عهد رسول الله ﷺ، فلما نزل قوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾، [مطيعين]^(٤) أمرنا بالسكوت فى صلاتهم خاضعين خاشعين، ونهينا عن الكلام^(٥)؛ وعلى ذلك سمى الدعاء قنوتاً.

وقال آخرون^(٦): ﴿قَانِتِينَ﴾، أى مطيعين. وذلك ما قيل: إن أهل الأديان يقومون فى

(١) فى أ: هم.

(٢) فى أ: بالمنازعة.

(٣) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير عنه من (٥٥٣١) إلى (٥٥٣٤) انظر الدر المنثور (١/٥٤٤).

(٤) سقط فى ط.

(٥) أخرجه البخارى (٤٦/٨) كتاب التفسير، باب ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٤٥٣٤)، ومسلم (٣٨٣/١)، كتاب المساجد، باب تحريم الكلام فى الصلاة (٥٣٩/٣٥)، وأحمد (٣٦٨/٤)، وأبو داود (١/٣١٣)، كتاب الصلاة، باب النهى عن الكلام فى الصلاة (٩٤٩)، والترمذى (٤٣٠/١) كتاب الصلاة، باب فى نسخ الكلام فى الصلاة (٤٠٥)، والنسائى (١٨/٣) كتاب السهو باب الكلام فى الصلاة، وابن خزيمة (٨٥٦، ٨٥٧)، وابن حبان (٢٢٤٥، ٢٢٤٦، ٢٢٥٠)، والبيهقى (٢/٢٤٨).

(٦) قاله ابن عباس والشعبي وجابر بن زيد وعطاء وسعيد بن جبير وغيرهم، أخرجه ابن جرير عنهم =

صلاتهم خاضعين ساهين، فأمر أهل الإسلام أن يقوموا مطيعين.

و«القنوت» هو القيام، على ما روى عن رسول الله ﷺ، أنه سئل عن أفضل الصلوات، فقال: طول القنوت^(١). وأصل القنوت - ما ذكرنا - هو القيام، غير الذي يقوم لآخر، يقوم على الخضوع والخشوع والسكوت. وليس في الآية أنه أمر بذلك في الصلاة، غير أن أهل التأويل صرفوا إلى ذلك؛ لأنها ذكرت على أثر ذكر الصلاة. وكذلك قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ ليس فيه أن ذلك في الصلاة، لكنهم صرفوا إليها ذلك؛ لأنه ذكر على أثر ذلك الصلاة. ثم اختلف فيه:

قالوا: ﴿رُكْبَانًا﴾ على الدواب^(٢)، حيثما توجهت بهم الدواب يصلون عليها في حال السير والوقوف. وعلى ذلك جاءت الآثار من فعل رسول الله ﷺ^(٣)، وفعل الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، في النوافل، فتكون الفرائض عند العذر به مرادة بالآية، بل على ما ظهر فعل النوافل في غيره بالسنة.

وأما قوله: ﴿فِرَاجًا﴾ فمما اختلف فيه:

قال: ما يكون ﴿فِرَاجًا﴾، فمشاة^(٤)، وهو من الرجل وترجل: مشى راجلا. وأما عندنا: فهو على المعروف من الصلاة على الأرجل والأقدام قيامًا وقعودًا، لا يزال عن الظاهر. والمعروف الذي عرف الفعل به على ما عرف من الصلاة على الأرجل.

= (٥٥٠١، ٥٥٠٣، ٥٥٠٤، ٥٥٠٥، ٥٥١١)، وانظر الدر المنثور (١/٥٤٣، ٥٤٤).

(١) أخرجه مسلم (١/٥٣٠) في صلاة المسافرين، باب أفضل الصلاة طول القنوت (١٦٤ - ١٦٥/٧٥٦)، والترمذي (٢/٢٢٩) في أبواب الصلاة، باب ما جاء في طول القيام في الصلاة (٣٨٧)، وابن ماجه (١/٤٥٦) في إقامة الصلاة، باب ما جاء في طول القيام في الصلوات (١٤٢١)، وأحمد (٣/٣٠٢، ٣٩١)، والحميدى برقم (١٢٧٦)، والطيالسى (١/٢٤) برقم (٢٩)، وأبو يعلى (٢١٣١) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصلاة طول القنوت».

وفى رواية سئل رسول الله ﷺ: أى الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت».

وقال النووي في شرح مسلم (٢/٤٠٦): المراد بالقنوت هنا القيام باتفاق العلماء فيما علمت، وقال أبو بكر بن العربي في عارضة الأحوزى (٢/١٧٨ - ١٧٩): تتبعت موارد القنوت فوجدتها عشرة: الطاعة، والعبادة، ودوام الطاعة، والصلاة، والقيام، وطول القيام، والدعاء، والخشوع، والسكوت، وترك الالتفات، كلها محتملة. أولها: السكوت والخشوع والقيام. وأحدها في هذا الحديث القيام. وهو في النافلة بالليل أفضل، والسجود والركوع بالنهار أفضل.

(٢) قاله البغوى في تفسيره (١/٢٢١).

(٣) فى الباب عن ابن عمر:

أخرجه البخارى (٢/٥٦٧) فى الوتر، باب الوتر فى السفر (١٠٠٠)، ومسلم (١/٤٨٦) كتاب صلاة المسافرين، باب جواز صلاة النافلة (٣١/٧٠٠).

(٤) قاله البغوى فى تفسيره (١/٢٢١).

وقوله: ﴿رُكْبَاتًا﴾ على ما عرف عن الركوب، وهو في حال السير، ولم نر الصلاة تقوم مع المشى فيها.

فإن قيل: صلاة الخوف فيها مشى، فقامت.

قيل: إن المشى ليس في فعل الصلاة؛ لأنهم في الوقت الذي يمشون لا يفعلون فعل الصلاة، وهو كما يقال: إن الصلاة لا تقوم مع الحدث، فإذا أحدث فيها فذهب ليتوضأ، ليس هو في وقت الحدث مصلياً، وإن بقى في حكم الصلاة. فعلى ذلك المشى في صلاة، ليس هو في فعل الصلاة، وإن كان باقياً على حكم الصلاة؛ والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(١) يحتمل: قوله ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ وقوله ﴿فَإِذَا كُورُوا﴾ يحتمل: أن يصرف إلى الصلاة، أى: صلوا كما علمكم أن تصلوا في حال الأمر. ويحتمل: أن يصرف إلى غيره من الأذكار، كقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ويحتمل: أن يصرف إلى الشكر، أى: اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم، واشكروها بى، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا كُورُوا أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. والله أعلم. وفى قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [الفلق: ٥]، وقوله: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ٢]، و﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾، دليل أن الله تعالى صنع فى فعل العباد حيث أضاف التعليم إلى نفسه، وهو أن خلق فعل التعليم منه؛ إذ لو لم يكن منه فيه صنع لكان أضيف ذلك المعلم دون البيان؛ فدل إضافته إليه على أن له فيه فعلاً. نعوذ بالله من السرف فى القول والزيغ عن الهدى.

قال الشيخ، رحمه الله تعالى، فى قوله: ﴿فَإِذَا كُورُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾. أى: صلوا له كما علمكم من الصلاة فى حال الأمن، إذ معلوم تقدم الأمر بالصلاة وتعليم حدودها. ﴿وَقُومُوا﴾ فى الرخصة فى التخفيف بحال العذر.

ويحتمل: اذكروا الله بشكر أنما أمنكم كما علمكم من الشكر له فى النعم، وأى ذلك كان فهو الذى علمهم^(١) بعد أن كانوا غير عالمين به. والله أعلم. ودل إضافة التعليم فى هذه الآية^(٢)، وكذلك فى قوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤]، وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ [يس: ٦٩]، إليه على وجود الأسباب من الله تعالى له فى الأمرين على أن كان من الله تعالى فى أحد الأمرين ما ليس منه فى الآخر، ومعنى الأسباب فيهما واحد؛ ثبت

(١) فى أ: علمتم.

(٢) فى أ: هذا إليه.

أنه على خلق فعل التعليم ونفيه . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنًا إِلَى الْوَلَدِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٤٠﴾ وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتْنًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنًا إِلَى الْوَلَدِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

قد ذكرنا فيما تقدم أنها تخرج على وجهين:
على النسخ بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] .

ويحتمل: على نسخ الوصية خاصة دون نسخ العدة، وأن الأمر بالاعتداد في الآيتين أمر واحد - أربعة أشهر وعشرا، ونسخ الوصية بآية الميراث وبقول رسول الله ﷺ: «لا وصية لوارث»^(١) .

وفيه دلالة: أن للموصى له خيارا بين قبول الوصية وبين ردها .
وفيه أيضا: أن له أن يردها إذا قبل بقوله تعالى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ ، إذ في الخروج ردها وذلك بعد القبول .

وقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ، قد ذكرنا فيما تقدم أنها تحتل وجهين:

تحتل: ما فعلن في أنفسهن من معروف، من التشويف والتزيين . وكذلك روى في حرف ابن مسعود - رضى الله تعالى عنه - : «لا جناح عليهن أن يتشوفن ويتزين ويلتمسن الأزواج» .

ويحتمل: وضعهن أنفسهن في الأكفاء^(٢) بمهر مثلهن . والله أعلم .

وقوله: ﴿وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتْنًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ .

تحتل الآية أن تكون في المطلقات المدخولات بهن وقد فرض لهن أن يأمر الأزواج

(١) تقدم .

(٢) في أ: كفاء .

بالمتعة ندباً، لا وجوباً، على ما روى عن الحسن بن علي^(١) - رضى الله تعالى عنهما - أنه متع بعشرة آلاف، على ما روى عن ابن عباس وابن عمر^(٢)، رضى الله تعالى عنهما، أنهما قالاً: إن كنت من المتقين ومن المحسنين فمتعها. فهو أمر ندب، لا أمر إيجاب يجبر على ذلك.

وإن كانت فى المطلقة التى لم يدخل بها ولا فرض لها صداقاً فهو على ما يقوله - وهى واجبة يجبر على ذلك؛ فتخرج هذه الآية والتى قبلها، قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَتَاعِ قَدَرَهُنَّ وَلَعَلَّ الْمُتَّقِينَ قَدَرُهُنَّ﴾، على مخرج واحد، غير أن فى إحديهما بيان قدر المتعة، وليس فى الأخرى سوى ما ذكر.

ويحتمل وجه آخر: وهو أن الأمر بالمتعة أمر بالإنفاق عليها والكسوة لها إذا دخل بها، ما دامت فى العدة. أو على الاختيار على ما ذكرنا، لاعلى الإيجاب؛ إذ لو كان على الوجوب لكان فى ذلك إيجاب بدلين - الصداق والمتعة - ولم يعرف عقد من العقود أوجب بدلين؛ فكذلك هذا. والله أعلم.

والثانى: أن الطلاق سبب إسقاط، لاسبب إيجاب. فإذا كان كذلك لم يجز أن يوجب السبب الذى هو سبب الإسقاط؛ لذلك لم يجب. والله أعلم. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ما سبق ذكره من الأحكام من الأمر بالاعتداد، والإنفاق عليهن، والتمتع وغير ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أمره ونهيه.

قال الشيخ، رحمه الله تعالى، فى قوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾: أى كما يبين فى هذا يبين فى جميع ما يعلم لكم إلى بيان ذلك حاجة على قدر ما أراد من البيان - من بيان كفاية أو مبالغة - ليعلم أن جميع ما إليه بالخلق حاجة داخل تحت البيان، يوصل إلى ذلك بقدر ما تحتمله العقول على ما يكرم الله المجاهدين فيه فى طلب مرضاته.

(١) ذكره المزمى فى ترجمته فى التهذيب (١٤٧/٢) وهو: الحسن بن على بن أبى طالب الهاشمى أبو محمد المدنى سبط رسول الله ﷺ وريحاته. عن جده ﷺ له ثلاثة عشر حديثاً، وأبيه وخاله هند. وعنه ابنه الحسن، وأبو الحوراء ربيعة وأبو وائل وابن سيرين. ولد سنة ثلاث فى رمضان. قال أنس: كان أشبههم برسول الله ﷺ وقال النبى ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» مات رضى الله عنه مسموماً سنة تسع وأربعين أو سنة خمسين أو بعدها. ينظر: الخلاصة (٢١٦/١) (١٣٦١).

(٢) أخرجه مالك وعبد الرزاق والشافعى وعبد بن حميد والنحاس فى ناسخه وابن المنذر والبيهقى عنه بنحوه كما فى الدر المنثور (٥٥٠/١).

ولا قوة إلا بالله.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَسْأَلْتَهُمْ لَآتِيَنَّكَ النَّاسُ لَا يَنْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَتَنَزَّلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْلِعُهُ لِلَّهِ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَضْطُّ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، حرف تعجب وتنبية، ليتأمل فيما يلقي إليه مما أريد الإنباء عنه، أو فيما قد كان سبق الإنباء عنه، ليتجدد بالنظر فيه عهدًا. وعلى ذلك المعروف من استعمال هذه الكلمة، وكذلك وجه تأويله إلى الخبر^(١) مرة وإلى العلم به ثانية، وإلى النظر فيه ثالثًا، على اختلاف ما قيل. وفيه كل ذلك. والله تعالى أعلم.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾، «ألم تخبر»، و«ألم تنظر»، ومثل هذا إنما يقال عن أعجوبة.

فالقصد فيه - والله تعالى أعلم - أنه جواب قوله: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾، أخبرهم الله عز وجل عن قصة هؤلاء: أن جهلهم بآجال أولئك حملهم على هذا القول؛ مثل جهل بنى إسرائيل بآجالهم حملهم على الخروج من ديارهم حذر الموت، ثم لم ينفعهم ذلك بل أميتوا. كذلك هذا.

ثم اختلف في قصة هذه: -

قال بعضهم^(٢): أخرجوا فرازا من الجهاد في سبيل الله، فأماتهم الله، ثم أحياهم، وأمرهم أن يخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله.

وقال آخرون^(٣): وقع الطاعون في قريتهم، فخرج أناس وبقي أناس، فمن خرج أكبر^(٤) ممن بقى، فنجوا الخارجون، وهلك الباقون، فلما كانت الثانية خرجوا بأجمعهم إلا قليلا، فأماتهم الله، ثم أحياهم.

فلا تدرى كيف كانت القصة. فإن كانت القصة في الفرار من الجهاد في سبيل الله، وله نظير في الآيات، قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ

(١) في أ: الجبر.

(٢) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٥٦٠٨)، وابن المنذر كما في الدر المنثور (٥٥٣/١).

(٣) قاله ابن زيد، أخرجه ابن جرير عنه (٥٦١١)، وعن عمرو بن دينار (٥٦١٤، ٥٦١٥)، وانظر الدر المنثور (٥٥٣/١).

(٤) في أ: أكثر.

مَصَاجِعِهِمْ ﴿آل عمران: ١٥٤﴾، وقوله: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ﴾ [الأحزاب: ١٦]، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، وقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، ومثله كثير في القرآن.

وإن كانت القصة في الطاعون، فقد جاء الخبر عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إذا كنتم في أرض وفيها وباء فلا تخرجوا فرازا منها». [وإذا لم تكونوا فيها فلا تدخلوها] ^(١). ومعناه والله أعلم: أنهم إذا كانوا فيها يخرجوا مخرج الفرار إن تحولوا، ^(٢) أو أن الفرار أنجاهم إن لم يكونوا فيها فدخلوا فأصابهم فأماتهم الله، يظنون أنهم إذا لم يكونوا فيها لم يصبهم ذلك. ففي الوجهين سيان ^(٣) القضاء. وقد جاء: «أن لا عدوى ولا هامة». فإن قيل: روى عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا مر على حائط مائل أسرع المشى، ^(٤) كيف نهى عن الخروج عن أرض فيها وباء وطاعون؟ قيل: إن كل ما كان مخرجه مخرج آية وفيها إهلاكهم فذلك لا يكون إلا بأمر سبق

(١) أخرجه البخاري (١٨٩/١٠) في الطب، باب ما يذكر في الطاعون (٥٧٢٩)، ومسلم (١٧٤٠/٤) - (١٧٤٢) في السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة (٢٢١٩/٩٩/٩٨)، وأبو داود (٢٠٣/٢) - (٢٠٤) في الجنائز، باب الخروج من الطاعون (٣١٠٣)، والنسائي في الكبرى (٣٦٢/٤) في الطب، باب الخروج من الأرض التي لا تلائمه (٧٢٥٥/٢)، وأحمد (١٩٤/١)، ومالك (٨٩٤/٢) - (٨٩٦) في الجامع، باب ما جاء في الطاعون (٢٤) عن الزهري عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد ابن الخطاب عن عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام... ذكر حديثا طويلا... وفيه: فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان غائبا في بعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علما، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فرارا منه» فحمد عمر، ثم انصرف.

وأخرجه البخاري (١٩٠/١٠) في الطب، باب ما يذكر في الطاعون (٥٧٣٠)، (٣٦٠/١٢) في الحيل، باب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون (٦٩٧٣)، ومسلم (٢٢١٩/١٠٠)، والنسائي في الكبرى (٢/٧٥٢١)، ومالك (٢٤)، وأحمد (١٩٤/١) عن الزهري عن عبد الله ابن عامر عن عبد الرحمن بن عوف به.

وله طرق أخرى عند أحمد (١٩٢/١)، (١٩٤).

ويشهد له حديث أسامة بن زيد رواه البخاري في الطب (٥٧٢٨)، وفي الحيل (٦٩٧٤)، ومسلم في حديث السلام (٩٢ - ٢٢١٨/٩٧)، والنسائي في الكبرى (٧٥٢٣ - ٧٥٢٥)، ومالك في الجامع (٢٣)، وأحمد (٢٠٠/٥)، (٢٠١، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٠)، والطبراني في الكبير (٢٧٣ - ٢٧٧).

(٢) ما بين المعقوفين سقط في ط.

(٣) في أ: نسيان.

(٤) أخرجه أحمد (٣٥٦/٢)، وابن حبان في المجروحين (١٠٥/١)، والعقيلي (٦١/١) عن أبي هريرة، وفي إسناده إبراهيم بن الفضل المخزومي، وهو متروك.

منهم، فحق مثله الفرار إلى الله، لا إلى غيره. وأما انكسار الحائط فليس لأمر سبق منه، فجائز أن يأخذ منه حذره. هذا هو الفرق بينهما. والله تعالى أعلم.

قال الشيخ - رحمه الله تعالى - : ويجوز أن يكون فعله ﷺ ليعلم أن مثله من الخوف لا يعد نقصاً في الدين؛ وذلك كالعدة تتخذ للحرب والأغذية للبدن، لا على ظن بالله أنه لا يملك الحياة دونها أو قهر العدو، ولكن على التأهب والاثمار؛ إذ قد جعل الذي خيف فيه والذي رجي. والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، حين أحياهم بعد ما أماتهم، وذلك فضل منه. و﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، بكل نعمة أنعمها عليهم، يستحق الشكر من الخلق بذلك.

هذه الآية على المعتزلة إذ قالوا: ليس لله أن يفعل بخلقه إلا الأصلح لهم في الدين، ولو فعل غير ذلك كان جائزاً. فإذا كان هذا عليه، فأني يكون الأفضل^(١)؟ وإنما يقال (ذو فضل)، و(ذو من)^(٢)، إذا أعطى ما ليس عليه. وأما من أعطى ما كان عليه لا يقال: إنه (تفضل) أو (من)، كمن يقضى ديناً عليه لآخر لا يستوجب الشكر بذلك، لأنه قضى ما كان عليه قضاؤه؛ فكذلك الله تعالى إذا أخبر أنه (ذو فضل) و (ذو من) لم يكن ذلك عليه، فاستوجب الشكر على الخلق بذلك. وبالله التوفيق.

ثم الكلام في أن أولئك ماتوا بآجالهم، أو لا بآجالهم؟ قالت المعتزلة: لم تكن آجالهم. ومن قولهم: أن لكل أحد أجلين: إن قتل فأجله كذا، وإن مات فكذا.

قيل: ذلك تأجيل من لا يعلم أنه يقتل أو يموت، فإذا علم الله أنه يموت لم يكتب له أجل القتل. وكذلك ما روى في الخبر: «أن صلة الرحم تزيد في العمر»^(٣). إذا كان في علم الله تعالى في الأول^(٤) أنه يصل الرحم فكتب عمره أزيد ممن يعلم في الأول^(٥) أنه

(١) في أ: الإفضال.

(٢) في أ: منة.

(٣) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٠) من حديث ابن مسعود.

قال الحافظ في «التلخيص» (١١٥/٣): وفي إسناده من لا يعرف والحديث ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» (٥٠٠٢) ورمز لحسنه.

وتعقبه المناوي في «فيض القدير» (١٩٦/٤) بكلام ابن حجر المتقدم.

(٤) في أ: الأزل.

(٥) في أ: الأزل.

يقطع ولا يصل؛ إذ لو حمل ذلك على ما يقولون هم لخرج فعله فعل من يجهل العواقب.

فإن قيل: فلم يلام القاتل إذا قتل غيره بغير حق؟

قيل له: لأنه كتب أجل المقتول بقتل هو معصية بما علم الله أنه يتقضى به. وكتاب الأجل هو بيان النهايات والأعمار.

وقوله: ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قد ذكرناه متضمنًا فيما تقدم.

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْضُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

عامل الله تعالى بلفظه وكرمه الخلق معاملة من لا حق له في أموالهم، لا كمعاملة العباد بعضهم بعضًا، وإن كان العبيد وأموالهم كلهم له حيث طلب منهم الإقراض لبعضهم من بعض ثم وعد لهم الثواب على ذلك فقال: ﴿فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾. ثم لما سمع اليهود ذلك قالوا: إن إله محمد فقير، وهو قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]. ومرة قالوا لما رأوا الشدة على بعض الناس فقالوا: إنما يفعل ذلك ببخله حيث قالوا: ﴿يَدُّ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]. فأروا المنع إما للبخل وإما للفقير. فأكد بهم الله في قولهم ذلك فقال: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْضُطُ﴾.

قيل: ﴿يَقْضِي﴾، أى يقتر، و﴿يَبْضُطُ﴾، أى يوسع.

وقيل: ﴿يَقْضِي﴾ ما أعطى، أى يأخذ. و﴿يَبْضُطُ﴾ ويترك ما أعطى، ولا يأخذ منه شيئًا.

وقيل^(١): إنها نزلت في أبي الدحداح^(٢)؛ وذلك أن النبي ﷺ قال: «من تصدق بصدقة فله مثلها في الجنة. فقال أبو الدحداح: إن تصدقت بحديثي، فلي مثلها في الجنة؟ فقال: نعم. وقال: وأم الدحداح معي؟ قال: نعم. وقال: والصبية معي؟ قال: نعم. فرجع أبو الدحداح فوجد أم الدحداح والصبية فيها، فقام على باب الحديقة، فنادى: يا أم الدحداح إني جعلت حديثي هذه صدقة، واشترطت مثلتها في الجنة، وأم الدحداح

(١) أخرجه سعيد بن منصور وابن سعد والبخاري وابن جرير (٥٦٢٣)، وابن المنذر وابن أبي حاتم والحكيم الترمذي في نوادر الأصول والطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود كما في الدر المنثور (٥٥٥/١).

(٢) أبو الدحداح الأنصاري: حليف لهم. قال أبو عمر: لم أقف على اسمه ولا نسبه، أكثر من أنه من الأنصار، حليف لهم، وقال البغوي: أبو الدحداح الأنصاري ولم يزد. ينظر: الإصابة (١٠٠/٧) (٩٨٦٧).

والصبية فيها معنى . قالت: بارك الله لك فيما شريت، وفيما اشتريت أربيت . فخرجوا منها، فتركوا ما كانوا اجتنوا منها، وسلموا الحديقة للنبي ﷺ . فنزل قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ الآية .

قال الشيخ - رحمه الله تعالى - فى قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الآية، فى توجيه الآية إليه: فمنهم من يوجهها إلى جميع المحاسن يؤثرها ويختارها لله، فله أضعاف ذلك فى الموعود - أجلاً وعاجلاً - فالأجل ما وعد، والعاجل ثناء الناس وجلالة القدر له فى القلوب، متعارف ذلك للأخيار . وسماه قرضاً بما هو اسم المعروف، ليذكره عظم نعمه عليه، إن قبله قول المعروف بالشكر له فى ذلك، وإن كان ذلك حقاً له عليه . والله أعلم .

والثانى: ليعرف الخلق كيفية الصحبة والمعاشرة بينهم . إن الله تعالى عامل عبده فيما هو له معاملة من يستحق الشكر منه بما يسدى^(١) إليه من النعم، ولله حقيقة ذلك، ليعقل الحكماء أن مثل ذلك فى معاملة الإخوان، وفيما كان نعمه فى الحقيقة أوجب وأحق، وليعظموا المعروفين بالمعروف بما أكرمهم الله تعالى بالأسماء الجليلة . ولاقوة إلا بالله . ومنهم من يوجهها إلى الصدقات خاصة؛ سماها قرضاً لوجوه:

أحدها: أن جعل معاملة الفقراء والتصدق عليهم معاملة الله تفضيلاً لهم، على ما نسب مخادعة المؤمنين إلى الله تعالى تعظيماً لهم، فمثله الصدقة . ثم وعد فيه العوض لتصير الصدقة بمعنى الإقراض، إذ يرجع فى عوضه، فيزول وجه الامتنان عن الفقير بما يأخذ منه البدل . وبالله التوفيق .

والثانى: سمي ذلك قرضاً بما هو له على ما لم يزل الله تعالى عود به عباده بالذى عرفوا به كرمه وجوده حتى سمي تسليم الذى له فى الحقيقة قرضاً كالتسليم إلى من لاحق له فى الحقيقة، وعلى ذلك أمر الشراء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١] ، والله أعلم .

والثالث: أنه ذكرهم وجه القصد فى الصدقات، والموقع لها، ليكون ذلك تبييناً لعظيم منه الفقر عليه إذ وصل به إلى الله ذكره وأجل محله عنده، فيصير عنده أحد الأعوان له والأنصار على عظيم الموعود وجليل القدر عند الله . فيحمده على ذلك ويشكر له دون أن يمن عليه أو يؤذيه . والله الموفق .

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِ الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنَافِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِ الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنَافِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

فى هذه الآية والتى قبلها قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، دلالة إثبات رسالة محمد عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات؛ لأن القصة فيهم كانت ظاهرة فى أهل الكتاب، ورسول الله ﷺ لم يختلف إلى أحد منهم، ولا نظر إلى كتبهم، ثم أخبر على ما كان، دل أنه إنما عرف ذلك بالله عز وجل. ثم فيه دلالة: أن كل نبى منهم كان إنما يشاور الأشراف من قومه والرؤساء منهم، وإليهم يصرف تدبير الأمور، ولا إلى السفلة منهم والرزالة.

وفيه دلالة أيضًا: أن الأنبياء، صلوات الله عليهم وسلامه، لم يكونوا يتولون الجهاد والقتال بأنفسهم، ولكن الملوك هم الذين يتولون ذلك. ثم الملوك هم الراجعون إلى تدبير الأنبياء والرسول، عليهم الصلاة والسلام، فى أمر الدين والآخرة، حيث سألوا (ملكًا) يقاتلون معه عدوهم.

ذكر أن كفار بنى إسرائيل قهروا مؤمنيهم وقتلوهم وسبوهم وأخرجوهم من ديارهم وأبنائهم، فمضوا زمانًا ليس لهم ملك يقاتل عدوهم، فقال النبى لهم، وهو من نسل هرون ابن عمران أخى موسى: ﴿أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنَافِلُ﴾ عدونا، فقال لهم نبيهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ استخبار عن سؤالهم الذى سألوا، أحق هو أم شىء

أَجْرُوهُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَحْقِيقٍ، لثَلَا يَسْتَوْجِبُوا الْعَذَابَ بِتَرْكِهِمْ ذَلِكَ إِذَا أَجِيبُوا وَأَعْطُوا مَا سَأَلُوا وَتَمَنَّوْا؛ لَمَا عَرَفَ مِنْ شِدَّةِ الْقِتَالِ مَعَ الْعَدُوِّ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَكَرَاهِيَةِ ذَلِكَ فِي كُلِّ قَوْمٍ إِلَى أَنْ يَبْنُوا أَنَّهُمْ عَنْ حَقِّ سَأَلُوا لَمَا تَبَيَّنَا الْعِلَّةَ الَّتِي حَمَلَتْهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَغَايَةَ رَغْبَتِهِمْ فِيهَا، وَمَا لِأَجَلِهِ كَانَ السُّؤَالُ، إِنْ قَالُوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾، مِنْ الْقَتْلِ، وَأَخْذِ الْأَمْوَالِ وَسَبْيِ الذَّرَارِيِّ.

﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾، أَى: فَرَضَ، ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ فِيهِمْ مَا كَانَ فِي هَذِهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، مِنْ كَرَاهِيَةِ الْقِتَالِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَقِيلَ: ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةٌ عَشَرَ نَفَرًا لَمْ يَتَوَلَّوْا عَمَّا سَأَلُوا. ثُمَّ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

قِيلَ: سُمِيَ «طَالُوتًا» لَطَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾.

يَتَوَجَّهُ مِثْلُ هَذَا الْكَلَامِ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عَلَى الْإِنْكَارِ، فَلَا يَحْمِلُ عَلَى الْإِنْكَارِ؛ لِأَنَّهُ كَفَرَ.

وَالثَّانِي: عَلَى الْإِسْتِشَادِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ لَهُمْ مِنْهُ فِي ذَلِكَ عَنْ جِهَةٍ جَعَلَهُ لَهُ مَلِكًا، لَمَا قَدْ عَرَفُوا أَنَّ لَا يَسْتَوْجِبُ الْمُلْكَ، وَلَا يُولَى إِلَّا أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا بِالْوَرَاثَةِ مِنْ^(١) الْآبَاءِ، أَوْ بِالسَّعَةِ فِي الْمَالِ، لِذَلِكَ قَالُوا: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾، لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَبْنَاءَ الْمُلُوكِ وَأَرْبَابَ الْأَمْوَالِ.

ثُمَّ بَيْنَ لَهُمْ عِزَّ وَجَلَّ أَنْ جِهَةَ الْإِخْتِيَارِ لَيْسَ إِلَيْهِمْ، وَأَنْ سَبَبَ الْمُلْكِ لَيْسَ مَا ذَكَرْنَا دُونَ غَيْرِهِ، بَلِ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ يَخْتَارُ مِنْ يَشَاءُ لِذَلِكَ بِأَسْبَابٍ سِوَى مَا ذَكَرُوا بِفَضْلِ عِلْمٍ وَبِفَضْلِ قُوَّةٍ، حَيْثُ قَالَ:

﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْرِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

قَرَّرَ عَنْدهُمْ أَنَّ الْمُلْكَ يَحْتَاجُ إِلَى فَضْلِ عِلْمٍ وَفَضْلِ قُوَّةٍ.

(١) فِي أ: بِالْوَارِثِ عَنْ.

ثم يحتمل قوله: ﴿بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ﴾، علم الحرب والقتال.

ويحتمل: علم الأشياء الآخر على حفظ الرغبة وغيره.

قال الشيخ، رحمه الله تعالى، فى قوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾: فهو - والله أعلم - لأى معنى جعل له الملك علينا؟ أو كيف يكون له الملك علينا، ونحن بظاهر الأسباب التى تحقق الملك أملك، فنكون بها أحق بالملك منه فبين الله أن المعنى الذى له صار أحق بالملك منهم فى ذلك الأمر. والله أعلم.

والحرف ﴿أَنَّى﴾ وإن كان مما يتعارف فى الإنكار فليس هو كذلك فى الحقيقة؛ إذ قد أخبرهم من هو نبي عندهم، ومن تقرر عنده نبوة أحد لا يحتمل تكذيبه إياه فى هذا. والله أعلم.

وقد يحتمل كون أهل النفاق فيهم، فيكون منهم الإنكار أيضاً كما كان أمثال ذلك فى عهد رسول الله ﷺ يؤيد سؤالهم الآية حتى قال: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ كذا. والله تعالى أعلم. ويؤيد ذلك كثرة مخالفتهم إياه لما امتحنوا بالنهر. والله الموفق.

وفى هذا ونحو ذلك دلالة جواز الآيات بغير الرسل إذا كان فيها تصديق الرسل، [وكذلك قصة مريم، وكذلك عمل صاحب سليمان، وغير ذلك مما جاء به الكتاب، لكن ذلك يجوز إذا كان منهم تصديق الرسول]^(١) فيكون فى التحقيق كآيات لهم ظهرت على ألسن غيرهم أو أيديهم. ومن أراد بها ادعاء الرسالة لنفسه فيعجز عن ذلك، بل لا يكرم الله بها من يعلم أنه يدعو إلى تصديق الكذب ومضاهاة الرسل. وبهذا يجاب لمن يعارض بمن يتعلم القرآن، ثم يأتى موضعاً لا يعرف فيحتج به فى نبوته، مع ما فى ذلك أوجه تمنع الاحتجاج به من ذلك، بما فيه من الإخبار عن الأسئلة والأنباء عن أمور لا توجد هنالك - والله أعلم - وبما لا يعلم أوله أنه من تعلم تقدم منه إلى من هو حجة له، أو عن وحى إليه، إذ لم يكن امتحن من قبل. والحجة ما يخرج من المعتاد وحمل الطبيعة، يكرم بها وقت الدعوة بلا سبب سبق منه فى مثله ولا عناية. ولا قوة إلا بالله. وبعد فإنه قد ظهر فى جميع من لسانه ذلك اللسان ممن لا يطاق الدفع لمثله ولا إنكار وانتشر أمر الآتى به، فيظهر بذلك كذبه، ويفتضح عند الدعوى قبل المحنة والتأمل فيما جاء به إلا أن يأتى به من ليس ذلك لسانه، ولا معنى للاحتجاج به فى أمثالهم. والله الموفق.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿وَاسِعٌ﴾، أى غنى، يغنى من يشاء ويعطيه، ﴿عَلِيمٌ﴾، بمن يصلح للملك.

(١) ما بين المعقوفين سقط فى ط.

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

كأنهم سألوا نبيهم: ما آية ملكه؟

فقال لهم نبيهم: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت تحمله الملائكة.

ذكر في القصة: أن التابوت يكون مع الأنبياء، إذا حضروا قتالاً قدموا التابوت من بين أيديهم إلى العدو، ويستنصرون به على عدوهم. وفيه سكينة، كأنها رأس هرة فإذا أن ذلك الرأس سمع التابوت أنين ذلك الرأس دف نحو العدو، وهم يمضون معه ما مضى، فإذا استقر ثبتوا خلفه. فلما هربت بنو إسرائيل وعصوا الأنبياء سلط الله تعالى عليهم عدوهم، وأخذوا منه التابوت لما سئموا وملوا، ثم رد عليهم بعد زمان طويل، وجعل ذلك آية من آيات ملك طالوت. فلا ندري كيف كانت القصة.

ثم اختلف في قوله: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

قيل^(١): ﴿سَكِينَةٌ﴾، ربح هفافة، فيها صورة كوجه الإنسان.

وقيل^(٢): السكينة لها وجه كوجه الهرة، لها جناحان، فإذا تصوتت عرفوا النصر.

وقيل^(٣): السكينة: طست من ذهب من الجنة، كان يغسل فيه قلوب الأنبياء.

وقيل^(٤): ﴿فِيهِ﴾، أى: فى التابوت ﴿سَكِينَةٌ﴾، أى طمأنينة من ربكم، كأن

التابوت فى أى مكان كان اطمأنوا إليه وسكنوا.

فلا ندري ما السكينة؟ سوى أننا عرفنا أن قلوبهم كانت تسكن إليه وتطمئن. فليس لنا

إلى معرفة (السكينة)، وكيفيتها حاجة.

وقوله: ﴿وَبَقِيَئَةً مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

قيل^(٥): «البقية» فيه رضا الألواح - وهو كسرهما - وثياب موسى، وثياب هارون.

وقيل^(٦): عصا موسى، وعصا هارون.

(١) قاله على بن أبي طالب، أخرجه ابن جرير عنه (٥٦٦٨ - ٥٦٧٤)، وانظر الدر المنثور (٥٦٢/١).

(٢) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير عنه (٥٦٧٥ - ٥٦٧٨)، وانظر الدر المنثور (٥٦٢/١).

(٣) قاله ابن عباس، والسدى، أخرجه ابن جرير عنهما (٥٦٨٠، ٥٦٨١)، وانظر الدر المنثور (١/٥٦٢).

(٤) قاله ابن عباس، أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ كما فى الدر المنثور (٥٦٢/١).

(٥) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٥٦٨٧، ٥٦٨٨، ٥٦٨٩)، وعن قتادة (٥٦٩٠، ٥٦٩١)، والسدى (٥٦٩٢)، وعكرمة (٥٦٩٤، ٥٦٩٥).

(٦) قاله أبو صالح، أخرجه ابن جرير عنه (٥٦٩٦)، وعن عطية بن سعد (٥٦٩٧)، وانظر الدر المنثور =

وقيل^(١): (البقية) ففيز من مَنْ، وهو الترنجيبين الذى كان يأكله بنو إسرائيل فى أرض التيه.

وقيل^(٢): فيه سنة موسى وهارون، وعلمهما. والله أعلم بذلك.

وفى الآية دليل جرى الآية على أيدي الأولياء، لما أعطى لطالوت آية لملكه تشبه آيات الأنبياء حيث أخبر أنه كان ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [هى القوة فى داره، وهم كانوا لم يَمروا ذلك وقت حمل الملائكة]^(٣) إياه، لكن تلك الآيات فى الحاصل تكون للأنبياء يجريها الله تعالى على أيدي الأولياء إلا أن يكون للأولياء ذلك. ثم من ادعى من الأولياء بتلك الآيات النبوة لنفسه يعجزه الله تعالى عن ذلك، ويخرج الآية من أن تصير آية له، نحو من أتى مدينة من المدائن التى لم يبلغ أهلها هذا القرآن، ولا عرفوه ولا سمعوا ذلك من أحد قط، فجعل يقرأ ذلك عليهم عن ظهر قلبه، وادعى بذلك رسالة انفسه، أيسع أهل ذلك البلد أن يصدقوه فيما ادعى، أم لا؟ فإن لأصحابنا، رحمهم الله تعالى، جوابان:

أحدهما: بأن فى القرآن ما يظهر به كذب هذا المدعى فى دعوته من نحو قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ عن كذا، ومن نحو الأخبار، والحكايات، والقصص التى فيها مما لا يحتمل كونها إلا بتقدم أسباب فيكذبه ذلك، فلم يلزمهم تصديقه. وبالله العصمة.

والثانى: قالوا: إذا ادعى ذلك به يعجزه الله عز وجل عن تلاوته، وإجرائه على لسانه، وادعاء ما ادعى بذلك. وكأن هذا أقرب. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَادِّينَ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٥١﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِئَرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٢﴾ فَهَرَمُوهُمْ يَادِّيبُ اللَّهُ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥٣﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

= (١/٥٦٣).

(١) قاله الثورى، أخرجه ابن جرير عنه (٥٦٩٨).

(٢) قاله عطاء بن أبى رباح، أخرجه ابن جرير عنه (٥٧٠١).

(٣) ما بين المعقوفين سقط فى ط.

وقوله: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾

أى: من المدينة.

قيل^(١): هم سبعون ألفا.

وقيل: كانوا مائة ألف، سار بهم فى حر شديد، فنزلوا فى قفرة من الأرض، فأصابهم عطش شديد، فسألوا طالوت الماء، فقال لهم طالوت:

﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾

قيل^(٢): نهر بين الأردن وفلسطين.

وقيل^(٣): هو نهر فلسطين.

[وقيل: إنما قال لهم: إن الله مبتليكم بنهر نبيهم.

وقوله: ﴿فَمَنْ شَرِبَ﴾ غرفة كفاه، ومن شرب أكثر منه لم يروه؛ لأنهم عصوه .
وقيل^(٤)]

﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾.

أى: ليس معى على عدوى، أى: لا يخرج معى.

ويجوز ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ من أتباعى وشيعتى.

وجائز أن يكون به ظهور النفاق والصدق ﴿مِنِّي﴾ فى الدين.

﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾.

يقول: ﴿مِنِّي﴾، أى معى على عدوى.

فيه دليل أن يسمى الشراب باسم الطعام، والطعام باسمه.

﴿إِلَّا مَنْ أَغْرَقَ غُرْفَةً يَخُوضُ﴾

استثنى (الغرفة)، كأنه قال: من شرب منه فليس منى إلا غرفة.

ففيه جواز الشيا^(٥) من الكلام المتقدم وإن كان دخل بين حرف الشيا^(٦) وحرف الأول

شئ آخر. وهو يدل لأصحابنا، رحمهم الله تعالى، حيث قالوا: فيمن أقر، فقال:

(١) قاله البغوى فى تفسيره (١/٢٣٠).

(٢) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٥٧١٦)، وعن الربيع (٥٧١٣)، وقتادة (٥٧١٤)، (٥٧١٥)، وانظر الدر المنثور (١/٥٦٤).

(٣) قاله ابن عباس، والسدى أخرجه ابن جرير عنهما (٥٧١٧، ٥٧١٨).

(٤) ما بين المعقوفين سقط فى ط.

(٥) فى أ: للثناء.

(٦) فى أ: الثناء.

«لفلان على كُرْ حنطة وكر شعير إلا نصف كر حنطة»، أنه يصدق ويلزمه من الحنطة نصف كر. ويحتمل^(١) أن يكون الثنيا^(٢) على ما يليه قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمَهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً﴾.

وقيل: شرب شرب الدواب. و (الغرفة) هي شرب.

وقوله: ﴿فَسَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾

قيل^(٣): (القليل) هم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً اغترفوا غرفة واحدة بأيديهم، وكانت الغرفة يشرب منها هو وخدمه ودوابه.

وقيل: إنما استثنى الغرفة باليد لثلا يكرعوا كراع الدواب، ففعل بعضهم ذلك، فرد طالوت العصاة منهم، فلم يقطعوا معه، وقطع معه الثلاثمائة والثلاثة عشر رجلاً وهو قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾.

قيل: هو قول بعضهم لبعض: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾؛ لأنهم أكثر منا، وكانوا مائة ألف، وهو ثلاثمائة وثلاثة عشر. والله أعلم بذلك العدد.

وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ﴾

قيل^(٤): الذين يعلمون ويقرون بالبعث.

﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يُبَازِنِ اللَّهُ﴾.

أى: عددهم.

وقيل: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾، يعنى يخشون أنهم يقتلون؛ لأنهم وطنوا أنفسهم على الموت، فطابت أنفسهم بالموت ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ﴾.

وقوله: ﴿يُبَازِنِ اللَّهُ﴾.

قال بعضهم: ﴿يُبَازِنِ اللَّهُ﴾، أى بأمر الله. لكنه لا يحتمل الغلبة بالأمر، ولكن ﴿يُبَازِنِ

اللَّهُ﴾، عندنا: بنصر الله.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

بالنصر والمعونة لهم.

(١) فى أ، ط : ويجعل.

(٢) فى أ: الثناء.

(٣) قاله البراء بن عازب، أخرجه البخارى (٣٩٥٧)، وابن جرير (٥٧٢٦ - ٥٧٣١)، وابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل كما فى الدر المنثور (١/٥٦٤).

(٤) قاله ابن جرير بنحوه (٢/٦٣٧).

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾
يعنى لقتالهم.

وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَسْكِنْتَ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

يقول: اصعب. ويقال: أتمم علينا صبرا.

وهكذا الواجب على كل من لقي العدو أن يدعو بمثل هذا.

وعلى قول المعتزلة لا معنى لهذا الدعاء، لأنه قد كان فعل بهذا الأصلح.

فاستجاب الله دعاءهم، وهزم عدوهم؛ وهو قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾

قال بعضهم: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، بأمر الله. لكن لا يحتمل؛ لأنهم كانوا يقاتلون بالأمر، ولا يهزمون بالأمر.

وقال آخرون: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، بعلم الله، كان في علمه في الأزل أنهم يهزمونهم.

وقيل: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، بنصر الله. وهو أقرب. والله أعلم.

وقيل في القصة^(١): إن داود، عليه السلام، كان راعيا، وكان له سبعة إخوة مع طالوت خرجوا معه للقتال. ولما أبطأ خبر إخوته على أبيهم أرسل داود إليهم لينظر ما أمرهم ويأتيهم بخبرهم. قال: فأتاهم وهم في الصفوف. فبرز جالوت، فلم يخرج إليه أحد. فقال: (يا بني إسرائيل) لو كنتم على حق لخرج إلي بعضكم. فقال داود لإخوته: أما فيكم أحد يخرج إلى هذا الأقف؟ قال: فقالوا: اسكت. قال: فذهب داود إلى طالوت، فقال: أيها الملك، إنى أراكم تعظمون شأن هذا العدو. ما تصنعون بمن يقتل هذا الأقف؟ قال طالوت: أنكحه ابنتي، وأجعل له نصف ملكي. فقال داود لطالوت: فأنا أخرج إليه. فلما قال داود: (أنا أخرج إليه)، قال له طالوت: من أنت؟ قال: أنا داود بن فلان. فعرفه طالوت، ورأى أنه أجلد إخوته. قال: فأعطاه طالوت درعه وسيفه. قال: فلما خرج داود في الدرع جرها في الأرض؛ لأن طالوت كان أطول منه. قال: فأخذ داود العصا ثم خرج إلى جالوت. فمر بثلاثة أحجار، فقلن: يا داود خذنا معك، ففينا ميتة جالوت. فأخذها ثم مضى نحوه. وعلى جالوت بيضة هي ثلاثمائة رطل. فقال له جالوت: إما أن ترمينى، وإما أن أرميك؟ فقال له داود: بل أنا أرميك. فرماه بها، فأصابه

(١) أخرج ابن جرير عن ابن إسحاق (٥٧٤٣) نحو هذه القصة.

فى آخرها، فوقعت فى صدره، فنفذته وقتلته، وقتل الحجر بعد ما نفذ جنوداً^(١) كثيرة، وهزم الله جنوده. وهو قوله: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾، والقصة طويلة فلا ندرى كيف كانت القصة وليس لنا إلى معرفتها حاجة. وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

فالمملك يحتمل: علم الحرب، وسياسة القتال؛ إذ لم يكونوا يقاتلون إلا تحت أيدي الملوك، وهو كقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]. ويحتمل: ﴿الْمُلْكُ﴾، بما عقد له من الخلافة؛ كقوله: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. وذكر: ﴿وَأَتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الأمرين لما كان من قرب زمانه على ما عليه ابتداء الآية أن الملك يكون غير نبي، فجمعاً جميعاً له فيكون على ذلك تأويل الحكمة أنها النبوة.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾، قيل: هى الفقه.

وقيل^(٢): هى النبوة. وقد تقدم ذكره.

وقوله: ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾.

قيل^(٣): صنعة الدروع، كقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحِصَنَكُمْ مِنْ بِأْسِكُمْ﴾

[الأنبياء: ٨٠]

وقيل^(٤): كلام الطير، وتسبيح الجبال، كقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أُورِ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ الْخَالِدَةُ﴾ [سبأ: ١٠]. وذلك مما خص به داود دون غيره من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

ويحتمل: ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾، أشياء أخر.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾

اختلف فيه:

قال بعضهم: دفع بالكفار بعضهم ببعض شرهم عن المسلمين، لما شغل بعضهم ببعض، وجعل بعضهم لبعض أعداء إلى أن لم يتفرغوا عن أنفسهم للمسلمين، وإلا كان

(١) فى أ: أناسا.

(٢) قاله السدى، أخرجه ابن جرير عنه (٥٧٥٠).

(٣) قاله البغوى فى تفسيره (٢٣٥/١).

(٤) قاله البغوى فى تفسيره (٢٣٥/١).

فى ذلك فساد الأرض.

وقال آخرون: دفع بالرسول والأنبياء شرهم عن المسلمين، وكفاهم بهم.
وقال غيرهم^(١): دفع بالمؤمنين بعضهم عن بعض - دفع بالمجاهدين فى سبيل الله عن القاعدين عن الجهاد، وإلا لغلّب المشركون على الأرض.
وقيل^(٢): بدفع بالمصلّى عمن لا يصلّى، وبالمزكى عمن لا يزكى، وبالحاج عمن لا يحج، وبالصائم عمن لا يصوم.

ثم اختلف فى قوله: ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾

قيل: لو لم يدفع بعضهم ببعض لقتل بعضهم بعضاً، وأهلك فريق فريقاً، وفى ذلك تفانيهم وفسادهم، وفى ذلك فساد الأرض.

وقال آخرون: لو لم يدفع لفسدت الأرض، أراد بفساد الأرض فساد أهلها؛ لأنه لو لم يدفع لغلّب المشركون على أراضى^(٣) الإسلام وأهلها. فإذا غلبوا فسد أهلها.

وقال: ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾، إذا غلب المشركون عليها هدمت المساجد والصوامع، ففيه فساد الأرض. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمَكِينِ﴾.

وعلى قول المعتزلة: ليس هو بذى فضل على أحد؛ لأن عليه أن يفعل ذلك، وأن يدفع ذلك كله عن المسلمين على قولهم، فإذا كان عليه ذلك لا يصير هو بما يدفع مفضلاً ولا ممتناً. فنعوذ بالله من السرف فى القول.

وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

يحتمل قوله: ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾، ما ذكره من قتل داود جالوت بالأحجار.

ذكر فى القصة مع ضعف داود وقوة جالوت، على ما قيل: إن قامته كانت قدر ميل، وإن بيضته كانت ثلاثمائة رطل.

ويحتمل: ما ذكر من قيام القليل للكثير؛ لأنه قيل: إن جنود جالوت مائة ألف، وجنود طالوت ثلاثمائة وثلاثة عشر. وذلك من الآيات.

ويحتمل: جميع ما قص الله عليه فى القرآن من خبر الأمم السالفة. والله أعلم.
وفى قتل داود جالوت، وقتل القليل الكثير، دليل: أنهم لم يقتلوا^(٤) لقوة أنفسهم،

(١) قاله مجاهد بنحوه كما فى تفسير البغوى (١/٢٣٥).

(٢) قاله ابن عباس، أخرجه ابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب عنه كما فى الدر المنثور (١/٥٦٧).

(٣) فى أ: أرض.

(٤) فى أ: يصلوا.

ولكنهم بالله وبنصره إياهم .

قال الشيخ - رحمه الله - : من آيات وحدانيته : قتل داود جالوت مع ضعف داود وقوة عدوه .

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَعُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

وقوله : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَعُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

قوله : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾

يحتمل : تفضيل بعضهم على بعض ما ذكر ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ ، ومنهم من اتخذه خليلاً ، ومنهم من سخر له الريح والطير ، ما كان في الأنبياء مثله .

ويحتمل : ﴿بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ، في الحجاج ، والحجج على القوم ؛ لأن فيهم من كان أكثر حاجة لقومه وأعظم حجباً ، وهو إبراهيم ، صلوات الله عليه وسلامه ، وموسى .

ويحتمل : «التفضيل» التمكين في الأرض ، مكن لبعضهم ما لم يكن للباقيين .

ويحتمل : ذلك في الآخرة في الشفاعة ، ورفع الدرجات .

ويحتمل : ﴿بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ، في الرسالة ؛ لأن منهم من أرسل إلى الإنس والجن جميعاً ، ومنهم من أرسل إلى الإنس خاصة ، [ومنهم من أرسل إلى قومه خاصة] ^(١) ومنهم من أرسل إلى نفر . والله أعلم .

وقد ذكرنا ألا يكون من الله تفضيل لبعض الرسل على بعض على قول المعتزلة ؛ لأنه [فعل] ^(٢) ما عليه أن يفعل ، وكل من فعل ما عليه أن يفعل ، فإنه لا يوصف بالفضل والإفضال ؛ دل أنه ليس على ما يقولون ويذهبون إليه .

(١) سقط في أ ، ط .

(٢) سقط في أ .

وقوله: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ، قد ذكرناه فيما تقدم .

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلِ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ هذه الآية والآيتان من بعدها - قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلُوا﴾ ، وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ، على المعتزلة . لأنه أخبر أنه لو شاء ألا يقتتلوا ما اقتتلوا . وهم يقولون: شاء ألا يقتتلوا ، ولكن اقتتلوا . والافتتال هو فعل اثنين ، وفيهم من اقتتل ظالما ، وفيهم من اقتتل غير ظالم ، دليله قوله: ﴿وَلَكِنَّ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ ، ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلُوا﴾ ، أخبر أنه لو شاء ألا يقتتلوا ما اقتتلوا وأخبر أنه يفعل ما يريد ثبت الفعل فى الإرادة وهم يقولون لا يفعل ما يريد .

وكذلك قوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلُوا﴾ أخبر أنه لو شاء ما اختلفوا وهم يقولون: شاء ألا يختلفوا ولكن اختلفوا ثم لا يجوز صرف الآية إلى مشيئة القسر والجبر؛ لأن المشيئة التى ذكرها الله تعالى معروفة فى الناس فلا يجوز صرفها إلى غير المشيئة المعروفة إلا بعد تقدم ذكر أو بيان أنها هى المرادة وقوله: ﴿مَا أَفْتَنَلُوا﴾ ولا اختلفوا فجعلهم على أمر واحد ودين واحد كقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨] والمعتزلة يقولون: شاء أن يصيروا أمة واحدة ولكن لم يصيروا فنعوذ بالله من السرف فى القول والقول فى الله بما لا يليق به .

وقوله: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفُسُهَا وَمَا رَزَقْنَكُمْ﴾ يحتمل الأمر بالإنفاق ، أمر بتقديم الطاعات والمصارعة إلى الخيرات قبل أن يأتى يوم يمنعه ويعجزه عن ذلك وهو الموت . ويحتمل أمره بالإنفاق من الأموال فى طاعة الله من قبل أن يأتى يوم ، وهو يوم القيامة ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾ قيل: لا فداء ، و ﴿وَلَا حُلَّةٌ﴾ ، ﴿وَلَا شَفَعَةٌ﴾ .

يحتمل قوله: ﴿وَلَا حُلَّةٌ﴾ أى لا ينفع خليل خليله كما ينفع فى الدنيا وكذلك لا شفيع تنفع شفاعته كما تنفع فى الدنيا .

ويحتمل: ﴿وَلَا حُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ ، أى: لا ينفع أحد أحدا ، ولا يخال أحد أحدا ، ولا يشفع أحد أحدا .

ويحتمل: ﴿يَوْمَ لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾ ، أنهم يملكون بيع أنفسهم من الله تعالى ما داموا أحياء ، فإذا ماتوا لم يملكوا ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْتَ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١] . فأول الآية وإن خرج الخطاب للمؤمنين فالوصف فيها وصف الكافرين ، لكن فيها زجر للمؤمنين مثل صنيع الكفار .

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قيل: الله هو اسم المعبود ، وكذلك تسمى العرب

كل معبود إلها ومعناه -والله أعلم- أن الذى يستحق العبادة ويحق أن يعبد هو الله الذى لا إلا هو لا الذى تعبدونه أنتم من الأوثان والأصنام التى لا تنفعكم عبادتكم إياها ولا يضركم ترككم العبادة لها.

ويحتمل أن يكون على الإضمار: أن قل الله الذى لا إله إلا هو لأنهم كانوا يقرون بالخالق ويقرون بالإله؛ كقوله عز وجل ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وكقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿[المؤمنون: ٨٦، ٨٧] وكقوله: ﴿قُلْ مَنْ يُدِيرُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿[المؤمنون: ٨٨، ٨٩] فإذا كانوا يقرون به فأخبرهم أن الذى يقرون به ويسمونه هو الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ويحتمل أن يكون لقوم من أهل الإسلام عرفوا الله تعالى وآمنوا به، ولم يعرفوا نعته وصفته فعلمهم نعته وصفته أنه الحى القيوم إلى آخره.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

وقوله ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قيل هو الحى بذاته لا بحياة هى غيره كالخلق هم أحياء بحياة هى غيرهم حلت فيهم لابد من الموت، والله عز وجل يتعالى عن أن يحل فيه الموت؛ لأنه حى بذاته وجميع الخلائق أحياء لا بذاتهم، تعالى الله عز وجل عما يقول فيه الملحدون علوا كبيرا.

والأصل: أن كل من وصف فى الشاهد بالحياة وصف ذلك للعظمة له والجلال والرفعة. يقال: (فلان حى)، وكذلك الأرض سماها الله تعالى (حية)، إذا اهتزت وربت وأنبتت، لرفعتها على أعين الخلق. فعلى ذلك الله سبحانه وتعالى (حى) للعظمة. وكذلك الأرض سماها الله تعالى: (حية) للعظمة والرفعة ولكثرة ما يكون يذكر فى المواطن كلها، كما سمي الشهداء (أحياء)؛ لأنهم مذكورون فى الملاء من الخلق.

ويحتمل: أنه يسمى (حيًا) لما لا يغفل عن شىء، ولا يسهو، ولا يذهب عنه شىء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء. وبالله العصمة.

وقوله: ﴿الْقَيُّومُ﴾، القائم على مصالح أعمال الخلق وأرزاقهم.

وقيل: ﴿الْقَيُّومُ﴾، هو القائم على كل شىء يحفظه ويعاهده، كما يقال: (فلان قائم على أمر فلان)، يعنون أنه يتحفظ أموره حتى لا يذهب عنه شىء.

وقيل: ﴿هُوَ أَلْحَى الْقَيُّومُ﴾، أى لا يغفل عن أحوال الخلق.
وقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

قيل^(١): (السنة)، النعاس.

وقيل^(٢): (السنة)، هى بين النوم واليقظة، وسمى (وسنان).

وقيل^(٣): (السنة)، هى ريح تجيء من قبل الرأس، فتغشى العينين، فهو (وسنان) بين النائم واليقظان.

ويحتمل قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ على نفى الغفلة والسهو عنه؛ إذ لو أخذه، صار مغلوباً مقهوراً، فيزول عنه وصفه (حى، قيوم)، كقوله: ﴿لَا يَعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: ٣]. على نفى الغفلة.

ويحتمل: أنه نفى عن نفسه ذلك؛ لأن الخلق إنما ينامون وينعسون^(٤) طلباً للراحة والمنفعة - إما لدفع حزن أو وحشة - فأخبر أنه ليس بالذى يحتاج إلى راحة، وإلى دفع حزن أو وحشة.

وقيل^(٥): لا يفتر ولا ينام.

قال الشيخ - رحمه الله تعالى -: والنوم والسنة حالان تدلان على غفلة من حلاً به، وعلى حاجته إلى ما فيه راحته، وعلى عجزه، إذ هما يغلبان ويقهران. فوصف الرب نفسه بما يعلو عن الذى دلا عليه من الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلَمَّْا مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

وهو العالى على ذلك، القاهر له، لا تأخذه سنة ولا وحشة، ولا معنى يدل على العجز والحاجة. ولا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿لَمْ يَلَمَّْا مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أخبر أن ما فى السموات وما فى الأرض، عبده وإماؤه، ليس كما قالوا: (فلان ابن الله)، و (الملائكة بنات الله)، بل كلهم عبده وإماؤه، والناس لا يتخذون ولداً من عبيدهم وإمائهم، فالله أحق ألا يتخذ، وقد ذكرنا هذا فيما تقدم.

(١) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٥٧٧١، ٥٧٧٢)، وعن قتادة والحسن (٥٧٧٣)، والضحاك (٥٧٧٤، ٥٧٧٥، ٥٧٧٦)، وانظر الدر المنثور (١/٥٧٩).

(٢) قاله الربيع، أخرجه ابن جرير عنه (٥٧٧٨).

(٣) قاله السدى، أخرجه ابن جرير عنه (٥٧٧٧)، وانظر الدر المنثور (١/٥٧٩).

(٤) فى ط: ويتغشون.

(٥) قاله عطية، أخرجه ابن أبى حاتم عنه كما فى الدر المنثور (١/٥٧٩).

وقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، أى: لا أحد يجترئ على الشفاعة إلا بإذنه.

ثم اختلف فى الشفاعة:

قالت المعتزلة: لا تكون الشفاعة إلا لأهل الخيرات خاصة الذين لا ذنب لهم، أو كان لهم ذنب فتابوا عنه. ذهبوا فى ذلك إلى ما ذكر الله تعالى فى قوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ أَرْصَنَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، أخبر أنهم يستغفرون للذين آمنوا وتابوا واتبعوا. فإذا كان الاستغفار فى الدنيا إنما يكون للذين آمنوا وتابوا واتبعوا، فعلى ذلك الشفاعة إنما تكون فى الآخرة لهؤلاء.

وأما عندنا: فإن الشفاعة تكون لأهل الذنوب؛ لأن من لا ذنب له لا حاجة له إلى الشفاعة. وقوله: ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾، يكون لهم ذنوب فى أحوال التوبة، فإنما يغفر لهم الذنوب التى كانت لهم، فقد ظهر الاستغفار لأهل الذنوب؛ فعلى ذلك الشفاعة.

فإن قيل: رأيت رجلاً قال لعبده: إن عملت عملاً تستوجب به الشفاعة فأنت حر، فأى عمل يعمله ليستوجب به الشفاعة حتى يعتق عبده: الطاعة، أو المعصية؟ قيل: الطاعة، فعلى ذلك الشفاعة، لا تكون إلا لأهل الطاعة والخير لا لأهل المعصية.

[قيل: إن الشفاعة التى يستوجبها أهل الذنوب إنما يستوجبون بالطاعات التى كانت لهم حالة الشفاعة؛ لأن أهل الإيمان وإن ارتكبوا مآثم ومعاصى فإن لهم طاعات، فبتلك الطاعات يستوجبون الشفاعة، كقوله: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، فالشفاعة فى شره بخيره^(١).

وقالوا: لا شفاعة فى الشاهد لأحد فى الآخرة؛ لأن الشفاعة هى أن يذكر عن مناقب أحد عند أحد وخيراته، ليس سوءاً^(٢)، وكذا فى الآخرة.

والجواب لهم من وجهين:

أحدهما: أنه إنما يذكر فى الدنيا خيرات المشفع له لجهالة هذا بأحواله، فيذكر خيراته ليعرفه بها، فيشفع فيه. والله تعالى عارف لا يتعرف^(٣).

(١) ما بين المعقوفين سقط فى أ، ط.

(٢) فى أ: سواء.

(٣) أخرجه ابن جرير (٥٧٨٨، ٥٧٨٩)، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم، والبيهقى فى الأسماء والصفات كما فى الدر المنثور (٥٨٠/١).

والثانى: أن ذكر خيراتہ لحاجة تقع للمذكور له تكون فى مثلها، لا تكون فى الآخرة خاصة، والله - تعالى - يتعالى عن الحاجة عما بالعباد؛ لذلك اختلفا. والله أعلم.
فإن قال لنا قائل: إن جميع ما ذكر فى هذه الآية - من أولها إلى آخرها - كلها دعوى، فما الدليل على تلك الدعوى؟

قيل: يحتمل أن يكون دليله ما تقدم ذكره من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾ الآية [البقرة: ١٦٤].

والثانى: من أنكر الصانع فيتكلم أولاً معه فى حدث العالم، وحاجته إلى محدث، فإذا ثبت حدث العالم، فحينئذ يتكلم فى إثبات الصانع ووجدانيته. وبالله التوفيق.
وفى قوله تعالى: (واحد)، ليس من حيث العدد؛ لأن كل ذى عدد يحتمل الزيادة والنقصان، ويحتمل الطول والعرض، ويحتمل القصر والكسر، ولكن يقال: ذلك (واحد) من حيث العظمة والجلال والرفعة، كما يقال: فلان واحد زمانه، وواحد قومه، يعنون به رفعتة وجلالته فى قومه وسلطانة عليهم، جائز القول، فهم لا يعنون من جهة العدد؛ لأن مثله كثير فيهم من حيث العدد. والله أعلم.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ شَيْءً مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾.

هذا على المعتزلة؛ لأنهم لا يصفونه بالعلم، وقد أخبر أن له العلم.

ثم احتمل: ﴿عِلْمِهِ﴾، علم الغيب.

وقال آخرون: علم الأشياء كلها. لا يعلمون إلا ما يعلمهم الله من ذلك، كقول الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢].

ومن قال: علم الغيب، فهو الذى قال: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

قال بعضهم: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾، وسع علمه. وهو قول ابن عباس^(١)، رضى الله تعالى عنه.

وقال آخرون: ﴿كُرْسِيُّهُ﴾، قدرته، وهو وصف بالقدرة والعظمة.

وقيل: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾، والكبرى هو أصل الشئ، يقال: كرسى كذا، والمراد منه أنه المعتمد والمفرع للخلق. وذلك وصف بالعظمة والقوة.

(١) قاله البغوى فى تفسيره (٢٤٠/١)، ولم ينسبه لأحد.

ويقال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ ، وهو خلق من خلقه .

وقيل: إن الكرسي هو الكرسي، لكنه خلقه ليكرم به من يشاء من خلقه .

[ثم لا يجوز أن يفهم من إضافته إليه ما يفهم من الخلق، كما لم يفهم من قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، و«نور الله»، و«بيت الله» ونحوه ما يفهم من إضافته إلى خلقه^(١) .

فعلى ذلك لا يفهم من قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ ، وغيره من الآيات ما يفهم من الخلق بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتُودُّ حِفْظُهُمَا﴾ .

قيل: ﴿وَلَا يَتُودُّ حِفْظُهُمَا﴾ ، لا يشق عليه حفظهما^(٢) . وهو قول ابن عباس، رضى الله تعالى عنه، وروى عنه أيضاً أنه قال: لا يثقل عليه^(٣) .

وقيل: ﴿وَلَا يَتُودُّ﴾ ، لا يجهد .

وقيل: لا يعالج بحفظ شيء مثال الخلق .

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ .

﴿الْعَلِيُّ﴾ عن كل موهوم يحتاج إلى عرش أو كرسي، ﴿الْعَظِيمُ﴾ عن أن يحاط به .

وقال ابن عباس^(٤) - رضى الله تعالى عنه - : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ ، قال: علمه، ألا ترى

إلى قوله: ﴿وَلَا يَتُودُّ حِفْظُهُمَا﴾ ، كل شيء فى علمه، لا يثوده حفظ شيء، والله أعلم .

قال الشيخ: - رحمه الله تعالى - ﴿الْعَلِيُّ﴾ ، عن جميع أحوال الخلق وشبههم، و

﴿الْعَظِيمُ﴾ القاهر والغالب .

قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥٦) **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .**

وقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ .

قيل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ، أى: لا يكره على الدين . فإن كان التأويل هذا فهو على

بعض دون بعض .

(١) ما بين المعقوفين سقط فى ط .

(٢) أخرجه ابن جرير (٥٨٠٠، ٥٨٠١، ٥٨٠٤) .

(٣) تقدم .

(٤) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير عنه (٥٨٢٨، ٢٨٢٩، ٢٨٣١)، وعن الضحاك (٥٨٣٠)، وانظر الدر

المشور (٥٨٣/١) .

وقال بعضهم: نزلت في المجوس، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، أنه يقبل منهم الجزية، ولا يكرهون على الإسلام. ليس كمشركي العرب ألا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، ولا يقبل منهم الجزية، فإن أسلموا وإلا قتلوا. وعلى ذلك روى عن رسول الله ﷺ، أنه كتب إلى المنذر بن فلان^(١): «أما العرب فلا تقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، وأما أهل الكتاب والمجوس فاقبل منهم الجزية»^(٢). وعلى ذلك نطق به الكتاب ﴿نَقُولُونَهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ﴾ [الفتح: ١٦].

وقال قوم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أى: لا دين يقبل بإكراه، بل ليس ذلك بإيمان. والثانى: أن ﴿الرُّشْدُ﴾ قد تبين من الغى، وبين ذلك لكل أحد حتى إذا قبل الدين قبل عن بيان وظهور، لا عن إكراه.

وقال آخرون: قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، أى: لا إكراه على هذه الطاعات بعد الإسلام؛ لأن الله تعالى حبيب هذه الطاعات فى قلوب المؤمنين فلا يكرهون على ذلك. ومعناه: أن فى الأمم المتقدمة الشدائد والمشقة، ورفع الله عز وجل تلك الشدائد عن هذه الأمة وخففها^(٣) عليهم، دليله قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، ومثل ذلك كثير، كانت على الأمم السالفة ثقيلة وعلى هذه الأمة مخففة، فإذا كانت مخففة عليهم لا يكرهون على ذلك. وقال آخرون: هو منسوخ بقوله عليه السلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»^(٤).

(١) هو: المنذر بن حرملة الطائي القحطاني، أبو زبيد: شاعر نديم معمر، من نصارى طيىء. عاش زمناً فى الجاهلية، وكان يزور الملوك ولا سيما ملوك العجم لعلمه بسيرهم. وأدرك الإسلام ولم يسلم. وكان يدخل مكة متكرراً. واستعمله عمر على صدقات قومه. قال البغدادى: ولم يستعمل نصرانياً غيره. وكانت إقامته على الأكثر عند أخواله بنى تغلب بالجزيرة الفراتية. وانقطع إلى منادمة الوليد ابن عقبة أيام ولايته الكوفة، فى عهد عثمان. وكان يفد على عثمان فيقر به ويدنى مجلسه، لاطلاعه على أخبار من أدركهم من ملوك العرب والعجم. ومات بالكوفة أو فى باديتها، فى زمن معاوية وقيل: دفن على البليخ إلى جانب قبر الوليد بن عقبة. توفى نحو سنة ٦٢ هـ.

ينظر: خزنة الأدب للبغدادى (١٥٥/٢)، والشعر والشعراء (١٠١)، تهذيب ابن عساكر (٤/

(١٠٨)، الأعلام (٢٩٣/٧، ٢٩٤)

(٢) انظر نصب الراية للزيلعى (٤٢٠/٤).

(٣) فى أ: حفظها.

(٤) تقدم.

وقال آخرون^(١): إن قومًا من الأنصار كانت ترضع لهم اليهود، فلما جاء الإسلام أسلم الأنصار، وبقي من عند اليهود من ولد الأنصار على دينهم، فأرادوا أن يكرهوهم، فنزلت الآية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

قال الشيخ - رحمه الله تعالى - : ويحتمل ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ما قال في قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : ٧٨].

وقوله تعالى : ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

يعنى قد تبين الإسلام من الكفر بالله فلا تكرهون على ذلك .
وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾.

اختلف فيه :

قيل^(٢) : ﴿بِالطَّاغُوتِ﴾ ، الشياطين .

وقيل^(٣) : كل ما يعبد من دون الله فهو طاغوت من الأصنام والأوثان التى تعبد من دون الله .

وقيل^(٤) : ﴿بِالطَّاغُوتِ﴾ ، الكهنة الذين يدعون الناس إلى عبادة غير الله بكفر هؤلاء وتكذيبهم .

قال الشيخ - رحمه الله تعالى - : ومن جملة : ومن يكفر بالذى يدعو إلى عبادة غير الله، ويكذبه فى ذلك، ويؤمن بالذى يدعو إلى عبادة الله، ويصدق، أنه داع إلى حق .
وقوله تعالى : ﴿وَيُؤْمِرُ بِاللَّهِ﴾ .

فيه دلالة : أن الإيمان بالله هو إيمان بالأنبياء والرسل والكتب جميعًا، إذ لم يذكر معه غيره، والكفر بالذى ذكرت يمنع حقيقة الإيمان بالله؛ لأنه [فى آخر السورة ذكر ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة : ٢٨٥]، على طريق التفضيل -] ^(٥) من آمن بالله آمن به وبأمره ونهيه وشرائعه - لكن الذى قال : ﴿لَا تُفَرِّقُوا

(١) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير عنه (٥٨٢١، ٥٨٢٢، ٥٨٢٣)، وعن الحسن (٥٨٢٧)، وانظر الدر المنثور (٥٨٣/١).

(٢) قاله عمر بن الخطاب، أخرجه ابن جرير عنه (٥٨٣٥، ٥٨٣٦)، وعن مجاهد (٥٨٣٧)، والشعبي (٥٨٣٨)، وغيرهم، وانظر الدر المنثور (٥٨٣/١).

(٣) قاله مالك بن أنس، أخرجه ابن أبى حاتم عنه كما فى الدر المنثور (٥٨٣/١).

(٤) قاله سعيد بن جبيرة ورفيع وابن جريج، أخرجه ابن جرير عنهم (٥٨٤٤، ٥٨٤٥، ٥٨٤٦)، وانظر الدر المنثور (٥٨٣/١).

(٥) سقط فى أ، ب.

يَبْتَ أَحَدٌ مِّن رُّسُلِهِ ﴿١٥٠﴾ ، لقول قوم حيث قالوا: ﴿تُؤْمِنُ بَعْضٌ وَنَكَرُ بَعْضٌ﴾ [النساء: ١٥٠]، وإلا لكان فى الإيمان بالله إيمان بجميع ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يحتمل هذا وجهين:

يحتمل: فقد عقد لنفسه عقداً وثيقاً لا انفصام لذلك العقد ولا انقطاع، لا تقوم الحجة ببعضه^(١).

ويحتمل: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ ، بنصره إياه بالحجج والبراهين النيرة التى من اعتصم بها لا انفصال بها عنه ولا زوال.

ثم فيه نقض على المعتزلة؛ لأنه أخبر عز وجل أن من آمن بالله فقد استمسك بكذا. والمعتزلة يقولون: صاحب الكبيرة يخلد فى النار، وهو مؤمن بالله، فأية عروة أوهى من هذا على قولهم؟ وأن له زوالاً وانقطاعاً من ثوابه الذى وعد له عز وجل بإيمانه وتصديقه به. وبالله العصمة.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لقولهم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بشواهم.

أو ﴿سَمِيعٌ﴾ ، بإيمانهم، ﴿عَلِيمٌ﴾ ، بجزاء إيمانهم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

قيل: الولي: الحافظ.

وقيل^(٢): الولي: الناصر، وهو ناصر المؤمنين وحافظهم.

وقيل: سمى ولياً لأنه يلى أمور الخلق من النصر والحفظ والرزق وغيره. وعلى ذلك يسمى الولي ولياً لما يلى أمور الناس.

وقيل: قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أى: الله أولى بهم إليه رجاؤهم أطعمهم، وهو الذى يكرمهم، وأن الطاغوت أولى بالكافرين، كما قال: ﴿وَالنَّارُ مَوْنَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، أى أولى بهم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ لَهُمُ النَّارُ﴾ يُخْرِجُهُم مِّنَ النَّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ.

وقوله: ﴿يُخْرِجُهُم﴾ ، بمعنى: أخرجهم. وجائز هذا فى اللغة (يفعل) بمعنى (فعل)، و (فعل) بمعنى (يفعل)، جاز فيها، غير ممتنع عنه.

(١) فى ط: ببغضه.

(٢) قاله ابن جرير (٢٣/٣)، والبغوى (٢٤١/١).

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ، و ﴿مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ ، هو ابتداء نشوئهم عليه، ليس أن كانوا فيه ثم أخرجهم، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الرعد: ٢]، رفعها ابتداء، ليس أن كانت موضوعة ثم رفعها. فعلى ذلك الأول.

والآية تنقض على المعتزلة قولهم؛ إذ من قولهم: إن جميع ما أعطى مؤمن من الإخراج من الكفر، أعطى مثله الكافر؛ فكأنهم يقولون: أخرجهم جميعاً من الظلمة، وعليه إخراج الكفار أيضاً من الظلمات، إذ ذلك هو الأصلح له، وعليه أن يعطى ما هو الأصلح لهم في الدين. فإذا كان هذا قولهم، فهو ولى الكفرة والمؤمنين جميعاً على قولهم؛ إذ هو بالسبب الذى ذكر الولاية للمؤمنين فيعطى أيضاً للكفرة.

فإن قالوا: إنه أضاف (الكفر) إلى الطاغوت، وأنتم تضيفونه إلى الله عز وجل؟ قيل: هو ظاهر الكذب؛ لأننا لا نضيف ذلك إليه (الكفر). إنما نقول: إنه خلق فعل الكفر من الكافر كفراً، وخلق فعل النور من المؤمن نوراً. على أنه إن كان هذا فى الكفرة فما القول فى [الأول]^(١) من قولكم: إنه منعم على المؤمن، ثم لا نعمة فيه على المؤمن إلا بالأمر والأقدار، والأقدار منه موجود للكافر فى كفره على قولكم، ثم لا نعمة تقع فى الأمر والدعاء للمؤمن إلا ويقع مثله للكافر، إذ هو فى الأمر والدعاء كالمؤمن سواء. ولا قوة إلا بالله.

وليس فى القول: إنه خالق، بأنه خالق فعل كل أحد على ما عليه إضافة الكفر إليه، بل إنما يضيف الخير إليه بما منه فيه من الإفضال على الشكر له. فدل أن له عز وجل فى المؤمن فضل صنع، ليس ذلك له فى الكافر.

و (الكفر) فى اللغة الستر، وكذلك (الظلمة): هى الستر. يقال: (كفرت الشيء) أى سترته، وكذلك يقال: (ليل مظلم)؛ لأنه يستر ضوء النهار ونوره، فيستر الأشياء عن أبصار الخلق^(٢).

قال الشيخ - رحمه الله تعالى - فى قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾ الآية: دلت هذه الآية على أن كان من الله إلى الذين آمنوا معنى لم يكن منه إلى الذين كفروا به كان إيمانهم، ولو لم يكن إلا الأمر والأقدار أو البيان، على ما قالت المعتزلة، لكان كل ذلك عندهم إلى الكفرة، فلا وجه لتخصيص المؤمنين بما ذكر،

(١) سقط فى ط.

(٢) زاد فى ط: وكذلك الكفر يستر به أدران حقائق الإيمان عن أبصار القلوب.

وجعل الطاغوت أولى بالكافرين، وصنع الله إلى كل واحد، ولم تكن من الله تلك الزيادة، فإذا كان الذى ذكر لهم فى أنفسهم فلا وجه للامتنان بذلك. ومن البعيد ذكر الامتنان فيما به الإلزام والأمر. وما ذكرت المعترلة إنما هى أسباب الإلزام، ولولا ذلك كان أيسر عليهم وأقل لائمة. فكيف بمن بها ثبت أن كان منه فضل، ليس ذلك فى أعدائه فيه استوجب الحمد منهم؛ ولهذا يضاف إليه الخيرات على الشكر له، وتوجيه الحمد إليه، ولا يضاف إليه الشر بما ليس فى ذلك تشكر، إنما منه الخذلان بما علم من إثارة الكافر عداوته واختياره الكفر به؛ فلذلك لم يجز الإضافة إليه؛ والإضافة إلى الله جل ثناؤه لا باسم الخلق يخرج مخرج التعظيم له والخضوع من العبد بالحمد له والشكر. ولا يجوز مثله فيما ليس فيه ذلك على ما لا يضاف إليه الأنجاس والخبائث والجواهر القبيحة، وإن كان من طريق الخلقة جرى عليها تدبيره وخرجت على تقديره. فعلى ذلك أفعال الخلق، وعلى ذلك القول بأنه رب كل شىء، وإله كل شىء. ثم على الإشارة لا يوصف بذلك فى الأشياء الخاملة المستخف بها. فمثله الأول. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨]، ونحو ذلك يخرج على وجوه:

أحدها: أنه لا يهديهم وقت اختيارهم ذلك، ويكون على ألا يخلق منهم فعل الهداية، وهم يختارون فعل الضلال.

ويحتمل: من فى علمه أنه لا يهتدى، فيرجع المراد به إلى الخاص.

ويحتمل: لا يهدى طريق الجنة فى الآخرة من كفر بالله فى الدنيا.

ويحتمل: لا يجعلهم فى حكمهم، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٤٥]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ذكر أن الكفرة هم أصحاب النار، وذكر فى آية أخرى أن الملائكة أصحاب النار بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ [المدثر: ٣١]، لكنه ذكر الملائكة أصحاب النار؛ لما يتولون تعذيب الكفرة فيها، فسامهم بذلك، وذكر الكفرة أصحاب النار؛ لأنهم هم المعذبون فيها، والملائكة هم معذبوهم بها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُخْبِى وَيُعِيبُ قَالَ أَنَا أُخْبِى وَأُعِيبُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا

مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُغْنِي عَنْهُ اللَّهُ بِعَدِّ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثْنَاهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَسَسَّخْهُ وَانْظُرْ إِلَى جَمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمْتُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ .

فقد ذكرنا فيما تقدم أن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ، إنما يفتح به لأعجوبة، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] .

وفيه إباحة التكلم فى الكلام والمناظرة فيه والحجاج بقوله: ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ ، ورد على من يمنع التكلم فيه وهو كذلك ؛ لأننا أمرنا بدعاء الكفرة جميعاً إلى وحدانية الله تعالى، والإقرار له بذلك، والمعرفة له أنه كذلك، وكذلك الأنبياء بأجمعهم أمروا وندبوا إلى دعاء الكفرة إلى شهادة أن «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» ، فإن دعوانهم إلى ذلك لا بد من أن يطلبوا منا الدليل على ذلك، والبيان عليه، والوصف له كما هو له، والتقرير عندهم أنه كذا، فلا يكون ذلك إلا بعد المناظرة والحجاج فيه ؛ لذلك قلنا: أن لا بأس بالتكلم والمناظرة فيه . وفيه دلالة على إباحة المحاجة فى التوحيد .

وفيه الإذن بالنظر فى النظر ؛ لأنه حازه لينظر . والله أعلم .

وقوله: ﴿أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ .

قال أهل الاعتزال فى قوله تعالى: ﴿أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ : هو إبراهيم، عليه السلام، لا ذلك الكافر ؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] ، أخبر أن عهده لا يناله الظالم ، والملك عهد .

لكنه غلط عندنا لوجوه:

أحدها: أن إبراهيم، صلوات الله عليه وسلامه، ما عرف بالملك .

والثانى: أن الآية ذكرت فى محاجة ذلك الكافر إبراهيم، ولو كان غير ملك، وكان إبراهيم، عليه السلام، هو الملك، لم يقدر المحاجة مع إبراهيم، عليه السلام إذ لا

محااجة إلا عن ملك؛ دل أنه هو الذى كان الملك.

والثالث: قال: ﴿أَنَا أُحْيِ وَأُمِيتُ﴾، ثم قيل^(١): إنه جاء برجلين، فقتل أحدهما، وترك الآخر. فلو لم يكن ملكا لم يتأت له ذلك بين يدى إبراهيم، إذا كان إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه، هو الذى ﴿ءَاتَنَّهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾، فدل أن المراد به ذلك الكافر. ثم (المُلْكُ) يكون فى الخلق بأحد أمرين: إما الفضل والشرف والعز والسلطان والدين، وإما من جهة الأموال والطول عليها والقهر والغلبة. فإن لم يكن له (المُلْكُ) من جهة الأول لكان له ذلك بفضول الأموال؛ لذلك كان ما ذكرنا. والله أعلم.

قال الشيخ - رحمه الله تعالى -: أعطى (الملك) ليمتحن به، كما يعطى الغنى والصحة ليمتحن بهما.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾.

وكان هذا من إبراهيم - عليه السلام - والله أعلم - عن سؤال سبق منه أن قال له ذلك الكافر: من ربك الذى تدعونى إليه؟ فقال: ﴿رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾ وإلا لا يحتمل ابتداء الكلام بهذا على غير سبق سؤال كان منه. وهو ما ذكر فى قصة فرعون حيث دعاه موسى إلى الإيمان بربه، ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَذَى ﴿٥٠﴾ [طه]، فعلى ذلك الأول.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ﴾.

أنه دعا برجلين، فقتل أحدهما، وترك الآخر، على ما قيل فى القصة.

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالسَّمِيسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ﴾.

قال بعض الجدليين: هذا من إبراهيم، عليه السلام، صرف المحااجة إلى غير ما كان ابتداءها، ومثله فى الظاهر انقطاع وخيد عن الجواب؛ لأن من حاج آخر شيئا، وناظره فيه لعله ضمن وفاء تلك العلة وإتمامها إلى آخره، فإذا اشتغل بغيرها كان منه انقطاع عما ضمن وفاءها؛ فإبراهيم اشتغل بغيرها وترك الأول وهو فى الظاهر انقطاع؛ [٢٢] لأن جوابه أن يقول: أنا أفعل كما فعلت، أو أن يقول له: إن هذا الحى كان حيا، ولكن أحيى هذا الميت.

لكنه، صلوات الله عليه وسلامه، فعل هذا ليظهر عجزه على الناس؛ لأن ذلك كان منه تمويها وتلبيسا على قومه أخذ به قلوبهم، فأراد إبراهيم، صلوات الله عليه وسلامه، أن

(١) قاله الربيع ومجاهد وابن إسحاق، أخرجه ابن جرير عنهم (٥٨٧٨، ٥٨٨٠، ٥٨٨١).

(٢) ما بين المعقوفين سقط فى أ، ط.

يظهر عليه من الحجة ما هو أظهر وأعجز له، وأخذ للقلوب.
والثاني: أراد أن يريه أن هذا مما قدر عليه بغيره، إذ الذي لم يجعل له القدرة عليه لم يقدر عليه، ثم لما ثبت عجزه في أحدهما يظهر عجزه في الآخر. والله أعلم.
وقيل: بأن هذا من إبراهيم انتقال من حجة إلى حجة، ليس بانقطاع. وهو جائز.
وقوله: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرُ﴾، قيل: انقطع وتحير.
وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.
ذكر الظالم؛ لأن الظلم هو وضع الشيء في غير محله، حيث هذا اللعين المحاج في غير موضعه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾.
قيل: هو نسق قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ﴾.
وقيل: هو نسق على قوله: ﴿أَنَا أُخِي وَأُمِّيْتُ﴾؛ لأنه بذلك أنكر البعث.
ثم اختلف في المار على القرية:
قال بعضهم: كافر قال ذلك.
وقال آخرون: لا، ولكن قال ذلك مسلم.
وقال أكثر أهل التأويل: هو عزيز^(١).

فإن كان قائل ذلك كافراً فهو على إنكار البعث والإحياء [بعد إماتة]^(٢). وإن كان مسلماً فهو على معرفة كيفية الإحياء، ليس على الإنكار، وهو كقول إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطْمِئِنَّ قُلُوبُكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وليس لنا إلى معرفة قائله حاجة، إنما الحاجة إلى معرفة ما ذكر في الآية. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ خَاضِعَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.
قيل^(٤): خالية من سكانها.
وقيل^(٥): (خاوية)، ساقطة سقوفها على حيطانها، وحيطانها على سقوفها.

(١) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٥٨٩١)، وعن ناجية بن كعب (٥٨٨٣)، وسليمان بن بريدة (٥٨٨٤)، وقتادة (٥٨٨٥)، وغيرهم، وانظر الدر المنثور (٥٨٧/١).

(٢) سقط في أ، ب.

(٣) في أ: من.

(٤) قاله ابن جرير (٣٢/٣).

(٥) قاله السدي، أخرجه ابن جرير عنه (٥٩١٠)، وانظر الدر المنثور (٥٨٩/١).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

هو على ما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾.

أراد - والله أعلم - أن يرى الآية في نفسه، والآية هي آية البعث، ويحتمل أن تكون آية في المتأخرين.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُ﴾.

سأل منه - جل وعلا - الاجتهاد بظاهر الحال الذى ظهر عنده، ليظهر أنه اجتهد بدليل أو غيره على ما يدركه وسعه؛ فبان أن المجتهد يحل له الاجتهاد بما يدرك فى ظاهر الحال، وإن كان حكم ما فيه الاجتهاد بالغيب.

قال الشيخ - رحمه الله - : أراد الله تعالى بقوله: ﴿كَمْ لَبِثْتُ﴾ ، التنبيه؛ كقوله لموسى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى﴾؛ [طه: ١٧]، ليريه الآية من الوجه الذى هو أقرب إلى الفهم ثم جهة الأعجوبة فيه بوجهين:

مرة بإماتة الحمار، إذ من طبعه الدوام، ومرة بإبقاء طعامه، ومن طبعه التغير والفساد عن سريع. جعل فى بقاء طعامه وحفظه من الفساد آية ومن طبعه الفساد، وفى إحياء حماره بعد إماتته وطبعه البقاء؛ ليعلم ما نازعته نفسه فى كيفية الإحياء ذلك؛ وهو قوله: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم قيل فى وجهه ما أراه بأوجه:

قيل^(١): إنه أحيا عينيه وقلبه، فأدرك بهما كيفية الإحياء فى بقية نفسه.

وقيل: أحيا نفسه، فأراه ذلك فى حماره.

وقيل^(٢): إنه أراه ذلك فى ولده؛ لأنه أتى شاباً، وولده وولد ولده شيوخ. وذلك آية.

قال الشيخ - رحمه الله تعالى - فى قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ...﴾ الآية: فإن قال قائل: كيف سأل عن لبثه، وقد علم أنه لم يكن علم به؟ وأيد ذلك إخباره بقوله ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قَالَ بَل لَّبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ.

قيل: القول ﴿كَمْ لَبِثْتُ﴾، يحتمل وجهين؛ وكذلك القول بقوله: ﴿بَل لَّبِثْتُ مِائَةَ

(١) قاله على بن أبى طالب، أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب كما فى الدر المنثور (١/٥٨٧)، وعن مجاهد وابن جريج وقتادة وغيرهم عند ابن جرير.

(٢) قاله الأعمش، أخرجه ابن جرير عنه (٥٩٤٦)، وعن عكرمة أخرج سفیان بن عيينة وابن أبى حاتم كما فى الدر المنثور (١/٥٩٠).

عَامِرٌ ۖ :

أحدهما: على قول ألقى إليه ونطق أسمع هو.

والثاني: أن يكون على ما حدثته نفسه بمدة لبثه في حال نومه، فتأمل في ذلك أحوال نومه، وأخبر عما عاين من أحوال الوقت الذي كان فيه مما كان ابتدأه وقت نومه، فقال بالذي ذكرتكم لَمَّا تأمل شأن الحمار، واستخبر عن الأحوال، قالت له نفسه: ﴿بَلْ لَبِثْتُ مِائَةً عَامٍ﴾، ثم أمعن نظره في حماره، وما رأى من تغير أحواله، وأبقاه الله تعالى على ما ذكر. وكل ذلك خبر عما حدثته نفسه، هي بعثه، على التفكير في أحواله، والنظر فيما عاين من أمر الحمار، أو كان علم أن ذلك موت فيه، لكنه استقل ذلك بما شهد نفسه بما عاينها على ما كانت عليها. فلما تأمل شأن حماره [و] علم أنه رفع إلى آيات عجيبة، فزع إلى الله تعالى، فأنبأه الله تعالى بالذي وصف في القرآن. والله أعلم.

ولو كان على القول فإن في السؤال عما يعلم السائل جهل المسئول وجهين:

أحدهما: الامتحان على ما به ظهور أحوال الممتحن من الاجتهاد في تعريف الحقائق بالاستدلال والخضوع له بالاعتراف بقصوره عن الإحاطة به، كفعل الملائكة عند قوله تعالى: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ٣١]، بقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]، والأول كما فعل صاحب هذا أنه قال: ﴿كَلْبْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، ومثله أمر أصحاب الكهف. والله أعلم.

والثاني: أن يراد بالسؤال التقرير عنده؛ ليكون متيقظًا لما يراد به من الاطلاع على الآية، كما قال لموسى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِسْمِئِكَ يَمْؤُسُ...﴾ الآية [طه: ١٧]. وهذا فيما كان السؤال في الظاهر خارجًا في الحقيقة مخرج المحنة، نحو ما ذكرنا في أمر الملائكة، وأمر موسى، عليه السلام، فأما السؤال الذي هو في حق السؤال إنما هو في حق الاستخبار، ليعلم ما عليه حقيقة الحال بالسؤال. لكن الذي ذكرت فيما كان سبيله أن يكون من له الامتحان. ولا قوة إلا بالله.

وقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهٖ﴾.

قيل^(١): لم يأت عليه السنون، أى: كأنه لم يأت عليه السنون.

وقيل^(٢): ﴿لَمْ يَتَسَنَّهٖ﴾، لم يتغير ولم ينتن.

(١) قاله الكسائي كما في تفسير البغوي (١/٢٤٥).

(٢) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٥٩٢٧)، وعن قتادة (٥٩٢٢، ٥٩٢٣)، والسدي (٥٩٢٤)، والضحاك (٥٩٢٥)، وقاله مجاهد (٥٩٣١، ٥٩٣٢، ٥٩٣٣)، وغيرهم، وانظر الدر المنثور (١/٥٩٠).

والأول أشبه؛ لأنه يقال من التغير والتتنن: لم يتسنن.
وقوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى جَمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ
كَيْفَ نُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا﴾.

وهو من الأحياء.

و﴿نُنْشِرُهَا﴾ بالزاي - وهو من الارتفاع والنصب.

وفيه لغة أخرى: «ننشرها» بالراء، وهو من الإحياء. و«ننشرها» من النشر.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿أَعْلَمُ﴾، بالنصب [والخفض:

فمن قرأه بالنصب]^(١)، صرف قوله: ﴿أَنْ يُّجِيءَ هَذَا اللَّهُ﴾، إلى المسلم.

ومن قرأ ﴿اعلم﴾ بالخفض صرف إلى الكافر، يقول الله له: اعلم أن الله على كل

شئ قدير. ويحتمل أيضًا صرفه إلى المسلم: «واعلم»، على الإخبار، كأنه قال: اعلم ما
كنت تعلمه غيبًا مشاهدة.

وفى هذه الآيات إثبات رسالة محمد ﷺ؛ وذلك أن هذه القصص كانت ظاهرة بينهم،

ولم يكن له اختلاف إليهم، ولا النظر في كتبهم، ثم أخبر على ما كان؛ ليعلم أنه إنما علم
ذلك بالله عز وجل ثناؤه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِنْ
لَيُطْمِئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ
ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قال بعضهم: كان إبراهيم، عليه السلام، موقنًا بأن الله يحيى الموتى، ولكن أحب أن

يعاين ذلك؛ لأن الخبر لا يكون عند ابن آدم كالعيان، على ما قيل: «ليس الخبر
كالمعينة».

وقيل: يحتمل سؤاله عما يسأل لما نازعته نفسه وحدثه في كيفية الإحياء، وقد تنازع

النفس وتحدث بما لا حاجة لها إليه من حيث نفسه؛ ليقع له فضل علم ومعرفة.

وقيل: ﴿لَيُطْمِئِنَّ قُلُوبِي﴾، أى: ليسكن قلبي وأعلم أنك قد استجبت لى فيما دعوتك،

وأعطيتنى الذى سألتك.

وقيل^(٢): ﴿أُولِمُ تُوْمِنُ﴾، أى: أو لم توقن بالخلة التى خاللتك؟ قال: بلى.

(١) سقط فى ط.

(٢) قاله السدى وسعيد بن جبیر، أخرجه ابن جریر عنهما (٥٩٦٨، ٥٩٦٩)، وانظر الدر المنثور (١/

سأل ربه على الخلة.

وقيل: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ ، قال: ﴿بَلَىٰ﴾ ، ﴿وَلَكِنَّ لِيُطَمِّنَ قَلْبِي﴾ ، بأنك أريتني الذي أردت.

ويحتمل: أن يكون إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، أراد بسؤاله ذلك أن تكون له آية حسية؛ لأن آيات إبراهيم كلها كانت عقلية، وآيات سائر الأنبياء كانت عقلية وحسية، فأحب إبراهيم، صلوات الله عليه وسلامه، أن تكون له آية حسية، على ما لهم، كسؤال زكريا ربه حيث قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ ءَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾ [آل عمران: ٤١]، جعل له آية حسية؛ فعلى ذلك سؤال إبراهيم، عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿فَخَذَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ﴾ .

معناه: وجههن إليك، كقول الرجل: «صر وجهك إلي»، أى: حول وجهك إلي. وروى في حرف ابن مسعود - رضى الله تعالى عنه - : «فصّرهن إليك» ، بالكسر، بمعنى قطعهن، قيل: هو التقطيع. وقيل^(١): (فصّرهن إليك)، اضممهن.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبُلَةٍ مِائَةٌ حَبٌّ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبُلَةٍ مِائَةٌ حَبٌّ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ .

يحتمل ضرب مثل النفقة في سبيل الله بالحبة التى ذكر وجهان:

أحدهما: أن يبارك فى تلك النفقة، فيزداد وينمو، على ما بارك فى حبة واحدة فصارت سبعمائة وأكثر.

والثانى: قال: ﴿وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، ورأوا الصدقة تتلف وتتلاشى فى أيدى الفقراء فقالوا: كيف تربي، وهى تالفة؟ فقال: تربي كما أربى الحبة فى الأرض بعد ما تلفت فيها وفسدت، فصارت مائة وزيادة. فعلى ذلك الصدقة فى طاعة الله والنفقة فيما يربى وإن كانت تالفة.

(١) قاله عطاء، أخرجه ابن جرير عنه (٦٠١١).

وقيل: إنها منسوخة بالفرائض. لكن هذا لا يحتمل؛ لأنه نسخ وعد في الآخرة، والوعد لا يحتمل النسخ، إلا أن يعنون نسخ عين الصدقة بغيرها، فأما الوعد فهو حالة. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

قيل^(١): ﴿وَاسِعٌ﴾، غنى.

وقيل: ﴿وَاسِعٌ﴾، جواد، يوسع على من يشاء.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾. قال المفسرون: للجهاد، خصوا الجهاد بهذا. والله أعلم.

لأن العدو إذا خرجوا لقتال المسلمين خرجوا للشيطان، ويسلكون سبيله وطريقه، والمؤمنون إنما يخرجون ليسلكوا طريق الله تعالى، وينصروا دينه وأوليائه؛ لذلك كان التخصيص له لقولهم، وإلا كان يجيء أن يسمى الطاعات كلها والخيرات (سبيل الله)؛ لأنه سبيل الله وطاعته، كقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾. اختلف فيه:

قيل: ﴿مَنًّا﴾، على الله، و ﴿أَذًى﴾، للفقير.

وقيل: ﴿مَنًّا﴾، على الفقير، و ﴿أَذًى﴾، له.

ثم قيل: منه على الفقير عد ما أنفق عليه وتصدق، وأذاه وتوبيخه عليه بذلك. وأما منه على الله تعالى؛ كقوله تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قد ذكرنا تأويله فيما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

قيل: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾^(٢)، كلام حسن، يدعو الرجل لأخيه بظهر الغيب.

وقيل: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، يستغفر الله ذنوبه في السر و ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ له، يغفر له، ويتجاوز عن مظلمته.

وقيل: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، الأمر بالمعروف خير ثوابا عند الله من صدقة فيها أذى ومن.

(١) قاله البغوي (١/٢٤٩).

(٢) ذكره البغوي (١/٢٥٠)، ونسبه للكلبي.

فإن قيل: كيف جمع بين قول المعروف والمغفرة وبين الأذى والمن، فقال: (خير من كذا..)، وأحدهما خير والآخر شر، وإنما يفعل هذا إذا كانا جميعاً خيرين، فيقال: «أيهما أخير»؟

قيل: معناه - والله أعلم - هذا خير لكم من ذلك، وهو كقوله: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنْ أَلَهْوٍ وَمِنَ التَّجَرُّفِ﴾ [الجمعة: ١١]، [أى: خير لكم فى الآخرة من اللهو والتجارة]^(١) فى دنياكم، وإن لم يكن اللهو والتجارة من جنس ما عند الله، فعلى ذلك الأول.

ويحتمل: أن تكون الآية على الابتداء، لا على الجمع: هذا خير، وهذا شر. قال الشيخ - رحمه الله تعالى -: وجه ذلك أن الصدقة قربة، وهى خير، فإذا أتبعها الأذى أبطلها، فيكون ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، أى: رد جميل للسائل خير من إجابة فى البذل، ثم الرد بالأذى؛ لأن هذا يبقى، وإن كان لا ينشفع^(٢) به الآخر، والصدقة [لا]^(٣)، وإن كان ينتفع بها الفقير. والله أعلم.

وقال بعضهم: (المن) و (الأذى)، أن يقول للسائل: خذه، لا بارك الله فيه لك. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾، عن صدقاتكم، ﴿حَلِيمٌ﴾، لا يعجل بالعقوبة عليكم بالمن والأذى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُواْ صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ءَآخِرٍ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُواْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٦٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتٍ لِلَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاصْبَاهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا بُطْلُواْ صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ءَآخِرٍ﴾. المن والأذى: ما ذكرنا.

(١) سقط فى أ، ط.

(٢) فى أ: ينقطع، وفى ط: يشفع.

(٣) سقط فى ب.

ثم جهة البطلان - والله أعلم - أن الله عز وجل وعد لمن تصدق الثواب عليها، بقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال فى آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْتَ لَهُمُ الْجَنَّةُ...﴾ [الآية [التوبة: ١١١]]. وإن كانت تلك الأموال فى الحقيقة له أعطاهم الثواب على ذلك، فأخبر أن من أعطى آخر شيئاً ببدل لا يمن عليه، كالمبادلات التى تجرى بين الناس، ألا يكون لبعض على بعض جهة المنّ، إذا أخذ بدل ما أعطاه، وأن يقال: إن الأموال كلها لله تعالى، فإنما أعطى ماله، وكل من أعطى ماله آخر لا يستوجب ذلك حمداً ولا مثناً.

ثم اختلف فى قوله تعالى: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾: قال بعضهم^(١): هم المنافقون، كانوا ينفقون أموالهم رياء. دليله قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، شبه الصدقة التى فيها (منّ) و (أذى) بالصدقة التى فيها رياء. وذلك - والله أعلم - أن الصدقة التى فيها (من) و (أذى) لم يبتغ بها وجه الله، فكان كالصدقة التى ينفقها للزيادة لا يبتغى بها وجه الله تعالى [وقال آخرون: كل صدقة فيها رياء فذلك، كافراً كان منفقها أو مسلماً؛ لأنها لم يُبتَغَ فيها وجه الله تعالى]^(٢) والدار الآخرة.

ثم ضرب المثل للصدقة المبتغى بها الرياء، والصدقة التى فيها المن والاذى بالصفوان الذى عليه التراب: وهو الحجر الأملس، فقال: ﴿كَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾.

قيل^(٣): (الوابل) هو المطر الشديد عظيم القدر. وفى ضرب الأمثال تعريف ما غاب عن الأبصار بما هو محسوس؛ وذلك أن الصفوان الذى به ضرب المثل، والتراب محسوس، ومن التراب جعل الأغذية للخلق والدواب. ثم الثواب الذى وعد للصدقة ليس بمحسوس، بل هو غائب، فعرف الغائب بالمحسوس. فقال: لما كان التراب الذى به تكون الأغذية يذهب بالمطر الشديد حتى لا يبقى له أثر،

(١) قاله ابن عباس أخرجه ابن جرير عنه (٦٠٤٤)، وانظر الدر المنثور (٦٠٠/١).

(٢) ما بين المعقوفين سقط فى ط.

(٣) قاله السدى والضحاك وقتادة والربيع، أخرجه ابن جرير عنهم (٦٠٥٣، ٦٠٥٤، ٦٠٥٥، ٦٠٥٦)، وانظر الدر المنثور (٦٠٠/١).

فكذلك الثواب الذى يكون للصدقة يذهب ويتلاشى حتى لا يُظفر بها باليمن والأذى والرياء، كما أذهب المطر التراب الذى على الصفوان، فصار صلدًا، لا شىء عليه من التراب.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

قالت المعتزلة: لا يهدى القوم الكافرين بكفرهم الذى اختاروا.

وقلنا نحن: لا يهديهم وقت اختيارهم الكفر، ويهديهم وقت اختيارهم الإيمان. وفى قوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾، وجه آخر، هو أن يحتمل قوله: ﴿مَّعْرُوفٌ﴾، هذه التسيحات والثناء والحمد، و﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾، ستر ما ارتكب من المأثم. وقوله: ﴿خَيْرٌ﴾، أى أحب على البذل من صدقة يتبعها أذى. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ اتِّبَاعًا مَّرَضَاتٍ اللَّهُ وَتَنَبُّيًّا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَمَرَاتُهَا أُكِلَتْ حَتَّى ضَعِيفَتْ فَإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فى الأمثال التى ضربها الله تعالى وذكرها فى القرآن وجوه: أحدها: جواز قياس ما غاب من الحكم عن المنصوص بالمنصوص إذا جمعهما معنى واحد.

والثانى: أن علوم المحسوسات والمشاهدات هى علوم الحقائق، وهى الأصول التى بها يستدل ويوصل إلى معرفة الغائب.

والثالث: فيها إثبات رسالة محمد، عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات، وذلك أن العرب كانت لا تضرب الأمثال، ولا كانت تعرفها فى أمر التوحيد وتعريف ما غاب عن حواسهم من أمر القيامة ونحو ذلك. ثم بعث الله تعالى محمداً ﷺ، وأنزل عليه القرآن^(١)، وذكر فيه الأمثال؛ ليذكرهم تلك الأمثال ليعلموا أنه إنما عرفها بالله عز وجل، لا أنه أنشأ هذا القرآن من تلقاء نفسه. وذلك من آيات نبوته ورسالته. وعلى ذلك جعل عدم الكتابة وإنشاء الشعر من آيات نبوته ورسالته؛ لأن من عادة العرب إنشاء الشعر والكتابة، ويفضلون أربابها على غيرهم؛ لثلا يعرف هو بها، ويقولون: إنه أخذ من الكتب، أو اختلق من نفسه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ

بِمِيزَانٍ إِذَا لَازَنَابَ الْمُبْتَطِلُونَ ﴿٤٨﴾ [العنكبوت: ٤٨].

والرابع: فيها دلالة أن الله - جل وعلا - خالق الدنيا وما فيها من المحاسن والخبائث، والأعلى والخصائص، حيث ضرب مثل الرفيع بالرفيع والخصيس بالخصيس؛ فدل أن خالق هذه الأشياء كلها هو الله تعالى، لا شريك له ولا شبيهه. ثم شبه الصدقة التي هي لله - عز وجل - مرة بالربوة من الأرض: وهي المرتفعة منها، ومرة بالحبة التي تنبت كذا كذا سنبله، وفي كل سنبله كذا كذا حبة، ومرة بالأضعاف المضاعفة؛ كقوله: ﴿فَيَضْلَعُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. فهو - والله أعلم - لما علم عز وجل رغبة الناس مرة في العدد في الدنيا، ومرة في البساتين المرتفعة أرضها وتربتها ليشرفوا على غيرهم من الخلائق والبقاع، ومرة في الكثير من الأشياء والعظيم منها رغبتهم عز وجل في الصدقة بما ذكرنا من الأشياء لعلمه برغبتهم فيها، ليرغبوا في ذلك. والله أعلم.

وعلى ذلك حرم الله تعالى الصدقات على رسول الله ﷺ؛ لأنه كان يرغب الناس في الصدقة؛ لئلا يظنوا فيه ظن سوء ويقولون: إنه إنما يرغبهم فيها لينتفع هو بها. وقوله تعالى: ﴿وَتَنبِيئًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ اختلف فيه:

قيل ^(١): ﴿وَتَنبِيئًا﴾: تصديقا، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا مِّنْ أُعْطِيَ وَالْفَقْرَ ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِّيَرُهُ لِلْسَيِّئِ﴾ [الليل].

وقيل ^(٢): ﴿وَتَنبِيئًا﴾، أي: تيقينا بالإسلام.

وقيل ^(٣): يشتون في مواضع الصدقة.

وقيل ^(٤): ﴿وَتَنبِيئًا﴾ في الصدقة، إذا كانت لله أمضى وتصدق بها، وإن خالطه شيء أمسك. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كَمْثَلِ جَنَّتِكُمْ بِرَبْوَةٍ﴾.

قيل ^(٥): الربوة: المرتفع من الأرض.

وقيل ^(٦): الربوة: الظاهر المستوى من المكان.

(١) قاله الشعبي، أخرجه ابن جرير عنه (٦٠٦٣، ٦٠٦٤)، وانظر الدر المنثور (٦٠١/١).

(٢) قاله قتادة وأبو صالح أخرجه ابن جرير عنهما (٦٠٦٥، ٦٠٦٦)، وانظر الدر المنثور (٦٠١/١).

(٣) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير عنه (٦٠٦٧ - ٦٠٦٩)، وانظر الدر المنثور (٦٠١/١).

(٤) قاله الحسن، أخرجه ابن جرير عنه (٦٠٧٠، ٦٠٧١)، وانظر الدر المنثور (٦٠١/١).

(٥) قاله ابن عباس والضحاك، أخرجه ابن جرير عنهما (٦٠٧٦، ٦٠٧٩)، وانظر الدر المنثور (١/١).

(٦٠١).

(٦) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير عنه (٦٠٧٣، ٦٠٧٤)، وانظر الدر المنثور (٦٠١/١).

وقوله تعالى: ﴿أَصَابَهَا وَاِبِلٌ﴾.

والوابل: قد ذكرنا أنه المطر الشديد العظيم القطر.

وقوله تعالى: ﴿فَنَآتَتْ أَكْثَلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾، معنى الحبة أضعفت في ثمرها في الحمل ضعفين حين أصابها وابل. كذلك الذي ينفق ماله لله في غير منة يمن بها يضاعف نفقتها، كثرت النفقة أو قلت.

وقيل^(١): يضاعف الله للمنفق الأجر مرتين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَاِبِلٌ فَطَلٌّ﴾.

والطل، هو المطر الضعيف.

وقيل^(٢): هو الطش من المطر.

وقيل^(٣): هو الرذاذ من المطر مثل الندى، لا تزال الحبة خضراء دائماً ثمرها، قل أو كثر.

وقوله: ﴿يُودُ أَمَلُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَكُمْ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

ليس لهذا الخطاب جواب؛ لأن جوابه أن يقول: يود، أو لا يود. لكن الخطاب من الله تعالى يخرج على وجوه ثلاثة:

خطاب يفهم مراده وقت قرعه السمع.

وخطاب لا يفهم مراده إلا بعد النظر فيه والتفكير والتدبر، وهو كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَفَرَأَى وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وكقوله عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، و ﴿يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

وخطاب لا يفهم مراده إلا بالسؤال عنه رسول الله ﷺ، أو من له علم في ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿فَسْئَلُ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، وكقوله تعالى: ﴿فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فإذا كان ما ذكرنا، فيحتمل أن ما ترك من الجواب للخطاب إنما ترك للطلب والبحث

(١) قاله السدي، أخرجه ابن جرير عنه (٦٠٨٦).

(٢) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير عنه (٦٠٨٣)، وعن الربيع (٦٠٨٥).

(٣) قاله الضحاك، أخرجه ابن جرير عنه (٦٠٨٤).

عنه والتفحص.

ثم إن هذا الخطاب يحتمل أن يكون في أهل النفاق؛ وذلك أن المنافق يرى من نفسه الموافقة لأهل الإسلام في الظاهر، وهو مخالف لهم في السر، وعنده أنه يستحق الثواب بذلك وقت الثواب، كان كصاحب الضيعة التي ذكرت في الآية: أن صاحبها يغرس فيها الغرس، وينبت فيها النبات في حال شبابه وقوته؛ رجاء أن يصل إلى الانتفاع بها في وقت الحاجة والضعف، فإذا بلغ ذلك واحتاج - حيل بينه وبين الانتفاع فيها. فكذلك المنافق الذي كان دينه لمنافع في الدنيا وسعة لها، إذا بلغ إلى وقت الحاجة حرم ذلك. وكذلك هذا في الكافر؛ لأنه رأى لنفسه النفع بعمله لوقت تأمله كصاحب الضيعة، ثم عند بلوغه الحاجة حرم عنه ذلك لاعتراض ما اعترض من الآفة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أََعْمَلُهُمْ كِرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]؛ لأن الكافر بما يدين من الدين إنما يدين لنفع يتأمله في الدنيا، والمؤمن إنما يدين بما يدين لنفع يتأمله ويطمع في الآخرة. فرجاء الكافر في غير موضعه؛ لذلك كان ما ذكر. والله أعلم.

ثم الأمثال التي ضربت ينتفع بها المؤمنون؛ لأن نظرهم ما في الأمثال من المعنى المدرج والمودع فيها، لم ينظروا إلى أعينها. وأما الكفار إنما ينظرون إلى أعين الأمثال، لا إلى ما فيها، فاستحرقوها واستبعدت عقولهم ذلك؛ لذلك قال الله - عز وجل -: ﴿لَا يَنْتَظِرُ لِقَوْمٍ يُفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، و﴿يَقُولُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ووجه ضرب هذا المثل: هو أن الكافر يحرم أجره عند أفقر وأحوج ما كان إليه، كما حرم هذا نفع بستانه عند أفقر وأحوج ما كان إليه حين كبرت سنه وضعفت قوته، ولا حيلة له يومئذ.

وقوله تعالى: ﴿إِعْصَارٌ﴾.

قال ابن عباس^(١): الإعصار: ريح فيها سموم.

وقيل: الإعصار: ريح فيها نار تحرق الأشجار.

وقيل^(٢): هي الريح تسطع إلى السماء، وهي أشد.

قال الشيخ^(٣) - رحمه الله تعالى - في قوله: ﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ...﴾

(١) أخرجه ابن جرير من (٦١٠٤ - ٦١١٠)، وانظر الدر المنثور (٦٠٣/١).

(٢) قاله البغوي (٢٥٢/١ - ٢٥٣).

(٣) ثبت في حاشية أ: قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله - في قوله: ﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ﴾: ليس على طريق الاستفهام ليقضى جواباً، بل معناه: لا يود أحدكم أن تكون له جنة.

الآية: فمعه - والله أعلم - أن يكون ألا يود أحد أن تكون له جنة ينال منافعها في وقت قوته وغناه بقوته عنها وبغيرها من وجوه المعاش، ثم يحرم نفعها لوقت الحاجة إليها بضعف بدنه وارتكاب مؤن الذرية، وكذلك لا ترضوا من أنفسكم في وقت قوتها وغناها الغفلة عنها لوقت حاجتها إلى الأعمال والاضطرار إلى ثوابها. والله أعلم.

وأن يكون المعنى من ذلك أى: لا تغتروا بظاهر أحوالكم فى الدنيا، وبما تنالون من النافع بالذى أظهرتم من موافقة المؤمنين، كاعتزاز من ذكرت بجنسه فى خاص ما عليه حاله إلى أن صار إلى ما أراه الله من عاقبته أنه يود عنه نهاية ذلك، أن لم يكن منه الاعتزاز فى ذلك، ولكن كان قيامه على ما لا يضيع عنه ذلك بتلك الحال؛ فيخرج ذا على ضرب المثل للمنافق.

ويحتمل: أن يكون ذلك مثلاً لمن كفر بمحمد ﷺ ممن يؤمن بالبعث، أن الذى ينال بالكفر به من الرياسة والعز، كالذى ذكر من صاحب الجنة أنه لا يود ذلك الابتداء بما يعلم تلك العاقبة؛ فكذا^(١) ما ينبغي لهم إذ بين لهم عواقب الكفر بمحمد ﷺ أن يؤثروا الذى نالوا بعد علمهم بشدة تلك العاقبة. والله أعلم.

والمثل خرج على غير ذكر الجواب فيه؛ لما قد جرى له البيان لعلمه بالمبعوث مبيناً أو بما فى الحال التى لها نزول الآية دليل التعريف، أو بما أراد الله امتحان السامعين بالتأمل فى الآية لينال كل ذى عقل فضله، وليكرم به أهل التدبر فى آياته فى صرف وجوه من دونهم إليهم فى الصدور عن آرائهم والاعتماد على إشارتهم. والله أعلم.

وجملة ذلك: أن أفعال ذوى الاختيار تكون للعواقب، وما إليه مرجع الفاعل مقصود فى الابتداء، فبين لمن أغفل عنه بالذى عرف من حيرة المسرور بجنته لما انكشفت له عاقبتها حتى لعله يود أن لم يكن له تلك، ليكون سروره بما يحمد عاقبته. فعلى هذا الأمر: الأفعال التى يغفل عن عواقبها إذا صار إليها صاحبها. والله الموفق.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا

تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُخِصُّوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٧﴾

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو

الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

أَنْصَارٍ ﴿٢٧١﴾ إِنْ بُدُوا أَلْصَقْتِ فِينِمَا هِيَ وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتُؤْتُوْهَا أَلْفَقَرَّةَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

فيه دليل وجوب الزكاة فى أموال التجارة بقوله: ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ ؛ لأن أموال التجارة هى التى تكتسب، وليس فى كتاب الله تعالى بيان وجوب الزكاة فى أموال التجارة فى غير هذا الموضع، وليس فيه سنة عن رسول الله ﷺ، ولكن ذكر عن بعض الصحابة - رضى الله تعالى عنهم - القول به؛ فيحتمل أن يكون ما قالوا قالوا بهذه الآية. وأما زكاة الفضة، والذهب، والمواشى فيما لها ذكر فى الكتاب والسنة، فالزكاة تجب فيها لعينها، اكتسب فيها أو لم يكتسب. وأما أموال التجارة فإن الزكاة تجب فيها بالاكْتِسَاب. وفيه دليل أن النفقة المذكورة فيه لازمة واجبة؛ لأنه قال: ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾، ذكر الإغماض، والإغماض لا يذكر فى المعروف، إنما يذكر فى اللازم والواجب الذى لا مخرج له عنه إلا بالأداء، إلا عن عفو وصفح والرضاء بدون الحق - ثبت أنه على اللزوم.

وفيه دليل وجوب الحق فى الرطاب والخضراوات؛ لأنه ذكر فى الآية المخرج، والرطاب هى التى تخرج من الأرض. وأما الحبوب إنما تخرج من الأصل الذى يخرج من الأرض؛ لذلك كان الرطاب والخضراوات أولى بوجوب الحق من غيره بظاهر الآية.

قال الشيخ - رحمه الله تعالى -: والوجوب فى الحبوب بما كانت تخرج من الحقوق، والحقوق بظاهر هذه الوجوه فى التى تخرج من الأرض. وأما أبو يوسف ومحمد - رحمهما الله تعالى - فإنهما قالوا: يحتمل قوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، يعنى من الأصل الذى يخرج لكم من الأرض، كقوله تعالى: ﴿يَبْنِي ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لُبَاسًا يُؤَرِّى سَوَآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦]، ولا ينزل من السماء اللباس كما هو، ولكن أراد الأصل الذى به يكون اللباس، وكذلك قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وهو لم يخلقنا من التراب، وإنما خلق الأصل من التراب، وهو آدم - عليه السلام - فعلى ذلك الأول. والله أعلم.

والوجه فيه: أنه من الله تعالى علينا بما أخرج لنا من الأرض من أنواع ما أخرج بحبة تلقى فى الأرض فتفسد فيها، فيخرج منها النبات بلطفه، لا صنع لأحد فيها. وتلك المنة لا تكون على أربابها خاصة دون الفقراء أو بل هى على الفقراء كهى على أربابها؛ لأنه أخرجه رزقاً لكل، ففيه حق الفقراء والأغنياء جميعاً. ومن ثم جاز وجوب العشر على

الفقير^(١)؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ؕ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَتُمْنُونَ الزَّرْعُونَ ؕ﴾ [الواقعة ٦٣، ٦٤] وقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُثْمِنُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠]، قيل: أنتم تبتونه أم نحن المنبتون؟ وأما ما بعد النبات فيشارك العباد فيه بالسقى والحفظ وغيره؛ لذلك كان ما ذكرنا. والله أعلم.

وفى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْحَيْثُ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِتَاخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ﴾، دلالة على ألا يتصدق بالردىء عن الجيد. فإذا تصدق به يلزمه فضل ما بين الردىء إلى الجيد، على قول محمد - رحمه الله تعالى - بظاهر قوله: ﴿وَلَسْتُمْ بِتَاخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ﴾. وعند أبي حنيفة وأبي يوسف - رضى الله تعالى عنهما -: يجوز ولا يختار له ذلك؛ وذلك أن الله - تعالى - أطمع الناس قبول ذلك إذا تغامضوا، فهو أحق أن يطمع فيه القبول لكرمه ولطفه؛ ولأنه ليس لصفة ما يكال ويوزن من نوعه قيمة، فإذا لم تكن له قيمة لا يلزمه فضل الصفة.

وقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

قوله: ﴿يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ فى الدنيا بالتصدق والإنفاق، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ بترك الصدقة.

ويحتمل: ﴿يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾، فى الدنيا بطول الأمل وفناء المال، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ بسوء الظن بربه.

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾ بالصدقة، و ﴿وَفَضْلًا﴾ ذكراً فى الدنيا.

ويحتمل قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾ فى الآخرة، و ﴿وَفَضْلًا﴾ فى الدنيا، يعنى خَلْفًا.

وقيل^(٢): ﴿مَغْفِرَةً﴾ لفحشائكم، و ﴿وَفَضْلًا﴾ لفقركم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، أى: غنى يقدر إخلاف ما أنفقتم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بجزاء صدقاتكم.

ويحتمل: ﴿عَلِيمٌ﴾ ما تنفقون من الصدقة والحسنة.

وفى قوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، و ﴿اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَكِيمٌ﴾، ونحوه [دلالة أن الله -

تعالى -] ^(٣) إنما رغب الناس على الصدقات والنفقات ابتلاء ومحنة منه، لا حاجة وفقراً.

(١) فى أ، ط: الصغير.

(٢) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير عنه (٦١٦٨).

(٣) فى ب: ليعلموا أنه.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

قيل: ﴿الْحِكْمَةَ﴾ في هذا الموضع معرفة القرآن وتفسيره. وهو قول ابن عباس^(١) - رضى الله تعالى عنه - وكذا روى مرفوعا^(٢).

وقيل^(٣): ﴿الْحِكْمَةَ﴾ الفهم فى القرآن.

وقيل^(٤): الفقه.

وقيل^(٥): ﴿الْحِكْمَةَ﴾ النبوة.

وقيل^(٦): ﴿الْحِكْمَةَ﴾ هى الإصابة. وفيه دليل جواز الاجتهاد، وأنه مصيب فى اجتهاده.

قال الشيخ - رحمه الله تعالى - فى قوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾: اختلف فى تأويل ﴿الْحِكْمَةَ﴾ فى هذا:

قال قوم^(٧): ﴿الْحِكْمَةَ﴾ هى القرآن، وهو على ما وصفه ﴿نُورًا﴾ [الأنعام: ٩١] و﴿وَهْدًى﴾ [الأنعام: ٩١]، و﴿رُوحًا﴾ [الشورى: ٥٢]، و﴿شِفَاءً﴾ [يونس: ٥٧] والنور هو الذى يبصر به حقائق الأشياء، وبالهدى يدرك كل شىء ويتقى كل تلف، وبالروح يحيى كل ذى روح، وبالشفاء يبرأ كل سقيم ويزال كل آفة. والذى هذا وصفه فهو الخير. وبالله التوفيق.

وقال قوم^(٨): ﴿الْحِكْمَةَ﴾ هى الإصابة لحقيقة كل شىء، وبها يتقى كل شر، وينال كل خير، وذلك هو الخير الكثير، وبالله العصمة.

وقال بعضهم: ﴿الْحِكْمَةَ﴾، هى السنة، كأنه أكرم رسوله ﷺ بالذى من سلكه نجا،

(١) أخرجه ابن جرير (٦١٧٦)، وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس فى ناسخه كما فى الدر المنثور (٦١٦/١).

(٢) أخرجه ابن مردويه من طريق جوير عن الضحاك عن ابن عباس كما فى الدر المنثور (٦١٦/١).

(٣) قاله أبو العالية وإبراهيم، أخرجه ابن جرير عنهما (٦١٧٩، ٦١٨٨)، وانظر الدر المنثور (٦١٦/١).

(٤) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير عنه (٦١٧٧، ٦١٧٨)، وعن مجاهد (٦١٨٠)، وعن ابن عباس (٦١٨١).

(٥) قاله ابن عباس، أخرجه ابن المنذر عنه كما فى الدر المنثور (٦١٦/١)، وعن السدى أخرجه ابن جرير (٦١٩٠).

(٦) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير عنه (٦١٨٢، ٦١٨٣، ٦١٨٤).

(٧) قاله ابن عباس، أخرجه ابن الضمير عنه كما فى الدر المنثور (٦١٦/١).

(٨) قاله مجاهد، أخرجه عبد بن حميد عنه كما فى الدر المنثور (٦١٦/١).

ومن حاد عنه غوى .

وقيل: فى الأصل الحكمة فى التحقيق وضع كل شىء موضعه، ودفع كل حق إلى مستحقه [ولهذا قال بعض الفلاسفة فى حد الحكمة: إنه العلم والعمل بالعلم فى وضع الأشياء مواضعها، والعمل فى إيصال كل ذى حق إلى مستحقه]^(١).

وقيل: هى من إحكام الأمور وإتقانها. وذلك مقارب؛ لما يضاد الحكمة السفه، وهو التفاوت فى العقل والاضطراب فى الأمور. والله أعلم.

وقال قوم: الحكمة فى القرآن: هى فهم الحدود والسرائر، وهو الذى به يدرك الموافقة والمخالفة من طريق الحقائق، لا من طريق الظواهر. وذلك عمل الحكماء ورعاة الدين. ولا قوة إلا بالله.

وقال قوم: الحكمة: هى الفقه، والفقه: معرفة الشىء بمعناه الدال على نظيره، وهو الذى به يوصل إلى معرفة الغائب بالشاهد، والغامض بالظاهر، والفرع بالأصل. ولا قوة إلا بالله.

وأى هذه الوجوه كانت الحكمة فذلك الوجه يجمع^(٢) خير الدارين، لو حفظ حقه، والذى هذا وصفه فهو الخير الكثير. وبالله المعونة.

وفى الآية دلالة أن الله تعالى لا يؤتى كلاً الحكمة، وأن الحكمة وإن كانت فعلاً للحكيم فبِعطاء الله تعالى نالها، وأنه لا يجوز أن يعطيها أحداً ثم لا ينالها المعطى. وهذه الوجوه كلها تخالف رأى المعتزلة.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، من حفظ النفس فى الدنيا عن جميع الآفات، وفى الآخرة عن دفع العقوبات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾، يعنى: وما يتعظ بما ذكر إلا ذو الفهم والعقل.

وفى الآية نقض على المعتزلة؛ لأنه قال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾، ثم قال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، ولا كل أحد يؤتى الحكمة، إنما يؤتى بعضاً دون بعض. فلو كان على الله تعالى أن يعطى الأصلح فى الدين لكان قد آتى الكل، وبطل التفصيل. ومن قال: يؤتى غيرها، فكان خلاف ما فى الكتاب.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

(١) ما بين المعقوفين سقط فى أ، ط.

(٢) فى أ: بجميع.

أَنْصَارٍ ﴿١﴾.

يحتمل: نفقة المحارم.

ويحتمل: النفقات التي تجرى بين الخلق.

ويحتمل: المفروض من الصدقات.

ويحتمل غيرها.

ثم روى عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنه - عن رسول الله ﷺ فى قوله تعالى: ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ قال: «من نذر نذرًا لم يسمه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذرًا فى معصية فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذرًا لا يطيقه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذرًا أطاقه فليوف به»^(١).

فيه تنبيه وتذكير أن الله تعالى يعلم صدقهم ونذرهم؛ ليحتسبوا فى النفقة ويخلصوا، وفى النذر يوفوا به.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾.

قيل: يقبله.

وقيل: يأمر بوفائه.

ويحتمل قوله: ﴿يَعْلَمُهُ﴾ أى: يعلم ما وفيتهم منه؛ فيجزىكم على ذلك.

ويحتمل: ﴿يَعْلَمُهُ﴾: ما أردتم بصدقاتكم ونذوركم؛ فيكون فيه ترغيب للناس فى أداء الفرائض.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

فى الآخرة، يعنى مجير يجيرهم من العذاب.

وقيل: ما للظالمين من شفيع يشفع لهم، ولا نصير ينصرهم؛ لأنه ما من ظالم إلا وله فى الدنيا ظهير.

وقوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَأَبْدَلْتُمْ أَنْصَارًا خِيبُوا فِي نَفْسِهِمْ وَتُؤْتَوْنَ أَهْلَهُمْ فَهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قال بعضهم^(٢): هى الفريضة.

وقال آخرون^(٣): هى التطوع. وهو أوجه.

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٢٢)، وابن ماجه (٢١٢٨).

(٢) قاله يزيد بن أبى حبيب، أخرجه ابن جرير عنه (٦١٩٧، ٦١٩٨)، والبغوى فى تفسيره (٢٥٨/١).

(٣) قاله ابن عباس وقتادة والربيع وسفيان، أخرجه ابن جرير عنهم (٦١٩٣، ٦١٩٤، ٦١٩٥، ٦١٩٦)، وانظر الدر المنثور (٦٢٥/١).

وقال غيرهم: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾ ، هي الفريضة ، ﴿وَأِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ﴾ هي التطوع .

قال الشيخ - رحمه الله تعالى - : لا يحتمل الإخفاء في التطوع ، والإبداء في الفرض ؛ لما أخبر في الإخفاء أنه خير ، ولا يكون التطوع خيراً من الفريضة . ومن حمله على الفريضة يستحب أن يظهروا الزكاة المفروضة ليقتدوا به ويرغبوا الناس عليها . ومنهم من يستحب الإخفاء أيضاً ، ويقولون : في الإبداء شيئان : الصدقة نفسها ، والاقتداء ، وفي الإخفاء وجوه :

أحدها : الصدقة .

والآخر : ترك المראה وسلامتها .

والثالث : الكف عن المن والأذى .

ومنهم من حمل قوله : ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾ على الفريضة ، و ﴿وَأِنْ تُخْفَوْهَا﴾ على التطوع ، وذهب إلى أن الفريضة ليس فيها الرياء ؛ لأنه لا شيء عليه ، فسواء فيها الإبداء والإخفاء ، وأما التطوع ففيه الرياء ؛ لأنه معروف ليس عليه ، والإخفاء له أسلم . والله أعلم .

وقال ابن عباس^(١) - رضى الله تعالى عنه - فى قوله : ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . .﴾ الآية ، جعل الله - تعالى - صدقة^(٢) السر فى التطوع تفضل علانيتهما بسبعين ضعفاً ، وجعل صدقة الفريضة علانيتهما أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً ، وكذلك جميع الفرائض والنوافل فى الأشياء كلها . وفى بعض الأخبار عن النبى ﷺ أنه قال : «صدقة السر تطفئ غضب الرب ، وصنائع المعروف تقى^(٣) مصارع السوء ، وصلة الرحم تزيد فى العمر»^(٤) .

وعن الحسن ، قال : الإبقاء على العمل أشد من العمل ؛ وذلك أن العبد ليعمل العمل سرّاً فيكتب له عمل السر ، فلا يزال به الشيطان حتى ينسخ من عمل السر إلى عمل العلانية ، ثم لا يزال به الشيطان حتى يحب أن يحمده ، حتى يكتب من عمل العلانية فى الرياء .

(١) تقدم .

(٢) فى أ ، ط : كلمة .

(٣) فى أ ، ب : تدفع .

(٤) تقدم .

وقوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ :

فيه دليل أن من السيئات ما يكفرها الصدقة، ومنها ما لا يكفر.

وقيل: إن «من» هاهنا صلة، ففيه إطماع تكفير السيئات كلها بالصدقة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتٍ﴾ [هود: ١١٤].

وهو نقض على المعتزلة؛ لأنهم لا يرون تكفير الكبائر بغير التوبة عنها، ولا التعذيب على الصغائر. فأما إن كانت الآية في الكبائر - فبطل قولهم: لا يكفر بغير التوبة، أو في الصغائر فيبطل قولهم: إنها مغفورة؛ إذ وعدت بالصدقة؛ لأنهم يخلدون صاحب الكبائر في النار، والله تعالى أطمع له تكفير السيئات كلها بالصدقة. والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ :

فيه وعيد وتحذير، أنه يعلم ما تسرون وما تعلنون في الصدقة.

ويحتمل: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ، من جزائكم للصدقة.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يَلَّا تُنْفِقُوا وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٢) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٧٣) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتِلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يَلَّا تُنْفِقُوا وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ .

أخبر أنه ليس عليه هداهم، وعليه البيان والتبليغ؛ فدل أن هناك فضل هدى، لا يملك هو ذلك، وهو التوفيق على الهدى والتحقيق له.

وهذا يرد على المعتزلة ويكذبهم أن كل الهدى: البيان؛ إذ لو كان كل الهدى بياناً لكان رسول الله ﷺ يملك ذلك، إذ عليه البيان، فدل أنه لا يملك الهدى المراد في الآية؛ فهو على ما ذكرنا من التوفيق.

ويحتمل قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ أى: حساب ترك اهتدائهم، كقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢]، و ﴿فَلْيَسْمَا عَلَيْكَ الْبَلْعُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ :

﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ ، أى : مال ، ﴿فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ ، يعنى : فلأنفسكم الثواب .

[و] قيل قوله : ﴿فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ ، يعنى : منفعتكم لكم .

وفى قوله : ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ دلالة على أنهم كانوا يتخرجون بالتصدق على أقربائهم من الكفار خشية ما يقع من التعاون على ما اعتمدوا من الدين ؛ إذ المكاسب لكل أهل دين إنما تقع من العقلاء مكان ما ينفقون به لأجل الدين ؛ فبين جل وعلا : أن ذلك يقع لكم ولأنفسكم ، وتكفير ما ارتكبتم .

ثم فى الآية دلالة جواز الصدقة على الكفار ، ودليل جواز دفع الكفارات إليهم بقوله : ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ ؛ فهو دليل لأصحابنا ؛ لأنه جعل هذه الصدقة مكفرة .

وقوله تعالى : ﴿يُوفِّ إِلَيْكُمْ﴾ ، يعنى : يوفر عليكم ثواب صدقاتكم ، وإن كان التصدق على الكفرة .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَطْلُبُونَ﴾ ، فى حرمان الثواب والجزاء .

وقوله تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ .

قيل : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قيل : ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى : من سبيل الله ، يعنى : حبسوا بالفقر عن الجهاد ، وهو كقوله : ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون من حرج﴾ [التوبة : ٩١] . والعرب تستعمل حروف الخفض بعضها فى موضع بعض .

ويحتمل قوله تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ، أى : حبسوا أنفسهم فى طاعة الله ، لا يجدون ما يتجرون ، ولا ما يحترفون ، ولا ما يكتسبون .

وقوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ : للتجارة .

وقوله تعالى : ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ ، يحتمل وجهين :

يحتمل : لا يظهرون السؤال ، أى : لا يسألون ؛ كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةُ﴾

[البقرة : ١٢٣] ، أى : لا يشفع لهم .

ويحتمل : فإن كان على السؤال فإنهم إذا سألوا لم يلحفوا ، دليله قوله ﷺ : «من فتح على نفسه باباً من المسألة ، فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر»^(١) . ثم ذكر فى الخبر : «من

(١) طرف من حديث أبى كشيبة الأنمازي .

أخرجه أحمد (٢٣١/٤) ، والترمذى (٢٣٢٥) ، وابن ماجه (٤٢٢٨) .

استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفه الله^(١). وإن كان على التعريض، ففيه إباحة التعريض بين يدي أهل الجود والسخاء.

وقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ :

قيل^(٢): ﴿بِسِيمَتِهِمْ﴾ ، يعنى: سيما التشجع.

وقيل^(٣): ﴿بِسِيمَتِهِمْ﴾ : بسيما الفقر عليهم، و﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ يعنى: إلحاحا.

وقيل: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ ، أى: بتجملهم، ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ ، أى: إلحاحا، ولا غير إلحاح.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْأَنكَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ :

قيل^(٤): هى النفقة على الخيل المحبسة للجهاد، ينفقون ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانية، لا رياء فيها، ولا إضمار.

وعن على وأبى أمامة الباهلى^(٥) - رضى الله تعالى عنهما -: هى النفقة على الخيل فى سبيل الله.

وعن ابن عباس^(٦) - رضى الله تعالى عنه - أنه قال: هى فى علف الخيل والنفقة عليها.

وقيل^(٧): نزلت هذه الآية فى نفقة عبد الرحمن بن عوف^(٨) فى جيش العسرة.

(١) طرف من حديث أبى سعيد الخدرى.

أخرجه البخارى (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣/١٢٤)، وأحمد (٩٣/٣)، والترمذى (٢٠٢٤)، وأبو داود (١٦٤٤)، والنسائى (٩٥/٥).

(٢) قاله مجاهد، أخرجه ابن جرير عنه (٦٢٢٠، ٦٢٢١، ٦٢٢٢).

(٣) قاله السدى والربيع، أخرجه ابن جرير عنهما (٦٢٢٣، ٦٢٢٤).

(٤) قاله أبو الدرداء، أخرجه ابن جرير عنه (٦٢٣٠).

(٥) أخرجه ابن عساكر وابن المنذر وابن أبى حاتم والواحدى من طريقين عنه كما فى الدر المنثور (١/٦٤١) وهو: صُدِّى بن عجلان الباهلى، أبو أمامة، صحابى مشهور، له مائتا حديث وخمسون حديثاً. روى له البخارى خمسة أحاديث، ومسلم ثلاثة. وعنه شهر بن حوشب، وخالد بن معدان، وسالم بن الجعد، ومحمد بن زياد الألهانى، وقال: كان لا يمر بصغير ولا كبير إلا سلم عليه. قال أبو اليمان: مات سنة إحدى وثمانين بحمص.

ينظر: الخلاصة (١/٤٧٣، ٤٧٤) (٣١٢٨)، تهذيب الكمال (٢/٦٠٦)، الكاشف (٢/٢٨)،

تاريخ البخارى الكبير (٤/٣٢٦)، الجرح والتعديل (٤/٢٠٠٤) ..

(٦) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والواحدى كما فى الدر المنثور (١/٦٤١).

(٧) أخرجه ابن المنذر عن سعيد بن المسيب كما فى الدر المنثور (١/٦٤٢).

(٨) عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة الزهرى أبو محمد المدنى، شهد

وقيل^(١): نزلت في علي بن أبي طالب - رضى الله تعالى عنه - أنه لم يكن يملك من المال غير أربعة دراهم، وتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانية، فقال رسول الله ﷺ: «ما الذى حملك على هذا؟» قال: حملنى أن أستوجب على الله الذى وعدنى؛ فنزلت فيه هذه الآية.

وقيل: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى^(٢).

فلا ندرى فيمن نزلت، وليس لنا إلى معرفة المنزل [فى] شأنه حاجة سوى أنه وصفهم بالجدود والسخاء، ونفقتهم على الناس ليلاً ونهاراً سراً وعلانية، لا رياء فيها، ولا مَنٍّ، ولا أذى.

وفيه نفى الرياء عن نفقتهم؛ لأن من عود نفسه الفعل فى جميع الأوقات لم يراء. وقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ لأن نعيم الدنيا مشوب بالحزن والخوف، فأخبر عز وجل أن نعيم الآخرة لا يشوبه حزن ولا خوف؛ لذلك كان ما ذكر. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتَمَرْ فَلََكُمْ رءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ

= بدرا والمشاهد. وهو أحد العشرة، وهاجر الهجرتين. وأحد الستة وروى عنه بنوه إبراهيم وحמיד وأبو سلمة ومصعب وغيرهم. قال الزهري: تصدق على عهد النبى ﷺ بأربعة آلاف ثم بأربعين، ثم حمل على خمسمائة فرس، ثم على خمسمائة راحلة. وأوصى لنساء النبى ﷺ بحديقة قومت بأربعمائة ألف. قال خليفة مات سنة اثنتين وثلاثين، وقيل سنة ثلاث، ودفن بالبقيع. وزاد بعضهم وهو ابن خمس وسبعين سنة. ينظر الخلاصة (١٤٧/٢) (٤٢٠٩).

(١) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى وابن عساكر عن ابن عباس كما فى الدر المنثور (١/٦٤٢).

(٢) هو: ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى الخزرجى الخطيب من كبار الصحابة وصح فى مسلم أنه من أهل الجنة. انفرد له البخارى بحديث. وعنه ابنه إسماعيل ومحمد بن قيس وأنس. شهد أحدا وما بعدها، وقتل يوم اليمامة ونفذت وصيته بعد موته بتمام رآه خالد بن الوليد. له عند البخارى حديث واحد. ينظر الخلاصة (١/١٥٠) (٩٢٧).

فَنَظَرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

قال بعضهم: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ ، ليس على حقيقة الأكل، ولكنه كان على الأخذ، كقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦١] . فإذا كان هذا على الأخذ فقوله تعالى: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ هو على التمثيل، ليس على التحقيق .

وقال آخرون: هو على نفس الأكل، وما ذكر من العقوبة، لما أكلوا من الربا لا يقومون يوم القيامة إلا كما يقوم المجنون المنخق .

وقال غيرهم: ذلك لاستحلالهم الربا، وتخبيطهم الله عز وجل في الحكم في تحريمهم الربا بقولهم: ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ .

ثم قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ ، فيه دليل جواز القياس في العقل؛ لأنه لو لم يكن في العقل جوازه لم يكن لقولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ معنى . لكنهم لم يعرفوا معنى المماثلة .

ثم المماثلة على الوجهين: مماثلة أسباب، ومماثلة أحوال .

فالمماثلة التي هي مماثلة أحوال: هي ابتداء محنة في الفعل، لا يقاس على غيره، نحو أن يقال: اقعدي، أو أن يقال: قم، لا يقاس القيام على القعود، ولا القعود على القيام، إنما هو محنة لا يلزم غير المخاطب به .

وأما مماثلة الأسباب: فهي مماثلة الإيجاب^(١)، نحو أن يقال: حرم الله السكر في الخمر، فحيث ما وجد السكر يحرم؛ لأنه يجنى على العقل، فكل شيء يجنى عليه فهو محرم التناول منه .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ .

يقولون: لما جاز أن يباع ثوب يساوي عشرة بأحد عشر، كيف لا جاز أن يباع عشرة بأحد عشر؟

(١) في أ، ط: الأحوال .

وقيل: كان الرجل منهم إذا حل ما له على صاحبه طلبه، فيقول المطلوب للطالب: زدنى فى الأجل وأزيدك على ما لك. فيفضلان على ذلك ويعملان به. فإذا قيل لهما: هذا ربا، قالوا: هما سواء: الزيادة فى البيع، أو الزيادة عند محل البيع. فأكذبهم الله تعالى فى ذلك وقال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾، أى: ليس هكذا: البيع كالربا.

ويحتمل: فيه ابتداء حرمة أن حل ما هو بيع لا ما هو ربا.

ثم قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾:

فلقائل أن يقول: إنما يحرم منه قدر الربا، وأما العقد فإنه يجوز لما ليس فيه ربا. لكن الأصل عندنا فيه: أن الدرهم الزائد يأخذ كل درهم من العشرة قسماً منه وجزءاً من أجزاء كل درهم منه، فلا سبيل إلى إمضاء العقد لأخذ أجزائه كل درهم من الذى فيه العقد، وهو ربا.

وفيه وجه آخر: وهو أنه ختم الكلام على قوله: ﴿وَإِنْ تُبْتِئْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾، ولا يزداد رأس المال فى عقد قد مضى. ثم معرفة الربا من غير الربا ما ليس بإرادة بدل. ثم فيه دلالة أن حرمة الربا كان ظاهراً عندهم حتى حكوا، وكان حرمة فيما بينهم كهو فيما بين أهل الإسلام؛ لذلك قال أبو حنيفة - رضى الله تعالى عنه -: أن لا يجوز بيع الربا فيما بين أهل الإسلام وبين أهل الذمة. وعلى ذلك خرج الخطاب منه - عز وجل - بقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾:

قيل: ﴿مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، بيان تحريم الربا.

وقيل: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ﴾ نهى فى القرآن ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ فى تحريم الربا، ﴿فَانْتَهَى﴾ عن الربا.

ويحتمل: الموعظة، هى التذكير لما سبق منه، فيتذكر فيرجع عن صنيعه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾، قيل فيه بوجهين:

قيل: ﴿مَا سَلَفَ﴾ له فى الجاهلية صار مغفوراً له، وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ويحتمل قوله تعالى: ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وذلك أن الكافر إذا تاب ورجع عن صنيعه، يرجع لا أن يعود إلى فعله أبداً، ويندم على كل سيئة ارتكبها، فيجعل الله كل سيئة كانت منه حسنة، وهو كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، فى حادث الوقت أن يعصمه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .
 إن المعتزلة استدلوا على الوعيد لأهل الإسلام بما ذكر فيه من العود.
 لكن بدء الآية على الاستحلال، فعلى ذلك العود^(١) إليه على جهة الاستحلال، يدل
 عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ فأثبت له الكفر بالذى كان منه فى الابتداء،
 وهو الاستحلال؛ فكذاك العود إليه .
 وقوله تعالى: ﴿يَمَحُوقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ :
 قيل^(٢): ﴿يَمَحُوقُ اللَّهُ﴾ : يهلك .
 وقيل: ﴿يَمَحُوقُ﴾ : يبطل .

ولكن أصل «المحق» هو رفع البركة؛ وذلك أن الناس يقصدون بجمع الأموال والشح
 عليها، لينتفع أولادهم من بعدهم إشفافاً عليهم، وكذلك يمتنعون من التصدق على
 الناس . فأخبر الله تعالى: أن الأموال التى جمعت من جهة الربا ألا ينتفع أولادهم بها،
 وهو الأمر الظاهر فى الناس . وأخبر أن الصدقات التى لا يمتنعون من الإنفاق عنها يربى
 ويخلف أولادهم إذا تصدقوا، ويمحق الربا ويرفع البركة عنها؛ حتى لا ينتفع أولادهم
 بها . وهو ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل متبايعين بالخيار ما لم يتفرقا، فإن
 صدقا وبينا بورك لهما فيه، وإن كذبا وكتما محقت عنهما البركة»^(٣) .
 وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الآية ظاهرة .
 وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .
 قيل فيه بوجهين:

قيل: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ﴾ من عمركم ﴿الرِّبَا﴾ إذا صرتم مؤمنين .
 وقيل: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾، الذى تقبضون ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .
 وفى الآية دلالة على أن الربا الذى لم يقبض إذا ورد عليه حرمة القبض أفسدته .
 لذلك قال أصحابنا - رحمهم الله تعالى-: إن فوت القبض عن المبيع يوجب فساد
 العقد، كما كان فوت قبض الربا فى ذلك العقد أوجب منع قبض الربا . والذى يدل عليه
 قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾، فأوجب الفسخ فيه حتى أوجب رد

(١) فى ط: العدو.

(٢) قاله البغوى (١/٢٦٣).

(٣) أخرجه البخارى (٢٠٧٩، ٢٠٨٢)، ومسلم (٤٧/١٥٣٢).

رأس المال.

وفى الآية دليل وجه آخر: وهو أنه جعل حدوث الحرمة المانعة للقبض، يرتفع به العقد فى فساد العقد؛ فعلى ذلك يجعل حدوث شىء فى عقد معقود قبل القبض كالمعقود عليه فى استئجار حصته من الثمن.

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ تَبَتُّمُ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾، فيه دلالة: أن ماجرت بين أهل الإسلام وأهل الحرب من المداينات والمقارضات ثم أسلموا يرد، وما أخذوا قهراً لا يردون؛ وذلك أن الربا الذى قبضوا لثلا يرد لم يؤمر برده. فعلى ذلك ما أخذوا قهراً أخذوا لثلا يرد، لم يجب رده. وأما رأس المال فإنما أخذوا للرد؛ فعلى ذلك ما أخذ بعضهم من بعض ديناً أو قرضاً وجب رده. ففيه دليل لقول أصحابنا - رحمهم الله تعالى - على ما ذكرنا. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تَبَتُّمُ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

عن ابن عباس^(١) - رضى الله تعالى عنه - قال: فمن كان مقيماً على الربا مستحلاً له لا ينزع عنه، فحق على إمام المسلمين أن يستتيه: فإن تاب ونزع عنه، وإلا ضرب عنقه. وقوله تعالى: ﴿فَأَذَنُوا﴾، فيه لغتان: بالقطع، والوصل. فمن قرأ بالقطع، فهو على الأمر بالإعلام لمستحليه أنه يصير حرباً له بالاستحلال. ومن قرأ بالوصل، فهو على العلم، كأنه قال للمؤمنين: إنه حرب لنا. وقوله تعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾:

عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنه - قوله: ﴿وَإِنْ تَبَتُّمُ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾، أى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ فتربون، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾: فتتقصون. وفتادة - رضى الله تعالى عنه - يقول: بطل الربا وبقيت رءوس الأموال. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَنُظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

عن ابن عباس^(٢) - رضى الله تعالى عنه -: ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ قال: هو المطلوب، وهو فى الربا.

وفيه دلالة جواز التقلب فى البيع الفاسد؛ لأنه جعل لأرباب الأموال النظرة إلى ميسرة

(١) أخرجه ابن جرير (٦٢٧٢).

(٢) أخرجه ابن جرير (٦٢٨٤)، وابن أبى حاتم كما فى الدر المنثور (١/٦٥٠).

من عليه المال . فلو كان له حق أخذه حيثما وجده بعد ما تناسخت الأيدي ، أو كان له حق تضمين من هو أغنى لم يكن لإنظار المعسر إلى وقت الميسرة معنى . ولكن يحتاج إلى تضمين أيسرهم وأغناهم إذا كان يقدر ، فله خصومته ، وإذا كان شرط سقطت الخصومة ، كما تقول فى الذى يكفل عن معسر أو عمن أجل ، ثم النظرة بالاختيار ممن له الحق ، لا أنه يكون هكذا شاء هو أو أبى . دليله قوله ﷺ : «لصاحب الحق اليد واللسان»^(١) . أما اللسان فيتقاضاه ، وأما اليد فيلازمه بها ويحبسه . ولكنه إذا أجل قطع على نفسه حق اللسان واليد إلى أن يمضى ذلك الوقت ، [فإذا مضى ذلك الوقت]^(٢) ثبت له حق اللسان واليد . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ، يعنى براءوس الأموال إذا ظهر إعساره . وعن الضحاك^(٣) - رضى الله تعالى عنه - أنه قال فى قوله : ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ، قال : أخذ رأس المال حسن ، وتركه أحسن . وإنما الصدقة على المعسر ، فأما على الموسر فلا .

وفيه دليل جواز صدقة الدين وهبته ممن عليه دين ، وهو الأختير له إذا ظهر إعساره وفقره . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

قال عامة أهل التأويل : إن هذه الآية آخر ما نزلت على رسول الله ﷺ . وكذلك روى عن ابن عباس^(٤) ، رضى الله تعالى عنه .

فإن كان ما ذكروا فهو - والله أعلم - أنه عز وجل رغبتهم فى ذكر ذلك اليوم ؛ لما فى ترك ذكره بطول الأمل ، وطول الأمل يورث الحرص ، والحرص يورث البخل ويشغله عن إقامة العبادات والطاعات . فإذا كان كذلك فأحق ما يختم القرآن به هذا ؛ لئلا يتركوا ذكر ذلك اليوم فيسقطوا عن منزلته الثواب والجزاء . والله أعلم .

قال الشيخ - رحمه الله تعالى - : ويصير كأنه قال : اتقوا وعيده تعالى فى جميع ما يعدكم وما ألزمكم من الحق .

(١) أخرجه البخارى (٢٦٠٩) ، ومسلم (١٦٠١/١٢٠) ، عن أبى هريرة بلفظ : «إن لصاحب الحق مقالا ...» .

(٢) سقط فى ط .

(٣) أخرجه ابن جرير (٦٣٠١ ، ٦٣٠٢) .

(٤) أخرجه ابن جرير (٦٣٠٨ ، ٦٣٠٩ ، ٦٣١٢) .

قوله تعالى: ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعْمِلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَفَسَطَ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقَوْمٌ لِلشَّهَدَةِ وَأَذَقَ الْأَلَا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُكُمْ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴿٢٨٣﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِ مَقْبُوضَةً فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عَنِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝

وقوله تعالى: ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعْمِلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَفَسَطَ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقَوْمٌ لِلشَّهَدَةِ وَأَذَقَ الْأَلَا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُكُمْ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ ۝

فيه دليل جواز السلم من قوله: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ﴾؛ لأن المداينة هي فعل اثنين، وهو السلم نفسه؛ لأنه دين من الجانبين جميعاً، وعلى ذلك روى عن ابن عباس -رضى الله عنه- أنه قال: شهدوا أن المسلم المضمون مما أجازاه الله - تعالى - في كتاب الكريم، ثم تلا هذه الآية.

فأما الخبر الذي جاء به نهى عن الدين: فإن ذلك على فوت القبض فيه، دليله: جواز ما كان ديناً بدين إذا قبض أحد الجانبين.

وقال آخرون: قوله: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ﴾، هو بيع كل دين إلى أجل مسمى، فهو يسمى

التدائن، كما يسمى البائع والمشتري: المتبايعين؛ لأن كل واحد منهما بائع فى وجهه، ومشتري فى وجهه. فعلى ذلك المداينة والتدائن. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَجَلَ مُسَكَّمٍ﴾ :

فالعرف فى الإسلاف عند الناس: ألا يخلى عن الأجل، فصار الأجل بالعرف شرطاً فى جواز السلم وإن لم يؤجل؛ لأن الرجل لا يسلم السلف ليؤديه حالة الإسلاف؛ لأن الحاجة هى التى تحمله على الإسلاف فهو إنما يسلف ليؤديه فى وقت ثان؛ لأنه لو كان عنده حاضراً لا يحتاج إلى غيره، ولكنه يبيعه فيصل إلى حاجته، ولا يتحمل المؤنة العظيمة، فصار فى العرف كأنه بأجل، يفسد لترك بيان الأجل. والله أعلم. وعلى ذلك روى عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «من أسلف فليسلف فى كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم»^(١).

ثم أمر عز وجل بالكتابة فى التدائن بقوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾، وذلك - والله أعلم - لأنه وصل إلى حاجته بقبض رأس المال والآخر لم يصل؛ فلعل ذلك يحمله على إنكار الحق والجحود؛ فأمر عز وجل بالكتابة؛ احترازاً عن الإنكار وجحود الحق له؛ لأنه إذا تذكر أنه كتب وأشهد عليه يرتدع عن الإنكار والجحود؛ فهو كما ذكرنا فى قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنه إذا ذكر أنه يقتل ارتدع عن قتل غيره؛ فكذلك إذا ذكر أنه مكتوب عليه يمتنع من الإنكار والجحود؛ لما يخاف ظهور كذبه وفضيحه على الناس، والله أعلم.

ولا كذلك بيع العين بالعين؛ لأن كل واحد منهما لا يصل إلى حاجته إلا بما يصل به الآخر، فليس هنالك للإنكار معنى؛ لذلك لم يؤمر بالكتابة فى بيع الأعيان، وأمر فى المداينات. والله أعلم.

(١) أخرجه أحمد (٢٨٢/١)، والبخارى (٤٢٩/٤) كتاب: السلم، باب: السلم فى وزن معلوم، الحديث (٢٢٤٠)، (٢٢٤١)، ومسلم (١٢٢٦/٣ - ١٢٢٧) كتاب: المساقاة، باب: السلم، الحديث (١٦٠٤/١٢٧)، وأبو داود (٧٤١/٣ - ٧٤٢) كتاب: البيوع والتجارات، باب: فى السلف، الحديث (٣٤٦٣)، والترمذى (٦٠٢/٣ - ٦٠٣) كتاب: البيوع، باب: ما جاء فى السلف فى الطعام والتمر، الحديث (١٣١١)، والنسائى (٢٩٠/٧) كتاب: البيوع، باب: السلف فى الثمار، وابن ماجه (٧٦٥/٢) كتاب: التجارات، باب: السلف فى كيل معلوم، الحديث (٢٢٨٠)، وابن الجارود ص (٢٠٨ - ٢٠٩) باب فى السلم، الحديث (٦١٤)، (٦١٥)، والدارمى (٢٦٠/٢) كتاب: البيوع، باب: فى السلف، والدارقطنى (٣/٣) كتاب: البيوع، رقم (٣)، والحميدى (١/٢٣٧)، رقم (٥١٠)، الطبرانى فى الصغير (٢١٢/١)، والشافعى (١٦١/٢)، رقم (٥٥٧)، والبيهقى (١٨/٦) كتاب: البيوع، باب: جواز السلف المضمون بالصنعة، وفى (١٩/٦) باب السلف فى الشيء، والبغوى فى شرح السنة (٣٢٨/٤).

ويحتمل الأمر بالكتابة فى التداين وجهاً آخر: وهو أنه يجوز أن ينسى فينكر ذلك، أو ينسى بعضه ويذكر بعضاً؛ فأمر الله تعالى بالكتابة؛ لئلا يبطل حق الآخر بترك الكتابة. ولا كذلك بيع العين؛ لذلك افترقا. والله أعلم.

قال الشيخ - رحمه الله تعالى - : والنسيان يعقب التنازع، والمنازعة توجب التخالف، وفيه الفساد؛ فأمر بالكتابة لدفع ذلك، وللوفاء بالحق، ودفع الخصومات. والله أعلم. ولا يحتمل أن يفرض الكتابة، وأكثر ما فيه أن يحفظ الحق، ولمن له تركه كذلك ألا يقبضه مع ما ليست فى عقد أو فسخ فيكلم فيه بوجوب واختيار، إنما هى للحق، فله فعل ذلك. والله أعلم.

ثم اختلف فى الكتابة:

قال بعضهم: هى واجبة لازمة. واستدلوا على وجوبها بقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾، أخبر برفع الجناح فى التجارة الحاضرة، فلو كانت فى المدينة غير واجبة لم يكن لرفع الجناح فيها معنى؛ فدل أنها لازمة فى المدينة حيث رفع الجناح فى الحاضرة منها.

وأما عندنا: فهى ليست بواجبة؛ لأنه قال عز وجل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَئِ مَقْبُوضَةً﴾، ثم أمر، قال: ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فُلْيُؤْزِ أَلِذَى أُوتِئِنَ أَمَنَّتْهُ﴾، ذكر الرهن بدلاً عن الكتابة، ثم ذكر ترك الرهن بالائتمان. فإذا كان له ترك الرهن بالائتمان، وهو بدل الكتابة - فعلى ذلك له ترك الكتابة بالائتمان، إن كان أصله مفروضاً لم يحتمل ترك بدله بالائتمان. فإذا كان ذلك له دل أنه ليس بمفروض ولا لازم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾:

فهذا لأن الكاتب مأمون عليه فيؤدى حق ما أؤتمن فيه، لا يزيد على ما أملى عليه بالنصيحة وأداء الأمانة. وهكذا الواجب على كل محكم بين اثنين أن يحكم بالعدل والنصيحة وأداء الأمانة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا أَلِئْتِئْتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ أَتَائِئِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] وكقوله: ﴿يَعْتَمِدُ بَيْنَ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، وكقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ [الطلاق: ٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾، قال بعضهم: هذا وذلك أن الكتب كانوا فى صدر الاسلام قليلا، فنهوا عن ترك الكتابة؛ إذ فى ذلك بطلان حقوق الناس وذهابها. وأما اليوم فلا بأس بالإبقاء عليها، لم يجد من يكتب له بالأجر؛

فلا يبطل حقه .

وفيه وجه آخر: وهو أن قوله - تعالى - : ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ ، أى: لا يأب الكاتب إذا كتب أن يكتب بالعدل، أى: له ترك الكتابة، ولكنه إذا كتب لا يكتب إلا بالعدل . والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ ، هو نقض على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: يكتب وإن لم يعلمه الله تعالى . والله - عز وجل - أخبر أنه يكتب بتعليم الله إياه . ولو كان التعليم من الله تعالى إيتاء الأسباب لم يكن لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ [يس: ٧٠] معنى؛ لأنه قد أعطى أسبابه .

و العدل - ما ذكرنا-: ألا يزيد على الحق، ولا ينقص منه . وأصل العدل: هو وضع الشيء موضعه .

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾: ما عليه، ﴿وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبُّهُ وَلَا يَبْخَسَ﴾: ولا ينقص، ﴿مِنْهُ شَيْئًا﴾: [أى: لا يملى على الكاتب أقل من حقه ولا ينقص منه شيئاً]^(١) .

ففيه دلالة على أن القول قوله فى قدر الحق حيث أوعده فيما يملى على الكاتب ألا ينقص من حق الطالب شيئاً .

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ﴾ ، قال قائلون: هذا كله واحد: السفیه، والضعیف، والذى لا يستطيع^(٢) أن يمل .

وقال آخرون^(٣): بل هو مختلف، السفیه هو الصغير، فليملل وليه . والضعیف هو المريض الذى لا يقدر أن يُمل . والذى لا يستطيع أن يمل هو الجاهل الذى لا يعرف أن يمل .

ثم اختلف فى الولی :

قال بعضهم^(٤): الولی: هو صاحب الحق، يمل بالعدل بين يدي من عليه الحق؛ لئلا يزيد على ذلك شيئاً، فإن زاده أو نقصه أنكر عليه صاحبه .
وقال آخرون: الولی هو وصی الصغير، أو ذو النسب منه .

(١) سقط فى ط .

(٢) فى أ: لا يقدر .

(٣) قاله السدى، أخرجه ابن جرير عنه (٦٣٤٦)، وعن الضحاك (٦٣٤٧) .

(٤) قاله الربيع، أخرجه ابن جرير عنه (٦٣٤٨) .

ثم المسألة فى الحجر :

قال أبو حنيفة - رضى الله تعالى عنه - : الحجر لا يمنع عقوده .

وقال محمد بن الحسن : لا يجوز عقوده ، ولكن الولى هو الذى يتولى ذلك ؛ استدلالاً بظاهر قوله : ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُؤَدَّ هُوَ فَلْيُمَدِّلْ وَلِيُّهُ بِالْمَدْلِ ﴾ ، فإنما جعل الإملاء إلى الولى ، لا إليه . ولو كان يجوز إملأؤه لكان لا معنى لجعل ذلك إلى غيره ؛ دل أنه لا يجوز .

وأما أبو حنيفة - رضى الله تعالى عنه - فإنه ذهب إلى أنه يجوز بقوله تعالى : ﴿ إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ ﴾ ، أجاز تداينه ؛ فدل أن الحجر لا يمنع العقد عليه ولا تداينه ، ولأن السفيه لم يستفد الإذن من السلطان ؛ إنما استفاده من الله تعالى ، ولا يجوز حجر من لم يستفد الإذن منه . وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ :

لم يجعل الإشهاد شرطاً فى جواز البيع ، ولكنه معطوف على قوله : ﴿ فَأَكْتُمُوهُ ﴾ . أمر عز وجل بالإشهاد فى البيع والتداين ؛ للمعنى الذى ذكرنا : أن ترك الإشهاد والكتابة يحمله على الإنكار وجحود الحق ، فإذا كان هنالك شهود وكتاب يمتنع من الإنكار ؛ لخوف ظهور الكذب . ولم يصر شرطاً فى جواز التداين ؛ لأن الإشهاد إنما ذكر بعد المدايعة والمبايعة . وكذلك الكتابة فهو لما ذكرنا : أن الإنسان من طبعه النسيان والسهو ؛ فأمر بالاستشهاد والكتابة لئلا ينسى ، أو يحمله ترك الإشهاد والكتابة على الإنكار .

وأما الأمر بالإشهاد فى النكاح - فى عقد النكاح نفسه - دليله قوله - عليه السلام - : « لا نكاح إلا بشهود » ؛ لذلك صار شرطاً فى عقد النكاح ، ولم يصر شرطاً فى المبايعة . ووجه آخر : وهو أن الشهادة فى النكاح تدفع تهمة الزنى عنهما ، وقد يحوج إليه فى أول أحواله . والحاجة إلى الشهادة فى البيع إلى ما يتعقب فيه من توهم وقوع التنازع ؛ إذ له بذل ملكه للآخر من غير عقد بيع ، وليس لها بذل فرجها له من غير عقد النكاح ؛ لذلك صار الإشهاد شرطاً فى جواز النكاح ، ولم يكن شرطاً فى البيع . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ : فى الآية دلالة أن من قضى بالشاهد واليمين قضى بخلاف ظاهر الكتاب ، وهو أيضاً خلاف السنة ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَشْهِدُوا ﴾ ، ليس هو الإشهاد ، إنما هو الإحضار للشهادة ؛ إذ العجز لا يقع فى الإشهاد ، إنما يقع عند الاستحضار ، ولو كان يمينه غنية لم يأمر المرأتين هتك سترهما ؛ ولأن الآية ذكرت حق القضاء فى البياعات ^(١) الواقعة

والأحكام إلى سبيلها لزوم الفصل بالقضاء بين أربابها. فمن جعل فصل القضاء بالشاهد واليمين جعل على خلاف ما جعله من له نصب الشرائع والحجج، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

وأما مخالفة السنة - فقلوله ﷺ: البينة على المدعى، واليمين على المدعى عليه^(١). فإذا أتى بشاهد واحد لم يخرج الآخر من أن يكون مدعى عليه. فإذا كان كذلك، وقد جعل النبي ﷺ حجة المدعى عليه اليمين، ولم يجعل اليمين حجة للمدعى؛ فلذلك قلنا: إنه المخالف لظاهر الكتاب والسنة. ولأن الله تعالى جعل المرأتين في حال الضرورة، وهو حال عدم الرجل مقام ذلك الرجل، فلو كان يجوز القضاء بالشاهد واليمين، لم يحتج إلى أن يكلف النساء من الخروج إلى أبواب القضاء والسلطين لأداء الشهادة، وفي ذلك هتك الستر عليهن وكشف عورتهن، وتكلف القضاة فضل التفحص في حالهن ومعرفتهن؛ لذلك بطل القضاء بالشاهد واليمين. والله أعلم.

فإن قيل: روى عن رسول الله ﷺ، أنه قضى به^(٢).

(١) أخرجه الدارقطني (٢١٨/٤)، عن عبد الله بن عمرو وعمر بن الخطاب. وله شاهد عن عبد الله بن عباس.

أخرجه البخاري (٤٥٥٢)، ومسلم (١٧١١/١).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٣٧/٣) كتاب: الأقضية، باب: القضاء باليمين والشاهد، حديث (١٧١٢/٣)، وأبو داود (٣٢/٤) كتاب: الأقضية، باب: القضاء باليمين والشاهد، حديث (٣٦٠٨)، والنسائي في الكبرى (٤٩٠/٣) كتاب: القضاء، باب: الحكم باليمين مع الشاهد الواحد، حديث (٦٠١١)، وابن ماجه (٧٩٣/٢) كتاب: الأحكام، باب: القضاء بالشاهد واليمين، حديث (٢٣٧٠)، وأحمد (٢٤٨/١)، ٣١٥، ٣٢٣، والشافعي (١٧٨/٢) كتاب: الأقضية، رقم (٦٢٧، ٦٢٨)، وابن الجارود في المنتقى رقم (١٠٠٦)، وأبو يعلى (٣٩٠/٤) رقم (٢٥١١)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١٤٤/٤) كتاب: الأقضية، باب: القضاء باليمين مع الشاهد، والبيهقي (١٦٧/١٠) كتاب: الشهادات، باب: القضاء باليمين مع الشاهد، والبغوي في شرح السنة (٣٤٠/٥) كلهم من طريق قيس بن سعد عن عمرو بن دينار عن ابن عباس قال: «إن رسول الله ﷺ قضى باليمين على الشاهد».

وهذا الحديث قد طعن فيه الطحاوي فقال في «شرحه»: أما حديث ابن عباس فمكرر؛ لأن قيس ابن سعد لا نعلمه يحدث عن عمرو بن دينار بشيء فكيف يحتجون به في مثل هذا. اهـ.

وقد رد عليه البيهقي فقال في المعرفة (٤٠١/٧ - ٤٠٢): ورأيت أبا جعفر الطحاوي - رحمنا الله وإياه - أنكر واحتج بأنه لا يعلم قيساً يحدث عن عمرو بن دينار بشيء، والذي يقتضيه مذهب أهل الحفظ والفقهاء قبول الأخبار، ما كان قيس بن سعد ثقة، والراوى عنه ثقة ثم يروى عن شيخ يحتمله سنه، ولقيه، غير معروف بالتدليس كان ذلك مقبولا، وقيس بن سعد مكى، وعمرو بن دينار مكى وقد روى قيس عن من هو أكبر سناً وأقدم موتاً من عمرو: عطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبر، وروى عن عمرو من كان في قرن قيس وأقدم لقياً منه: أيوب بن أبي تميمة السختياني فإنه رأى أنس

= ابن مالك وروى عن سعيد بن جبير، ثم روى عن عمرو بن دينار، فمن أين إنكار رواية قيس عن عمرو؟!، غير أنه روى عنه ما يخالف مذهب هذا الشيخ، ولم يمكنه أن يطعن فيه بوجه آخر فزعم أنه منكر.

وقد روى جرير بن حازم وهو من الثقات عن قيس بن سعد عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن رجلاً وقصته ناقتة وهو محرم... فذكر الحديث، فقد علمنا قيساً روى عن عمرو ابن دينار غير حديث اليمين مع الشاهد فلا يضرنا جهل غيرنا. ثم تابع قيس بن سعد على روايته هذه عن عمر ومحمد بن مسلم الطائفي ١. هـ. قلت: والمتابعة التي أشار إليها البيهقي أخرجه أبو داود (٣٢/٤) كتاب: الأقضية، باب: القضاء باليمين والشاهد، حديث (٣٦٠٩)، والبيهقي (١٠/١٦٨) كتاب: الشهادات، باب: القضاء باليمين مع الشاهد، وفي المعرفة (٧/٤٠٢). وفي الباب عن أبي هريرة، وزيد بن ثابت، وجابر، وسعد بن عباد.

- حديث أبي هريرة:

أخرجه أبو داود (٣٤/٤) كتاب: الأقضية، باب: القضاء باليمين والشاهد، حديث (٣٦١٠)، والترمذي (٦٢٧/٣) كتاب: الأحكام، باب: اليمين مع الشاهد، حديث (١٣٤٣)، وابن ماجه (٢/٧٩٣) كتاب: الأحكام، باب: القضاء بالشاهد واليمين، حديث (٢٣٦٨)، والشافعي (٢/١٧٩) كتاب: الأقضية، باب (١) حديث (٣٨)، وابن الجارود في المتقى رقم (١٠٠٧)، وأبو يعلى (٣٦/١٢٢) رقم (٦٦٨٣)، والدارقطني (٢١٣/٤) كتاب الأقضية والأحكام، حديث (٣٣)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١٤٤/٤) كتاب: الأقضية، باب: القضاء باليمين مع الشاهد، والبيهقي (١٠/١٦٨ - ١٦٩) كتاب: الشهادات، باب: القضاء باليمين مع الشاهد، والبغوي في شرح السنة (٥/٣٤١) كلهم من طريق ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة «أن النبي ﷺ قضى باليمين مع الشاهد».

قال الترمذي: حسن غريب.

وقال أبو داود: وزادني الربيع بن سليمان المؤذن في هذا الحديث قال: أخبرني الشافعي عن عبد العزيز قال: فذكرت ذلك لسهيل فقال: أخبرني ربيعة - وهو عندي ثقة - أني حدثته إياه ولا أحفظه، قال عبد العزيز: وكان قد أصابت سهيلاً علة أذهبت بعض عقله ونسى حديثه؛ فكان سهيل بعد يحدثه عن ربيعة عن أبيه ١ هـ.

ومنه نعلم أن سهيل بن أبي صالح حدث به، ونسى، وهذا لا يضر في صحة الحديث، قال الحافظ في الفتح (٥/٢٨٢): ومنها حديث أبي هريرة «أن النبي ﷺ قضى باليمين مع الشاهد»، وهو عند أصحاب السنن، ورجاله مدنيون ثقات، ولا يضره أن سهيل بن أبي صالح نسيه بعد أن حدث به ربيعة؛ لأنه كان بعد ذلك يرويه عن ربيعة عن نفسه، وقصته بذلك مشهورة في سنن أبي داود وغيرها. ١ هـ.

وللحديث طريق آخر عن أبي هريرة:

أخرجه البيهقي (١٠/١٦٩) كتاب: الشهادات، باب: القضاء باليمين مع الشاهد، من طريق مغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ قضى باليمين مع الشاهد».

وأُسند البيهقي عن أحمد أنه قال: ليس في هذا الباب حديث أصح من هذا.

- حديث زيد بن ثابت:

= أخرجه الطبراني في الكبير (٥/١٥٠) رقم (٤٩٠٩)، والبيهقي (١٠/١٧٢) كلاهما من طريق

قيل: إنه لم يرو أنه فيم قضى فى الأموال أو فى غير الأموال فإن ثبت أنه فيم قضى لكننا نقضى به .

ثم قال الصحابة: رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، أنه قضى بالشاهد واليمين فى

= عثمان بن الحكم الجذامى حدثنى زهير بن محمد عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن زيد بن ثابت «أن النبى ﷺ قضى باليمين مع الشاهد» .

والحديث ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٠٥/٤)، وقال: وفيه عثمان بن الحكم الجذامى، قال أبو حاتم: ليس بالمتقن وبقيّة رجاله ثقات .

- حديث جابر:

أخرجه أحمد (٣/٣٠٥)، والترمذى (٣/٦٢٨) كتاب: الأحكام، باب: اليمين مع الشاهد، حديث (١٣٤٤)، وابن ماجه (٢/٧٩٣) كتاب: الأحكام، باب: القضاء بالشاهد واليمين، حديث (٢٣٦٩)، والطحاوى فى شرح معانى الآثار (٤/١٤٤ - ١٤٥)، والدارقطنى (٤/٢١٢) كتاب: الأقضية والأحكام، حديث (٢٩)، وابن الجارود فى المنتقى (١٠٠٨)، والبيهقى (١٠/١٧٠) كتاب: الشهادات، باب: القضاء باليمين مع الشاهد، من طريق عبد الوهاب الثقفى: ثنا جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر «أن رسول الله ﷺ قضى باليمين مع الشاهد»، وقد خولف عبد الوهاب الثقفى فى هذا الحديث، فخالفه الإمام مالك فرواه عن جعفر بن محمد عن أبيه مرسلًا أخرجه مالك (٢/٧٢١) كتاب: الأقضية، باب: القضاء باليمين مع الشاهد، حديث (٥)، والطحاوى فى شرح معانى الآثار (٤/١٤٥) عن جعفر بن محمد عن أبيه مرسلًا، وقد توبع مالك على ذلك، تابعه سفيان الثورى، أخرجه الطحاوى (٤/١٤٥)، وتابعه إسماعيل بن جعفر .

أخرجه الترمذى (٣/٦٢٨) كتاب: الأحكام، باب: اليمين مع الشاهد، حديث (١٣٤٥) .

وقال: وهذا أصح - يعنى مرسلًا - ا. هـ .

لكن عبد الوهاب لم ينفرد بوصل الحديث كما قال البيهقى، وقد روى عن حميد بن الأسود، وعبد الله العمري، وهشام بن سعد وغيرهم عن جعفر بن محمد كذلك موصولًا. ا. هـ .
وللدارقطنى كلام ذكره فى علله فى ترجيح الموصول، قال الزيلعى فى نصب الراية (٤/١٠٠):
وقد أطال الدارقطنى الكلام على هذا الحديث فى كتاب العلل، قال: وكان جعفر بن محمد ربما أرسل هذا الحديث وربما وصله عن جابر؛ لأن جماعة من الثقات حفظوه عن أبيه عن جابر والقول قولهم؛ لأنهم زادوا وهم ثقات، وزيادة الثقة مقبولة ا. هـ .

- حديث سعد بن عباد:

أخرجه الترمذى (٣/٦٢٧) كتاب: الأحكام، باب: ما جاء فى اليمين مع الشاهد، حديث (١٣٤٣)، والدارقطنى (٤/٢١٤) كتاب: الأقضية والأحكام، حديث (٣٧)، والبيهقى (١٠/١٧١) كتاب: الشهادات، باب: القضاء باليمين مع الشاهد، من طريق ربيعة بن أبى عبد الرحمن قال: وأخبرنى ابن سعد بن عباد قال: «وجدنا فى كتاب سعد أن النبى ﷺ قضى باليمين مع الشاهد» .

وله طريق آخر:

أخرجه الطبرانى فى الكبير (٦/١٦) رقم (٥٣٦١)، والبيهقى (١٠/١٧١) كتاب: الشهادات، باب: القضاء باليمين مع الشاهد، من طريق سعيد بن عمرو بن شرحبيل بن سعيد بن سعد بن عباد عن أبيه عن جده «أن النبى ﷺ قضى باليمين مع الشاهد» .

الأمان.

ونحن نقضى بعض أحكام الأمان بالشاهد الواحد إذا كان عدلاً. واليمين باب ما يحتاط فيه إذا شهد شاهد أنه آمنه لم يقبل، ولكن يسترق. وأما الأموال فإن الاحتياط فى ذلك ترك القضاء إلى أن تقوم الحجة التى تزيل الشبهة من جميع الوجوه. وبالله التوفيق. وأما شهادة النساء: فإنها جائزة فى الأموال وفى غير الأموال إلا فى الحدود خاصة، فإنها غير مقبولة. أما جوازها فى غير الحدود؛ لأن الله تعالى ذكر التداين، وذكر فى التداين الأجل، والأجل ليس بمال. ثم أجاز شهادتهن فى التداين وفى الأجل الذى ليس هو بمال؛ دل ذلك أن علة جواز شهادتهن ليس هو المالية نفسها، وأجيزت شهادتهن فيما لا مالية فيه وهو الأجل؛ فظهرت أن علتها ليست مالية.

وأما بطلان شهادتهن فى الحدود؛ فلأن شهادتهن إنما أجيزت بحكم البدل عن شهادة الرجال، والأبدال فى الحدود غير مقبولة نحو الوكالات والكفالات؛ فعلى ذلك شهادتهن لما كانت جوازها بحكم البدل لم تقبل، ولأنهن جعلن على السهو والغفلة ونقصان العقل والدين؛ لقوله ﷺ: «إنهن ناقصات عقل ودين»^(١). فإذا كان كذلك أورث ذلك شبهة فى الحدود، والحدود مما يبتغى فيها الدرة؛ لذلك لم تقبل. والله أعلم.

ولأن شهادتهن إنما ذكرت فيما يبتغى^(٢) به الإعلام والإعلان، لا الإسرار. فعلى ذلك تقبل شهادتهن فيما يبتغى ذلك المعنى. وأما الحدود وما يلزم بها ذلك إنما يبتغى^(٣) فى ذلك الإسرار والستر؛ لذلك قلنا بأن شهادتهن تجوز فى النكاح والطلاق والعتاق؛ لأن النكاح يبتغى فيه الإعلان على ما جاء: «أعلنوا النكاح»؛ لذلك قبلت. والله أعلم.

ومعنى آخر: أن الخصم أجاز شهادة النساء بالانفراد فى كل شىء ما خلا الحدود والقصاص؛ لذلك قبل بالرجال. ولأن شهادة النساء أجيزت فى الأصل توسيعاً، فلا يجوز أن ترد فيما يتوسع، وتقبل فيما يضيق، وأمر النكاح والطلاق فى الشهادة أوسع، فهو أحق أن يقبل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ فإن قال قائل: كيف جاز استشهد المرأتين عند وجود الرجلين؟ والله أمر باستحضار الرجلين عند الحاكم للشهادة، لا أمر بالإشهاد عليها؛ لذلك قال عز وجل: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا

(١) تقدم.

(٢) فى أ: يبتغى.

(٣) فى أ: يبتغى.

رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَأَمْرَأَتَانِ .

أى: لا تكلف النساء حضور أبواب القضاة ومجلسهم لأداء الشهادة إلا عند العجز عن وجود الرجل؛ لما فى ذلك هتك أستارهن، وكشف عورتهم. والله أعلم.

والثانى: أن الله تعالى ذكر امرأتين وأقامهما مقام رجل فائت، والرجل الذى قامت امرأتان مقامه هو فائت أبدا غير موجود، إذ له أن يشهد عددا على ذلك الحق؛ لذلك جازت شهادتهن وإن كان هناك رجلان. والله أعلم.

فإن قيل: ما الحكمة فى ذكر رجلين دون ذكر العدد، أو ذكر واحد؟
قيل: لوجوه:

أحدها: ذكر على قدر الأشياء ومراتبها عند الناس، إذا كان أمرا عظيما فظيما لا تقبل فيه إلا شهادة عدد، نحو الزنى، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَالْجِدْوُهُنَّ ثُمَّ نَجْنَيْنَ جِلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا﴾ [النور: ٤]. وإذا كان خسيسا سهلا عند الناس قبل قول الفرد حرًا كان أو عبدا، من نحو الاستئذان للدخول على آخر ونحوه. ثم الأموال وغيرها هى المتوسطة المترددة بين هذين، فقبل الوسط من الشهادة، ولم يقبل دونها. والله أعلم.

ووجه آخر: قيل: إنه ذكر ذلك عبادة، لا لمعنى المودع فيه، ولكن سمعا، فهو على ما ذكر، لا يطلب معناه.

والثالث: أن الواحد لم تقبل شهادته فى الحقوق بالانفراد؛ لأنه ينتفع بها. لأن من صدق فى قوله يتلذذ بتصديقهم إياه. فعلى ذلك لم يقبل قول المدعى فى دعواه وإن كان عدلا، لما ينتفع بالتصديق وقبول قوله فيه. فإذا كانا اثنين صار تلذذ كل واحد منهما وانتفاعه لصاحبه؛ فحصلت الشهادة خالصة صافية؛ فقبلت. والله أعلم.

والرابع: أن الإنسان مطبوع على السهو والغفلة، فإذا كان فردا يخاف عليه النسيان؛ أمر بضم آخر إليه ليذكر كل واحد منهما صاحبه إذا نسيه. وعلى ذلك يخرج قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَأَمْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾، لما ذكر أنهن جبلن وطبعن على فضل السهو والغفلة، أمر بضم غيرها إليها إذا سهت وغفلت عنها.

ثم اختلف فى قوله: ﴿شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾:

قال أصحابنا - رحمهم الله تعالى - يرجع الخطاب إلى الأحرار خاصة دون العبيد والكفرة. أما الكفرة؛ فلأن الخطاب فى الابتداء للمؤمنين بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الذِّبْكُ ءَمَوًا إِذَا

تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ... ﴿الآية﴾؛ فخرج الكفار من خطاب الآية؛ لذلك لم تقبل شهادتهم على أهل الإسلام.

وأما العبيد فلم يدخلوا تحت هذا الخطاب لوجوه:

أحدها: ما ذكرنا: أن ظاهر الخطاب للأحرار دون العبيد، لما لا يملكون هم التداين والتبايع؛ فعلى ذلك خطاب الشهادة.

فإن قيل: أليس العبيد يملكون التبايع والتداين؟ قيل: يملكون بالإذن والتولية لا بملك أنفسهم فذلك القدر من التداين وغيره، يملك الكفار، ثم لم يجب قبول شهادتهم، ولا دخلوا تحت ذلك الخطاب؛ فكذلك العبيد.

والثاني: ما قاله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْبَى الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾، ثم لا يملك العبيد الإجابة لكل ما دعوا لحق السادات؛ فعلى ذلك ليس عليهم الإجابة فى الشهادة لحق السادات. والله أعلم.

والثالث: أن الله تعالى قسم الشهادة قسمة الميراث بقوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾، وقال فى الميراث: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ مِثْلِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، ثم لا حظ للعبيد فى الميراث؛ فعلى ذلك لا حظ لهم فى الشهادة.

والرابع: أن الشهادات تجرى مجرى الولايات والتمليكات، ثم لا ولاية تكون للعبيد على غيره ولا تملك؛ فعلى ذلك الشهادة، إذ فيها ولاية وتمليك الحاكم الحكم. والله أعلم. وعلى هذا بطلت شهادة الكفار على أهل الإسلام لما لا ولاية لهم عليهم.

والخامس: أن الشهود بين حالين: بين أن يصدقوا فتمضى شهادتهم، وبين أن يكذبوا فيضمنوا. ولما كان العبيد إذا كذبوا فى شهادتهم لم يضمنوا؛ لأن ضمان الشهادة ضمان معروف؛ لأنه لا بدل له بإزاء من لم يكن من أهل الشهادة؛ دل أنهم ليسوا من أهل الشهادة.

وعلى ذلك قلنا: إن النكاح يجوز بشهادة الفاسق والمحدود فى القذف، وأنهما من أهل الشهادة فيه؛ لأنهما من أهل الضمان، وإن كانت شهادتهما ردت لتهمة الكذب فى سائر الحقوق. وأما العبد: فليس هو من أهل الشهادة بحال، للمعنى الذى وصفنا. والله أعلم.

وإلا القياس يقتضى أن تجوز شهادة العبيد؛ لأنها من حق الله، ودليله قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوْمِيكَ لِلَّهِ شُهَدَاءُ يَأْلَقِسُ﴾ [المائدة: ٨]. فإذا كانت من حق الله تعالى، وحقوق الله تعالى لا يختلف

العبيد والأحرار فيها، فيجب أن تقبل شهادتهم، لكنها لم تقبل للوجوه التي ذكرناها. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ ، إلى أن قال: ﴿فَتَذَكَّرَ إِحْدَهُمَا الْأُخْرَى﴾ :

قد ذكرنا فيما تقدم أنهم لما جبلن وطبعن على فضل سهو وغفلة، ضمت إليها أخرى لتذكرها الشهادة إذا نسيت.

وفى الآية دلالة أن الرجل إذا نسى الشهادة، ثم ذكر فتذكر، يجوز أن يشهد. وأما إذا أخبر بالشهادة ولم يتذكر، لم يجز له أن يشهد؛ لقوله: ﴿فَتَذَكَّرَ إِحْدَهُمَا الْأُخْرَى﴾ ، إذ لم يقل: «فتخبر إحداهما الأخرى».

وقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ رَّضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ :

فيه دلالة أن من المسلمين من لا يكون مرضيًا، وكذلك فيهم من يكون عدلا ومن لا يكون عدلا، دليله قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، لأنه لو لم يكن فيهم مرضيا وغير مرضى لكان يقول: «وأشهدوا رجلين منكم»، ولم يشترط فيه العدالة والرضا.

وهو على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: المسلم لا يكون غير عدل ولا غير مرضى. وفى الآية التي ذكرنا دلالة ما قلنا. والله أعلم.

وفى قوله: ﴿مِمَّنْ رَّضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ ، دلالة أن الشهود إذا شهدوا على المدعى عليه بالحق، وهم مرضيون عنده، يجب أن يؤدي إليه حقه؛ لأننا قلنا: إن قوله: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ ، أمر باستحضارهم عند الحاكم، فإذا كان كذلك فهو دليل ما قلنا. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ :

اختلف فيه :

قيل: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ للإشهاد.

وقيل^(١): لا يأبوا إذا ما دعوا للأداء. وهذا أشبه؛ لأن للشهود أن يقولوا: أحضر الخصم هاهنا لتشهدنا عليه، فإننا لا نحضر المكان الذى هو فيه. وليس هذا القول فى الأداء، إذ الأداء لا يكون إلا عند الحاكم؛ لذلك كان أولى، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا

(١) قاله قتادة، أخرجه ابن جرير عنه (٦٣٦٦).

الشَّهَدَةُ ﴿١﴾ ، ولا يجد من يشهدهم ، ولا يجد من يشهد له غيرهم . والله أعلم .
 وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ :
 فيه دلالة جواز السلم فى الثياب ؛ لأن ما يكال ويوزن لا يقال فيه : «الصغير والكبير» ،
 ولا يكتب : «صغيرة وكبيرة» ، إنما يقال ذلك فى العددي .
 وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ، يقول : أعدل عند الله ، ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ﴾ ،
 فى الحجة .

وقوله تعالى : ﴿وَأَذِّنْ لِلْعَذَابِ﴾ :
 أقرب إلى دفع الظنون والشكوك التى تحملكم على التناكر والتنازع الذى عاقبته
 الفسخ ؛ ولهذا ما أمر عز وجل بالكتابة فيه والإشهاد ، وذكر كل صغير وكبير ، لثلا يقع
 بينهم فى العاقبة تنازع وتناكر ، فيحمل ذلك الحاكم على فسخ العقد بينهما . وعلى ذلك
 نصبوا الأجل فيه شرطا لقطع وقوع التنازع والتناكر الذى حكمه الفسخ فى العاقبة^(١) . والله
 أعلم .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ . . . الآية :
 استثنى عز وجل التجارة الحاضرة بترك الكتابة والإشهاد والرهن وغيره ، وذلك لما
 ذكرنا آنفا أن الديون والقروض تنسى وتشتبه على الناس ؛ فلذلك أمر بالكتابة فيها ،
 والإشهاد ، ولا كذلك التجارات الحاضرات ، وعلى ذلك أمر ظاهر بين الناس أنهم يكتبون
 ويشهدون فى الديون والقروض ، ولم يعلموا ذلك فى التجارات الحاضرات الجاريات
 فيما بينهم ، لارتفاع ما يخاف وقوعه فى الديون والقروض وخلاتها عن ذلك . والله أعلم .
 وقوله : ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ :
 يقول : يذأ بيد وليس فيها إيجاب القبض على المجلس .
 وقوله ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ :

أمر عز وجل بالإشهاد [فى التجارة الحاضرة ، ولم يأمر بالكتابة ، وأمر فى التداين
 بالكتابة والإشهاد]^(٢) جميعا ؛ فالأمر بالكتابة لمحافظة الحقوق ومعاودة كل قليل وكثير
 فيه ، وأما الأمر بالإشهاد للأدب ، والأمر بالرهن أمر بالوفاء ، والرهن والكتابة والإشهاد
 كل ذلك يمنع صاحبه عن الإنكار والجحود ، ويذكر عند النسيان والسهو . ذلك كله لقطع
 التنازع الواقع فيما بينهما فى المتعقب . والله أعلم .

(١) فى ب : الآخرة .

(٢) ما بين المعقوفين سقط فى أ ، ط .

وقوله: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ اختلف فيه:

قال بعضهم: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ لا يشغل الكاتب ولا الشهيد، فيقول له: اكتب لى كذا، واشهد لى على كذا، وهو يجد غيره.

وقال آخرون^(١): ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾، أى لا يضار كاتب صاحب الحق، فيكتب ما لا ينبغي أن يكتب بالزيادة والنقصان، وكذلك الشاهد لا يزيد على الحق ولا ينقص من الحق شيئاً، ولا يكتم الشهادة أيضاً. فهذا أقرب. والله أعلم.

فإن قيل: إذا كان المعنى راجعاً إلى ما ذكرت ألا يزيد الكاتب ولا ينقص ألا قال: لا يضار بالرفع؟

قيل: إنه لا يضاره فطرح إحداهما فإذا طرحت انتصبت علامة للطرح إذ هكذا عمل الإضمار.

وعن ابن عباس - رضى الله عنه - أنه قال: «الإضرار أن يقول الرجل للرجل وهو عنه غنى: إن الله أمرك ألا تأبى إذا ما دعيت فتضاره بذلك».

وقوله: ﴿وَأَن تَفْعَلُوا﴾ أى: تضاروا فإنه فسوق بكم؛ هذا يدل على أن التأويل هو ما ذكرنا من النهى عن الزيادة والنقصان والتحريف والكتمان؛ إذ فى ذلك خروج عن الأمر. والفسق هو الخروج عن الأمر كقوله ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] وهو على المعتزلة؛ كقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى المضارة من الزيادة والنقصان والكتمان ﴿وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾ الحكم والأدب وما يحل وما لا يحل ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ حرف وعيد. وقوله تعالى: ﴿وَأَن كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنِ أَتَيْنَ بِبَعْضِ الْفَالِوَةِ الَّتِي آتَيْنَ آمْنَتَهُ وَلَيَقَّيَّ اللَّهُ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ أِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

قد ذكرنا فيما تقدم فى الأمر بالكتابة والإشهاد: أنهما - والله أعلم - لحفظ الحقوق، ما جل منها وما دق، وألا يحملهم على الإنكار والجحد، وأن يذكرهم ذلك حتى لا ينسوا، فعلى ذلك الأمر بالرهان لئلا يؤخر قضاء الدين ويذكرون ولا ينسون، والله أعلم. ثم فيه دلالة ألا يجوز الرهن إلا مقبوضاً؛ لأن الرهن يقبض لأمرين:

أحدهما: لأنه إذا كان مقبوضاً محبوساً عن صاحبه عن جميع أنواع منافعه ذكره وتقاضاه لقضاء دينه، وإذا كان فى يديه لم يتقاضاه على ذلك؛ لذلك قلنا: إنه لا يجوز إلا

(١) قاله قتادة بنحوه، أخرجه ابن جرير عنه (٦٤٠٧).

مقبوضًا.

والثاني: أنه إنما يقبض ليستوفى منه الدين، ولا يستوفى إلا بعد القبض، أو يأخذ ليأخذ الدين منه من غير بخس فيه ولا منع عنه.

ووجه آخر - فيما لا يجوز الرهن إلا مقبوضًا - لأنه جعل وثيقة، فلا جائز أن يكون وثيقة وهو في يدى الراهن غير محبوس ولا ممنوع عن منافع؛ فدل ما ذكرنا من طلب الناس بعضهم من بعض الرهون، أنهم طلبوا وثيقة. فإذا كان وثيقة فهو إنما يكون وثيقة إذا كان في يدى المرتهن محبوسًا عن صاحبه. ألا ترى أن الكاتب أمر بأداء الأمانة إذا أمن بعضهم بعضا بغير رهن، فلو كان الرهن يكون رهنًا في يدى الراهن لذكر فيه أداء الأمانة فى الرهن، ولم يكن لذكر القبض وجه؛ لذلك قلنا: إن الرهن لا يجوز إلا أن يكون مقبوضًا محبوسًا عن منافع صاحبه.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْتَتَهُ﴾ فيه دلالة ضمان الرهن دلالة استيفاء الدين من الرهن؛ لأنه إنما ذكر الأداء فيما أمن بعضهم بعضًا بلا رهن، ولم يذكر الأداء فيما فيه الرهن، فلو لا أن جعل فى الرهن استيفاء الحق والدين وإلا لذكر الأداء فيه كما ذكر فى الرهن فدل أنه مضمون به إذا هلك، هلك به. والله أعلم.

وأيضًا قوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْتَتَهُ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فيه دليل لقولهم فى الشركات: إنه يكتب اشتراكا على تقوى الله وأداء الأمانة [؛ لأن كل واحد منهما أمين فى ذلك، لذلك ذكر فيه تقوى الله وأداء الأمانة]^(١) كما ذكر - عز وجل - تقوى الله وأداء الأمانة فيما أؤتمن.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا الشَّاهِدَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ ذكر إثم القلب، والإثم موضعه القلب لكنه يشيع فى الجوارح ويظهر على ما روى: «إن فى النفس مضغة إذا صلحت صلح البدن، وإذا فسدت فسد البدن».

قال الشيخ - رحمه الله -: وفيه دلالة أن المأثم تعمد القلوب بأى شىء كان؛ فلذلك وصف القلب بأنه آثم؛ وهو كقوله: ﴿يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، وكذا قوله ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨٤) ؕ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ

(١) ما بين المعقوفين سقط فى ط.

إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ .

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ .

هو ظاهر، إذ ما في السموات والأرض كلهم عبيده وإماؤه، ردًا على قولهم: ﴿عُزِّرَ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، و﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، و«الملائكة بنات الله». وقد ذكرنا الوجه فيما تقدم في غير موضع.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ . ومن الناس من استدل على نسخها بقوله: ﴿فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ﴾ ، لكنه لا يحتمل؛ لأن الآية وعد وخبر بالمحاسبة، والوعد لا يحتمل النسخ؛ لأنه خلف وبداء، وذلك ممن يجهل بالعواقب، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً. ثم اختلف فيه:

قال الحسن: هو على ما عزم لا على ما خطر بالنفس. وكذا قوله: «من هم». ويحتمل: أن يكون على التقديم والتأخير: إن تخفوا ما في أنفسكم أو تبدوه يحاسبكم به الله.

ويحتمل أيضاً: إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه وعزمت عليه وعقدتم، لا على الخطر فيه أو حديث النفس، على ما روى: «من هم بحسنة فله كذا، ومن هم بسيئة فكذا»، ليس على ما يخطر فيه أو حديث النفس، على ما روى، وتحدث النفس به، ولكن على العزم عليه والاعتقاد. وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]، همت هي به هم عزم، وهو هم بها هم خطر. والمرء غير مؤاخذ بما يخطر في القلب وتحدث النفس به، إنما يؤاخذ على ما عزم واعتقد عليه. والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

فيه دليل ما قلنا: إنه على العزم والاعتقاد عليه؛ لما ذكرنا من العفو والعقوبة عليه. وقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ .

قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ ، يحتمل وجهين:

يحتمل: آمن بنفس المنزل ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ ، أنه من عند الله وكذلك ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أيضًا آمنوا بما أنزل إليه أنه من عند الله تعالى .

ويحتمل: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ ، أى: آمن الرسول بما فى المنزل إليه، وكان فيه ما ذكر: ﴿ءَامَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَكُتِبَ لَهُ وَرُسُلِهِ﴾ ، إلى قوله: ﴿وَالْإِنِّكَ الْمَصِيرُ﴾ ، وكذلك «المؤمنون» آمنوا بجميع ما فى المنزل، وهو ما ذكرنا .
وفيه دليل أن الإيمان بالمنزل على رسول الله ﷺ إيمان بجميع الرسل والكتب كلها والملائكة والبعث والجنة والنار .

وفيه دلالة نقض قول من يشك فى إيمانه ويستثنى ؛ لأنه عز وجل شهد لهم بالإيمان، فلا يخلو الاستثناء: إما أن يكون لشكهم فى إتيان^(١) ما أمروا، أو فى الذى أخبر الله عنه بما كان، ففيه الويل لهم .

وفيه دلالة نقض قول المعتزلة ؛ لأنه شهد لهم بالإيمان، وهم نفوا عنهم الاسم^(٢) الذى شهد الله لهم بالإيمان به، وبالذى ذكر، وكل صاحب كبيرة مؤمن بجميع ما ذكر، وقد سماهم الله به مؤمنين، وشهد لهم به . والله الموفق .

فإن قيل: فقد ذكر الطاعة فى آخرها .

قيل: ذكر الطاعة فى الإجابة، وبذلك الإجابة شهد لهم؛ فيلزمهم ما شهد الله لهم جل وعلا بما أجابوا . والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾

ويحتمل: أن يكون هنا خبرا أخبر الله عز وجل عن المؤمنين أنهم قالوا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ كما فرق اليهود والنصارى .

وقوله تعالى: ﴿... وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ .

يحتمل: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ودعاءك، و ﴿وَأَطَعْنَا﴾ ، أى: أطعناك فى الإجابة .

ويحتمل: ﴿سَمِعْنَا﴾ القرآن، و ﴿وَأَطَعْنَا﴾ ، أى: أطعنا ما فيه . والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿... غُفْرَانِكَ رَبَّنَا﴾ .

أى: اغفر لنا ربنا

﴿وَالْإِنِّكَ الْمَصِيرُ﴾

أى: المرجع .

(١) فى أ: إتياء .

(٢) فى ب: لأيهم .

وهذه الآية جمع جميع شرائط الإيمان؛ لذلك قلنا: إن الإيمان بالقرآن إيمان بجميع الكتب والأنبياء والبعث وغيره. وبالله العصمة والنجاة.
وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١)
اختلف فيه:

قال الحسن: قوله تعالى: ﴿لَا وُسْعَهَا﴾، إلا ما يحل ويسع، لكن بعض الناس يقولون: هذا بعيد، لا يحتمل الآية، إذا كلف حل ووسع. فإذا كان كذلك لم يكن لقوله معنى.

قيل له: هو كقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبُ﴾، إذا أحل طيب وإذا طيب أحل. فكذا الأول. وكذا ذكرنا^(٢) الأمرين جميعاً.

وتأويل ثان ﴿لَا وُسْعَهَا﴾: إلا طاقتها وكذلك قول المعتزلة: [غير أنا اختلفنا في تقدم استطاعة الأفعال فمنعنا نحن تقدمها وقلنا لا تكون إلا مع الفعل، وقالت المعتزلة]^(٣) بتقدم الفعل، وأما عندنا: فإنها على وجهين:
استطاعة الأحوال والأسباب، واستطاعة الأفعال.

أما استطاعة الأحوال والأسباب: فإنها يتقدمها، وعلى ذلك يقع الخطاب، دليله: قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. قيل: يا رسول الله ما الاستطاعة؟ قال: «الزاد والراحلة». ثم كل يجمع أن من كان بأقصى بلاد المسلمين قد يلزمه فرض الحج، على علم كل منهم أن تلك الاستطاعة لو صرفت إلى استطاعة الأفعال لم يبق إلى وقت وجود الأفعال، ثم قد لزمه ذلك؛ فبان أن الكلفة إنما تقع على استطاعة الأحوال والأسباب، وكذلك الكلفة في جميع الطاعات.

فإن قيل: قد يقع هذا على الخروج، فيوجد الفعل عقيب قوة الخروج، قيل: لو كان كذا لكان لا يلزم فرض الحج إلا بالخروج، وله ترك الخروج، إذ باكتساب الخروج يلزمه فرض الحج، فلا يلزم عليه فرض الحج؛ فثبت أنه لا يحتمله، بل هو على ما قاله أصحابنا - رحمهم الله - : إنها استطاعة الأحوال [والأسباب]^(٣)، وتلك تتقدم، لما ذكرنا. والله أعلم.

وأما استطاعة الأفعال: فإنها تحدث بحدوث الأفعال وتتلو كالأوقات التي لا تبقى في

(١) في أ، ب: وقد ذكر.

(٢) ما بين المعقوفين سقط في أ، ط.

(٣) سقط في ب.

وقت ثان، فهي كالوقت الذى لا يبقى فى وقت ثان. والله أعلم.

فإن سئلنا عن التكليف: أ يكون فيما لا يطاق؟

فجوابنا: أنه فيما منعنا عنه فلا. وفيما لم نمنع، وصنيعنا يشغلنا بغيره، فبلى. ثم الكافر بما أعطى من القوة والاستطاعة، شغل نفسه بغير وضيع ما أعطى من القوة. فإذا ضيع لم يكن تكليف ما لا يطيق ثم ننظر أينما أحق بالقول بتكليف ما لا يطاق.

فمن قول المعتزلة: إن القوة على الفعل ليوjده فى الوقت الثانى. ثم فى الوقت الثانى جعلوه غير قادر عليه بقدرة توجد، ثم جعلوه أيضاً غير قادر على الترك للفعل. والمتعارف من الأمر فى الظاهر بشىء يفعله فى وقت ألا يقع الأمر به وقت ما يسمعه ويقرع الخطاب السمع، بل فى ثان من الوقت. فحصل عندهم الأمر على الوقت الذى هو غير قادر فيه. فأى تكليف على فقد الطوق والوسع أبين مما قالوا؟! وبالله التوفيق.

ثم أفحش من هذا ما قالوا: إن القدرة تتقدم الفعل، والفعل هو الذى يدل على وجود الولاية، وهو فى وقت إيجاد الفعل، إن كان كفرا يعادى، وإن كان إيماناً يوالى. فحصل القول: على أن الموالاة والمعادة أبدا تقع فى غير وقت الانتهاء والائتمار.

ثم قولهم فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، أنه على الجبر. ولا يحتمل ذلك؛ لأنه قد أوجب لكل ذلك مرة بالجبر فى الخلقة، وهو قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، فقد ألزمهم الإسلام بالخلقة، بان أن الثانى على الاختيار.

ثم قولهم: فى استطاعة واحدة لفعلين خطأ؛ لأن من قولهم: إن الاستطاعة لا تبقى، ثم وجود الفعلين معاً فى وقت باستطاعة واحدة محال، ووجود تلك الاستطاعة لأحد الفعلين بعدم الآخر مستحيل لعدم البقاء، ووجوده عندهم على البدل^(١) محال، إذ جعلوا عين ما هو الأصل لأحدهما للآخر؛ فثبت أنه خطأ.

وقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾

فيه دلالة: أن الله تعالى إنما يأمر عبده وينهى، وإنما يأمر وينهى؛ لمنافع لهم ولضرر يلحقهم، لا لمنافع تكون له بالأمر فيأمر، أو بضر يلحقه فينهى عن ذلك. فيكون الأمر جازاً منفعة، وفى النهى دافعا مضرة. كما يكون فى الشاهد أن من أمر آخر بشىء إنما يأمر

لمنفعة تتأمل فيه، وينهى عن شيء لدفع ضرر يخافه. وتعالى الله عن ذلك.
وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

قيل فيه بوجهين:

قيل: ﴿إِنْ نَسِينَا﴾، يعنى: تركنا، كقوله تعالى: ﴿سُئِلَ اللَّهُ فَسِيحُمْ﴾. وكقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ﴾ [طه: ١١٥]، أى: ترك.
وقوله: ﴿أَخْطَأْنَا﴾، يعنى: ارتكبنا ما نهيتنا.

وقيل^(١): إنه على حقيقة النسيان والخطأ، كأنه على الإضمار أن قولوا ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا...﴾ الآية.

ثم اختلف بعد هذا:

قالت المعتزلة: أمر بالدعاء بهذا تعبداً أو تقرباً إليه. وكذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، وكذلك قوله: ﴿قُلْ رَبِّ آتِكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، ونحوه، خرج الدعاء به مخرج التعبد والتقرب؛ لأن رسول الله ﷺ أخبر أن لا يؤاخذنا بالنسيان والخطأ^(٢)، وأخبر أنه لا يخلف الوعد، وكذلك معلوم أنه لا يحكم إلا بالحق. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكُمْ﴾ [محمد: ١٩] وقد أخبر أنه تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولكنه على ما ذكرنا، وإلى هذا يذهب المعتزلة.

وأما الأصل عندنا فى هذا: أنه جائز فى الحكمة أن يعاقب على النسيان والخطأ، ليجتهدوا فى حفظ حقوقه وحدوده وحرماته لئلا ينسوا. ألا ترى أن الله تعالى أوجب على قاتل الخطأ الكفارة، ثم قال: ﴿تُوبَةَ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٢]، فلو لم يجز^(٣) أن يعاقب على النسيان والخطأ، لم يكن لوجوب الكفارة عليه والتوبة معنى؛ دل أنه جائز فى الحكمة المؤاخظة به.

والثانى: قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَسْنِيهِ إِلَّا السَّيِّئَاتُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وفعل الشيطان

(١) قاله ابن زيد بنحوه، أخرجه ابن جرير عنه (٦٥٠٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٦٥٩/١) كتاب: الطلاق، باب: طلاق المكره والناسى، حديث (٢٠٤٥)، والعقلى فى الضعفاء (١٤٥/٤)، والبيهقى (٣٥٦/٧ - ٣٥٧) كتاب: الطلاق، باب: ما جاء فى طلاق المكره، كلهم من طريق محمد بن المصنف ثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعى عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتى عما استكروها عليه وعن الخطأ والنسيان».

(٣) فى ط: فلو كان لا يجوز.

مما يتقى ويحذر؛ لذلك كان ما ذكرنا - والله أعلم - لأنه لو اجتهد عن فعل السهو والنسيان سلم عنه، فجائز أن يسأل السلامة عنهما، إذ بالجهد يسلم عنه، وبالعفلة يقع فيه.

والثالث: ما ذكرنا: أن النسيان هو الترك، والخطأ هو ارتكاب المنهى، والتارك لأمر الله، والمرتكب لنهيهِ يستوجب العقاب عليه. والله أعلم. فيصبح الدعاء على ذلك؛ لئلا يلحقهم العذاب بترك ذلك الأمر وارتكابه المنهى.

فإن قيل: ما معنى قوله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»؟^(١) قيل: إنما جاء هذا في الكفر خاصة، لا في غيره؛ وذلك أن القوم كانوا حديثي العهد بالإسلام، يجرى على ألسنتهم الكفر على النسيان والخطأ، وكذلك كانوا يكرهون على الكفر فيجرون على ألسنتهم الكفر مخافة القتل، فأخبرهم النبي ﷺ أن ذلك مرفوعاً عنهم. قال الشيخ - رحمه الله تعالى -: وبعد فإن في الخبر العفو، فيكون في ذلك دليل جواز الأخذ، ولعل الوعد بالعفو مقروناً بشرط الدعاء؛ فلذلك يدعون. وذكر أن رسول الله ﷺ دعا بهذا، فأجيباً لا أن يؤمر أحد أن يدعو ابتداء. والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ففيه وجهان: أحدهما: أنه وعد الرسل والمؤمنين جملة الجنة. فسؤال كل منهم أن يجعله من تلك الجملة التي وعدهم الجنة.

والثاني: يسأل الختم على ما به يستوجب الموعود.

وأما الأمر بالاستغفار: فهو يخرج على وجهين:

أحدهما: ما روى: «المؤذن يغفر له مد صوته»، فهو على استيجاب أولئك المغفرة به؛ فعلى ذلك استغفاره، ليغفر به بعض أمته.

والثاني: أن المغفرة في اللغة هي التغطية والستر؛ فكأنه يسأل الستر عليه بعد التجاوز عنه.

قال الشيخ - رحمه الله تعالى -: ثم الأصل أن الاستغفار هو طلب المغفرة، فلو كان لا يجوز له التعذيب، فيكون التعذيب [جوراً]، فيصير السؤال في التحقيق سؤال ألا يجور، وذلك مما لا يسع المحنة. وكذلك لو كان مغفوراً له، كان الحق فيه الشكر لما أنعم عليه، وفي ذلك كتمان النعمة، والمحنة بكتمان نعم الله وكفرانها محال؛ لذلك لا

بد^(١) أن يكون فى الآيات ما يتمكن معه المحنة من المعنى . والله أعلم .
وأما قوله عز وجل: ﴿قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِالْحَقِّ﴾ ، قيل: الحق هاهنا هو العذاب، كأنه أمره أن يسأل بإنزال العذاب عليهم .

وقيل: ﴿أَعْمُرْ بِالْحَقِّ﴾ ، أى احكم بحكمك الذى هو الحق .
فإذا كان ما ذكر محتملاً، دل أنه ليس على ما ذهب إليه أولئك . والله أعلم .
وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ .
قيل^(٢): «الإصر»، هو العهد، ويقول: لا تحمل علينا عهداً تعذبنا بتركه ونقضه كما حملته على الذين من قبلنا . وكان من قبلهم إذا خُطُّوا خطيئة حرم الله عليهم على نحوها مما أحل لهم الطيبات، كقوله تعالى: ﴿فَيُظَاهِرُ مِن الذِّينِ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] ، وكأصحاب الأخدود، وغيرهم . فخاف المسلمون ذلك فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ ، فى جرم أجرمناه فتحرم علينا الطيبات .

وأصل^(٣) «الإصر» ، الثقل والتشديد^(٤) الذى كان عليهم من نحو ما كان توبتهم الأمر بقتل بعضهم بعضاً، كقوله تعالى: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] .
وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾

يحتمل وجهين:
يحتمل: أن ﴿وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من القتل والهلاك، إذ فى ذلك إفناؤهم، وفى الفناء ذهاب طاقتهم .
قال الشيخ - رحمه الله تعالى - : أى مما نشتغل عما أمرتنا، فيكون كاللداء بالعصمة . والله أعلم .

ويحتمل: أن يراد به طاقة الفعل، وهى لا تتقدم عندنا الفعل . والله أعلم .
وقوله تعالى: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾
قيل: اتركنا على ما نحن عليه، ولا تعذبنا .
وقوله تعالى: ﴿وَأَعْفِرْ لَنَا﴾ .
أى: استر لنا . و «العفر»، هو الستر؛ ولذلك يسمى المغفر «مغفراً»؛ لأنه يستر . وستر

(١) فى ب: لا فرق .
(٢) قاله ابن عباس، أخرجه ابن جرير عنه (٦٥١٢)، وعن قتادة (٦٥٠٩)، ومجاهد (٦٥١٠، ٦٥١١)، وغيرهم .
(٣) قاله الربيع، أخرجه ابن جرير عنه (٦٥٢٠) .
(٤) فى أ: والشدائد .

وسمى القرآن مجيدًا؛ كقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١].

وقال بعضهم: الحروف المقطعة هي مفتاح السورة^(١).

وقال آخرون: إن كل حرف منها اسم من أسماء الله تعالى^(٢).

ومنهم من يقول بأنها من المتشابه التي لا يوقف عليها^(٣).

ومنهم من يقول: هو على التشبيب^(٤)؛ إذ من عادة العرب ذلك، وقد مضى الكلام فيه

في قوله: ﴿الْعَمَّ. ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ١-٢] بما يكفي^(٥).

وقوله: ﴿الْعَمَّ الْقَيُّومُ﴾:

هو الحي بذاته، وكل حيٍّ سواه حيٌّ بحياة هي غيره^(٦)، فإذا كان هو حيًّا بذاته لم

(١) قاله مجاهد بن جبر، والحسن، أما قول مجاهد فأخرجه الطبري في تفسيره (٨٧/١) (٢٠٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٩/١) رقم (٥١) وأبو الشيخ بن حيان كما في الدر المنثور للجلال السيوطي (٥٤/١)، وأخرجه عنه أبو جعفر النحاس في معاني القرآن الكريم (٧٥/١) ثم قال: وقال أبو عبيدة والأخفش: هي افتتاح كلام. وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢٨/١)، ومعاني القرآن للأخفش (١/١٧٠).

(٢) قال بذلك ابن عباس أخرجه عنه الطبري (٨٧/١)، وابن أبي حاتم (٢٧/١)، وابن المنذر رقم (٤٤)، وابن مردويه والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات؛ كما في الدر المنثور (٥٤/١). وقال بذلك أيضًا عامر الشعبي أخرجه عنه ابن أبي شيبه في تفسيره وعبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور (٥٤/١). وكذلك قال به قتادة أخرجه عنه عبد الرزاق وعبد بن حميد كما في الدر المنثور (٥٤/١).

(٣) أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ بن حيان في التفسير كما في الدر المنثور للسيوطي (٥٦/١) عن داود ابن أبي هند قال: «كنت أسأل الشعبي عن فواتح السور. قال: يا داود! إن لكل كتاب سرا، وإن سر هذا القرآن فواتح السور، فدعها وسل عما بدا لك».

(٤) ليفصل بين المنظوم من الكلام والمنثور من نحو الشعر ونحوه والتشبيب في الأصل: ذكر أيام الشباب واللهو والغزل، وهو في الشعر يكون في ابتداء القصائد، وإن لم يكن فيه ذكر الشباب. وفي اللسان: تشبيب الشعر: تريق أوله بذكر النساء، وشبب بالمرأة: قال فيها الغزل والسيب، ويتشبيب بها: ينسب بها. والتشبيب: السبب بالنساء، أي: بذكرهن.

تاج العروس للزبيدي (٩٦/١٦) (شبيب).

(٥) ينظر: سورة البقرة آية (١).

(٦) الحياة: هي صفة أزلية تقتضي صحة الاتصاف بالعلم والإرادة والقدرة والسمع وغيرها.

وحياته - عز وجل - لذاته ليست بروح، وذلك بعكس حياة الحوادث؛ إذ هي لا لذاتها، ولذلك كانت بروح الحياة في الحوادث كيفية يلزمها قبول الحركات الإرادية والحس، وغير ذلك. ودليل وجوبها لله - عز وجل - اتصافه - سبحانه - بالإرادة والقدرة والعلم، ومن كان كذلك وجبت له الحياة.

ولقد استدل العلماء على اتصاف الله - سبحانه - بالحياة بالآية التي معنا، وكذلك استدلوا

بقوله - تعالى -: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْبَاقِي الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]

ينظر: حاشية البيجوري على الجوهرة ص (٦١)، أصول الدين للزبدوى ص (٣٤).

يوصف بالتغاير والزوال، ولما كان كل حيٍّ سواه حيًّا بغيره احتمل التغاير والزوال؛ وكأن الحياة عبارة يوصف بها مَنْ عَظُمَ شأنُهُ، وشُرِفَ أمره عند الخلق.

ألا ترى أن الله - تعالى - وصف الأرض بالحياة عند نباتها؛ لما يعظم قدرها ويشرف منزلتها عند الخلق عند النبات؟! وكذلك سُمي المؤمن حيًّا؛ لعلو قدره عند الناس، والكافر ميتًا؛ لدون منزلته عند الناس؛ فكذلك الله - سبحانه - سُمي [نفسه] حيًّا؛ لعظمته وجلاله وكبريائه؛ وعلى هذا يخرج قوله في الشهداء؛ حيث قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [البقرة: ١٥٤]، أي: مكرمون معظّمون مشرفون عند ربهم. وقوله: ﴿أَلْقِيَوْمُ﴾، قال بعضهم: هو القائم على كل نفس بما كسبت^(١).

وقال آخرون: القيوم: الحافظ^(٢).

وفي حرف ابن مسعود - رضي الله عنه - : «هو الحي القيوم»^(٣) وكله يرجع إلى واحد: القائم.

والقيوم، والقيام، يقال: فلان قائم على أمر فلان، أي: يحفظه حتى لا يغيب عنه من أمره شيء^(٤).

وروي عن ابن عباس^(٥) - رضي الله عنه - أنه قال: «إِنَّ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمُ هُوَ: الْحَيُّ

(١) قال مجاهد: «القيوم»: القائم على كل شيء. أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري والبيهقي في الأسماء والصفات كما في الدر المنثور (٥٧٩/١) وابن أبي حاتم (٢٥/٢) رقم (٢٢٢). وقال قتادة: القيم على الخلق بأعمالهم وأرزاقهم وأجالهم. أخرجه ابن أبي حاتم (٢٦/٢) رقم (٢٣٣).

(٢) قاله في عمدة الحفاظ ولم يعزه (٤١٥/٣).

(٣) قال الطبري في التفسير (١٥٥/٦): وقرأ ذلك عمر بن الخطاب وابن مسعود فيما ذكر عنهما «الحي القيوم» وذكر عن علقمة بن قيس أنه كان يقرأ: «الحي القيوم». وأخرج قراءة ابن مسعود أبو عبيد وسعيد بن منصور والطبراني. وأخرج قراءة عمر أبو عبيد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي داود وابن الأنباري وابن المنذر والحاكم وصححه؛ كما في الدر المنثور (٤/٢)، وراجع المحتسب لابن جني (١٥١/١).

(٤) والقيوم: بناء مبالغة وزنه فيقول، وأصله: قيوم، فقلبت الواو الأولى ياء؛ لأجل الياء قبلها، وأدغمت الياء الأولى فيها، ومعناه: القائم الحافظ لكل شيء، والمعطى له ما به قوامه. يقول السمين الحلبي: وعندي أنه لا يجوز إطلاق هذه اللفظة على غير الباري - تعالى؛ لما فيها من المبالغة، كما ذكروا ذلك في الرحمن ونحوه.

انظر: عمدة الحفاظ للسمين الحلبي (٤١٥/٣)، ولسان العرب لابن منظور (٣٧٨٥/٥) (قيم). (٥) هو جبر الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي، ابن عم رسول الله ﷺ، ضمه النبي ﷺ إليه، ودعا له أن يعلمه الله الحكمة، وكان أعلم الصحابة بالتفسير وأسباب النزول، وروي عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، وله مناقب جمة، بحر في علوم الشريعة، كانوا يرجعون إلى قوله ورأيه عند الاختلاف. مات بالطائف سنة ٦٨ هـ.

الْقَيُّومُ»^(١).

وقوله: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾.

ظاهر.

﴿يَالْحَقَّ﴾

قليل فيه بوجوه: يحتمل بالحق^(٢)، أي: دعاء الخلق إلى الحق، ويحتمل بالحق، أي: هو الحق نفسه حجة^(٣) مجعولة، وآية معجزة، أيس العرب عن أن يعارضوه أو يأتوا بمثله^(٤)، وتحقق عند كل أنه من عند الله، إلا من أعرض عنه، وكابر وعاند.

وقيل: بالحق، أي: بالصدق والعدل^(٥).وقيل: بالحق الذي لله عليهم، وما يكون لبعضهم [على بعض]^(٦).

ثم قال: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

= تنظر ترجمته في: الاستيعاب لابن عبد البر (ترجمة ١٦٠٦)، أسد الغابة لابن الأثير (ترجمة ٣٠٣٧)، والإصابة لابن حجر (ت: ٤٧٩٩)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٣٣١) رقم (٥١).
(١) وقد ورد في هذا حديث مرفوع عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ﴾ وَ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» [البقرة: ١٦٣]. وفاتحة آل عمران ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢].

أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٤٦١)، وعبد بن حميد في مسنده رقم (١٥٧٨)، وأبو داود في سننه (١/ ٤٧٠): كتاب الصلاة: باب الدعاء (١٤٩٦)، والترمذي في سننه (٥/ ٤٦٤) أبواب الدعوات، باب (٦٤)، الحديث رقم (٣٤٧٨). وابن ماجه في سننه (٥/ ٣٧١): كتاب الدعاء: باب اسم الله الأعظم، (٣٨٥٥) من طريق عبد الله بن أبي زياد القداح عن شهر بن حوشب عن أسماء به. وهذا إسناد ضعيف، فعبيد الله هذا ليس بالقوي، وشهر صدوق كثير الإرسال والأوهام كما في التقريب لابن حجر ترجمة (١١٢).

(٢) قاله ابن كيسان كما في معاني القرآن الكريم للنحاس (١/ ٣٤٠).

(٣) الحجة - لغة - بالضم - الدليل والبرهان. وقيل: ما دفع به الخصم. والحجة: الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وسميت حجة لأنها تُحجج، أي تقصد؛ لأن القصد لها وإليها، والجمع: حجج وحجاج.

واصطلاحاً: عرفها الشيخ أبو منصور الماتريدي - رحمه الله - بأنها: «الحق ما غلبت حججه وأظهر التموه في غيره».

انظر: تاج العروس للزبيدي (٥/ ٤٦٤) (حجج)، وميزان الأصول لعلاء الدين أبي بكر السمرقندي (١/ ١٨٠).

(٤) قال - تعالى -: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨].

(٥) قاله الطبري في تفسيره (٦/ ١٦٠).

(٦) قاله الأصم كما في تفسير الفخر الرازي (٧/ ١٣٧)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥/ ١٥)، وما بين المعقوفين سقط من ب.

أي: موافقًا لما قبله من الكتب السماوية، وهي غير مختلفة ولا متفاوتة، وفيه دلالة نبوة [سيدنا]^(١) محمد ﷺ؛ لأنه أخبر أنه موافق لتلك الكتب غير مخالف لها، ولو كان على خلاف ذلك لتكفلوا إظهار موضع الخلاف؛ فإذا لم يفعلوا ذلك دل أنهم عرفوا أنه من الله، وأن محمدًا رسوله، لكنهم كابروا وعاندوا^(٢).
وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾.
من بعد.

وقال بعضهم: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾.

أي: بيانًا لهم، وحجة لمن اهتدى، وحجة على من عمي^(٣)؛ إذ لا يحتمل أن يكون له هدى، وعليه حجة فيه الهلاك؛ إنما يكون حجة له وهدى إذا اهتدى، وعليه إن ترك الاهتداء^(٤)؛ فبان أنه يخالف ما يقوله المعتزلة.^(٥)

(١) سقط من ب.

(٢) قال العلامة القاسمي: قال أبو مسلم: المراد منه أنه - تعالى - لم يبعث نبيًا قط إلا بالدعاء إلى توحيده والإيمان به، وتنزيهه عما لا يليق به، والأمر بالعدل والإحسان وبالشرائع التي هي صلاح كل زمان. فالقرآن مصدق لتلك الكتب في كل ذلك. ينظر: محاسن التأويل (٥/٤).

(٣) قاله الطبري في تفسيره (١٦١/٦).

(٤) قال ابن فورك: التقدير: هدى للناس المتقين، دليله ما في سورة البقرة: ﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، فرد هذا العام إلى ذلك الخاص.

ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/٤).

(٥) إن أبا الحسن الأشعري، وأكثر الأئمة من أصحابه حملوا التوفيق على خلق القدرة على الطاعة. وقال إمام الحرمين: التوفيق: خلق الطاعة لا خلق القدرة. وحمل الأشعري وأكثر الأئمة من أصحابه الهداية على معناه الحقيقي؛ أعني: خلق الاهتداء وهو الإيمان ومقابله الإضلال وهو بمعنى خلق الضلالة. وفي شرح العقائد: نعم قد تضاف الهداية إلى النبي ﷺ مجازًا بطريق النسب كما يسند الإضلال إلى الشيطان مجازًا ومثل هداة الله فلم يهتد مجازًا عن الدلالة والدعوة إلى الاهتداء انتهى.

والمعتزلة أولوا التوفيق والهداية بالدعوة إلى الإيمان والطاعة واستدلوا بقوله - تعالى -: ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] إذ لا شبهة في امتناع حمله عن خلق الهدى فيهم، ولعل الجواب أن الهداية في هذه الآية مجاز عن الدلالة والدعوة إلى الاهتداء، واستدلَّت الأشاعرة على بطلان تأويل المعتزلة بأن الأمة اجتمعت على أن الناس مختلفون في التوفيق والهداية فبعضهم موفق ومهدى، وبعضهم ليس كذلك، فلو أول التوفيق والهداية بالدعوة إلى الإيمان والطاعة كما قال به المعتزلة لاستوى جميع الناس فيها؛ أي في التوفيق والهداية؛ لأن معنى الموفق والمهدى على هذا التأويل المدعو إلى الإيمان والطاعة. ثم اعلم أن المعتزلة يؤولون الإضلال المسند إليه - تعالى - بوجودان العبد ضالا أو بتسميته ضالا للعلة المذكورة في تأويلهم الختم والطبع.

ينظر: نشر الطوابع (٢٨٨ - ٢٩٠).

وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ﴾: قد ذكرنا فيما تقدم^(١) أنه إنما سمي فرقاناً؛ لوجهين: أحدهما: لما فرق آياته وفرق إنزاله^(٢).

والثاني: لما يفرق بين الحق والباطل، وبين الحرام والحلال، وبين ما يتقى ويؤتى؛ فعلى هذا كل كتاب مبين فيه الحلال والحرام، ويبين ما يتقى ويؤتى. والإنجيل فيه سمي إنجيلاً؛ لما يجلي، وهو الإظهار في اللغة^(٣).

وقيل: سمي التوراة تَوْرَة من أوريت الزند؛ وهو كذلك^(٤). والله أعلم^(٥).

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾: قيل: بحجج الله^(٦).

وقيل: كفروا بآيات الله، أي: بالله^(٧)؛ لأنهم إذا كفروا بآياته كفروا به، وكذلك الكفر بدينه كفر به، والبراءة من دينه براءة منه، والبراءة من رسوله براءة منه.

(١) تقدم في الآية (٥٣) سورة البقرة.

(٢) قال - تعالى -: ﴿وَقَرَأْنَا قُرْآنَهُ لِنُقَرِّأَنَّ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْرٍ وَزَيَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الاسراء: ١٠٦]

(٣) الإنجيل: - في الحبشية: ونجيل، والأصل يوناني: يُؤنجلُون: المكافأة التي تُعطى للبشير، والبشّري. وهو ما أوحى به إلى عيسى -عليه السلام- وعند المسيحيين: سيرة المسيح وأقواله وأفعاله، وقد نُقل بروايات مختلفة، اعتمدت الكنيسة منها أربعة هي: روايات متى، ويوحنا، ولوقا، ومُرقس، وهي الأنجيل الأربعة المعروفة.

وأقدم ترجمة عربية للإنجيل ترجع -فيما يروى ابن العبري- إلى سنتي ٦٣١ و٦٤١م. ينظر: المعجم الكبير: (٥٣٥/١) إصدار مجمع اللغة العربية مصر.

وانظر تناقض الأنجيل وتحريفاتها في: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» لشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه القيم ابن القيم في كتابه: «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى»، وللعلامة القرافي كتاب أسماه بـ «الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة» و«الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام» للقرطبي.

(٤) التوراة: هي كلام الله المنزل على موسى -عليه السلام- ليلبغه لقومه لعلمهم يهتدون. قال -تعالى-: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

وتعتبر التوراة التي تحدث القرآن عنها جزءاً من الكتب التي فرض الله على المؤمنين الإيمان بها في قوله -تعالى-: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَعْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] - والتوراة: لفظ عبري معناه الهدى والإرشاد والشرعة كذلك - والتوراة المنزلة على موسى لم يوجد لها أثر لعدة أسباب إلا نذر يسير شاء الله أن تتناقله الألسنة حتى دُونَ.

ينظر: الملل والنحل للدكتور طلعت محسن ص (٨١ - ٨٢).

(٥) ينظر: معاني القرآن وإعراجه للزجاج (١/٣٧٤)، والزاهر للأنباري (١/١٦٨)، والمحرم الوجيز (١/٣٩٨)، واللسان (٦/٤٨٢١) «ورى»، ومعاني القرآن للنحاس (١/٣٤١)، وتفسير البغوي (١/٢٧٧).

(٦) تفسير الرازي (٧/١٤١).

(٧) قال الطبري: والذين كفروا هم الذين جحدوا آيات الله، وآيات الله: أعلام الله وأدلته وحجته. جامع البيان (٦/١٦٤).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

قيل فيه بوجهين:

قيل: ذو انتقام لأوليائه من أعدائه^(١).

وقيل: ذو انتقام: ذو انتصار على الأعداء.

وقيل: ذو بطش شديد^(٢).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

هو وعيد؛ كأنه - والله أعلم - قال: لا يخفى عليه ما في السموات، و[ما في]^(٣) الأرض من الأمور المستورة الخفية على الخلق؛ فكيف يخفى عليه أعمالكم وأفعالكم، التي هي ظاهرة عندكم؟! ويحتمل: إذا لم يخف عليه ما بطن، وخفي في الأصلاب والضمائر والأرحام؛ فكيف يخفى عليه أفعالكم وأقوالكم، وهي ظاهرة؟!^(٤).

ألا ترى أنه قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ﴾؛ إذ علم ما في الأرحام وصورها على ما شاء وكيف شاء، وهم ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾

فيه دليل نقض قول من يقول بالقائف^(٥)؛ لأنه جعل علم التصور في الأرحام لنفسه، لم يجعل لغيره، كيف عرف بالقائف تصوير الأول، حتى قال الله: إنه على صورته وعلى

(١) ينظر تفسير القرطبي (٣٨٢/٩).

(٢) قاله محمد بن إسحاق، أخرجه ابن أبي حاتم (٣٩/٢) رقم (٥٥).

(٣) سقط من ب.

(٤) قال القرطبي: هذا خبر عن علمه - تعالى - بالأشياء على التفصيل، ومثله في القرآن كثير، فهو العالم بما كان وما يكون وما لا يكون؛ فكيف يكون عيسى إلهًا أو ابن إله وهو تخفي عليه الأشياء؟!.

ينظر: تفسير القرطبي (٦/٤).

(٥) القيافة لغة: مصدر قوف بالواو ثم قلبت ألفًا فصارت قافا، ويقال: فلان يقفو الأثر، ويقتافه قيافة: أي: تتبعه واقتفى أثره، وتطلق القيافة في الاصطلاح على تتبع العلامات الموجودة في شخصين أو أكثر للوصول إلى إثبات قرابة بينهما أو بينهم. والقائف: هو الذي يتبع الآثار ويعرف شبه الرجل بأبيه وأخيه؛ لأنه يتبع العلامات والأمارات والصفات التي يشترك فيها الأقارب كما يتبع آثار الأقدام ويعرف اتجاهها ولمن هي.

وفي الاصطلاح: هو الذي يتبع العلامات والأمارات الموجودة في شخصين أو أكثر ليحكم بوجود صلة بينهما أو بينهم.

انظر: الصحاح للجوهري (١٤١٩/٤) (قوف)، ترتيب القاموس المحيط لطاهر الزاوي (٣/ ٦٣٥) (قوف)، اللسان (٣٧٧٦/٥) (قوف)، والصحاح في اللغة والعلوم (٩٦٤)، وفاكهة البستاني (١٢/١).

تصويره، وإنه من مائه^(١)، ثم اختلف في خلق الأشياء:

قال بعضهم بخلق الفروع من الأصول، وهن أسباب للفروع.

وقال آخرون: يكون بأسباب وبغير أسباب، فإن كان بعض الأشياء يكون بأسباب؛ من نحو الإنسان من النطفة، إلا أن النطفة تتلف؛ فتكون علقة، ثم مضغة؛ فدل أنه يخلق الخلق كيف شاء من شيء ولا من شيء، بسبب وبغير سبب، وهو القادر على ذلك^(٢)، وبالله التوفيق.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾

اختلف فيه: فقليل: المحكمات^(٣): هن النَّاسَخَاتُ^(٤) المعمولات بهن،

(١) اختلف العلماء في إثبات النسب بالقيافة على مذهبين:

الأول: لا يجوز إثبات النسب بالقيافة وإليه ذهب الحنفية ومالك في رواية عنه في غير ملك اليمن.

الثاني: يجوز إثبات النسب بالقيافة عند تعارض البيئات وإليه ذهب الشافعية والحنابلة والظاهرية وهو رواية عن مالك رواها ابن وهب عنه وبه قال من الصحابة عمر وعلى بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري وابن عباس وأنس ومن التابعين سعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رباح والزهرى وإياس بن معاوية وقتادة وكعب بن سوار والأوزاعي والليث بن سعد وأبو ثور.

انظر تفصيل أدلة كل فريق في:

المبسوط للسرخسي (١٧/٧٠)، فتح القدير للكمال بن الهمام (٤/٣٥١)، بدائع الصنائع للكاتساني (٦/٢٤٤)، بداية المجتهد لابن رشد (٢/٣٥٩)، جواهر الإكليل للأبي (٢/١٣٩)، التبصرة لابن فرحون (٢/٩٢)، الفروق للقرافي (٣/١٥٦)، الأم للشافعي (٦/٢٤٦)، المذهب للشيرازي (٢/٣٥٤)، المغني لابن قدامة (٨/١٢٦)، الطرق الحكمية لابن القيم (٢١٦)، الفروع لابن مفلح (٥/٥٣٢)، المحلى لابن حزم (٩/٤٣٥).

(٢) أخرجه الطبري (٦/١٧٤ - ١٧٥) (٦٥٧٤) وقاله كذلك ابن مسعود وناس من أصحاب النبي ﷺ أخرجه الطبري (٦/١٧٥) رقم (٦٥٧٦).

(٣) يقال: أحكم الشيء: أنقنه، ومنعه من الفساد، وأحكمت فلاناً أي: منعته، وبه سمي الحاكم؛ لأنه يمنع الظالم، وسورة محكمة: غير منسوخة، أو: التي أحكمت، فلا يحتاج سامعها إلى تأويلها ليبانها.

والمحكم: اسم للشيء المتقن، مأخوذ من إحكام البناء.

وفي اصطلاح علماء الأصول: المحكم: هو اللفظ الذي لا يحتمل النسخ والتبديل، كآيات الدالة على الصفات، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ سِرًّا عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وسورة الإخلاص.

ينظر: لسان العرب (٢/٩٥٢، ٩٥٣) (حكم)، ترتيب القاموس (١/٦٨٥) (حكم)، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/٩١) (حكم)، والصحاح للجوهري (٥/١٠٠١، ١١٠٢) (حكم)،

أصول السرخسي (١/١٦٥)، وكشاف اصطلاحات الفنون لمحمد على الفاروقي التهانوني (٢/١٤٤، ١٤٥)، وميزان الأصول للسمرقندي (١/٥٠٩)، والكلديات لأبي البقاء الكفوي (١/٣٤٠).

(٤) الناسخات من النسخ، والنسخ في اللغة: الإزالة، يقال: نسخت الريح أثر القوم: أزلته، وقيل: إزالة شيء بشيء، يقال: نسخت الشمس الظل، والظل الشمس.

والمتشابهات^(١): هن المنسوخات غير معمول بهن، وهو قول ابن عباس [رضي الله عنه]^(٢).

وقال آخرون: المحكمات: هن ثلاث آيات في [آخر]^(٣) سورة الأنعام: قوله: ﴿قُلْ نَعَالُوا أُنْذِرُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ...﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى قوله: ﴿... تَنَقُّونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وما ذكر في سورة «بنى إسرائيل» من قوله: ﴿وَقَصَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى آخر هذه الآيات^(٤)، سميت محكمة؛ لأن فيها توحيداً وإيماناً بالله وغيره من المتشابه.

ثم قيل بعد هذا بوجوه: قيل: المحكمات: هي التي يعرفها كل أحد إذا نظر فيها، وتأمل فيها.

والمتشابه: هو المبهم الذي يعرف عند البحث فيه والطلب^(٥).

وقيل: المحكمات: ما يوقف ويفهم مراده.

والمتشابه: هو الذي لا يوقف [عليه] ألبة^(٦)، بعد ما قضى حوائج الخلق من البيان في

= ويطلق بمعنى نقل الشيء وتحويله من حالة إلى أخرى مع بقاءه في نفسه، يقال: نسخت الكتاب، أي: نقلت ما فيه إلى آخر ومنه قوله -تعالى-: ﴿هَذَا كِتَابًا يُطَٰقَىٰ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

ومنه المناسخات في علم الموارث لانتقال المال من وارث إلى وارث.

واصطلاحاً: النسخ: رفع حكم شرعي بدليل شرعي متأخر عنه لا إلى غاية.

وعرفه الغزالي بقوله: «الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً به مع تراخيه عنه».

وعرفه أبو عمرو بن الحاجب: بأنه رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر.

ينظر: عمدة الحفاظ (١٩٤/٤)، لسان العرب (٤٤٠٧/٦) (نسخ)، المستصفى للإمام الغزالي

(١٠٧/١)، ميزان الأصول للسمرقندي (٩٧٥/٢)، البرهان للجويني (١٢٩٣/٢)، البحر المحيط

للزركشي (٦٣/٤) زوائد الأصول للإسنوي ص (٣٠٨).

(١) المتشابه -لغة-: أن يشبه اللفظ بآخر في الظاهر مع اختلاف المعاني كما قال -تعالى-: ﴿وَأَنذِرُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] أي: ثمر الجنة يشبه بعضه بعضاً، فالمنظر واحد، والطعم مختلف.

ينظر: عمدة الحفاظ (٢٨٤/٢).

(٢) كما في تفسير القرطبي (٩/٤)، وما بين المعقوفين سقط من ب.

(٣) سقط في أ.

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في سننه رقم (٤٩٣)، والطبري (١٧٤/٦) رقم (٦٥٧٣) وابن أبي حاتم

(٥٣/٢)، رقم (٨٠)، والحاكم في المستدرک (٢٨٨/٢) عن ابن عباس. وفي سنده عبد الله بن

قيس مجهول كما في التقريب ترجمة (٣٥٦٩).

(٥) قاله الأصم كما في تفسير مفاتيح الغيب (١٤٨/٧).

(٦) ألبة، يقال: لا أفعله بته، ولا أفعله ألبة، لكل أمر لا رجعة فيه، ونصبه على المصدر، لسان العرب

(٢٠٤/١) (بتت).

المحكم منه، ولكن يلزم الإيمان به، وهو من الله محنة على عباده، والله أن يمتحن خلقه بما شاء من أنواع المحن؛ لأنها دار محنة. وغيرها لا يفهم^(١) مرادها^(٢).
ويحتمل أن يكون المحكمات: هن ما ظهر لكل أحد من أهل الإسلام؛ حتى لم يختلفوا فيها.

والمتشابه: هو الذي اشتبه على الناس؛ لاختلاف الألسن فاختلّفوا فيها، ولما يؤدي ظاهره إلى غير ما يؤدي باطنه؛ فتعلق بعضهم بالظاهر فقالوا به، وتعلق آخرون بالباطن؛ لما رأوا ظاهره جوراً وظلماً^(٣) أو تشبيهاً، على اتفاقهم على نفي الجور والظلم عنه، ويجوز لمن يوقف على التشابه بمعرفة المحكم.

وقال آخرون: المحكم: هو الواضح المبين، فلو كان على ما قالوا لم يكن لاختلاف الناس فيه، وادعاء كل أن الذي هو عليه هو المحكم؛ لأنه لو كان ظاهراً مبيّناً لتمسكوا به، ولم يقع بينهم اختلاف.

وفيه دليل ونقض على المعتزلة؛ لأنهم يقولون بالأصلح في الدين^(٤): أنه لا يفعل إلا

(١) في ب: ما لا يفهم.

(٢) قال الطبري: وقال آخرون: بل «المحكم» من آي القرآن: ما عرف العلماء تأويله وفهموا معناه وتفسيره. والمتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه... وهذا قول ذكر عن جابر بن عبد الله بن رثاب. جامع البيان (١٧٩/٦ - ١٨٠).

(٣) أما الجور: فهو الميل - أيضاً - لغة: يقال: جار السهم: إذا زال عن سَنِّهِ. إلا أنه في الشرع استعمل في الميل عن الحق إلى الباطل.

وأما الظلم - في اللغة - فعبارة عن: وضع الشيء في غير محله. يقال في المثل: من أشبه أباه فما ظلم - أي: هذا الشبه ليس في غير موضعه، ويقال: ظلم الشعر إذا أبيض في غير حينه. ينظر: ميزان الأصول للسمرقندي (١/١٥٢)، ومختار الصحاح للرازي (٣٩).

(٤) إن فكرة الصلاح والأصلح فكرة من بنات أفكار أهل الاعتزال، وقد كثر الحديث عنها بين أهل السنة والجماعة والمعتزلة، حتى المعتزلة أنفسهم لم تتفق كلمتهم في تحديد مدلول الصلاح، هل هو في الدين فقط أم في الدين والدنيا معاً؟

يقول العلامة الباجوري: «واعلم أن للمعتزلة عبارتين؛ الأولى: وجوب الصلاح، والمراد به ما قابل الفساد كالإيمان في مقابلة الكفر، فيقولون: إذا كان هناك أمران؛ أحدهما: صلاح، والآخر: فساد، وجب على الله أن يفعل الصلاح منهما دون الفساد.

والثانية: وجوب الأصلح، والمراد به ما قابل الصلاح ككونه أعلى الجنان في مقابلة كونه في أسفلها، فيقولون إذا كان هناك أمران أحدهما: صلاح، والآخر: أصلح منه وجب على الله أن يفعل الأصلح منهما دون الصلاح. فالحاصل أن المعتزلة توجب على الله - تعالى - فعل الصلاح والأصلح؛ غير أنهم انقسموا إلى فريقين:

فمدرسة بغداد الاعتزالية ترى أنه يجب على الله - تعالى - مراعاة الصلاح والأصلح لعباده في الدين والدنيا.

ومدرسة البصرة الاعتزالية ترى أنه يجب عليه - تعالى - مراعاة الصلاح والأصلح لعباده في

ذلك، ثم لم يبين لهم المحكم من غير المحكم، ولو بين كان أصلح لهم في الدين؛ فدل أن الله - عز وجل - قد يجوز أن يفعل بهم ما ليس بأصلح لهم في الدين؛ امتحانًا وابتلاءً منه لهم، والله أعلم.

لكن لا يخرج من الحكمة، ثم ما قالوه في الأمر حق؛ لأنه لا يأمر إلا أن يفعل بهم ما لهم فيه الأصلح، وقد يفعل ما هو حكمة في حق المحنة وإن كان غير ذلك أصلح لهم في الدين، بمعنى: أقرب وأدعى إليه، والله الموفق.

وقال قوم: المحكم: ما في العقل بيانه.

والمتشابه: ما لا يدرك في العقل؛ وإنما يعرف بمعونة السمع.

وقال قوم: لا متشابه فيما فيه أحكام من أمر^(١) ونهي^(٢) وحلال^(٣) وحرام^(٤)؛ وإنما

== الدين فقط. ثم اختلفوا أيضًا في المراد بالأصلح:

ف عند البغدادية: الأصلح: الأوفق في الحكمة والتدبير.

وعند البصرية: الأصلح: الأنفع.

ووجهة المعتزلة فيما ذهبوا إليه أنهم يرون أن الله - عز وجل - عادل غير ظالم، حكيم، وخلق الأشياء كلها لصالح العباد، فبمقتضى عدله - تعالى - لا تصدر أفعاله - سبحانه - إلا على وجه الصواب والمصلحة. وبمقتضى حكمته يكون كل ما في العالم من أجل خير الإنسان ورعاية مصالح العباد.

أما مذهب أهل السنة والجماعة فإنهم لا يوجبون عليه تعالى شيئًا؛ إذ إنه - تعالى - فاعل بالاختيار، ولو وجب عليه فعل أو ترك لما كان مختارًا؛ لأن المختار هو الذي إن شاء فعل وإن شاء ترك.

وأما الآيات الدالة على الوجوب عليه - تعالى - نحو: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] فمحمولة على أن المراد بها: الوعد تفضلاً.

وكذلك الأحاديث الدالة على ذلك.

انظر: حاشية البيهقي على الجوهرة (ص/ ٧٥ - ٧٦)، أصول الدين لليزدوي (١٢٦).

(١) الأمر في اللغة ضد النهي ويجمع على أمور. وقال الجوهري: أمر مصدر أمره. واصطلاحًا: عرفه المصنف بأنه القول الذي هو دعاء إلى تحصيل الفعل على طريق العلو والعظمة دون التضرع.

وقيل: هو القول الدال على طلب الفعل على جهة الاستعلاء، وصيغته: افعل، وهي مستعملة في اللغة في ستة عشر موضعًا: الأول: الأمر. الثاني: الإذن. الثالث: الإرشاد. الرابع: التأديب. الخامس: التهديد. السادس: التسوية. السابع: الإهانة. الثامن: الاحتقار. التاسع: الامتنان. العاشر: الإكرام. الحادي عشر: الدعاء. الثاني عشر: التعجيز. الثالث عشر: التكوين. الرابع عشر: التمني. الخامس عشر: الإنذار. السادس عشر: الخبر. انظر: ميزان الأصول (١/ ٢٠٠)، اللسان (١/ ١٢٥) (أمر).

(٢) النهي خلاف الأمر، يقال: نهاه ينهيه نهياً؛ كفه، فأنتهى وتناهى؛ كف. وفعله يائي واوي يقال في البائي: نهيته، ويقال في الواوي: نهوته، وجاء في كلام الله - عز وجل - : ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَتَنَبَّهُونَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعْلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩].

ذلك فيما ليس بالناس حاجة إلى العلم به، نحو: الإنبياء عن منتهى الملك، وعن عدد الملوك، وعن الإحاطة بحقيقة الموعود، ونحو ذلك^(١). ولا قوة إلا بالله^(٢).
لكن يمكن أن يكون سمي متشابهاً^(٣)؛ بما تشابه على أولئك القوم حقيقة ما راموا من الوجه الذي طلبوا^(٤).

= والنهاية والنهاية: آخر كل شيء وذلك لأن آخره ينهائهم عن التمادي فيرتدع، والنهي والنهي: الموضوع الذي له حاجز كأنه ينهي الماء أن يفيض منه. ونهية الوند: الفرضة التي في رأسه تنهى الجبل أن ينسلخ.

والنهي: العقل، فيؤخذ من مجموع ما تقدم أن اشتقاق كلمة نهى تفيد الحظر والمنع. والنهي - اصطلاحاً -: هو القول الدال على طلب الامتناع من الفعل على جهة الاستعلاء. وقيل: هو القول الطالب للترك دلالة أولية، والمراد بالترك هنا هو الكف عن كذا لا الترك بمعنى عدم الفعل، وقيل: بأنه قول يقتضي طاعة المنهي بالكف عن المنهي عنه. وصيغته: لا تفعل وقد استعملت في اللغة في سبعة معانٍ: الأول: التحريم. الثاني: الكراهة. الثالث: الدعاء. الرابع: الإرشاد. الخامس: التحقير. السادس: بيان العاقبة. السابع: اليأس.
انظر: نهاية السؤل للأسنوي (٢/٢٩٣).

(٣) الحلال في اللغة مأخوذ من معنى الفتح والإطلاق ومنه حل العقدة وهو نقض العقد، يقال: حللت العقدة أحلها حلاً فتحنتها فانحلت، يقال: يا عاقداً اذكر حلاً. والحلال يطلق على غير الحرام فيعم الواجب والمندوب والمكروه والمباح غير أن المباح يطلق على الثلاثة الأولى والحلال على الأربعة. ينظر: الصحاح للجوهري (ص ١٦٧٤) (حلل)، ميزان الأصول (١/١٤٥)، شرح الكوكب المنير للفتوح (١/٤٢٧)، اللسان (٢/٩٧٤) (حلل).

(٤) الحرام في اللغة: الممنوع، والحرمة والحرمان والتحريم - هو المنع. قال الله - تعالى -: ﴿وَحَرَّمَآ عَلَيْهِمُ الْمُرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢] أي: منعنا.

وشرعاً: هو الفعل الذي طلب الشارع من المكلف الكف عنه طلباً جازماً. ويسمى الحرام: ممنوعاً ومزجراً ومعصية وذنباً وقيحاً وسيئة وفاحشة وإثمًا وخرجاً وتحريجاً وعقوبة.

ينظر: لسان العرب (٢/٨٤٤) (حرم)، ميزان الأصول (١/١٤٣)، نهاية السؤل للأسنوي (١/٦١)، شرح الكوكب المنير (١/٣٨٦).

(١) وذلك مثل قيام الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج، والدجال وعيسى، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور.

ينظر: تفسير القرطبي (٨/٤).

(٢) قاله قتادة وأخرجه الطبري (٦/١٧٧)، رقم (٦٥٨٥)، وعبد بن حميد والفريابي كما في الدر المنثور (٧/٢).

(٣) في ب: متشابه.

(٤) وقيل: إن المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه: ما يحتمل وجوهاً، ثم إذا ردت الوجوه إلى وجه واحد وأبطل الباقي صار المتشابه محكماً؛ فالمحكم - أبداً - أصل ترد إليه الفروع، والمتشابه هو الفرع.

وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المحكمات هي التي فيها حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل، ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه.

والمتشابهات لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد. قاله مجاهد وابن إسحاق. ينظر: تفسير القرطبي (٩/٤).

وقد بيّنا الحق في أمر المتشابه، وما يجب في ذلك من القول، وبالله العصمة والنجاة^(١).

وقوله: ﴿هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ﴾: يحتمل وجهين:

يحتمل أم الكتاب، أي: أصل الكتاب^(٢).

ويحتمل أم الكتاب، أي: المتقدم على غيرها؛ وعلى هذا يُخَرَّجُ: ﴿أُمُّ الْقُرَى﴾ [الأنعام: ٩٢ - الشورى: ٧]، أعني: مكة^(٣)؛ لأنها هي المتقدمة على غيرها من القرى، ويحتمل هي أصل القرى؛ كما سمي «فاتحة الكتاب»: «أم القرآن»؛ لأنها أصل؛ أو لأنها هي المتقدمة على غيرها من السور، والله أعلم.

(١) حقيقة ذلك أن آيات الكتاب العزيز عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أقسام:

الأول: متشابه من حيث اللفظ فقط. الثاني: من حيث المعنى فقط. الثالث: من جهتهما معاً. ثم المتشابه من حيث اللفظ نوعان: أحدهما: يرجع إلى المفردات إما من جهة الغرابة من قوله: ﴿وَقَكَّهُمْ وَأَبَا﴾ [عبس: ٣١] وكقوله: ﴿يَرْفُؤُنَ﴾ [الصفات: ٩٤]، وإما من جهة الاشتراك كاليد والعين في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] ﴿عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]. والثاني: يرجع إلى التركيبات، وهي الجمل. وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام: أحدها: لاختصار الكلام كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقِسطُوا فِي الْيَمِينِ﴾ إلى قوله: ﴿وَرَبِّعَ﴾ [النساء: ٣]. وثانيها: عكسه، وهو بسط الكلام، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، إذ لو قيل: ليس مثله شيء. لكان أظهر للسامع. ثالثها: لنظم الكلام، كقوله تعالى: ﴿تَلْهَيْدُ يَوْمِ اللَّيْلِ أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَوْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]. والقسم الثاني: من حيث المعنى فقط، وذلك في أوصاف الباري تعالى، وأوصاف القيامة. فإن تلك الصفات لا تتصور لنا؛ إذ كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه إذ لم يكن من جنس ما نحسه.

والقسم الثالث: وهو المتشابه من جهتهما معاً ينقسم إلى خمسة أقسام: الأول من جهة الكمية كالعموم والخصوص نحو: ﴿تَأْتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]. الثاني: من جهة الكيفية كالوجوب والندب كقوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنٍ وَتِلْكَ وَرَبِّعَ﴾ [النساء: ٣]. الثالث من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ نحو قوله تعالى: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. الرابع: من جهة المكان والأمر التي نزلت فيها كقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِكُمْ وَلَكِنَّ الْبِرَّ...﴾ الآية [البقرة: ١٨٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧] فإن من لا يعرف عادة أهل الجاهلية في ذلك يتعذر عليه تفسير هذه الآية الكريمة.

الخامس: من جهة الشروط التي يصح بها الفعل أو يفسد ك شروط النكاح والصلاة. ويعلم أن كل ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن أحد هذه الأقسام. ينظر: عمدة الحفاظ (٢/ ٢٨٤ - ٢٨٦).

(٢) قاله سعيد بن جبير أخرجه عنه ابن أبي حاتم (٥٦/٢)، رقم (٨٥).

(٣) مكة: علم على جميع البلدة، وهي البلدة المعروفة المعظمة المحجوجة، غير مصروفة، للعلمية والتأنيث، وقد سماها الله - تعالى - في القرآن أربعة أسماء: بكة، البلد الأمين، والبلدة، والقرية، وأم القرى.

ينظر: المطلع على أبواب المقنع لأبي الفتح البجلي الحنبلي (١٨٦).

ويحتمل قوله: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكَيْلِ﴾، أي: مقصود الكتاب، يعني: المحكمات، والمتشابهات مما فيه شبه^(١) من غيره؛ فيتشابه؛ فهو متشابه؛ كقولهم: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠]؛ وكذلك المشكل^(٢) سمي مشكلاً؛ لما يدخل فيه شكل من غيره فسمي مشكلاً؛ فكذلك المتشابه يدخل فيه شبه غيره؛ فصار متشابهاً، والله أعلم.

وقوله [عز وجل]^(٣): ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ قيل: ميل عن الحق^(٤).

وقيل: الزيف: هو الريب والشك^(٥).

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾

ولو كان ثم اتباع لعذروا؛ إذ اتباع الشيء اتباع ما فيه من المراد؛ وعلى هذا يقولون في قوله: ﴿يَتْلُوهُ حَتَّىٰ تَلَاطِيَهُ﴾ [البقرة: ١٢١]: أي يتبعونه حق اتباعه، وكذلك قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]. والمتشابه قد أنزل إلينا من ربنا؛ فيحمد متبعه في الحقيقة؛ فثبت أنه لم يكن ثم اتباع في الحقيقة، وأنه لو كان لعذروا، ولكنه كان - والله أعلم - اتباع الآراء في التأويل بالآراء الفاسدة؛ ألا ترى أنهم طلبوا بالتأويل منتهى ملك هذه الأمة؟! وفي الوقوف عليه وقوف على علم الساعة وسبب

(١) في ب: شبهة.

(٢) المشكل في اللغة: مأخوذ من قولهم: أشكل أي: دخل في أمثاله وأشكاله. يقال: أشكل الأمر: التبس، وحرف مشكل: ملتبس ومشتبه. والشكل: الشبه والمثل.

وعند علماء الأصول: هو اللفظ الذي اشتبه مراد المتكلم للسامع بعارض الاختلاف بغيره من الأشكال، مع وضوح معناه اللغوي. أي: هو ما اشتبه مراده بحيث لا يدرك إلا بالتأمل. وقيل: هو ما أشكل على السامع طريق الوصول إلى المعاني؛ لدقة المعنى في نفسه، مثل قوله - تعالى -: ﴿فَأَنزِلْنَا حَرَكَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] اشتبه معناه على السامع أنه بمعنى كيف، أو بمعنى أين، يعرف بعد الطلب والتأمل أنه بمعنى كيف بقرينة الحرث، وبدلالة حرمة القربان في الأذى العارض، وهو الحيض، ففي الأذى اللازم أولى، وفيه زيادة خفاء، ولذلك قالوا: المشكل كرجل تغرب عن وطنه فاختلط بأشكاله من الناس، فيطلب موضعه، ويتأمل في أشكاله ليوقف عليه. ينظر: لسان العرب (٤/ ٢٣١٠) (شكل)، والصحاح (٥/ ١٧٣٧) (شكل)، ترتيب القاموس (٢/ ٧٧٣)، وميزان الأصول للسميرقندي (١/ ٥١٠)، وكشف الأسرار عن أصول البزدوي لعبد العزيز البخاري (١/ ٥٢)، وفصول البدائع في أصول الشرائع (٨٥)، والكلييات لأبي البقاء (٣٤٠)، وجامع العلوم للباقولي (٣/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٣) سقط من أ.

(٤) قاله محمد بن جعفر بن الزبير أخرجه عنه الطبري (٦/ ١٨٤) رقم (٦٥٩٢).

(٥) قاله ابن عباس أخرجه عنه الطبري (٦/ ١٨٤) رقم (٦٥٩٥)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٢)، رقم (٩٨)،

وابن المنذر كما في الدر المنثور (٢/ ٨). وقاله أيضاً ابن مسعود وناس من أصحاب النبي ﷺ أخرجه الطبري (٦/ ١٨٤) رقم (٩٥٩٦).

القيامة، وذلك علم لم يُطْلِعِ الله الرسلَ على ذلك، فضلاً أن يطلع عليه غيرهم.
قال الشيخ - رحمه الله - : ويحتمل أن يكون اتباعهم نظرهم فيما تقصر أفهامهم عن الإدراك في الوقوف عليه، ولو كان نظرهم في المحكم من ذلك، لكان لهم في ذلك بلاغ وكفاية فيما إليهم به حاجة، ولا قوة إلا بالله.

قال الشيخ - رحمه الله - : في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ : أي: ميل عن الحق، وذلك همتهم، أو كان ذلك اعتقادهم، فإن كان المراد من ذلك في الكفرة فهو الأول، وإن كان في أصحاب الهوى من الذين يدينون دين الإسلام - فهو الثاني^(١)؛ وكذلك نجد كل ذي مذهب في الدين - ممن اعتقد حقيقة الأمر في قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَىٰ بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ...﴾ [النمل: ٧٦] الآية - يتعلق بظاهر الآية؛ يدعي أنها محكمة بما عنده أنه الحق، بعد أن أجهد نفسه في طلب الحق، ويسوي غير ذلك عليه، فإن كان على ذلك فحقه التسليم لما عليه توارث الأمة ظاهراً؛ على ما روى عن نبي الله ﷺ أنه أخبر عن تفرق الأمة، ثم أشار إلى التمسك بما عليه هو وأصحابه^(٢) [- رضي الله عنهم -]^(٣) فعلى ذلك أمر المتوارث؛ فيجب جعله محكماً وبيئناً [لما اختلف عليه، ولا قوة إلا بالله.

(١) قال القرطبي: وهذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة، وإن كانت الإشارة بها في ذلك الوقت إلى نصارى نجران.
ينظر: تفسير القرطبي (٤/١٠).

(٢) أصح ما قيل في تعريف الصحابي أنه: من لقي النبي ﷺ في حياته مسلماً ومات على إسلامه.
ينظر: تدريب الراوي للسيوطي (٢/٢١٢).

(٣) أخرجه أحمد (٤/١٠٢)، والدارمي في سننه (٢/٢٤١)، وأبو داود (٢/٦٠٨) كتاب السنة: باب شرح السنة (٤٥٩٧)، والحاكم في المستدرک (١/١٢٨)، والآجري في الشريعة ص (١٨)، وابن أبي عاصم في السنة (١/رقم ٢) من طريق صفوان بن عمرو قال حدثني أزهر بن عبد الله عن أبي عامر عبد الله بن لُعي عن معاوية بن أبي سفيان أنه قام فينا فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب اختلفوا على ثنتين وسبعين ملّة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة».

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ص (٦٣): وإسناده حسن. وله شواهد من حديث أنس بن مالك، وعوف بن مالك الأشجعي؛ فأما حديث أنس فأخرجه أحمد (٣/١٤٥)، وابن ماجه في سننه (٥/٤٧٢) كتاب الفتن: باب افتراق الأمم (٣٩٩٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١/رقم ٦٤)، وأما حديث عوف بن مالك فأخرجه ابن ماجه في سننه، الموضع السابق، رقم (٣٩٩٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١/رقم ٦٣).
وما بين المعقوفين سقط من ب.

ويكون المبتدع^(١) في ابتغاء تأويله؛ يريد التلبس على من لزم تلك الجملة، وكذلك لأهل جمل في الذين مرفوع عليه، كذا التنازع وترك الاشتغال بتأويل ما اعترضه، لكان متبع المحكم عند الأمة مطيعاً المتشابه، ولا قوة إلا بالله.

وإن كان هو الأوّل فقد ذكر أن ذلك في استخراج منتهى ملك هذه الأمة، وأن نهايته الساعة، والعلم به لم يطلع عليه الرسل فضلاً عن^(٢) دونهم، أو كان ذلك في أشياء تقصر عقول الضعفاء عن الإحاطة بذلك؛ يريدون بذلك التلبس على العوام وأهل الغباوة؛ فأخبر - عز وجل - بما ذكر أنه لا يعلمه إلا الله كان ذلك فيما يعلمه غيره أو لا، فإن كان أطلعه فبالله علم، لا أن في العقول بلوغ ذلك، ومعنى الاتباع ما قد بين .
وقوله: ﴿يَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾، أي: من القرآن بقول ما اشتبه حسابهم.
﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾.

وقيل: الفتنة: الكفر^(٣)، ويحتمل «الفتنة»: المحنة، أي: يمتحنون أهل الإسلام^(٤).
وقوله: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾.
منتهى ما كتب الله - عز وجل - لهذه الأمة من المدة [لهم والوقت]^(٥)، وأصل التأويل: هو المنتهى.
قال الله - تعالى -^(٦): ﴿وَمَا يَمْلِكُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ﴾.

(١) البدعة - بالكسر - : الحدث في الدين بعد الإكمال، والمبتدع: الذي يأتي أمراً على شبه لم يكن، بل ابتدأه هو.

ينظر: تاج العروس (٣٠٩/٢٠) (بدع)، ولسان العرب (٢٢٩/١) (بدع).

(٢) في ب: من.

(٣) قاله السدي أخرجه عنه الطبري (١٩٦/٦)، رقم (٦٦١٦)، وابن أبي حاتم (٦٧/٢) رقم (١١٠) وقاله أيضاً الربيع أخرجه عنه الطبري (١٩٦/٦) رقم (٦٦١٧).

(٤) قال القرطبي: قال شيخنا أبو العباس - رحمة الله عليه - : متبعو المتشابه لا يخلو أن يتبعوه ويجمعوه؛ طلباً للتشكيك في القرآن وإضلال العوام . . أو طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه . . أو يتبعوه على جهة إبداء تأويلاتها وإيضاح معانيها كما فعل صبيغ حين أكثر على عمر فيه السؤال؛ فهذه أربعة أقسام:

الأول: لا شك في كفرهم وإن حكم الله فيهم القتل من غير استتابة.

الثاني: الصحيح القول بتكفيرهم؛ إذ لا فرق بينهم وبين عبادة الأصنام والصور، ويستتابون: فإن تابوا وإلا قتلوا كما يفعل بمن ارتد.

الثالث: اختلفوا في جواز ذلك؛ بناء على الخلاف في جواز تأويلها.

الرابع: الحكم فيه الأدب البليغ كما فعله عمر بصبيغ.

ينظر: تفسير القرطبي (١١/٤).

(٥) بدل ما بين المعقوفين في ب: لحد ذا الوقت.

(٦) في ب: عز وجل.

أي: وما يعلم متبهي تلك الأمة^(١) إلا الله.

ثم المتشابه: إن كان ما يوقف فيه فهو، وإن كان مما يعرفه أهل المعرفة، ويعلمه بالواضح - فهو هو، وأصل هذا: أن كل ذي مذهب في الإسلام يدعي على خصمه بما ذهب إليه من الحجاج بالآيات - الوقوع في المتشابه، ولنفسه - الوقوع في الواضح، وعنده أن ما ذهب إليه هو الحق؛ فلا فرق بين أن يدعي عليه ذهابه إلى غير الحق، أو تعديه إلى المتشابه وترك الواضح، فسيل مثله الفحص والبحث عما ذهب إليه إن جاء بشيء يضطر العقل إلى قبوله سلم له ما جاء به، وإلا فخصمه منه في دعوى مثله: بالوقوع له في المتشابه بمحل دعواه.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾:

قال قوم: موضع الوقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿يَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾: «يقولون»، بمعنى: قالوا، «أمنّا به»^(٢): بما عرفنا، وذلك جائز في اللغة؛ «يقول» بمعنى: «قال».

وقال آخرون^(٣): موضع الوقف على قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾، ثم استأنف الكلام فقال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾: المحكم والمتشابه وغيره^(٤). قيل: الراسخون: هم المتدارسون^(٥).

(١) في ب: ملك.

(٢) أخرج الطبري (٦/ ٢٠٣)، رقم (٦٦٣٣) عن مجاهد: «والراسخون في العلم يعلمون تأويله، ويقولون: أمنّا به». وكذا قاله محمد بن جعفر بن الزبير أخرجه الطبري عنه (٦/ ٢٠٣)، رقم (٦٦٣٦).

(٣) هذا قول ابن مسعود وأبي بن كعب وابن عباس وعائشة كما في جامع الأحكام للقرطبي (٤/ ١٧)، وهو - أيضاً - قول الكسائي والأخفش والفراء وأبي عبيد وابن أبي حاتم كما في معاني القرآن الكريم لأبي جعفر النحاس (١/ ٣٥١). وبه قال الحسن وأكثر التابعين كما في تفسير البغوي (١/ ٢٨٠).

(٤) الراجح من القولين القول الثاني القائل بأن موضع الوقف على قوله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ ودليل رجحانه ما يلي:

أولاً: ما قبل هذه الآية يدل على أن طلب تأويل المتشابه مذموم - لقوله - تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ الآية، ولو كان طلب تأويل المتشابه جائزاً لما ذمه الله تعالى.

ثانياً: مدح الله الراسخين في العلم بأنهم يقولون أمنّا به، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦] والراسخون لو كانوا عالمين بالمتشابه تفصيلاً لما كان للإيمان به مدح لأنهم لو عرفوه وجب عليهم الإيمان به، وإنما الراسخون هم الذين يعلمون أن علم الله تعالى كامل والقرآن كلامه وهو لا يتكلم بالباطل والعبث فإذا سمعوا آية كان ظاهرها غير مراد فوضوا علم ذلك لله وقالوا: ﴿ءَأَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

وانظر تفصيل أدلة رجحان هذا القول في التفسير الكبير للرازي (٧/ ١٥٤).

(٥) قال البغوي: الدارسون علم التوراة والإنجيل. معالم التنزيل (١/ ٢٨٠). قال الواحدي في الوسيط (١/ ٤١٤): وعند أكثر المفسرين: المراد بالراسخين: علماء مؤمني أهل الكتاب.

وقيل: المتشابتون؛ رسخ، بمعنى: ثبت^(١).

وقيل: الراسخون^(٢): [الناجحون].

يقال: رسخ في العلم: نتج فيه^(٣).

فإن قيل: ما الحكمة في إنزال المتشابه؟

قيل: إذا كان مما يعلم فهو يحتمل وجهين:

يحتمل: ليعلم فضل العالم على غير العالم.

ويحتمل: أن جعل عليهم طلب المراد فيه، والفحص عما أودع فيه.

وإن كان مما لا يعلم يحتمل المحنة؛ امتحنهم في ذلك بالوقف فيه؛ إذ الدار دار

محنة، والله أن يمتحن عباده بجميع أنواع المحن.

وقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

أي: ما يتعظ إلا أولو الحجج والعقل.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ رَبَّنَا

إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَبَّ فِيهِ إِلَّاكَ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ أَلِيمَكَادَ ۝٩﴾

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾

فيه وجهان على المعتزلة:

أحدهما: أنه أضاف الزيغ إلى نفسه، وهو حرف مذموم عند الخلق، إذا قيل: فلان أزاغ فلاناً عن الحق، فإذا أضاف الله - عز وجل - إلى نفسه حرف الزيغ، دل أن فيه معنى سوى ظاهره؛ حتى جاز إضافته إليه، وهو أن خلق منهم فعل الزيغ، وكذلك هذا في الضلال، وأضاف - أيضاً - الهداية إلى نفسه بقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، فلو كان الهدى: البيان؛ على ما يقوله المعتزلة، لجاز أن يضاف ذلك إلى رسول الله ﷺ؛ إذ هو يملك البيان؛ لأنه بعث مبيناً معلماً، فإذا لم يجز ذلك دل أن فيه معنى سوى البيان وهو التوفيق والعصمة؛ حتى جاز إضافته إليه، ولا يجوز إلى غيره، والله الموفق.

(١) قاله الواحدي في الوسيط (١/٤١٤)، والبغوي في معالم التنزيل (١/٢٨٠).

(٢) رَسَخَ الشيءَ يَزْسُخُه رَسْخًا: ثبت في موضعه، والراسخ في العلم: الذي دخل فيه دخولاً ثابتاً. واعلم أن الراسخ في العلم هو الذي عرف ذات الله وصفاته بالدلائل اليقينية القطعية، وعرف أن القرآن كلام الله تعالى بالدلائل اليقينية، فإذا رأى شيئاً متشابهاً، ودل القطعي على أن الظاهر ليس مراد الله تعالى، علم حينئذ قطعاً أن مراد الله شيء آخر سوى ما دل عليه ظاهره، وأن ذلك المراد حق، ولا يصير كون ظاهره مردوداً شبهة في الطعن في صحة القرآن. ينظر: تفسير الرازي (٧/١٥٤).

وينظر: تاج العروس (٧/٢٥٧) (رسخ).

(٣) بدل ما بين المعقوفين في ب: الناتحون، يقال: نتج في العلم ورسخ فيه.

والثاني: أنهم سألوا العصمة عن الزيف والضلال، فلو كان عليه أن يفعل^(١)، وأن يذل لهم العصمة، لم يكن للسؤال عن ذلك معنى؛ فدل أنه تفضل منه ببذل ذلك لهم، والله أعلم.

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ الآية: فيه وجهان: أحدهما: أنه لو لم يكن له إلا الأصلح في الدين؛ فتركه جور، فالقول بـ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ - لا يخلو من أن يكون الإزاعة أصلح له، وهو يدعو بأن يجور أو لا يكون أصلح، فهو يدعو بأنه لا يجور، ومُحالّ الدعاء على خوف الجور؛ ومن خاف جور الخالق فهو غير عارف به.

والثاني: أن الداعي - فيما جبل عليه الخلق - يدعو على أمر أنه لو أجابه لكان لا يزيع قلبه، وكذلك سؤال العصمة والهداية؛ ولهذا يؤمر به - أيضًا - ولو كان معه زيع، لكان الأفضل في الأمر بين الدعاء بالإزاعة، وأن «لا تنزع»؛ إذ الخوف مع الأمرين قائم، والله الموفق.

وفي ذلك - أيضًا - وجهان آخران:

أحدهما: أن الإزاعة إذا أضيفت إلى أحد، خرجت مخرج الشتم له والتعير؛ فثبت^(٢) أن فيما أضيفت إلى الله - تبارك وتعالى - معنى ليس فيما أضيفت إلى أحد آخر غيره، وهو - والله أعلم - أن الإزاعة من كل أحد فعل هو زيع بنفسه فيه ذم، ومن الله ليست [بذم]؛ فيكون فيه أن خلق فعل الزيع ليس بزيع، وإن^(٣) كان فعله زيعًا، والله أعلم. وفيه أن خلق الشيء ليس هو ذلك، والشيء ذاته يكون من الله ما يوصف بالإزاعة، ويصير لديه الآخر زائغًا، ولا شيء يوجد يكون كذلك سوى خلق فعل الإزاعة من العبد، والله الموفق.

والثاني: قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾: ولو لم يكن من الله في الهداية سوى البيان، لكان يصح ذلك لكل كافر، ويجوز الإضافة إلى الرسل؛ فإذا لم يصح ذلك ولم يجز، ثبت أن ثم فضلًا، وهو خلق فعل الهداية، والتوفيق الذي معه الاهتداء لا محالة، وبالله [التوفيق] و^(٤) المعونة.

(١) أي: لوجب عليه أن يفعل، فالمعتزلة توجب على - الله - تعالى فعل الصلاح والأصلح. وقد تقدم بيان ذلك والرد عليه.

(٢) في ب: ثبت.

(٣) في ب: فإن.

(٤) سقط من ب.

وقوله: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾:

يحتمل وجوهاً:

يحتمل الهدى والإسلام؛ إذ به يستفاد.

ويحتمل الجنة.

ويحتمل أنهم سألوه كل رحمة.

قال أبو بكر الأصم: الرحمة: السعة في الدنيا، والثواب في الآخرة^(١).

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾:

فهو - على قول المعتزلة - ليس بوهاب؛ لأن الوهاب هو الْمُفْضِل الذي يهب ويبذل ما ليس عليه، وهو - على قولهم - عليه أن يعطي الخلق كل ما هو أصلح لهم في الدين؛ فالآية تكذبهم، وترد عليهم قولهم الْوَحْش^(٢) في الله، تعالى الله عن ذلك [علوًا كبيرًا]^(٣). ويحتمل: هب لنا ما يُشْتَوِج به الرحمة، وهو عمل الخير؛ كقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَاوِمُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

إقرار بالإيمان^(٤) والبعث بعد الموت^(٥).

(١) انظر: تفسير الرازي (١٥٧/٧).

(٢) الوحش: الرديء من كل شيء. وقد وَحْشَ وخاشَ. ينظر: تاج العروس (٤٤٦/١٧) (وحش).

(٣) سقط من ب.

(٤) الإيمان - لغة - : التصديق، وهو ضد الكفر، والتصديق ضد التكذيب. يقال: آمن به قوم وكذب به قوم، وهو مصدر آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن. قال الله - تعالى - : على لسان أولاد يعقوب: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] أي: بمصدق لنا.

وقد اختلف الأشاعرة والماتريدية حول هذا: فقد عرفه أبو الحسن الأشعري في اللمع بقوله: «إن قال قائل: ما الإيمان بالله تعالى عندكم؟ قيل له: هو التصديق بالله تعالى، فالإيمان عندهم عبارة عن التصديق القلبي.

والتصديق القلبي الذي يعنيه الأشاعرة هنا: الإيمان بالله سبحانه وإثبات ما أثبتته لنفسه من صفات، وأنه سبحانه ليس كمثله شيء.

يقول القاضي الباقلاني: «الإيمان بالله - عز وجل - هو: التصديق بالقلب بأنه الله الواحد الأحد الفرد الصمد القديم الخالق العليم الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير». فالإيمان عند الأشاعرة يعني المعرفة، وصحة الإيمان لا تكفي؛ إذ لابد من التصديق القلبي الذي هو المعرفة.

يقول الإمام البغدادي: «الإيمان هو الإقرار بالله عز وجل وبكتبه وبرسله، إذا كان ذلك عن معرفة، وتصديق بالقلب، فإن خلا الإقرار عن المعرفة بصحته لم يكن إيماناً».

ويرى الإمام الرازي: «أن الإيمان يعني الاعتقاد، والتصديق القلبي، أما القول فإنه مترجم لهذا التصديق ومظهر له، إذ يقول: «الإيمان عبارة عن التصديق، فهو الاعتقاد، والقول سبب لظهوره =

= والأعمال خارجة عن مسمى الإيمان.

ولقد نحا متأخرو الأشاعرة هذا المنحى في تفسير معنى الإيمان.

يقول الإيجي: «الإيمان تصديق الرسول ﷺ فيما علم مجيئه به ضرورة - أي: فيما اشتهر كونه من الدين - فتفصيلاً فيما علم تفصيلاً، وإجمالاً فيما علم إجمالاً».

وأما الماتريدية فإنهم يرون أن الإيمان هو: «تصديق بالقلب وإقرار باللسان»، فهم لم يحصروا حقيقته في التصديق فقط مثلما قال الأشاعرة، لكنهم - أي الماتريدية - يشترطون الإقرار مع التصديق، ولا يكفي الإقرار وحده في صحة الإيمان عند الماتريدية، وإلا للزم الحكم بإيمان المنافقين، وكذلك فالتصديق وحده على حد قول الماتريدية ليس يكفي في صحة الإيمان وإلا للزم الحكم على أهل الكتاب كلهم بالإيمان.

ولقد ذهب الماتريدية في ذلك مثلما ذهب أبو حنيفة؛ إذ قال: «الإيمان إقرار باللسان، وتصديق بالجنان، والإقرار وحده لا يكون إيماناً؛ لأنه لو كان إيماناً لكان المنافقون كلهم مؤمنين، وكذلك المعرفة وحدها.

وبهذا لا يكون مجرد التصديق إيماناً؛ إذ لو كان كذلك لكان أهل الكتاب كلهم مؤمنين، ولقد قال الله - عز وجل - في شأن المنافقين: ﴿وَاللَّهُ يَنْهَدُ عَنْ الْكٰفِرِينَ لِكُذِبُوۡنَ﴾ [المنافقون: ١]، أي: لا تصديق لهم لكذبهم في دعواهم، وقال الله - سبحانه - كذلك: ﴿الَّذِيۡنَ ءَاتٰتٰهُمُ الْكِتٰبَ يَتَرَفُّوۡنَ كَمَا يَتَرَفُّوۡنَ اٰنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] وبهذا يتضح أن مجرد الإقرار ليس يكفي، وكذلك التصديق فإنه ليس يكفي، إذن لابد أن يكون كل منهما منضماً إلى الآخر.

لكن سؤالاً مهماً يجب طرحه هنا في خصوص ما قال به الإمام أبو حنيفة وهو:

إذا كان الإمام أبو حنيفة قد قال بأن الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان، فهل يعني هذا أنه قد جعل الإقرار شرطاً للإيمان أو - على الأقل - ركناً له؟

وماذا نقول مثلاً - تبعاً لما يقول به الإمام أبو حنيفة - في قوم صدقوا بقلوبهم وأقروا بخلاف الذين صدقوا به، مع أن القرآن قد أيدهم، فقال الله - جل وعز -: ﴿اِلَّا مَنْ اُكْثِرَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْاٰمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

والإمام أبو حنيفة يقول: بأن الإقرار وإن كان شرطاً إلا أنه قد يحتم سقوطه مع صحة إيمان صاحبه، وهذا في حالة الإكراه، مثلما كان المشركون يفعلون مع بعض الصحابة الذين نزلت فيهم الآية السابقة. وبهذا يكون التصديق على مراتب ثلاث:

الأولى: الذي يصدق بقلبه ويقر بلسانه، فهذا يكون مؤمناً عند الله وعند الناس.

الثانية: الذي يصدق بقلبه ويكذب بلسانه، فهذا نوع قد اضطرتة أحواله وظروفه، وهو ما نزلت فيه الآية السابقة.

الثالثة: الذي يصدق بلسانه ويكذب بقلبه، وهذا هو المنافق، ولقد قال الله - تعالى - في هذا النوع: ﴿اِذَا جَآءَكَ الْمُتَنَفِقُوۡنَ...﴾ [المنافقون: ١].

ومما سبق يتضح مما قاله الإمام أبو حنيفة أنه رغم جعله الإقرار باللسان ركناً - أو شرطاً على الأقل - في الإيمان، إلا أنه قد جعله ركناً زائداً غير أصيل، ومجرد شرط لإجراء الأحكام في دار الدنيا. ويوضح هذا ما قاله الإمام ابن الهمام الحنفي: «الإيمان تصديق بالقلب واللسان، ويعبر عنه بأنه تصديق بالجنان وإقرار باللسان، وهو منقول عن أبي حنيفة ومشهور عن بعض أصحابه».

والذي قال به الإمام أبو حنيفة وعرضه الإمام ابن الهمام كان مذهب متقدمي الماتريدية ومتأخريهم، ويؤيد هذا ما قاله أبو اليسر البزدوي الذي يعد من متأخري الماتريدية حيث يقول: =

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ أَلْعَمَادَ﴾

في هذا خاصة: يراد به القيامة والبعث.

ويحتمل: لا يخلف الميعاد في كل شيء، مما يصيب الخلق: من الخير والشر، والفرح والحزن والأسف، يقولون: إنه كان بوعده ووعيده، وإنه كان مكتوباً عليهم ولهم، وإنه لا يكون على خلاف ما كان مكتوباً عليهم؛ ليصبروا على الشدائد والمصائب، فلا يجزعوا عليها، ولا يحزنوا، وليشكروا على الآلاء والنعماء ولا يفرحوا عليها، وهو كقوله: ﴿لَيْكِلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١٠) **الْعَقَابِ** (١١) ﴿

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، وذلك أنهم كانوا يستنصرون بأولادهم وأموالهم في الدنيا، ويستعينون بهما على غيرهم؛ فظنوا أنهم يستنصرون بهم في الآخرة، ويدفعون بهم عن أنفسهم العذاب؛ وهو كقولهم: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]؛ فأخبرهم الله - عز وجل - أن أموالكم وأولادكم لا تغني عنكم من عذاب الله (١) شيئاً. وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾:

= «الإيمان اعتقاد بالقلب، وإقرار باللسان».

وكذلك يؤيده ما يقوله صاحب نظم الفرائد وجمع الفوائد: «ذهب مشايخ الحنفية إلى أن الإيمان هو الإقرار والتصديق، فالإقرار شطر منه». ونخلص من هذا إلى أن الماتريدية قد اتفقوا على تعريف الإيمان بأنه: «تصديق بالقلب، وإقرار باللسان».

ينظر: لسان العرب (٤١/١) (أمن)، اللمع لأبي الحسن الأشعري (١٢٣)، الإنصاف للباقلائي (٢٣)، أصول الدين للبغدادي (٢٤٩)، شرح المواقف للإيجي (٣٢٢/٨)، الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة بشرح ملا على القاري (١٢٤)، المسيرة للإمام الكمال بن الهمام (٢)، أصول الدين للبزدوي (١٤٦)، نظم الفرائد وجمع الفوائد لشيخ زاده (٣٧)، شرح العقائد النسفية للفتناني (١٢٥)، شرح البيجوري على الجوهرة (٢٩).

(٥) قال جميع أهل القبله وجميع أهل الكتاب: إن البعث حق خلافاً للفلاسفة والدليل على أن البعث حق نصوص كثيرة منها: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧] وقال - تعالى-: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ ...﴾ [يس: ٧٨]. انظر: أصول الدين للبزدوي (١٥٧).

(١) في ب: النار.

أي: حطب النار؛ فهو - والله أعلم - أن الإنسان إذا وقع في النار في هذه الدنيا لا يحترق احتراق الحطب؛ ولكنه يذوب ويسيل منه الصديد، فقال الله - عز وجل - : إنهم يحترقون في النار في الآخرة احتراق الحطب، لا احتراق الإنسان في الدنيا؛ لأنها أشدُّ بطشًا، وأسرع أخذًا، وأطول احتراقًا؛ وعلى هذا يخرج قوله: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ : ليس كعذاب الدنيا أنه على الانقضاء والنفاد؛ ولكن على الدوام فيها والخلود أبد الأبدين؛ فنعوذ بالله منها.

وقوله: ﴿كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ .

قيل: كأشباه^(١) آل فرعون، وقيل: كعمل آل فرعون وكصنيعهم^(٢)، وكله واحد، ثم يحتمل بعد هذا وجهين:

يحتمل: صنيع هؤلاء وعملهم - كصنيع آل فرعون ومن كان قبلهم بموسى، في التكذيب والتعنت.

ويحتمل بصنيع هؤلاء بما يلحقهم من العذاب بالتكذيب والتعنت؛ فألحق أولئك من العذاب بتكذيب الرسل، وتعنتهم عليهم.

﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ :

قد ذكرناه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ وَلَٰكِنْ سَعْتُهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْإِلَهَادَ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ يُثُوءَ تَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى أَعْيُنَ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرِيهِ مَنْ يَشَاءُ إِيَّاكَ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ وقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ وَلَٰكِنْ سَعْتُهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْإِلَهَادَ﴾

هذا - والله أعلم - في قوم قد علم الله - عز وجل - أنهم لا يؤمنون أبدًا؛ لذلك قال [تعالى] ^(٣) لنبيه ﷺ: أن قل لهم: ﴿سَعْتُهُمْ وَلَا إِلَهَ إِلَّا جَهَنَّمُ...﴾ الآية، وإلا فلا يلحقه ذلك الوعيد، والله أعلم؛ لأن من الكفار من يسلم ومن لا يسلم، [وإلا فلا يلحق بالوعيد من الكفار من أسلم]^(٤).

(١) قاله ابن عباس، أخرجه عنه الطبري (٢٢٤/٦) رقم (٦٦٦٤)، وابن أبي حاتم (٩١/٢) رقم (١٥٣). وقاله أيضًا الضحاك وعكرمة ومجاهد. ينظر: المصدران السابقان.

(٢) قاله الربيع بن أنس ولفظه: «كسنتهم». أخرجه عنه الطبري (٢٢٣/٦)، رقم (٦٦٥٩) وقال ابن أبي حاتم (٩٢/٢) رقم (١٥٨): وروي عن الربيع بن أنس أنه قال: كشيبه آل فرعون.

(٣) سقط من ب.

(٤) ما بين المعقوفين سقط من ب.

وقوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾

فيه: فإن قال قائل: ما في فئة^(١) قليلة، وهي فئة أهل الإسلام، في غلبة فئة كثيرة، وهي فئة المشركين؛ حيث غلبت فئة المسلمين - وهم قليل - فئة المشركين - وهم كثير - يوم بدر^(٢)، وقد يكون لأهل الكفر إذا كانوا قليلاً^(٣)، فغلبوا على أهل الإسلام - آية.

قيل: ليست الآية في الغلبة خاصة؛ لكن الآية فيها [والله أعلم]^(٤) وفي غيرها من وجوه:

أحدها: أن غلبة المسلمين، مع ضعف أبدانهم، وقلة عددهم، وخروجهم لا على وجه الحرب والقتال - المشركين مع قوة أبدانهم، وكثرة عددهم، واستعدادهم للحرب، وخروجهم على ذلك، والقتال - آية، وعلم العدو أن ليس لهم فئة، ولا لهم رجاء المدد، وأن لا غياث لهم من البشر، وذلك آية الجرأة وعلامة الشجاعة، ومعه آمن، والله أعلم. والثاني: [أن]^(٥) ما روي أن رسول الله ﷺ أخذ كفاً من تراب، فرماه على وجوههم، وقال: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ»^(٦)؛ فامتلاأت أعينهم من ذلك وعموا؛ حتى انهزموا؛ فصار آية. والثالث: ما قيل: إن أبا جهل قام فدعا فقال: «أَيْنَا أَحَقُّ دِينًا، وَأَوْصَلُ رَحِمًا؛

- (١) الفئة: الجماعة من الناس، وقيدها بعضهم بالمظاهرة، وبعضهم بالمتعاضدة. قال السمين الحلبي: وهما مقاربتان. قال الراغب: الفئة: الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضها إلى بعض في التعاضد.
- ينظر: عمدة الحفاظ (٣/٢٢٩)، المفردات للراغب الأصفهاني (ص ٣٨٩).
- (٢) بدر: قرية مشهورة على نحو أربعة مراحل من المدينة الشريفة، قيل: نُسبت إلى بدر بن مُخَلَّد بن النضر بن كنانة، وقيل: إلى بدر بن الحارث، وقيل: إلى بدر بن كَلْدَةَ. وقيل: بدر: اسم البئر التي بها؛ سُمِّيت بذلك لاستدارتها أو لصفائها فكان البئر يُرى فيها، وأنكر ذلك غَيْرُ واحد من شيوخ بني غفار وقالوا: هي ماؤنا، ومنازلنا وما ملكها أحد قط يقال له بَدْر، وإنما هو غَلَمٌ عليها كغيرها من البلاد. قال الإمام البَغَوِيُّ: وهذا قول الأكثر.
- ينظر: سبل الهدى والرشاد للصلحي (٤/١٢٠)، مراصد الاطلاع لصفي الدين البغدادي (١/ ١٧٠ - ١٧١).

- (٣) في ب: قليل.
- (٤) سقط من ب.
- (٥) سقط من ب.
- (٦) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/٢٢٧) رقم (٣١٢٨) عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر أمر رسول الله ﷺ فأخذ كفاً من الحصباء فاستقبلنا به فرمانا بها، وقال: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ» فانهزمتنا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]. وإسناده حسن، قاله الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٨٤).

فَانْصُرْهُ، واجْعَلِ الْغَلَبَةَ وَالْهَزِيمَةَ عَلَى الْآخِرِ^(١)، فاستجيب؛ فكانت الغلبة والهزيمة عليهم؛ فكان آية.

والرابع: ما أعان الملائكة المسلمين، وبعثهم الله - عز وجل - مددًا لنصرة المؤمنين على الكافرين يوم بدر؛ فذلك آية.

وجه آخر: ما ذكرنا أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا خرجوا شبه العير^(٢) بغير سلاح، غير مستعدين للقتال على علم منهم بذلك، وأولئك خرجوا مستعدين لذلك، فكان ما ذكر، والله أعلم.

قال الشيخ - رحمه الله -: في ذكر القليل في الأعين من الجانبين آية عظيمة؛ إذ هي حسيّة، والحواس تؤدي عن المحسوسات حقائقها، فجعلها الله بحيث لا تؤدي؛ لما قال: ﴿يَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَأَن كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]؛ فيحتمل أن يكون المراد مما ذكر من الآية في أمر الفئتين - هذا، والله أعلم^(٣).

وقوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ يَشْهَدُهُمْ رَأَى الْقَيْنِ﴾. وفي بعض القراءات: «ترونها» بالتاء^(٤): يرى المؤمنون أولئك مثلي أنفسهم لا أكثر، وهم كانوا ثلاثة أمثالهم، على ما روي في القصة^(٥)؛ وهذا لما جعل الحق عليهم قيام الواحد من المسلمين بالاثنتين منهم، مع ضعفهم؛ لجهدهم في العبادات، وبلوغهم الغاية من احتمال الشدائد والمشقات.

(١) أخرجه أحمد (٤٣١/٥)، والنسائي في الكبرى (٣٥٠/٦) كتاب التفسير: باب قوله - تعالى -: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]، (١١٢٠١)، والحاكم في المستدرک (٣٢٨/٢)، والبيهقي في الدلائل (٧٤/٣) من طرق عن الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعيبر قال: كان المستفتح يوم بدر أبو جهل، وإنه قال حين التقى القوم: اللهم أبنا كان أقطع للرحم وآتى لما لا نعرف فاحنه الغداة، وكان ذلك استفتاحه، فأنزل الله ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. واحنه: أهلكه.

(٢) العير - بالكسر -: القافلة أو العير: الإبل التي تحمل الطعام. ينظر: تاج العروس (١٧٥/١٣) (عير).

(٣) في ب: الموفق.

(٤) قرأ نافع ويعقوب وسهل: «ترونها» بالتاء على الخطاب، وقرأ باقي السبعة بالياء على الغيبة، وقرأ ابن عباس وطلحة «ترونها» بضم التاء على الخطاب. راجع: البحر المحيط لأبي حيان (٤١١/١) السبعة لابن مجاهد (ص: ٢٠١)، الحجة لابن خالويه (ص: ١٥٤)، إتحاف فضلاء البشر للبنا (٤٧٠/١).

(٥) قاله الربيع بن أنس ولفظه بعد أن ذكر الآية: «كان ذلك يوم بدر، وكان المشركون تسعمائة وخمسين رجلاً، وكان أصحاب محمد ﷺ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً».

أخرجه الطبري (٢٣٧/٦)، رقم (٦٦٨٨)، وابن أبي حاتم (٩٨/٢)، رقم (١٦٦).

أخبر - عز وجل - بمعرفتهم أمر أهل الحرب، وشدة رغبتهم في تعلمهم ما يحتاجون في الحرب والقتال؛ ولهذا قالوا: إن الله - عز وجل - علم المؤمنين جميع ما يحتاجون في الحرب من الآداب وغيرها في الكتاب؛ كقوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال: ٤٥]: أمرهم بالتثبت، ثم قال: ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]، وقال: ﴿وَلَا تَنَرَّعُوا فَتَقْشَلُوا﴾ [الأنفال: ٤٦]: فجعل التنازع الواقع بينهم - على خلاف بعضهم بعضاً - سبب الهزيمة؛ فيه أمر بالاجتماع، وجعل التدبير واحداً، والطاعة لإمامهم. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾:

وإنما كان عبرة؛ لما ذكرنا من خروج المؤمنين بقله عددهم، وضعف أبدانهم، بلا استعداد للحرب والقتال، إنما هو خروج شبه العير، وخروج أولئك بالعدة مع قوة أبدانهم، وكثرة عددهم، وطمع المدد لهم، ولم يكن للمسلمين ذلك؛ ففي مثل غلبة المؤمنين الكافرين، والظفر بهم، والنصر لهم عليهم، على الوصف الذي وصفناهم - عبرة، وآية لأولى الأبصار والعبر.

قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْرُ الْمَقَابِ ۖ﴾ ﴿١٤﴾ قُلْ أُوْتِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لَكُمُ الَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَاءَتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَعْمَانَا فَافْغِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَفِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّادِقِينَ وَالْقَسِيدِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقِينَ بِالْأَسْعَارِ ﴿١٧﴾

وقوله: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾

أي: الشهيات.

﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾

وما ذكر ... إلى آخره.

قال الحسن: والله ما زيتها إلا الشيطان؛ إذ لا أحد أذم لها ولأهلها من الله تعالى^(١)، وإليه يذهب المعتزلة، لكن الأصل في هذا وفي أمثاله: أن الله - عز وجل - زين هذه الأشياء، والتزيين من الله [- سبحانه]^(٢) وتعالى - يقع لوجهين، وكذلك الكراهة -

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٤/٢) رقم (١٧٨) عنه قال: زين لهم الشيطان. وأخرجه الطبري (٦/ ٢٤٣) رقم (٦٦٩٤)، وابن أبي حاتم (١٧٧/٢)، رقم (١٧٧) عنه قال: من زينها؟ ما أحد أشد لها ذماً من خالقها.

(٢) سقط من ب.

أيضاً - تقع لوجهين:

تزين في الطبع، والطبع يرغب فيما يتلذذ ويُشتهي، وإن لم يكن في نفسه حسناً. وتزين في العقل، فلا يتزين في العقل إلا فيما ثبت حسنه بنفسه، أو الأمر أو حمد العاقبة ونحو ذلك، ثم جعل العقل مانعاً له، راداً عما يرغب إليه الطبع ويميل؛ لأن الطبع أبداً يميل [ويرغب]^(١) إلى ما هو ألدّ وأشهي وأخف عليه، وينفر عما يضره ويؤلمه. والعقل لا ينفر إلا عما هو القبيح في نفسه، ويرغب فيما هو الحسن في نفسه؛ وعلى ذلك يخرج قوله ﷺ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَالتَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»^(٢): ليس على كراهة العقل، ولا على شهوة العقل؛ ولكن على كراهة الطبع وشهوته؛ وكذلك قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]: ليس على كراهة الاختيار، ولكن كراهة الطبع؛ لأن كراهة العقل كراهة الاختيار، وكذلك رغبة العقول رغبة الاختيار، وفيها تجري الكلفة^(٣) - أعني: على اختيار العقل، لا اختيار الطبع - بما يميل ويرغب في الألدّ، وينفر عن الضار؛ دليله قوله: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] أخبر أنهم لا يؤمنون ما وجدوا في قضائه حرجاً؛ فدلّت الآية أن الخطاب والكلفة إنما يكون على اختيار العقل وكراهيته، لا على اختيار الطبع؛ لذلك قلنا: إنه يجوز التزين في الطبع من الله تعالى، وكذلك الكراهة في الطبع تكره^(٤) من الله تعالى^(٥).

فأما قولهم^(٦): إن الشيطان هو الذي زينها: فإن عنوا أنه يزينها لهم، أي: يرغبهم

(١) سقط من ب.

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٤/٣)، وعبد بن حميد (١١١٣)، ومسلم في صحيحه (٢١٧٤/٤): كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (١ - ٢٨٢٢)، والترمذي (٣١٩/٤) أبواب صفة الجنة: باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات، (٢٥٥٩)، وابن حبان في صحيحه رقم (٧١٦ - الإحسان) من طريق حماد بن سلمة عن ثابتٍ وحديد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ».

وأخرجه أحمد (٢٦٠/٢)، والبخاري في صحيحه (١١٦/١٣): كتاب الرقاق: باب حجب النار بالشهوات، (٦٤٨٧)، ومسلم في الموضع السابق، وابن حبان (٧١٩) من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة به مرفوعاً. وعند البخاري «حجبت» مكان «حفت».

(٣) أي: التكاليف، وهي: إلزام ما فيه كلفة أو توجه الخطاب بالأمر والنهي على المخاطب. انظر: أصول الدين لعبد القاهر البغدادي (٢٠٧).

(٤) في ب: مكره.

(٥) في ب: عز وجل.

(٦) في ب: وقولهم.

ويدعوهم إليها، ويريهـم زينتها - فنعم. وإن عـنوا أَنه يزيناها بحيث تُفَسِّـهـا لهم - فلا؛ لأن الله - تعالى - وصف الشيطان بالضعف، ونفي عنه هذه القدرة بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، فلو جعلنا له التزيين لهم على ما قالوا، لم يكن كيده على ما وصفه - عز وجل - بالضعف؛ ولكن كان قويًا، ولكنه يدعوهم إليها، ويرغبهم فيها، ويريهـم المزين لهم، ثم دعاؤه إياهم، وحجته في ذلك، وقوته من حيث ما لا يطلع عليه بقوله: ﴿إِنَّهُ يَرْتَكِبُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا رَأْيَ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فالعدو الذي يـرى هو من يعاديه، ولا يـرى هو - كان يجب أن يكون أحذر منه، وأخوف ممن يـرى.

ووجه آخر: أن الشهوات التي أضاف التزيين^(١) إليها لا خلاف بينهم في أنها مخلوقة لله [تعالى]^(٢)، فما بقى للشيطان إلا الدعاء إليها، والترغيب فيها.

وفيه وجه آخر: أنه لو لم يجعل هذا مزيئاً من الله تعالى^(٣)، زال موضع استدلال الشاهد على الغائب، وبالدنيا^(٤) على الآخرة. وقد جعل ما في الدنيا نوعين: مستحسنًا ومستقبحًا.

وجعل ذلك عيارًا لما أوعـد ووعد، فلما لم يكونا منه - لا يصح موضع التعبير، لأنه - جلّ وعلا - بلطفه سخر كلّ مرغوب في الدنيا، ومدعو إليه من جوهره - في الآخرة، وحسنه؛ ليرغب الناس هذا إلى ما في الجنة بحسنه ولطفه وزينته، ويدعوهم إلى ترك ما في الدنيا من الفاني إلى نعيم دائم أبداً، فلو جعل هذا من تزيين^(٥) الشيطان - لعنه الله - ومصنوعه لهم، لذهب عظيم موضع الاستدلال الذي ذكرنا؛ فدلّ أنه مزين منه عز وجل، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثم امتحنهم [الله]^(٦) - عز وجل - بترك ما زين لهم في الطباع؛ بما ركب لهم من العقول الوافرة؛ ليختاروا ما حسن في العقول وتزين، وعلى ذلك جرت الكلفة والخطاب، لا بما مالت إليه الطباع، ونفرت عنه العقول، وبالله التوفيق.

ثم في الآية دلالة وجوب الحق^(٧) في كل ما ذكر في الآية من المال، وكذلك الخيل،

(١) في ب: التزيين.

(٢) سقط من ب.

(٣) في ب: عز وجل.

(٤) في ب: الدنيا.

(٥) في ب: تزيين.

(٦) سقط من ب.

(٧) الحق: هو الزكاة. روت فاطمة بنت قيس أنها قالت: «سئل النبي ﷺ عن الزكاة، فقال: إن في المال

لحقاً سوى الزكاة».

وأما في النساء والبنين: فلما مُتُّعُوا بهم - أوجب عليهم النفقة^(١) كذلك. وقوله - عز وجل - ﴿وَالْفَنَظِيرُ الْمُعْطَرَفُ مِنْكَ أَلْذَهَبٍ وَالْفُضَّةُ وَالْخَيْلُ الْمُسَوَّمَةُ﴾: أوجب في النساء عليهم النفقة، وكذلك البنين، وأوجب في الذهب والفضة حقاً^(٢)، ثم ذكر الخيل

= أخرج الترمذي (٤٨/٣) كتاب الزكاة، باب ما جاء أن في المال حقاً سوى الزكاة، رقم (٦٥٩) وابن ماجه (٥٧٠/١) كتاب الزكاة: باب ما أدى زكاته ليس بكنز، حديث (١٧٨٩).

قال أبو عيسى: هذا حديث إسناده ليس بالقوى، وأبو حمزة ميمون الأعور ضعيف، وروى بيان وإسماعيل بن سالم عن الشعبي هذا الحديث قوله: «إن في هذا المال حقاً سوى الزكاة»، وهذا أصح.

(١) النفقة: قال الجوهري في الصحاح: «نَفَقَ الْبَيْعُ نَفَاقًا، بِالْفَتْحِ أَي: زَاجًا، وَالتَّفَاقُ بِالْكَسْرِ: فِغْلُ الْمَنَاقِفِ. وَالتَّفَاقُ أَيضًا. جَمَعَ النِّفْقَةَ مِنَ الدَّرَاهِمِ» - ثم قال: «وَقَدْ أَنْفَقْتَ الدَّرَاهِمَ مِنَ النِّفْقَةِ». اهـ. وقال صاحب القاموس: «النَّفَقَةُ، مَا تُنْفَقُ مِنَ الدَّرَاهِمِ وَنَحْوِهَا»، ثم قال: «وَأَنْفَقَ: افْتَقَرَ، وَأَنْفَقَ مَالَهُ: أَنْفَدَهُ، كَاسْتَنْفَقَهُ». اهـ.

وقال ابن منظور في لسان العرب: «أنفق المال: صَرَفَهُ، وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا وَمَا رَزَقَهُ اللَّهُ﴾ [يس: ٤٧] أَي: أَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَطْعَمُوا، وَتَصَدَّقُوا. وَأَسْتَنْفَقَهُ: أَذْهَبَهُ. وَالتَّفَقُّةُ: مَا أَنْفَقَ وَالْجَمْعُ، نَفَاقٌ» - ثم قال: «وَقَدْ أَنْفَقْتَ الدَّرَاهِمَ، مِنَ التَّفَقُّةِ»، وَالتَّفَقُّةُ: مَا أَنْفَقْتَ، وَأَسْتَنْفَقْتَ عَلَى الْعِيَالِ، وَعَلَى نَفْسِكَ». اهـ.

ويستفاد من هذه النصوص، أن النفقة اسم لما تصرفه من الدراهم أو نحوها على نفسك أو غيرك، واصطلاحاً:

عند الحنفية: في «تنوير الأبصار مع شرح الدر المختار»: هي الطعام والكسوة والسكنى، وعرفاً: هي الطعام.

وعند المالكية: في «شرح الخرشي على مختصر خليل»: النفقة مطلقاً ما به قوام معتاد حال الآدمي دون سرف.

وعند الشافعية: قال الشراكوي في حاشيته على «شرح التحرير»: النفقة: طعام مقدر لزوجته وخادمها على زوج، ولغيرهما من أصل وفرع، وريق، وحيوان ما يكفيه.

وعند الحنابلة: في «الإقناع والتمهيد»: هي كفاية من يمونه، خبزاً، وأدماً وكسوة، ومسكناً، وتوابعها.

ينظر: الصحاح (٥٦٠/٤) (نفق)، والمغرب (٣١٩/٢)، وترتيب القاموس المحيط (٢٩٦/٣) (نفق)، وأنيس الفقهاء للقونوي ص ١٦٨، ودرر الحكام لملا خسرو (٤١٢/١).

(٢) أجمع الفقهاء على وجوب الزكاة في الذهب والفضة لقوله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ أَلْذَهَبَ...﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥] مع قوله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقاً إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره...» الحديث، أخرجه مسلم (٦٨٠/٢): كتاب الزكاة: باب إثم مانع الزكاة، رقم (٩٨٧).

ونصاب الذهب عند الجمهور: عشرون مثقالاً، والمثقال يساوي ٤٢٥ جراماً، وفيه ربع العشر.

ونصاب الفضة مائتي درهم بالإجماع والدرهم ثلاثة جرامات تقريباً وفيه ربع العشر.

ينظر: فتح القدير للكمال بن الهمام (٥٢٤/١)، المبسوط للسرخسي (١٩٠/٢)، حاشية =

المسومة^(١): إن كان المراد منه جعلها سائمة؛ لذلك قال أبو حنيفة^(٢) [رضي الله عنه]^(٣): إنَّ في الخَيْلِ صدقة^(٤)، ثم اختلف في المسومة؛ قال بعضهم: هي المسيئة الرابعة^(٥).

- = الدسوقي مع الشرح الكبير (١/٤٥٥)، شرح المذهب للنووي (٥/٤٩٠)، المغني لابن قدامة (٢/٣١٩)، المحلى لابن حزم (٤/١٨٤).
- (١) السوم هو إرسال الماشية في الأرض ترعى فيها، يقال: سامت الماشية وأسامها مالكةا، وسامت تسوم سوفاً: إذا زَعَتْ فهي سائمة.
- ينظر: النظم المستعذب لابن بطلال (١/١٤١).
- (٢) هو النعمان بن ثابت الفقيه الإمام بالعراق والكوفة وإمام المذهب الحنفي الأول، أعلم أهل زمانه، قال ابن المبارك: ما رأيت في الفقه مثل أبي حنيفة. مات سنة ١٥٠هـ.
- تنظر ترجمته في: تهذيب الكمال للمزي (٧/٣٣٩)، تقريب التهذيب لابن حجر (٣/٧٢٠)، خلاصة تهذيب تهذيب الكمال للخزرجي (٣/٩٥)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/٣٩٠) رقم (١٦٣).
- (٣) سقط من ب.
- (٤) اختلف الفقهاء في زكاة الخيل على رأيين:
- الأول: الخيل التي ليست للتجارة لا زكاة فيها ولو كانت سائمة واتخذت للنماء وسواء كانت عاملة أو غير عاملة، وهذا رأي جمهور الفقهاء مالك والشافعي وأحمد ومحمد وأبي يوسف صاحبي أبي حنيفة، ويروى عن عمر وسعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز. ومما استدلل به الجمهور قوله ﷺ: «ليس على المسلم في فرسه وغلामه صدقة» الحديث أخرجه البخاري (٣/٣٨٣) كتاب الزكاة: باب ليس على المسلم في عبده صدقة، ومسلم (٢/٦٧٥) كتاب الزكاة: باب لا زكاة على المسلم في عبده وفرسه رقم (٩٨٢).
- الثاني: الخيل إذا كانت سائمة ذكورا وإناثا فيها الزكاة، وذهب إلى هذا الرأي أبو حنيفة وزفر وليس في ذكورها ولا إناثها منفردة زكاة؛ لأنها لا تتناسل، وفي رواية أثبتت الزكاة في الإناث المنفردات، إذ إنها تتناسل بالفحل المستعار، ورواية أخرى أنها تجب في الذكور المنفردات. واستدل أصحاب هذا الرأي بقول النبي ﷺ: «هي لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر فأما الذي هي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك من المرج والروضة كانت له حسنات، فلو أنها قطعت طيلها ذلك، فاستنت شرفا أو شرفين، كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقي به كان ذلك له حسنات، فهي لذلك أجر، ورجل ربطها تغنيا وتعففا، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي لذلك ستر، ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء لأهل الإسلام، فهي على ذلك وزر».
- أخرجه البخاري (٦/٧٥) كتاب الجهاد، باب الخيل ثلاثة...، رقم (٢٨٦٠)، ومسلم (٢/٦٨٠) كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم (٩٨٧)، من حديث أبي هريرة.
- وانظر تفصيل هذه المسألة في: تبين الحقائق للزيلعي (١/٢٦٥)، مجمع الأنهر لشيخ زاده (١٠/٢٠٠)، المتتقى شرح الموطأ للزرقاني (٢/١٨٥)، شرح المذهب (٥/٣١١)، المحلى لابن حزم (٤/٣٤)، قواعد الأحكام في مصالح الأنعام للعز بن عبد السلام (٢/١٧١).
- (٥) قاله سعيد بن جبير، أخرجه عنه الطبري (٦/٢٥١ - ٢٥٢) رقم (٦٧٢٩)، وابن أبي حاتم (٢/١٢٣)، رقم (٢٠٣).
- وقال بذلك أيضًا مجاهد، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى، والحسن، والربيع عند الطبري.

وقال آخرون: هي المعلمة^(١)، وعن ابن عباس - رضي الله عنه - : «المُسَوِّمَةُ الرَّاعِيَّة»^(٢).

وقال غيرهم: الْمُطَهَّمَةُ^(٣)، وهي الْمُحَسَّنَةُ^(٤).

ثم أخبر أن ما ذكر في الآية ﴿ذَلِكَ مَتَكُعُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا﴾ ، وأمرهم بترك ذلك، وأخبر أن لهم عنده: ﴿حُسْنُ الْمَتَابِ﴾، إن هم تركوا مما امْتَحَنُوا [به]، ثم قال: إن من اتقى في الدنيا [له خير]^(٥) من ذلك بقوله:

﴿قُلْ أُوْتَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . .﴾ إلى آخره.

ثم اختلف في ﴿وَالْقَنْطَارِ الْمَقْنَطَرَةِ﴾؛ منهم من قال^(٦): ألف ومائتا أوقية^(٧).

= قال الواحدي في الوسيط (٤١٩/١): يقال: أسمت الماشية وسومتها: إذا رعتها، فهي مسامة ومسومة. ومنه قوله -تعالى-: ﴿فِيهِ لُيُؤْمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

(١) قاله ابن عباس، أخرجه عنه ابن جرير الطبري (٢٥٤/٦) رقم (٦٧٤٦)، وكذلك قاله قتادة أخرجه عنه الطبري (٦٧٤٧، ٦٧٤٨)، وابن أبي حاتم (١٢٦/٢) رقم (٢١١)، وقال الواحدي في الوسيط (١/٤١٩): من السِما التي هي العلامة.

(٢) أخرجه الطبري (٢٥٢/٦)، رقم (٦٧٣٤) وابن المنذر كما في الدر المنثور (١٩/١).

(٣) المطهم: الجميل التام الخلق من الناس والأفراس.

ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ص (٦٢٦) (طهم).

(٤) قاله ابن عباس، أخرجه عنه ابن أبي حاتم (١٢٢/٢)، رقم (٢٠٢). وقاله أيضًا مجاهد وعكرمة. ينظر: تفسير الطبري (٢٥٣/٦).

(٥) في ب: خير له.

(٦) ورد في ذلك حديث مرفوع أخرجه الطبري (٢٤٥/٦) رقم (٦٧٠٢) عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «القنطار ألف أوقية ومائتا أوقية». وهذا حديث منكر. والأقرب أن يكون موقوفًا على أبي بن كعب.

قلت: وقد ورد عن جماعة من الصحابة موقوفًا منهم:

معاذ بن جبل: أخرجه عنه الطبري (٢٤٤/٦)، رقم (٦٦٩٦)، والبيهقي في السنن (٢٣٣/٧)،

وابن أبي حاتم (١٠٨/٢)، رقم (١٨٢)، وعبد بن حميد كما في الدر المنثور (١٨/٢).

وأبو هريرة: أخرجه الطبري (٢٤٤/٦) (٦٧٠٠)، والبيهقي (٢٣٣/٧)، وعبد بن حميد كما في

الدر المنثور (١٨/٢). ومنهم كذلك ابن عمر: أخرجه الطبري (٢٤٣/٦) (٦٦٩٨).

(٧) الأوقية - بضم الهمزة وتشديد الياء - عند العرب: أربعون درهماً، وقال ابن منظور: الأوقية زنة سبعة مثاقيل. وكانت الأوقية قديماً أربعين درهماً، وهي في غير الحديث نصف سدس الرطل، وهو جزء من اثني عشر جزءاً، وهي تختلف تبعاً لما يصطلح عليه أهل كل بلد، لذلك فقد اختلف تقديرها باختلاف العصور، فقدرها الخوارزمي بزنة عشرة دراهم وخمسة أسباع درهم، وفي الدهن بعشرة دراهم، وقدرها الجوهري بسبعة مثاقيل أو زنة أربعين درهماً.

وفي الاصطلاح: هي من أكثر الموازين التي كانت سائدة في الجزيرة العربية شهرة.

ينظر: لسان العرب (٤٩٠٣/٦) (وقى)، المعجم الكبير (٦١٥/١) (وقى)، الأكيال والموازين

للمقريزي (ص: ٢٣، ٢٢).

ومنهم من قال^(١): اثنا عشر ألفاً^(٢).

ومنهم من يقول^(٣): سبعون ألف دينار^(٤).

ومنهم من يقول: هو بلسان الرومية: ملء مسك ثور ذهباً أو فضة^(٥).

ومنهم من يقول: كل مائة قنطار من كل شيء، وهو اسم المال العظيم الكثير لا يُدْرَى ما مقداره^(٦)، وليس لنا إلى معرفة قدره حاجة ولا فائدة؛ إنما الحاجة إلى معرفة الرغبة فيما كثر من المال؛ إذ ليس قدر أحق بأن يحمل عليه الرغبة من الآخر، والله أعلم.

وقوله: ﴿خَلْدَيْنَ فِيهَا وَازْوَجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾.

قيل: مطهرة: من الآفات، كلها^(٧)، من الأخلاق السيئة، والأفذار والعيوب كلها، وقد

(١) في ب: يقول.

(٢) ورد في ذلك حديث مرفوع، عن أبي هريرة. أخرجه أحمد (٣٦٣/٢)، وابن ماجه (٥/٢٥٠) كتاب الأدب: باب بر الوالدين، (٣٦٥٩) من طريق حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «القنطار اثنا عشر ألف أوقية...» الحديث.

وأخرجه البيهقي (٢٣٣/٧) من طريق حماد بن زيد عن عاصم، به، وأخرجه الطبري (٦/٢٤٦)، رقم (٦٧٠٦)، والبيهقي (٢٣٣/٧) عن ابن عباس قال: القنطار اثنا عشر ألف درهم أو ألف دينار.

(٣) قاله عبد الله بن عمر بن الخطاب، أخرجه عنه الطبري (٦/٢٤٨)، رقم (٦٧٢١)، وابن أبي حاتم (١١٧/٢)، رقم (١٩٤).

وقاله مجاهد، أخرجه عنه أيضاً الطبري (٦/٢٤٨)، (٦٧١٩)، (٦٧٢٠)، وابن أبي حاتم (٢/١١٨) (١٩٥).

(٤) الدينار لغة: أصله دَنَارٌ بالتضعيف فأبدل حرف علة للتخفيف، ويستخدم للتعامل كعملة. واصطلاحاً: هو اسم لوحدة ذهبية من وحدات النقد التي كان العرب يتعاملون بها، مضروبة كانت أم غير مضروبة.

ينظر: المصباح المنير (١/٢٠٠) (دثر)، المقادير الشرعية والأحكام الفقهية المتعلقة بها، للدكتور محمد نجم الكردي ص (٤٦).

(٥) قاله أبو سعيد الخدري أخرجه عنه ابن أبي حاتم (٢/١١٥)، رقم (١٩٠)، والدارمي (٢/٤٦٦)، والبيهقي (٢٣٣/٧) ولفظه: ملء مسك الثور ذهباً.

ومسك الثور [يفتح الميم وسكون السين]: جلد الثور، كما في النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (مسك).

(٦) قاله الربيع بن أنس أخرجه عنه الطبري (٦/٦٧٢٤)، ثم قال الطبري: وقد ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب: أن العرب لا تحد القنطار بمقدار معلوم من الوزن. ولكنها تقول: «هو قَدْر وزن» وقد ينبغي أن يكون ذلك كذلك؛ لأن ذلك لو كان محدوداً قدره عندها، لم يكن بين متقدمي أهل التأويل فيه كل هذا الاختلاف.. فالصواب أن يقال: هو المال الكثير. اهـ.

(٧) وأخرج الحاكم وابن مردويه، وصححه، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] قال: «من الحيض والغائط والنخامة والبزاق» ينظر: الدر المنثور (١/٨٣).

ذكرنا فيما تقدم في صدر السورة؛ قال: وكل أهل الجنة مطهر من جميع المعاييب؛ لأن العيوب في الأشياء علم الفناء، وهم خلقوا للبقاء، إلا أن الذكور جزى للنساء؛ لما ظهر في الدنيا [فيهن] من فضل المعاييب والأذى.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا...﴾ الآية.

قد رضي [منهم] ^(١) بهذا القول، وفيه تركية لهم، ولو كان الإيمان: جميع الطاعات - لم يرض منهم [التركية بها]، وقد أخبر الله نبيه ﷺ أن للذين اتقوا عند ربهم في الجنة خيرا من هذا الذي زين ^(٢) للناس في الدنيا من النساء، وما ذكر إلى آخره.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: يحتمل: اتقوا الشرك. ويحتمل: للذين اتقوا الفواحش والمعاصي كلها.

وقوله: ﴿الصَّابِرِينَ﴾. قيل: الصَّابِرِينَ على طاعة الله ^(٣).

وقيل: [الصابرين] ^(٤) على أداء الفرائض ^(٥).

وقيل: الصَّابِرِينَ على المrazئ ^(٦) والمصائب والشدائد ^(٧).

والصبر: هو حبس النفس عن جميع ما تهوى وتشتهي.

وقوله: ﴿وَالْفَكِيدِينَ﴾. قيل: في إيمانهم ^(٨).

وقيل: الصادقين بما وعدوا.

وقيل: الصادقين في جميع ما يقولون ويخبرون ^(٩).

﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾. يحتمل الإنفاق: ما لزم من أموالهم من الزكاة والصدقات ^(١٠).

(١) سقط من ب.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٣) قاله قتادة أخرجه عنه الطبري (٢٦٤/٦) رقم (٦٧٥٢)، وابن أبي حاتم (١٣٩/٢)، رقم (٢٣١)، وعبد بن حميد كما في الدر المنثور (٢٠/٢).

(٤) سقط من ب.

(٥) ينظر: تفسير الرازي (١٧٥/٧).

(٦) الرزايا: أي المصائب، يقال: رزأه رزءاً ومرزئة: أصابه برزء، ويقال: رزأته رزيئة: أصابته مصيبة، ورزأه ماله: أصاب منه شيئاً فنقصه.

ينظر: المعجم الوسيط (٣٤١/١) (رزأ).

(٧) ينظر: تفسير الرازي (١٧٥/٧).

(٨) قاله سعيد بن جبیر أخرجه عنه ابن أبي حاتم (١٤٠/٢)، رقم (٢٣٢).

(٩) قال نحوه قتادة أخرجه عنه ابن أبي حاتم (١٤٠/٢)، رقم (٢٣٣).

(١٠) قال القاسمي: والمنفقون أموالهم في سبيل الله - تعالى - من الأرحام والقربات، وسد الخلات، ومواساة ذوي الحاجات.

ينظر: محاسن التأويل (٦٤/٤).

ويحتمل: المنفقين المؤدين حقوق بعضهم بعضًا من حق القرابة والصلة.

﴿وَالْقَنِينِ﴾. قيل: القانت: الخاضع^(١).

وقيل: القانت: المطيع^(٢).

وقيل: الخاشع^(٣)، وكله يرجع إلى واحد، وأصله: القيام، وكل من قام لآخر كان مطيعًا وخاشعًا وخاضعًا ومقرًا.

وقيل: القانت: المقر^(٤) كقوله: ﴿كُلُّ لَمْ قَنِتُونا﴾ [البقرة: ١١٦]، أي: مقرون.

وقال قتادة^(٥): ﴿الْمَكِينِينَ﴾: الذين صبروا على طاعة الله، وصبروا عن محارمه.

﴿وَالْمَكِينِينَ﴾: الذين صدقت نياتهم، واستقامت قلوبهم وألسنتهم، وصدقوا في السر والعلانية ﴿وَالْقَنِينِ﴾: المطيعين. ﴿وَالْمُسْتَفْزِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾، ﴿وَالْمُسْفِينِ﴾: يعني: نفقة أموالهم في سبيل الله^(٦)

﴿وَالْمُسْتَفْزِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾: قيل: المصلين بالأسحار^(٧).

وقيل: المصلين في أول الليل، والمستغفرين في آخره^(٨).

وأصل الاستغفار: طلب المغفرة مما اُرتُكِب من المآثم، على ندامة القلب، والعزيمة على ترك العود إلى مثله أبدًا، ليس كقول الناس: نستغفر الله، على غير ندامة القلب، وأصل الاستغفار في الحقيقة: طلب المغفرة بأسبابها، ليس أن يقول بلسانه: اغفر لي؛ كقول نوح [عليه السلام]^(٩): لقومه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ [نوح: ١٠] أمرهم بالتوحيد، ثم أخبر - عز وجل - أن الجنة هي للصابرين والصادقين إلى آخر ما ذكرنا، والله أعلم.

(١) راجع الدر المنثور للسيوطي (٥٤٤/١).

(٢) قاله سعيد بن جبیر، أخرجه عنه ابن أبي حاتم (١٤٣/٢)، رقم (٢٣٦)، وقاله أيضًا قتادة، أخرجه عنه الطبري (٢٦٤/٦)، رقم (٦٧٥٢).

(٣) الدر المنثور (٥٤٤/١)، (٢٠/٢).

(٤) قاله ابن عباس، أخرجه الطستي في مسائله عنه. كما في الدر المنثور (٢٠٨/١).

(٥) هو قتادة بن دعامة السدوسي، أبو الخطاب البصري، أحد الأئمة الأعلام، روى عن أنس وسعيد بن المسيب، ومحمد بن سيرين، وغيرهم، وروى عنه أيوب وحמיד وحسين المعلم، قيل: قتادة أحفظ الناس. توفي سنة ١١٧هـ.

راجع ترجمته في: تقريب التهذيب (ترجمة: ٥٥٥٣)، تهذيب الكمال (٩٩/٦)، خلاصة الخزرجي (٣٥٠/٢)، سير أعلام النبلاء (٢٦٩/٥) رقم (١٣٢).

(٦) أخرجه الطبري (٢٦٥، ٢٦٤/٦)، رقم (٦٧٥٢)، وعبد بن حميد كما في الدر المنثور (٢٠/٢).

(٧) قاله قتادة أخرجه عنه الطبري (٢٦٥/٦)، رقم (٦٧٥٤).

(٨) قال نحوه جعفر بن محمد أخرجه عنه الطبري (٢٦٦/٦)، رقم (٦٧٥٨).

(٩) سقط من ب.

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَسْلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَنِيَانَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِنَائِتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهَ اللَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

وقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾

قيل فيه بوجه (١):

قيل: شهد الله شهادة ذاتية، أي: هو بذاته، ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ إذ في ذاته ما تليق الشهادة بمثله له من الألوهية والربوبية، وليس ذلك في ذات غيره، وبالله العصمة.

وقيل: شهد الله بما خلق من الخلائق أنه لا إله إلا هو، أي: خلق من الخلائق ما يشهد خلقه كل أحد على وحدانيته وإلهيته، لو نظروا في خلقتهم وتدبروا فيها؛ وكذلك الملائكة، وأولو العلم شهدوا أنه لا إله إلا هو، على تأويل الأول. وعلى تأويل الثاني: أن خلقه الملائكة - وأولي العلم - يشهد على وحدانيته؛ فشهدوا على ذلك، إلا الجهال؛ فإنهم لم يتأملوا في أنفسهم، ولا تفكروا في أنفسهم؛ فلم يشهدوا به؛ لأنه أمر الرسل والأنبياء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فقلوه وأمره به - شهادة منه، ويحتمل شهادة القول؛ كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وذلك من الله: الربوبية، ومن الخلق: العبودية له؛ فيجب أن تعرف الربوبية من العبودية؛ ففيه دلالة خلق الإيمان؛ فمن قال: إنه غير مخلوق - لم يعرف ذا من ذلك (٢)، وبالله التوفيق.

(١) تنظر تلك الوجوه في: تفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازي (١٧٧/٧ - ١٧٨).

(٢) تعد مسألة خلق الإيمان من المسائل التي ثار الجدل حولها بين علماء الحنفية فانقسموا إلى فريقين: الأول: ويمثله أهل سمرقند، والثاني: أهل بخارى، فالفريق الأول: يرون أن الإيمان مخلوق وقالوا ذلك نتيجة قول الماتريدية بأن الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان وكل من التصديق والإقرار مخلوق لله - تعالى - باتفاق بين الأشاعرة والماتريدية، وإلى هذا مال الإمام أبو حنيفة، وصرح بنسبة ذلك إليه الكمال بن الهمام في «المسيرة»، وإلى هذا أيضًا ذهب المصنف فقال في كتابه «التوحيد»: «ثم الإيمان حسن وخير وهدى وزين لصاحبه وكل ما ذلك وصفه فهو مخلوق» وقد رجح هذا الرأي العلامة البيجوري في «شرح الجوهرة».

والفريق الثاني: الذين يرون أن الإيمان غير مخلوق؛ وذلك لأن الإيمان حاصل من الله - تعالى - للعبد بكلامه الذي ليس بمخلوق فقال ذلك فرارًا من القول بخلق كلام الله تعالى؛ لأنهم لما رأوا من أن القول بخلق الإيمان يلزم عليه القول بخلق كلام الله تعالى، وإلى هذا ذهب أهل الحديث وعلى رأسهم الإمام أحمد والأشعري.

انظر تفصيل مذاهب هؤلاء في: شرح الفقه الأكبر لملا على القاري ص (٢١٥)، والمسيرة لابن =

وقيل: «شهد الله» أي: علم الله أنه لا إله إلا هو، وكذلك علم الملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلا هو، فإن قال لنا ملحد^(١): كيف صح، وهو دعوى؟!

قيل: لأن دعوى من ظهر صدقه في شهادته إذا شهد، وهو مقبول، وهو بما ادعى من الألوهية والربوبية؛ إذا لم يَسْتَقِلْهُ أحد - ظهر صدقه، وقهر كل مكذب له في دعواه، وبالله النجاة^(٢).

وقوله: ﴿فَإِمَّا يَلْقِصُ﴾:

أي: حافظ ومتول؛ كقوله: ﴿فَإِمَّا عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، أي: حافظ لها ومتول؛ كما يقال: فلان قائم على أمر فلان، أي: حافظ لأمره، ومتعاهد لأسبابه. قال الشيخ - رحمه الله - : وقيل: هو عادل، أي: لا يجور، لا أن ثم معنى القيام؛ كقوله: ﴿قَوْمِينَ يَلْقِصُ﴾ [النساء: ١٣٥]: مقسطين، لا أن ثم للقيام فيه معنى يسبق الوهم إليه، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾

قال قائلون: إن الدين الذي هو حق [من]^(٣) بين الأديان، وهو الإسلام؛ لأن كل أحد منهم ممن دان دينًا يدعي أنه هو دين الله الذي أمر به.

وقال قوم: إن الدين الذي أمر به الأمر من عند الله هو دين الإسلام؛ لأنهم كانوا مع اختلافهم مقيرين^(٤) بالإيمان، لكن بعضهم لا يقرون بالإسلام؛ فأخبر - [عز وجل]^(٥) - أن الدين الذي أمر به وفيه التوحيد هو دين الإسلام، لا غيره؛ ألا ترى أنه قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا...﴾ [آل عمران: ٦٧]: أخبر [عز

= الهمام ص(٥٠)، التوحيد للماتريدي ص(٢٨٨)، شرح الجوهرة للبيجوري ص(٤٦).
(١) ألد فلان: مال عن الحق، والإلحاد ضربان: إلحاد إلى الشرك بالله، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب، فالأول: ينافي الإيمان ويبطله، والثاني: يوهن عراه ولا يبطله.

ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف، للدكتور: محمد رضوان الداية ص(٦١٨).
(٢) قال العلامة القاسمي: قال العارف الشعراني في كتاب «الجواهر والدرر»: سألت أخي أفضل الدين: لم شهد الحق - تعالى - لنفسه بأنه لا إله إلا هو؟ فقال - رضي الله عنه - : لبيته عباده على غناه عن توحيدهم له، وأنه هو الموحد نفسه بنفسه. فقلت له: فلم عطف الملائكة على نفسه دون غيرهم؟ فقال: لأن علمهم بالتوحيد لم يكن حاصلًا من النظر في الأدلة كالبشر، وإنما كان علمهم بذلك حاصلًا من التجلي الإلهي. وذلك أقوى العلوم وأصدقها؛ فلذلك قدموا في الذكر على أولي العلم، وأيضًا فإن الملائكة واسطة بين الحق وبين رسله؛ فناسب ذكرهم في الوسط، فاعلم ذلك.
ينظر: محاسن التأويل (٤/٦٧).

(٣) سقط من ب.

(٤) في ب: مقرون.

(٥) سقط من ب.

وجل^(١) أن إبراهيم - عليه السلام - ليس على دين سوى دين الإسلام، والإسلام هو الإخلاص، على ما ذكرنا فيما تقدم^(٢)، وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَالْمَلَائِكَةُ شَهِدُوا وَأَوَّلُو الْعِلْمَ: أَنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ، وَأَنَّهُ قَائِمٌ بِالْقِسْطِ، وَالْقِسْطُ: هُوَ الْعَدْلُ فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ»^(٣).

وقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا أَلْكِتَابَ﴾:

يحتمل وجهين.

يحتمل الاختلاف: التفرق، أي: تفرقوا في الكفر؛ كقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ الآية [آل عمران: ١٠٥]. ويحتمل: الاختلاف: نفس الاختلاف في الدين؛ كقوله: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]: أخبر أنهم لم يختلفوا عن جهل؛ ولكن عن علم وبيان؛ كقوله: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾. ثم يحتمل قوله: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ وجهين: أي: لم يختلفوا إلا من بعد ما علموا وعرفوا.

ويحتمل: أي: لم يختلفوا إلا من بعد ما أوتوا أسباب: ما لو تفكروا وتدبروا - لوقع العلم لهم بذلك والبيان، لكنهم تعنتوا^(٤) وكابروا؛ فاختلفوا.

ثم في الآية دليل ألا يجوز أن يفسر قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] ونحوه: بالانتقال من حال إلى حال، أو من مكان إلى مكان؛ لأنه ذَكَرَ مجيء العلم، والعلم لا يوصف بالمجيء ولا ذهاب، وكذلك قوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]: ذكر مجيء الحق وزهق الباطل؛ فهما لا يوصفان بمجيء الأجسام، وذهابهم بالانتقال والتحول من مكان إلى مكان، ولا يعرف ذلك ولا يصرف إليه؛ فعلى ذلك لا جائز أن يصرف قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]، ونحوه - إلى المعروف من استواء الخلق ومجيئهم؛ لتعالیه عن ذلك^(٥)، قال: والمجيء لا يكون عن الانتقال خاصة؛ بل يكون مرة ذاك وأخرى غيره،

(١) سفت من ب.

(٢) تقدم في سورة البقرة، الآيات (١٣١-١٣٣).

(٣) سيأتي تخريجه بعد قليل، وهذه قراءة ابن عباس فيما حكى الكسائي كما في تفسير القرطبي (٤/٢٨).

(٤) العنت: المكابرة عنادًا، واللجاج في العناد، يقال: جاء فلان متعنًا، أي: طالبا زلته. والعنت في كلام العرب: الجور والإثم والأذى.

ينظر: تاج العروس (١٥/١٤، ١٥) (عنت).

(٥) قال الإمام ابن كثير في تفسيره (٢/٢٢٦): «لأناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدًا، ليس هذا =

وكذلك الإتيان، والله أعلم.

وقوله: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

قيل: حسداً بينهم^(١)؛ لأنهم طمعوا أن يبعث الرسول ﷺ من بنى إسرائيل، على ما بعث سائر الرسل بعد إسرائيل منهم، فلما بعث من غير بنى إسرائيل حسدوه، وخالفوا دينه الإسلام، ويحتمل «بغياً»: من البغى، وهو الجور.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾

أي: من المختلفين

﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: كأنه على الإضمار - أن قل يا محمد: ومن يكفر بآيات الله من بعد ما جاءهم العلم والبيان، فإن الله سريع الحساب.

وله ثلاثة أوجه؛ لأن ظاهر الجواب على غير إضمار أن يكون: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، أي: العذاب - والله أعلم - سمي به؛ لأن بعد الحساب عذاب؛ لقوله ﷺ: «مَنْ نُوْقِسَ الْحِسَابَ عُذِّبَ»^(٢)، فجعل الحساب عذاباً.

ثم أخبر - [عز وجل] -^(٣) أنه سريع الحساب، لا كحساب الذي يكون بين الخلق؛ لأن الخلق تشغلهم أسباب، وتمنعهم أشياء يحتاجون إلى التفكير والتدبر، والله يتعالى عن أن يشغله شيء أو يمنعه معنى، جلّ الله عن ذلك.

= موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير بل الأمر كما قال الأئمة، منهم: نعيم بن حماد الخزاعي: شيخ البخاري، قال: من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله - تعالى - ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله فقد سلك سبيل الهدى.

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٨٢/٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤٧/٦، ١٠٨، ١٢٧)، والبخاري (٢٦٦/١): كتاب العلم: باب من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه (١٠٣)، ومسلم (٢٢٠٤/٤): كتاب الجنة: باب إثبات الحساب، (٧٩ - ٢٨٧٦)، وأبو داود (٢٠١/٢): كتاب الجنائز: باب عيادة النساء، (٣٠٩٣)، والترمذي (٢٢٣/٤): أبواب صفة القيامة، (٢٤٢٦) من طريق عبد الله بن أبي مليكة عن عائشة: قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حوسب يوم القيامة عذب» فقلت: أليس قد قال الله - عز وجل -: ﴿فَسَوْفَ يُمْسَسُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]. فقال: «ليس ذاك الحساب. إنما ذاك العرض، من نوّقش الحساب يوم القيامة عُذِّبَ».

(٣) سقط من ب.

وقيل: على التقريب حسابه سريع؛ كَأَنَّ قَدْ جَاءَ لِقَبِهِ^(١)، والله أعلم.
 قوله^(٢): ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: هو شهادة ربوبية، لا يتوهم له كيفية، ولا يخطر بالبال له المائية، ولا يحتمل الوصول إلى حقيقة ذلك بالتفكر، ولا أن يُحتمل بلوغ العقل الوقوف على ذلك؛ إذ هو خَلَقَ قصر عن الإحاطة بمائية نفسه، وعن إدراك وجه قيامه بالذي ركب أو تجديد من حيث نفسه، وهو تحت جميع ما ذكرت؛ إذ هو خلق وحدث جرى عليه التدبير، ودخل تحت التقدير؛ فالربوبية أحق أن ينحسر عنها الأوهام، وتُكَلَّلَ عن توهم إدراكها الأفهام؛ وعلى ذلك أمر تكوين الله الأشياء، على ما شهدت الأشياء، التي هي تحت التكوين في العبارة، لا على توهم في التكوين معنى تحتمله الأفهام، أو تبغى العقول؛ وإنما هو عبارة بها جعل لا يقف على العبارات عن المتعالي عن صفات الخلق، المحقق له الجلال عن جهاتهم إلا من حيث المفهوم في الخلق؛ للتقريب إلى الأفهام دون تحقيق المفهوم، مما عن العبارة عنه - قدرت العبارات في الإخبار عن الله تعالى^(٣)، عن ذلك وعلى هذا القول الله والرحمن وجميع ما يتعارف الخلق من الأسماء على ما يقرب من الأفهام - المراد بها لا تحقيق الحروف، أو إدخال تحت تركيب الكلام وتأليف العبارة، وهذا معنى معرفة وحدانيته من جهة ضرورات توجب المعرفة، على الوصف بالسبحانية له عن معاني جميع المعروفين، وبالله العصمة والمعونة.

ثم قد يحتمل أن يؤذن في العبارة عن ذلك بما هو ألطف وأدفع للتوهم: توهم ما لعل للقلب عند ذكر الشهادة فضل حيرة، ليس عند تلك العبارة، وذلك يخرج على وجوه في الاحتمال؛ لما يسعه عقولنا دون القطع على شيء مما وقع عندنا يمكن الرجوع إليه، والله - [سبحانه] -^(٤) أعلم من ذلك بشهادة الخلائق كلهم: ما فيها من آثار الصنعة، ودلالة الربوبية، وشهادة الألوهية؛ لتكون شهادة بالذي ذكر: [بأن]^(٥) لا إله إلا هو؛ إذ في كل شيء سواه هذه الشهادة بالصفة التي جعلها هو فيه له، والله أعلم.
 والثاني: أن يكون بذاته متعالياً عن جميع معاني من سواه من المعاني، التي أدخلتها

(١) قال نحوه ابن الأنباري. ينظر: الزاهر (٩٧/١ - ٩٨)، والبحر لأبي حيان (١٠٦/٢)، والوسيط للواحد (٣٠٨/١).

(٢) زاد في ب: عز وجل.

(٣) في ب: سبحانه.

(٤) سقط من ب.

(٥) سقط من ب.

اسم مربوب، وظهر كل شيء في الحقيقة له عند توهم المعبود، [لا]^(١) يستحق غيره غير آثار الحديثية وجهات المدخلة تحت القدرة والتدبير، وهو بذاته متعالٍ عن كلية الجهات والمعاني، التي كانت بها بعد أن لم تكن، وبها صارت مربوبة عبدًا، وهو متعال أيضًا عن الوصف بالجهات والمعاني؛ بل هو خلق الخلق، ولا قوة إلا بالله.

ويحتمل: شهد: علم، وكذلك مَنْ شهد الشيء فقد علم مخبره خلقته بإله العالم، وأنه واحد لا شريك له، إله الكل وخالقهم؛ ليعلموا أننا أعلمهم أنه كما أخبر، وذلك في نقض قول كثير ممن ينفون عن الله -[تعالى]-^(٢) أنه عالم وشاهد كل شيء، والله الموفق. [ويحتمل: شهد على الخلائق أن يكون عليهم القول والاعتقاد أنه لا إله غيره؛ بمعنى: قضى وأمر، والله الموفق.]^(٣) وليس فيما جمعه الله بشهادة من ذكر توهم معنى لشهادته بما هو شهادة من ذكر، مع ما قد يحتمل لما جمع إلى شهادته شهادة من ذكر وجهان:

أحدهما: فضل من ذكر بما ذكر شهادته عند ذكر شهادتهم؛ على نحو قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُكْمُهُ﴾ الآية [الأنفال: ٤١]؛ ذكر ما له، وإن كان له الخلق كله؛ بوجهين:

أحدهما: بما جعل ذلك لوجوه العبادة؛ كما أضاف إليه المساجد^(٤) على أنها وغيرها له، وذكر في الملائكة الذين عنده في أمر القيامة^(٥)، وإليه المصير، ونحو ذلك، إما مخصوص لما ذكر من الأوقات في فضل أو غير جعل له، أو لما كان [ذلك]^(٦) لرسول الله ﷺ نسب إليه، أو كان لكلية المعاني للعبادة؛ فمثله أمر شهادات من ذكرتها بشهادة الله؛ تفضلاً لأولئك وتخصيصاً، من بين الخلائق، والله أعلم.

والثاني: على كون الشهادة من الإخبار بحق الأمر، نسبه إليه؛ كما نسب إليه كتابة الألواح ونفخ جبريل الروح بما كان منه أمر به؛ فكذا فعله في الإضافة إليه، والله أعلم. ثم حق ذلك - فيما على التحقيق - أن يفهم ما عن الله ربوبية وعن العبد عبودية، على

(١) سقط في أ.

(٢) سقط من ب.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٤) في قوله - تعالى - : ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن: ١٨].

(٥) انظر من هذا: الآية (٢٣) سورة الرعد، والآية (٧٥) سورة الزمر، والآية (٦) سورة التحريم، والآية

(٣٨) سورة النبأ.

(٦) سقط من ب.

جميع ما يضاف إلى الله أنه يفهم من غير الوجه الذي يضاف إلى الخلق؛ فمثله أمر الشهادة، والله أعلم.

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه قال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ على معنى جَعَلَ اللَّهُ صَلََّةً فِي الْكَلَامِ، وحقيقته: شهد الله الذي لا إله إلا هو، والملائكة، ومن ذكر: أن الدين عند الله الإسلام^(١)، والإسلام - في الحقيقة - جعل كلية الأشياء لله له، لا شريك له فيها: في ملك، ولا إنشاء، ولا تقدير. والإيمان: التصديق بشهادة كلية الأشياء لله تعالى، بأنه ربها وخالقها على ما هي عليها، جلّ عن الشركاء.

وقد قيل: الإسلام: خضوع^(٢).

وقيل: الإخلاص^(٣)، وهو يرجع إلى ما بينا، وذلك كقوله: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّوْنَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]، والإيمان: هو التصديق [لله تعالى]^(٤) بما أخبر أنه رب كل شيء، وأن له الخلق والأمر.

وقيل: هو التصديق بما جاءت به الرسل، وذلك يرجع إلى ما بينا، أيضًا. والله أعلم. وقوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾: قيل: هو عادل لا يجور^(٥)، [لا أن]^(٦) للقيام معنى في ذلك؛ كقوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥] بمعنى: كونوا عادلين مقسطين، والله أعلم.

وقيل: قيام تولّى وحفظ، أو كفاية وتدبير^(٧)؛ كما يقال: فلان قائم بأمر كذا، لا على توهم انتصاب؛ وعلى ذلك قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]. وقوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾

ولم يقل: في ماذا يحاجوك؛ فيحتمل - والله أعلم - أن يكون هذا بعد ما علم الله أنهم لا يؤمنون ولا يقبلون الحجة - أمره بترك المحاجة بقوله: ﴿فَقُلْ أَتَسْلُتُنِي وَتَجِئَنِي لِلَّهِ﴾؛

(١) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤١٢/١)، وتفسير القرطبي (٢٨/٤)، والبحر المحيط (٢/٤٢٠).

(٢) قال أبو جعفر النحاس في معاني القرآن (٣٧١/١)؛ الإسلام في اللغة: الخضوع والانقياد، ومنه استسلم الرجل. فمعنى أسلم: خضع وقيل ما جاء به محمد ﷺ.

(٣) قاله ابن الأنباري كما في تفسير الفخر الرازي (١٨١/٧).

(٤) في ب: بالله.

(٥) قاله الحسن، أخرجه عنه ابن أبي حاتم (١٥١/٢)، رقم (٢٥٣).

(٦) في ب: لأن.

(٧) قاله البغوي في تفسيره (٢٨٦/١)، ثم قال: فإله - تعالى - مدبر ورازق ومجاز بالأعمال.

وكذلك: من اتبعني أسلموا أنفسهم لله؛ كقوله: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [يوسف: ٨٤] ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٤] أيأسه عن إيمانهم، وأمره بترك المحاجة معهم.
وقوله: ﴿فَقُلْ أَتَسْلُتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾:
أي: أخلصت^(١).

ثم يحتمل قوله: ﴿وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾، أي: نفسى لله لا أشرك فيها أحدًا، ولا أجعل لغير الله فيها حقًا، على ما جعل الكفار في أنفسهم شركاء وأربابًا^(٢).
قال الشيخ -[رحمه الله]-^(٣): وقيل: الإسلام أن يجعل نفسه بكليتها لله -
[تعالى]-^(٤) سالمة، لا شركة^(٥) فيها لأحد؛ كما قال: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]
والإيمان: هو التصديق لشهود الربوبية لله من نفسه وغيره؛ لأنه ما من شيء إلا وفيه شهادة الربوبية.

وقوله: ﴿وَمِنْ أَتْبَعَنِي﴾:

أي: ومن^(٦) اتبع ديني، فقد أسلموا أنفسهم لله [تعالى]^(٧) أيضًا، لم يشركوا فيها شركاء وأربابًا.

ويحتمل قوله: ﴿وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾، أي: أسلمت أمر ديني وعملي لله؛ وكذلك من اتبعني
واتبع ديني، فقد أسلموا أعمالهم وأمورهم لله^(٨)؛ كقوله -[تعالى]-^(٩): ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي
إِلَى اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعَبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، وفي حرف ابن مسعود [رضي الله عنه]^(١٠):
«ومن اتبعني»^(١١) أي: ومن معي.

(١) وهو قول الفراء ولم يشاركه هذا القول غيره كما قال الرازي.

وينظر: تفسير الرازي (١٨٤/٧)، وتفسير البيهقي (٢٨٧/١)، والوسيط (٤٢٤/١).

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٨٤/٧). وينظر: معاني القرآن لأبي جعفر النحاس (٣٧٣/١).

(٣) سقط من ب.

(٤) سقط من ب.

(٥) في ب: شريك.

(٦) في ب: من.

(٧) سقط من ب.

(٨) ذكره الرازي في التفسير (١٨٥/٧).

(٩) سقط من ب.

(١٠) سقط من ب.

(١١) وأثبت الباء في «من اتبعني» نافع من السبعة، وأبو عمرو وخلاد وصلًا، وحذفوها وقفًا، وقرأ
الباقون بحذفها وقفًا ووصلًا.

راجع: إتحاف فضلاء البشر (٤٧٣/١)، البحر المحيط (٤٢٨/٢)، حجة القراءات لابن خالويه
(ص: ١٥٨)، الدر المصون للسمين الحلبي (٥٠/٢).

وقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾: قيل: الذين أوتوا الكتاب: اليهود^(١) والنصارى^(٢)، والأُمِّيِّينَ^(٣): العرب الذين لا يقرءون الكتاب، ولا لهم كتاب^(٤).

﴿وَأَسْلَمْتُ﴾: أنتم لله؛ كما أسلمت أنا وجهي لله، ومن اتبعني.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾: وأخلصوا وجوههم لله وأعمالهم.

﴿وَلَا تَزِلَّ قُلُوبُكُمْ فَمَا كُنْتُمْ عَلَىٰ بَلَدٍ﴾: أي: فإن أبوا أن يسلموا فليس عليك إلا البلاغ؛

كقوله -[تعالى]-^(٥): ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾

[الأنعام: ٥٢]، وكقوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَدُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وكقوله: ﴿عَلَيْكَ الْبَلَدُ

وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾: هو حرف وعيد.

قيل: ﴿بَصِيرٌ﴾: غير غافل.

وقيل: بصير بجزاء أعمالهم.

وقيل: بصير بما أسروا وأعلنوا، وفي كل وجه وعد ووعد^(٦).

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾: ولم يبين في ماذا، فقد يجوز ترك الإخبار عن القصة بوجهين:

أحدهما: بعلم أهله.

(١) اليهود: اسم أطلق منذ القدم على الشعب الذي هو سليل إبراهيم الخليل من إسحاق، ويعرفون بالعبرانيين.

وأصل اللفظة: مادة (هود)، واليهود: هو التوبة، وهاد يهود هودًا وتهود: بمعنى تاب.

ينظر: لسان العرب (٤٧١٨/٦) (هود)، الملل والنحل للدكتور طلعت محسن ص (٦٩).

(٢) النصارى: هم أتباع عيسى عليه السلام. يقول ابن القيم عنهم معرفًا بهم: المثلثة أمة الضلال أو عباد الصليب الذين سبوا الله الخالق سبه ما سبه إياها أحد من البشر، ولم يقرأوا بأنه الواحد الأحد. انظر ذلك في: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم (٢٣٨).

القاموس القويم للقرآن الكريم، إبراهيم عبد الفتاح (٢/ ٢٧٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٥٧/٢)، (٢٦٩) عن ابن جريج. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٣/٢) وعزاه إلى الطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس، لكن الذي في تفسير الطبري (٢٨٢/٦) (٦٧٧٥) قول ابن عباس في تفسير: الأُمِّيِّينَ.

(٤) ينظر: معاني القرآن للزجاج (٣٩١/١) وتفسير ابن عباس (٤٤)، أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٨٢)، (٦٧٧٥) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٣/٢) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وراجع: السابق.

(٥) سقط من ب.

(٦) ينظر: البحر المحيط (٤٢٣/١)، تفسير الرازي (١٨٥/٧)، وتفسير البغوي (٢٨٧/١)، وتفسير القرطبي (٣٠/٤).

والثاني: بما في الجواب؛ دليله: قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ [النساء: ١٦٧] ﴿يَسْتَلُونَكَ﴾ [البقرة: ١٨٩] في غير موضع، على غير البيان أنه عن ماذا؟ وهو - والله أعلم - داخل تحت ذينك الوجهين.

ثم يحتمل أن تكون المحاجة قد كثرت فيما قال: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾، والحجة قد ظهرت فيه؛ فكانوا يعودون إليها مرة [بعد مرة^(١)]؛ عود تعنت وعناد؛ فأكرم الله رسوله بالإعراض عن محاجتهم، ذلك كما ظهر تعنتهم فقال: ﴿فَقُلْ أَتَلْبَثُ وَجْهِي لِلَّهِ﴾ على الإعراض عن محاجتهم، والله أعلم.

وعلى ذلك يخرج معنى الأمر بالتولي عنهم في غير موضع. ويحتمل أن تكون المحاجة في عبادة الواحد القهار والأوثان التي^(٢) كانوا يعبدونها من دون الله؛ فبين - جلّ ثناؤه - في ذلك بالذي يقول لهم هو ومن اتبعه على ذلك؛ نحو قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية [الشورى: ١٥]، ونحو ذلك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَأْتِيَتِ اللَّهَ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢١) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٢)

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَأْتِيَتِ اللَّهَ﴾: قيل: بآيات الله التي في كتابهم: من بعث محمد ﷺ، وصفته.

وقيل: ﴿يَأْتِيَتِ اللَّهَ﴾: بالقرآن، وبمحمد ﷺ^(٣).
 ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾: يحتمل قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ أي: يهيمون يريدون قتلهم؛ كقوله: ﴿فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]، فلو كان على حقيقة القتل، فإذا قتلونا لم نقدر على قتلهم؛ وكقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا أردت أن تقرأ القرآن؛ وكقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾ [المائدة: ٦] كذا، أي: إذا أردتم أن تقوموا إلى الصلاة؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة لم يقدر على الغسل؛ فكذلك الأول.
 ويحتمل أن يريد: الرضا بقتل آبائهم الأنبياء، فأضاف ذلك إليهم.
 وقيل: إنه أراد آباءهم الذين قتلوا الأنبياء.

(١) سقط من ب.

(٢) في ب: الذين.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره (١/٢٨٨).

وقيل: جاء أنهم كانوا يقتلون ألف نبي كل يوم^(١)، قال [الشيخ]: لا أعرف هذا، فإن صح فهو على أنهم تمنوا ذلك، أو قتلوا نبياً وأنصاره، فسقموا أنبياء؛ لما كان ينبي بعضهم بعضاً^(٢)، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: لو كان أراد آباءهم كيف يأمر رسوله ﷺ بالبشارة وهم موتى؟! دل هذا على أن التأويل هو الأول: أنهم^(٣) هموا بقتلهم، أو ورضوا بصنع آبائهم، والله أعلم.

والبشارة المطلقة إنما تستعمل في الشرور والخيرات خاصة، إلا أن تكون مقيدة؛ فحينئذ تجوز في غيرها؛ كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قيدها هنا؛ لذلك قال أصحابنا - رحمهم الله - : أن ليست الحقائق^(٤) أولى من المجاز^(٥)، ولا الظاهر^(٦) أولى

(١) المعروف أنهم قتلوا ثلاثة وأربعين نبياً في ساعة واحدة.

أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦١/٢) (٢٧٦) والطبري في «تفسيره» (٢٨٥/٦) (٦٧٨٠)

من حديث أبي عبيدة بن الجراح، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٣/٢) وعزاه لهما.

(٢) قال القاسمي: وقوله تعالى: ﴿بغير حق﴾ إشارة إلى أن قتلهم للأنبياء كان بغير حق في اعتقادهم أيضاً؛ فهو أبلغ في التشنيع عليهم.

ينظر: محاسن التأويل (٧٣/٤).

(٣) في ب: أن.

(٤) الحقائق: جمع حقيقة، والحقيقة في اللغة: حق الشيء: إذا وجب، واشتقاقه من الشيء المحقق وهو المحكم. وحقه يحقه حقاً: غلبه.

أما في الاصطلاح: فقد عرفها عبد القاهر الجرجاني بأنها: كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضح وقوفاً لا يستند فيه إلى غيره، أي: الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم ولا تأخير، كقول القائل: أحمد الله على نعمه وإحسانه. وعرفها الرازي بأنها: كل لفظ أفيد به ما وضع له في أصل الاصطلاح الذي وقع به التخاطب، لعلاقة بينه وبين الأول.

ينظر: لسان العرب (٢/٩٤٠)، (حقيق)، أسرار البلاغة في علم البيان للجرجاني، (ص ٢٨٠)، والمحصول للرازي (١/٣/٣٩٧)، وميزان الأصول في نتائج العقول في أصول الفقه للسمرقندي (١/٥٢٩١).

(٥) المجاز مأخوذ من جاز يجوز: إذا استن ماضياً. يقال: جاز فلان، وهو الأصل. يقال: جرت مكان كذا، أي: عبرته.

وفي الاصطلاح: المجاز: هو اللفظ المستعمل في إفادة معنى غير ما وضع له؛ لكونه مشابهاً للمتعدى عن المكان في كونه منتقلاً عن موضوعه الأصلي. وقيل في تعريفه كذلك بأنه: كل لفظ أفيد به معنى مصطلح عليه غير ما كان في أصل الاصطلاح الذي وقع التخاطب به.

ينظر: لسان العرب (١/٧٢٤) (جوز)، أسرار البلاغة في علم البيان للجرجاني، (ص ٢٨٠)، المحصول للرازي (١/٣/٣٩٧)، ميزان الأصول في نتائج العقول في أصول الفقه، للسمرقندي (١/٥٢٩١).

(٦) أراد بالظاهر: ما ظهر بيانه، والظاهر - لغة - : مشتق من الظهور، وهو الوضوح والانكشاف.

واصطلاحاً: هو اللفظ الذي انكشف معناه اللغوي، واتضح للسامع من أهل اللسان بمجرد =

من الباطن^(١)؛ إلا بدليل على ما صرفت أشياء كثيرة عن حقائقها بالعرف؛ من نحو: الإيمان، وغيرها^(٢).

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَوِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يحتمل وجوها: يحتمل: أعمالهم التي فعلوا؛ قبل أن يبعث محمد ﷺ، فلما بعث كفروا به، فبطلت تلك الأعمال.

ويحتمل: ما كان لهم من الأعمال: من صلة المحارم، والقربات^(٣)، والصدقات، فبطلت لما لا قوام لها إلا بالإيمان، فلما لم يأتوا به - بطلت.

وقوله: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: أمّا في الآخرة: فثوابها، وأمّا في الدنيا: فحمدها وثناؤها^(٤).

ويحتمل في الدنيا: ثواب الدنيا؛ كقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤]، والله أعلم.

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَأْتِيَتِ اللَّهُ﴾: فالآيات أعلام وحجج، وهنّ^(٥) أنواع:

منها حسيّات، نحو: الخلائق؛ في الدلالة على وحدانية الله تعالى. والخارجة منها عن احتمال وسع البشر يظهر عند أداء الرسل الرسالة، يشهد على أن الذي أرسلهم هو الذي تولّاها؛ ليعلم بها محجة ويوضح بها رسالتهم.

ومنها: السمعيّات: وهي التي جاءت بها الرسل من الأنبياء؛ عما لا سبيل إلى الوقوف عليها، إلا بالتعلم بلا تقدم تعليم، أو ما لا يعلم حقيقة ذلك إلا الله؛ ليعلم أن الله هو الذي

= السماع من غير تأمل.

ينظر: لسان العرب (٢٧٦٧/٤) (ظهر)، ميزان الأصول للسمرقندي (١/٥٠٥).

(١) جمع بواطن والباطن: ما احتيج إلى تفسيره. انظر: لسان العرب (١/٣٠٤) (بطن).

(٢) تنقسم الحقيقة الشرعية إلى أقسام أربعة:

الأول: أن يكون اللفظ والمعنى معلومين لأهل اللغة، لكنهم لم يضعوا ذلك الاسم لذلك المعنى. الثاني: أن يكونا غير معلومين لهم. الثالث: أن يكون اللفظ معلوماً لهم، والمعنى غير معلوم. الرابع: عكسه والمنقولة الشرعية أخص من الحقيقة الشرعية، ثم من المنقولة ما نقل إلى الدين وأصوله كالإيمان والإسلام والكفر والفسق وتخص بالدينية، وما نقل إلى فروعه كالصلاة والزكاة وتخص بالفرعية، وقال الصفي الهندي: وهذه الأقسام الأربعة الأشبه وقوعها. ينظر: البحر المحيط للزركشي (٢/١٥٨، ١٥٩).

(٣) في ب: والقربات.

(٤) ينظر: تفسير الرازي (٧/١٨٧)، تفسير البخوي (١/٢٨٨).

(٥) في ب: وهي.

أطلعهم عليها؛ ليكون آية لهم، والله أعلم.

ومنها العقليات: وهي التي تعرف بالمحن، والبحث عنها مما بها يوصل إلى معرفة التوحيد والرسالة ونحوها، ثم قد جعلها كلها لرسول الله ﷺ، فمن يكفر بها يخرج على وجهين:

أحدهما: على الكفران بحقيقة الآيات؛ أن يكون هن آيات لما أقيمت له، وهن من الوجوه التي ذكرت، ففضى الله - تعالى - لمن يكفر بها بما ذكرت؛ لتعتهم ومعادتهم، والله أعلم.

والثاني: أن يريد بالكفر بالآيات: الكفر بمن له الآيات؛ فنسب إلى الآيات؛ لما بها تعلم الحقيقة، كما تنسب الأشياء إلى أسبابها التي بها يوصل إليها، فذلك معنى الكفر بالآيات، ثم كانت الكتب السماوية، وما فيها من النعوت، وما أعجزهم عن إتيان مثل القرآن، وغير ذلك من الحسنيات، والله أعلم.

فعلى ما ذكرنا يخرج معنى الكفر بالآيات؛ لأنها بحيث يأخذها الحواس، ويحيط بها الأوهام والعقول؛ ولكن على أنهن آيات للذي دلكم عليه، أو على الكفر بالذي له آيات توجب تحقيقه، والله أعلم^(١).

وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

وقال في ذلك الكتاب: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، وقد ارتاب فيها أكثر أهل الأرض؛ قيل: قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قد يتكلم به على تثبيت المقول به عند قائله، لا على نفي الشك عن كل من سمعه؛ إرادة التأكيد؛ فعلى ذلك أمكن أن يخرج معناه؛ إذ هو مخاطبة على ما عليه كلامهم؛ وكذلك قولهم أبداً على دوامه وامتداده، لا على حقيقة الأبدية؛ وكذلك يقولون: ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ١١]، وأمر قديم: لا على حقيقة القدم؛ التي تخرج على الكون بعد أن لم يكن، والله الموفق.

والثاني: على أنه لا يرتاب فيه المتأمل المنصف بما جعل الله لذلك من الآيات، وعليه من الأدلة التي من تدبر فيها - أظهرته له، حتى يصير كالمعاین، ولا قوة إلا بالله.

والثالث: أن يخبر به رسوله ﷺ عن قوم مخصوصين مما كانوا ينازعون فيه، بعد علمهم بصدقه؛ ليعرف به تعتهم، ويؤيسه عن الطمع فيهم، ولا قوة إلا بالله.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ

يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعَتْ لَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إنما يتكلم به لأحد معنيين:

إما للتعجب^(١) من الأمر العظيم؛ يقول الرجل لآخر: ألم تر فلاناً يقول كذا، أو يعمل كذا؟! يقول ذلك له؛ لعظيم ما وقع عنده. وإما للتنبيه.

فأيهما كان ففيه تحذير للمؤمنين؛ ليحذر المؤمنون عن مثل صنيعهم؛ كقوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾ [الحديد: ١٦] من قبل الآية؛ حذر المؤمنين أن يكونوا مثل أولئك الذين أوتوا الكتاب، ولا يخالفوا كتابهم كما خالفوا هم. وقوله: ﴿يَتَّبِعُونَ إِلَّا كِتَابَ اللَّهِ﴾:

يحتمل أن يكون أراد بالكتاب: التوراة^(٢)؛ على ما قيل: إن النبي ﷺ قال لهم: «أَسْلِمُوا تَهْتَدُوا، وَلَا تَتَكَبَّرُوا» فقالوا: نحن أهدي وأحق بالهدى منك. وما أرسل الله رسولا بعد موسى [عليه السلام]^(٣) فقال لهم النبي ﷺ: «بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ؛ فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ فِيهِمَا» يعني: وإني رسول الله، فأبوا ذلك خوفاً وإشفاقاً على ظهور كذبهم^(٤).

وقيل: أراد بالكتاب: القرآن، دعوا إليه^(٥)؛ لأنه مصدق لما معهم من الكتاب، فأبوا ذلك.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾

(١) في ب: على التعجب.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٥/٢)، (٢٨٥) عن أبي مالك، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٢٥) وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٣) في ب: صلى الله عليه وسلم.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨٩، ٢٨٨/٦)، برقمي (٦٧٨١)، (٦٧٨٢) وابن أبي حاتم (٢/١٦٥، ١٦٦) (٢٨٦) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٢٤) وزاد نسبه إلى ابن إسحاق.

(٥) وهو قول قتادة، أخرجه الطبري (٢٨٩، ٢٩٠)، برقمي (٦٧٨٣، ٦٧٨٤) وابن أبي حاتم (٢/١٦٧) (٢٨٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٢٤) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

الأيام التي عبد آباؤهم العجل، فظنوا أنهم إنما يعذبون بقدر ما عبد آباؤهم العجل، وأنهم لا يخلدون في النار؛ لأنهم زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه^(١).
ويحتمل أن يكون آباؤهم قالوا لهم: إنكم لا تعذبون في النار إلا قدر عبادتنا العجل؛ فأخبر - عز وجل - أن قد غرهم في دينهم ما كانوا يفترون، ثم خوفهم فقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٦) ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧) وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ الآية [آل عمران: ٢٦]: يحتمل قوله: ﴿مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ وجهين:

أحدهما: مالك ملك كل ملك في الدنيا له حقيقة الملك.

والثاني: أن الملك له، يؤتي من يشاء من ملكه، وينزع ممن يشاء الملك، وهو المالك لذلك، والقادر عليه.

والآية ترد على القدرة قولهم؛ لأنهم يقولون: إن الله لا يعطي الكافر الملك، وهو قد أخبر - عز وجل - أنه يؤتي^(٢) من يشاء الملك، وقد يؤتي الكافر به الملك، فإن قالوا: أراد بـ«الملك»: الدين، فقد أخبر - عز وجل - أيضا أنه ينزع، فكيف يستقيم على قولكم في الأصلح هذا.

ثم في الآية تقوية لمن قرأ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] بالألف^(٣) لأنه أعم وأجمع؛ لأنه قال: ﴿مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ وهو أعم.

والثاني: أن «الملك» إنما يعتبر عن الولاية والسلطان، و«المالك»: إنما يعبر عن حقيقة الملك، ومن له في الشيء حقيقة الملك - فله ولاية التغلب والتصرف فيه ولاية^(٤) السلطان، ولا كل من له ولاية السلطان يكون له ولاية التغلب فيه؛ لذلك كان بالألف

(١) أخرجه الطبري (٢٩٣/٦)، (٦٧٨٦) وابن أبي حاتم (١٦٨/٢)، رقم (٢٩٣) عن قتادة، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٥/٢) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) في ب: يعطي.

(٣) وهي قراءة عاصم والكسائي، وقرأ باقي السبعة «ملك» بدون ألف.

راجع: الحجة لأبي زرة (ص: ٧٧)، الحجة لابن خالويه (ص: ١٢)، السبعة لابن مجاهد

(ص: ١٠٤)، النشر لابن الجزري (٢٧١/١).

(٤) في ب: وولاية.

أقرب، ومن قرأ: «ملك يوم الدين»^(١) بغير ألف ذهب إلى أن هذا كقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَخْضَعُونَ لَكُمْ يَنْهَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦] ومن الملك يقال: ملك؛ لا يقال: مالك؛ لذلك كان ما ذكر، والله أعلم.

والمالك - على الإطلاق - لا يقال إلا [على الله]^(٢)؛ وكذلك الرب - على الإطلاق - لا يقال إلا [على الله]^(٣)، وأما العبد فإنه يقرن الشيء إليه؛ فيقال رب الدار ومالكها، ورب الدابة^(٤) ومالكها، والله أعلم.

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾:

قال قائلون: الخطاب لرسول الله ﷺ خاصة.

وقال آخرون: الخطاب بذلك لكل عاقل؛ وهو كقوله: ﴿قُلِ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] إلى آخر الآية، ذلك الخطاب لكل أحد لا لرسول الله ﷺ خاصة.

وقال الشيخ - رحمه الله - : ليس هو خطاب؛ ولكنه أمر بالبلاغ ليقوله كل أحد؛ لأنه لو خاطب به لم يذكر «قل» عند قراءته.

وقوله: ﴿اللَّهُمَّ﴾: قال قائلون: «اللهم»: يعني: يا ألهتهم.

وقال آخرون: «الله» - على القطع - «أمتنا» اقصدنا بالخير^(٥)، والله أعلم.

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ الآية: فكأنه - عز وجل - امتحن من رغب في الملك، أو نال حظاً منه - أن يصرفوا وجه الرغبة إليه، أو يروا حقيقة ما نالوه منه؛ فيوجهون إليه الشكر، ويخضعون له بالعبادة والطاعة فيما أمرهم به؛ لينالوا شرفه ويدوم^(٦) له عزه؛ وذلك كقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤] ليريهم أن الذي يملك هذا النوع الذي رغب فيه أنفسهم، ومنعتكم عن القيام بحقه - هو الذي يملك ذلك؛ فإليه فاصرفوا سعيكم، وبشكره استديموا، الذي له اخترتم جل كدحكم؛ فإنه يملك ذلك دون غيره؛ وجملة ذلك في قوله: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ تَعَمَّرَ فَعِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ومعقول فيما عليه طبع البشر، وإليه دعاهم عقولهم: أن كل شيء تؤثره أنفسهم - كان الذي يحق عليهم طلبه عند من به

(١) قرأ بها نافع وابن عامر وابن كثير وأبو عمرو وحزمة. راجع المصادر السابقة.

(٢) في ب: لله.

(٣) في ب: لله.

(٤) في ب: الدار.

(٥) قاله الفراء والكوفيون. راجع: تفسير الرازي (٤/٨)، تفسير القرطبي (٤/٣٥).

(٦) في ب: أو يدوم.

يوصل إليه، واختيارهم ما به يبلغون ما يأملون من أنواع الحيل التي تقربهم إلى ذلك، فمثله يلزم أمر الملك ولذات الدنيا، وتقرر في قلوبهم وجود ذلك لقوم؛ لو كان ينال بالتدبير أو بحسن السياسة، وطلب ذلك من الوجوه التي يطلب بها البشر - لم^(١) يكن الدين لهم ذلك بأحق من غيرهم؛ بل كان فيمن حرموا من هم أولى بذلك، وأحق أن يكون في ذلك متبوعاً لا تابعاً من الذين نالوه؛ ليعلم أن الذي يملك دفع ذلك إلى أحد أو تمليكه أحداً، غير الذين^(٢) صرفوا كدحهم، وجعلوا له سعيهم؛ فيكون الله في كل أمر ممّا عليه أمر البشر آية عظيمة، وعلاوة لطيفة على تفرد بملك ذلك، وتوحيده بالتدبير فيه لمن له بصيرة ولمن به يمتحن عباده.

وعلى ذلك إذ ثبت في ذلك أدلة التوحيد، ولزوم الاعتبار به؛ ليعرف من له الحق - ثبت القول ببطلان ما ينكره كثير من المعتزلة؛ أن الملك الذي ناله الجبابة، والسعة التي تصل إلى الكفرة - لم يكن نالوه بتقدير الله، ولا وصلوا إليه بتدبيره؛ إذ حقه ما ذكرت من عظيم ما فيه من النعم؛ ليلزمهم به أرفع المحن وأعلى الشكر، وله أن يبلو بالحسنات والسيئات؛ كما وعد عز وجل؛ وجملته: أن الدنيا إذ هي دار محنة ومكان ابتلاء، فليس الذي يعطي منه على الاستحقاق، ولا ما يمنع على العقوبة^(٣) - وإن احتمل الدفع والمنع لذلك - ولكن له وللمحن، والمحنة أكثرها على مخالفة الأهواء، وتحمل المكار، ويكون ذلك على إعطاء ما يعظم في أنفسهم، أو التمكين ليمتحنوا؛ فيتبين الإيثارة^(٤) والترك لوجه الله، والرغبة فيمن إليه حقيقة ملك كل شيء، أو الميل إلى من إليه أنواع التغير والمخادعات من غير تحقيق، ولا قوة إلا بالله.

وعلى ذلك قوله: ﴿أَنَّ آتَاكَ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] يبين ذلك احتجاجة على إبراهيم [- عليه السلام -] بالذي ذكر، وإغضاء إبراهيم عنه، ولو كان الذي آتاه [الله]^(٥) الملك إبراهيم [- عليه السلام -]^(٦) لم يكن ليجترأ على تلك المقالة بقوله: ﴿أَنَا أُخِيَّ

(١) في ب: فلم.

(٢) في ب: الذي.

(٣) العقوبة والعقاب والمعاقبة مختصة بالعذاب وهي أن تجزي الرجل بما فعل سوءاً. انظر: لسان العرب (٣٠٢٧/٤)، (عقب)، عمدة الحفاظ (١٢٢/٣).

(٤) الإيثارة لغة: للتفضل بمعنى التفضيل، ومنه قوله - تعالى -: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الحشر: ٩] أي: يفضلون غيرهم على أنفسهم.

ينظر: عمدة الحفاظ للسمين الحلبي (٦٣/١).

(٥) سقط من ب.

(٦) سقط من ب.

وَأُمِيتُ ﴿ [البقرة: ٢٥٨] ، ولا قوة إلا بالله .

ثم على قول المعتزلة: إِنَّ الله - تعالى - إنما يشاء أن يؤتي الملك أوليائه، وينزع عن أعدائه في الجملة، فكيف ادعى لنفسه هذا السلطان والملك، وكان الوجوب على ضد ذلك؟! أیظن المعتزلة أن الملحدة تطعن ما هو يوجب الشبهة في حجج التوحيد بأوضح مما أعطاهم المعتزلة بهذا القول، أو يمكنهم من الطعن في نقض ما ادعت الموحدة من علو الرب وقدرته وجلاله بأبلغ مما لقتهم المعتزلة بما لبست ثوب التوحيد، واستترت بستره في الظاهر، ثم أعطت للملحدة هذا؛ ليظنوا أنهم بلغوا ما به نقض التوحيد، ودفع حجج أهله، جل الله عما وصفته الملحدة، وتعالى، فبه العصمة والنجاة.

ولما أعطتهم المعتزلة في الجملة سبقهم به إبليس، حتى كانوا بمثله يحتجون؛ فيظنون أنهم أحق بالنبوة منهم، بما أعطوا من الملك والثروة في الدنيا؛ فظنوا أنهم أجل عند الله - تعالى - وأرفع في المنزلة منهم، من لم يكن ليؤثرهم بالرسالة عليهم، لكن أولئك حققوا حقائق النعم لله، ونيل ما نالوا من الملك والشرف به، والمعتزلة رامت إزالة ذلك عن الله؛ ليزيلوا عنهم ما لزمهم من الشكر له، والطاعة لمن بعثه الله، وأسأل الله تمام نعمه في الدين والدنيا.

وقوله: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾، وقوله: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ﴾ ونحو ذلك: وجوه من الأدلة:

أحدها: أن يعلم أن الله [-عز وجل-]^(١) فيما يخلق - لا يخلق على معونة الأسباب، وتوليد الطبائع؛ لأن الأسباب تكون بموضع الإشكال؛ وكذلك الطبائع تولد الذي في جوهره؛ نحو: الحار يولد الحرارة، والبارد [يولد]^(٢) البرودة؛ فبين [الله -تعالى-]^(٣) الإنشاء على أحوال التضاد؛ [ليعلم]^(٤) أنه القادر على اجتماع ما شاء مما شاء بلا معونة من ذلك ولا توليد، ولا قوة إلا بالله.

والوجه الثاني: أنه جرى تقدير ذلك على ما لا تفاوت له، ولا اختلاف في اختلاف الأعوام؛ ليعلم أنها مسواة على التدبير، أحكمه على ذلك العزيز الحكيم، الذي لا يعجزه شيء، ولا يخفى عليه أمر؛ وليعلم أن الذي قدر على ذلك واحد؛ إذ لم يختلف ولم

(١) في ب: جل ثناؤه.

(٢) سقط من ب.

(٣) في ب: جل ثناؤه.

(٤) سقط من ب.

يتناقض، ولا قوة إلا بالله.

وأيضًا، أنه قد صير كل جوهر^(١) بأحداث الآخر؛ كأنه لم يكن قط، ولا كان بقى له أثر، ثم رده بالوصف الذي كان؛ حتى لا يفوت منه شيء، حتى لا سبيل إلى العلم بالتفصيل بينهما؛ ليعلم أن قدرته على البعث، بعد أن يفنى كل الأجزاء والآثار، على ما كان، ولا قوة إلا بالله.

وأيضًا، أنه إذ بنى الأمر على ما فيه من عظيم الحكمة، وعجيب التدبير - لم يجز أن يكون فعله خارجًا على العتب، ثم في رفع المحنة، وإبطال الرسالة في تعليم ما في ذلك من الحكمة، وما يلزم بمكان ذلك التدبير من الشكر والمعرفة، ثم من الترغيب فيما يملك من النعمة، والترهيب عما عنده من النقمة - إبطال الحكمة، وتقرير العالم مع ما ذكرت على العتب، وذلك فاسد في العقول، وموجود في الجواهر عظيم حكمة منشئها، ثبت بذلك العبادة والرسالة والأجزاء، ولا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ إلى آخره: يحتمل وجهين: يحتمل أن تؤتي ابتداء من غير أن كان آتاهم مرة؛ وكذلك تنزع - أي تمنع - ابتداء من غير أن كان آتاهم، ثم ينزع؛ كقوله: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [الرعد: ٢] رفع ابتداء من غير أن كانت موضوعة فرفعها؛ وكقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] إخراج الابتداء، لا أن كانوا فيها ثم أخرجهم، فعلى ذلك هذا، وعلى ذلك قوله: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [إيلاج ابتداء، لا أن كان أحدهما في الآخر؛ كقوله - تعالى -: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص: ٧١] و ﴿النَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ [القصص: ٧٢] أخبر أنه لم يجعل واحدًا منهما مؤبدًا؛ وكذلك قوله: ﴿وَنُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَنُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ إخراج ابتداء؛ أن يخلق الحي من الميت

(١) لفظ الجوهر: يقال بالاشتراك اللفظي على معانٍ أربعة:

الأول: الموجود الغنى عن المحل والواجب - تعالى - جوهر بهذا المعنى.

الثاني: الماهية التي إذا وجدت كانت لا في الموضوع، وهذا المعنى يقتضى زيادة الوجود على الماهية، وذهب ساجقلي زاده إلى أن وجوده - تعالى - عين ذاته، فلا يطلق الجوهر عليه، وذهب إلى أن وجوده زائد فيتناوله.

الثالث: القابل للصفة، والحكماء اتفقوا على أنه - تعالى - ليس جوهرًا بهذا المعنى بناء على استحالة قيام الصفات بذاته تعالى.

الرابع: الشيء الذي تتعاقب عليه الصفات والحكماء اتفقوا على امتناع تعاقب الصفات على ذات الواجب.

ينظر: حاشية نشر الطوالع، للعلامة المرعشي، الشهير بساجقلي زاده ص (٢٣٤، ٢٣٥).

ابتداء، ويخلق الميت من الحي من غير أن كان فيه؛ ويحتمل هذا كله أن كان يؤتي الملك بعد أن لم يكن، ويعز بعد الذل، وينزع الملك بعد أن كان، ويذل بعد أن كان العز؛ [وكذا قوله: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾: أن يدخل بعض هذا في هذا، وهذا في هذا] ^(١).

وقوله: ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: قيل: أن يخرج حي الأقوال من ميت الأفعال، وميت الأفعال من حي الأقوال، يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن ^(٢)؛ على ما سمى الله - تعالى - الكافر ميتًا، والمؤمن حيًا في غير موضع من القرآن ^(٣).

وقيل: يخرج حي الجوهر من ميت الجوهر، وميت الجوهر من حي الجوهر.
وقيل: يخرج الحي من المني ^(٤)، ويخرج المني من الحي ^(٥).
وقيل: البيضة من الحي، والحي من البيضة ^(٦).
وقيل: النخلة من النواة، والنواة من النخلة، والحبة من السنبل، والسنبل من الحبة ^(٧).

(١) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٠٧، ٣٠٦/٦) (٦٨١٦، ٦٨١٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٧/٢) وزاد نسبه إلى أبي الشيخ عن الحسن البصري، وأخرجه الطبري (٣٠٧/٦) (٦٨٢٠)، وابن أبي حاتم (١٧٨/٢) (٣٢١) عن سلمان. لكن عند ابن أبي حاتم عن سلمان عن عمر. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٧/٢) وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في «الأسماء والصفات» وأبي الشيخ في «العظمة»، عن سلمان.
(٣) كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا...﴾ [سورة الأنعام: ١٢٢].

(٤) المني - مشدد لا غير - : وسمى ميتًا لأنه يمني، أي: يراق، ومنه: سميت البلد، ومنى، لما يراق فيها من الدماء، يقال: مني الرجل وأمنى: إذا خرج منه ذلك. ينظر: النظم المستعذب لابن بطلال (٤١/١).

(٥) أخرجه الطبري (٣٠٤/٦)، (٦٨٠٤)، وابن أبي حاتم (١٨٠/٢)، (٣٢٥)، عن ابن مسعود، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٧٩/٢) (٣٢٤) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٢) (٢٧) وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وأخرجه الطبري (٣٠٤/٦) (٦٨٠٥، ٦٨٠٦)، وابن أبي حاتم (١٨١/٢) رقم (٣٢٧)، عن مجاهد، وعلقه البخاري (٢٠٩/٨) كتاب التفسير، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٧/٢) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر، وأخرجه الطبري (٣٠٥/٦) (٦٨١١) عن سعيد بن جبير، وأخرجه برقم (٦٨١٠) عن قتادة، وبرقم (٦٨٠٧) عن الضحاك.

(٦) أخرجه الطبري (٣٠٦/٦) (٦٨١٣) وابن أبي حاتم (١٨٢/٢)، (٣٣٢) عن عكرمة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٧/٢) وزاد نسبه إلى ابن المنذر وأبي الشيخ.

(٧) أخرجه الطبري (٣٠٦/٦) (٦٨١٤) عن عكرمة وابن أبي حاتم (١٨١/٢) (٣٣١) عن أبي مالك وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٧/٢) عن أبي مالك وزاد نسبه إلى أبي الشيخ.

وقوله: ﴿وَتَرْزُقْ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قيل: ﴿بغير حساب﴾: يعرف الخلق عدده ومقداره.

وقيل: بغير تبعة ولا طلبة؛ أي: لا يحاسبهم فيما أعطاهم من بعد ما أعطاهم^(١).

ويحتمل: ﴿بغير حساب﴾، أي: لا يعطيهم بحساب أعمالهم، ولكن بتفضل، خلافاً للمعتزلة.

ويحتمل: ﴿بغير حساب﴾: في الآخرة.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: «بغير هنداز - فارسية معربة».

وعن مقاتل^(٢): «لا يقدر ذلك غيره؛ يقول: ليس فوقى ملك يحاسبني، أنا الملك

أعطي من شئت بغير حساب، لا أخاف من أحد يحاسبني» والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيَعِزِّدْكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي سُدُورِكُمْ أَوْ تُبْشِرُوهُ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

وقوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل وجهين:

يحتمل: ﴿لَا يَتَّخِذُ﴾، أي: لا يكونون أولياء لهم، وإن اتخذوا أولياء؛ بل هم لهم أعداء؛ كقوله: ﴿لَا يَتَّخِذُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ [المجادلة: ٢٢] إلى آخر الآية.

ويحتمل: على النهي، أي: لا تتخذوا أولياء؛ كقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾

= قال الطبري: وأولى التأويلات التي ذكرناها في هذه الآية بالصواب - تأويل من قال: «يخرج الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء من النطف الميتة؛ وذلك إخراج الحي من الميت. ويخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء؛ وذلك إخراج الميت من الحي... وأما تأويل من تأوله بمعنى الحبة من السنبل، والسنبل من الحبة، والبيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيضة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن - فإن ذلك، وإن كان له وجه مفهوم، فليس ذلك الأغلب الظاهر في استعمال الناس في الكلام، وتوجيه معاني كتاب الله - عز وجل - إلى الظاهر المستعمل في الناس أولى من توجيهها إلى الخفي القليل في الاستعمال.

ينظر: جامع البيان (٣٠٨/٦).

(١) ينظر طرف من الأقوال السابقة في: تفسير الطبري (٣١١/٦) (٦٨٢٣)، تفسير القرطبي (٣٧/٤)، تفسير الرازي (٩/٨)، المحرر الوجيز (٤١٨/١)، تفسير البغوي (٢٩١/١).

(٢) هو مقاتل بن سليمان الأزدي، أبو الحسن الخراساني المفسر، روى عن الضحاك ومجاهد، قال الشافعي: الناس عيال عليه في التفسير. مات سنة ١٥٠هـ.

راجع: تقريب التهذيب ترجمة (٦٩١٦)، خلاصة الخزرجي (٥٣/٣، ٥٤)، سير أعلام النبلاء (٢٠١/٧) رقم (٧٩).

[المتحنة: ١]؛ وكقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْفُؤُوا مِنْهُمْ تَقَنُّةً﴾ : اختلف فيه : قيل : إلا أن يكون بينكم وبينهم قرابة ورحم؛ فتصلون أرحامهم من غير أن تتولوهم في دينهم^(١)، على ما جاء عن علي - رضي الله عنه^(٢) - أنه قال لرسول الله ﷺ لما مات أبوه أبو طالب - : «إِنَّ عَمَّكَ الضَّالُّ تُوفِي»، فقال له رسول الله ﷺ : «أَذْهَبَ قَوَارِهِ»^(٣).

ويحتمل قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْفُؤُوا﴾ على أنفسكم ﴿مِنْهُمْ تَقَنُّةً﴾، إلا أن تخافوا منهم فتظهروا لهم ذلك مخافة الهلاك، وقلوبكم على غير ذلك^(٤). وعن ابن عباس - رضي الله عنه - : «التَّقِيَّةُ: التَّكَلُّمُ بِاللِّسَانِ، وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ»^(٥).

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسُكُمْ﴾ :

قيل : عقوبته^(٦).

[وقيل : نقمته^(٧)؛ يقول الرجل لآخر : احذر فلاناً، إنما يريد نقمته وبوائقه^(٨)؛ فعلى

(١) أخرجه الطبري (٣١٦/٦)، (٦٨٣٦، ٦٨٣٧)، وابن أبي حاتم (١٩٢/٢) (٣٦٣) وعبد الرزاق في تفسيره (١١٨/١) عن قتادة. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٩/٢) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد. وروى نحوه أيضاً عن الحسن، أخرجه الطبري (٦٨٣٨). سقط من ب.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٣٢/٢) كتاب الجنائز: باب الرجل يموت له قرابة مشرك حديث (٣٢١٤)، والنسائي (١١٠/١) كتاب الطهارة: باب الغسل من مواراة المشرك، وأحمد (١٣١، ٩٧/١)، والطائلي في مسنده (٢٣٢٧ - منحة المعبود) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/٣٩٨)، وفي «الدلائل» (٢/٣٤٩) من حديث علي، وهو حديث صحيح.

(٣) وهذا ما رجحه الطبري في تفسيره (٣١٥/٦).

(٤) أخرجه الطبري (٣١٥/٦) (٦٨٣٥)، وابن أبي حاتم (١٨٩/٢) (٣٥٦) من طريق العوفي عن ابن عباس. وأخرجه الحاكم (٢٩١/٢) من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس. وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه الطبري (٣١٤/٦) (٦٨٢٩) من طريق ابن جريج عن عمن حدثه عن ابن عباس، وأثر ابن عباس ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٩/٢) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر. ذكره البغوي في «تفسيره» (١/٢٩٢) والقرطبي (٤/٣٨)، ولم ينسبه لأحد. وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/٤٢٠) ونسبه لابن عباس والحسن.

وقال الثوري : من رافه بكم تحذيره إياكم نفسه. أخرجه ابن أبي حاتم (١٩٣/٢) (٣٦٤) ومثله عن الحسن البصري، أخرجه ابن أبي حاتم (٢٠١/٢) (٣٧٥).

(٧) يقال : نقت الشيء ونقمته - بالفتح والكسر - : أي : كرهته، والفتح أفصح، وقيل : نقمته : أنكرته إما باللسان أو بالعقوبة، والنقمة والانتقام : العقوبة بإنكاره. ينظر : عمدة الحفاظ (٤/٢٤٨، ٢٤٩).

(٨) البائقة : الداهية، والبلية تنزل بالقوم، ومنه الحديث : «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه». أخرجه أحمد (٢/٢٨٨)، ومسلم (١/٦٨)، كتاب الإيمان : باب بيان تحريم إيذاء الجار، رقم =

ذلك قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ عقوبته^(١). وبوائقه، التي تكون من نفسه لما يكون ذلك به لا بغيره، والله أعلم.

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوا﴾:

يحتمل: ما تخفوا من ولاية الكفار وتبدوه - يعلمه الله، فيه إخبار أن في قلوبهم شيئاً. ويحتمل: أن يكون أراد جميع ما يخفون ويبدون ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٣٠) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)

وقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾:

قيل: تجد ثواب ما عملت من خير حاضراً؛ لأن عمله إنما كان للثواب لا لنفس العمل^(٢).

﴿وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾:

يحتمل: ما عملت من سوء تجده مكتوباً يتجاوز عنه؛ لأن الله - عز وجل - وعد المؤمنين^(٣)، وأطمع لهم قبول حسناتهم، والتجاوز عن سيئاتهم؛ كقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦]؛ فيجد المؤمن ثواب ما عمل من خير حاضراً، ويتجاوز عن مساوئه. وأما الكافر: فيجد عقاب ما عمل من سوء في الدنيا؛ كقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩] فلا يتجاوز عنهم، ويبطل خيراتهم.

وقوله: ﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾:

قيل: بعيداً من حيث لا يرى^(٤).

وقيل: بعيداً تود: ليت أن لم يكن، ما من نفس مؤمنة ولا كافرة إلا ودوا البعد عن

= (٧٣ - ٤٦). وينظر: تاج العروس (١٠٦/٢٥)، (بوق).

(١) ما بين المعوقين سقط من ب.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (٣٩/٤)، تفسير الرازي (١٤/٨ - ١٥).

(٣) في ب: للمؤمنين.

(٤) قال السدي: مكاناً بعيداً. أخرجه الطبري (٣٢٠/٦) (٦٨٤٢)، وابن أبي حاتم (٢٠١/٢) (٣٧٤)،

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٩/٢) ونسبه إليهما.

ذنبه، وأنه لم يكن^(١).

﴿وَحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسُهُ﴾: قد ذكرناه^(٢).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾:

إن أراد رافة الآخرة - يعنى بالمؤمنين خاصة، وإن أراد رافة الدنيا - فهو بالكل^(٣).

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾: فالرحمة من الله - جلّ

ثناؤه - والرافة نوعان:

أحدهما: في حق الابتداء، أن خلق خلقًا ركب فيهم ما يميزون به بين مختلف الأمور، ويجمعون بين المؤتلف، ثم لم يأخذ كلا منهم بما استحق من العقوبة؛ بل رحم وأمهل للتوبة والرجوع إليه، وهذه الرحمة رحمة عامة لا يخلو عنها عبد. ورحمة في حق الجزاء؛ من التجاوز والمغفرة وإيجاب الثواب للفعل، فهذه لا ينالها أعداؤه؛ لما يوجب التجهيل في التفريق بين الذي جعل في العقول التفريق؛ ولما يكون وضع الإحسان في غير أهله، والإكرام لمن لا يصرف الكرم^(٤) به؛ ولما في الحكمة تعذيبهم تخويفًا وزجرًا عما يختارون، وينالها من تقرب واعتقد الموالاة، وكان هو أعظم في قلوبهم وطاعته من جميع لذات الدارين، وإن كانوا يلبون بالمعاصي على الجهالة، أو على رجاء الرحمة والعفو؛ إذ هو كذلك في شرطهم الذي به والوه، وبالغلبة، والله أعلم، فهي رحمة خاصة، أي: هي بالمؤمنين، وبالعباد الذين بذلوا أنفسهم له بالعبودية بحق الاختيار، وإن كانوا يغلبون على ذلك في أحوال، والله الموفق^(٥).

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ قيل: إن ناسًا كانوا يقولون في عهد

رسول الله ﷺ: إنا نحب الله حبًا شديدًا؛ فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية، وبين فيها لمحبه علمًا^(٦).

(١) روي ذلك عن الحسن البصري، أخرجه الطبري (٦/٣٢٠، ٣٢١) (٦٨٤٣)، وابن أبي حاتم (٢/١٩٩، ٢٠٠) (٣٧١)، وينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥/١٥٦).

(٢) في الآية (٢٨) من سورة آل عمران.

(٣) ينظر: تفسير الرازي (٨/١٧).

(٤) في ب: المكرم.

(٥) قال الحسن: ومن رافته بهم أن حذرهم نفسه، أخرجه عنه الطبري (٦٨٣٩).

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/٣٢٣)، (٦٨٤٥، ٦٨٤٦) عن الحسن وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٣٠) وزاد نسبه إلى ابن المنذر. وأخرجه الطبري (٦/٣٢٣) (٦٨٤٧) عن ابن جريج وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٣٠) وزاد نسبه إلى ابن المنذر. وأخرجه الحكيم الترمذي عن يحيى بن أبي كثير كما في «الدر المنثور» (٢/٣٠). ينظر: تفسير البغوي (١/٢٩٣)، وتفسير

وقيل: إن اليهود لما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه؛ فأُنزل الله - تبارك وتعالى -: قل يا محمد: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وذلك أن من أحب ملكاً من الملوك يحب رسوله، ويتبعه في أمره، ويؤثر طاعته لحبه، فإذا أظهرتم أنتم بغضكم لرسولي، وتركتم اتباعه في أمره، وإيثار طاعته - ظهر أنكم تكذبون في مقاتلتكم: نحن أبناء الله وأحباؤه؛ لأن من أحب آخر يحب المتصلين به ورسله وحشمه^(١)، والمحبة - ههنا -: الإيثار بالفعل طاعة من يحبه فيما أحبه وكرهه، والطاعة له في جميع أمره، والله أعلم. وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾ الآية: قد تقدم ذكرها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتْ أُمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمِيتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُمُ إِنِّي لِلَّهِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾:

اختلف فيه؛ قيل: ﴿اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾ ومن ذكر لرسالته ولنبوته^(٢).

وقيل: اختارهم لدينه، وهو الإسلام.

وقيل: اختارهم في النية والعمل الصالح والإخلاص لله^(٣).

قال الشيخ - رحمه الله -: الاصطفاء: أن يجعلهم أصفياء من غير تكدر بالدنيا، وغيرهم اختارهم لأمرين: لأمر الآخرة، ولأمر المعاش؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ؛ نَمُوتُ مَوْتِ الْعَبْدِ لِسَيِّدِهِ﴾^(٤).

= الرازي (١٦/٨)، والمحرم الوجيز (٤٢٢/١)، واللباب في علوم الكتاب (١٥٧/٥).

(١) يقال خَشَمَةُ الرجل وخَشَمَهُ وأخْشَمَهُ: خاصته الذين يغضبون له من عبيد، أو أهل، أو جيرة إذا أصابه أمر، وقيل: عياله وقرابته، وقيل: خدم الرجل. ينظر: لسان العرب (٨٨٩/٢) (حشم).

(٢) قريب منه قول الحسن البصري: فضلهم الله على العالمين بالنبوة. أخرجه الطبري (٣٢٧/٦) (٦٨٥٤)، وابن أبي حاتم (٢٠٨/٢)، (٣٨٩).

(٣) أخرجه الطبري (٣٢٨/٦) (٦٨٥٥)، وابن أبي حاتم (٢١٢/٢) (٣٩٦) عن قتادة، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣١/٢ - ٣٢) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد.

(٤) أخرجه - بالجزء الأول حتى: «لا نورث» - أحمد في المسند (١/٢٥، ٤٨، ١٦٢، ١٦٤، ١٧٩، ١٩١)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٨٥/٢) وقوله نموت لم أفق عليه.

وقال الشيخ [رحمه الله]^(١) أيضًا في قوله: إن الله اصطفى من ذكر: فهو - والله أعلم - ذكر الله أوليائه وأهل صفوته، ثم أعداءه وأهل الشقاء؛ ترغيبًا فيما استوجبوا الصفوة؛ وتحذيرًا عما به صاروا أهل الشقاء؛ إذ هما أمران يتولدان عن اختيار البشر، ويقومان بأسبابهما أهل المحن، لا بنفس الخلقة والجوهر؛ فصار الذكر للمعنى الذي ذكرت؛ وعلى [ذلك وجه ذكر]^(٢) عواقب الفريقين في الدنيا، وما إليه يصير أمرهم في المعاد؛ وعلى هذا ما ضرب الله من الأمثال بأنواع الجواهر الطيبة والخبيثة في العقول والطباع ترغيبًا وترهيبًا؛ وعلى هذا جميع أمور الدنيا، أنها كلها عبر ومواعظ، وإن كان فيها شهوات ولذات، وآلام وأوجاع؛ ليعلم أنها خلقت لا لها لكن لأمر عظيم، كان ذلك هو المقصود من مدبر العالم [أن]^(٣) بالعواقب يذم أهل الاختبار ويحمدون؛ فجعل الله عواقب الحكماء وأهل الإحسان حميدة لذيدة؛ ترغيبًا فيها، وعواقب السفهاء وأهل الإساءة دميمة^(٤) وجيفة^(٥)؛ تزهيدًا فيها؛ فخرج جميع فعل الله على الحكمة والإحسان، وإن كانت مختلفة في اللذة والكرهية؛ لأنه كذلك طريق الحكمة في الجزاء، وفي ابتداء المحنة، إلا أن المحنة تكون مختلفة، والجزاء نوع لما هو كذلك في الحكمة والإحسان؛ إذ كذلك سبق من أهله الاختيار والجزاء على ما اختاره من له وعليه حكمة وإحسان؛ أعني: بالإحسان فيما يجوز الامتحان بلا جزاء بحق الشكر لما أولى وأبلى، والحكمة فيما كان لازمًا ذلك في التدبير، ولا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾:

قيل: بعضها من بعض في النسب من ذرية آدم، ثم من ذرية نوح، ثم من ذرية إبراهيم، عليهم السلام.

وقيل: بعضهم من ذرية بعض.

وقيل: بعضهم من جوهر بعض؛ فلا تتكبروا؛ كقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢٥] منع الحر عن التعظيم على العبد.

واختلف في الذرية: قال بعضهم: «الذرية»: الأولاد والآباء؛ كقوله: ﴿ذُرِّيَّةً مَنْ حَكَمْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣]، وكانوا الأولاد والآباء، والذرية مأخوذة، وهو الخلقة.

(١) سقط من ب.

(٢) في ب: هذا ذكر وجه ذكر.

(٣) سقط من ب.

(٤) دميمة: قبيحة. ينظر: اللسان (١٤٢٧/٢) (دمم).

(٥) الجيفة: جثة الميت إذا أنتنت. ينظر: اللسان (٧٣٩/١) (جيف).

وقيل: «الذرية»: الأولاد خاصة^(١)، يقال: ذرية فلان، إنما يراد، أولاده خاصة؛ دليله قوله: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]. وقوله: ﴿وَلَايَ أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ﴾.

واختلف في الآل^(٢)؛ قيل: آل الرجل: المتصلون به.

وقيل: آل الرجل: أتباعه.

وقيل: أقرباؤه.

وروى [أن النبي] ﷺ^(٣) قال: «كُلُّ تَقِيٍّ فَهَوٌ مِنْ آلِي»^(٤).

وقيل: إن عمران من ولد سليمان بن داود^(٥).

وقوله: ﴿إِذْ قَالَتْ أَمْرَأْتُ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾.

لما أخبر - عز وجل - أنه اصطفي آل عمران واختارهم على سائر العالمين، وكان أقل

ما في صفوته واختياره أن جعلت امرأة عمران ما في بطنها محرراً.

(١) راجع هذه الأقوال في: اللباب لابن عادل (١٦٦/٥).

(٢) لفظة «آل»: اسم ثلاثي. ومن علماء اللغة من ذهب بأن أصلها الواو؛ مثل: قال وصال، ومنهم من قال: إن أصلها الهاء وسهلت. وهذه اللفظة لها معان كثيرة:

فالآل: هو الشخص، وهو ما تراه أول النهار وآخره مما يشبه السراب وليس هو السراب. والآل: ما أشرف من البعير، والخشب وعمد الخيمة، واسم جبل وأطراف الجبل ونواصيه. وآل الرجل: أصله وعياله، وآله: أتباعه وأولياؤه، وهذه هي المعاني المناسبة لما تكلم فيها الفقهاء والمفسرون.

وأما الآل عند الفقهاء، فيرى أبو حنيفة وأتباعه أن آل محمد الذين حرمت عليهم الصدقة هم بنو هاشم بن عبد مناف إلا من ورد النص بنفي قرابتهم، وهاشم لا ولد له إلا من ابنه عبد المطلب، فمن يعتبرون آل محمد وقرابته في هذا الباب هم آل علي وآل العباس وآل عقيل وآل جعفر وآل الحارث من أولاد عبد المطلب، أما آل أبي لهب بن عبد المطلب فليس من آل محمد، ولا تحرم عليهم الصدقة وإن كانوا مسلمين.

وما ذهب إليه الحنفية في هذا هو المشهور من مذهب مالك، وإحدى الروایتين عن أحمد. وقال الشافعي وابن حزم: إن آل محمد هنا هم بنو هاشم وبنو المطلب فقط. وهو مقابل المشهور من مذهب مالك وإحدى الروایتين عن أحمد.

ينظر: حاشية ابن عابدين (٤٣٩/٣)، بدائع الصنائع (٣٤٩/٧)، الشرح الكبير مع حاشية الدسوقي (٩٣/٤)، نهاية المحتاج للرملي (٨٢/٦)، حاشية الجمل على المنهج (٦٠/٤)، كشف القناع للبهوتي (٢٤٢/٤).

(٣) في ب: أنه.

(٤) أخرجه الطبراني في الصغير (١١٥/١) من حديث أنس، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٧٢/١٠): رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه نوح بن أبي مريم وهو ضعيف. قلت: بل هو وضاع.

(٥) وهو قول الحسن البصري ووهب بن منبه وينظر البحر المحيط (٤٩٣/٢)، واللباب في علوم الكتاب (١٦٥/٥).

«والمحرّر»: هو العتيق عن المعاش بالعبادة^(١).

وقيل: «المحرّر» هو الذي يعبد الله - تعالى - خالصاً مطيعاً، لا يشغله شيء عن عبادته، فارغاً لذلك، وهو قول ابن عباس - رضي الله عنه^(٢).

وقيل: «المحرر» هو الذي يكون لله صافياً^(٣).

وقيل: «المحرر» هو مَنْ خَدَمَ المسجد^(٤).

وقوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾

جعلت ما في بطنها لله خالصاً، لم تطلب منه الاستئناس به، ولا ما يطمع الناس من أولادهم، وذلك من الصفوة التي ذكر - عز وجل - وهكذا الواجب على كل أحد أنه إذا طلب ولداً أن يطلب للوجه الذي طلبت امرأة عمران وزكريا، حيث قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]، وما سأل إبراهيم - عليه السلام - : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا...﴾ الآية [الفرقان: ٧٤] هكذا الواجب أن يطلب الولد لا ما يطلبون من الاستئناس والاستنصار والاستعانة بأمر المعاش بهم.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أي: تقبل مني قرباني، وما جعلت لك خالصاً، إنك أنت السميع لنذري، العليم بقصدي في التحرير.

وقيل: ﴿السَّمِيعُ﴾: المجيب لدعائي، ﴿العليم﴾: بنيتي^(٥).

وقوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾.

ومعنى قولها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ - مع علمها أن الله عالم بما في بطنها وبما وضعتها - وجهان:

أحدهما: اعتذاراً لما لم يكن يُحرَّر في ذلك الزمان إلى الذكور من الأولاد؛ فاعتذرت:

(١) أخرجه الطبري (٣٣١/٦)، (٦٨٦٧)، وابن أبي حاتم (٢/٢١٤)، (٤٠١) عن مجاهد، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٣/٢) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وأخرجه الطبري (٦٨٦٣) عن الشعبي، ورقم (٦٨٦٨) عن سعيد بن جبير، ورقم (٦٨٧٥) عن عكرمة، ورقم (٦٨٧٤) عن الضحاك، ورقم (٦٨٧٢) عن السدي، وينظر الدر المنثور (٣٣/٢).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٣/٢) وعزاه إلى ابن المنذر.

(٣) تقدم نحوه عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري (٣٣٠/٦)، (٦٨٦٠)، وابن أبي حاتم (٢/٢١٧)، (٤٠٨) عن مجاهد، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٣/٢) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد.

(٥) ينظر اللباب في علوم الكتاب (١٧٢/٥).

إني ما وضعت لا يصلح للوجه الذي جعلت.

والثاني: أن الإنسان إذا رأى شيئاً عجيباً قد ينطق بذلك، وإن كان يعلم أن غيره علم ما علم هو، وأنه رأى مثل ما رأى هو.

أو يحتمل أن طلبت ردها إلى منافعها إذا وضعت الأنثى؛ لما رأت الأنثى لا تصلح لذلك.

ويحتمل قولها: ﴿إِنِّي وَصَّعْتُهَا أَنْثَى﴾: التعريض لإجابة الله - تعالى - لها فيما قصدت من طاعته بالنذور^(١) إن لم تكن صلحت لما قصدت، وقد أجيبت في ذلك بقوله: ﴿فَنَقَّبَلْهَا رَبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنٍ﴾ نحو ما يتقبل لو كان ذكرًا في الاختيار والإكرام، وجعلها خير نساء العالمين.

وقوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾. اختلف فيه: قيل: إن ذلك قولها، قالت: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ على إثر قولها: ﴿إِنِّي وَصَّعْتُهَا أَنْثَى﴾^(٢)؛ لما تحتاج الأنثى إلى فضل حفظ وتعاهد، والقيام بأسبابها ما لا يحتاج الذكر.

وقيل: إن ذلك قول قاله - عز وجل - لما قالت: ﴿إِنِّي وَصَّعْتُهَا أَنْثَى﴾، جواباً لها، ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ فيما قصدت، والله أعلم. وقوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾.

فيه دليل [على]^(٣) أن تسمية الأولاد إلى الأمهات في الإناث دون الآباء^(٤)، ثم التجأت إلى الله تعالى، حيث أعادتها به - وذريتها - من الشيطان الرجيم. وفيه دلالة أن الذكر يكونون من ذرية الإناث؛ لأنه لم يكن منها إلا عيسى، عليه السلام. وقوله: ﴿فَنَقَّبَلْهَا رَبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنٍ﴾.

يحتمل قوله: ﴿فَنَقَّبَلْهَا رَبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنٍ﴾: أن أعادها وذريتها من الشيطان الرجيم على ما سألت.

(١) جمع نذر. وهو في اللغة: مشتق من الإنذار، وهو: الإبلاغ والإعلام بالأمر المخوف، كأن الناظر يعلم نفسه، ويوجب عليها قرينة يخوف الإثم من تركها. وهو في الاصطلاح: إيجاب عبادة في الذمة بشرط وبغير شرط. وقيل: هو: إيجاب عين الفعل المباح على نفسه تعظيماً لله تعالى. ينظر: الصحاح (٢/٨٢٦) (نذر)، والقاموس المحيط ص (٤٣٤) (نذر)، وأنيس الفقهاء للشيخ قاسم القونوي (٣٠١)، والنظم المستعذب لابن بطال (١/٢٢١).

(٢) أخرجه الطبري (٦/٣٣٥) رقم (٦٨٨٢) عن السدي.

(٣) سقط من ب.

(٤) قال السيوطي في: «الإكليل»: في الآية دليل على جواز تسمية الأطفال يوم الولادة وأنه لا يتعين يوم السابع؛ لأنها إنما قالت هذا بأثر الوضع، كما فيه مشروعية التسمية للأم وأنها لا تختص بالآب. ينظر: محاسن التأويل للقاسمي (٤/٩١).

ويحتمل أن جعلها تصلح للتحرير ولما جعلت، وإن كانت أنثى^(١).
وقوله: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾.

يحتمل - أيضًا - نباتًا حسنًا؛ أن لم يجعل للشيطان إليها سبيلاً.
ويحتمل أن ربّاه تربية حسنة؛ أن لم يجعل رزقها وكفايتها بيد أحد من الخلق؛ بل هو الذي يتولى ذلك لما يبعث إليها من ألوان الرزق^(٢)، كقوله: ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾،
وكقوله: ﴿وَهُزَيَ إِلَيْكَ جِذْعَ النَّخْلَةِ سَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].
وقوله: ﴿وَكُنْهًا زَكْرِيَّا﴾.

فيه لغتان: إحداهما: بالتخفيف، والأخرى: بالتشديد؛ فمن قرأ بالتخفيف^(٣)؛ فمعناه
ضمتها زكريّا إلى نفسه^(٤)، ومن قرأ بالتشديد^(٥)؛ فمعناه: أن الله - عز وجل - ضمّها إلى
زكريّا^(٦).

وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾.
قيل: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف^(٧) - قال
زكريّا: ﴿أَنَّى لَئِبَ هَذَا﴾.

قيل فيه بوجهين:
قيل: استخبار عن موضعه^(٨)، أو كيف لك هذا، على الاستيصال^(٩)؛ إنكارًا عليها
واتهامًا؛ لما لا يدخل عليها غيره، ولا يقوم بكفايتها سواه، فوقع في قلبه أن أحدًا من

- (١) ينظر: الباب في علوم الكتاب (١٧٩/٥).
- (٢) روي مختصراً عن ابن جريج، أخرجه الطبري (٣٤٥/٦) (٦٩٠١)، وقيل: بجعل ذريتها من كبار الأنبياء. ينظر: محاسن التأويل للقاسمي (٩٢/٤) ..
- (٣) قرأ بالتخفيف ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو ونافع من السبعة.
ينظر: السبعة لابن مجاهد (٢٠٤)، الحجة لابن خالويه (ص: ١٦١)، شرح الطيبة للنويزي (١٥٢/١ - ١٥٤)، إتحاف فضلاء البشر للبنا (٤٧٥/١ - ٤٧٦).
- (٤) أخرجه الطبري (٣٤٩/٦) (٦٩٠٣) عن الربيع، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٥/٢) وعزاه للطبري.
- (٥) قرأ بالتشديد الكوفيون: عاصم وحزمة والكسائي. ينظر: المصادر السابقة.
- (٦) ينظر: معاني القراءات لأبي منصور الأزهري (٢٥٢/١).
- (٧) أخرجه الطبري (٣٥٦/٦) (٦٩٣٣) عن ابن عباس، وأخرجه برقم (٦٩٢٠ - ٦٩٢٣) عن الضحاك، وأخرجه برقم (٦٩٢٧) عن مجاهد، وكذا ابن أبي حاتم (٢٢٧/٢) (٤٣٥)، وأخرجه برقم (٦٩٢٨) عن قتادة، وبرقم (٦٩٣٠) عن الربيع، وبرقم (٦٩٣١) عن السدي. وينظر: الدر المنثور (٣٦/٢).
- (٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٣٠/٢) (٤٤٦، ٤٤٧) عن أبي مالك والضحاك وذكرهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣٦/٢) وعزاهما إلى ابن أبي حاتم.
- (٩) الاستيصال: أي: طلب الإخبار عن الصفة. ينظر: تاج العروس (٤٥٩/٢٤) (وصف).

البشر يأتيها بذلك .

وقيل : إنه قال ذلك ؛ تعجباً منه لذلك لما رأى من الفاكهة والطعام في غير حينه غير متغير^(١) ؛ فقال : ﴿أَنْ لَّكَ هَذَا﴾ ؛ تعجباً منه لذلك .
ثم قالت : ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .
أي : يرزق من حيث لا يحتسب .

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٨) فَدَافَتْهُ الْمَلٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُعَلِّى فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيٰى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِىَ غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّىَ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَآذَرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبَّحَ بِٱلْعَمِيۜنِ وَٱلْإِنكَّارِ (٤١) وقوله : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ .

قيل : فعند ذلك دعا زكريا ربه لما كانت نفسه الخاشية تحدث بالولدان تهب له ، لكنه لم يدعو لما رأى نفسه متغيرة عن الحال التي يطمع منها الولد ، فرأى أن السؤال في مثل ذلك لا يصلح ؛ فلما رأى عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف غير متغيرة عن حالها - علم عند ذلك أن السؤال يصلح ، وأنه يجاب للدعاء في غير حينه ، فذلك معنى قوله : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾^(٢) ، والله أعلم .

ويحتمل أنه لما رأى ما أكرمت امرأة عمران في قبول دعوتها وتبليغ ابنتها في الكرامة المبلغ الذي رأى فيها مما لعل أطماع الأنفس لا تبلغ ذلك - دعا الله - جل جلاله - أن يكرمه ممن يبقى له الأثر فيه والذكر ، وإن كانت تلك الحال حال لا تطمع الأنفس فيما رغب - عليه السلام - مع ما كان يعلم قدرة الله - تعالى - على ما يشاء^(٣) من غير أن كان يحس على طلب الإكرام بكل ما يبلغه قدره ، حتى رأى ما هو في الأعجوبة قريب مما كانت^(٤) نفسه تمنى ، والله أعلم بالمعنى الذي سأل .

وقوله : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ .

- (١) أخرجه الطبري (٣٥٨/٦) (٦٩٣٧ ، ٦٩٣٨) عن الربيع وعن بعض أهل العلم .
(٢) أخرجه الطبري (٣٦٠/٦) (٦٩٤١) عن ابن عباس بنحوه وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٣٦) ، وأخرجه الطبري برقم (٦٩٤٠) عن السدي أيضاً ، وذكره السيوطي بنحوه في «الدر المنثور» (٣٦/٢ - ٣٧) عن الحسن . وعزاه إلى إسحاق بن بشر وابن عساكر .

(٣) في ب : شاء .

(٤) في ب : كان .

أي: مجيب الدعاء.

وقوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ﴾.

دل هذا أن المحراب هو موضع الصلاة^(١).

﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْشِرُكَ بِبَيْعِي﴾.

فيه دلالة لقول أصحابنا - رحمهم الله - أن الرجل إذا حلف ألا يبشر فلاناً فأرسل إليه غيره يبشره - حث في يمينه^(٢)؛ لأنه هو البشير، وإن كان المؤدي غيره؛ ألا ترى أن البشارة - ههنا - أضيفت إلى الله - تعالى - فكان هو البشير؛ فكذلك هذا.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.

﴿بِكَلِمَةٍ﴾ قيل: عيسى - عليه السلام - كان بكلمة من الله^(٣)، فيحيى صدقه برسالته.

وقيل: أول من صدق عيسى - يحيى بن زكريا^(٤)، ولهذا وقع على النصارى شبهه؛

حيث قالوا: عيسى ابن الله، بقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] ظنوا

أنه في معنى «فيه»؛ لكن ذلك إنما يذكر إكراماً لهم وإجلالاً، ولا يوجب ذلك ما قالوا؛

ألا ترى أن الله - عز وجل - قال: ﴿وَمَا يَكُم مِّن يَّعْمَلٍ فَعِمَّنَ اللَّهُ﴾ [النحل: ٥٣] ونحو

ذلك، لم يكن فيه أن النعمة منه في شيء؛ فعلى ذلك الأول^(٥).

وقوله: ﴿وَسَيِّدًا﴾:

قيل: سيِّداً في العلم والعبادة^(٦).

وقيل: السيِّد: الحكيم ههنا^(٧).

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٧/٢) وعزاه إلى ابن المنذر عن السدي.

(٢) ينظر: الفتاوى الهندية للجنة من العلماء برئاسة نظام الدين البلخي (١٠٣/٢)، وفتح القدير للكمال ابن الهمام (١٤٤/٥)، البحر الرائق لابن نجيم (٣٦٢/٤)، رد المحتار (٧٩٢/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٣٧٣/٦) (٦٩٦١)، وابن أبي حاتم (٢٣٥/٢) (٤٥٩) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٨/٢) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر. وأخرجه الطبري (٦٩٥١) عن مجاهد، وبرقم (٦٩٦٥) عن الحسن، وبرقم (٦٩٥٦) عن قتادة. وينظر: «الدر المنثور» (٣٨/٢).

(٤) أخرجه الطبري (٦٩٦٠) عن الضحاك، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٨/٢) وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

(٥) وقال أبو عبيد: معنى ﴿بكلمة من الله﴾: بكتاب من الله.

والعرب تقول: أنشدني كلمة: أي قصيدة.

ينظر: تفسير القرطبي (٢٩/٤)، ثم قال القرطبي معقباً: وقيل غير هذا من الأقوال، والقول

الأول أشهر، وعليه من العلماء الأكثر.

(٦) أخرجه الطبري (٣٧٤/٦) (٦٩٦٦، ٦٩٦٧) عن قتادة.

(٧) الذي روي عن ابن عباس وغيره: حليماً تقياً. أخرجه الطبري (٣٧٦/٦) (٦٩٧٨)، وابن أبي حاتم =

وقيل: السيد: الذي يطيع ربه ولا يعصيه، فكَذَلِكَ كان صلوات الله عليه^(١).

وقيل: السيد: الحسن الخلق^(٢).

وقيل: السيد: التقى^(٣).

وقيل: اشتق يحيى من أسماء الله - تعالى - من: «حي»، والله - عز وجل - هو الذي سَمَّاه يحيى؛ وكذلك عيسى - روح الله - هو الذي سَمَّاه مسيحًا؛ بقوله: ﴿يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥] وذلك إكرامًا لهم وإجلالًا، على ما سمي إبراهيم: خليل الله، ومحمد: حبيب الله، وموسى: كلم الله؛ إكرامًا لهم وإجلالًا؛ فكَذَلِكَ الأول.

وجائز أن يكون «يحيى» بما حيى به الدين.

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿يَحْيَى﴾: قيل: سَمَّاه به؛ لما حيى به الدين والمروءة، أو حيى به العلم والحكمة، أو حيى به الأخلاق الفاضلة، والأفعال المرضية؛ ولهذا - والله أعلم - سمي سيّدًا؛ لأن السؤدد^(٤) في الخلق يكتسب بهذا النوع من الأحوال^(٥).

وسمي مسيحًا بما مسح بالبركة، أو يبارك في كل شيء يمسه بيده؛ نحو أن يبرأ به ويحيى، والله أعلم.

وحقيقة السؤدد أنه يكتسب بالأخلاق الحسنة، والأفعال المرضية، وجائز أن يكون - عليه السلام - جمعهما فيه؛ فسَمِّي به، والله أعلم.

والأصل في هذا ونحوه: أن الأسماء إن جعلت للمعارف، ليعلم بها المقصود - فالكف عن التكلف في المعنى الذي له سموا له أسلم، وإن كان في الجملة يختار ما يحسن منه في الأسماع، دون ما يقبح على المقال، أو على الرغبة في ذكره على ما يختار

= (٢٣٨/٢) (٤٦٩) عن ابن عباس، وأخرجه الطبري (٦٩٧٤)، والخراطي في «مكارم الأخلاق» (ص ٦٠-) عن الضحاك، وينظر تفسير ابن أبي حاتم (٤٦٩ - ٤٧٦).

(١) ذكره ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب (١٩٨/٥) ونسبه لسعيد بن جبير.

(٢) أخرجه الخراطي في «مكارم الأخلاق» (ص ٦٠) عن الضحاك، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٩/٢) وزاد نسبته إلى أحمد في «الزهد».

(٣) تقدم عن ابن عباس وغيره.

(٤) أصحاب السؤدد: هم أصحاب المجد والشرف.

ينظر: تاج العروس (٢٢٥/٨) (سود).

(٥) قال القاسمي: لفظ «يحيى» معرب عن يوحنا اسمه في العبرانية، ومعنى يوحنا: نعمة الرب.

ينظر: محاسن التأويل (٩٥/٤).

من كل شيء، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾:

قيل: الحصور: الذي لا ماء له ولا شهوة^(١).

وقيل: هو المأخوذ عن النساء، والممنوع منهن^(٢).

وقيل: هو الذي لا يشتهي النساء^(٣).

وكله واحد^(٤)، والله أعلم.

﴿وَيَبَيِّنَا مِنَ الْمَكَلِّجِينَ﴾:

ذكر أنه من الصالحين، وإن كان كل نبي لا يكون إلا صالحًا؛ على ما سمي كل نبي صديقًا، وإن كان لا يكون إلا صديقًا، ووجه ذكره صالحًا: أنه كان يتحقق فيه ذلك؛ لأن غيره من الخلق، وإن كان يستحق ذلك الاسم - إنما يستحق بجهة، والأنبياء - عليهم السلام - يتحقق ذلك فيهم من الوجوه كلها.

والثاني: دعاء أن يلحق بالصالحين في الآخرة، والله أعلم.

قال الشيخ - رحمه الله -: ما ذكر في كل نبي أنه كان من الصالحين - يخرج على أوجه: على جميع الصلاح، وعلى البشارة لهم في الآخرة أنهم يلحقون بأهل الصلاح، وعلى أنهم منهم؛ لولا النبوة؛ ليعلم أن النبوة إنما تختار في الدين لمن تم لهم وصف الصلاح، وعلى الوصف به أنهم كذلك على ألسن الناس، وأن الذين ردوا عليهم - ردوا

(١) أخرجه الطبري (٣٧٩/٦) (٦٩٩٧)، وابن أبي حاتم (٢٤٦/٢) (٤٩٣) عن ابن عباس بلفظ: الحصور الذي لا ينزل الماء. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٩/٢) وزاد نسبه إلى أحمد في «الزهد» وابن المنذر. وأخرجه الطبري (٦٩٩٢، ٦٩٩١) وابن أبي حاتم (٤٩٤) عن الضحاك.

(٢) وهو قول ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير وأبي صالح وأحد قولي الضحاك وعكرمة ومجاهد وعطية وجابر بن زيد وآثارهم عند الطبري (٣٧٧-٣٨٠) (٦٩٨٠ - ٧٠٠٠)، وابن أبي حاتم (٢٤٣-٢٤٥) (٤٨٤ - ٤٩٢)، وينظر: «الدر المنثور» (٣٩/٢).

(٣) هو بالمعنى السابق.

(٤) وقيل: الحصور: العنين الذي لا ذكر له يتأتى له به النكاح ولا ينزل. وقيل معناه: الحابس نفسه عن معاصي الله، عز وجل. ينظر: تفسير القرطبي (١٥/٤)، وقد ساق قبل هذا تفسيرين للحصور: الأول: لا يأتي النساء؛ كأنه ممنوع مما يكون في الرجال. والثاني: هو الذي يكف عن النساء ولا يقربهن مع القدرة.

ثم قال: وهذا أصح الأقوال لوجهين:

أحدهما: أنه مدح وثناء عليه، والثناء إنما يكون عن الفعل المكتسب دون الجيلة في الغالب.

الثاني: أن «فعلًا» في اللغة من صيغ الفاعلين...؛ فالمعنى أنه يحصر نفسه عن الشهوات، ولعل هذا كان شرعه، فأما شرعنا فالنكاح كما تقدم.

بعد علمهم بصلاحتهم، أو على الوصف به كالوصف بالصدق، وإن كان كل نبي كذلك؛ مع ما لعل لذلك حد عند الله؛ لذلك^(١) أراد لم يكن أطلع غيره عليه، والله أعلم. وجائز أن يكون «يحيى» بما حيى به الأخلاق المحموده، والأفعال المرضية؛ ولذلك سمى سيِّداً؛ وجملته أن الله أن يسمي من شاء بما شاء، وليس لنا تكلف طلب المعنى، فيما سمى الله الجواهر به؛ إذ الأسماء للتعريف، لكن يختار الأسماء الحسنة في السمع على التفاؤل، والله أعلم.

وقوله: وروح الله وكلمته - كقوله: خليل الله وحييه، وذبيح الله، وكليم الله، ليس على توهم معنى يزيل معنى الخلقة، ويوجب معنى الربوبية أو النبوة، وذلك على ما قيل: من بيوت الله، وعلى ما قيل لدينه: نور الله، وقيل لفرائضه: حدود الله، لا على معنى يخرج عن جملة خلقه؛ بل على تخصيص لذلك في الفضل على أشكاله، وذلك كما قال لمحمد ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وقال في الجملة: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] لا على ما توهمته النصارى في المسيح^(٢)، فمثله الأول، ولا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾^(٣):

بشارة ببقائه إلى أن يصير كهلاً.

وفيه وجه آخر: وهو أن في ذلك بيان أن كلامه في المهد كلام مختار؛ إذ ذلك وصف كلام الكهل^(٤)؛ ليعلم أن قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] إلى آخره: إنما هو حقيقة الخضوع لله، والإنباء عنه، لا على خلقه؛ كنطق الجوارح في الآخرة، والله أعلم. أو لتكون آية له دائمة؛ إذ لم يكن على ما عليه أمر البشر: من التغيير، على أن آيات الجوهريّة تزول عند الفناء، نحو العصا فيما تعود إلى حالها، واليد، ونحو ذلك؛ ليخص هو بنوع من الآيات الحسية بالدوام، ولا قوة إلا بالله.

(١) في ب: ذلك.

(٢) سيأتى الكلام على مذاهب النصارى في طبيعة المسيح بأوسع من هذا في سورة المائدة، عند قول الله - تعالى -: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ [المائدة: ٧٢].

(٣) لا أدري ما المناسبة في ذكره هذه الآية هنا، والكلام ما زال متصلاً عن يحيى وزكريا - عليهما السلام - وهذه الآية عن عيسى بن مريم؟! وسيذكر المصنف هذه الآية في موضعها، وإن كان كلامه هناك أخصر مما هنا.

(٤) الكهل: الرجل إذا وخطه الشيب، ومن الرجال: الذي جاوز الثلاثين وخطه الشيب. ينظر: اللسان (٣٩٤٧/٥) (كهل).

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ الآية.

يحتمل هذا الكلام وجوها:

أحدها: على الإنكار، أي: لا يكون، لكن ههنا لا يحتمل؛ لأنه كان أعلم بالله وقدرته أن ينطق به، أو يخطر بباله.

والثاني: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي: كيف وجهه وسببه، وكذلك قوله: ﴿أَنَّى لَكَ هَذَا﴾، وقوله: ﴿أَنَّى يُعْطَى هَذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٢٤٧] أي: كيف وجهه وما سببه.

والثالث: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ في الحال التي أنا عليها، أو أرد إلى الشباب؛ فيكون لي الولد^(١).

هذان الوجهان احتملان، وأما الأول: فإنه لا يحتمل.

وقوله: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ﴾

وذكر في سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ آمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]: ذكر على التقديم والتأخير.

[وكذلك قوله: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَمْزَرًا﴾ أو ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ [مريم: ١٠] والقصة واحدة؛

ذكر على التقديم والتأخير^(٢)، وعلى اختلاف الألفاظ واللسان؛ دل أنه ليس على الخلق

حفظ اللفظ واللسان^(٣)؛ وإنما عليهم حفظ المعاني المدرجة المودعة فيها، وبالله

التوفيق، ويعلم أنه لم يكن على كلا القولين، ولم يكن بهذا اللسان.

وقوله: ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى

هَيْنٍ﴾ [مريم: ٩] وإن اختلف في اللسان.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾:

طلب من ربه آية؛ لما لعله لم يعرف أن تلك البشارة بشارة الملائكة، أو وساوس؛

فطلب آية ليعرف أن تلك البشارة بشارة الملائكة من الله - عز وجل - لا بشارة إبليس؛

لأنه لا يقدر أن يفتعل في الآية؛ لأن فيها تغير الخلقة والجوهر، وهم لا يقدر^(٤)ون [على]

(١) وقيل: إنه سأل هل يكون له الولد من امرأته العاقر أو من غيرها؟

وقيل: المعنى: بأي منزلة استوجب هذا وأنا وامراتي على هذه الحال؟ على وجه التواضع.

ينظر: تفسير القرطبي (٥١/٤).

(٢) مابين المعقوفين سقط من ب.

(٣) في ب: اللسان.

(٤) سقط من ب.

ذلك، ولعلمهم يقدررون على الافتعال في البشارة؛ ألا ترى أن إبراهيم - صلوات الله على نبيتنا وعليه - لما نزل به الملائكة لم يعرفهم بالكلام وهابوه، حتى قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٢]، حتى قالوا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، فذهب ذلك الروح منه بعد ما أخبروه أنهم ملائكة، رسل الله، أرسلهم إليه.

وقوله: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾

قال بعض أهل التفسير^(١): حبس لسانه عقوبة له بقوله: ﴿أَنْ يَكُونَ لِي عُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾؛ لكن ذلك خطأ، والوجه فيه: منعه من تكليم الناس، ولم يمنعه عن الكلام في نفسه؛ ألا ترى أنه أمره أن يذكر ربه، ويسبح بالعشى والإبكار؛ كقوله: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾!؟

ويحتمل أن يكون أراه آية في نفسه من نوع ما كان سؤاله؛ إذ كان عن العلم بالولد في غير حينه، فأراه بمنع اللسان عن النطق، وأعلى أحوال الاحتمال؛ ليكون آية للأول. وقيل في قوله: ﴿أَجْعَلْ لِّي ءَايَةً﴾: أنه طلب آية؛ لجهله بعلوق الولد، وجعلها ليعرف متى يأتيها؟^(٢).

وقوله: ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾: قيل: الرمز: هو تحريك الشفتين^(٣).

وقيل: هو الإيماء بشفتيه^(٤).

وقيل: هو الإشارة بالرأس^(٥).

وقيل: هو الإشارة باليد^(٦)، والله أعلم بذلك^(٧).

(١) ورد عن قتادة: أنه عوقب بذلك لأنه سأل الآية بعدما شافهته الملائكة فبشرته بيبحى، أخرجه الطبري (٣٨٦/٦) (٧٠٠٥، ٧٠٠٦) وابن أبي حاتم (٢٥٢/٢) (٥٠٦)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٠/٢) وزاد نسبه إلى ابن المنذر وعبد بن حميد، وهذا القول قاله أكثر المفسرين كما في تفسير القرطبي (٥٢/٤).

(٢) قاله أبو مسلم، وينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (٢٠٩/٥).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٥٣/٢) (٥٠٧) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤١/٢) وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٣٨٩/٦) (٧٠١١، ٧٠١٢) عن مجاهد، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٢) (٤١) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد.

(٥) أخرجه الطبري (٣٨٩/٦) (٧٠١٤) عن الضحاك، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤١/٢) وعزاه للطبري.

(٦) أخرجه الطبري (٣٨٩/٦) (٧٠١٥) عن ابن عباس.

(٧) قال السيوطي في «الإكليل»: في الآية الحث على ذكر الله - تعالى - وهو من شعب الإيمان. قال محمد بن كعب: لو رخص الله لأحد في ترك الذكر لرخص - زكريا؛ لأنه منعه من الكلام وأمره

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَمْرَيْمُ اقْنِصِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَنْهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشِيرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧)﴾

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ﴾:

قال أهل التفسير^(١): هو جبريل - عليه السلام - لكن ذلك لا يعلم إلا بالخبر، فإن صح الخبر - فهو كذلك، وإلا لم يقل^(٢) من كان من الملائكة قال ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾: أن صفاها لعبادة نفسه، وخصها له، ما لم يكن ذلك لأحد من النساء؛ فيكون ذاك صفوتها^(٣).

وقيل: اصطفاها بولادة عيسى - عليه السلام - إذ أخرج منها نبيا مباركا تقيا، على خلاف ولادة البشر^(٤).

وقوله: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾:

قيل: من الآثام والفواحش^(٥).

وقيل: وطهرت من مس الذكور، وما قذفت به^(٦).

= بالذكر. أخرجه ابن أبي حاتم.

ينظر: محاسن التأويل (٩٦/٤).

(١) ينظر: الباب لابن عادل (٢١٤/٥).

(٢) في ب: نقل.

(٣) قيل: المراد بالاصطفاء الأول أمور:

أحدها: أنه - تعالى - قبل تحريرها - مع كونها أنثى - ولم يحصل هذا لغيرها.

وثانيها: قال الحسن: إن أمها لما وضعتها ما غذتها طرفة عين، بل ألقته إلى زكريا، فكان رزقها يأتيها من الجنة.

وثالثها: أنه - تعالى - فرغها لعبادته، وكفاها أمر رزقها.

ورابعها: أنه - تعالى - أسمعها كلام الملائكة شفاها، ولم يتفق ذلك لأنثى غيرها. ينظر:

«اللباب في علوم الكتاب» (٢١٥/٥).

(٤) ينظر: «اللباب» (٢١٥/٥)، وقال السيوطي في «الإكليل»: استدل بهذه الآية من قال بنو مريم.

ينظر: محاسن التأويل للقسامي (٩٧/٤).

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٣/٢) عن ابن عباس وعزاه إلى إسحاق بن بشر وابن عساكر.

(٦) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (٢١٥/٥)، وقيل: من الكفر، قاله مجاهد والحسن كما في تفسير القرطبي (٥٣/٤).

﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾:

هو ما ذكرنا من صفوتها؛ إذ جعلها لعبادة نفسه خالصاً، أو ما قد ولدت من ولد من غير أب، على خلاف سائر البشر.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «حَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَةَ خُطُوطٍ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَذَرُونَ مَا هَذِهِ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: خَدِيجَةُ، وَفَاطِمَةُ، وَمَرْيَمُ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ»^(١). وكذلك روى أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَعٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاجِمٍ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ﷺ»^(٢).

وقوله: ﴿يَمْرُؤٌ أَفْتَنِي لِرَبِّكَ﴾:

يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

الأمر بالقنوت: القيام، ثم الأمر بالسجود، أي: الصلاة، ثم الأمر بالركوع مع الراكعين؛ وهو الصلاة بجماعة؛ ففيه الأمر بالصلاة بالجماعة، على ما هو علينا؛ لأنه قال: ﴿وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾؛ وعلى ذلك روي في الخبر: أنه سئل عن أفضل الصلاة؟ فقال: «طُولُ الْقُنُوتِ»^(٣).

ويحتمل أنه الأمر بالركوع، ثم بالسجود؛ فيدل أن السجود - وإن كان مقدماً ذكره على الركوع - فإنه ليس في تقديم ذكر شيء على شيء، ولا تأخير شيء عن شيء في الذكر دلالة وجوب الحكم كذلك.

وقيل: القنوت: هو الخضوع والطاعة^(٤)؛ كقوله: ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَلْبَيْنَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٨]

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (١٦٠/٣) من حديث ابن عباس وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد (١٣٥/٣)، والترمذي (٣٨٧٨)، وعبد الرزاق (٢٠٩١٩)، وأبو يعلى (٣٠٣٩)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٥٠/١)، وابن حبان (٦٩٥١، ٧٠٠٣)، والحاكم (١٥٧/٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣٤٤/٢)، والبغوي في شرح السنة (٢٣٠/٧) من حديث أنس. وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

(٣) أخرجه مسلم (٥٢٠/١) كتاب صلاة المسافرين: باب أفضل الصلاة طول القنوت حديث (١٦٤)، ١٦٥ - ٧٥٦ والترمذي (٣٨٧)، وابن ماجه (١٤٢١)، وأحمد (٣٩١/٣)، والحميدي (١٢٧٦)، والبيهقي (٨/٣) من حديث جابر. وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٤) ورد هذا مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة». أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٦١/٢) (٥٣١) من طريق دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري به. وإسناده ضعيف؛ لضعف هذه الرواية. وقال ابن كثير (١٦١/١) ورفع هذا الحديث منكر وقد يكون من كلام الصحابي أو من دونه.

أي: خاضعين مطيعين^(١).

فإن قيل: كيف أُمِرَتْ بالركوع مع الراكعين؟! قيل: كانوا - والله أعلم - ذوى قرابة منها ورحم؛ ألا ترى أنهم كيف اختصموا في ضمتها وإمساكها، حتى أراد كل واحد منهم ضمها إلى نفسه، وأنه الأحق بذلك؟! دلٌّ أن بينهم وبينها رحمًا وقرابة. وقيل في قوله: ﴿أَفَتُنِيَ﴾: أي: أطيلي الركوع في الصلاة^(٢) والله أعلم. قال الشيخ - رحمه الله -: يحتمل ﴿مَعَ الرَّكْعَيْنِ﴾: أي: ممن يركع ويخضع له بالعبادة، لا على الاجتماع - والله أعلم - كيف كان الأمر في ذلك؟. وقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾: أي: من أخبار الغيب لم تشهده أنت يا محمد ولم تحضر، بل نحن أخبرناك وذكرناك عن ذلك. ثم في ذلك وجوه الدلالة:

أحدها: أراد أن يخبره عن صفوة هؤلاء وصنيعهم؛ ليكون على علم من ذلك. والثاني: دلالة إثبات رسالته؛ لأنه أخبر على ما كان من غير أن اختلف إلى أحد، أو أعلمه أحد من البشر على علم منهم ذلك؛ دل أنه إنما علم ذلك بالله عز وجل. والثالث: أن يتأمل وجه الصفوة لهم؛ أنهم بما نالوه؛ فيجتهدوا في ذلك، والله أعلم. وفي ذلك تأخير البيان عن وقت الحاجة إلى أن ظهر ذلك بإلقاء الأقلام. وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ الآية. قيل: إنهم ألقوا أقلامهم على جرية الماء، فذهبت الأقلام كلها مع الجرية؛ إلا قلم زكريا؛ فإنه وقف على وجه الماء^(٣).

وقيل: طرحوا أقلامهم في الماء، وكان من شرطهم أن من صعد قلمه عاليًا^(٤) مع الجرية، فهو أحق بها، ومن سفل قلمه مع الجرية فهو المقروء، فصعد قلم زكريا، وتسفلت أقلامهم؛ فعند ذلك ضمها زكريا إلى نفسه^(٥).

(١) تقدم في سورة البقرة الآية (٢٣٨).

(٢) أخرجه الطبري (٤٠٢/٦) (٧٠٣٩، ٧٠٤٠) عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٣/٢) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٦٦/٢) (٥٤٤) عن عكرمة، وبرقم (٥٤٨). وينظر: «الدر المنثور» (٤٣/٢)، وأخرجه أيضًا الطبري (٦٩٠٢، ٦٩٠٣) عنهما، وينظر: الوسيط للواحد (٤٣٦/١ - ٤٣٧).

(٤) في ب: مغالبا به.

(٥) ينظر: المصادر السابق ذكرها.

ثم من الناس من احتج بجواز القرعة^(١) والعمل بها - بهذه الآية^(٢)؛ حيث ضمها زكريا - مريم - إلى نفسه، لما خرجت القرعة له؛ لكن القرعة في الأنبياء لتبيين الأحق من غيره؛ لوجهين:

لحق الوحي.

والثاني: لظهور إعلام في نفس القرعة؛ ما يعلم أنه كان بالله ذلك لا بنفسه؛ كارتفاع القلم على الماء، ومثل ذلك لا يكون للقلم، والمحق من المبطل، وفيما بين سائر الخلق؛ لدفعهم التهم؛ فهي لا تدفع أبدًا.

ويحتمل استعمال القرعة فيها لتطيب الأنفس بذلك، أو علموا ذلك بالوحي، فليس اليوم وحي؛ لذلك بطل الاستدلال لجواز العمل بالقرعة اليوم، والله أعلم.

أو كان ذلك آية، والآية لا يقاس^(٣) عليها غيرها؛ نحو: قبول قول قتيل بني إسرائيل -

(١) قرع يقرع: من باب قطع يقطع، وجمع يجمع، ومعناه: الطرق والضرب؛ وذلك لأن إجراء القرعة كان في المعتاد يجرى بطرق السهام أو ما يشبهها وضربها ليخرج السهم الفائز منها بالقرعة، وقد تسمى بالسهمعة عند بعض الفقهاء مثل ابن رشد.

ينظر: القاموس المحيط (ص: ٦٧٤، ٦٧٥) (قرع)، أساس البلاغة للزمخشري (٢/٢٤٥) (قرع)، بداية المجتهد لابن رشد (٢/٢٦٧).

أما القرعة كدليل إثبات فقد نفاها أبو حنيفة ومالك وأخذ بها الإمام الشافعي وأحمد وابن حزم. ينظر: فتح القدير لابن الهمام (٢/٥١٩)، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (٢/٣٤٣)، الأم للشافعي (٥/٩٩)، المذهب للشيرازي (٢/٣٠٨)، كشاف القناع عن متن الإقناع للبهوتي (٤/٢٢٩)، والمحلى لابن حزم الظاهري (٥/٤٣٦ - ٤٣٧).

(٢) وواضح أن هذا الاستدلال بهذه الآية المباركة قائم على مبدأ أصولي مهم، وهو: أن شريعة من قبلنا تعتبر شريعة لنا ما لم يرد في شريعتنا ما ينسخها، ولم يرد عندنا في الإسلام نهي صريح صحيح عن القرعة فتبقى مشروعيتها في الشرائع السابقة قائمة لدينا. وقد أشار الله عز وجل - إلى هؤلاء الرسل السابقين، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَوْهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ولكن هذا المبدأ الأصولي لم يسلم من مخالفة بعض العلماء له وجدالهم فيه، لكننا نجد الدليل بل الأدلة الواضحة القوية على مشروعية الاقتراع والقرعة في صحيح السنة النبوية، بل إن الإمام البخاري قد عقد بابًا خاصًا، بعنوان: باب القرعة في المشكلات. راجع: البخاري (٥/٦٢٩ - مع فتح الباري).

(٣) القياس لغة: هو التقدير والمساواة.

واصطلاحًا: إثبات مثل حكم معلوم في معلوم آخر لاشتراكهما في علة الحكم عند المثبت. واتفق العلماء على أن القياس حجة في الأمور الدنيوية، واختلفوا في الشرعية، فذهب الجمهور إلى وجوب العمل بالقياس شرعًا، وذهب الشاشي من الشافعية وأبو الحسين البصري من المعتزلة إلى أن العقل قد دل على ذلك. وقال القاشاني والنهراواني: يجب العمل به في صورتين: إحداهما: أن تكون علة الأصل منصوصة إما بصريح اللفظ أو بالإيحاء إليها. والثانية: أن يكون الفرع بالحكم أولى من الأصل كقياس الضرب على التأفف.

وأنكر داود الظاهري التعبد به شرعًا، وإن كان جائزًا عقلاً، وذهب إلى أنه يستحيل التعبد =

آية، ليس به معتبر في جواز قول قتيل آخر قبل الموت.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾:

يحتمل: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾: أن قال: «كن» - فكان من غير أب ولا سبب، وسائر البشر لم يكونوا إلا بالآباء والأسباب: من النطفة، ثم من العلقة، ثم من مضغة مخلقة على ما وصف - عز وجل - في كتابه^(١)، وكان أمر عيسى - عليه السلام - على خلاف ذلك. ويحتمل ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾: ما ذكر أنه كلم الناس في المهد: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ الآية [مريم: ٣٠]. وذلك مما خص به عيسى، وهو بكلمة من الله قال ذلك.

فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾؛ والكهل: مما يكلم الناس؟ قيل: لأن كلامه في المهد آية، والآية لا تدوم؛ كقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ﴾ الآية [النور: ٢٤]، وإنما يكون ذلك مرة لا أنها تشهد وتطق أبداً، فأخبر أن تكليمه الناس في المهد - وإن كانت آية - فإنه ليس بالذي لا يدوم، ولا يكون إلا مرة^(٢).

والثاني: أمن من الله لمريم، وبشارة لها عن وفاته إلى وقت كهولته، والله أعلم. وقوله: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾.

قال ابن عباس - رضي الله عنه -: «المسيح: المبارك»، أي: مسح بالبركة^(٣). وقيل: سمى مسيحاً؛ لأنه كان يمسح عين الأعمى والأعور فيبصر^(٤).

وقيل: المسيح: العظيم؛ لكته - والله أعلم - بلسانهم؛ فيسأل: ما المسيح بلسانهم. وقوله: ﴿وَجِئَهَا فِي الدُّنْيَا﴾: بالمنزلة، ومكيناً في الآخرة، ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ في الدرجة

= بالقياس عقلاً، وهو رأي النظم والشيعية.

ينظر: لسان العرب (٣٧٩٣/٥) (قيس)، نهاية السؤل للإسنوي (٢/٤)، البحر المحيط للزركشي (٥/٥)، الإبهاج لابن السبكي (٣/٣)، الآيات البينات لابن قاسم العبادي (٢/٤).
(١) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي فَراشٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْطَةَ عَلاَةً فَخَلَقْنَا الْعَلاَةَ مَضْجَعَةً فَخَلَقْنَا الْفَضْغَةَ عَظْمًا فَكَسَوْنَا الْعَظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

(٢) إذا كانت العادة أن من تكلم في المهد لم يعش.

ينظر: القرطبي (٥٨/٤). وقد نقل القرطبي قول أبي العباس: كلّمهم في المهد حين برأ أمّه فقال: إني عبد الله الآية [مريم: ٣٠] الآية وأما كلامه وهو كهل فإذا أنزله الله تعالى من السماء أنزله على صورة ابن ثلاثين سنة - وهو الكهل - فيقول لهم: ﴿إني عبد الله﴾ كما قال في المهد.
(٣) أخرجه الطبري (٤١٤/٦) (٧٠٦٦) عن سعيد بن جبّير، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٥/٢) وعزاه للطبري.

وينظر: تفسير البغوي (٣٠١/١)، وتفسير الرازي (٤٤/٨).

(٤) ينظر: الوسيط (٤٣٧/١)، وتفسير الرازي (٤٩/٨)، والبحر المحيط (٤٦٠/٢)، وغرائب النيسابوري (١٩٨/٣).

والرفعة، ومن كان وجيهاً في الدنيا والآخرة فهو مقرب فيهما.

وقوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾:

عرفت مريم أن الولد يكون بمسّ البشر، وعلمت - أيضاً - أنها لا تتزوج، ولا يمسهما بشر أبداً؛ لأنها قالت: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ فإن لم يكن مسها أحد قبل ذلك، فلعلة يمسهما في حادث الوقت؛ فيكون لها منه الولد، فلما لم يقل لها يمسسك؛ ولكن قال: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ دل ذلك أنها علمت أنها لا تتزوج أبداً؛ لأنها كانت محررة لله، مخلصة له في العبادة، والله أعلم.

ويحتمل قوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾

أي: من أي وجه يكون لي ولد بالهبة؛ لأنها بشرت أن يهب لها ولداً، فقالت: من أي وجه يكون لي ولد بالهبة، ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾؟

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ تأويله: ما ذكر في سورة مريم حيث قالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ الآية [مريم: ٢٠] الآية، ثم قال: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ [مريم: ٢١] أي: خلق الخلق على هين: بأب، وبغير أب، وبمسّ بشر، وبغير مسّ^(١)، [وبسبب، وبغير سبب؛ على ما خلق آدم بغير أب ولا أم؛ فعلى ذلك يخلق بتوالد بعض من بعض، وبغير توالد بعض من بعض]^(٢)؛ كخلق الليل والنهار، يخلق بلا توالد أحدهما من الآخر؛ فكذلك يخلق لك ولداً من غير أب ولا مسّ بشر، وبالله الحول والقوة.

وقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾:

أي: إذا قضى أمراً بتكوين أحد، أو بتكوين - فإنما يقول له: كن، لا يثقل عليه، ولا يصعب خلق الخلق وتكوينهم؛ كقوله: ﴿مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨] أي: خلق الخلق كلهم ابتداء، وبعثهم بعد الموت - كخلق نفس واحدة؛ أن يقول: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾؛ وإنما يثقل ذلك على الخلق ويصعب؛ لموانع تمنعهم وأشغال تشغلهم، فأما الله - سبحانه وتعالى - عن أن يشغله شغل، أو يمنعه مانع، أو يحجب عليه حجاب.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾:

ذكر - والله أعلم - هذا الحرف؛ لأنه ليس في كلام العرب حرف أو جزء منه يعبر فيفهم معناه، لا أن كان منه - عز وجل - كاف أو نون، أو حرف، أو هجاء، أو صفة

(١) في ب: مس بشر.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من ب.

يفهم ويعرف حقيقته، أو يوصف هو بمعنى من معاني [كلام]^(١) الخلق أو صفاتهم، أو يكون لتكوينه وقت أو مدة أو حال، أو يكون تكوين بعد تكوين، على ما يكون من الخلق، إنما هو أوجز حرف يفهم معناه، بالعبارة إخبار منه - عز وجل - الخلق عن سرعة نفاذ أمره ومشيتته.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٤٨) ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُم مِّنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُنْزِلُ الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَكُونُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٤٩) ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (٥٠) ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبُّ رَبُّكُمْ فَاَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (٥١)

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ﴾ : بشارة منه لها - أيضًا - : أنه يعلمه الكتاب، ثم اختلف في ﴿الْكِتَابَ﴾ ؛ قيل: ﴿الْكِتَابَ﴾ : الخط هنا يخط بيده^(٢)، ويحتمل ﴿الْكِتَابَ﴾ : الكتاب نفسه: التوراة والإنجيل^(٣)، ويحتمل ﴿الْكِتَابَ﴾ : كتب النبيين^(٤).
﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ؛ قيل: الحكم بين الخلق، وقيل: الفقه، وقيل: الحلال والحرام^(٥)، وقيل: السنة^(٦).

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ : هي الإصابة، وقد ذكرناه فيما تقدم^(٧).

وقوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ : أي: [جعله رسولاً إلى بني إسرائيل]^(٨)، وهذا - أيضًا - بشارة لها منه، وكان عيسى عليه السلام من أوّل أمره إلى آخره آية ؛ لأنه ولد من غير أب،

- (١) سقط من ب .
- (٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٧٦/٢) (٥٧٥) عن ابن عباس، وينظر: تفسير اللباب (٢٣٦/٥)، والوسيط (٤٣٨/١)، والدر المنثور (٤٦/٢).
- (٣) وقيل: هو كتاب غير التوراة والإنجيل علمه الله - عز وجل - عيسى، عليه السلام. ينظر: تفسير القرطبي (٦٠٠/٤).
- (٤) ينظر: المصادر السابقة.
- (٥) ينظر: البحر المحيط (٤٨٤/٢).
- (٦) أخرجه الطبري (٤٢٣/٦) (٧٠٨٢، ٧٠٨١) عن قتادة، وينظر تفسير ابن أبي حاتم (٢٧٨/٢) (٥٨٣). وأخرجه الطبري (٧٠٨٣)، عن ابن جريج، وأخرجه ابن أبي حاتم (٥٨٠) عن الحسن وهو قول أبي مالك ومقاتل بن حيان وغيرهما وينظر تفسير ابن كثير (١٨٤/١)، وقيل: تهذيب الأخلاق. ينظر: محاسن التأويل للقاظمي (١٠٢/٤).
- (٧) تقدم في سورة البقرة، الآية (١٢٩).
- (٨) سقط من ب .

المسمومة^(١)، وقطع مسيرة شهر في ليلة^(٢)، وغير ذلك من الآيات مما يكثر عددها؛ هذه كلها كانت حسيّة^(٣).

وَأَمَّا العقلية: فهذا القرآن الذي نزل عليه، وهو بين أظهرهم، وهم^(٤) فصحاء وبلغاء وحكماء، يتلى عليهم: ﴿فَأَنزَلْنَا سُورَةَ مَن مِّثْلِهِ...﴾ الآية [البقرة: ٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

== مشاهد عظيمة، ووردت عنه من طرق كثيرة، يفيد عمومها العلم القطعي، المستفاد من التواتر المعنوي، ولم يسمع بمثل هذه المعجزة العظيمة من غير نبينا ﷺ حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه.

قال قتادة وغيره عن أنس: كان رسول الله ﷺ بالزوراء، وحانت صلاة العصر، والتمس الناس الوضوء، فلم يجدوا ماء، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ يده في فتحة الإناء فحين بسط يده منه، فضم أصابعه، فأمر الناس أن يتوضأوا منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابع النبي ﷺ فتوضأوا من عند آخرهم.

قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: كنا زهاء ثلاثمائة. رواه الشيخان.

وراجع: المواهب اللدنية للقسطلاني (١٥٢/٥)، سبل الهدى والرشاد (١٣/١٠).

(١) وأخرج قصة الشاة المسمومة البخاري «عن أبي هريرة قال: لما فتحت خيبراً أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا من كان ههنا من اليهود، فجمعوا له، فقال لهم: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادق؟ قالوا: نعم، قال: من أبوكم؟ قالوا: فلان. قال: كذبت، بل أبوكم فلان. قالوا: صدقت وبررت، قال: أجعلتم في هذه الشاة سمّاً؟ قالوا: نعم. قال: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذباً استرحنا منك، وإن كنت نبياً لم يضرك»، أما كلام الشاة المسمومة النبي ﷺ فقد أخرجه أبو داود (٤٥١٠)، ومن طريقه البيهقي (٢٦٢/٤) من طريق الزهري عن جابر قال: «إن يهودية سمت شاة مصلية ثم أهدتها للنبي ﷺ، فأخذ النبي ﷺ الذراع فأكل منه وأكل رهط من أصحابه معه، ثم قال لهم النبي ﷺ: «ارفعوا أيديكم». وأرسل النبي ﷺ إلى اليهودية فدعاها. فقال لها: «أسممت الشاة؟» فقالت: نعم، ومن أخبرك؟ فقال النبي ﷺ: أخبرتني هذه في يدي: الذراع، فقالت: نعم... الحديث.

وهذا منقطع؛ لأن الزهري لم يسمع من جابر، قاله الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٨٢/٨).

ينظر: صحيح البخاري (٥٥٠/٥): كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين، رقم (٢٦١٧)، ومسند أحمد (٤٥١/٢)، (٢١٨/٣)، والخصائص الكبرى للسيوطي (٤٢٥/١).

(٢) المراد بذلك معجزة الإسراء من البيت الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالشام. وورد ذلك في صحيح البخاري (٦٠٠/٧ - ٦٠٢): كتاب مناقب الأنصار: باب المعراج، رقم (٣٨٨٧)، ومسلم (١٤٥/١ - ١٤٧): كتاب الإيمان: باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات، وفرض الصلوات، رقم (٢٥٩ - ١٦٢)، من حديث أنس بن مالك مطوّلًا، فأنظره في الصحيحين.

(٣) وقد صنف العلماء كتباً في الخصائص والمعجزات منهم:

الإمام البيهقي والإمام أبو نعيم في دلائل النبوة، وابن طولون في الخصائص، والسيوطي في الخصائص الكبرى، والإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي في سبل الهدى والرشاد في الجزئين التاسع والعاشر.

(٤) في ب: ومنهم.

طَهِيرًا ﴿[الإسراء: ٨٨]، فلو كان بهم طاقة أو قدرة أن يأتوا بمثله، لجهدوا كل جهد، وتكلفوا كل تكلف؛ حتى يطفئوا هذا النور؛ ليتخلصوا عن قتلهم، وسبي ذراريهم، واستحياء نسائهم، فلمَّا لم يفعلوا ذلك - دَلَّ أنه كان آية معجزة، عجزوا جميعًا عن إتيان مثله، فأَيُّ آية تكون أعظم من هذا؟! وبالله المعونة والنجاة.

وقوله: ﴿أَيُّ قَدْ جِئْتَكُمْ بِكَافِرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

أي: بعلامة أني رسول منه إليكم، ثم فسَّر الآية، فقال: ﴿أَيُّ أَمَلُ لَكُمْ مِّنَ الْطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الْطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قوله: ﴿أَيُّ أَمَلُ لَكُمْ﴾

هو على المجاز، لا على التخليق [والتكوين]^(٢)؛ لأن الخلق ليس هو من فعل المخلوق، وإنما هو من فعل الله - عزَّ وجلَّ - لأن التخليق: هو الإخراج من العدم إلى الوجود، وذلك فعل الله - تعالى - لا يقدر المخلوق على ذلك؛ فهو على المجاز؛ ألا ترى أنه قال في آخره: ﴿وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، وليس إلى الخلق تحليل شيء أو تحريره، إنما ذلك إلى الله - عز وجل - فمعناه: أني أظهر لكم حل بعض ما حرم عليكم؛ فعلى ذلك قوله: ﴿أَيُّ أَمَلُ لَكُمْ مِّنَ الْطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الْطَّيْرِ﴾ أي: أظهر لكم بيدي ما خلق الله من الطين طائرًا؛ فيكون آية لرسالتي إليكم؛ وكذلك الآيات ليس مما ينشئ^(٣) الأنبياء، ولكن تظهر على أيديهم.

وإنما لم يجز إضافة التخليق إلى الخلق؛ لما ذكرنا: أنه إخراج الشيء من العدم إلى الوجود، وذلك ليس إلى الخلق.

والثاني: أن التخليق هو إخراج الفعل على التقدير، وفعل العبد إنما يخرج على تقدير الله، لا يخرج على تقديره؛ لذلك لم يجز إضافة ذلك إلى الخلق، إلا على المجاز. والله أعلم.

قال الشيخ - رحمه الله -: الخلق: اسم المجاز والحقيقة، والتخليق: فعل حقيقة خاصَّة، وآيات الأنبياء - عليهم السلام - هي التي تخرج على خلاف الأمر المعتاد فيما بينهم، يجريها الله - سبحانه وتعالى - على أيديهم؛ ليعلموا أن ذلك لم يكن بهم، إنما كان ذلك بالمُرْسِل الذي أرسلهم؛ ليدل على صدقهم، ولا قوة إلا بالله.

(١) في ب: فآية.

(٢) سقط من ب.

(٣) في ب: ينشئها.

«وإبراء الأكمه والأبرص» هو من آيات النبوة؛ لخروجها عن الأمر المعتاد فيما بينهم. فإن قيل: إن إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص من آيات النبوة؛ [لعجزهم عن إتيان مثله، وخروجه عن المعتاد فيما بينهم، ولكن أبناء ما يأكلون وما يدخرون لِم كان من آيات النبوة]^(١)، ويجوز أن يكون ذلك من منجّم^(٢)؟

قيل: له جوابان - إن كان يكون مثل ذلك بالنجوم -:

أحدهما: أنه مضموم إلى الآيات؛ فصار آية بما ضم إليها.

والثاني: أن هذا - وإن كان يعلم بالنجوم - فعيسى - عليه السلام^(٣) - لما علم قومه أنه لم يختلف إلى أحد في تعلم علم النجوم، ثم عرف ذلك وأنبأهم بذلك - دل أنه إنما علم ذلك بالله؛ فكان آية، وبالله التوفيق^(٤).

مع ما كان في قومه أطباء وحكماء وبصراء - لم يدّع أحد شيئاً من هذه الآيات التي جاء بها^(٥) عيسى - عليه السلام - دل ترك اشتغالهم في ذلك على إقرارهم بأنها آية سماوية، لكنهم تعاندوا وكابروا فلم يؤمنوا به.

قال الشيخ - رحمه الله -: الخلق: اسم المجاز والحقيقة، والتخليق: فعل حقيقة خاصّة.

وقوله ﴿يَاذِنِ اللَّهُ﴾.

قيل: بأمر الله.

(١) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٢) النجم: بفتح النون في الأصل: اسم لكل واحد من كواكب السماء، وهو بالثريا أخص، ثم جعلت العرب مطالع منازل القمر ومساقطها، مواقيت لحلول ديونها، ثم غلب حتى صار عبارة عن الوقت. فمعنى منجم: مؤقت.

وجاء في الوسيط: المنجّم: من ينظر في النجوم يحسب مواقيتها وسيرها ويستطلع من ذلك أحوال الكون. ينظر: المطلع على أبواب المقنع (٣١٦/١)، الوسيط (٩٠٥/٢).

(٣) في ب: صلوات الله عليه.

(٤) قال الطبري: قيل: إن المنتجم والمتكهن معلوم منهما عند من يخبرانه بذلك - أنهما ينبئان عن استخراج له ببعض الأسباب المؤدية إلى علمه، ولم يكن ذلك كذلك من عيسى - صلوات الله عليه - ومن سائر أنبياء الله ورسله؛ وإنما كان عيسى يخبر به عن غير استخراج ولا طلب لمعرفة باحتيال، ولكن ابتداء بإعلام الله إياه، من غير أصل تقدم ذلك احتذاه، أو بنى عليه أو فزع إليه كما يفزع المنتجم إلى حسابه والمتكهن إلى رثته، فذلك هو الفصل بين علم الأنبياء بالغيوب وإخبارهم عنها، وبين علم سائر المتكذبة على الله، أو المدعية علم ذلك.

ينظر: جامع البيان (٤٢٩/٦-٤٣٠).

إنما وُحِدَ، وهي آيات؛ لأنها من جنس واحد في الدلالة على رسالته. قاله القرطبي. ينظر:

تفسيره (٦٢/٤).

(٥) في ب: به.

وقيل: بمشيئة الله.

واختلف في «الأكمة»:

عن مجاهد، قال: «الأكمة: الذي يبصر بالنهار، ولا يبصر بالليل»^(١).

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - : «الأكمة: الأعمى الممسوح العين»^(٢)، وقيل: هو الذي ولد من أمّه أعمى^(٣) لا يتكلف أحد [من]^(٤) الأطباء إبراء مثله، ولا اشتغل بدوائه، دل أنه عرف ذلك بالله تعالى، والأطباء يتكلفون في دفع العلل العارضة الحادثة، وأما ما كان خلقه من جبلّة - فلا.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾:

قيل: قال: إن هذا آية لكم؛ إن كنتم صدقتم أنني رسول الله إليكم.

وقيل: قال: إن في ذلك لآية لكم في رسالتي؛ إن كنتم مؤمنين بالمرسل.

ويحتمل ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ أي: بالآيات أنها تُعرّف ما جُعِلَ له، والله أعلم.

وقوله: ﴿جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ الآية: ما ذكر.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾:

يحتمل: فاتقوا الله في تكذبي في الآيات، و ﴿وَاطِيعُونَ﴾ في تصديقي.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾: ظاهر، قد ذكرنا فيما تقدم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَرْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾: قيل: أحس: علم.

(١) أخرجه الطبري (٤٢٨/٦) (٧٠٨٨، ٧٠٨٩)، وابن أبي حاتم (٢٨٢/٢) (٥٩٨) عن مجاهد. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٧/٢) وزاد نسبه إلى أبي عبيد والفرياحي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن الأنباري في الأضداد. وقول مجاهد علقه البخاري (٤٧١/٦) كتاب أحاديث الأنبياء: باب «إذ قالت الملائكة يا مريم...».

(٢) أخرجه الطبري (٤٢٩/٦) (٧٠٩٢)، وابن أبي حاتم (٢٨١/٢) (٥٩٢) من طريق الضحاك عن ابن عباس، وعلقه البخاري (٤٧١/٦) كتاب أحاديث الأنبياء، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٥٧) وزاد نسبه إلى ابن المنذر.

وأخرجه ابن أبي حاتم (٢٨٢/٢) (٥٩٧) من طريق عطاء عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٧/٢) وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: الأثر السابق. وينظر: أيضاً الزاهر للأنباري (٣٨٠/١)، مجاز القرآن لأبي عبيدة (٩٣/١) وفتح القدير للشوكاني (٣٤٣/١)، والدر المنثور (٥٧/٢) والوسيط للواحدي (٤٣٩/١).

(٤) سقط من ب.

وقيل: أحسن: رأي؛ وهو كقوله: ﴿هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ [مريم: ٩٨].

وقيل: أحسن، أي: وجد، وهو قول الكيساني، وقيل: عرف؛ وهو كله واحد^(١).

ثم قوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾:

يحتمل - والله أعلم - أن قومه لما سألوه أن يسأل ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء؛ تكون لهم آية لرسالته وصدقه؛ ففعل الله - عز وجل - ذلك، وأنزل عليهم المائدة، ثم أخبر أن من كفر منهم بعد إنزال المائدة يعذبه عذاباً لا يعذبه أحدًا، فكفروا به؛ فعلم أن العذاب ينزل عليهم؛ فأحب أن يخرج بمن آمن به؛ لئلا يأخذهم العذاب، فقال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ يؤيد ذلك قوله: ﴿فَأَمَمْتُ طَائِفَةً مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ...﴾ الآية [الصف: ١٤].

ويحتمل أن يكونوا أظهروا الإسلام له^(٢)، وكانوا في الحقيقة على خلاف ذلك، فلما علم ذلك منهم، وقد همُّوا على قتله، قال عند ذلك: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ أحب أن يكون معه أنصار مع الله ينصرونه؛ فيظهر المؤمنون من غيرهم، فنصرهم الله على أعدائهم؛ ليظهر المؤمنون من غيرهم، وهو قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

ومن الناس من يقول: إنه لم يكن في سُنَّةِ عيسى - عليه السلام - الأمر بالقتال، وفي الآية إشارة إلى ذلك بقوله: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] أخبر أنهم أصبحوا ظاهرين على عدوهم؛ فلا يخلو إمَّا أن يكون قتالًا أو غلبة بحجة أو شيء ما^(٣) يقهرهم، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَالَ الْخَوَارِئُوتُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾:

اختلف في الخواريين:

قال بعضهم: هم القصارون الغشالون للثياب^(٤)، ومبيضوها^(٥).

(١) تنظر هذه الأقوال في: معاني القرآن للزجاج (١/٤٢١)، وللغراء (١/٢١٦)، الوسيط (١/٤٤٠)،

وفتح القدير (١/٣٤٤)، وتفسير الرازي (٨/٥٤)، وتفسير القرطبي (٤/٦٢).

(٢) في ب: له كقوله.

(٣) في ب: مما.

(٤) ينظر: العين للخليل (٥/٥٩)، والمحكم لابن سيده (٦/٢٣)، ولسان العرب لابن منظور (٢/حور).

(٥) أخرجه الطبري (٦/٤٥٠) (٧١٢٥) عن أبي أرطاة، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٦٢) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد. وأخرجه ابن أبي حاتم (٢/٢٩١) (٦٢٦) عن الضحاك، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٦٣) وعزاه إلى عبد بن حميد.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «إِنَّمَا سُمُّوا الْحَوَارِيِّينَ؛ لِبَيَاضِ ثِيَابِهِمْ»، وكانوا يصيدون السَّمَكَ^(١).

وقيل: الحواري: الوزير^(٢)، والناصر^(٣)، والخاص^(٤)؛ على ما جاء عن رسول الله ﷺ: «إِنْ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٍّ، وَحَوَارِيٌّ فَلَانٌ وَفُلَانٌ»^(٥)، ذكر نفرًا من الصحابة - [رضوان الله عليهم أجمعين]^(٦) - وإنما أراد - والله أعلم - الناصر والوزير^(٧).

ويحتمل أن يكونوا سُمُّوا بذلك؛ لصفاء قلوبهم، وهم أصفياء عيسى، [عليه السلام]^(٨). كذلك روي عن ابن عباس^(٩) - رضي الله عنه - والله أعلم بهم. وقوله: ﴿تَحَنُّنٌ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾

إن الله يتعالى عن أن يُنَصَّرَ، ولكن يحتمل ﴿تَحَنُّنٌ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾، أي: أنصار دين الله، أو أنصار نبيه، أو أنصار أوليائه؛ تعظيمًا^(١٠).

وكذلك قوله: ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]: إن الله لا يُنَصَّرُ؛ ولكن يُنَصَّرُ دينه أو رسله أو أوليائه؛ وهو كقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٩]: إن الله لا يُخَادَعُ، ولا يمكن، ولكن لما خادعوا أوليائه أو دينه، أضاف ذلك إلى نفسه؛ فعلى ذلك لما نصروا دين الله ونيته ووليته، أضاف [ذلك] إلى نفسه.

(١) أخرجه الطبري (٤٤٩/٦) (٧١٢٤)، وابن أبي حاتم (٢٩٠/٢) (٦٢٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٢/٢) وزاد نسبه إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٩٣/٢) (٦٣٠) وعبد الرزاق كما في «الدر المنثور» (٦٣/٢) عن قتادة.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٩٢/٢) (٦٢٨) عن سفيان بن عيينة وقد رجح هذا الوجه الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣٦٥/١).

(٤) ينظر: الباب في علوم الكتاب (٢٦٠/٥)، وسموا بذلك؛ لأنهم كانوا خاصة الأنبياء؛ لقاء قلوبهم، قاله قتادة والضحاك.

ينظر: تفسير القرطبي (٦٣/٤) ..

(٥) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير: باب فضل الطليعة حديث (٢٨٤٦)، وباب سير الرجل وحده بالليل حديث (٢٩٩٧)، وكتاب المناقب: باب مناقب الزبير حديث (٣٧١٩)، وكتاب المغازي:

باب غزوة الخندق حديث (٤١١٣)، وأحمد (٣/٣١٤)، والترمذي (٣٧٤٤)، والبيهقي في «الدلائل» (٤٣١/٣) من حديث جابر. مرفوعًا «إِنْ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيٍّ الزَّيْبِر».

(٦) سقط من ب.

(٧) وقيل: الحواري: هو الذي يصلح للخلافة، وقيل: الخالص، وقيل: الخليل.

ينظر: فتح الباري (٤٤٥/٨).

(٨) سقط من ب.

(٩) أخرجه الطبري (٤٥٠/٦) (٧١٢٧)، وابن أبي حاتم (٢٩٣/٢) (٦٢٩) عن الضحاك. وهو أيضًا

قول أبي البقاء، وينظر: الباب في علوم الكتاب (٢٦١/٥).

(١٠) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (٢٦٣/٥)، وتفسير الرازي (٥٧/٨).

وقوله: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ الآية:

ينقضى قول^(١) من يجعل الإيمان غير الإسلام؛ لأنهم أخبروا أنهم آمنوا، وأنهم مسلمون، لم يفرقوا بينهما، وكذلك قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦]: لم يفصل بينهما، وجعلهما واحداً، وكذلك قول موسى لقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُذِّبْتُ مَأْمَنُكُمْ بِاللَّهِ فَقُلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] لم يجعل بين الإيمان والإسلام فرقاً، وهو قولنا: إن العمل فيهما واحد؛ لأن الإيمان: بأن تصدق بأنك عبد الله، والإسلام: أن تجعل نفسك لله سالماً. وقيل: الإيمان: اسم ما بطن، والإسلام: اسم ما ظهر؛ ألا ترى أنه جاز في الإسلام الشهادة، وفي الإيمان التصديق؟!.

وقوله: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ﴾

يعنى - والله أعلم - : بما أنزلت من الكتب السماوية التي أنزلها على الرسل جميعاً، فإن أرادوا بما أنزلت على عيسى - عليه السلام - فالإيمان بواحد من الكتب أو بواحد من الرسل: إيمان بالكتب كلها وبالرسل جميعاً، وقد ذكرنا هذا فيما تقدم^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَى وَمُطَهَّرِكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) وقوله: ﴿وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ﴾.

مكروا بنبي الله عيسى - عليه السلام - حيث كذبوه وهموا بقتله، ﴿وَمَكْرَ اللَّهِ﴾، أي: يجزيهم جزاء مكرهم؛ وإلا حرف المكر مذموم عند الخلق؛ فلا يجوز أن يسمي الله به إلا في موضع الجزاء؛ على ما ذكره - عز وجل - في موضع الجزاء؛ كقوله: ﴿فَمَن أَعْدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاَعْدُوا عَلَيْهِ...﴾ [البقرة: ١٩٤] والاعتداء منهى [عنه] غير جائز؛ كقوله: ﴿وَلَا تَعْسَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْسِدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]؛ فكان قوله:

(١) في ب: على.

(٢) انظر قوله - تعالى - : ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَعْرِضُ بَيْنَكَ أَحَدٌ مِنْ رُسُلِهِ وَكَأَلُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ...﴾ هو جزاء الاعتداء؛ فيجوز؛ فعلى ذلك المكر والخداع والاستهزاء: لا يجوز أن يسمّى به، فيقال: يا مكر، يا خادع، ويا مستهزئ؛ لأنها حروف مذمومة عند الناس؛ فيشتم بعضهم بعضاً بذلك؛ لذلك لا يجوز أن يسمّى الله - تعالى - به إلا في موضع الجزاء^(١). وبالله العصمة. وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكِرِينَ﴾:

أي: خير الجازين أهل الجور بالعدل، وأهل الخير بالفضل. وقيل: ﴿وَمَكُرُوا﴾؛ حيث كذبوه وهمّوا بقتله^(٢)، ﴿وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾؛ حيث رفع الله عيسى - عليه السلام - وألقى شبهه على رجل منهم حتى قتلوه؛ فذلك خير لعيسى - عليه السلام - من مكرهم^(٣). وقيل: ﴿وَمَكُرُوا﴾، أي: قالوا، ﴿وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾: قال الله. وقولهم الشرك، وقال لهم: قولوا التوحيد.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكِرِينَ﴾، أي: خير الفائلين. قال الشيخ - رحمه الله - : ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكِرِينَ﴾؛ بما بالحق يمكر، ويأخذ من استحق الأخذ، وهم لا، والله أعلم. والمكر: هو الأخذ بالغفلة، والله يأخذهم بالحق من حيث لا يعلمون؛ فسمي مكرًا لذلك؛ كما يقال: امتحنه الله وهو الاستظهار، ولكن لا يراد به هذا في [حق] الله. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾:

اختلف فيه: قيل: هو على التقديم والتأخير: ورافعك إلّٰي، ثم متوفيك بعد نزولك^(٤) من السماء^(٥)، ولكن هو التقديم والتأخير، ولم يكن في الذكر فهو

(١) ينظر: تفسير الرازي (٥٩/٨).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٥٨/٨ - ٥٩) واللباب (٥/٢٦٤ - ٢٦٥).

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) وهو قول قتادة، أخرجه ابن أبي حاتم (٢/٢٩٦) (٦٤٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٦٤) وعزاه إليه، وهو أيضًا قول أبي البقاء، وينظر: اللباب في علوم الكتاب (٥/٢٦٥).

(٥) ومسألة نزول المسيح - عليه السلام - آخر الزمان وردت بها الأحاديث النبوية الصحيحة المتواترة، ومنها:

ما رواه الإمام أحمد ومسلم عن عبد الله بن عمرو - رضي الله تعالى عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين يومًا، فيبعث الله - تعالى - عيسى ابن مريم - عليه السلام - كأنه عروة بن مسعود الثقفي فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله - تعالى - ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى =

سواء^(١)؛ لأننا قد ذكرنا أن ليس في تقديم الذكر، ولا في تأخيرها ما يوجب الحكم كذلك؛ لأنه كَم مِنْ مُقَدِّمٍ فِي الذِّكْرِ هُوَ مُؤَخَّرٌ فِي الْحُكْمِ، وكَم مِنْ مُؤَخَّرٍ فِي الذِّكْرِ هُوَ مُقَدِّمٌ فِي الْحُكْمِ، فإذا كان كذلك: لم يكن في تقديم ذكر الشيء، ولا في تأخيرها - ما يدل على إيجاب الحكم كذلك^(٢)؛ كقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]: فإنما هو قبض الأرواح؛ فيحتمل الأول كذلك، ويحتمل توفي الجسم، أي: متوفيك من الدنيا، أي: قابضك، وليس بوفاة موت^(٣). وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكُ﴾، أي: مميتك^(٤) وهو ما ذكرنا؛

= تقبضه، فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، فيتمثل لهم الشيطان، فيقول: ألا تستجيبيون؟ فيقولون: فماذا تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دار رزقهم، حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لينا ورفع لينا، فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله مطرًا كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس هلم إلي ربكم وقفوههم إنهم مسئولون، ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: من كم؟ فيقال: «من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فذاك: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧] ﴿يَوْمَ يُكَفِّ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢].

أخرجه مسلم (٢٢٥٨/٤، ٢٢٥٩): كتاب الفتن وأشراط الساعة: باب في خروج الدجال ... ونزول عيسى وقتله إياه، رقم (١١٦ - ٢٩٤٠).

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى ابن مريم حكمًا مقسطًا، وإمامًا عادلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال، حتى لا يقبله أحد».

أخرجه البخاري (٤١٥/٥): كتاب المظالم: باب كسر الصليب وقتل الخنزير، رقم (٢٤٧٦)، ومسلم (١٣٥/١): كتاب الإيمان: باب نزول عيسى ابن مريم رقم (٢٤٢-١٥٥).

(١) مثل له القرطبي بقوله - تعالى -: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩] والتقدير: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزامًا.

وبقول الشاعر:

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام
أي: عليك السلام ورحمة الله.
ينظر: تفسير القرطبي (٤/٦٤).

(٢) سبق معنى هذا الكلام في تفسير المصنف للآية (٤٣): ﴿يَعْرِضُ آفَاتِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدُ وَأَرْكَبُ مَعَ الزَّكِيَّةِ﴾ [آل عمران: ٤٣].

(٣) وقال الربيع بن أنس: وهي وفاة نوم، قال الله - تعالى -: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِالْأَيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي: ينيمكم؛ لأن النوم أخو الموت. ينظر: تفسير القرطبي (٤/٦٤-٦٥). ثم قال الدارقطني: والصحيح أن الله - تعالى - رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم، كما قال الحسن وابن زيد، وهو اختيار الطبري، وهو الصحيح عن ابن عباس، وقاله الضحاك.

(٤) علقه البخاري (٦٨/٦) كتاب التفسير: باب ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَیْرَةٍ وَلَا سَیْبَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وأخرجه الطبري (٧١٤١)، وابن أبي حاتم (٢/٢٩٥) (٦٣٧)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» =

ليعلم أنه ليس بمعبود.

وقوله: ﴿وَرَأَيْتُكَ إِلًا﴾:

هو على تعظيم عيسى - عليه السلام - ليس على ما قالت المشبهة^(١) بإثباتها المكان له؛ لأنه لو كان في قوله: ﴿وَرَأَيْتُكَ إِلًا﴾ يوجب ذلك، يجب أن يكون أهل الشام أقرب إليه؛ لأن إبراهيم - عليه السلام - قال:

﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩]، والكفرة إليه قريب منه؛ كقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾؛ دل هذا أن ما قالوا خيال فاسد - تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا - ولكن على التعظيم والتبجيل^(٢)، أعني: المضاف إليه.

والأصل في هذا: أن الخاص إذا أضيف إلى الله فإنما يراد به تعظيم ذلك الخاص؛ نحو ما قال: «بيت الله»؛ على تعظيم البيت، ﴿ثَاقَةَ اللَّهِ﴾ [الشمس: ١٣]؛ فهو على تعظيم الناقة، ونحوه مما يكثر [وقوعه]^(٣).

وإذا أضيف الجماعة إليه، فهو على إرادة تعظيم الرب - جل ثناؤه - نحو: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، ﴿لَمْ يَلِكْ أَلَمُكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧] ونحوه؛ كله على إرادة تعظيم الرب، جل ثناؤه.

وقوله: ﴿وَمَطَّهْرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾:

قيل فيه بوجوه:

قيل: مطهرك من أذى الكفرة، من بين أظهر المخالفين لك^(٤)

وقيل: ومطهرك من الكفر والفواحش، ويحتمل: مطهرك ممّا قالوا فيك.

وقوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

يحتمل: يجعله فوق الذين كفروا بالقهر والغلبة والقتل، ويحتمل: بالحجّة، ويحتمل: في المنزلة والدرجة في الآخرة.

= (٦٤/٢) وزاد نسبه إلى ابن المنذر.

(١) المشبهة: هم الذين شبهوا الله تعالى بالمخلوقات، وهم فرقة واحدة قائلة بالتشبيه وإن اختلفوا في طرق التشبيه، فمنهم مشبهة غلاة الشيعة. ومنهم مشبهة الحشوية، ومنهم مشبهة الكرامية. ينظر: نشر الطوالع ص (٣٩١).

(٢) في ب: التبجيل والتعظيم.

(٣) سقط من ب.

(٤) أخرجه الطبري (٤٦١/٦) (٧١٤٨)، وابن أبي حاتم (٢٩٨/٢) (٦٤٧) عن الحسن، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٥/٢) وعزاه إليهما.

ويحتمل قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ بقتل الكفرة من وجه الأرض؛ على ما ذكر في بعض القصص: أنه ينزل من السماء، فلا يبقى على وجه الأرض كافر إلا وهو يقتله مع الذين اتبعوه؛ فذلك تَطْهِيرُهُ وَجَعْلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا^(١).

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْكَ مَرْجِعُكُمْ﴾

ذكر هذا - والله أعلم - وإن كان المرجع للكل إليه في [كل]^(٢) حال؛ لأنهم يُقَرُّونَ ويعترفون في ذلك اليوم أن المرجع إليه، وكانوا ينكرون ذلك في الدنيا؛ وهو كقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦] الملك كان في ذلك اليوم وفي غير ذلك اليوم، ولكن معناه: لا ينازعه أحد يومئذ في ملكه، ويقرون له بالملك، وفي الدنيا أنكروا ملكه؛ وهو كقوله: ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] كلهم بارزون لله في كل وقت؛ لكنهم أنكروا بروزهم في الدنيا له؛ فيقرون يومئذ بالبروز له؛ فكذلك الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

يحتمل: أحكم بينكم من المحق منكم، ومن المبطل.

ويحتمل: أحكم بينكم: أي: أجزيكم على قدر أعمالكم.

ويحتمل: أحكم بينكم أي، أجزي كلا بعمله على ما يستوجبون.

وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية:

وقوله: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾، قيل: القتل، والجزية^(٣)، وفي الآخرة: العذاب^(٤).

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ فقوله: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾:

(١) وقيل: إن الوقف التام عند قوله ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال النحاس وهو قول حسن. وجاعل الذين اتبعوك يا محمد ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بالحجة وإقامة البرهان. وقيل: بالعز والغلبة. وقال الضحاك ومحمد بن أبان: المراد: الحواريون. ينظر: تفسير القرطبي (٦٦/٤).

(٢) سقط من ب.

(٣) الجزية تطلق على العقد، وعلى المال الملتزم به، وهي مأخوذة من المجازاة، لكفنا عنهم، من الجزاء بمعنى القضاء، قال - تعالى -: ﴿وَأَنْتُمْ يَوْمًا لَا تُجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]. واصطلح على أن الجزية: عقد يتضمن إقرار بعض الكفار على ما يدينون به على الدوام ببذل الجزية والتزام أحكام الإسلام العامة.

ينظر: الصحاح (٢٣٠٣/٦) جزي، والقاموس المحيط (٣١٤/٤) جزي، والمصباح المنير (١/ ١٥٨) جزي، وطلبة الطلبة (٨٧) وشرح الحدود لابن عرفة (١٤٥).

(٤) ينظر: الوسيط للواحدي (٤٤٢/١)، تفسير البغوي (٣٠٩/١)، واللباب في علوم الكتاب (٥/ ٢٧٣)، وتفسير القرطبي (٦٦/٤).

يحمل تَزَوُّي الموت بما يقبض روحه كفعله بجميع البشر؛ تكذيباً لمن ظن أنه الله، أو ابنه، لا يحتمل أن يموت، وقد ألزمهم هذا أيضاً بوجهين ظاهرين - وإن كان فيما عليه خلقته وجوهره. ثم قلبه من حال إلى حال في نفسه، ومكان إلى مكان في حق القرار والحاجة - كفاية لمن يعقل الحقائق، وبلغت لمن تأمل الأشياء عبراً.

أحدهما: بقوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقوله: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [البقرة: ٨٧] حتى ينطق به لسان كل منهم، ومعلوم إحالة ابن بشر إلهاً أو ولداً لإله؛ إذ هو يكون أصغر منهما وذلك آية حدثه، وكذلك قوله في المهد: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] إلى آخر ما ذكر، مع ما لو احتمل ذلك لكان آدم - عليه السلام^(١) - الذي هو الأصل، هو المقدم، وهو الذي لا يعرف له وَالِدَانِ أحق أو هو؛ إذ هو بجوهره فهو ولده لا غير، أو ذلك وصف الأولاد، والله أعلم.

والثاني: ﴿يَا كَلَانَ أَطْعَمَكُمْ﴾ [المائدة: ٧٥]: فأخبر عن حاجته وغلبه الجوع عليه، وفقر نفسه إلى ما يقيمها من الأغذية. ثم في ذلك حاجة^(٢) إلى الخلاء، واختيار الأمكنة القدرة لقضاء حاجته، وبالله التوفيق.

والثالث: على قبضه بنفسه من بين أظهر أعدائه، ورفعته إلى ما به شرفه، وتطهيره مما كان يحس منهم من الكفر وأنواع الفساد، وختمه من بين البشر على وجه آية يكون له عليهم من أول أحوال ظهوره إلى آخر أحوال مقامه فيهم؛ ليكون أوضح لمتبعيه في الآيات، وعلى مخالفته في قطع العذر. ولا قوة إلا بالله.

وفي الدعاء إلى المباهلة^(٣) دلالة ظهور التعنت والعناد، وفي تخلفهم عن ذلك دليل

(١) في ب: صلى الله عليه وسلم.

(٢) في ب: حاجته.

(٣) ينظر: الآية (٦١) من سورة آل عمران وتفسيرها.

والمباهلة: الملاعة: وهو أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله على الظالم منا. ينظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١/١٦٧).

وأخرج البخاري (٤٣٨٠) عن حذيفة قال: جاء العاقب والسيد صاحباً نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله، لئن كان نبياً فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. قال: إنا نعطيك ما سألتنا وابتع معنا رجلاً أميناً ولا تبع معنا إلا أميناً. فقال: «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين» فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة».

وقال الحافظ ابن حجر (٤٢٩/٨): وفيها [أي: في تلك القصة] مشروعية مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة. وقد دعا ابن عباس إلى ذلك ثم الأوزاعي، ووقع ذلك لجماعة من العلماء. ومما عرف بالتجربة أن من باهل وكان مبطلا لا تمضي عليه سنة من يوم المباهلة، ووقع لي ذلك مع شخص كان يتعصب لبعض الملاحدة فلم يقم بعدها غير شهرين.

علمهم بتعتهم وخوفهم مما قد وُعدوا بالنزول عليهم، ثم لزموا مع ذلك ما كانوا عليه من السفه والعناد؛ ليعلم أن الحيل عمن اعتاد المعاندة منقطعة، ومعلوم أن الدعاء إلى المباهلة لا يكون في أول أحوال الدعوة؛ وإنما يكون بعد توفير الحجة وقطع الشبهة^(١)؛ ففي ذلك بيان أنه كانت ثمَّ محاجَّاتٌ، حتى بلغ الأمر هذا، وعلى ذلك أمر القتال أنه لم يوضع في أول أحوال الإرسال، وفي الحال التي للقول وللحق وجه القبول من طريق النصف والعقل؛ وإنما كان [عند ظهور]^(٢) معاندتهم، وكثرة^(٣) سفهمهم، حتى هُموا بالقتل، وأكثروا الأذى، وأكروهوا أقوامًا على الكفر، وأخرجوا [رسول]^(٤) رب العزة من بين أظهرهم بما راموا قتله، وطرّدوا أصحابه من بلادهم حتى تحصّنوا بالغيران، فأذن الله [تعالى]^(٥) عند ذلك بالقتال، وفتح الفتوح؛ ليكون آيته في كل وجه الآيات ظاهرة وحيثه بيّنة، وفي ذلك جواز محاجة الكفرة في التوحيد والرّسالة، لكن على ما قال الله - تعالى -: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِلَاَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، و﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢] نهى عن التعمق والخوض فيما تقصر عنه الأفهام، وإن كان معلومًا أن لله حججًا ظاهرة وغامضة، ولا قوة إلا بالله.

وفي ذلك تعليم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: أنه يكون ذلك باللطف والرفق يرى المقصود [به]^(٦)؛ ليقرر به عنده الحجة، ويزيل عنه الشبهة من الوجه الذي يحتمله^(٧) عقله، ويبلغه فهمه، فإن رآه يتعامى في ذلك يوعده ويخوفه بالذي في ذاك من الوعيد. فإن رأيت يكاثر عرفته شؤم طبعه وسوء عنصره، يوعده بما جاء به التعليم من الضرب

(١) الشبهة - لغة -: من أشبه الشيء الشيء، أي: ماثله في صفاته، والشَّبه، والشَّبه، والشَّبه: المثل، والجمع: أشباه، والتشبيه: التمثيل، والشبهة: المأخذ الملبس والأمور المشتبهة، أي: المشكلة لشبه بعضها ببعض.

والشبهة - اصطلاحًا -: الظن المشتبه بالعلم، ذكره أبو البقاء. وقال بعضهم: الشبهة: مشابهة الحق للباطل والباطل للحق من وجه إذا حقق النظر فيه ذهب.

وقال ابن الكمال: الشبهة: الشيء المجهول حله وحرمة على الحقيقة، كذا في الودائع. وعبر عنه بعضهم بقوله: ما لم يتيقن حله ولا حرمة.

ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (٤٢٢، ٤٢٣)، وتعريفات الجرجاني (٢٢٩)، ولسان العرب (٢١٩١/٤) (شبه)، والموسوعة الفقهية الكويتية (٣٣٨/٢٥).

(٢) في ب: عندما ظهرت.

(٣) في ب: وكثر.

(٤) سقط من ب.

(٥) سقط من ب.

(٦) سقط من ب.

(٧) في ب: يحتمل.

والحبس، فإن نفع ذلك، وإلا بكف شره عن غيره وتطهير الأرض منه؛ فإنه النهاية في القمع، والغاية فيما يحق من معاملة السفهاء، والله أعلم.

لكنه على منازل لا يحتمل انتهاء كل أنواع المآثم إلى هذه الغاية؛ بل فيها ما كان أعظمها دون هذا بكثير - والله أعلم - لذلك يلزم تعرف مقادير الآثام أولاً؛ ليعرف بها ما يحتمل كل إثم من العقوبة فيه والزجر به، ولا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾:

لأنه لا يحب الظلم.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (٥٨) **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (٥٩) **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** (٦٠) **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** (٦١) **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (٦٢) **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ** (٦٣)

وقوله: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾، قيل (١): ذلك الذي ذكر في هذه الآية: نتلو عليك يا

محمد.

﴿مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾

هو (٢) المحكم، وقيل: ﴿الْحَكِيمُ﴾، أي: من نظر فيه وتفكر يصير حكيماً؛ كما قال: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ [يونس: ٦٧]، أي: يبصر فيه، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾:

قيل في القصة: إن نصارى من أهل نجران (٣) قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا له: إنك تشتم صاحبنا عيسى بن مريم، تزعم أنه عبد، وهو يُخَيى الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخلق من الطين كهية الطير فيطير، فأرنا فيما خلق الله عبداً مثله يعمل

(١) ينظر: تفسير الرازي (٨/ ٦٥ - ٦٦).

(٢) في ب: قيل: الحكيم: هو.

(٣) نَجْرَان بالفتح ثم السكون وآخره نون، وهو في عدة مواضع؛ منها: نجران من مخاليف اليمن من ناحية مكة، وبها كان خبر الأخدود، وإليها تنسب كعبة نجران، وكانت ربيعة بها أساقفة مقيمون، منهم السيد والعاقب اللذين جاء إلى النبي ﷺ في أصحابهما، ودعاهم إلى المباهلة، وبقوا بها حتى أجلاهم عمر - رضي الله عنه.

ينظر: مراصد الاطلاع في أسماء الأماكن والبقاع، لصفي الدين البغدادي (٣/ ١٣٥٩).

هذا^(١)، والنصارى في الحقيقة مشبهة وقدرية: وأما التشبيه: فإنما حملهم على ذلك ظنهم في قول إبراهيم عليه السلام؛ حيث قال: ﴿رَبِّیَ الَّذِی یُحِیْ وَیُمِیتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ ظنوا أن عيسى لما قال: ﴿أَنِّیْ أَخْلَقْتُ لَکُمْ مِنْ أَلْطِینَ کَهَیْئَةِ الطَّیْرِ﴾ [آل عمران: ٤٩] أنه رب وإله؛ لأن إبراهيم - عليه السلام - أخبر أن ربه ﴿الَّذِی یُحِیْ وَیُمِیتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ فسموا عيسى إلهاً بهذا، وهم كانوا يرون عيسى يأكل ويشرب وينام؛ فلولا أنهم عرفوا الله - عز وجل - وإلا ما شبهوه به، تعالى الله عن ذلك.

وأما القدرية: فلما لم يروا الله في أفعال العباد صنعاً؛ إنما رأوا ذلك للخلق خاصة^(٢)،

(١) أخرجه الطبري (٤٦٨/٦) (٧١٦١)، وابن أبي حاتم (٣٠٧/٢) (٦٦٧) عن ابن عباس. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٦/٢) وعزاه إليهما من طريق العوفي عن ابن عباس. وأخرجه الطبري بنحوه (٤٦٨/٦) (٧١٦٠) عن الشعبي، ورقم (٧١٦٢) عن قتادة، وفي (٤٦٩/٦) (٧١٦٣) عن السدي.

(٢) وهي معرفة بالجبر والاختيار في الفعل، والمراد من أفعال العباد: المعنى الحاصل بالمصدر الذي هو متعلق بالإيجاد والإيقاع، وهو على سبيل المثال ما يشاهد من الحركات والسكنات، وإطلاق المصدر على المعنى الحاصل بالمصدر - وإن كان مجازاً - من قبيل إطلاق اللازم وإرادة اللزوم، إلا إنه كثير الوقوع، فلا يحتاج إلى قرينة.

وتنقسم أفعال العباد إلى اختيارية كحركة البطش، واضطرابية كحركة الارتعاش، ومباشرة ومتولدة كحركة المفتاح المتولدة من حركة اليد، ومنها ما يتعلق بالجوارح، ومنها ما يتعلق بالقلوب، وهذا كله فيما يختص بالمستيقظ؛ لأن أفعال النائم والساهي مختلف فيها على تفصيلات كثيرة ليس المجال مجال ذكرها.

وهذه المذاهب التي اختلفت بهذه المسألة: ذهب المعتزلة: إلى أن العبد فاعل ومحدث لأفعاله الاختيارية؛ إذ أفعال العباد من حركات وسكنات واقعة من جهتهم بإقدار الله لهم على هذه الأحداث، وبهذا يبين - كما يقول المعتزلة - خطأ من قال بأن أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله؛ لأن قدرة الله لا تتعلق بأفعال العباد من حيث الإيجاد والنفي.

أما الجبرية: فقالوا بنفي الاستطاعة والقدرة عن الإنسان في جميع أعماله؛ لأن الأفعال مخلوقة لله - تعالى - فينا لا تعلق لنا بها أصلاً، لا اكتساباً ولا إحداثاً، وإنما نحن كالظرف لها.

ويتضح مذهب الجبرية فيما يقوله جهم بن صفوان إذ يقول: «الإنسان لا يقدر على شيء، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله لا قدرة له ولا اختيار». وبهذا يكون مذهب المعتزلة رد فعل لمذهب الجبرية.

أما الأشاعرة فلقد ذهبوا إلى أن أفعال العباد واقعة بقدرة الله - تعالى - وحدها، والعبد ليس له أدنى تأثير فيها، لأنها - أي الأفعال - مخلوقة لله من حيث الإبداع والإحداث وللعبد فيها كسب. والسبب الذي جعل الأشاعرة يقولون بهذا: أنهم رأوا أن قدرة الله عامة، وتشمل سائر المقدورات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

أما السؤال الذي يطرح نفسه في خصوص رأي الأشاعرة - وهم يقولون بأن أفعال العباد واقعة بقدرة الله وحدها وللعبد فيها الكسب - هو عن تفسير حدوثها من العبد؟

وإجابة هذا السؤال هي أن الأشاعرة يرون أن الله - سبحانه - قد أجرى عادته بأن يوجد في العبد =

فلما رأوا ذلك من عيسى - عليه السلام - ظنوا أنه ربٌّ؛ لما لم يروا ذلك من غيره، ولو كانوا عرفوا الله حق المعرفة، لعلموا أن لم يكن من عيسى إلا تصوير ذلك الطير وتمثيله، ويكون مثله من كل أحد؛ وإنما الإحياء كان من الله - عز وجل - أجراه على يدي عيسى - عليه السلام - وأظهره، وإنما كان من عيسى تصويره فقط؛ وكذلك ما كان من إبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من الله - عز وجل - أجراه على يديه آيات لنبوته؛ لأنهم ادعوا له الربوبية من وجهين: لكونه من غير أب، ولآياته.

ثم قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ - يحتمل وجهين - والله أعلم - : أحدهما: أن الله - عز وجل - صور صورة آدم من طين، ثم جعل فيه الروح، لم يجز أن يقال صار آدم حيًّا من نفسه؛ لوجود صورته، كيف جاز لكم أن تقولوا: إن عيسى لما صوِّر ذلك الطير من الطين، صار محيًّا له بتصويره إياه دون إحياء الله - تعالى - إياه؟! والله أعلم.

والثاني: أن آدم - عليه السلام^(١) - خُلِقَ لا من أب وأم، ثم لم تقولوا: إنه رب

= قدرة واختيارًا، فإذا لم يوجد مانع أوجد فعله المقدور مقرونًا لهذه القدرة والاختيار. ويزيد رأي الأشاعرة تفسيرًا قول أبي الحسن الأشعري: «الكسب عبارة عن الفعل القائم بمحل قدرة العبد»، ويفهم من عبارة الأشعري أن الله - عز وجل - يعطى الإنسان القدرة على إحداث الفعل عند مباشرته، فيقع الفعل عند هذه القدرة وليس بها.

أما الماتريدية: فيتفقون مع الأشاعرة في أن أفعال العباد واقعة بقدرة الله - عز وجل - وللعباد فيها الكسب، لكنهم يختلفون مع الأشاعرة في معنى الكسب: فيرى الماتريدية: إثبات أن للعبد قدرة وإرادة لها أثر في الفعل، لكن لا أثر لها في الإيجاد والإحداث، وإنما أثرها ينصب على وصف الفعل بكونه طاعة أو معصية، فهذه القدرة متمثلة في القصد والاختيار للفعل، وعلى أساس هذا القصد وذلك الاختيار يخلق الله للعبد القدرة على الفعل، وعليه تكون نتيجة الفعل.

وبهذا يتضح أن الخلاف بين الماتريدية والأشاعرة في قدرة العباد التي وقع بها الفعل، فهي غير مخلوقة عند الأشاعرة، بينما يرى الماتريدية أن للعبد اختيارًا في أفعاله، ولم يمنعوا أن تضاف الأفعال إلى الله تعالى.

وتنظر هذه المسألة وتفصيلاتها وأدلة كل فريق وبيان الحق فيها مع أهل السنة والجماعة في: سبيل الحكمة والرشاد في بيان من له الانفراد بخلق أفعال العباد، لعبد الرحمن مصطفى (٢)، المغني للقاضي عبد الجبار (٢١٨/٨، ٢١٩)، وشرح الأصول الخمسة (٣٢٤)، والملل والنحل للشهرستاني (١١٤)، والفصل لابن حزم (١٨/٣ - ٢٠)، والفرق بين الفرق (٢١١)، وشرح المواقف للجرجاني (١٤٥/٨)، وشرح البيجوري على الجوهرة (٣٢)، والأشعري لحمودة غرابية (١٠٨)، واللمع للأشعري (٩٧)، ونهاية الإقدام للشهرستاني (٨٧)، والتفسير الكبير (١٢٧/١٣، ١٢٨)، وأبي منصور الماتريدي وآراؤه الكلامية (٤٣٢ - ٤٣٤)، والتوحيد للماتريدي (٢٤٢، ٢٤٣)، وبحر الكلام لأبي المعين النسفي (٤٠).

(١) في ب: صلى الله عليه وسلم.

أو^(١) إله، فكيف قلتم في عيسى: إنه إله؛ وإنه^(٢) خلق لا من أب؛ إذ عدم الأبوة في آدم لم يوجب أن يكون ربًّا؛ وكيف أوجب عدم الأبوة في عيسى كونه ربًّا وإلهًا؟! والله الموفق^(٣).

وإنما كان عيسى بقوله: «كن» - كما كان آدم، أيضًا، بـ«كن» - من غير أب. وقوله: ﴿كُنْ﴾:

قد ذكرنا أنه أوجز كلام في لسان العرب يعبر فيؤدي المعنى؛ فيفهم المراد، لا أن كان من الله - عز وجل - كاف، أو نون، أو وقت، أو حرف، أو يوصف كلامه بشيء مما يوصف به كلام الخلق، تعالى الله عن ذلك. وقوله: ﴿فَيَكُونُ﴾:

يحتمل وجهين:

يحتمل «يكون»، بمعنى: كان، والعرب تستعمل ذلك ولا تأبى.

والثاني: أن تكون الكائنات بأسبابها في أوقاتها التي أراد كونها على ما أراد، وأصل ذلك، إذا ذكر الله ووصف بذكر بلا ذكر وقت في الأزل، وإذا ذكر الخلق معه يذكر الوقت، والوقت يكون للخلق يقول: خالق لم يزل، وخالقه في وقت خلقه. وقوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾:

يحتمل هذا وجوها:

يحتمل أن يكون الخطاب لكل أحد قال في عيسى ما قالوا، أي: لا تكن من الممترين في عيسى أنه عبد الله خالصًا، وأنه نبيه ورسوله إليكم.

ويحتمل أن يكون الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره؛ وهكذا عادة ملوك الأرض أنهم إذا أرادوا أن يعرفوا رعيتهم شيئًا، يخاطبون أعقلهم وأفضلهم وأرفعهم منزلة وقدّرًا عندهم؛ استكبارًا منهم مخاطبة كل وضع وسفيه؛ فكذا ذلك [ولله المثل الأعلى] الله - عز وجل - خاطب نبيه؛ إعظامًا له وإجلالًا، والله أعلم^(٤).

ويحتمل ما ذكرنا فيما تقدم أن العصمة^(٥) لا تمنع الأمر ولا النهي؛ بل تزيد أمرًا ونهيًا،

(١) في ب: ولا.

(٢) في ب: وإن.

(٣) ينظر: اللباب في علوم الكتاب (٢٧٧/٥ - ٢٧٨).

(٤) قال القرطبي: الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته؛ لأنه لم يكن شاكًا في أمر عيسى، عليه السلام.

ينظر: تفسير القرطبي (٦٧/٤).

(٥) العصمة - لغة - المنع. واصطلاحًا: أن لا يخلق الله في المكلف الذنب مع بقاء قدرته واختياره. =

وإن كان يعلم أنه لا يكون من الممترين أبداً، والله الموفق.

وقوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحَبْرِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ الآية.

دعاهم ﷺ إلى المباهلة، فالمباهلة في لغة العرب^(١): الملاعنة، دعاهم إلى الدعاء باللعنة على الكاذبين، فامتنعوا عن ذلك؛ خوفاً [منهم لحوق اللعنة؛ فدل امتناعهم عن ذلك أنهم عرفوا كذبهم، لكنهم تعاندوا]^(٢) وكابروا؛ فلم يقرؤا بالحق.

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾:

يعنى: الخبر الحق^(٣).

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

ظاهر، قد ذكرناه فيما تقدم، والله أعلم.

وقوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، يحتمل: خبر الحق في أمر عيسى - عليه السلام - أنه كان

عبداً بشراً نبياً، ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، أي: لا يحملنك شدة لجاجتهم وكثرتهم في القول فيه بهذا الوصف على الشك^(٤) في الخبر الذي جاءك عن الله؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا نَارُكَ بَعْضَ

= وقيل: ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها.

وهي عند الأشاعرة بناء على أصلهم من استناد الأشياء كلها إلى الفاعل المختار: ألا يخلق الله فيهم ذنباً. وعند الماتريدية: عدم القدرة على المعصية، أو خلق مانع منها - المعصية - غير ملجئ - ومعنى غير ملجئ: أن خلقه هذا المانع لا يقهر النبي على ترك المعصية وإلا يلزم الاضطراب النامي للابتلاء والاختبار.

وقد أجمع الملبئون كلهم على وجوب عصمة الأنبياء - عليهم السلام - عن تعمد الكذب فيما دل على المعجز القاطع على صدقهم فيه مثل دعوى الرسالة وما يبلغونه عن الله تعالى.

ينظر: مختار الصحاح (٤٣٧) (عصم)، التعليقات على شارح الجوهرة للشيخ محمد يوسف الشينخ (١١٦)، التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (٥١٦)، المصباح المنير (٤٩٣) (عصم)، والمفردات (٥٠٤) (عصم) وتعريفات ابن الكمال (١١٧)، شرح المواقف (٨/٢٦٣)، الشفاء بحقوق المصطفى للقاضي عياض (١٠٥/٢).

(١) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى (٦٩/١)، والزاهر لابن الأنباري (٢١٩/١).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٣) راجع: تفسير البغوي (٣١١/١).

(٤) الشك: الوقوف بين النقيضين، وهو من شك العود فيما ينفذ فيه، لأنه يقف بذلك الشك بين جهتيه. ذكره الجرجاني. وقال غيره: وقوف بين المعنى ونقيضه، وضده الاعتقاد فإنه قطع بصحة المعنى دون نقيضه.

وقيل: الشك: التردد بين نقيضين لا ترجيح لأحدهما عند الشاك. والشك ضرب من الجهل، وهو أخص منه، لأن الجهل قد يكون عدم العلم بالنقيضين رأساً، فكل شك جهل ولا عكس.

ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (٤٣٦، ٤٣٧)، وتعريفات الجرجاني (١٣٤) والكليات لأبي البقاء (٦٢/٣).

مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴿١٢﴾ إِلَىٰ آخِرِهِ [هود: ١٢]: على الموعظة، لا على أنه يكون كذلك، أو على ما سبق ذكره، والله أعلم.

ويحتمل: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، أي: كل حق فهو عن الله جائز إضافته إليه، على الوجوه التي تضاف إليه، الباطل من الوجه الذي هو باطل، ﴿فَلَا تَكُنْ﴾ في ذلك ﴿مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾، والله أعلم.

وجائز أن يقول: جعل الله ذلك الفعل ممن فعله باطلاً، ولا يقال: الباطل من الله، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

وقوله (١): ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾:

يعنى: كلمة الإخلاص والتوحيد، ﴿سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: عدل، أي: تلك الكلمة عدل بيننا وبينكم (٢) لأنهم كانوا يقرون أن خالق السموات والأرض: الله، بقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٣١]، وكذلك يقرون أن خالقهم الله، بقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، لكن منهم من يعبد دون الله أوثاناً، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، ومنهم من يجعل له شركاء وأنداداً يشركهم في عبادته، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى ألا يجعلوا عبادتهم لغير الذي أنعم عليهم؛ إذ العبادة لا تكون إلا لله الذي أقروا جميعاً أنه خالق السموات والأرض، وأنه ربهم، وألا يصرفوا عبادتهم إلى غير الذي أنعم عليهم؛ إذ العبادة هي لشكر وجزاء ما أنعم عليهم (٣).

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ لأن العبادة لواحد أهون وأخف من العبادة لعدد، وأن صرف العبادة إلى من أنعم عليكم أولى من صرفها إلى الذي لم ينعم عليكم؛ إذ ذاك جور وظلم في العقل أن ينعم أحد على آخر، فيشكر غيره.

(١) في ب: وقوله - عز وجل.

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٤٨٧/٦) (٧١٩٨)، وابن أبي حاتم (٣١٧/٢) (٤٩٦).

(٣) أي [دعاهم] إلى قول معتدل لا يميل إلى التعطيل ولا إلى الشرك، متفق عليها لا يختلف فيها الرسل والكتب، قاله القاسمي في محاسن التأويل (١١٧/٤).

قال الشيخ - رحمه الله - : العدل في اللغة^(١) : وضع الشيء [في]^(٢) موضعه، وفي إخلاص العبادة لله والتوحيد - ذلك وهذا معنى سواء . وجائز أن تكون كلمة يستوي فيها أنها عدل ما شهد لنا بهذا كل أنواع الحجج .
وقوله : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ :

يحتمل : تولوا عن طاعة الله وتوحيده، وصرف العبادة إليه -
﴿فَقُولُوا﴾ .

كذا .

ويحتمل : فإن تولوا عن المباهلة والملاعنة^(٣) - فقولوا^(٤) ﴿أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾
أي : مخلصون العبادة له، صادقون الشكر على ما أنعم علينا، والله أعلم^(٥) .
قال الشيخ - رحمه الله - : فإن تولوا عن قبول ما دعوتهم إليه من الاجتماع على الكلمة .

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حُجِّجْتُمْ فِيْمَا لَكُمْ بِهِ، عَلِمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ، عَلِمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّكَ أَوَّلُ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

وقوله : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ .

قيل : وذلك أن اليهود قالوا : إن إبراهيم كان على ديننا اليهودية، والنصارى ادعت أنه كان على دينهم ومذهبهم، ليس على دين الإسلام؛ فنزل قوله : ﴿لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾
يعني : في دين إبراهيم^(٦) .

(١) ينظر : المحكم لابن سيده (١٠، ٩/٢)، وتهذيب اللغة للأزهري (٢/٢١٢) (عدل)، ولسان العرب (٣٨٣٨/٤) (عدل).

(٢) سقط في ب .

(٣) ينظر : اللباب لابن عادل (٥/٢٩٤).

(٤) في أ : فقل .

(٥) وقيل : أي لزمتمكم الحجة؛ فوجب عليكم أن تعترفوا بأننا مسلمون دونكم، كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع أو غيرهما : اعترف بأنني أنا الغالب وسلم لي الغلبة . ويجوز أن يكون من باب التعريض ومعناه : اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره . كذا في الكشاف (١/٣٧١).

ينظر : محاسن التأويل (٤/٢١٨).

(٦) أخرجه الطبري (٦/٤٩٠) (٧٢٠٢) عن ابن عباس، وينظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٠١) - =

﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني: من بعد إبراهيم، وهو يحتمل وجهين:

يحتمل: أن التوراة والإنجيل إنما نزلا من بعده، وأنتم لم تشهدوه - يعني: إبراهيم - حتى تعلموا أنه كان على دينكم، لم تقولون بالجهل أنه كان على دينكم؟! .
ويحتمل: ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾، أي: أن التوراة والإنجيل ما نزلا إلا من بعد موته، وكان فيهما أنه كان حنيفاً مسلماً
﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

أنه كان حنيفاً مسلماً؟! ثم أكذبهم الله - عز وجل - فقال:
﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
قال الشيخ - رحمه الله -: وفي هذه الآية دلالة أنهم علموا أنه كان مسلماً، لكن ادعوا ما ادعوا متعتين؛ حيث لم يقابلوا بكتابهم بالذي ادعوا من نعته، وبخلاف ما ادعى عليهم رسول الله ﷺ نعته .

وفيه دلالة الرسالة؛ إذ في دعواهم أنّ رسول الله ﷺ لم يعرف نعته بهم، لما ادعوا هم غير الذي ادّعى؛ فثبت أنه عرف بالله، وذلك علم الغيب، والله الموفق.
وقوله: ﴿هَآتَيْنُكُمْ هَؤُلَاءِ حُجَجَكُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلَمْ تُحَاجُّوْا فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾:
وهو ما ذكرنا، وفيه دلالة جواز المحاجة في الدين على العلم به، وإنما نهى هؤلاء عن المحاجة فيما لا علم لهم؛ ألا ترى أن الرسل - عليهم السلام - حاجوا قومهم: حاج إبراهيم قومه في الله، وذلك قوله: ﴿وَنِلَّكَ حُجَّتْنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وموسى - عليه السلام - حاج قومه، وما من نبي إلا وقد حاج قومه في الدين؛ فذلك يبطل قول من يأبى المحاجة في الدين.

قال الشيخ - رحمه الله -: وأيد الحق أنه كذلك - عجز البشر عن إيراد مثله، وعجزهم عن المقابلة بما ادعوا أنهم عرفوه بالله.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَوَّلُ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

= (٢٠٢)، واللباب في علوم الكتاب (٢٩٩/٥ - ٣٠٠)، وأخرجه الطبري (٤٩١/٦) (٧٢٠٦)، وابن أبي حاتم (٣١٩/٢) (٧٠٣)، عن مجاهد. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧٢/٢) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر. وأخرجه الطبري (٧٢٠٣) عن قتادة، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧٢/٢) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر، وأخرجه الطبري (٧٢٠٥) عن أبي العالية.

وهكذا يكون في العقل أن من اتبع آخر وأطاعه؛ فهو أولى به، وإنما الحاجة إلى السمع بمعرفة المتبع له والمطيع أنه ذا أو ذا؛ فأخبر - عز وجل - أن الذين آمنوا والنبي ﷺ هم المتبعون له؛ فهم أولى به.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾

اختلف فيه؛ قيل: الولي: الحافظ.

وقيل: الولي: الناصر.

وقيل: هو أولى بالمؤمنين، وقد ذكرنا هذا فيما تقدم^(١).

وقد يكون وليهم: بما دفع عنهم سفه أعدائهم في إبراهيم، وأظهر الحق في قولهم. قال الشيخ - رحمه الله - في قوله - تعالى - : ﴿تَكَلَّمُوا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ...﴾ الآية، وفي قوله: ﴿لِمَ تُحَاجُّوهُ...﴾، وفي قوله: ﴿لِمَ تَلِيُسُونَ الْحَقَّ يَاطْلِلُ...﴾ الآية، ونوع ذلك من الآيات التي خص بالخطاب بها أهل الكتاب - وجوه من المعتبر.

أحدها: أن الذين خاطبوا بهذا الاسم [كانوا]^(٢) معروفين، وأنه لم يخطر ببال مسلم أنه قصد به غير أهل التوراة والإنجيل، ولا ذكرت تلاوتها في حق المحاجة على غيرهم، ثبت أن المجوس ليسوا بأهل الكتاب، وأن المراد من ذكر أهل الكتاب غيرهم، وأن أخذ الجزية من المجوس ليس مما تضمنهم قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]؛ لكن بدليل آخر، وهو ما روي عن نبي الله ﷺ أنه قال: «سُئِلُوا بِهِمْ سُنَّةُ أَهْلِ الْكِتَابِ، غَيْرَ نَاصِيَةٍ نِّسَائِهِمْ، وَلَا أَكَلِيَّةٍ ذَبَائِحِهِمْ»^(٣)؛ وعلى ذلك أيد قوله: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦]؛ ليعلم أن الكتاب^(٤) المعروف وأهله: هؤلاء، إن كانت ثم كتب وصحف، والله أعلم.

والثاني: أن الله خص أهل الكتاب بأنواع الحجج، وجعل المحاجة بينهم وبين رسول الله ﷺ؛ ليوضح أنه - وإن كان مرسلاً إلى جميع البشر - كان له التخصيص في المحاجة؛ وعلى ذلك عامة «سورة الأنعام» في محاجة أهل الشرك، على أن أهل المدينة كانوا أهل كتاب، وأهل مكة كانوا أهل شرك، فحاجج كلًا بالذي هو أحق أن يكلم فيه، وإن كانت

(١) ينظر: الوسيط (١/٤٤٩)، تفسير الرازي (٨/٨٠)، واللباب في علوم الكتاب (٥/٣٠٨).

(٢) سقط من ب.

(٣) أخرجه مالك (١/٢٧٨) كتاب الزكاة: باب جزية أهل الكتاب والمجوس، حديث (٤٢) من حديث

عبد الرحمن بن عوف.

(٤) في ب: أهل الكتاب.

الحجة تلزم الفريقين؛ لأن محاجة أهل الشرك أكثرها في التوحيد وأمر البعث، وعلى وجوده [فيه]^(١): في أهل الكتاب بعض المشاركة لهم، ومحاجة أهل الكتاب بما في كتبهم، وفيه وجهان:

أحدهما: العلم بما قد غاب عنه السبب الذي يوصل إليه بالكسب؛ ليعلم أنه وصل إليه بالوحي؛ فيكون من ذلك الوجه حجة على الفريقين.

والثاني: ظهور سفه أهل الكتاب بوجه يُشقّط عند التأمل الرّبيّة والمحلّ الذي كان يمنعهم ذلك عن اتباعه، وذلك فيما مدح كتبهم، وشهد لها بالصدق والحق، وإظهار الإيمان برسلمهم؛ ليعلم أنه ليس بين الرسل والكتب اختلاف في الدعاء إلى عبادة الله وتوحيده، وأنّ أولئك إنما كذبوا؛ لتسلم لهم الرياسة، ثم - مع ذلك - ظاهروا أهل الشرك المكذبين لكتبهم ورسلمهم؛ ليعلم كلّ ذى عقل شبههم وتمردهم في الباطل؛ إذ ظاهروا أعداءهم في الدين على منّ الذي أظهروا موالاته في الدين ولى له؛ فيكون في ذلك أبلغ الزجر لمتعتّيتهم، وأعظم الحجة عليهم فيما آثروا من السفه وتركوا الحق، والله أعلم.

وفي ذلك وجه آخر: أن أهل الشرك قد عرفوا حاجاتهم إلى أهل الكتاب في أمور الدين، وما عليه أمر السياسة؛ فيصير ما يلزم أولئك من الحجة لازمة لهم في محاجته بالذي في كتبهم - لزوم الحجة، مع ما عليهم في ذلك بما [قد]^(٢) ﴿أقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ [فاطر: ٤٢] الآية، أبلغ الحجة في محاجة أهل الكتاب؛ إذ تمنوا أن يكون منهم نذير فكان، وقد بلغ المبلغ الذي له ظهر بما خصّوا من الحجج، وشاركوا أولئك في جميع ما به كان افتخارهم عليهم ودعوى الفضل، والله أعلم، مع ما لم يكن له اللسان الذي به ظهر كتبهم، أخبر هو جميع ما في كتبهم بغير لسانهم؛ ليعلموا أنه أدرك ذلك ممن له حقيقة كتبهم، والله أعلم.

وفي ذلك وجه آخر: أنه حاجتهم بوجهين:

أحدهما: بالموجود في كتابهم، والمعروف عند أئمتهم من العلم بالكلمة التي دعاهم إليها من التوحيد وعبادة من له الخلق والأمر، وإخبار ما في كتبهم من أنواع البشارات به، ومن موافقة الكتب^(٣)، وعلى ذلك أمر إبراهيم - عليه السلام - وغيرهم؛ ليكون أعظم

(١) سقط من ب.

(٢) سقط من ب.

(٣) في ب: الكتاب.

في الحجة، وأقطع للشغب، والله أعلم.

والثاني: بما قد حرفوا من كتبهم، وبدلوا من أحكامهم، وحرفوا من صفته ونعته ونعت أمته؛ ليعلم كل متأمل أنه لا وجه لتعلم ذلك بهم؛ إذ لا يحتمل أن يكون منهم هتك أستارهم، والاطلاع على أسرارهم بما لا يتهيأ لهم دفع ذلك، ولا المقابلة في ذلك؛ ليعلم كل الخلائق: من انقاد لهم أو لا، أن ذلك لا يدركه إلا بمن له العلم بكل سر ونجوى، ولا قوة إلا بالله.

مع ما في ذلك وجهان من المع تبر:

أحدهما: أن ذلك الزمان لم يكن زمان حجاج ونظر في أمر الدين؛ إنما كان ذلك الزمان زمان تقليد^(١) في أمر الدين، وتناه في أمر الدنيا، وتفاخر بكثرة الأموال والمواشي؛ فبعث الله - تعالى - رسولاً نشأ [من]^(٢) بين أظهرهم، دعاهم إلى ترك التقليد في الدين، واتباع الحجج التي لا يبلغها أهل الحجاج بعقولهم دون أن يكون لهم المعونة من علم الوحي، وما فيه من حكمة الربوبية؛ فكيف والقوم أصحاب التقليد؟! إفا ثقة بأئمتهم الذين ادعوا علم الكتب المنزلة، وإفا ثقة وإيماناً بابائهم فيما نشئوا عليه: أن الحق لا يشذ

(١) التقليد: هو العمل بقول الغير من غير حجة.

وذهب الأشاعرة إلى أنه لا يكتفى بالتقليد في العقائد الدينية بل لابد من اعتقاد جازم عن دليل إذ الإيمان في المسائل الأصولية وهي قليلة يمكن الإحاطة بها وتكفي فيها المعرفة إجمالاً ولا يشترط الاقتدار على التعبير عن ذلك.

يقول العلامة البغدادي في أصول الدين له: إن معتقد الحق قد خرج باعتقاده عن الكفر؛ لأن الكفر واعتقاد الحق في التوحيد والنوآت ضدان لا يجتمعان غير أنه لا يستحق اسم المؤمن إلا إذا عرف الحق في حدوث العالم وتوحيد صانعه... إلى أن قال: «وهذا اختبار الأشعري وهو عنده ليس مشركاً ولا كافراً؛ وإن لم يسمه على الإطلاق مؤمناً وقياس أصله يقتضي جواز المغفرة له؛ لأنه غير مشرك ولا كافراً».

وذهب الماتريدية وعلى رأسهم المصنف إلى صحة إيمان المقلد؛ وذلك لأن إيمان المقلد معه تصديق، والتصديق أصل الإيمان يقول أبو منصور الماتريدي: ليس الشرط أن يعرف كل المسائل بالدليل العقلي ولكن إذا بنى اعتقاده على قول الرسول، بعد معرفته بدلالة المعجزة أنه صادق فهذا القدر كاف لصحة إيمانه.

انظر تفصيل هذه المسألة في: أصول الدين للبغدادي (٢٥٥)، نهاية الإقدام للشهرستاني (٤٧٢-٤٧٤)، شرح المقاصد للفتازاني (١٩٤/٢)، أبو منصور الماتريدي وأراؤه الكلامية (٣٨٧)، عبد الفتاح بركة، وشرح جوهرة التوحيد للبيجوري (٣٤)، ونظم الفرائد وجمع الفوائد لشيخ زاده (٤١، ٤٢)، والبرهان (١٣٥٧/٢ - ١٣٥٩)، والمحصول للرازي (٢ - ق ٣/ ١٢٥)، والإحكام للأمدى (٢٤٦/٣)، وجمع الجوامع (٤٠٢/٢)، وفواتح الرحموت (٢/ ٤٠١)، وإرشاد الفحول للشوكاني (٢٦٦).

(٢) سقط من ب.

عنهم، على ما في ذلك من الاختلاف الذي يمنعهم الأمرين جميعاً، لكنهم^(١) إذا لم يكونوا أهل نظر في الدين ومحااجة فيه، لم يعرفوا أن ذلك يمنعهم التقليد؛ فأظهر لهم الحجاج، وأنبأهم بالمودع من حجاج أنبيائهم في كتبهم، وألزمهم أن في آبائهم من يلزم التقليد، كانوا أحق بذلك بما كان عندهم أن آباءهم كانوا على دينهم بما يَبْن من تغييرهم^(٢) وتبديلهم، وترك^(٣) الواجب عليهم من حق الاتباع، والله أعلم.

والثاني: أن أظهر فيهم الاختلاف في أئمتهم، على ادعاء كل منهم أن ذلك هو الذي كان عليه الأنبياء والرسل في أهل الكتاب؛ وحاجات غيرهم بما ليس عندهم إلا آراء ليس عندهم فضل على القول، ثم كان معلوماً عند الاختلاف والتفرق؛ فصارت الحاجة قد عمتهم، والعلم بهم في لزوم الأحكام إلى من يدلهم على الحجة^(٤) ويعرفهم الحق الذي قد تقرر عندهم؛ فبعث الله بفضله من أظهر لهم بما أنطق به لسانه من الحجاج، وأراهم من علمه مما غيروا حفظ ما كان عليه أوائلهم؛ فكان ذلك أظهر البيان، وأولى ما يعرف من أفضال الله عليهم بالإغاثة، والامتنان عليهم بالفرج مما قد مستهم إليه الحاجة، ودفعتهم إلى العلم به الفاقة، والله الموفق.

وفي الفصل الأول بقي حرف لم نذكره، وهو أن دعاهم إلى الزهد في الدنيا بعد الركون إليها، وإلى الأخوة في الدين بعد ظهور التفاخر بينهم بتكثير العشائر، وتقابل القبائل، والسخاء بجميع ما طبعوا عليه بما قدّر عندهم: ما إليه ترجع عواقب أمرهم، وقام بذلك على قهر العادة ومخالفة الطبيعة التي يعلم أن ذلك في مثل ذلك العصر آية سماوية خارجة عن وسع البشر؛ ليكون أقطع لعذرهم، وأسكن لقلوبهم إليه؛ فله الحمد على ذلك.

وقوله: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَمَآلَوْاْ ۖ إِن كُنتُمْ سَوَآءٍ...﴾ الآية.

قيل فيها بأوجه:

أحدها: أنها العدل، وهي كلمة التوحيد، وكانت عدلاً باتفاق الألسن؛ إذ سئلوا عن خلق السموات والأرض في الفرع إليه بالإجابة، وشهادة الخلقة على وحدانية من له الخلق والأمر، والله أعلم.

(١) في ب: لكن.

(٢) في ب: كغيرهم.

(٣) في ب: وتركه.

(٤) في ب: المحجة.

ومن هذا الوجه أمكن أن يحاج جميع الخلق، وإن خص به أهل الكتاب، والله أعلم. وأخرى: أن يستوي فيها أنها حق وعدل، وهي عبادة الواحد الذي لم يُختلف في أنه معبود، وأن كل من عبد غيره فعلى أن يكون له العبادة يعبد، فيرجع إلى حقيقته^(١) دون أن يكون بيننا وبينه من يعلم أنه لا يستحق العبادة، وهذا المعنى يلزم الجمع، أيضًا. والثالث: أن يكون إلى كلمة ظهر أنها عدل في كتابهم بما جاءت رسلهم، ونزلت بها كتبهم، ولا قوة إلا بالله.

قوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَسْعُرُونَ بِتَأْهِلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ شَاهِدُونَ ﴿٦٩﴾ يَتَأْهِلِ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسِنُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ وقوله: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾:

ذكر في القصة أن المشركين أخذوا عما را^(٢) وحذيفة^(٣)، فقالوا لهم: ديننا أفضل من دينكم، وأفضل من الأديان كلها؛ فنزل هذا^(٤).

والأشبه أن يكون مثل هذا من رؤساء أهل الكتاب، وعلمائهم هم الذين يتولون مثل هذا العمل، وأما الجهال منهم والردلة^(٥)، فإنهم لا يفعلون هذا، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾:

الإضلال: قيل فيه بوجه: قيل: الإضلال هو الإخمال^(٦)؛ أرادوا أن يحْمَلَ ذِكْرَهُمْ، ولا يُذَكِّرُون بعدهم أبدًا، كما ذكر أولئك.

(١) في ب: حقيقة.

(٢) هو عمار بن ياسر، صحابي جليل شهد بدرًا والمشاهد وقتل مع على بصفين سنة ٣٧هـ. ينظر: الخلاصة (٢/٢٦١).

(٣) هو حذيفة بن اليمان (حسيل) أبو عبد الله، صحابي جليل من السابقين، وكاتم سر رسول الله ﷺ في المنافقين، وروى عن النبي ﷺ أحاديث. مات سنة ٣٦هـ. ينظر: الخلاصة (١/٢٠١)، سير أعلام النبلاء (٢/٣٦١) رقم (٧٦).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٢/٥١٣)، تفسير البغوي (١/٣١٥)، زاد المسير لابن الجوزي (١/٤٠٤)، واللباب في علوم الكتاب (٥/٣١١)، وقيل: أي لا يعلمون بصحة الإسلام، وواجب عليهم أن يعلموا؛ لأن البراهين ظاهرة والحجج باهرة. ينظر: تفسير القرطبي (٤/٧١).

(٥) الردلة: الدون من الناس، وقيل: الدون في منظره وحالاته، وقيل: هو الدون الخسيس، وقيل: هو الردء من كل شيء. ينظر: لسان العرب (٣/١٦٣٢) (ردل).

(٦) خامل الذكر: أي: لا يعرف ولا يذكر ويصير مجهولًا. كما هو واضح من كلام المصنف. ينظر: لسان العرب: (٣/١٦٢٨) (خمل).

وقيل: الإضلال: الإهلاك.

وقيل: الإضلال: هو التحير، وكل ضال طريقاً فهو متحير تائه، ﴿وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: ما يهلكون إلا أنفسهم وما يُخْمِلُونَ إِلَّا ذَكَرَ أَنْفُسَهُمْ. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

أي: وما يشعرون أنهم يهلكون أنفسهم، أو يحIRON، وما يشعرون ماذا عليهم فيما ودّوا من أليم العقاب^(١)، والله أعلم.

ويقال: نزلت في عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه.
وقوله: ﴿يَتَأَهَّلَ أَلْكُتَبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِرَبِّكُمُ اللَّهُ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.
قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: يحتمل وجوهاً:

يحتمل: وأنتم تشهدون تلك الآيات، وتعاينونها، وتعلمون أنها آيات، لكن تكابرون وتعاندون، ولا تؤمنون بها.

ويحتمل: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، أي: وأنتم تعلمون ما في التوراة والإنجيل: من بعث محمد ﷺ وصفته - أنه رسول الله ﷺ أفضل [المخلوقات]^(٢)، وأنه حق، ولكن لا تتبعونه.

وقيل: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، أي: تعلمون أنها آيات؛ والآيات تحتمل: القرآن، وتحتمل: رسول الله محمداً. وتحتمل غيرها من الآيات التي جاء بها.
وقال بعضهم: لم تكفروا بدين الله، وأنتم تعلمون بدلالة الخلق، وشهادة كتبكم أن دين الله وتوحيده حق^(٣)!

وقوله^(٤): ﴿يَتَأَهَّلَ أَلْكُتَبِ لِمَ تَلْسُونَهُ أَلْحَقَ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:
في الآية دلالة جواز هتك الستر، وإفشاء المكنون والمكتوم من الأمر؛ إذا^(٥) كان في ذلك تحذير لغيرهم عن مثله، وترغيب لهم في المحمود من الفعل.

ثم فيه دلالة إثبات رسالة رسول الله ﷺ؛ لأنه يخبرهم عما كانوا يكتُمون ويُسِرُّون فيما بينهم، وذلك من إطلاع الله إياه على ذلك. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: ذلك؛ ألا ترى أنهم لم يتعرضوا له بشيء من ذلك، فيقولوا: متى كتمنا الحق، ومتى لبسنا الحق بالباطل؟! فدل

(١) ينظر: تفسير الرازي (٨/٨٠)، واللباب في علوم الكتاب (٥/٣١١).

(٢) سقط من ب.

(٣) ينظر: تفسير الرازي (٨/٨١)، واللباب (٥/٣١٢).

(٤) في ب: قوله.

(٥) في ب: إذ.

أنهم علموا أنه حق، وأنه رسول الله، وأن ذلك إنما علم بإله - عز وجل - وذلك قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ثم علم ذلك يكون بأن كان ذلك في كتابهم، أو علموا بالآيات المعجزة.

ويحتمل قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ - ما جزاء من لبس الحق بالباطل وكتمه، والله أعلم. ويحتمل: وأنتم تعلمون أنكم تلبسون الحق بالباطل^(١).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَآكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّا الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وقوله: ﴿وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَآكْفُرُوا ءَاخِرَهُ﴾

قيل فيه بوجوه، قيل: قوله: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَآكْفُرُوا ءَاخِرَهُ﴾، يعنى: بأول أمر محمد ﷺ لا النهار نفسه، وذلك ما روي في القصة أن بعضهم كان يقول لبعض: إن محمداً كان على قبلتنا وقبلته بيت المقدس، ويصلي إليها، فأمنوا أنتم به، ﴿وَآكْفُرُوا ءَاخِرَهُ﴾، يعنى: آخر أمره، يعنون قبله: البيت الحرام الكعبة، أي: اكفروا بقبلته التي يصلي إليها الآن، وهي^(٢) الكعبة^(٣).

وقيل: إن بعضهم يقول لبعض: آمنوا بمحمد في أول أمره؛ حتى يؤمن به جميع العرب، ثم اكفروا به في آخر أمره؛ فيقولون لنا: لم كفرتم به ورجعتم عن دينه؟ فنقول لهم: إنا وجدنا في التوراة نعت نبي وصفته، فحسبنا أنه هذا؛ فأمنوا به، ثم نظرنا فإذا ذلك لم يكن نعت ولا صفته؛ فرجعنا عن دينه وكفرنا به؛ حتى يرجعوا جميعاً عن دينه؛ فذلك قوله: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَآكْفُرُوا ءَاخِرَهُ﴾^(٤).

وقيل - أيضاً - إن رءوس اليهود قالوا للسفلة: صدقوا بالقرآن وبمحمد ﷺ وجه النهار، يعنى: أول النهار، يعنى: صلاة الغداة، فإذا كان صلاة العصر اكفروا به، فقولوا لهم: إن قبله بيت المقدس كانت حقاً؛ فماذا بعد الحق إلا الضلال؟! ليرجعوا عن

(١) ينظر: تفسير الرازي (٨٢/٨)، واللباب (٣١٣/٥).

(٢) في ب: وهو.

(٣) ذكره الرازي (٨٤/٨) عن ابن عباس، وينظر تفسير اللباب (٣١٨/٥).

(٤) ذكره ابن عادل في «اللباب في علوم الكتاب» (٣١٨/٥) عن الحسن والسدي، وأخرجه الطبري (٧٢٣٣) عن السدي بنحوه.

(١) دينهم.

فلا ندرى كيف كانت القصة؟ ولكن فيه دلالة رسالة محمد ﷺ؛ لما ذكرنا أنه كان يخبرهم بما يضمرون في أنفسهم ويسرون، فذلك من إطلاع الله إياه.

ويحتمل قوله: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ﴾، أي: أظهروا لهم الإسلام والموافقة، ولا تؤمنوا به [في] (٢) الحقيقة (٣)؛ يدل على ذلك قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ وَبَيْنَكُمْ﴾ في الحقيقة، أي: آمنوا به ظاهراً، وأما في الحقيقة فلا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم.

وقال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكَتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية - : يحتمل وجهين:

أحدهما: حقيقة النهار، ثم يتوجه وجهين:

أحدهما: أمر القبلية خاصة، فيريدون بذلك المحاجة بالموافقة في أحد الوقتين عليهم فيما خالفوا في ذلك، وإن علموا أن ذلك حق؛ ليشبهوا على الضعفة أنه لا تزال تثقل من دين إلى دين، ومذهب إلى مذهب، وأن من لزم الدين الأول والمذهب الأول أحق للموافقة فيه مرة، ولما لا يؤمن البقاء على الثاني، وهو كقوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ النَّبِيُّ كَاوُوا عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٢]؛ وعلى ذلك أنكروا جواز نسخ الشرائع سفهاً منهم (٤)؛ إذ ليس معنى التناسخ إلا اختلاف العبادات، لا اختلاف الأوقات، وذلك المعنى قائم، وما التناسخ إلا ما عليه تناسخ الأحوال في كل، على أن العبادات فيها المصلحة، ومن تعبد لهم عالم بالذي به الأصلح في كل وقت، فله ذلك.

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب (٣١٨/٥).

(٢) سقط من ب.

(٣) هو قول الحسن والسدي وأبي مسلم الأصبهاني وينظر: اللباب في علوم الكتاب (٣١٨/٥).

(٤) قال سيف الدين الآمدي: منع أبو مسلم وقوع النسخ شرعاً، وجوزه عقلاً، ولم ينكر وقوعه من الملل إلا اليهود، وانقسموا ثلاث فرق:

قال الشمعونية: يمتنع عقلاً، وسمعاً.

وقال العنانية: يمتنع سمعاً، لا عقلاً.

وقالت العيسوية: يجوز عقلاً ووقع سمعاً، واعترفوا بنبوته محمد ﷺ إلى العرب خاصة.

قال الإمام الجويني في البرهان: وافقت غلاة الروافض اليهود في إنكار النسخ.

قال الآمدي: وأول من وضع لليهود أن موسى - عليه السلام - نص على تأييد شريعته ابن

الراوندي.

ينظر: الإحكام للآمدي (٩٥/٣)، والمستصفي للغزالي (١٠٧/١ - ١٠٩)، والمنحول له

(٢٨٨)، والبرهان لإمام الحرمين (١٢٩٣/٢)، والإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٤٦٣/٤).

والثاني: أن يكون الذي أوّل النهار لعله أنزل بما فيه وصف رسلهم وكتبهم من الهدى والبيان، أو وصف أوائلهم في رعاية الحق، وتعاهد الدين؛ فأمروا بالإيمان بذلك؛ ليروا قومهم أن قد ثبت وصف من تقدم بما ذكر، وأنهم على ذلك، ومنه جاء فيما أخبر من تبديل من بدل من أوائلهم وتحريفهم، إلا إن كانوا كذلك؛ ليلزمهم التقليد في الأمرين، والله أعلم.

وحقه أنه إذا عرف حال الأوائل لا يهم؛ فعلى ذلك أمر الآخر ومن به كانت المعرفة ألزمهم التصديق في الأمرين جميعاً، ومع ما أن في القرآن وصفاً بتصديق كتبهم، فحقهم فيما هووا مقابلة كتب أنبيائهم؛ لتكون هي القاضية والمثبتة للحق أنه على ما ادعوا أو ادّعى عليهم. وقد ظهر تعنتهم بمظاهرتهم للمنكرين لكتبهم، المكذبين برسلهم على رسول الله ﷺ بعد تصديقه إياهم وشهادة كتابه بذلك؛ ليعلم المتأمل عنادهم بغياً وحسداً، كما أخبر الله - تعالى - عنهم.

والوجه الآخر من تأويل الآية: أن يراد بما أخبر عنهم أول أمره وآخره، لا حقيقة بياض النهار.

ثم ذلك يخرج على وجهين:

أحدهما: أن يكون دُعاه في أول الأمر إلى التوحيد، والإيمان بالكتب المتقدمة، وهم يدعون إلى ذلك؛ وعلى ذلك كانوا قبل ظهور رسول الله ﷺ، وآخر ذلك بما تبين من تحريفهم وتعنتهم، لما أخذهم البغى وغلبهم الحسد، وخافوا على رياستهم، وأشفقوا على ملكهم، وجزاء الشح، وإظهار كثير مما قد كتم أوائلهم؛ فكذبوه في هذا، والله أعلم.

ويحتمل أن يكون ذلك من أئمتهم اصطلاح على الإيمان بذلك؛ حتى يعلم محلهم وحرصهم على قبول الحق، ثم يكفرون به؛ ليكون الأوّل ذريعة لهم في الثاني؛ أنهم إذ ظنوا أنه على الحق أدعوا له؛ فلما تبين لهم باطله رجعوا عن ذلك، فأطلع الله نبيه - عليه السلام - على ما أسروا؛ ليصير ما ظنوا أنه حجة لهم حجة عليهم، وجملة ذلك: أنا لا ندري ما السبب الذي كان منهم القول وفيما كان، ولكنه قد بان أن ذلك كان منهم إسرازا أطلع الله نبيه ﷺ [عليه]؛ ليكون حجة له، وزجراً لهم عن كل أنواع التبديل في شأن رسوله - عليه أفضل الصلوات - بما يهتك عليهم؛ فيفتضحون^(١) عند من راموا ستر

(١) في ب: فيفضحون.

أمرهم، وتسقط رياستهم، والله الموفق.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾:

اختلف فيه، قيل: هو على التقديم والتأخير؛ قوله: ﴿أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ - كان على أثر قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: يقول بعضهم لبعض: ما أنزل الله كتاباً مثل كتابكم، ولا بعث نبياً مثل نبيكم؛ قالوا ذلك حسداً منهم^(١).

وقيل: إن هذا قول رسول الله ﷺ للمسلمين: لما نزل قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ - قال لهم: ﴿أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾، يقول: دين الله الإسلام هو الدين ﴿أَنْ يُؤْتَىٰ﴾، يقول: لن يؤتى أحد مثل ما أوتيت من دين الإسلام، والكتاب الذي فيه الحلال والحرام، والله أعلم.

ويحتمل أن يكون قال: لن يؤتى أحد من الأنبياء قبلي من الآيات مثل ما أوتيت أنا؛ لأن آياتهم كانت كلها حشوية يفهمها كل أحد، وآيات رسول الله كانت حشوية وعقلية لا يفهمها إلا الخواص من الناس وخيرتهم^(٢).

وقوله: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾:

راجع إلى قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ف﴿يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أنهم قد آمنوا به مرة وأقروا له؛ وهو كقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُفُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٧٦]: أنهم كانوا يظهرون لهم الإسلام والإيمان، ثم إذا خلوا قالوا: ﴿إِنَّمَا تَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]؛ فقال بعضهم لبعض: لا تظهروا لهم الإسلام؛ فيحاجوكم عند ربكم في الآخرة!.

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ أَرَادَ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. يَخْصُ رَحْمَتَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾

هذه الآية^(٣) على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن الفضل ليس بيد الله؛ وكذلك الاختصاص؛ إنما ذلك بيد الخلق؛ لأن من قولهم: إنه ليس على الله أن يفعل بالخلق إلا ما هو أصلح لهم في الدين^(٤)، ليس له أن يؤتى أحداً فضلاً، ولا له أن يختص أحداً برسالة، إلا من هو مستحق لذلك مستوجب له؛ فذلك الفضل والاختصاص إنما استوجبا بأنفسهم لا بالله، على قولهم، ففي الحقيقة الفضل عندهم كان بيدهم لا بيد الله، فأكذبهم

(١) ينظر: تفسير الرازي (٨/ ٨٥ - ٨٧)، واللباب في علوم الكتاب (٥/ ٣٢١ - ٣٢٤).

(٢) ينظر: المصدر السابق.

(٣) في ب: الآيات.

(٤) تقدم ذكر هذه المسألة وبيان بطلان مذاهبهم في ذلك.

الله بذلك؛ إذ الفضل عند الخلق هو فعل ما ليس عليه لا ما عليه؛ فنعوذ بالله من السرف في القول، والزيف عن الرشد.

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: - يحتمل أن يكون في السر، وإن أعطيتهم لهم الظاهر.

ويحتمل: أن يكون بعد ما أظهرتم اكفروا آخره.

ويحتمل: لا تؤمنوا بما جاء به، إلا لأجل من تبع دينكم؛ فيكون عندهم قدوة، يتقرر عندهم - بالذي فعلتم - أنكم أهل الحق؛ فيتبعكم كيفما تصيرون إليه.

ويحتمل: ﴿لَا تُؤْمِنُوا﴾: لا تصدقوا فيما يخبركم عن أوائلكم، ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ على المنع عن تصديق الرسول فيما^(١) يخبرهم من التحريف والتبديل، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾: يحتمل وجهين:

أحدهما: البيان هو ما بين الله؛ إذ هو الحق، وكل ما فيه الصرف عنه فهو تلبس وتمويه.

ويحتمل: أن يكون الدين هو الذي دعا إليه بما أوضحه وأثار برهانه، لا الدين الذي دعا إليه أولئك المنحرفون^(٢).

﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾، أي: لن يؤتى - والله أعلم - من الكتاب والحجج. ويحتمل أن يكون صلة قوله: ﴿إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾، وهو دينه، أو ما دعا إليه، ثم يقول: ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ بمعنى: لن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أهل الإسلام من الحجج والبيانات، التي توضح أن الحق في أيديكم.

وقوله: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾: فإن كان هو صلة الأول، ف«أو» بمعنى: «ليحاجوكم»، أو: «حتى يحاجوكم» إذا أمتتم بما دعوا إليه؛ فيحاجوكم بذلك عند ربكم، أي: إنما أمتتم بالذي جاء لكم من عند ربكم؛ فيصير ذلك لهم حجة عليكم.

وإن كان صلة الثاني، فهو على أنهم لا يؤتون مثل ما أوتيتم من الحجج؛ ليحاجوكم بها عند ربكم في أن الذي هو عليه حق؛ لما قد ظهر تعنتهم وتحريفهم - والله أعلم - ثم بين السبب الذي هو نيل كل خير وفضل، والله أعلم^(٣).

(١) في ب: بما.

(٢) وهو بمعنى قول ابن عباس: الدين دين الله، ذكره الرازي في تفسيره (٨/٨٥)، وينظر الباب في علوم الكتاب (٥/٣٢١).

(٣) قال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يكون قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ معترضا به، وسائر الكلام متسق على سياق واحد، فيكون تأويله حيثئذ: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ولا =

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ أَلْفُضَلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: ينقض على المعتزلة قولهم بوجهين:

أحدهما: أنهم لا يرون لله أن يختص أحداً - بشيء فيه صلاح - غيره صرفه عن ذلك الغير، بل إن فعل ذلك كان محايياً عندهم بخيلاً، بل في الابتداء لم يكن له ذلك؛ وإنما يعطى بالاستحقاق، وذلك حق يلزمه، وقد ذكر بحرف الامتنان.

وعندهم - أيضاً - ليس له ألا يشاء أو لا يعطى؛ فلا معنى لذكره الذي ذكر مع ما صار ذلك، بيد غيره إذ يلزم ذلك، والله أعلم.

والثاني: أن الذي يحق عليه - أن يبذل كلا الأصلح في الدين، وأنه إن قَصَرَ أحداً عن ذلك كان جائزاً، ثم الأفضل للعبد شيء مما أعطى حتى يعطيه فيما أمره؛ فيكون الفضل في الحقيقة في يد العبد: يؤتى نفسه إن شاء ويمنع إن شاء، والله الموفق.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُوا بِقِنطَارٍ يُؤْذِيَكُمْ إِلَيْكَ وَيَنْهَكُمْ عَنْ تَأْمَنِهِ بِدِينَارٍ لَا يُؤْذِيكُمْ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

وقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُوا بِقِنطَارٍ يُؤْذِيكُمْ إِلَيْكَ﴾:

والقنطار ما تقدم ذكره، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُوا بِدِينَارٍ لَا يُؤْذِيكُمْ إِلَيْكَ﴾:

وصف - جلّ وعز - أهل الكتاب بعضهم بأداء الأمانة، وبعضهم بالخيانة، وليس المراد من الآية - والله أعلم - القنطار نفسه أو الدينار، ولكن وصفهم بأن فيهم أمانة وخيانة، قلت الخيانة أو عظمت، وكذلك الأمانة؛ ألا ترى أنه يستحق الذم بدون القنطار والدينار إذا خان، وكذلك يستحق الحمد إذا أدى بدون ذلك؟! دلّ أنه لم يرد به التقدير، ولكن على التمثيل، وهو كقوله - عز وجل -: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا

= تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. بمعنى: لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، ﴿أَوْ يَسْجُودَ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ بمعنى: أو أن يحاجوكم عند ربكم... أحد بإيمانكم؛ لأنكم أكرم على الله بما فضلكم به عليهم؛ فيكون الكلام كله خبراً عن قول الطائفة التي قال الله - عز وجل -: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجِئَتْهُمْ رَبَّتُ الْيَهُودِ﴾ سوى قوله ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَيْتُ هَذَى اللَّهِ﴾ لم يكون الكلام مبتدأ بتكذيبهم في قولهم. ﴿قُلْ﴾ يا محمد للقائلين ما قالوا من الطائفة التي وصفت لك قولها لتابعها من اليهود: ﴿إِنْ أَلْهَيْتُ هَذَى اللَّهِ﴾، إن التوفيق توفيق الله، والبيان بيانه، إن الفضل بيده يؤتية من يشاء لا ما تمنيتموه أنتم يا معشر اليهود.

وإنما اخترنا ذلك من سائر الأقوال التي ذكرناها؛ لأنه أصحها معنى وأحسنها استقامة على معنى كلام العرب، وأشدّها اتساقاً على نظم الكلام وسياقه، وما عدا ذلك من القول فانتزاع من الصحة على استكراه شديد للكلام. ينظر: جامع البيان (٦/٥١٥-٥١٦).

بِسْرٍ ﴿الزلزلة: ٧﴾ ليس على إرادة الذرة؛ ولكن على التمثيل أن لعمل الخير والشر جزاء وإن قل؛ فكذلك الأول.

وفيه دلالة جواز العمل بالاجتهاد^(١)، ولما ذكرنا أنه لم يرد القدر الذي ذكره؛ ولكن لمعنى فيه: بالاجتهاد يعرف لا بالنصوص، وعن الشافعي - رضي الله عنه - : أن الدينار عنده مستكثر يحلف [عليه]^(٢) مدعيه عند المنبر^(٣)، والله - تعالى - جعله مستقلاً. وفيه دلالة - أيضاً - جواز شهادة^(٤) بعضهم لبعض وعلى بعض، إن كانت فيهم

(١) الاجتهاد في اللغة: مصدر مأخوذ من الجهد - بضم الجيم - : الوسع والطاقة، تقول: اجهد جهدك، أي: ابذل وسعك وطاقتك. وقيل: الجهد - بفتح الجيم - : المشقة، وقال الليث: الجهد - بفتح الجيم - : ما جهد الإنسان من مرض، أو أمر شاق، فهو مجهود، والجهد لغة بهذا المعنى، وفي حديث أم معبد: شاة خلفها الجهد - بفتح الجيم - عن الغنم. قال ابن الأثير: وهو بالفتح: المشقة، وقيل: المبالغة والغاية، ومنه قوله - تعالى - : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأعام: ١٠٩]، وبالضم: الوسع والطاقة. وقيل: هما لغتان في الوسع والطاقة، فأما في المشقة فالفتح لا غير.

وفي الاصطلاح: عرفه الأمدى بأنه: «استفراغ الوسع في طلب الظن بشيء من الأحكام الشرعية على وجه يحسن من النفس العجز عن المزيد فيه». وعرفه الغزالي بأنه: «بذل المجتهد وسعه في طلب العلم بأحكام الشرع بحيث يحسن من نفسه بالعجز عن مزيد طلب».

وعرفه الكمال بن الهمام بأنه: «بذل الطاقة من الفقيه في تحصيل حكم شرعي ظني». وعرفه ابن الحاجب بأنه: «استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم شرعي». وعرفه الشيخ زكريا الأنصاري بأنه: «استفراغ الفقيه الوسع بأن يبذل تمام طاقته في نظره في الأدلة لتحصيل الظن بالحكم».

ينظر: لسان العرب (٧٠٩/١) (جهد)، وترتيب القاموس (٥٤٥/١) (جهد)، والإحكام للأمدى (٢١٨/٤)، والمستصفى (٣٥٠/٢)، والتقريب والتحرير (٢٩١/٣)، ومختصر ابن الحاجب مع شرح العضد (٢٨٦/٢)، وغاية الوصول شرح لب الأصول للشيخ زكريا (١٤٧).

(٢) سقط من ب.

(٣) مذهب الإمام الشافعي في هذا: «وإذا كان الحق عشرين ديناراً أو قيمتها، أو دماً أو جراحة عملياً فيها قوداً ما كانت، أو حداً أو طلاقاً، حلف الحالف بمكة بين البيت والمقام فإن كان بالمدينة فعلى منبر رسول الله ﷺ وإن كان في بيت المقدس، ففي مسجدها، أو ببلد ففي مسجد، وأحب لو حلف بعد العصر...» راجع: الأم (٢٠٠/١٣).

وقال الإمام مالك بن أنس في المدونة (٥/٤): «وعندنا بالمدينة لا يستحلف عند المنبر إلا في ربع دينار فصاعداً» كتاب الأقضية باب موضع اليمين.

(٤) الشهادات: جمع شهادة، وتجمع باعتبار أنواعها وإن كانت في الأصل مصدرًا. ولها في اللغة عدة معانٍ.

منها: الإخبار بالشيء خبراً قاطعاً. تقول: شهد فلان على كذا، أي: أخبر خبراً قاطعاً. ومنها: الحضور، تقول: شهد المجلس، أي: حضره، قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهَرُ فَلْيُصْنِئْ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ومنها: الاطلاع على الشيء ومعاينته، تقول: شهدت كذا، أي: اطلعت عليه، وعايينته.

نزلت، على ما قاله بعض أهل التأويل؛ لأنه وصف - عز وجل - بعضهم بالأمانة في المال، وإن كانت الأمانة لهم في الدين والشهادة أمانة، والله أعلم.

ويحتمل: أن تكون الآية فيمن أسلم منهم وصف بالأمانة، ومن لم يسلم وصفهم بالخيانة؛ على ما ذكر - عز وجل - مثله في آية أخرى: ﴿وَمِنْ قَوَرٍ مُّوسَىٰ أُمَّتُهُ يَهْدُوكَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]: وصف - عز وجل - من آمن منهم بالعدالة والهدى، ووصف الكفار بالخيانة في غير آي من القرآن^(١).

ويحتمل أن تكون الآية فيما اتَّخَمُوا، أو فيما جرى بينهم وبين المسلمين من المداينة من غير رهن^(٢) ولا كفالة^(٣)؛ وهو كقوله: ﴿فَإِنْ آمَنَ بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا فَلَئِنَّ الَّذِي أَوْثَقَ أَمْتَكُمْ﴾

ومنها: إدراك الشيء: تقول: شهدت الجمعة، أي: أدركتها.

ومنها: الحلف، تقول: أشهد بالله لقد كان كذا، أي: أحلف.

ومنها: العلم، قال تعالى: ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ [المجادلة: ٦]: أي: عليم، والفعل من باب علم، وقد تسكن هاءه، فتقول: شهد فلان شهادة، وجمع الشاهد: شهد، وشهود، وأشهاد، والمشاهدة: المعاينة.

وفي الاصطلاح:

عرفها الحنفية بأنها: إخبار بحق للغير على آخر.

وعرفها المالكية بأنها: إخبار حاكم عن علم ليقضي بمقتضاه.

وعرفها الشافعية بأنها: إخبار صادق بلفظ الشهادة لإثبات حق لغيره على غيره، في مجلس القضاء ولو بلا دعوى.

وعرفها الحنابلة بأنها: الإخبار بما علمه بلفظ خاص.

ينظر: لسان العرب (٢٣٤٨/٤) (شهد)، النظم المستعذب (٣٦٢/٢)، والفتاوى الهندية (٣/٤٥٠)، وحاشية الدسوقي (١٦٤/٤)، ومغني المحتاج (٤٢٦/٤)، ونهاية المحتاج (٢٧٧/٨)، والإقناع (٤٩٣/٤).

(١) قال القرطبي: ليس في هذه الآية تعديل لأهل الكتاب ولا لبعضهم، خلافاً لمن ذهب إلى ذلك؛ لأن فساق المسلمين يوجد فيهم من يؤدي الأمانة ويؤمن على المال الكثير، ولا يكونون بذلك عدولا. فطريق العدالة والشهادة ليس يجزئ فيه أداء الأمانة في المال من جهة المعاملة والوديعة؛ ألا ترى قولهم: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ [آل عمران: ٧٥]؛ فكيف يعدل من يعتقد استباحة أموالنا وحرماننا بغير حرج عليه؟! ولو كان ذلك كافياً في تعديلهم لسمعت شهادتهم على المسلمين. ينظر: تفسير القرطبي (٧٦/٤).

(٢) الرهن - لغة - : يطلق على العين المرهونة. قال ابن سيده: الرهن ما وضع عند الإنسان مما ينوب مناب ما أخذ منه، يقال: رهنه فلاناً رهناً، وارهنه: إذا أخذه رهناً.

واصطلاحاً: عرفه الحنفية بأنه: جعل الشيء محبوساً بحق يمكن استيفاءه من الرهن كالديون. وعرفه المالكية بأنه: مال قبضه موثقاً به في دين.

وعرفه الشافعية بأنه: جعل عين مال متموله وثيقة بدين ليستوفي منها عند تعذر وفائه. وعرفه الحنابلة بأنه: المال الذي يجعل وثيقة بالدين ليستوفي من ثمنه إن تعذر استيفاءه من ذمة الغريم.

ينظر: المحكم لابن سيده (رهن)، والصحاح (٢١٢٨/٥) (رهن)، ولسان العرب (١٧٥٧/٣) =

[البقرة: ٢٨٣]: أمرهم بأداء الأمانة فيما ائتمنوا.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾:

قيل: ملازمًا، مواظبًا^(١)، ملصًا، دائمًا، متقاضيًا. ومن عامل من المسلمين الناس هذه المعاملة يُخافُ دخوله في هذا النهي والوعيد^(٢).

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ سَبِيلٌ﴾

قالوا ذلك؛ لأنهم كانوا يستحلون أموال المسلمين ظلمًا، يقولون: لم يُجعل علينا في كتابنا لأموالهم حرمة أموالنا علينا؛ يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، وأرادوا بالأميين: العرب؛ إذ ليس لهم كتاب.

وقيل: ذلك الاستحلال بأن قالوا: ليس علينا الله فيهم سبيل، وأرادوا بالأميين: المسلمين؛ على ما روي عن رسول الله ﷺ قال: «نَحْنُ أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ؛ لَا نَحْسُبُ وَلَا نَكْتُبُ»^(٣).

وقيل: قالوا: لا حرج علينا في حبس أموالهم في التوراة؛ فأكذبهم الله - عز وجل - بقوله:

= (رهن)، والمصباح المنير (١/ ٣٣٠) (رهن)، فتح القدير (١٠/ ١٣٥)، ومجمع الأنهر (٢/ ٥٨٤)، وحاشية الدسوقي (٣/ ٢٣١)، وأسهل المدارك (٢/ ٢٦٦)، ومغني المحتاج (٢/ ١٢١)، والمغني لابن قدامة (٤/ ٣٦١).

(٣) الكفالة لغة: الضم، قال - تعالى - : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧]، أي: ضمها إلى نفسه. واصطلاحًا: ضم ذمة إلى ذمة في حق المطالبة، ويقال للمرأة: كفيل أيضًا. ينظر: الصحاح (٤/ ١٨١١) (كفل)، وطلبة الطلبة لنجم الدين النسفي ص (١٣٩)، والمغرب (٢/ ٢٢٧)، والمطلع للبعلي الحنبلي ص (٢٤٨).

(١) قاله مجاهد أخرجه الطبري (٧٢٦٣، ٧٢٦٤)، وابن أبي حاتم (٢/ ٣٤٧) (٨٠٤)، وعبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور (٢/ ٧٧).

(٢) في ب: الوعد، وقال القرطبي: استدل أبو حنيفة على مذهبه في ملازمة الغريم بقوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ وأباه سائر العلماء. وقد استدل بعض البغداديين من علمائنا على حبس المديان بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنَّ تَأْمَنَهُ...﴾ [آل عمران: ٧٥] الآية، فإذا كان له ملازمته ومنعه من التصرف جاز حبسه.

ينظر: تفسير القرطبي (٤/ ٧٥) ..

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣، ٥٢، ١٢٩)، والبخاري (٤/ ٦٢٣): كتاب الصوم: باب قول النبي ﷺ: «لا نكتب ولا نحسب» (١٩١٣)، ومسلم (٢/ ٧٦١): كتاب الصيام باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، وأبو داود (١/ ٧٠٩)، كتاب الصيام: باب الشهر يكون تسعًا وعشرين، (٢٣١٩)، والنسائي (٤/ ١٣٩): كتاب الصيام: باب ذكر الاختلاف على يحيى بن أبي كثير في خبر أبي سلمة فيه، من حديث ابن عمر مرفوعًا «إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا»، وعقد الإبهام في الثالثة. والشهر هكذا وهكذا يعني تمام الثلاثين.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾.

بأن ليس في كتابهم حرمة أموالهم، ولا لهم عليهم سبيل، وهم يعلمون أنهم يكذبون على الله، عز وجل^(١).

وقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ﴾:

يحتمل قوله: «بلى»؛ ردًا على قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّتِنَ سَبِيلٌ﴾؛ بل عليكم سبيل فيهم، ثم ابتداء الكلام فقال: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَأَتَقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، أي: هؤلاء الذين يحبهم الله لا أنتم.

ويحتمل قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ﴾: الذي عليه في التوراة أمر بأداء الأمانة، وإظهار نعته ﷺ وصفته التي فيها، واتقاء محارمه وظلم الناس في ترك الوفاء، وفي نقض العهد، وصدق الله ورسوله، ولم يكتم نعته وصفته - فإن الله يحبهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُوفُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٨﴾ مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّصُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمًا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٧٩﴾ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّصُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمًا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٨٠﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ مَرْبَابًا أَيْ أَمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ٨١﴾

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾:

قيل: عهد الله: أمره ونهيهِ.

يحتمل هذا العهد فيما عهدوا في التوراة ألا يكتموا نعته وصفته؛ ولكن يظهرون ذلك للناس ويقولون به.

﴿وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

أيمانهم التي حلفوا كذبًا أن ليس نعته وصفته فيه؛ مخافة ذهاب منافعهم.

ويحتمل: أن حلفوا كذبًا، فأخذوا أموال الناس بالباطل والظلم؛ وعلى ذلك روي عن

(١) قاله بنحوه ابن جريج أخرجه عنه الطبري (٧٢٧٢)، وابن أبي حاتم (٣٥٠/٢) (٨١٥)، وابن المنذر كما في الدر المنثور (٧٨/٢).

وقال بنحوه أيضًا السدي: أخرجه عنه الطبري (٧٢٦٨)، وقاله كذلك قتادة أخرجه عنه الطبري (٧٢٦٦)، وعبد بن حميد كما في الدر المنثور (٧٧/٢).

رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ؛ لِيَقْطَعَ بِهَا مَالَ امْرَأَةٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ - تعالى - وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ»^(١) وتلا هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْعُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ تَمَنَّا قَلِيلًا...﴾ الآية.

والعهد والأيمان سواء^(٢)؛ ألا ترى [إلى قوله - عز وجل-: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ...﴾ [النحل: ٩١] الآية.

ويحتمل عهد الله: ما قبلوا عن الله^(٣)، وما ألزمهم الله، والأيمان: ما حلفوا، والله أعلم.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾:

أي: لا نصيب لهم في الآخرة مما ذكروا أن لهم عند الله من الخيرات والحسنات؛ كقوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾:

يحتمل وجهين:

يحتمل: أنه أراد بذلك كلام الملائكة الذين يأتون المؤمنين بالتحية والسلام من ربهم؛ كقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَمِّي الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقوله: ﴿لَا تَكَلِّمُهُمُ﴾ الملائكة؛ على ما تكلم المؤمنين، أضاف ذلك إلى نفسه، على ما ذكرنا فيما تقدم من إضافة النصر إليه على إرادة أوليائه؛ فكذاك هذا، أو أن يكون الله - عز وجل - كان قد كلمهم بتكليم الملائكة إياهم؛ لأنهم رسله؛ فكان كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١]: صيره يبعث الرسل كأن قد كلمهم هو؛ فكذاك الأول.

ويحتمل: أن يكون الله - عز وجل - يكرم المؤمنين في الجنة بكلامه على ما كلم موسى في الدنيا؛ فلا يكلمهم كما يكلم المؤمنين.

(١) أخرجه البخاري في (٣٠٦/٥)، كتاب المساقاة، باب: الخصومة في البئر والقضاء فيها برقم (٢٣٥٦، ٢٣٥٧)، ومسلم في صحيحه (١٢٣/١) في كتاب الإيمان: باب وعيد من اقتطع حق مسلم يمين فاجرة بالنار برقم (٢٢٢)، وأحمد في مسنده (٣٧٧/١، ٤١٦، ٤٤٢)، والترمذي في سننه (١١٢/٥) رقم (٣٠١٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (١٥/٤)، وعبد الرزاق في مصنفه الأحكام، باب من حلف على يمين فاجرة ليقطع بها مالا، رقم (٢٣٢٣)، وعبد الرزاق في مصنفه برقم (٩٥٥٥)، والحميدي في مسنده (١٢١)، والطبراني في الكبير (٩٠٢٥).

(٢) في ب: يكون سواء.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ب.

ويحتمل: لا يكلمهم بالرحمة سوى أن يقول لهم: ﴿أَخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٨]؛ وكقوله^(١): ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾:

نظر رحمة، كما ينظر إلى المؤمنين بالرحمة.

وقوله: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾:

أي: لا يجعل لخيراتهم ثواباً.

ويحتمل: أن يكون هذا في قوم علم الله منهم أنهم لا يؤمنون أبداً؛ فقال: لا يزكيهم، أي: لا تزكو أعمالهم.

وقوله: ﴿وَلِإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوَنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾:

أي: كانوا يحرفون ألسنتهم بالكتاب على التعظيم والتبجيل:

﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾

أي: كانوا يحرفون نعته - عليه أفضل الصلوات - وصفته، ثم يتلونه على التعظيم والتبجيل؛ ليحسبوه من الكتاب المنزل من السماء، وما هو من الكتاب الذي أنزل من السماء.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهو كقوله - عز وجل -: ﴿قَوْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ تَمَتًّا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩].
﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

أنهم يكذبون على الله، وأن ذلك ليس هو من عند الله.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّصُوَّةَ﴾:

أي: ما كان لبشر اختاره الله للذي قال؛ وتبين أنهم إنما أضافوا دينهم الذي فيه عبادة غير الله إلى أنبيائهم كذباً، وأن الله يجعل رسالته عند من يعصمه عن مثله بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، لا يجعلها حيث يخان ويكتم، والله الموفق. وهذه الآية تنفض على الباطنية^(٢) قولهم؛ لأنهم يقولون: إن الله لا يؤتى النفس

(١) في ب: وقوله - عز وجل.

(٢) الباطنية: فرقة خارجة عن فرق الأهواء، وداخلة في فرق الكفر الصريح؛ لأنها لم تتمسك بشيء من أحكام الإسلام لا في أصوله ولا في فروعه.

ولقد قالوا في النبوات برفع المعجزات الناقضات للعادات، وأنكروا نزول الملائكة من السماء وغير ذلك. ينظر: أصول الدين لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي ص(٣٢٩) - (٣٣١).

البشرية الكتاب ولا النبوة؛ إنما يؤتى النفس البسيطة، وهي الروحانية، ليأتى تخيل في قلوب الأنبياء، ويؤيدهم حتى يؤلفوا؛ كقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]

فإذا ثبت ذلك في قلوب الرسل ألفوا هم الكتب والصحف، لا يقدر غير الرسل على ذلك، ثم الناس يأخذون ذلك منهم؛ فالآية تكذبهم وترد عليهم قولهم؛ حيث أخبر أنه يؤتى البشر الكتاب والحكم والنبوة بقوله: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ وكذلك قال عيسى - عليه السلام - في المهد: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾. وفي الآية دليل عصمة الرسل والأنبياء - عليهم السلام - عن الكفر بقوله: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وخاصة في عصمة رسولنا - محمد ﷺ - قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ [الأحزاب: ٥٨]: شَرَطَ في المؤمنين اكتساب ما يستوجبون به الأذى، ولم يشترط في النبي ﷺ؛ دل أنه لا يكون منه اكتساب ما يستوجب به الأذى، ويكون من المؤمنين بشرطه فيهم ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا﴾

معناه، أي: ولكن يقول لهم: كونوا ربانيين؛ وكأنه على الابتداء والاستئناف ويقول لهم:

﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّاتِنَ يَمَّا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَيَمَّا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

ثم اختلف في ﴿رَبَّاتِنَ﴾؛ قيل: متعبدین لله بالذي يُعَلِّمُونَ الكتاب، وبالذي يدرسونه.

وقيل: الربانيون^(١): العلماء الحكماء^(٢). وقيل: حكماء علماء. وقيل: علماء فقهاء. وهو واحد^(٣).

(١) قال سيبويه: الرباني: المنسوب إلى الرب بمعنى كونه عالمًا به ومواطئًا على طاعته، ينظر: تفسير الرازي (٩٨/٨).

(٢) قاله ابن مسعود، أخرجه عنه ابن المنذر كما في الدر المنثور (٨٣/٢).

(٣) قاله ابن عباس، أخرجه عنه ابن جرير الطبري (٥٤٢/٦) برقم (٧٣١٣)، وابن أبي حاتم (٣٦٦/٢) (٨٥٩)، وقال الطبري: وأولى الأقوال عندي بالصواب في الربانيين أنهم جمع رباني، وأن الرباني المنسوب إلى «الربان» الذي يربئ الناس، وهو الذي يصلح أمورهم ويربها، ويقوم بها... فالربانيون إذن هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا؛ ولذلك قال مجاهد: «وهم فوق الأحبار»؛ لأن الأحبار هم العلماء، والرباني: الجامع إلى العلم والفقه البصر بالسياسة والتدبير =

ثم فيه دلالة أن الرجل قد يدرس ويعلم آخر بما لا يفقه ولا يعلم، معناه: إلا كل من يدرس شيئاً أو يعلم آخر يكون فقيهاً فيه، ويعرف ما أودع فيه من المعنى. وفيه دلالة جواز الاجتهاد؛ لأنه إنما يوصل إلى ما فيه من المعنى والفقه بالاجتهاد، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾

اختلف فيه؛ قيل: ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة أرباباً؛ لأنهم يقولون: إن الله أمرهم بذلك؛ كقوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

وقيل: إن عيسى وعزيراً ومن ذكر لا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله، وقد عصمهم الله بالنبوة.

وقوله: ﴿أَيُّكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾:

يحتمل وجوهاً:

يحتمل: أيأمركم الله بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون له بالخلقة؛ لما يشهد خلقة كل أحد على وحدانيته؛ كقوله: ﴿وَلَهُ اسْتَلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣].

ويحتمل: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، أي: أسلموا له، وأقروا به مرة، ثم كفروا بعد ما كانوا مخلصين له بالتوحيد.

ويحتمل قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: بعد إذ دعاكم إلى الإسلام فأجاب بعضكم^(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ اسْتَلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

= والقيام بأمور الرعية وما يصلحهم في دنياهم ودينهم. ينظر: جامع البيان (٦/٥٤٣-٥٤٤).
(١) في هذه الآية أعظم باعث لمن علم على أن يعمل، وأن من أعظم العمل بالعلم تعليمه والإخلاص لله، سبحانه. والدراسة: مذاكرة العلم والفقه؛ فدللت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان رباناً؛ فمن اشتغل بها، لا لهذا المقصود، فقد ضاع سعيه وخاب علمه، وكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء مونة بمنظرها ولا منفعة بثمرها؛ ولهذا قال ﷺ: نعوذ بالله من علم لا ينفع وقلب لا يخشع. ينظر: الرازي (٨/٩٩).

ينظر: محاسن التأويل (٤/١٢٠).

والحديث أخرجه مسلم (٧٣-٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم مطولاً، وفيه: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع».

وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ لَمْ ءَاتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ الآية.

قال مجاهد^(١): هذا خطأ من الكاتب، وهي في قراءة ابن مسعود^(٢) - رضي الله عنه - «ميثاق الذين أوتوا الكتاب»؛ على ما ذكر في آية أخرى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] لأن الميثاق لا يؤخذ على النبيين أن يصدقوا، لكنه يجوز هذا.

ثم اختلف فيه، قيل: ميثاق الأول من الأنبياء - ليصدقن بما جاء به الآخر منهم، لو أدرك^(٣).

وقيل: أخذ الله ميثاقاً على النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً، وأن يبلغوا كتاب الله ورسالاته إلى قومهم؛ ففعلوا، ثم أخذوا موثيق قومهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويصدقوه وينصروه^(٤).

وقيل^(٥): أخذ الله على النبيين ميثاقاً على أن يبلغوا الرسالة إلى قومهم، ويدعوا الناس إلى دين الله.

قال الكسائي فيه بوجهين:

أحدهما: يقول: ميثاق الذين منهم النبيون وهم بنو إسرائيل، وكل ميثاق ذكره الله -

(١) هو مجاهد بن جبر مولى السائب بن أبي السائب أبو الحجاج المكي المقرئ الإمام المفسر، روى عن ابن عباس، وقرأ عليه، وعن أبي هريرة، وجابر وعائشة وروى عنه عكرمة وعطاء وقتادة وغيرهم. توفي بمكة سنة ٢٠٢ هـ، وقيل ٢٠٣ هـ. انظر ترجمته في: خلاصة الخزرجي (١٠/٣، ١١)، سير أعلام النبلاء (٤/٤٤٩)، رقم (١٧٥).

(٢) وقرأ بها أنبى كذلك.

وينظر: البحر المحيط (٢/٥٣٢)، الدر المصون (٢/١٥١)، اللباب (٥/٣٥٤)، المحرر الوجيز (١/٤٦٤).

(٣) أخرجه بنحوه عن طاوس، وابن جرير في تفسيره (٦/٥٥٥) برقم (٧٣٢٨)، وأخرجه أيضاً ابن المنذر، عبد بن حميد كما ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/٨٤).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٦/٥٥٥) برقم (٧٣٢٨) من طريق ابن جريج عن ابن طاوس، و (٦/٥٥٨) برقم (٧٣٣٥) من طريق معمر عن ابن طاوس كلاهما عن طاوس، وابن أبي حاتم (٢/٣٧١)، برقم (٨٧٧). وروي بنحوه عن قتادة أخرجه ابن جرير (٦/٥٥٥) برقم (٧٣٣٠)، و (٦/٥٥٨) برقم (٧٣٣٦)، وعن علي بن أبي طالب أخرجه عنه ابن جرير برقم (٦/٥٥٥) (٧٣٢٩)، وعن السدي أخرجه عنه ابن جرير برقم (٦/٥٥٦)، (٧٣٣١)، وابن أبي حاتم (٢/٣٧٣) برقم (٨٨٠) وذكرت هذه الروايات جميعاً في الدر المنثور للحافظ السيوطي (٢/٨٤)، وهو أولى الأقوال بالصواب، قاله الطبري.

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره برقم (٦/٥٥٥) (٧٣٢٦)، وابن أبي حاتم برقم (٢/٣٧٠) (٨٧٦)، وذكره الحافظ السيوطي في الدر المنثور (٢/٨٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

تعالى - في القرآن في أهل الكتاب، فإنما يراد به بنو إسرائيل.
والثاني: ذكره كما ذكرنا من تصديق بعضهم بعضًا، وتبليغ كتب الله إلى قومهم.
وقوله: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾.
أخذ عليهم الميثاق؛ ليأخذوا على قومهم الموائيق أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إذا خرج وينصروه.

وقوله: ﴿قَالَ أَفَرَرْتُمْ﴾:
قال الله - تعالى - للأنبياء: ﴿أَفَرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾، قيل: هو عهدي^(١).
والإصر: قيل: هو العهد^(٢).
﴿قَالُوا أَفَرَرْنَا﴾

بالعهد لنؤمنن به ولننصرنه، وأخذنا على قومنا ليؤمنن به ولينصرنه، وقال الله -
تعالى -: ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾
يقول الله - تعالى -: وأنا على إقراركم بمحمد ﷺ من الشاهدين.
وقيل: قال الله: فاشهدوا أنني قد أخذت عليكم بالعهد، وأنا معكم من الشاهدين أنكم
قد أقررتم بالعهد^(٣).

يقول الله - تعالى -: ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾
العهد والإقرار بنقض العهد، والرجوع عن الإقرار
﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.
وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾:
الدين كأنه يتوجه إلى وجهه يرجع إلى اعتقاد المذهب في الأصل، ويرجع إلى الحكم
والخضوع؛ كقوله - تعالى -: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ويرجع إلى
الجزاء.

ثم قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾: كأن كلا منهم يبغي دينًا هو دين الله، ويدعي أن

(١) أخرجه ابن جرير (١٣٧/٦)، برقم (٦٥٢٠) عن ابن عباس، وبرقم (٦٥١٩) عن الربيع بن أنس،
وابن أبي حاتم في تفسيره (٣٧٣/٢)، برقم (٨٨٤)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨٥/٢) من
طريق العوفي عن ابن عباس، وأخرج نحوه ابن أبي حاتم برقم (٨٨٥) عن محمد بن إسحاق.
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري عن مجاهد (١٣٦/٦)، برقم (٦٥١٣)، (٦٥١٤) بلفظ: عهدًا، وعن ابن
عباس برقم (٦٥١٥)، وعن السدي برقم (٦٥١٦)، وعن ابن جريج برقم (٦٥١٧)، وعن الربيع بن
أنس برقم (٦٥١٩)، وابن أبي حاتم (٣٧٣/٢، ٣٧٤) برقم (٨٨٦)، (٨٨٩).
(٣) قاله بنحوه علي بن أبي طالب، أخرجه ابن جرير الطبري (٥٦١/٦) برقم (٧٣٣٨)، وذكره السيوطي
في الدر المنثور (٨٥/٢).

الدين الذي هو عليه دين الله، لكن هذا - والله أعلم - كل منهم في الابتداء ينبغي دين الله في نفسه، لكن بآن له من بعد وظهر بالآيات والحجج أنه ليس على دين الله، وأن دين الله هو الإسلام، فلم يرجع إليه ولا اعتقده، ولزم غيره بالاعتناد والمكابرة؛ فهو باغٍ غير دين الله، والله أعلم.

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾، أي: أغير ما في دين الله من الأحكام والتوحيد.

ويحتمل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ﴾: يدينون، وليس على الاستفهام؛ ولكن على الإيجاب أنهم في صنيعهم يبعون غير الذي هو دين الله، كقوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ وكقوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...﴾ [النور: ٥٠] الآية.

وقوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾:

يحتمل وجوهاً:

يحتمل: أسلم، أي: استسلم، وخضع له بالخلقة؛ إذ في خلقه كل دلالات وحدانيته.

ويحتمل: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾، يعني: الملائكة، ﴿وَالْأَرْضِ﴾^(١) المؤمنين الذين أسلموا طوعاً وكرهاً، يعني: أهل الأديان يقرون أن الله ربهم وهو خلقهم؛ كقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] فذلك إسلامهم، وهم في ذلك مشركون. عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «مَنْ فِي السَّمَوَاتِ أَسْلَمُوا طَوْعًا، وَأَمَّا أَهْلُ الْأَرْضِ: فَمِنْهُمْ مَنْ أَسْلَمَ طَوْعًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أَسْلَمَ كَرْهًا؛ مَخَافَةَ السَّيْفِ»^(٢).

وعن ابن عباس - رضي الله عنه أيضاً - قال: «طَوْعًا مَنْ وُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ، وَكُلُّ مَنْ أَسْلَمَ وَلَمْ يُؤْلَدْ فِي الْإِسْلَامِ فَهُوَ كَرْهًا»^(٣).

وقيل: منهم من أسلم طوعاً، ومنهم من جبروا عليه^(٤)، والإسلام: هو تسليم النفس

(١) في الأصول: ومن في الأرض، وهو خطأ، والآية صوابها كما أثبتنا.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري (٥٦٧/٦) برقم (٧٣٥١) من طريق عباد بن منصور، وابن أبي حاتم (٢/٣٧٦) (٨٩٤) من طريق عبد الرحمن العصري كلاهما عن الحسن، وأخرجه أيضاً ابن جرير برقم (٧٣٥٢) عن مطر الوراق، وذكره السيوطي في الدر (٨٥/٢) وعزاه للديلمى عن أنس بن مالك.

(٣) ذكره الحافظ السيوطي في الدر المنثور (٨٥/٢) وعزاه للطبراني عن ابن عباس بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير (٥٦٦/٦) برقم (٧٣٤٧)، (٧٣٤٩) عن مجاهد بن جبر و(٥٦٧/٦)، برقم (٧٣٥٣)، (٧٣٥٤) عن قتادة بالفاظ متقاربة. وذكره السيوطي في الدر (٨٦/٢) وعزاه لعبد

لله خالصاً لا يشرك فيها غيره؛ كقوله: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ الآية [الزمر: ٢٩].

دلّت الآية أنه ما ذكرنا، والله أعلم.

والإسلام: هو اسم الخضوع، وكل منهم قد خضعوا، ولم يجترئ أحد أن يخرج عليه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا آتَانَا مِنْ رَبِّهِمْ لَوْلَا فَتْرُوقُنَا وَأَنَّا لَمُؤْمِنُونَ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧]. وقوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا آتَانَا مِنْ رَبِّهِمْ لَوْلَا فَتْرُوقُنَا وَأَنَّا لَمُؤْمِنُونَ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧]. وقوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا آتَانَا مِنْ رَبِّهِمْ لَوْلَا فَتْرُوقُنَا وَأَنَّا لَمُؤْمِنُونَ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

هذا - والله أعلم - وذلك أن اليهود والنصارى لما آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، كقوله (١): ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠] - أمر الله - تعالى - المؤمنين أن يؤمنوا بالرسول جميعاً؛ فآمنوا بهم جميعاً، وقالوا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾: والإسلام ما ذكرنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾:

اختلف فيه: [يحتمل] ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾: حسنات من بغى غير دين الإسلام في الدنيا؛ وهو كقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾، أي: بالمؤمن به ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥]. ويحتمل: من أتى بدين سوى دين الإسلام فلن يقبل منه، ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وقيل: إنها نزلت في نفر ارتدوا عن الإسلام بعد ما أسلموا، ثم تاب بعضهم (٢)؛ فنزل قوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾: يحتمل: «يبتغي»: يطلب، ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾؛ كأنه نهى عن ذلك أن يقصد بالتدين التقرب إلى الله - تعالى - فأخبر أن ذلك لا يقبله؛ ليصرف الطلب إلى غير ذلك، وذلك كما دانوا من عبادة الأوثان وغيرها؛ لتقربهم إلى الله زلفي، فأخبر أنه لا يقرب؛ ليصرف الطلب إلى حقيقة ذلك الدين على الأديان [التي] كانت معروفة، تأبى أنفس الكفرة عن [قبول] (٣) اسم

(١) في ب: كقوله - عز وجل.

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٨٣/٣) وعزاه للسدي، ومجاهد.

(٣) سقط من ب.

الإسلام لدينهم، وادعوا أن دينهم هو دين الله؛ فأخبر الله - تعالى - أن دينه هو الإسلام، وأن من يتبغى الدين؛ ليدين الله به، غيره -، فالله لا يقبل منه، والله أعلم.

ويحتمل الابتغاء: الإرادة؛ فيكون فيه تحقيق الدين؛ إذ هي تجماع الفعل؛ فكأنه قال: من دان غير دين الإسلام، فلن يقبل منه، وإن قصد به الله بالدين، والله الموفق.

أيد ذلك قوله: ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: أنه فيمن أتى بغيره، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦) **أُولَئِكَ جَزَاءُهمُ أَنَّ عَلَيْهِمُ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** (٨٧) **خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ** (٨٨) **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** (٨٩)

وقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ...﴾ الآية. فالآية تحتمل وجوهاً:

تحتمل: ألا يهدي الله قوماً هم معاندون مكابرون فيه، غير خاضعين له ولا متواضعين؛ إنما يهدي من خضع له وتواضع، فأما من عاند وكابر: فلا يهديه. ويحتمل أن هذا في قوم مخصوصين، علم الله منهم أنهم لا يؤمنون أبداً؛ فأخبر الله - تعالى - أنه لا يهديهم، وأما من علم الله أنه يؤمن وتاب: فإنه يهديهم بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ الآية: أطمع من تاب وأصلح أن يهديه ويغفر له. ويحتمل: ألا يهديهم طريق الجنة، إذا ماتوا على كفرهم؛ كقوله: ﴿وَلَا يَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ * **إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ** [النساء: ١٨٧، ١٨٨].

قال الشيخ - رحمه الله - : ويحتمل: لا يهديهم في وقت اختيارهم الضلالة. وقيل: بما اختاروا من الضلالة لا يهديهم، أي: لا يعينهم: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

قال الشيخ - رحمه الله - : ودل قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ - أن دين الإسلام هو الإيمان، وأن الكفر مقابله من الأضداد، وكيف يهدي قبل كفرهم؟! - وقيل: في وقت اختيارهم.

وقيل: ذلك في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون، وكانت همتهم التعنت والمخالفة^(١)،

(١) أخرجه ابن جرير (٥٧٤/٦) برقم (٧٣٦٨)، وابن أبي حاتم (٣٨٣/٢) برقم (٩١٥) بنحوه عن ابن عباس، وبرقم (٧٣٦٩)، (٧٣٧١) عن الحسن البصري بألفاظ متقاربة.

والله أعلم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

الآية ترد على المعتزلة قولهم؛ لأنهم قالوا: إن الهدى: البيان، والبيان للكل، قالوا: بتقدم الفعل، فلو كان متقدماً لكان في ذلك إعطاء الهدى للظالم؛ فأخبر - عز وجل - أنه لا يهدي الظالم، وهم يقولون: لا، بل يهدي الظالم؛ فذلك خروج عليه، وأما على قولنا: فإن التوفيق والقدرة إنما تكون معه؛ فكان قولنا موافقاً للآية.

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ من ذكر - فلو لم يكن الهدى غير البيان، فلقد هداهم إذن؛ على قول المعتزلة، والله أعلم.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ جَزَّأُوهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾:

[قيل: ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾^(١) عذاب الله.

[وقيل^(٢): لعنة الله: هي الإيأس من رحمته وعفوه، واللعن: هو الطرد في اللغة، ولعنة الملائكة: ما قيل في آية أخرى قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفَفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ . قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا﴾ الآية [غافر: ٤٩، ٥٠]. وقيل: لعنة الملائكة قولهم لهم: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكِكَ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] إلى آخره^(٣).

وقيل: يدعون عليهم باللعن.

وقيل: لعنة المؤمنين قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] فذلك لعنهم عليهم.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: ملحق على قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾: ذكر^(٤) الكفر بعد الإيمان، ثم ذكر التوبة فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا...﴾ الآية: أطمع لهم المغفرة والرحمة بالتوبة بعد الكفر بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وما قيل في القصة - أيضاً - أن نفروا ارتدوا عن [دين]^(٥) الإسلام، ثم تاب بعضهم،

(١) سقط من ب.

(٢) سقط من ب.

(٣) راجع: تفسير الرازي (١١٣/٨)، الباب (٣٧٨/٥).

(٤) في ب: ذلك.

(٥) سقط من ب.

ولم يتب البعض^(١)؛ فنزل قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ الآية.

وفي الآية دلالة قبول توبة المرتدين^(٢)؛ لأن قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الآية - قيل في القصة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَتَدَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١) لَنْ نَنفِقُوا إِلَيْكَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا﴾ [لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ] الآية:

اختلف فيه، قيل: قوله: ﴿كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا﴾^(٣)، أي: ماتوا على ذلك، فذلك زيادتهم الكفر.

وقيل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بعيسى بعد الإيمان بالرسول جميعاً، ثم ازدادوا كفراً: بمحمد ﷺ ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾، قيل: لن تقبل توبتهم التي تابوا مرة ثم تركوها^(٤).

وقيل: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ التي أظهروا باللسان، وما كان ذلك في قلوبهم، أي:

- (١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥٧٢/٦، ٥٧٣)، برقم (٧٣٦٠-٧٣٦٢)، وابن أبي حاتم (٣٨٢/٢) (٩١٤) عن ابن عباس، وعن مجاهد بن جبر أخرجه ابن جرير برقم (٧٣٦٣)، وعن السدي برقم (٧٣٦٤) أخرجه ابن جرير عنه وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨٧/٢) وزاد نسبه لابن المنذر.
- (٢) المرتدون: جمع مرتد. والردة في اللغة: هي الرجوع عن الشيء إلى غيره. يقال: رددت الشيء ردّاً، وسمي المرتد بذلك؛ لأنه رد نفسه إلى كفره. وارتد عنه: تحول، وفي القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وفي الاصطلاح:

عرفها الحنفية بأنها: عبارة عن الرجوع عن الإيمان.

وعرفها المالكية بأنها: كفر المسلم بقول صريح، أو بلفظ يقتضيه، أو بفعل يتضمنه.

وعرفها الشافعية بأنها: قطع الإسلام من مكلف.

وعرفها الحنابلة بأنها: اسم من الارتداد، والمرتد مشتق من الارتداد، والمرتد هو الراجع عن دين الإسلام إلى الكفر.

ينظر: الصحاح (٢٣٩) (ردد)، لسان العرب (١٦٢١/٣) (ردد)، ومجمل اللغة لابن فارس (١/٣٧٢)، وجمهرة اللغة لابن دريد (٧٢/١)، وبدائع الصنائع للكاتاني (١٣٤/٧)، وفتح القدير لابن الهمام (٦٨/٦)، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير (٣٠١/٤)، ومنح الجليل للشيخ عlish (٩/٢٠٥)، والمنهاج مع مغني المحتاج للنووي (١٣٣/٤)، وروضة الطالبين للنووي (٦٤/١٠)، و٦٥)، والمغني لابن قدامة (١٢٣/٨ - ١٢٥).

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٤) أخرجه ابن جرير (٥٧٨/٦، ٥٧٩) برقم (٧٣٧٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣٨٧/٢) برقم (٩٣٢) عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨٨/٢).

ليست لهم توبة [إلا أن] ^(١) يكون توبة منهم فترد؛ كقوله: ﴿لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ﴾ [النجم: ٢٦].

وقيل: هم قوم علم الله أنهم لا يتوبون أبداً؛ فأخبر أنه لا يقبل توبتهم ^(٢)؛ كقوله: ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

وقيل: لا تقبل توبتهم عند الموت ^(٣)؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ﴾ [غافر: ٨٤] وكقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩]، وكقوله: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ﴾ [الأنعام: ١٥٨]: أخبر أنه لا ينفع الإيمان في ذلك الوقت؛ فعلى ذلك قوله: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ في ذلك الوقت؛ إذا داموا على الكفر إلى ذلك الوقت.

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ - : ذلك في قوم مخصوصين، أي: لا يكون منهم توبة؛ كقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، أي: لا شافع لهم، ويحتمل عند رؤية بأس الله وجزاء فعله عند القيامة أو معاينة الموت؛ يدل على ذلك الآية التي تقدمت.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُفْعَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا...﴾ الآية.

قوله: ﴿فَلَنْ يُفْعَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَذِلَّ بِهِ﴾، يقول: لو كان معهم لافتدوا به أنفسهم - ما قبل منهم، ولكن لا يكون؛ كقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، أي: لا يكون لهم شفيع، لا أن كان لهم شفعاء فيشفعون فلا تقبل شفاعتهم، ولكن لا يكون لهم؛ فهذا يدل على أن قوله: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾، أي: لا يتوبون، والله أعلم.

وروى عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن نبي الله ﷺ قال: «يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا، أَكُنْتَ مُقْتَدِرًا بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا

(١) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٢) أخرجه بنحوه ابن جرير (٥٨٠/٦) برقم (٧٣٧٩، ٧٣٨١)، وابن أبي حاتم (٣٨٧/٢) برقم (٩٢٩) عن أبي العالية، وعن السدي أخرجه ابن جرير (٥٨١/٦) برقم (٧٣٨٣)، وذكره السيوطي (٨٨/٢) وزاد نسبه إلى ابن المنذر.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥٧٨/٦) برقم (٧٣٧٢) عن الحسن البصري وأخرجه أيضاً ابن جرير (٥٧٩/٦) برقم (٧٣٧٤)، وابن أبي حاتم (٣٨٨/٢) برقم (٩٣٥) عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر (٨٨/٢).

رَبِّ، فَيَقَالَ لَهُ: قَدْ سُئِلْتَ أُيَسِّرَ مِنْ ذَلِكَ! (١).

وقوله: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ﴾

يحتمل أن تكون الآية - والله أعلم - في كفار منعهم عن الإسلام الزكاة والصدقات التي تجب في الأموال؛ كقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَيْتَ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ. فَلَمَّا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا...﴾ الآية [التوبة: ٧٥-٧٦]، إلى قوله: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧]: أخبر - عز وجل - لن تنالوا الإسلام حتى تنفقوا مما تحبون من الأموال؛ وكقوله: ﴿لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٧].

وتحتمل الآية في المؤمنين؛ رغبتهم - عز وجل - في إنفاق ما يحبون؛ كقوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ فَقَدْ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧]: أخبر أن البر ما ذكر: من الإيمان به، وإيتاء المال في حبه.

وروى عن أنس - رضي الله عنه - قال: لما نزل قوله - تعالى -: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى نُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ﴾، قال أبو طلحة (٢): يا رسول الله، حائطى الذي في مكان كذا وكذا فهو لله، ولو استطعت أن أسره ما أعلنته؛ فقال رسول الله ﷺ: «اجْعَلْهُ فِي قَرَابَتِكَ - أو أَقْرَبَاتِكَ» (٣).

وروى عن ابن عمر (٤) - رضي الله عنه - أنه لما نزل هذا: أعتق جارية (٥).

(١) أخرجه البخاري (٢١٦/١٣): كتاب الرقاق: باب من نوقش الحساب عذب، رقم (٦٥٣٨)، وأحمد في مسنده (٢١٨/٣)، من حديث أنس.

(٢) هو زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو النجاري أبو طلحة الأنصاري، شهد بدراً والمشاهد، وكان من نباء الأنصار. قتل يوم حنين عشرين رجلاً، وعاش بعد النبي ﷺ أربعين سنة، ومات سنة ٣٤هـ في خلافة عثمان رضي الله عنهم.

ينظر: الخلاصة للخرجي (٣٥٣/١)، سير أعلام النبلاء (٢٧/٢) رقم (٥).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٢/٣)، ومسلم في صحيحه (٦٩٣/٢)، ٦٩٤ في كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين، برقم (٩٩٨)، والنسائي في سننه (٥٤٢/٦) برقم (٣٦٠٤)، وأبو داود في سننه (٥٢٨/١) برقم (١٦٨٩)، والبيهقي في الكبرى (١٦٥/٦)، ٢٨٠ وأخرجه البخاري بالفاظ أخرى (٢٠٣/١١) في كتاب الأشربة: باب استعذاب الماء برقم (٥٦١١)، وأخرجه أيضاً برقم (٢٧٦٩، ٢٧٥٨).

(٤) هو الصحابي ابن الصحابي عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي أبو عبد الرحمن، هاجر مع أبيه وشهد الخندق وبيعة الرضوان، وروى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، وكان إماماً متيناً واسع العلم، وافر النسك، كبير القدر، متين الديانة، عظيم الحزمة. مات سنة ٧٤هـ.

ينظر: الخلاصة للخرجي (٨١/٢)، سير أعلام النبلاء (٢٠٣/٣)، رقم (٤٥).

ثم اختلف في البرّ، قيل: البرّ هو الجنة^(١) ههنا.

وقيل: البر هو الإسلام^(٢)، إن كان في الكافرين^(٣).

وقيل: لن تنالوا درجات الجنة، وما عند الله من الثواب إلا بإتفاق ما تحبون^(٤).

وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَ عَالِمٌ﴾

ففيه دليل قبول القليل من الصدقة؛ لأنهم كانوا يمتنعون عن قليل التصدق استحقاقاً،

فأخبر أنه بذلك عليم وإن قل، بعد أن يكون ذلك لله عز وجل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ

تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَنطَلُوها إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ

بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾

قوله: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ الآية.

قال ابن عباس - رضي الله عنه - : «وكان الطعام كله حلالاً، إلا الميتة والدم ولحم

الخنزير^(٥).

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾، يعني: يعقوب، حرم على نفسه لحم الإبل

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية كما في الدر المنثور (٩١/٢)، وذكره الرازي في التفسير (١١٧/٨)، وقال

القرطبي: وأعتق ابن عمر نافعاً مولاه، وكان أعطاه عبد الله بن جعفر ألف دينار، قالت صفية بنت أبي

عبيدة: أظنه تأول قول الله - عز وجل - : ﴿لَنْ نَنالُوا إِلَهًا حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَا﴾ [آل عمران: ٩٢].

وقد أعتق عمر بن الخطاب جارية، ولكن كان بعد فتح المدائن؛ متولاً هذه الآية كما أخرجه

الطبري (٧٣٩٠).

وقد تصدق زيد بن حارثة لما نزلت هذه الآية بفرس فأعطاه النبي ﷺ إلى ابنه أسامة؛ فقال زيد:

يا رسول الله، إنما أردت أن أتصدق به، فقال رسول الله ﷺ: «قد قبلت صدقتك».

أخرجه الطبري (٧٣٩٥).

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥٨٧/٦)، برقم (٧٣٨٦) (٧٣٨٧) عن عمرو بن ميمون وعن السدي

مثله برقم (٧٣٨٨)، وأخرجه ابن أبي حاتم (٣٩٠/٢) برقم (٩٤١) من طريق أبي عبيدة، وبرقم

(٩٤٢) من طريق زر بن حبیش كلاهما عن ابن مسعود، وذكره السيوطي في الدر (٩١/٢) وزاد

نسبته لابن المنذر عن مسروق.

(٢) أخرجه بنحوه ابن جرير الطبري برقم (٨٤١) عن ابن عباس وذكره السيوطي في الدر (١٢٦/١).

(٣) في ب: الكافر.

(٤) انظر نحوه في تفسير الرازي (١١٨/٨)، وقيل: البر: العمل الصالح، وفي الحديث الصحيح: «عليكم بالصدق؛ فإنه يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة».

ينظر: تفسير القرطبي (٨٦/٤).

والحديث أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (١٠٣-٢٦٠٧)، من حديث عبد الله بن مسعود.

(٥) ينظر تفسير الكشاف للزمخشري (٣٨٥/١)، تفسير المحرر الوجيز (٤٧٢/١)، تفسير البحر المحيط (٤/٣).

وألبانها، وكان من أحب الطعام إليه، إن ثبت ما ذكر في القصة: أن يعقوب - عليه السلام - أقبل يريد بيت المقدس، فلقه ملك، فظن يعقوب أنه لص؛ فعالجه^(١) يصارعه حتى أضاء له الفجر، فلما أضاء لهما الفجر غمز الملك فخذ يعقوب، فتهيج عليه عرق النساء^(٢)؛ فكان يبيت الليل ساهراً من وجعه، فأقسم: لئن شفاه الله ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه على نفسه؛ فشفاه الله من ذلك؛ فحرم لحم الإبل وألبانها؛ لأنها من أحب الطعام والشراب إليه^(٣).

فإن ثبت هذا فهو إنما حرم ذلك على نفسه بالإذن من الله - تعالى - والأمر منه. ثم إن اليهود قالوا: إنما كان تحريم ذلك من الله في التوراة؛ فأمر الله - تعالى - نبيه أن قل لهم: ﴿قَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاَتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: أن ذلك التحريم من الله في التوراة^(٤).

ويحتمل أن يكون التحريم كان بظلم منهم؛ كقوله - تعالى - : ﴿فَيُظْلِمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ...﴾ الآية [النساء: ١٦٠]؛ ثم أنكروا تحريم ذلك بظلمهم، فدعوا بإحضار التوراة؛ ليظهر كذبهم، فأبوا ذلك^(٥).

(١) يقال: عالجه فعالجه علجاً: إذا زاوله فغلبه فيها، أي: في المعالجة. الوسيط (٢/٦٢٠) (علج).

(٢) النسا: العصب الوركي، وهو عصب يمتد من الورك إلى الكعب، مثناه: نسوان، ونسيان، والجمع: أنساء. ينظر: الوسيط (٢/٩٢٠) (نسا).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (٢/٨٧) وجعله من قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي. والذي حرّمه يعقوب على نفسه في هذه القصة العروق.

أما تحريم لحوم الإبل وألبانها ففي حديث آخر: فعن ابن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنها لا يعلمن إلا نبي فكان فيما سألوه: أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه قبل أن تنزل التوراة؟ قال: فأُنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب عليه السلام، مرض مرضاً شديداً فطال سقمه فنذر الله نذراً: لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، فكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها. فقالوا: اللهم نعم.

أخرجه أحمد (١/٢٧٣، ٢٧٨)، والترمذي (٣١١٧)، والحاكم (٢/٢٩٢)، والطبري (٤٧٢٠) من طرق عن ابن عباس.

(٤) ينظر: تفسير الرازي (٨/١٢٣)، اللباب (٥/٣٩٤).

(٥) قال القرطبي: اختلف: هل كان التحريم من يعقوب باجتهاد منه أو بإذن من الله تعالى؟ والصحيح الأول؛ لأن الله - تعالى - أضاف التحريم إليه بقوله - تعالى - : ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، وأن النبي إذا أداه اجتهاده إلى شيء كان ديناً يلزمنا اتباعه؛ لتقرير الله - سبحانه - إياه على ذلك، وكما يوحى إليه ويلزم اتباعه، كذلك يؤذن له ويجتهد، ويتعين موجب اجتهاده إذا قدر عليه. ولولا تقدم الإذن له في تحريم ذلك ما تسوّر على التحليل والتحريم. ينظر: تفسير القرطبي (٤/٨٧).

فلا ندري كيف كانت القصة؟ ولكن فيه إثبات دلالة رسالة [رسولنا]^(١) محمد ﷺ حيث أخبر عما أسروا، وأظهر ما كتموا.

قال أبو يزيد: إنما قدر أهل الكتاب على تغيير كتابهم، والزيادة فيه والنقصان، ولم يكن لأحد تغيير القرآن عن وجهه، أو زيادة فيه أو نقصان منه؛ لأن كتبهم تشبه كلام غيره من الحكماء^(٢)؛ فغيروا بغيره من كلام الحكماء، وأما القرآن: فهو آية معجزة، لم يقدرُوا على تحريفه ولا تبديله، وإن علم أنه كان كما ذكر؛ وإلا فهو - والله أعلم - ليهتك عليهم أستارهم، وليظهر منهم^(٣) ما كتموا، وفيه إثبات لرسالة^(٤) محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٥) **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ** (٩٦) **فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** (٩٧) **[وقوله:** ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ الآية:

قد ذكرنا فيما تقدم (٥) [٦).

وقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾:

قيل فيه بوجوه؛ قيل: إن أول بيت مبارك وضع للناس هو بكة^(٧).

وقيل: أول مسجد وضع للناس مكة^(٨).

وقيل: يريد بـ«بكة» البقعة^(٩)، أي: أول بقعة خلق الله هو بكة، ومنها دحيت

(١) سقط من ب.

(٢) وهم: المشتغلون بعلم الحكمة، وهو علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية، وموضوعه الأشياء الموجودة في الأعيان والأذهان.

ينظر: أبعاد العلوم (٢/٢٤٥).

(٣) في ب: عليهم.

(٤) في ب: الرسالة رسالة.

(٥) عند قوله - تعالى - : ﴿قُلْ بَلَّ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، وقوله - تعالى - : ﴿وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا...﴾ [آل عمران: ٦٧].

(٦) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٧) أخرجه ابن جرير (١٩/٧) برقم (٧٤٢٢)، (٧٤٢٣)، وابن أبي حاتم (٤٠٣/٢) (٩٦٤) عن علي، وعن السدي أخرجه ابن جرير (٧٤٣١)، وابن أبي حاتم (٤٠٢/٢) (٩٦٣)، وعن مطر الوراق أخرجه ابن جرير (٢٠/٧) (٧٤٢٥). وعن الشعبي أخرجه ابن أبي حاتم (٩٦٢)، وذكره السيوطي في الدر (٩٣/٢) وزاد نسبه لابن المنذر.

(٨) أخرجه ابن جرير (٢٠/٧) برقم (٧٤٢٤) عن الحسن البصري، وذكره السيوطي في الدر (٩٣/٢) وزاد نسبه لابن المنذر.

(٩) أخرجه البيهقي في الشعب عن ابن عباس مرفوعاً (٤٣٢/٣)، رقم (٣٩٨٤) وابن جرير الطبري (٧/٢١) برقم (٧٤٢٩) عن مجاهد. وذكره السيوطي في الدر (٩٣/٢) وعزاه للبيهقي في الشعب.

الأرض^(١).

وقيل: إن آدم - عليه السلام - لما أمر بالحج فيه، قال جبريل - عليه السلام - : «قد حج فيه الملائكة قبلك بألفي عام»^(٢).

وقيل: خلق الله البيت قبل الأرض بألفي عام^(٣).

ثم اختلف في قوله «بكة»؛ قيل «البكة»: الزحام^(٤).

وقيل: «البكة»: موضع البيت، ومكة سائر القرية^(٥).

وعن ابن عباس^(٦) - رضي الله عنه - قال: «مكة من فح»^(٧) إلى التنعيم^(٨) إلى المنحر، وبكة: من البيت إلى البطحاء^(٩).

وقيل: «بكة»: الكعبة؛ حيث يبك الناس، أي: يزدحم بعضهم بعضاً، بـ«مكة»: ما وراءها^(١٠).

وقوله: ﴿مُبَارَكًا﴾، قيل: يغفر فيه الذنوب والخطايا.

(١) دُحِيت الأرض: أي: بسطت ووسعت، يقال: دحا الأرض: أوسعها، ودحيت الشيء أدحاه دحياً: بسطته.

ينظر: لسان العرب (١٣٣٨/٢) (دحي).

(٢) أخرجه بنحوه ابن جرير الطبري (٢١/٧) برقم (٧٤٣٣) عن قتادة.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٤٣١/٣) (٣٩٨٣)، وابن جرير (٢٠/٧) برقم (٧٤٢٨) عن عبد الله بن عمرو، وذكره السيوطي في الدر (٩٣/٢) وزاد نسبه لابن المنذر عن أبي هريرة، وابن عمرو.

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٤/٧) رقم (٧٤٣٩) عن سعيد بن أبي عروبة.

(٥) أخرجه ابن جرير (٢٤/٧) (٧٤٣٥)، وابن أبي حاتم (٤٠٨/٢) (٩٧٨) عن أبي مالك الغفاري، وعن عطية العوفي أخرجه ابن جرير (٢٥/٧) (٧٤٤٣)، وبنحوه قاله الزهري أخرجه ابن جرير (٧٤٤٤)، وذكره السيوطي (٩٤/٢) وزاد نسبه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم برقم (٤٠٨/٢) (٩٧٧)، وذكره ابن كثير في تفسيره (٣٨٣/١)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٩٤/٢).

(٧) فح: موضع بمكة، دفن به ابن عمر رضي الله عنهما. القاموس المحيط ص (٢٣٣)، (فحخ).

(٨) التنعيم: هو من الحل بين مكة وسرف، عن فرسخين من مكة، وقيل: على أربعة أميال، وسميت بذلك؛ لأن جبلاً عن يمينها يقال له: نعيم، وآخر عن شمالها، يقال له: ناعم، والوادي نعمان بفتح النون.

ينظر: المطلع على أبواب المقنع ص (١٧٥).

(٩) وقيل: «بكة» لغة في «مكة»؛ فإن العرب تعاقب بين الباء والميم؛ كما في قولهم (ضربة لازب، ولازم) و (النميط والنبيط) في اسم موضع بالدهناء. وقولهم: (أمر راتب وراتم) و (أغبطت الحمى وأغمطت).

ينظر: محاسن التأويل للقاسمي (١٥٠/٤).

(١٠) البطحاء: مسيل فيه دقاق الحصى. وبطحاء الوادي: تراب لين مما جرتة السيول، والجمع: بطحاوات وبطاح. ينظر: لسان العرب (٢٩٩/١) (بطح).

﴿وَهَذَى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ ءَايَتٌ بَيِّنَاتٌ﴾:

يحتمل قوله: ﴿فِيهِ ءَايَتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ - ما لو تأملوا لهداهم؛ وذلك أن الله - عز وجل - خلق هذا البيت بين الجبال في أرض ملساء قليلة الإنزال والريح^(١)، لا ماء فيه ولا شجر ولا نزهة؛ ما لا يرغب الخلق إلى مثله، ثم جعل قلوب الناس تميل وتهوى إليه أفندتهم من غير أن كان فيه ما يرغبهم من النزهة، فلو لا أن كان ذلك من آيات الله ولطفه؛ وإلا ما رغب الناس إلى مثله.

ويحتمل قوله: ﴿فِيهِ ءَايَتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ - ما ذكر: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾، وذلك آياته، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾: ظاهره فيمن يجنى^(٢)، ثم دخل الحرم آمن^(٣)؛ لأن من لم يجن فهو آمن أين دخل من الحرم وغيره، وإنما الآية على ما يخص بالأمن إذا دخل الحرم دون غيره.

وقد روي عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ما يوافق هذا، وزوي عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «إذا أصاب الرجل الحد^(٤) في الحرم، أقيم عليه، وإن

(١) الريح: النماء والزيادة. ينظر: لسان العرب (١٧٩٣/٣) (ريح).

(٢) من الجنابة، وهي لغة: الذنب والجرم، مصدر جنى، واصطلاحاً: كل فعل محظور يتضمن ضرراً على النفس أو غيرها، وهي في الشرع اسم لكل فعل محرم يحل بمال أو بنفس، لكن الفقهاء خصوا لفظ الجنابة بالأفعال التي تحل بالنفس والأطراف فقط، وجعلوا ما يحل بالمال غصباً وسرقه وإتلافاً.

ينظر: حاشية رد المحتار لابن عابدين (٣٣٩/٥).

(٣) لا خلاف بين الفقهاء في أن من دخل الحرم مقاتلاً وبدأ القتال فيه، يقاتل وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ إِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] وكذلك من ارتكب في الحرم جريمة من الجرائم المنصوص عليها حدوداً أو قصاصاً فإنه يقتل فيه اتفاقاً لاستخفافه بالحرم، أما من وجب عليه حد أو قتل بقصاص أو رجم بالزنا وغيره فالتجأ إلى الحرم ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: وهو مروي عن أبي حنيفة، وعمر وابن عباس وسعيد بن جبيرة والحكم بن عتيبة، وإسحاق بن راهويه والظاهرية وهو رواية عن أحمد: أنه آمن ما دام في الحرم لقوله - تعالى -: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

الثاني: وهو مروي أيضاً عن أحمد وأبي حنيفة: إن كان قاتلاً لم يقتل حتى يخرج من الحرم، وإن كانت الجنابة فيما دون النفس أقيم عليه الحد.

الثالث: وهو قول مالك والشافعي: أن الحدود تقام فيه ويستوفى القصاص لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ١٩١].

وانظر: أدلة مذاهب الفقهاء في حاشية ابن عابدين (٢٥٦/٢)، بدائع الصنائع (١١٤/٧)، تبين الحقائق (٧٠/٢)، مواهب الجليل للحطاب (٢٠٣/٣، ٢٠٤)، وشرح المذهب للنووي (٢١٥/٧)، إعلام الساجد للزرکشي ص (١٦٤)، الأحكام السلطانية للمواردي (١٩٣).

(٤) الحد - لغة - : هو المنع، ومنه سمي البواب والسجان حداً لمنع الأول من الدخول، والثاني من =

أصابه في غير الحرم، ثم لجأ إليه، لا يُحَدَّث، ولا يُجَالَس، ولا يُؤَاكَل، ولا يباع، حتى يخرج منه؛ فيؤخذ، فيقام عليه الحد»^(١).

وروي عن ابن عمر - رضي الله عنه - أنه قال: «لو وجدنا قاتل أبينا في الحرم لم نقتله»^(٢).

وروي عن الحسن - رحمه الله - أنه قال في قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ عَامِئًا﴾ - كان هذا في الجاهلية، فأما الإسلام: فلم يزد إلا شدة: من أصاب الحد في غيره، ثم لجأ - إليه أقيم عليه الحد»^(٣).

يقال للحسن: إن الصيد كان يأمن في الجاهلية، ثم الإسلام لا يرفع ذلك الأمان؛ بل كان أمان الصيد في حال الإسلام. كهو في حال الجاهلية؛ فعلى ذلك الأمان الذي كان في الجاهلية هو باق غير زائل في الإسلام.

وأصحابنا - رحمهم الله - يذهبون إلى ما روي عن ابن عباس وابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ - تعالى - حَزَمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَهَا؛ لَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَا تُحَلَّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أُحِلَّت لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، لَا يُحْتَلَى خَلَاهَا، وَلَا يُغْصَد شَجَرُهَا، وَلَا يُتَفَرَّ صَيْدُهَا، وَلَا يُحْتَشُّ حَشِيشُهَا»^(٤). أخبر رسول الله ﷺ أن مكة بعد

= الخروج.

وحدود الله - تعالى - : محارمه.

والحد - اصطلاحاً - : عقوبة مقدرة وجبت حقاً لله - تعالى - على ذنب كالزنا والسرقه، وشرب

الخمير، وغيرها.

ينظر: المصباح المنير ص (٤٨) (حدد)، حاشية ابن عابدين (٣/ ١٤٠)، بداية المجتهد (٢/

٣٣٠).

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣٣، ٢٩/ ٧) برقم (٧٤٥٤)، (٧٤٥٩)، (٧٤٦١) (٧٤٦٨)،

(٧٤٦٩)، وابن أبي حاتم (٤١٤/ ٢) (١٠٠٤)، وعن عطاء بن أبي رباح أخرجه ابن جرير

(٧٤٦٧)، وذكره السيوطي في الدر (٩٧/ ٢)، وزاد نسبه لابن المنذر، والأزرقي، وعبد بن حميد.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري (٣٢/ ٧) (٧٤٦٣)، وذكره السيوطي في الدر (٩٧/ ٢) وعزاه لابن جرير

عن ابن عمر، ولعبد بن حميد وابن المنذر والأزرقي عن عمر بن الخطاب، ولعبد بن حميد وابن

جرير عن ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٧) برقم (٧٤٥٨)، وعن قتادة أخرجه عنه ابن جرير (٢٩/ ٧)، برقم

(٧٤٥٤)، (٧٤٥٥)، وابن أبي حاتم (٤١٦/ ٢) (١٠٠٦)، وعن مجاهد أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٧)

برقم (٧٤٥٦)، وذكره السيوطي في الدر (٩٦/ ٢ - ٩٨) وزاد نسبه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) أخرجه البخاري (٥٢٠/ ٤) في كتاب جزاء الصيد، باب: لا ينفر صيد الحرم برقم (١٨٣٣)، وفي

(٤١/ ٥) كتاب البيوع: باب ما قيل في الصواع (٢٠٩٠)، ومسلم في (٩٨٨/ ٢) كتاب الحج: باب

تحريم مكة وصيدها وخلها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٣) من حديث ابن

عباس.

الإسلام حرام؛ كما كانت قبله، وأنها لم تُحَلَّ له إلا ساعة من نهار، فإذا كان الملتجئ آمناً قبل الإسلام؛ فالواجب أن يكون آمناً بعد الإسلام، حتى يخرج منها.

وحجة أخرى: وهو أن الله - تعالى - أباح لرسول الله ﷺ قتل المشركين جميعاً، بل فرض ذلك عليه، إلا أهل مكة؛ فإنه لم يُحَلَّ له قتلهم إلا ساعة من نهار^(١)، ففُضِّل مكة على غيرها بما خصَّها به من التحريم؛ فلا يبعد ألا يقام على من التجأ إليها في الإسلام؛ إذ كانت جنايته أقل من كفر أهلها، ولم يُحَلَّ قتالهم إلا ساعة من نهار.

وفي الفرق [بين] من قتل فيها وفي غيرها، ثم لجأ إليه - وجه آخر: قال الله - تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَنْتُمْ أَفْثَرُ﴾ [البقرة: ١٩١]: أباح لهم القتل عند المسجد الحرام، إذا قاتلونا؛ فعلى ذلك يقام الحد إذا أصاب وهو فيه، وإذا أصاب - وهو في غيره - ثم لجأ إليه: لم يُقَمْ؛ كما لم يُقَاتَلوا إذا لم يُقَاتَلُوا، وهذا فرق حسن واضح [بحمد الله وعونه]^(٢).

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله - عز وجل -: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ -: يحتمل أن يكون خبراً من الحرم في قديم الدهر: أنه كان على ما بين الخلق من القتال والحرب يأمنون بالحرم، إذا التجأوا إليه؛ وذلك كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَسَخَطُ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]؛ فيكون ذلك من عظيم آيات الله - تعالى - أن أهل الجاهلية - على عظيم ما بدلوا من الأمور، وغيروا من الدين - منعهم الله - تعالى - عن هذا التغيير؛ حتى بقيت لكل من شاهده آية أن الله له هذا السلطان، وبه قام هذا التدبير العظيم، له العلم بحقائق الأشياء، ووضع كل شيء موضعه؛ وعلى ذلك قال بعض أهل التأويل في قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ [المائدة: ٩٧] - إن الله قد جعل - جل ثناؤه - ذلك كالماء في الشرع والطبع، فأما الشرع: فما جاءت به الرسل، وأما الطبع: فما تنافر الناس، حتى سار ذلك إلى الصيد الذي يؤذيه الأخذ، وإلى أنواع الأشياء التي قامت بجوهر تلك البقعة من النبات، لا بأسباب تكتسب؛ ولهذا كره بيع رباع مكة^(٣)،

(١) تقدم قريباً وهو الحديث السابق.

(٢) في ب: والله أعلم.

(٣) الرباع - بكسر الراء - المنازل ودار الإقامة فيرى الحنفية وهو المشهور من مذهب مالك ورواية عن الإمام أحمد أنه لا يجوز بيع رباع الحرم وبقاع المناسك ولا كراؤها لحديث: «مكة حرام وحرام بيع رباعها، وحرام أجر بيوتها» أخرجه الدارقطني (٥٧/٣) وصوب وقفه.

وذهب الشافعية وهو رواية عن مالك وأحمد أنه يجوز بيع وإجارة دور الحرم؛ لأنها على ملك أربابها يجوز لهم التصرف فيها ببيع ورهن وإجارة، واستدلوا للجواز بعموم النصوص الواردة في جواز البيع من غير فصل وانظر تفصيل ذلك باستفاضة في: إعلام الساجد بأحكام المساجد =

ورخص في بيع ما يحدث فيه من البنيان، والله أعلم.

ودلّ قوله: و ﴿جَعَلْنَا﴾ كذا - على لزوم ذلك الحق؛ لأنه مذكور بحرف الامتنان، والاحتجاج له، ولا يجوز تغير الذي هذا وضّعه، والله أعلم.

ويحتمل: كأن صار آمناً، أي: أوجب له الأمان، ومعلوم أن الذي لم يلزمه القتل كان آمناً دون دخوله؛ فثبت أن ذلك فيمن لزمه؛ وأيد ذلك قوله: ﴿وَلَا تُقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فهم قوم قد سبق منهم الكفر^(١) وقت شرع القتل بالكفر، لم يأخذهم حق الشرع على ما سبق من الكفر في وقت لم يكن ذلك جزاءه^(٢) في الدنيا، إلا أن يُحْدِث القتال؛ فعلى ذلك من لزمه - لا فيه - فهو يأمن به، إلا أن يكون أحدثه فيه، والله أعلم.

وأصله: أنه أضاف الأمان إلى نفسه بقوله: ﴿كَانَ آمِنًا﴾ فكل حق يتألف نفسه فله أمان بالدخول فيه، وكل حق في إقامته إحياء ما جعلت الحياة لنفع مثله - فهو يقام؛ ليكون زجراً له، وتكفيراً على بقاء الأمن؛ ليقى نفسه، وردّه إلى ما لم يدر أنه التجأ إليه؛ للهرب عن حكم الله - تعالى - أو للأمان بالله؛ ليصل إلى إقامة أحكام الله - تعالى - آمناً، وفي إقامته هذا أيضاً، والله أعلم.

وقوله^(٣): ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾

فرض الله - تعالى - الحج بهذه الآية على من استطاع إليه سبيلاً، ولم يبين ما السبيل، وبين ذلك رسول الله ﷺ: حيث سئل عن الاستطاعة؟ فقال: «الزَّاد، والراحلة»^(٤)، وهكذا يقول علماؤنا^(٥): إن الاستطاعة والسبيل هو الزاد والراحلة؛ كما روي عن رسول الله ﷺ.

= للزرکشي (١٤٤) وما بعدها، والبدائع للكاساني (١٤٦/٥)، والفروق للقرافي (١٠/٤ - ١١)، كشف القناع للبهوتي (١٦٠/٣).

- (١) في ب: القتل.
- (٢) في ب: جزاء.
- (٣) في ب: وقوله - عز وجل -.
- (٤) أخرجه الترمذي (١٦٦/٢) أبواب الحج: باب ما جاء في إيجاب الحج بالزاد والراحلة، (٨١٣)، (١٠٢/٥ - ١٠٣): أبواب تفسير القرآن: باب ومن سورة آل عمران، (٢٩٩٨)، وابن ماجه (٤/٤٠١): كتاب المناسك: باب ما يوجب الحج، (٢٨٩٦)، والدارقطني (٢١٧/٢)، والبيهقي (٥/٥٨) من طريق إبراهيم بن يزيد المكي عن محمد بن عباد بن جعفر المخزومي عن عبد الله بن عمر ابن الخطاب قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما يوجب الحج؟ قال: «الزاد والراحلة». وإبراهيم بن يزيد المكي هو الخوزي - متروك الحديث كما في التقريب ترجمة (٢٧٤).
- (٥) انظر: المبسوط (١٢٢/٤)، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني (١٢٠/٢)، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق للزيلعي (٤/٢).

وقال بعض الناس: إذا كان بينه وبين الحج بحر، لم يلزمه الحج؛ فكأنه ذهب إلى ظاهر الآية: ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾؛ فجعل البحر وأشباهه مزيلاً للاستطاعة^(١)؛ فخالف ما روي عن رسول الله ﷺ؛ لأن رسول الله ﷺ سئل عن الاستطاعة؟ فقال: «الرَّادُّ وَالرَّاجِلُ»^(٢)؛ فلم يجز لأحد أن يزيد في شرائط الاستطاعة مع الزاد والراحلة؛ لأن النبي - عليه السلام - هو المبين عن الله؛ فعلينا اتباعه في قوله وفعله وتفسيره الآية، ولكننا نجعل من يحول بينه وبين البيت معذوراً في التأخير، ولا يأثم - إن شاء الله تعالى - إذا لم يقدر على الوصول إلى البيت بعلّة على ما جعل التأخير في غيرها من العبادات عند الأعذار والعلل، ولا يأثم في ذلك.

ثم في الآية دلالة أنه لا يلزم المرأة الحج إلا بالمحرم^(٣)؛ لأن المرأة - وإن وجدت الزاد والراحلة - فإنها تحتاج إلى من يُؤكِّبها ويُنزلها، ولا تقدر على ذلك إلا بغيرها، وهكذا العرف فيهن، فإذا كان كذلك جعل كأنها غير واجدة للراحلة، والله أعلم.

وفيه دلالة أن العبد إذا حج ثم أُعْتِقَ - لزمه حجة الإسلام^(٤)؛ لأنه لا يملك الزاد والراحلة، فإذا لم يملك الزاد والراحلة لم يجز ذلك من حجة الإسلام وكذلك روي عنه

(١) مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد أنه يجب الحج في البحر إن غلبت فيه السلامة وإلا فلا وهذا هو الصحيح عند الشافعي وأصحابه، ومما جاء في هذه المسألة من الأحاديث حديث بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «لا يركب أحد بحراً إلا غازياً أو معتمراً أو حاجاً وإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً» رواه أبو داود والبيهقي وآخرون، قال البيهقي وغيره: قال البخاري: هذا الحديث ليس بصحيح، ورواه البيهقي من طرق عن ابن عمرو موقوفاً والله أعلم. انظر: المجموع للنووي ص (٦٦/٧-٦٧).

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٣) اتفق الفقهاء على أن المرأة يلزمها الحج إن استطاعت واستطاعتها كاستطاعة الرجل، واختلفوا في اشتراط المحرم لها فشرطه أبو حنيفة لوجوب الحج عليها إلا أن يكون بينها وبين مكة دون ثلاث مراحل. وقال عطاء وسعيد بن جبير وابن سيرين ومالك والأوزاعي والشافعي في المشهور عنه: لا يشترط المحرم بل يشترط الأمن على نفسها ويحصل الأمن بزواج أو محرم أو نسوة ثقات.

انظر تفصيل مذاهب الفقهاء وأدلّتهم في: الهداية للمرجناني (١/١٣٥)، بدائع الصنائع للكاساني (٢/١٢٣)، والذخيرة للقرافي (٣/١٧٩)، الأم للشافعي (٥/٣٨)، شرح صحيح مسلم للنووي (٥/١١٧)، الشرح الكبير للرافعي (٣/٢٩١)، الفروع لابن مفلح (٣/٢٣٤)، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي (٣/٣٩٧).

(٤) العبد المملوك لا يجب عليه الحج؛ إذ إنه مستغرق في خدمة سيده؛ ولأن الاستطاعة شرط ولا تتحقق إلا بملك الزاد والراحلة والعبد لا يملك شيئاً، فلو حج المملوك ولو بإذن سيده صح حجه وكان تطوعاً لا يسقط به الفرض ويأثم إذا لم يأذن له سيده بذلك وعليه أن يحج إذا أُعْتِقَ؛ لخبر البيهقي في السنن الكبرى (٥/١٧٩): «أَيُّمَا عَبْدٍ حَجَّ ثُمَّ عَتَقَ فَعَلِيهِ حُجَّةٌ أُخْرَى».

ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَيُّمَا عَبْدٍ حَجَّ وَلَوْ عَشْرَ حَجَجٍ؛ فَعَلَيْهِ إِذَا أُعْتِقَ حُجَّةُ الْإِسْلَامِ»^(١). وليس كالحِرِّ - الفقير يحج، ثم أسير: جاز ذلك من حجة الإسلام؛ ففرقوا بينهما، وإن كانا في زوال الحج في الابتداء سواء؛ وذلك أن الفقير إذا بلغ ذلك المكان صار غنياً، ولزمه الفرض؛ لأنه لا يحتاج حينئذ إلى زاد وراحلة، وأما العبد إذا حضر ذلك المكان لم يَغْتَقِ؛ لذلك افترقا.

وفي ذلك حُجَّة أخرى: ما أجمع أهل العلم أن فقيراً لو حضر القتال ضرب له سهم كامل؛ كما يضرب لمن كان فَوْضُ الجهاد لازماً له، ولو أن عبداً شهد الوقعة رَضَخَ^(٢) له، ولم يكمل له سهم الحِرِّ؛ فافترقت حال الفقير والعبد في: الجهاد، والضرب في السَّهْمَانِ؛ فعلى ذلك يفترق حالهما في الحج، والله أعلم.

وقال بعض أهل العلم: إن الشيخ الذي لا يستمسك على الراحلة^(٣)، [إذا وجد غيره يحج عنه - يلزمه فرض الحج؛ فما ينكر من قال في المرأة بمثله، فاحتج بما روي عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أبي

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد (٣/٢٠٨ - ٢٠٩)، والحاكم (١/٤٨١)، والبيهقي (٤/٣٢٥)، والخطيب في تاريخ بغداد (٨/٢٠٩). من طريق محمد بن المنهال ثنا يزيد بن زريع ثنا شعبه عن سليمان الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا صَبِي حَجَّ ثُمَّ بَلَغَ الْحَنْثَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَحْجَّ حُجَّةً أُخْرَى، وَأَيُّمَا أَعْرَابِي حَجَّ ثُمَّ هَاجَرَ فَعَلَيْهِ حُجَّةٌ أُخْرَى، وَأَيُّمَا عَبْدٍ حَجَّ ثُمَّ أَعْتَقَ فَعَلَيْهِ حُجَّةٌ أُخْرَى». ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في المجمع.

(٢) الرَضَخُ - بفتح الراء وسكون الضاد وبالحاء المعجمتين - مأخوذ من الشيء المروض وهو المروض المشروخ وهو أن يُعطى شيئاً قليلاً دون سهم المقاتلين. انظر: الزاهر للأزهري (٢٨٣)، المغني في الإنباء عن غريب المذهب والأسماء لابن باطيش (١/٦٣٧).

(٣) وهذه المسألة تعرف في كتب الفقهاء بالمعضوب ومن المتفق عليه أن سلامة البدن من الأمراض والعاهاث التي تعوق عن الحج شرط لوجوب الحج فلو وجدت الشروط في شخص ما وهو مريض لا يستمسك على الراحلة إلا بمشقة عظيمة كهرم وضعف بَيْنَ أو عِلَّةٌ أو شلل أو فالج أو غير ذلك من الأمراض فلا يجب عليه أن يؤدي بنفسه فريضة الحج اتفاقاً، غير أنهم اختلفوا هل صحة البدن شرط لأصل الوجوب أو هي شرط للأداء بالنفس؟ فذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنها شرط للوجوب، وبناء على ذلك لا يجب على فاقد صحة البدن أن يحج بنفسه ولا بإئابة غيره، ولا الإيصاء بالحج عنه في المرض.

وذهب الشافعية والحنابلة وأبو يوسف ومحمد من الحنفية إلى أن صحة البدن ليست شرطاً للوجوب بل هي شرط للزوم الأداء بالنفس، فمن كان هذا حاله يجب عليه الحج بإرسال من ينوب عنه.

انظر تفصيل الأدلة في: المبسوط للسرخسي (٤/١٥٣)، بدائع الصنائع (٢/١٢١)، شرح المذهب (٧/٩٧)، نهاية المحتاج (٢/٣٨٥)، الكافي لابن قدامة (١/٢١٤).

شيخ فأدركته فريضة الحج، وهو لا يستطيع أن يستمسك على الراحلة^(١)؛ أفيجزئ أن أحج عنه؟ فقال ﷺ: «أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكَ ذَيْنِ فَقَضَيْتُهُ عَنْهُ، أَكَانَ يُقْبَلُ مِنْكَ؟» قال: نعم؛ قال: «فَاللَّهِ أَوْلَى بِحَجِّ أَبِيكَ»^(٢) أو كلام نحوه، ولكن ليس في الخبر أن فريضة الحج إنما أدركته في الحال التي لا يستمسك على الراحلة، فيجوز أن أدركته فريضة الحج قبل ذلك؛ فكذلك يقول علماؤنا: إن الحج إذا وجب فأخّر أداءه حتى أعسر - لم يسقط عنه الحج، وكذلك إن^(٣) وجب عليه الحج فلم يحج حتى كبر، فصار لا يستمسك على الراحلة، عليه أن يوصي ليُحجَّ عنه.

ويحتمل - أيضًا - أنه رغبه رسول الله ﷺ في الحج عنه تبرعًا^(٤)، لا أنه ألزمه الحج في ذلك الوقت الذي لا يثبت على الراحلة - وعندنا أنه لا يلزمه؛ لأنه إذا لم يستمسك على الراحلة فلا راحلة له، ثم من قول هذا القائل: إن من لزمه فرض الحج، فله التأخير، وفي التأخير فَوُتَّ أو إدراك المنية، ومن قوله: إنه لو أخر حتى مات يصير فاسقًا؛ فإذا مات مات فاسقًا، يجعل له رخصة^(٥) التأخير، ثم يفسقه؛ فكأنه يجعل له الرخصة في الفسق، فذلك قبيح وخش من القول سمح.

وأما عندنا: فإنه لا يسع له التأخير في أول أحوال الإمكان^(٦) على تمام شرط الاختيار؛

(١) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٢) أخرجه النسائي (٢٢٩/٨): كتاب آداب القضاة: باب الاختلاف على يحيى بن أبي إسحاق فيه، من طريق سليمان بن يسار عن ابن عباس بهذا اللفظ. وأخرجه بنحوه البخاري (٥٤٦/٤): كتاب جزاء الصيد: باب حج المرأة عن الرجل، (١٨٥٥)، ومسلم (٩٧٣/٢): كتاب الحج: باب الحج عن العاجز، (٤٠٧ - ١٣٣٤) من طريق مالك عن ابن شهاب عن سليمان بن يسار عن عبد الله بن عباس أنه قال: كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ. فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر. قالت: يا رسول الله: إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟ قال: نعم. وذلك في حجة الوداع.

(٣) في ب: إذا.

(٤) في ب: متبرعًا.

(٥) الرخصة - بالتسكين - مأخوذة من الترخيص وهو - لغة - السهولة والتيسير، قال الجوهري: الرخصة في الأمر: خلاف التشديد فيه ومن ذلك رخص السعر: إذا تسر وسهل. واصطلاحًا: ما ثبت على خلاف الدليل لعذر أي: هي الحكم الذي شرع ثانيًا دفعًا لحاجة الناس بعد أن اقتضى خلافه دليل متقدم عليه.

انظر: الصحاح للجوهري (رخص)، لسان العرب (١٦١٦/٣) (رخص)، نهاية السؤل مع حاشية الشيخ بخيت (١٢٣/١).

(٦) وهذه المسألة مبنية على أن الحج على الفور أو التراخي. فإن قلنا: إنه على التراخي فلو أخره عن أول عام قدر فيه إلى عام آخر لا يكون عاصيًا بالتأخير ولكن بشرطين:

كغيره من العبادات التي لزمتم، من نحو الصلاة، والصيام، وغيرهما؛ لا يسع التأخير؛ فعلى ذلك الحج. ثم مِنْ قول الشافعي - رحمه الله -: إن على الكافر الحج والصلاة والصيام في حال كفره^(١)، فإذا أسلم سقط ذلك عنه؛ فذلك عندنا لعب وعبت في دين الله - تعالى - غير جائز أن يلزمه فرض في حال لا يجوز له فعله، فإذا جاء سبب الجواز يسقط عنه ذلك.

وفي الآية دلالة أن الحج إنما كان^(٢) فرضاً على المؤمنين خاصة؛ بقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ بالحج ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ فلو كان هو [على]^(٣) الكافر كما هو على المسلم، لم يكن لقوله معنى؛ دل أنه غير لازم، والله أمر بالعبادات باسم المؤمنين. ثم المسألة بيننا وبين المعتزلة في الاستطاعة، قالت المعتزلة: تكون قبل الفعل؛ لأن الله - تعالى - فرض الحج، وأمر بالخروج إليه، إذا قدر على الزاد والراحلة؛ على ما فسره رسول الله ﷺ، وإذا لم يقدر لم يلزمه؛ فدل أنها تتقدم.

= الأول: أن يعزم على الفعل فيما بعد، وإلا حصل الإثم بالتأخير. والثاني: ألا يتضيّق بنذر أو قضاء نسك أو خوف فوات؛ لكبر سن وعجز عن الوصول، أو لضياع مال، فإن تضيّقا بشيء من ذلك وجب عليه الحج فوراً وإلا كان عاصياً بالتأخير. هذا مذهب الشافعية، وقال مالك وأحمد وجمهور أصحاب أبي حنيفة والمزني من الشافعية: إنه على الفور حتى لا يباح له التأخير بعد الإمكان إلى العام الثاني، فإن أخر كان آثماً ويفسق وترد شهادته إلى أن يحج.

وانظر دليل كل فريق في: فتح القدير (١٢٣/٢)، المسلك المتقسط ص (٢٤٢)، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (٢/٢ - ٣)، الأم (١١٧/٢)، روض الطالب (١/٤٥٦)، مغني المحتاج (١/٤٦٠)، الفروع لابن مفلح (٣/٢٤٢).

(١) وهذه المسألة مترجمة بخطاب الكفار بفروع الشريعة، فقد اختلف علماء الأصول في تكليف الكفار بفروع الشريعة على مذاهب، أصحابها: نعم، قال إمام الحرمين في البرهان وهو ظاهر مذهب الشافعي فعلى هذا يكون مكلفاً بفعل الواجب وترك الحرام وبالاعتقاد في المندوب والمكروه والمباح.

والثاني: لا، وهو اختيار أبي إسحاق الإسفراييني.

والثالث: إنهم مأمورون بالنواهي دون الأوامر.

والرابع: إنهم مأمورون بكل شيء عدا الجهاد.

الخامس: تكليف المرتد دون الكافر الأصلي. والصحيح من كتب علماء الأصول أنه مخاطب بالفروع كما هو مخاطب بأصل الإيمان والمراد أنهم لا يطالبون بها في الدنيا مع كفرهم وإن أسلم أحدهم لم يلزم قضاء ما فات بل إنهم يعذبون عليها في الآخرة زيادة على عذاب الكفر. ينظر: البرهان (١/١٠٧)، البحر المحيط للزركشي (٣/٣٦)، الإبهاج لابن السبكي (١/١٧٧)، كشف الأسرار للنسفي (١/١٣٧)، ميزان الأصول (١/٣٠٤).

(٢) في ب: كان ذلك.

(٣) سقط في ب.

وأما عندنا^(١): فهي على وجهين:

أحدهما: استطاعة الأسباب والأحوال.

والثاني: استطاعة الأفعال.

فأما استطاعة الأحوال والأسباب: فيجوز تقدمها، من نحو: الزاد، والراحلة، والجوارح السليمة.

وأما استطاعة الأفعال فإنها لا تكون إلا مع الفعل؛ لأنها استطاعة الفعل وسببه؛ فلا تكون إلا معه، والوقت في الحج لفعل الحج لا للإيجاب؛ لأنه لو كان للإيجاب لكان له ألا يخرج، ولا يأتي ذلك المكان فيجب عليه الحج؛ ولأنه لو لم يلزمه إلا بالوقت، ثم لا يتمكن فعله به دون المكان فيجئ - لا يلزمه إلا بحضور ذلك، فلا يلزمه الخروج أبداً؛ إذ^(٢) الحج غير لازم [إلا بالوقت]^(٣)، ولأنه ليس على العبد أن يتكلف في اكتساب إيجاب العبادات، وعليه أن يجهّد في أداء الواجب عليه.

ثم الأوقات على أقسام ثلاثة:

وقت الإيجاب والأداء جميعاً نحو: الصلاة، والصيام، ونحوهما. ووقت الإيجاب، نحو: الزكاة. ووقت الأداء - وهو الحج - إنما وجوبه بالزاد والراحلة، وأما الوقت: فهو للأداء خاصة، فإذا كان في أقصى بلاد المسلمين فهو لم يعط قدرة فعل الحج؛ لأنه لا يقدر على فعله إذا كان فيما ذكر^(٤)؛ دل أن قدرة الفعل لا تتقدم الفعل، وقدرة الأحوال تتقدم لما ذكرناه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

في الآية دلالة أن الله - عز وجل - إذا أمر عباده بأمر ليس يأمره لحاجة نفسه، ويأمر لحاجة العبد؛ لأنه غني بذاته، لا حاجة تمته، وأما الأمر فيما بين الخلق: فإنما هو لحاجة بعضهم لبعض: إما جر منفعة، أو دفع مكروه، فذلك معنى قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

ثم اختلف في قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾: عن ابن عباس - رضي الله عنه - ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ قال: من زعم أنه لم ينزل^(٥).

(١) ينظر: الهداية (١/١٦٢).

(٢) في ب: إذا كان.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٤) في ب: ذكرنا.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/٤٢٨) برقم (١٠٣٥) من طريق عاصم، وابن جرير (٧/٤٧) برقم (٧٥٠٠) من طريق مقسم كلاهما عن ابن عباس.

وعن الحسن : ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ قال: من زعم أن الحج ليس بواجب^(١).
وقيل : ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ بالله ، قال: هو الذي إن حج لم يرج ثوابه ، وإن جلس لم يخش عقابه^(٢).

وعن ابن عباس^(٣) قال: ﴿مَنْ أَسْطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ، والسبيل أن يصح بدن العبد، وأن يكون له ثمن زاد وراحلة، من غير أن يحجب.

ثم قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ ، يقول: ومن كفر بالحج فلم ير حجه بؤاً، ولا تركه إثماً^(٤).
[وفي] قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ دلالتان:

إحدهما: في الوجوب بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾ ، وأيد ذلك قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ وما جاء من الأثر واتفاق القول.

والثانية: جعل البيت شرطاً للقيام لما هو في قوله: ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ ذلك؛ فيكون فيه دليل لزوم^(٥) الطواف، تفسيره في قوله: ﴿وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، وكذلك أيدته قوله: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وأيد - أيضاً - ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال في امرأة نفست: «أَحَابِسُنَا هِيَ؟»^(٦) قيل: إنها أفاضت. وعلى ذلك اتفاق القول بلزوم الطواف، والله أعلم.

فلما دلّ أن الطواف لازم لم يخل إما أن يكون الطواف المبدأ به في الحج، أو الذي يختم به، والذي يبدأ به لا يلزم كل الناس - ثبت أن الفرض هو الذي يختم به، وهو

(١) أخرجه ابن جرير (٤٨/٧) برقم (٧٥٠٧)، وعن عمران القطان (٤٧/٧) برقم (٧٥٠٣)، وأخرجه ابن أبي حاتم (٤٢٩/٢) برقم (١٠٣٦) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن جرير (٤٨/٧) برقم (٧٥٠٩، ٧٥١٠) عن مجاهد بن جبر، وذكره السيوطي في الدر (٢/١٠١).

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٨/٧) برقم (٧٤٧٦، ٧٤٧٧)، وابن أبي حاتم الرازي (٤٢٥/٢) (١٠٢٦) عن عكرمة.

(٤) أخرجه ابن جرير (٤٩/٧)، (٧٥١٢)، وابن أبي حاتم (٤٢٩/٢) (١٠٣٧)، والبيهقي في الشعب (٤٢٧/٣) (٣٩٧١). وعن أبي داود نفع مرفوعاً أخرجه ابن جرير (٤٨/٧) برقم (٧٥١١)، وذكره السيوطي في الدر (١٠١/٢) وزاد نسبه لابن المنذر.

(٥) الطواف بالبيت ركن من أركان الحج؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩] والمراد به طواف الإنفاضة؛ لانعقاد الإجماع على ذلك ولهذا الطواف أسماء غير ذلك منها طواف الزيارة، وطواف الفرض وقد يسمى طواف الصدر، والأشهر أن طواف الصدر هو طواف الوداع. انظر: هداية السالك لابن جماعة (٤٩/١).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه (٤١٧/٤) كتاب الحج؛ باب: إذا حاضت المرأة بعدما أفاضت، ومسلم في صحيحه (٩٦٤/٢): كتاب الحج باب وجوب طواف الوداع وسقوطه عن الحائض (١٢١١). وأحمد في المسند (٩٩، ٣٩/٦).

قوله: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾: أوجب جعل السبيل إليه والإمكان - شرطاً للوجوب؛ إذ الآية في ذكر الوجوب لا الفعل؛ وعلى ذلك جميع العبادات، جعل الإمكان في وجوبها شرطاً بالسمع بقوله: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وغير ذلك مما ذكر في كل نوع من العبادات من الاستطاعة؛ وكذا حق هذا بالفعل، وذلك يخرج على وجهين:

استطاعة الفعل من القدرة التي تحدث لا محالة ما سلمت الأسباب، إلا أن يكون ممن منه الفعل الإعراض عنها بالشغل بغير تلك الأفعال، أو اشتغال ذلك بالفعل؛ فيكون فوت الاستطاعة بتضييعه، ولا عذر بفوت ما كان المكلف يفوته، كفوت العلم به على الإمكان، وإن كان لا يقوم دونه، والذي يؤيد أن هذه الاستطاعة ليست بشرط في الإيجاب أنها لا تبقى، ثم محال وجودها في حال لو أريد إقامة الحج لا يتهيأ، وذلك نحو أن يكون في أقصى البلاد من مكة، ومعلوم أن القدرة التي بها يكون الفعل ليست معه، ومحال تكليف السبب الذي به يجب الفعل؛ فلذلك لم يجب^(١) تكليف بالخروج ولا أمر بالحج؛ فكأنه يؤمر بتكليف سبب الإيجاب - ثبت أن قد يجب الحج لا بتلك القوة؛ وكذلك يجوز في الكفارات^(٢) استعمال الأبدال في حال العجز^(٣)، وإن كان لا يعلم أن العجز يمتد إلى آخر ما يقوم به الأصل، بل على ظهور ألا يمتد بمضى البدل - ثبت أن لا عبرة لفقد قدرة الفعل ووجودها في التكليف، والله أعلم.

والثاني: يراد بالاستطاعة: سلامة الأسباب، ولا يجوز التكليف دونها بالفعل؛ لأنه ممنوع، ومحال أمر الممنوع عن الفعل - به؛ كالأعمى، والمقعّد، ونحو ذلك، وإلى مثل هذا انصرف شرط الاستطاعة، وهو اللازم في العقل؛ لما القرب بحق الشكر لما أنعم على المأمور، فإذا منع عنه السبب الذي هو النعمة لم يحتمل أن يؤمر بالشكر ولا نعمة، والله أعلم.

(١) في ب: يجوز.

(٢) الكفارات: جمع مفردة: كفارة، وهي في الأصل صفة مبالغة، كعلامة، ثم غلب استعمالها اسماً فيما يستر الذنب ويمحوه، ومادتها مأخوذة من «الكفر»، ومعناه: الستر، ومنه سمي الليل: كافراً. وفي الاصطلاح: هي اسم لأشياء مخصوصة طلبها الشارع عند ارتكاب مخالفات معينة. انظر: لسان العرب (٣٨٩٩/٥) (كفر)، البجيرمي على الخطيب (١٤/٤).

(٣) لورود التخيير في الآية، انظر مثلاً كفارة اليمين في قول الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتُمْهُ، إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ يَنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّرتُمْ أَيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ الآية [المائدة: ٨٩] وردت بـ «أو» التي هي للتخيير.

وعلى ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن ذلك؛ فقال: «الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ»^(١).
والله الموفق.

وعلى ما ذكرت يخرج قول أبي حنيفة - رضي الله عنه - في وجوب الحج: وإن لم يدرك الوقت الذي فيه يقوم الحج على ما لزمه، وإن لم يكن أصاب المكان الذي فيه يقام - والله أعلم بظاهر الآية مع ما ذكرنا من بيان الأثر.
وأصله: أن الوقت في الحج جعل لجواز الفعل؛ إذ هو لو فات لا يحتمل في غيره، وكل فعل يجوز في غير وقته فما يقرب من الوقت به كان أحق بالجواز، فإذا لم يجز هذا وجاز في مثله من القابل - ثبت أنه للجواز لا للوجوب؛ وأيد ذلك ما لا يوصف بالقضاء^(٢) متى أدى، ولو كان في الأول واجباً لوقت الأول لكان يكون في الثاني قاضياً، فإذا لم يكن: ثبت أنه ليس لوجوبه وقت، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِعَٰثِرِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَٰهِدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبِعُونَهَا ءَوْجًا وَٱنتُم شَٰهِدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ ءِيمَٰنِكُمْ كَفِرِينَ﴾ (١٠٠)
وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِعَٰثِرِ ٱللَّهِ﴾:
[وآيات الله]^(٣) ما ذكرنا فيما تقدم بمحمد ﷺ بالقرآن والحجج.
﴿وَاللَّهُ شَٰهِدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾:

هو حرف وعيد وتنبيه؛ ينبئهم عن صنيعهم؛ ليكونوا على حذر من ذلك.
وقوله: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبِعُونَهَا ءَوْجًا﴾.
يحتمل قوله: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَن ءَامَنَ﴾ من الأتباع الذين كان^(٤) إيمانهم إيماناً تقليدياً، لا إيماناً بالعقل؛ لأن من كان إيمانه إيماناً بالعقل فهو لا يصد، ولا يصرف عنه أبداً؛ لما عرف حسن الإيمان وحقيقته بالعقل، فهو لا يترك أبداً، وأما من كان إيمانه

(١) تقدم تخریجه.

(٢) القضاء في اصطلاح علماء الأصول: عبارة عن تسليم مثل الواجب في غير وقته المعين شرعاً أو هو ما فعل بعد وقت الأداء استدراكاً لما سبق له وجوب مطلقاً أخره عمداً أو سهواً، تمكن من فعله - كالمسافر - أو لم يتمكن لمانع من الوجوب شرعاً كالحائض - أو عقلاً - كالنائم.

انظر: ميزان الأصول (١/١٦٨)، مختصر ابن الحاجب ص (٣٥)، شرح الكوكب المنير (١/٣٦٧).

(٣) في ب: وآياته.

(٤) في ب: كانوا.

إيمان تقليد: فلم يكن إيمانه إيماناً حقيقة، فمثله يصد عنه، إلا أن من يمن الله عليه فيشرح صدره؛ حتى يكون على نور منه، وذلك أحد وجوه اللطف.

والمقلد غير معذور؛ لما معه [ما]^(١) لو استعمله لأوضح له الطريق، وأراه قبح ما آثر من التقليد، ولا قوة إلا بالله^(٢).

ويحتمل قوله: ﴿لَمْ تَصُدُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾، أي: لم تقصدون قصد صداهم عن سبيل الله، وهم لا يرجعون إلى دينكم، أبأس منه إياهم عن أن يرجعوا عن دينهم الذي عليه؛ كقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] فيه إياس الكفرة عن رجوع المسلمين إلى دينهم.

وقيل^(٣): كانوا يصرفون المؤمنين عن الحجج^(٤).

وقوله: ﴿تَبْعُونَهَا عِوَجًا﴾، والعوج: هو غير طريق الحق، وهو الزيغ والتعوج عن الحق.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾، ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: واحد، وفي حرف حفصة - رضي الله عنها-: «وأنتم شهداء على الناس».

وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: هو حرف وعيد وتنبيه؛ لأن من علم أن عليه رقيباً وحافظاً، يكون أحرص وأخوف ممن لم يكن عليه ذلك.

قال الشيخ - رحمه الله -: وفيه أنه لا غفلة بالذي يكون منكم خلقكم، ولكن على علم؛ لتعلموا أنه لا للحاجة خلقكم؛ بل لإظهار الغنى والسلطان، جلّ جلاله، وعم نواله.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الآية.

الآية تحتل وجوهاً:

أحدها: معلوم أن المؤمنين لا يطيعون الكفار بحال في الكفر، ولكن معناه - والله

(١) سقط من ب.

(٢) في ب: والله الموفق.

(٣) أخرجه ابن جرير (٥٧/٢) (٧٥٢٥)، وابن أبي حاتم (٤٣٣/٢) (٤٣٤) (١٠٥٤) عن السدي، وعن قتادة أخرجه ابن جرير (٧٥٢٦)، وابن أبي حاتم (٤٣٣/٢) (١٠٥٢)، وابن جرير (٧٥٢٧)، وذكره السيوطي في الدر (١٠٤/٢).

(٤) وقيل: يصدون عن محمد ويمنعون من اتباعه المؤمنين به، بكتمانهم صفته التي يجدونها في كتبهم. ومحمد على هذا القول هو السبيل، و﴿تَبْعُونَهَا عِوَجًا﴾ [آل عمران: ٩٩] ييغون محمداً هلاكاً. ينظر: تفسير الطبري (٥٨-٥٧/٧).

أعلم - أن يدعوهم إلى شيء لا يعلمون أن في ذلك كفرًا، نهاهم أن يطيعوهم، وفي كل ما يدعوكم إليه كفر وأنتم لا تعلمون.

ويحتمل: النهي عن طاعتهم، نهاهم عن أن يطيعوهم، وإن كان يعلم أنهم لا يطيعونهم؛ كما نهي الرسول ﷺ في غير آي من القرآن، كقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]؛ فكذلك هذا.

قال الشيخ - رحمه الله - : ويشبه أن تكون الآية في عرض أمور عظام ترغب فيها النفس ليكفر بها؛ فحذر عن ذلك بما بين من الاعتناد والخسار في آية أخرى؛ ليعلموا أن ذلك تجارة مخسرة، وقد كانت لهم ولأهل كل دين ومذهب هذا الاعتناد^(١)، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١١١) **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** ﴿١١٢﴾ **وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴿١١٣﴾

وعلى ذلك قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾.

على أن الذي أراكم الرسول ﷺ ألد للعقول، وأروح للأبدان مما وعدوه مع سوء المآب، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾:

وهو على وجه التعجب ظاهر، ولكنه على طلب الحجة في كفرهم.

﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾

يدفع عنكم الشبهة التي عرضت لكم بإلقاء الكفار إليكم.

﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾:

أي: من جعل الله - عز وجل - ملجأ له، ومفرغًا إليه عند الشبه والإشكال.

﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

أي: يحفظه عن الشبه، ويرشده إلى صراط مستقيم، والله أعلم.

ويحتمل: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾: يتمسك بالذي جاء من القرآن، ﴿فقد هدى إلى صراط

مستقيم ﴿١﴾.

وقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾:

رؤي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: «﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾: أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر^(١)، ويذكر فلا ينسى^(٢)، وأراد: حق تقاته؛ مما يحتمل وسع الخلق. ورؤي في حرف حفصة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ أي: اعبدوا الله حق عبادته^(٣)، وهذا في اعتقاد التوحيد. وروي عن أنس - رضي الله عنه - يقول: «لا يتقي الله أحد حق تقاته حتى يخزن من لسانه، ويعد كلامه من عمله»^(٤).

وقيل ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾: أطيعوا الله حق طاعته.

وقيل: إن هذا نسخها قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(٥) الآية [التغابن: ١٦]؛ لكن لا يحتمل أن يأمر الخلق بشيء ليس في وسعهم القيام به، ثم ينسخ ذلك بما يستطيع، ولكن أصله ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ عِبَادِهِ حَقًّا، وَلِعِبَادِهِ عَلَيْهِ حَقًّا، وَحَقُّ اللَّهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ: أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ، وَلَا يُشْرِكَ بِهِ. وَحَقُّ الْعَبْدِ عَلَى اللَّهِ: أَنْ يُدْخِلَهُ»^(٦)

(١) زاد في ب: أي: لا يغفل.

(٢) أخرجه الطبري (٦٥/٧) (٧٥٣٦، ٧٥٣٧) وابن أبي حاتم (٤٤٦/٢) (١٠٧٩)، وابن المبارك في «الزهد» (ص ٨)، وسفيان الثوري في «تفسيره» (ص ٣٨)، وابن أبي شبة في مصنفه (٢٩٧/١٣) رقم (١٦٤٠٠)، والحاكم (٢/٢٩٤)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص ٨٨)، والطبراني في «الكبير» (٨٥٠١) عن ابن مسعود، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٥٠/٢) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد والفريابي وابن المنذر. وينظر تفسير البغوي (١/٣٣٣). وهو قول مرة الهمداني، والربيع بن خثيم وعمرو بن ميمون والحسن وطائوس وقتادة وإبراهيم التيمي وأبي سنان والسدي. وينظر: تفسير ابن أبي حاتم (٤٤٧، ٤٤٦/٢) (١٠٨٠) - (١٠٨٨) وتفسير الطبري (٦٧-٦٥/٧) (٧٥٣٨ - ٧٥٥١).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٢/٢٠)، وزاد في ب: وهذا في اعتقاده، وهذا في اعتقاده.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٤٨/٢) (١٠٨٩) من طريق عطاء الواسطي عن أنس. وعطاء هو ابن عجلان متروك وكذبه ابن معين والفلاس وغيرهما. ينظر: التقريب (٢/٢٢). وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٥٠/٢) وعزاه لابن أبي حاتم فقط.

(٥) وهو قول سعيد بن جبير وزيد بن أسلم وأبي العالية وقتادة ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والسدي. فأخرجه ابن أبي حاتم (٤٤٩/٢) (١٠٩١) عن سعيد بن جبير، وأخرجه الطبري (٦٨/٧) (٧٥٥٦)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» ص (٨٨) عن قتادة. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٠٦/٢) وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبي داود في ناسخه. وأخرجه الطبري (٧/٦٩) (٧٥٥٨) عن الربيع بن أنس، وأخرجه (٧٥٥٩) عن السدي، وينظر تفسير ابن أبي حاتم (٢/٤٥٠) (١٠٩٢ - ١٠٩٧)، وروي أيضًا عن ابن مسعود وابن عباس، فأخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (١٠٥/٢) من طريق عكرمة عن ابن عباس. وأخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود كما في «الدر» (١٠٦/٢).

(٦) في ب: يدخل.

الْجَنَّةِ؛ إِذَا عَبْدَهُ، وَلَمْ يُشْرِكْ غَيْرُهُ فِيهِ أَحَدًا»^(١) ليكون هذا تأويلًا للآية أن قوله: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ﴾ ولا تكفروا؛ فيكون فيه الأمر بالإيمان، والنهي عن الكفر؛ لأنه ليس في وسع أحد أن يتقي الله حق تقاته في كل العبادة؛ ألا ترى إلى ما روي من أمر الملائكة مع ما وصفوا من عبادتهم أنهم ﴿لَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] و﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]، ثم يقولون: ما عبدناك حق عبادتك؟! وإذا كان أحد لا يبلغ ذلك فلا يحتمل تكليف مثله، وجملته: أن ذلك ليس بذي حدٍّ وغاية، فلذلك كان - والله أعلم - الأمر فيه راجع إلى الإسلام، أو في نفي حق الإشراك خاصة، لا في جميع الأحوال والأفعال، دليله ما ختم به الآية، وفي وسع الخلق ألا يشركوا أحدًا في عبادته؛ ألا ترى أنه قال: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؟! وفي ظاهر الآية النهي عن الموت إلا مسلمًا، وليس في الموت صنع للخلق، والمعنى - والله أعلم -: أي: كونوا في حال إذا أدرككم الموت كنتم مسلمين؛ فالنهي فيه نهى عن الكفر، والأمر بالإسلام، حتى إذا أدركه الموت أدركه وهو مسلم، والله أعلم.

وقد يكون على بيان ألا عذر عند الموت - وإن اشتد أمره - بالذي ليس بإسلام. وروي عن أبي حنيفة - رضي الله عنه - أنه قال: «أكثر ما يسلب الإيمان عند الموت؛ كان الشيطان يطمعه في أمر لو أعطاه ما طلب». ويحتمل قوله: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ أي: احذروا عذاب الله حق حذره، واحذروا نقمته؛ كقوله: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ بمعنى نقمته. وقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾: اختلف فيه؛ قيل: حبل الله؛ يعني: القرآن، وهو قول ابن مسعود، رضي الله عنه^(٢).

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «حبل الله: الجماعة، وإنما هلك الأمم

(١) أخرجه البخاري (٢٠٤/٩) كتاب التوحيد: باب دعاء النبي ﷺ أمته... حديث (٧٣٧٣)، ومسلم كتاب الإيمان حديث (٥٠)، وأحمد (٢٢٨/٥)، والترمذي (٢٦٤٣) من حديث معاذ أنه ﷺ قال: «أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟ فقلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله ألا يعذب من لم يشرك به شيئًا».

(٢) أخرجه الطبري (٧٢/٧) (٧٥٦٦) عن ابن مسعود، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٠٧/٢) وزاد نسبه إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن الضريس وابن الأنباري في المصاحف والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب.

وينظر: الوسيط (٤٧٣/١)، وتفسير البغوي (٣٩١/١)، وهو أيضًا قول قتادة والسدي والضحاك، ينظر: تفسير الطبري (٧٢-٧١/٧) (٧٥٦٧، ٧٥٦٧، ٧٥٦٤).

الخالية بتفرقها»^(١)، أمر بالكون مع الجماعة، ونهي عن التفرق؛ لأن أهل الإسلام هم الجماعة؛ ألا ترى أنه قال في آية أخرى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وصف أهل دين الإسلام بالجماعة، وأهل أديان غيرها بالتفرق.

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - أيضًا - قال: حبل الله: الجماعة^(٢).
وروي في بعض الأخبار أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ»^(٣) يعني: حبل الإسلام.
وروي عنه - أيضًا - قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ ذَنْبُ [الإنسان]^(٤) كَذُوبُ الْغَنَمِ، يَأْخُذُ الشَّادَةَ»^(٥) والقاصية^(٦) والنَّاحِيَةُ^(٧)، فَإِذَا كُنَّ وَالشَّعَابِ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ وَهَذَا الْمَسْجِدِ»^(٨).

وروي عن علي [بن أبي طالب]^(٩) - رضي الله عنه - قال: «دعاني النبي ﷺ ليلة ثلاث مرات، ثم قال: «يَكُونُ فِي أُمَّتِي اخْتِلَافٌ»، قلت: كيف نصنع يا رسول الله إذا كان كذلك؟ قال: «عَلَيْكُمْ بِكَتَابِ اللَّهِ؛ فَإِنَّ فِيهِ نَبَأٌ مِّنْ قَبْلُكُمْ، وَخَبَرٌ مَّا بَعْدُكُمْ، وَهُوَ حَكْمٌ فِيمَا بَيْنَكُمْ، مَن يَدْعُهُ مِنْ جَبَّارٍ يَقْصِمُهُ»^(١٠) الله، وَمَنْ طَلَبَ الْهُدَى فِي غَيْرِهِ يُضِلَّهُ اللهُ، وَهُوَ خَبْلُ اللهِ الْمَتِينِ، وَأَمْرُهُ الْحَكِيمِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَخْتَلِفُ فِيهِ الْأَلْسِنَةُ،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٥٥/٢) (١١٠٦) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/١٠٧) وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٧١/٧) (٧٥٦٢)، وسعيد بن منصور (٥٢٠)، والطبراني (٩٠٣٣) من طريق الشعبي عن ابن مسعود، وإسناده فيه انقطاع، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/١٠٧) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) أخرجه الحاكم (٧٧/١) من حديث ابن عمر، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.
(٤) ما بين المعقوفين غير موجود بالأصل ومثبت من مسند أحمد، وانظر التخريج.

(٥) الشاذة: ما اُفترق من الغنم. ينظر: اللسان (٤/٢٢٢٠) (شذذ).

(٦) القاصية: البعيدة، وكل شيء تنحى عن شيء، فقد قصا يقصو قصوا فهو قاص. ينظر: اللسان (٥/٣٦٥٧) (قصا).

(٧) الناحية: الجانب، وأهل المنحاة: القوم البعداء ولعل المراد: الشاة البعيدة عن القطيع. ينظر: اللسان (٦/٤٤٤٥) (نحي).

(٨) أخرجه أحمد (٥/٢٣٢، ٢٤٣)، وعبد بن حميد (١١٤) من حديث ابن مسعود، وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/٢٢٢): رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات إلا أن العلاء بن زياد قيل: إنه لم يسمع من معاذ.

(٩) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(١٠) يقصمه: يكسره كسراً فيه بينونة. والقصم: كسر الشيء الشديد حتى يبين. ينظر: اللسان (٥/٣٦٥٦) (قصم).

وَلَا يَخْلُقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ»^(١).

وقيل: حبل الله: دين الله^(٢).

والحبل: هو العهد^(٣)؛ كأنه أمر بالتمسك بالعهود التي في القرآن، والقيام بوفائها، والحفظ لها، ونهي عن التفرق كما تفرقت الأمم الخالية، واختلفت في الأديان.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾: بمحمد ﷺ^(٤).
وقيل: أَلَّفَ بين قلوبكم بالإسلام^(٥).

وقيل: بالقرآن، ولم يكن ذلك للذين نفسهم، ولكن بلطف من الله من به على أهل دينه، وأخبر أن التأليف بين قلوبهم نعمة؛ لأن التفرق يوجب التباعد، والتباعد يوجب القتال؛ وفي ذلك التفاني.

وعلى قول المعتزلة: ليس من الله على المسلم من النعمة، إلا ومثلها يكون على الكافر؛ لأن الهدى والتوفيق - عندهم - هو البيان، فذلك البيان للكافر كهو للمسلم؛ وعلى قولهم - لا يكون من الله على أحد نعمة؛ لأنهم لا يجعلون لله في الهداية فعلاً، إنما ذلك من الخلق، وأما عندنا: فإنما يكون الإسلام بهديته إياه، فذلك من أعظم النعم عليه.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾:

أي: صرتم بنعمته إخواناً.

وقوله: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾:

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩١/١)، وابن أبي شيبة (٤٨٢/١٠)، والترمذي (٢٩/٥) كتاب فضائل القرآن: باب ما جاء في فضل القرآن (٢٩٠٦)، والبخاري (٨٣٤، ٨٣٦-كشف الأستار)، وأبو يعلى في مسنده (٣٦٧) من طريق الحارث الأعور عن علي، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات وإسناده مجهول وفي حديث الحارث مقال.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره (٣٣٣/١) عن ابن عباس، وينظر الباب في علوم الكتاب (٤٣١/٥).

(٣) وهو قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة أخرجه الطبري (٧١/٧) (٧٥٦٥) وعبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٩/١) عن قتادة. وينظر: تفسير البغوي (٣٣٣/١)، واللباب في علوم الكتاب (٥/٤٣١).

(٤) وفيه قصة طويلة في الصلح بين الأوس والخزرج ذكرها محمد بن إسحاق وغيره من أهل العلم بالأخبار وينظر تفسير البغوي (٣٣٣ - ٣٣٨)، واللباب في علوم الكتاب (٤٣٩/٥ - ٤٤٥)، والوسيط (٤٧٤/١)، وينظر أيضاً تفسير الطبري (٧٩/٧-٨١).

(٥) أخرجه الطبري (٨٢/٧) (٧٥٨٨) عن السدي، وابن أبي حاتم (٤٥٧/٢) (١١١٣)، وروي أيضاً عن مجاهد ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس، وينظر: معاني القرآن للنحاس (٤٥٤/١)، المحرر الوجيز (٢٥٠/٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤٥٧/٢) (١١١٤ - ١١١٧)، والوسيط (٤٧٤/١).

أي: كنتم أشقيتم حفرة من النار، وهو القريب منها، لولا أنه من الإسلام. ويحتمل أن يكون على الكون فيها والوقوع، لا القرب^(١)؛ كقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦] ليس على الرؤية خاصة؛ ولكن على الوقوع فيها؛ وكقوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [آل عمران: ١٠٦] ليس على البعد منها؛ ولكن على الكون فيها، ومثله كثير يترجم على^(٢) الوقوع فيها.

وقوله: ﴿حُفْرَةٍ﴾: كأنه قال: كنتم على شفا درك^(٣) من دركات النار، ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾. وهذا - أيضاً - على المعترلة؛ لأن على قولهم: هم الذين ينقذون أنفسهم، لا الله، على ما ذكرنا، [والله أعلم]^(٤).

قال الشيخ - رحمه الله - نقول: إذا كان الله - تعالى - عندهم قد جمع بين الكفرة والبررة في بذل الأصلح لهم في الدين، وليس منه غير ذلك فلا يجيء أن يمن عليهم به يتألف بنعمته، والتي منه موجود مع التفرق؛ بل أولئك تألفوا بنعمتهم. وبعد؛ فإن النعمة لو كانت ديناً، فما الذي كان منه حتى يمن، وذلك فعلهم بلا فضل منه فيه؟! والله أعلم. وفي قوله: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ﴾ الآية: أنه قد يلزم خطاب الإيمان حين الفترة^(٥)؛ لأنهم في ذلك الوقت كانوا قد أنقذوا، والله الموفق.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾: إذ كنتم أعداء في الجاهلية والكفر، متفرقين، وصرتم إخواناً في الإسلام؛ كلمتكم واحدة. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: لكي تعرفوا نعمته ومنته.

قال الشيخ - رحمه الله - وقد يكون: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ في حادث الأوقات؛ لتكونوا فيها مهتدين كما اهتديتم؛ فيكون في ذلك وعد التوفيق والبشارة، والله أعلم.

(١) ينظر الوسيط (٤١/٤٨)، ومعاني القرآن للنحاس (١/٤٥٥)، تفسير البغوي (١/٣٣٨)، واللباب في علوم الكتاب (٥/٤٤٦ - ٤٤٧).

(٢) في ب: عن.

(٣) الدُّرْك: أقصى قعر الشيء، وأسفل كل شيء ذي عمق، كالركية ونحوها. اللسان (٢/١٣٦٥) (درك).

(٤) بدل ما بين المعقوفين في ب: والله الموفق.

(٥) الفترة: ما بين النبين، كما بين نوح وإدريس وما بين عيسى ونبينا صلى الله عليهم وسلم أجمعين، مأخوذ من الفتور، وهو الغفلة؛ لأنهم تركوا بلا رسول. ينظر: النشر الطيب على شرح الشيخ الطيب (١/٣٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِمَا رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)

وقوله: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ .
وقوله: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾

يحتمل أن يكون هذا خبراً^(١) في الحقيقة، وإن كان في الظاهر أمراً؛ فإن كان خبراً ففيه دلالة أن جماعة منهم إذا قاموا على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر - سقط ذلك عن الآخرين؛ لأنه ذكر فيه حرف التبعية، وهو قوله: ﴿مِنْكُمْ أُمَّةٌ...﴾ الآية.
ويحتمل أن يكون على الأمر في الظاهر والحقيقة جميعاً، ويكون قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ - صلة، فإن كان على هذا ففيه أن على [كل]^(٢) أحد أن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، وذلك واجب؛ كأنه قال: كونوا أمة ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الآية؛ لأنه ذكر - جل وعز - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أي كثيرة من كتابه، منها هذا: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ...﴾ الآية، ومنها قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، وذم من تركهما بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

وروي عن عكرمة^(٣) أن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال له: «قد أعياني أن أعلم ما

(١) الخبر - لغة - : مشتق من الخبر وهي الأرض الرخوة؛ لأن الخير يثير الفائدة؛ كما تثير الأرض الغبار إذا قرعها الحافر ونحوه وهو نوع مخصوص من القول، وقسم من الكلام اللساني وقد يطلق على الإشارات الخالية والدلائل المعنوية

واصطلاحاً: هو كلام تام يكون لنسبته خارج تطابقه تلك النسبة أولاً تطابقه فإن طابقت النسبة الخارج فتلك المطابقة صدق، وإلا فكذب. راجع: اللسان (١٠٩٠/٢) (خبر). ومذكورة التوحيد للشيخ صالح شرف (ص: ٥٢)، شرح العضد (٤٥/٢)، حاشية التفنازاني (٤٥/٢)، شرح الإسنوي (١٩٥/١)، مفتاح السعادة (٤٨٦/٢)، (٤٨٧).

(٢) سقط في ب.

(٣) هو عكرمة البربري مولى ابن عباس، أبو عبد الله أحد الأئمة الأعلام، روى عن عائشة وأبي هريرة ومعاوية وخلق، وروى عنه الشعبي وإبراهيم النخعي، وغيرهما. مات سنة ١٠٥ هـ.
ينظر: الخلاصة (٢/٢٤٠)، سير أعلام النبلاء (١٢/٥) رقم (٩).

يفعل بمن أمسك عن الوعظ، فقلت: أنا أعلمك ذلك، اقرأ الآية الثانية: ﴿أَجْمِنَا الَّذِينَ يَتَهَوَّنَ عَنِ الشُّؤْمِ...﴾ [الأعراف: ١٦٥]، فقال لي: أصبت^(١).

فاستدل ابن عباس - رضي الله عنه - بهذه الآية على أن الله أهلك من عمل السوء، ومن لم ينه عنه من يعمل، فجعل - والله أعلم - الممسكين عن نهى الظالمين مع الظالمين في العذاب.

وقد روي عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: «يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ، فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ - أَوْشَكَ أَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»^(٢).

وعن جرير^(٣) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ فِي الْقَوْمِ، وَيَعْمَلُ فِيهِمْ بِمَعَاصِي الرَّحْمَنِ، وَهُمْ أَكْثَرُ مِنْهُ وَأَعَزُّ، وَلَوْ شَاءُوا أَنْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ لَأَخَذُوا عَلَى يَدِهِ، فَيَرْهَبُوا لَهُ؛ فَيُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِهِ»^(٤).

وعن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَغْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُتَنَكَّرِ، أَوْ لَيُعَذِّبَنَّ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُوهُ وَلَا يَسْتَجِيبَ لَكُمْ»^(٥).

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/٢٤٠ - ٢٤٢) وسيأتي مفصلاً في سورة الأعراف.
(٢) أخرجه أحمد (١/٥٧، ٩)، وأبو داود (٢/٥٢٥) كتاب الملاحم: باب الأمر والنهي (٤٣٣٨)، والترمذي (٤/٤٠، ٤١) كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب (٢١٦٨)، وابن ماجه (٥/٤٨١) كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥)، وعبد بن حميد (١)، والحميدي (٣)، وأبو يعلى (١٢٨، ١٣٢)، وابن حبان (٣٠٤)، والبخاري (٦٥، ٦٦) - كشف الاستار، والطبراني في الأوسط (٢٥٣٢)، والبيهقي (٩١/١٠) من حديث أبي بكر الصديق.

(٣) هو جرير عبد الله بن جابر البجلي، صحابي أسلم، وصحب النبي ﷺ، واستعمله على اليمن، وشارك في الفتوحات، وكان على ميمنة الناس يوم القادسية، ويلقب بيوسف هذه الأمة. مات سنة ٥١ هـ، وقيل: ٥٤ هـ.

الخلاصة (١/١٦٣)، سير الأعلام (٢/٥٣٠)، رقم (١٠٨).

(٤) أخرجه أبو داود (٢/٥٢٦) كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٣٩) من حديث جرير بن عبد الله البجلي.

(٥) أخرجه أحمد (٥/٣٨٨)، والترمذي (٤/٤١، ٤٢) أبواب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢١٦٩)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٥/٢٣٤)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وعن أبي سعيد الخدري يذكر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذَا رَأَيْتَ مُنْكَرًا أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فَإِذَا اللَّهُ لَقَّنَ عَبْدًا حُجَّتَهُ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، وَثِقْتُ بِكَ، وَفَرَّقْتُ مِنَ النَّاسِ»^(١).

وعن أبي هريرة^(٢) - رضي الله عنه - قال: اجتمع نفر من أصحاب رسول الله ﷺ [فقالوا: يا رسول الله]^(٣)، أرأيت إن قلنا بالمعروف حتى لا يبقى من المعروف إلا ما عملنا به، وانتبهنا عن المنكر حتى لا يبقى، أسعنا ألا نأمر بالمعروف ولا ننهي عن المنكر؟ فقال: «مُزُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ كُلَّهُ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تُنْهَوْا عَنْهُ»^(٤).

ولا ينبغي للرجل أن يقول: لست ممن يعمل^(٥) بالمعروف كله، وينتهي^(٦) عن المنكر كله، حتى أمر غيري وأنهاء، فإن فعله المعروف واجب عليه، فلا يجب إذا قصر في واجب أن يقصر في غيره.

وقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

يحتمل وجوها:

يحتمل: ﴿كُنْتُمْ﴾: أي: صرتم خير أمة أظهرت للناس؛ بما تدعون الخلق إلى النجاة والخير.

ويحتمل: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ في الكتب السالفة؛ بأنكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر.

ويحتمل: تكونون خير أمة إن أمرتم بالمعروف، ونهيتهم عن المنكر.

ويحتمل: ﴿كُنْتُمْ﴾: صرتم خير أمة، وكانوا كذلك هم خير ممن تقدمهم من الأمم؛

(١) أخرجه أحمد (٢٧/٣، ٢٩، ٧٧)، وابن ماجه (٤٨٩/٥)، (٤٩٠) كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ...﴾ [المائدة: ١٠٥] (٤٠١٧)، والحميدي (٧٣٩)، وعبد بن حميد (٩٧٤)، وأبو يعلى (١٠٨٩، ١٣٤٤)، وابن حبان (٧٣٦٨)، والبيهقي (٩٠/١٠) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الحافظ، صحابي أكثر من الرواية عن النبي ﷺ، ولزم النبي ﷺ كثيرا حتى صار أحفظ الصحابة للحديث وأرواهم له. مات سنة ٥٩هـ. راجع: الخلاصة (٢٥٢/٣)، سير الأعلام (٥٧٨/٢) رقم (١٢٦).

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٤) ذكره الهيثمي في «المجمع» (٢٨٠/٧) من حديث أنس وقال: رواه الطبراني في الصغير والأوسط من طريق عبد السلام بن عبد القدوس بن حبيب عن أبيه وهما ضعيفان.

(٥) في ب: يأمر.

(٦) في ب: ينهي.

بما بذلوا مهجهم لله في نصر دينه، وإظهار كلمته، والإشفاق على رسوله، حتى كان أحب إليهم من أنفسهم؛ ويرونه أولى بهم، والله الموفق.

ثم اختلف في المعروف والمنكر، قيل: المعروف: كل مستحسن في العقل فهو معروف، وكل مستقبح فيه فهو منكر^(١).

ويحتمل الأمر بالمعروف: هو الأمر بالإيمان، والنهي عن المنكر: هو النهي عن الكفر؛ دليله: قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ الآية، يؤمنون هم، ويأمرون غيرهم بالإيمان، وينهون عن الكفر.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾:

لأن التفرق هو سبيل^(٢) الشيطان بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾: والبيّنات: هي الحجج التي أتت بها.

ويحتمل: بيان ما في كتابهم من صفة [رسولنا]^(٣) محمد ﷺ ونعته [الشريف]^(٤).

ويحتمل: تفرقوا عما نهج لهم الله، وأوضح لهم الرسل؛ فأبدعوا لأنفسهم الأديان بالأهواء، فحذرنا ذلك، وعرفنا أن الخير كله في اتباع من جعله الله حجة له، ودليلاً عليه، وداعياً إليه، ولا قوة إلا بالله.

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾:

دلّ هذا أن السبيل هو الذي يدعو الشيطان إليها.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ...﴾ الآية:

وصف الله - عز وجل - وجوه أهل الجنة بالبياض؛ لأن البياض هو غاية ما يكون به الصفاء؛ لأن كل الألوان تظهر في البياض، ووصف - عز وجل - وجوه أهل النار بالسواد؛ لأن السواد هو نهاية ما تكون به الظلمة؛ إذ الألوان لا تظهر في السواد فهو شبيه بالظلمة.

وقد يحتمل أن يكون المراد من وصف البياض والسواد - ليس نفس البياض والسواد؛ ولكن البياض هو كناية عن شدة السرور والفرح، والسواد كناية عن شدة الحزن والأسف؛

(١) ينظر: الوسيط (١/٤٧٥)، واللباب في علوم الكتاب (٥/٤٥٠ - ٤٥١).

(٢) في ب: سبل.

(٣) سقط من ب.

(٤) سقط من ب.

كقوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ. صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩]، ووصف وجوه أهل الجنة بالضحك، وليس على حقيقة الضحك؛ ولكن وصف بغاية السرور والفرح؛ وكذلك وجوه أهل النار وصفها بالغبر والقتل؛ وهو وصف بشدة الحزن^(١)، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾:

يحتمل وجوها:

يحتمل: أكفرتم بألسنتكم بعدما شهدت خلقتكم بوحدانية الله تعالى؛ لأن خلقه كل أحد تشهد على وحدانيته.

ويحتمل: أي: كفرتم بعدما آمنتم بمحمد ﷺ قبل أن يبعث بوجودكم، نعتة وصفته في كتابكم^(٢) وعلى هذا قال بعض أهل التأويل: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ﴾ [الشورى: ١٦]: أي: على استجابة كثير منهم من الأجلة والكبراء، الذين لا يعرفون بالتعنت في الدين ولا بالتقليد، [والله أعلم]^(٣).

ويحتمل قوله: أكفرتم أنتم بعد أن آمن منكم فرق؟!؛ لأن منهم من قد آمن، ومنهم من كفر، فقال لمن كفر: أكفرتم أنتم وقد آمن منكم نفر؟! ألا ترى أنه قال: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَى أُمَمَةٌ يَهُدُونَ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٥٩] والله أعلم؛ وكقوله: ﴿فَتَأْمَنَّتْ ظَافَةً مِنْ نَبِئِ إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ ظَافَةً﴾؟! [الصف: ١٤].

وقيل: أراد بالإيمان - الذي قالوا حين أخرجوا من ظهر آدم^(٤).

وفي الآية ردّ قول المعتزلة بتخليد أهل الكبائر^(٥) في النار، وإخراجهم إياهم من الإيمان من غير أن أدخلوهم في الكفر^(٦)؛ لأنه - عز وجل - لم يجعل إلا فريقين: بياض

(١) ينظر: الباب في علوم الكتاب (٥/٤٥٣ - ٤٥٤).

(٢) وهو قول عكرمة. ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/١١٢) وعزاه إلى الفريابي وابن المنذر.

(٣) يدل ما بين المعقوفين في ب: والله الموفق.

(٤) وهو قول ابن جريج، أخرجه ابن أبي حاتم (٢/٤٦٦) (١١٤٦).

(٥) الكبائر: جمع كبيرة. قال النووي: «قال بعض العلماء: كل ما نص الله - تعالى - عليه أو رسوله وتوعد عليه أو رتب عليه حداً أو عقوبة ويلحق به ما في معناه من المفسدة».

ثم قال النووي: واختلف العلماء في حد الكبيرة وتمييزها من الصغيرة، فجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: كل شيء نهى الله تعالى عنه فهو كبيرة، وبهذا قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني الفقيه الشافعي، وحكاها القاضي عياض عن المحققين، وروي عن ابن عباس أيضاً: الكبائر: كل ذنب ختمه الله تعالى بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب أو حد في الدنيا».

راجع: شرح النووي على صحيح مسلم (١/٢٧٩، ٢٨٠).

(٦) قالت المعتزلة والخوارج: صاحب الكبيرة إذا لم يتب عنها يخلد في النار ولا يخرج منها أبداً، واستدلوا على ذلك بالآيات المشتملة على لفظ الخلود في وعيد صاحب الكبيرة، وأجيب: بأن =

الوجوه، وسواد الوجوه، فبياض الوجوه هم المؤمنون، وسواد الوجوه هم الكافرون؛ لأنه قال: ﴿أَكْفَرْتُمْ﴾ فأصحاب الكبائر لم يكفروا بارتكابهم الكبيرة، ولم يجعل الله - تعالى - فرقة ثالثة؛ وهم فرقة ثالثة؛ وكذلك قال - عز وجل -: ﴿فَرِيقٌ فِي الْحَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] لم يجعل الخلق إلا فريقين، وهم جعلوا فرقاً؛ وكقوله: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ كَافِرِينَ﴾ [التغابن: ٢].

فإن قيل: ذكر في الآية الكفر بعد الإيمان، ثم لم يكن فيه منع دخول من لم يكفر بعد الإيمان؛ فامتنع ألا يكون فيه منع دخول صاحب الكبيرة فجوابنا ما سبق: أن خلقة كل كافر تشهد على [وحدانية الله تعالى]^(١)، لكنهم كفروا بالسنتهم، وذلك كفر بعد الإيمان؛ فلم يجوز أن يدخل في الآية من لم يكن كافراً في حكم الكافر، وبالله التوفيق.

وقوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾

في الظاهر أمر، لكنه في الحقيقة ليس بأمر؛ لأن العذاب لا يذوق، وإنما يذوق هو؛ فكأنه قال: اعملوا أن عليكم العذاب^(٢).

وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ...﴾ [الآية]^(٣):

يحتمل: ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾: حجج الله وبراهينه.

ويحتمل: ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾: القرآن^(٤).

= الأحاديث نصت على خروج صاحب الكبيرة من النار، فالمراد بالخلود بهذا المعنى كثير، كقولهم: خلد الله ملكه، والمراد: طول المدة بلا شبهة.

وأما عند أهل السنة: فقالوا: إن الثواب على الطاعة فضل من الله - تعالى - وعد به فيفي به؛ لأنه سبحانه لا يخلف الميعاد، والعقاب على المعصية عدل منه تعالى، وله العفو عنه؛ لأن العفو فضل، ولا يعد الخلف في الوعيد نقضاً بل يمدح به عند العقلاء، وعمل الطاعة دليل على حصول الثواب، وفعل المعصية علامة العقاب، فلا يكون الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية واجب على الله تعالى.

وقال أهل السنة أيضاً: إن مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] والإيمان خير، ولا يرى جزاء خيره إلا بعد خروجه من النار. وللأحاديث الدالة على خروج العصاة من النار. وانظر تفصيل هذه المسألة في: نشر الطوابع (ص: ٣٥٩، ٣٦٠).

(١) بدل ما بين المعقوفين في ب: وحدانيته.

(٢) ينظر: اللباب لابن عادل (٤٥٧/٥).

(٣) سقط من ب.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٦٨/٢) (١١٥٣) عن قتادة، وذكره الواحدي في الوسيط (٤٧٦/١) عن ابن عباس.

﴿يَالْحَقُّ﴾: بيان الحق^(١).

ويحتمل: ﴿يَالْحَقُّ﴾: بالذِّين، والدين هو الحق، ويحتمل: أن الآيات هي الحق.
قال الشيخ - رحمه الله - : أي: بالأمر بالدعاء إلى الحق.

ويحتمل: الحق الذي لله على عباده، ول بعضهم على بعض.

وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾: والظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه، فإذا كان ما في السموات وما في الأرض كله له، ومن وصف في الخلق بالظلم إنما وصف؛ لأنه يضع حق بعض في بعض، ويمنع حق بعض؛ فيجعل لغير المحق، فالله يتعالى عن ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾

أي: لا يريد أن يظلمهم، وإن شئت قلت: قلت الإرادة صفة لكل فاعل في الحقيقة؛ فكأنه قال: لا يظلمهم، وكيف يظلم؟! وإنما يظلم بنفع تسره إليه النفس، أو ضرر يدفع به، فالغني بذاته متعال عن ذلك.

وقوله: ﴿وَالِإِلَهِ اللَّهُ تُرْجِعُ الْأُمُورَ﴾

أي: إليه يرجع أمر كل أحد، فلا يحتمل الظلم [وجود الظلم منه]^(٢).

قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَكَوْنُوا أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ أَلَا ذَبَارٌ ثُمَّ لَا يُصْرَفُونَ ﴿١١١﴾ ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ أَيْنَ مَا تَفْعَلُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «خير الناس أنفعهم للناس»^(٣) و﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: أي: تأمرونها، أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، والإقرار بما أنزل الله، وتقاتلون عليه، ولا إله إلا الله هو أعظم المعروف^(٤)،

(١) ينظر: الباب في علوم الكتاب (٥/٤٦١).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/١١٤) وعزاه إلى ابن المنذر من طريق عكرمة عن ابن عباس، وينظر تفسير ابن أبي حاتم (٢/٤٧٢) (١١٦٣).

(٤) أخرجه الطبري (٧/١٠٥) (٧٦٢٤)، وابن أبي حاتم (٢/٤٧٤) (١١٧٢) عن ابن عباس. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/١١٤) وزاد نسبه إلى ابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات.

والمنكر: هو التكذيب، فهو أنكر المنكر^(١).

وعن علي - رضي الله عنه - [أنه]^(٢) قال: قال النبي ﷺ: «أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ»، قلنا: يا رسول الله، وما هو؟ قال: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ»^(٣).

قال الشيخ - رحمه الله - : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ له وجهان:

أي: ﴿كُنْتُمْ﴾ على ألسن الرسل في الكتب المتقدمة خير أمة.

ويحتمل: أي: كنتم صرتم بإيمانكم برسول الله ﷺ، واتباعكم ما معه - خير أمة على وجه الأرض؛ لأنهم آمنوا ببعض، وكفروا ببعض.

وقوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: يتوجه إلى وجوه ثلاثة:

المعروف: هو المعروف في العقول، [أي]^(٤): الذي تستحسنه العقول، والمنكر: الذي قبحته العقول وأنكرته.

ويحتمل أن يكون المعروف: هو الذي عرف بالآيات والبراهين أنه حسن، والمنكر: [ما عرف بالحجج؛ أي: أنه قبيح.

ويحتمل أن المعروف: هو الذي جرى على ألسن الرسل أنه حسن، والمنكر: [أي]^(٥) هو الذي أنكروه ونهوا عنه.

فعلى هذه الوجوه يخرج تأويل الآية، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَوْ ءَاَمَلَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾

لا شك أن الإيمان خير لهم من الكفر، ولكن معناه - والله أعلم - أنهم إنما أبوا الإيمان وتمسكوا بالكفر لوجهين:

أحدهما: أنهم كانوا أهل عزة وشرف فيما بينهم، وأهل دراية؛ ينتاب إليهم الناس، ويختلفون إليهم بحوائجهم، فخافوا ذهاب ذلك عنهم إذا آمنوا، فأخبر الله - عز وجل - أنهم إن آمنوا لكان [خيرًا]^(٦) لهم من الذكر والشرف والعز في أهل الإيمان أكثر مما لهم في أهل الكفر؛ ألا ترى أن من آمن منهم مِنْ دَرَسَةِ الْكِتَابِ وعلمائهم - كان لهم من الذكر

(١) تقدم تخريجه وهو تنمة الأثر السابق.

(٢) سقط من ب.

(٣) أخرجه أحمد (٩٨/١)، وحسنه السيوطي في «الدر المنثور» (١١٤/٢).

(٤) سقط من ب.

(٥) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٦) سقط من ب.

والشرف في الإيمان ما لم يكن لأحد مات منهم على الكفر؛ نحو: عبد الله بن سلام^(١)، ومن أسلم منهم؛ نحو: كعب^(٢)، وغيره من الأخبار؟! وإنما كانوا من علمائهم لم يكونوا من علماء أهل الإيمان، فقالوا بالإيمان من الذكر والعز والشرف ما لم ينل أحد منهم مات على الكفر، بل حمل ذكرهم وانتشر في أهلهم؛ فضلاً عن أهل الإيمان والإسلام، والله أعلم.

والثاني: أنهم كانوا أبوا الإسلام واتباع محمد ﷺ، واختاروا المقام على الكفر؛ خوفاً وإشفاقاً على ما لهم من المنافع والمنال أن يذهب ذلك عنهم بالإسلام، فأخبر - عز وجل - أنهم لو آمنوا لكان خيراً لهم في الآخرة؛ إذ ذاك^(٣) ينقطع ويذهب عن قريب، والذي لأهل الإيمان في الآخرة باقٍ دائم، لا يزول أبداً؛ لما كان الذي يُنال بالإيمان غيباً، وكذلك ما يحلُّ بالكفار^(٤) من جزاء الكفر - غيب اشتد عليهم الفكر والتدبر، لما يمنعهم عن الشهوات، وينغص عليهم اللذات، فأثروا ما هوته أنفسهم وتلذذوا به على التدبر، مع ما كان إدراك الغائب بالشاهد أمر عسير، لا يوصل إليه إلا بفضل الله، ولم يكن عليه ذلك لا يسقط معنى الإفضال والإنعام، ويصير حقاً مع ما كان منهم تقديم الجفاء، وإيثار زهرة الدنيا وبهجة الغنى على الموعد، والله أعلم.

وقوله: ﴿مَنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾:

كذلك كانوا: كان المؤمنون أقل، والكفار أكثر، [والله أعلم]^(٥).

وقوله: ﴿لَنْ يَصْرِوَكُمْ إِلَّا أَذَىٌ وَإِنْ يَنْتَلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ إِلَّا ذَبَابٌ...﴾ الآية:

فيه بشارة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، بالأذى لهم عن أذى المشركين وضررهم، إلا أذى باللسان؛ وهو كقوله - تعالى -: ﴿وَلَسْتُمْ عَنْ الَّذِينَ أُوْتُوا أَلْكِتَابَ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقوله: ﴿لَنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَكِنْ قُوتِلُوا لَا يَصْرُونَهُمْ...﴾ الآية [الحشر: ١٢]، ونحوه من الآيات التي فيها بشارة لأهل الإيمان بالنصر لهم على

(١) عبد الله بن سلام بن الحارث أبو يوسف، الخزرجي أسلم مقدم النبي ﷺ المدينة، وشهد فتح بيت المقدس مع عمر رضي الله عنهم، وشهد له النبي ﷺ بالجنة. مات سنة ٤٣ هـ. ينظر: الخلاصة (٢/٦٤)، سير الأعلام (٢/٤١٣) رقم (٨٤).

(٢) هو كعب بن ماته الحميري، تابعي جليل، كان من علماء اليهود فأسلم، توفي ٣٢ هـ. ينظر: تذكرة الحفاظ (١/٤٩).

(٣) في ب: ذلك.

(٤) في ب: بالكافر.

(٥) ما بين المعقوفين سقط من ب.

عدوهم^(١).

وفي قوله: ﴿لَنْ يَصْرُوكُمْ إِلَّا أَذَى...﴾ الآية - دلالة إثبات رسالة محمد ﷺ؛ لأنه أخبر بذلك قبل أن يكون، فكان على ما أخبر؛ فدل أنه إنما علم ذلك بالله عز وجل.
وقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تُلْفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾
وفي حرف ابن مسعود - رضي الله عنه -: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ» وليس فيه الذلة، وفي حرف حفصة: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ وَالذِّلَّةُ».

ثم اختلف في ﴿الذِّلَّةُ﴾: قيل: هي الجزية التي ضربت عليهم^(٢)، وهي ذلة؛ كقوله: ﴿عَنْ يَدِهِمْ صَغُرُوكٌ﴾ [التوبة: ٢٩]؛ لأنهم كانوا يأنفون عنها.
وقوله: ﴿أَيْنَ مَا تُلْفُوا﴾ أي: وجدوا.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تُلْفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾
يعني: بعهد من الله، وعهد من الناس يكون تحت قوم يؤدون الجزية؛ وكذلك تأول ابن عباس - رضي الله عنه -: ﴿بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: بعهد من الله، وعهد من الناس^(٣).

وقال مقاتل^(٤): «والناس» في هذا الموضع: النبي ﷺ خاصة.
ويحتمل قوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ بكفرهم فيما بين المسلمين، بعد ما كانوا أهل ذكر وشرف وعز فيما بينهم.
﴿أَيْنَ مَا تُلْفُوا﴾

أي: لا يوجدون إلا بحبل من الله وحبل من الناس - بالإسلام، أي: لا يظفرون بهم ولا يوجدون؛ إلا أن يسلموا لخوفهم على أنفسهم.
وقوله: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾:

(١) قال ابن كثير: فإنهم يوم خير أذلهم الله وأرغم أنوفهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، كلهم أذلهم الله. وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن وسلبوهم ملك الشام أبد الأبدين ودهر الدهرين، ولا تزال عصاة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك ويحكم بملة الإسلام وشرع محمد - عليه أفضل الصلاة والسلام - فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام.
ينظر: تفسير ابن كثير (١/٣٩٦).

(٢) أخرجه الطبري (١/٣١٥)، وابن أبي حاتم (١/١٩٥) (٦٢٧) عن الحسن وقتادة.
(٣) أخرجه الطبري (٤/١١٢) (٧٦٣٨)، وابن أبي حاتم (٢/٤٧٨-٤٨٠) (١١٨٨، ١١٩٧). وابن المنذر كما في الدر المنثور (٢/١١٥).
(٤) في ب: ابن مقاتل.

قيل: استوجبوا غضباً من الله بكفرهم^(١).

وقيل: رجعوا^(٢).

وقيل: وجب عليهم الغضب.

وقد ذكرنا هذا في غير موضع^(٣). والله أعلم.

وقوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾:

وهي الحاجة والفقر، وهو ما ذكرنا: أنهم ظاهروا المشركين على رسول الله ﷺ مع قربهم برسول الله ﷺ وبعدهم بالمشركين؛ فأذلهم الله - تعالى - بذلك، وجعلهم أهل حاجة وضيعة^(٤) فيما بين المسلمين، بعد ما كانوا أهل عزّ وشرف فيما بينهم؛ وهو كقوله: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ . . .﴾ الآية [الأحزاب: ٢٦].

قال الشيخ - رحمه الله - : وقد يحتمل رجوع الآية إلى خاص منهم، وهم الذين ذكر الله في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ الآية، وغير ذلك مما يصير فيه المسلمون. يعرف حقيقة المراد من شهد النوازل، وعرف الأسباب التي لها جاءت البشارات.

ويحتمل: أن الله - تعالى - جعل كل حاجاتهم إلى ما يفنى؛ وهي^(٥) الدنيا التي لا بقاء لها ولا منفعة في الحقيقة، فهي حاجة، ثم بما فيهم بالجهل أن ذلك فيهم حاجة.

ويحتمل: أن الله مع ما وسع عليهم الدنيا - جعل في قلوبهم خوف الفقر، وأعظم الحاجات فهي المسكنة.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِكَانَتْ اللَّهُ﴾:

وآيات الله: ما ذكرنا في غير موضع^(٦).

وقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾:

يحتمل وجوهاً:

يحتمل: أن أوائلهم قد قتلوا الأنبياء [بغير حق]^(٧)، وهؤلاء رضوا بذلك، وإن كانوا

(١) قاله الضحاك أخرجه عنه الطبري (١١٩٣).

(٢) قاله قتادة أخرجه عنه عبد بن حميد كما في الدر المنثور (١/١٤٢).

(٣) ينظر: تفسير الآية (٦١) من سورة البقرة.

(٤) الضعة: الانحطاط واللؤم والخسة. القاموس المحيط ص (٦٩٥) (وضع).

(٥) في ب: وهو.

(٦) ينظر مثلاً تفسير الآية (١٠٩) من سورة آل عمران.

(٧) ما بين المعقوفين سقط من ب.

لم يتولوا هم بأنفسهم؛ فأضاف الله - تعالى - ذلك إليهم؛ لأنهم شاركوا في صنيعهم برضاهم؛ وهو كقوله: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

ويحتمل: أن يكونوا [قصدوا قتل] ^(١) محمد ﷺ، فإذا قصدوا ذلك فكأنهم قصدوا الأنبياء كلهم، كما ذكرنا في قوله: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا...﴾ الآية.

ويحتمل: أن يكونوا هموا بقتل محمد ﷺ.

ويحتمل: أن يكون عِزُّهُمْ بآبائهم؛ إذ هم قلدوهم في الدين، فبين سوء صنيعهم بالأنبياء - عليهم السلام - ليعرفوا به سفههم وسفه كل من [قصد تقليدهم] ^(٢)، والله أعلم.

ويحتمل: أن يكونوا قتلوا أتباع محمد ﷺ؛ فأضاف إليه، وهو كما أضاف إليه مخادعتهم المؤمنين - إلى نفسه؛ وكما أضاف نصر أوليائه إليه، وإن كان الله لا يخادع ولا ينصر؛ فعلى ذلك إضافة القتل إليه؛ لقتلهم الأتباع، والله أعلم ^(٣).

قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ لَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۖ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأُمُورٌ بِالْمَعْرُوفِ وَبِنَهْيٍ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ^(١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْعِلِينَ ^(١١٥) وقوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ...﴾ الآية:

أي: لا سواء بين من آمن منهم - يعني: من أهل الكتاب - ومن لم يؤمن منهم؛ لأن منهم من قد آمن؛ فصاروا أمة قائمة؛ قيل: عادلة ^(٤)، كقوله: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّؤَسَّسٍ أُمَّةٌ يَّهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

(١) بدل ما بين المعقوفين في ب: قصدوا قصد.

(٢) بدل ما بين المعقوفين في ب: قلدوهم.

(٣) قال العلامة القاسمي: قال برهان الدين البقاعي - رحمه الله تعالى - والآية دليل على مؤاخذه الابن الراضي بذنب الأب وإن علا، وذلك طبق ما رأيته في ترجمة التوراة التي بين أيديهم، لأنه قال في السفر الثاني: وقال الله: جميع هذه الآيات كلها أنا الرب إلهك الذي أصعدتك من أرض مصر من العبودية والرق لا يكون لك آلهة، لا تعملن شيئاً من الأصنام والتماثيل التي مما في السماء فوق وفي الأرض من تحت، ومما في الماء أسفل الأرض لا تسجدن لها ولا تعبدنها؛ لأنني أنا الرب إلهك غيور أخذ الأبناء بذنوب الآباء إلى ثلاثة أحقاب وأربعة خلوف، وأثبت النعمة إلى ألف حقبة لأحباري وحافظي وصاياي.

ينظر: محاسن التأويل (١٩٦/٤).

(٤) قاله مجاهد: أخرجه عنه الطبري (١٢٣/٧) (٧٦٥٠)، وابن أبي حاتم (٤٨٦/٢) (١٢٢٣)، وغنبد ابن حميد كما في الدر المنثور (١١٦/٢).

وقيل: أمة قائمة على حدود الله، وفرائضه، وطاعته، وكتابه؛ لم يحرفوه^(١).

وقيل: أمة قائمة مهتدية، وهم الذين آمنوا منهم^(٢).

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ﴾ أمة محمد ﷺ يصلون، ولم يكن هذا للأمم السالفة^(٣).

وفي حرف حفصة: «ليس أهل الكتاب ليسوا منهم أمة قائمة»؛ كقوله - تعالى -: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ . أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ . وَرَأَيْنَا الَّذِينَ فَسَقُوا فَأَوتَاهُمُ النَّارُ . . .﴾ الآية [السجدة: ١٨ - ٢٠]. وقوله: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾:

يحتمل قوله: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾: أي: يصلون.

ويحتمل ﴿يَسْجُدُونَ﴾: يخضعون، والسجود: هو الخضوع.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ١١٤]:

أي: يؤمنون بأنفسهم، ويأمرون غيرهم بالإيمان، ويدعون إليه، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، يعني: الكفر.

ويحتمل ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: كل معروف، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: كل منكر، وقد ذكرنا هذا.

﴿وَسُئِرَعَوْتَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾: في الخيرات كلها.

﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: وقيل: مع الصالحين في الجنة.

قال الشيخ - رحمه الله -: أي: ومن ذلك فعله - فهو صالح.

(١) قاله الربيع أخرجه عنه الطبري (١٢٣/٧) (٧٦٥٢)، وابن أبي حاتم (٤٨٦/٢) (١٢٢٤).

(٢) قاله ابن عباس أخرجه عنه الطبري (١٢٣/٧) (٧٦٥٣)، وابن أبي حاتم (٤٨٥/٢) (١٢٢١)، (١٢٢٢).

(٣) أخرجه الطبري (١٢٧/٧) (٧٦٦٠)، والبخاري في التاريخ الكبير (٣٠٦/٢)، وابن أبي حاتم (١٢٣٠)، والفرابي وعبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور (١١٦/٢)، ولفظ الطبري «صلاة العتمة، هم يصلونها، ومن سواهم من أهل الكتاب لا يصلونها»، وفي قوله - تعالى - ﴿قائمة﴾ وجوه:

الأول: أنها قائمة في الصلاة، وعبر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل؛ كقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

الثاني: أنها ثابتة على التمسك بالدين الحق، ملازم له غير مضطربة في التمسك به؛ كقوله: ﴿إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥] أي ملازمًا للاقتضاء، ثابتًا على المطالبة.

الثالث: أنها مستقيمة عادلة؛ من قولك: أقمت العود فقام، بمعنى: استقام.

ينظر: محاسن التأويل للعلامة القاسمي (١٩٧/٤-١٩٨).

وقوله: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا﴾.

أي: لن يرد ذلك عليكم؛ بل يقبل؛ بل تجزون به في الآخرة.
قال الشيخ - رحمه الله - : أي: كيف يُكْفَرُهُ، وهو الشكور الذي يقبل اليسير، ويعطي الجزيل؟!

وهو في حرف حفصة: «فلن تتركوه»: أي: لن تتركوه دون أن تُجزوا عليه؛ وإن قل ذلك؛ كقوله: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا﴾ [النساء: ٤٠] معناه - والله أعلم - ما ذكر، ﴿وَلَنْ يَزِيدَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

وقيل: لن يظلمكم.
وقيل: لن ينقصكم.
وقيل: فلن يضل عنكم؛ بل يشكر ذلك لهم، يعني: فلن يضيع ذلك عند الله، والله أعلم.

﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِالْمُتَّقِينَ﴾: ظاهر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾:

قال الشيخ - رحمه الله - : فهو - والله أعلم - أن بمثله يكون التناصر في الدنيا، لكن الذي كان فيها لا ينفع في الآخرة، بل يكون كما قال الله - عز وجل - : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ...﴾ الآية [عبس: ٣٤]، ثم لا مال له، ثم ولا لو كان فينفع؛ وذلك أنهم ظنوا أن كثرة الأموال والأولاد تمنعهم من عذاب الله؛ كقولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، فأخبر الله - عز وجل - : أن كثرة الأموال والأولاد لا تغني عنهم من عذاب الله شيئاً.

وقوله (١): ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾:

ضرب مثل نفقة الكفار التي أنفقوها بريح فيها صر أصابت حرث قوم، وذلك - والله أعلم - أنهم كانوا ينفقون ويعملون جميع الأعمال: من عبادة الأصنام والأوثان، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] ظنوا أن تلك الأعمال والنفقات

التي أنفقوها في صد الناس - تنفعهم في الآخرة، وتقربهم إلى الله، فأخبر أنها لا تنفع، فكان كالريح التي فيها صرّ وبرد، ظنوا أن فيها رحمة، وشيئاً ينفع زروعهم، وينمو بها، فإذا فيها نار أحرقت حرثهم؛ كما طمعوا من أعمالهم ونفقاتهم التي في الدنيا - بالآخرة؛ قربة وزلفة إليه، فإذا هي مهلكة لأبدانهم؛ كالريح التي فيها صرّ كانت مهلكة؛ محرقة لزروعهم وحرثهم، والله أعلم.

والصرّ: هو البرد الشديد. وقيل: الصر: الصوت؛ كقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْثُهُمْ فِي صَرَقٍ فَفَصَحَّتْ وَجْهَهَا﴾^(١) [الذاريات: ٢٩].

قيل: هي الصوت.

قيل: مثل ما ينفقون في الصدّ عن سبيل الله، وفي قتال رسول الله ﷺ؛ كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا...﴾ [الأنفال: ٣٦]، أي: يتأسفون على ما أنفقوا تأسف صاحب الزرع على ما كان أنفق فيه^(٢)، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: والظلم: ما ذكرنا: هو وضع الشيء في غير موضعه، فهو - والله أعلم - قال: هم الذين وضعوا أنفسهم في غير موضعها، لا أن وضع الله أنفسهم ذلك الموضع؛ لأنهم عبدوا غير الله، ولم يجعلوا أنفسهم خالصين سالمين لله، فهم الذين ظلموا أنفسهم؛ حيث أسلموها لغير الله، وعبدوا دونه، فذلك وضعها في غير موضعها؛ لأن وضعها موضعها هو أن يجعلوها خالصة لله، سالمة له. وقيل: ما ضروا الله بعبادتهم غيره وبكفرهم به، إنما ضروا أنفسهم؛ إذ لا حاجة له إلى عبادتهم^(٣)، والله الموفق.

قال الشيخ - رحمه الله -: تقديم وتأخير، وأصل ذلك أن الله قد وضع كل نفس الخلقة بموضع العبودية، فجعلوها عبدة غيره.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآئِنَا أَوْلَىٰ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ

(١) قاله ابن الأنباري كما في تفسير الفخر الرازي (١٧١/٨) وقال البغوي: وأكثر المفسرين قالوا: فيها برد شديد. معالم التنزيل (١/٣٤٤).

(٢) قال بنحوه السدي أخرجه عنه الطبري (١٣٦، ١٣٥/٧) (٧٦٦٨)، وابن أبي حاتم (٤٩٦/٢) (١٢٦٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤٩٧/٢) (١٢٦٣) عن ابن عباس، وذكره بمعناه ابن جرير في تفسيره من قوله (١٣٧/٧، ١٣٨).

الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِعَيْطِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

وقوله: ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ﴾:

اختلف فيه:

قيل: نهى الله المؤمنين أن يستدخلوا المنافقين، أو يؤاخوهم، أو يتولواهم دون المؤمنين^(١).

وقيل في حرف حفصة: «لا تتخذوا بطانة من دون أنفسكم»^(٢)، يعنى: من دون المؤمنين.

وعن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: «نهى الله المؤمنين أن يتخذوا اليهود [والنصارى]^(٣) والمنافقين - بطانة دون إخوانهم من المؤمنين، فيحدثوهم ويفشوا إليهم سرهم دون المؤمنين»^(٤).

والبطانة: قيل: هم الإخوان، ويجعلونهم موضع إفشاء سرهم^(٥).

قال الشيخ - رحمه الله -: والنهي عن اتخاذ الكافر بطانة لوجهين:

أحدهما: العرف به؛ إذ كل يعرف بمن يصحبه.

والثاني: الميل إليه بما يريه عدوه أنه حسن العشرة وحسن الصحبة، مع ما فيه الإسقاط عما به يستعان على أمر الدين، والإغفال عن حقه.

وقوله: ﴿لَا يَأْتُونَكُمْ خَبْرًا﴾: يقولون: لا يتركون عهدهم في إفشاء أمرهم.

(١) أخرجه ابن جرير (١٤١/٧) (٧٦٨٢)، وابن أبي حاتم (٤٩٨/٢) (١٢٦٧) عن قتادة، وعن الربيع ابن أنس أخرجه ابن جرير (١٤١/٧) (١٤٢) (٧٦٨٤) وعن مقاتل بن حيان. أخرجه ابن أبي حاتم (٥٠١/٢) (١٢٧٥)، وعن ابن جريج أخرجه ابن جرير (٧٦٨٧)، وعن مجاهد بن جبر أخرجه ابن جرير (١٤١/٧) (٧٦٨١)، وابن أبي حاتم (٤٩٧/٢) (١٢٦٦)، وذكره السيوطي في الدر (٢/١١٨)، وزاد نسبه لابن المنذر.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٠٠/٢) (١٢٧٤) عن عمر بن الخطاب، وذكره السيوطي في الدر (٢/١١٨)، ونسبه لابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب.

(٣) سقط من ب.

(٤) أخرجه بمعناه ابن جرير (١٤١/٧) (٧٦٨٠)، وابن أبي حاتم (٤٩٩/٢) (١٢٧٣)، من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، وذكره السيوطي في الدر (٢/١١٨)، ونسبه إليهم وإلى ابن المنذر عن ابن عباس.

(٥) ذكره بمعناه ابن جرير من قوله (١٣٨/٧)، وكذا الرازي في تفسيره (١٧٢/٨).

وقوله: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾: أي: يودون ويتمنون ما أنتمم.

قال الشيخ - رحمه الله - أي: ودوا أن تشاركوهم في أشياء تؤثمكم ويبعثكم عليه. وقيل: العنت: الضيق^(١)؛ أي: ذلك قصدهم؛ كالأية التي تتلوها. وقوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾:

من قال: إن أول الآية في المنافقين يقول: قوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ما ذكر في آية أخرى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] أنهم كانوا يعرفون المنافق في لحن كلامه.

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾: ما كان من التفريق بقوله: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وإظهار السرور بنكبتهم، كقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْغِضَنَّ...﴾ الآية [النساء: ٧٢]. وقوله^(٢): ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾: وذلك أنهم كانوا يظهرن الموافقة لهم، ويضمرون العداوة والخلاف لهم، والسعي في هلاكهم فما كانوا يضمرون أكثر ما [كانوا]^(٣) يظهرن.

ومن قال بأن الآية في الكفار - فهو ظاهر. وقوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾: من الشتيمة والعداوة، ويضمرون أكثر من ذلك من الفساد والسرور، والله أعلم. وقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

يحتمل قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ البيّنات، ويحتمل قوله: إن كنتم تنتفعون بعقولكم؛ لأنه - عز وجل - ذكر في غير آي من القرآن أنهم لا يعقلون، قد كان لهم عقول لكنهم لم ينتفعوا بعقولهم، فإذا لم ينتفعوا نفى عنهم العقل رأساً.

وقوله: ﴿هَاسِتُمْ أَزْوَاجًا خِيفَتُمْ وَلَا يُخَوِّنُكُمْ﴾: من قال: إن أول الآية في المنافقين^(٤) فهذا يدل له ويشهد؛ لأنه قال: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا...﴾ الآية. يقول: ها أنتم يا هؤلاء

(١) أخرجه ابن جرير (٣٦٠/٤) (٤٢١٠) عن ابن عباس، وعن السدي بمعناه (٢٥٩/٤) (٤٢٠٧)، وعن ابن زيد بمعناه (٤٢٠٨)، وذكره ابن كثير في عمدة التفسير (٢٨/٣).

(٢) في ب: قوله.

(٣) سقط من ب.

(٤) أخرجه ابن جرير (١٥١/٧) (٧٦٩٨) عن مجاهد بن جبر، وعن الربيع بن أنس أخرجه ابن جرير (١٤٥/٧) (٧٦٩٢)، وابن أبي حاتم (٥٠٢/٢) برقم (١٢٧٩).

المسلمون تحبونهم - يعنى: المنافقين - ولا يحبونكم على دينكم^(١).

قال الشيخ - رحمه الله - : وفي الآية بيان أن أولئك قوم يحبهم المؤمنون، إماما بظاهر الإيمان أو بظاهر الحال، منهم من طلب مودتهم، فأطلع الله المؤمنين على سرهم؛ لئلا يغتروا بظاهرهم، وليكون حجة لهم ولرسول الله ﷺ بما أطلعه الله على ما أسروا، والله أعلم.

ومن قال: إن أول الآية في الكفار - يجعل قوله: ﴿هَاتِئْتُمْ أَوْلَاءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ على الابتداء، والقطع من الأول؛ لأنه وصفهم بصفة المنافقين، ووسمهم^(٢) بسمتهم وليس في الأول ذلك.

وقوله: ﴿عَصُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْأَشْيَاءِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾

هو على التمثيل، يقال عند شدة الغضب: فلان يعض أنامله على فلان، وذلك إذا بلغ الغضب غايته.

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾: إنما كان يغيطهم ما كان للمسلمين من السعة، والنصر، والتكثُر، والعز؛ فيكون في ذلك دعاء لهم بتمام ذلك، حتى لا يروا فيهم الغير، والله أعلم.

وفي حرف حفصة: « قل موتوا بغيظكم لن تضرونا شيئا إن الله عليم بذات الصدور » على الوعيد.

وقوله: ﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ﴾.

قال: ليس هذا وصف المنافقين في الظاهر؛ لأنهم كانوا يطمثون عند الخيرات، لكنه يحتمل أنهم كانوا يطمثون بخيرات تكون لهم لا للمؤمنين: ﴿وَإِنْ تُصَبِّكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ ذكر في القصة أنهم إذا رأوا للمسلمين الظفر على عدوهم والغنيمة - يسوءهم ذلك، وإذا رأوا القتل والهزيمة عليهم - يفرحون به ويسرون.

وقيل: إذا رأوا للمؤمنين الخصب والسعة - ساءهم، وإذا رأوا لهم القحط^(٣) والجذب وغلاء السعر - فرحوا به^(٤)، لكن هذا يحتمل في كل خير رأوا لهم - اهتموا لذلك، وفي

(١) أخرجه بمعناه ابن أبي حاتم (٥٠٣/٢) (١٢٨٤)، عن الحسن البصري، وعن قتادة أخرجه ابن جرير (١٥١/٧) (٧٦٩٦)، وابن أبي حاتم (٥٠٣/٢) (١٢٨٥).

(٢) وسهمهم: غلّهمهم. ينظر: اللسان (٤٨٣٨/٦) (وسم).

(٣) القحط: احتباس المطر. ينظر: القاموس المحيط (ص ٦١٣) (قحط).

(٤) أخرجه بمعناه ابن جرير (١٥٥/٧) (٧٧٠٥)، وابن أبي حاتم (٥٠٨، ٥٠٧/٢) (١٣٠٤)، (١٣٠٦) عن قتادة، وعن مقاتل بن حيان أخرجه ابن أبي حاتم (٥٠٨/٢) (١٣٠٥)، (١٣٠٧). وذكره السيوطي في الدر (١١٩/٢).

كل مصيبة ونكبة^(١) رأوا لهم - فرحوا بها.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾

وعد النصر بشرط: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾، أخبر أن المؤمنين إذا اتقوا وصبروا لا يضرهم كيدهم شيئاً، حتى يعلم أن ما يصيب المؤمنين إنما يصيب بما كسبت أيديهم.
قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ على الوعيد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢٢) إِذْ هَمَّتْ

طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٣)

وقوله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

قوله: ﴿تُبَوِّئُ﴾: قيل: تهيب للمؤمنين أمكنة القتال^(٢).

وقيل: ﴿تُبَوِّئُ﴾: تنزل المؤمنين^(٣).

وقيل: ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: تتخذ للمؤمنين مقاعد لقتال المشركين^(٤).

وقيل: ﴿تُبَوِّئُ﴾: توطن^(٥).

وقيل: تستعد للقتال.

كله يرجع إلى واحد.

ثم اختلف في أي حرب كان، وأي يوم؟ قال أكثر أهل التفسير: كان ذلك يوم أحد^(٦).

وقيل: إنه كان يوم الخندق^(٧).

وقيل: كان يوم الأحزاب^(٨)؛ فلا يعلم ذلك إلا بخبر يصح أنه كان يوم كذا، لكن في

ذلك أن الأئمة هم الذين يتولون أمر العساكر، ويختارون لهم المقاعد، وعليهم تعاقد إخوانهم، ودفع الخلل والضياع عنهم ما احتمل وسعهم، وعليهم طاعة الأئمة، وقبول

(١) النكبة: المصيبة من مصائب الدهر. اللسان (٤٥٣٥/٦) (نكب).

(٢) ينظر: تفسير أبي حيان، البحر المحيط (٤٩/٣).

(٣) ينظر: تفسير أبي حيان، البحر المحيط (٤٨/٣)، تفسير البغوي (٣٤٦/١).

(٤) أخرجه ابن جرير (١٦٠/٧) (٧٧٠٩) عن قتادة، وعن الربيع بن أنس أخرجه عنه ابن جرير (٧٧١٠)، وعن الحسن البصري أخرجه ابن أبي حاتم (٥١١/٢) (١٣١٧).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٠٩/٢) (١٣١٢) عن سعيد بن جبير، وذكره السيوطي في الدر (١٢٠/٢)، وعزاه للطبسي عن ابن عباس.

(٦) أخرجه ابن جرير (١٦٠/٧) (٧٧٠٩) عن قتادة، وعن ابن عباس (١٦٠/٧) برقم (٧٧١١)، وعن السدي برقم (٧٧١٢)، وعن ابن إسحاق (٧٧١٣)، وذكره السيوطي في الدر (١٢٠/٢).

(٧) أخرجه ابن جرير (١٦٠/٧) (٧٧١٤)، وابن أبي حاتم (٥١١/٢) (١٣١٧)، عن الحسن البصري وذكره السيوطي في الدر (١٢٠/٢).

(٨) ينظر: التخريج السابق.

الإشارة من الإمام، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] ذكر مقاعد القتال في هذه الآية، لكن الذي لزم من ذلك في آية أخرى - ذكر الصف بقوله - عز وجل - : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنَيْنٌ مَرْضُوضٌ﴾ [الصف: ٤]، وذكر في آية أخرى الثبات بقوله - عز وجل - : ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥] والأصل أنهم أمروا بالثبات، فالأحسن أن يختار لهم أمكنة لهم بها معونة على الثبات، والله أعلم، فيحتمل أن يكون أراد بالمقاعد القعود، وذلك أثبت للقتال وأدفع للعدو، وفيما ذكر الصف ذكر للجملة عليه بقوله - عز وجل - : ﴿إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ. وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبُرَهُ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦] فيه رخصة الحملة على العدو، وباجتهاد إن كان فيها تولى الأدبار. ويحتمل أن يكون أراد بالمقاعد: الأماكن والمواطن للقتال والحرب، والله أعلم. وقوله^(١): ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يحتمل: سميع لمقاتلكم؛ عليم بسرائركم.

ويحتمل: سميع بذكركم الله والدعاء له؛ لأنهم أمروا بالذكر لله، والثبات للعدو بقوله - عز وجل - : ﴿فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥]، وعليم بثوابكم. ويحتمل قوله: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: البشارة من الله - عز وجل - بالنصر لهم، والأمن من ضرر يلحقهم؛ كقوله - تعالى - لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى. قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ ثم قال - عز وجل - : ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٤-٤٦] أقرنهما من عدوهما بقوله - عز وجل - : ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، فعلى ذلك يحتمل ذا في قوله - عز وجل - : ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ويكون سميع: أي: أسمع دعاءكم؛ بمعنى: أجيّب، وأعلم ما به نصركم وظفركم، والله أعلم. وقوله^(٢): ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾.

قوله: ﴿هَمَّتْ﴾:

يحتمل: أن هموا همّ خطر.

ويحتمل: أن هموا همّ عزم، وكذلك هذا التأويل في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُوَّ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤] همّت هي همّ عزم، وهمّ هو بها همّ خطر، وهمّ الخطر يقع من غير صنع من صاحبه، وهمّ العزم يكون بالعزيمة والقصد.

(١) في ب: وقوله - عز وجل.

(٢) في ب: وقوله - عز وجل.

وقوله: ﴿هَمَّتْ... أَنْ تَفْشَلَا﴾ والفشل ليس مما ينهي عنه؛ لأنه يقع من غير فعله، لكنّه - والله أعلم - همّوا أن يفعلوا فعل القتل والجبن^(١) وذكر في القصة أن الطائفتين: إحداهما كانت من بنى كذا، والأخرى من بنى كذا، فلا يجب أن يذكر إلا أن يقرأوا هم بذلك.

وقيل: إنهم كانوا أقروا بذلك، وقالوا: نحن كنا فعلنا، وما نحب ألا يكون في قوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهِنَّ﴾ ظهر لنا ولاية الله، ولو لم يكن لم يظهر.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهِنَّ﴾.

قد ذكرنا هذا في غير موضع:

أن «الولي»: قيل: هو الناصر^(٢)، وقيل: هو^(٣) الحافظ، وقيل: إنه أولى بهم.

وقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

قال الشيخ - رحمه الله -: المؤمن من يعلم - علم اليقين - أن من نصره الله لا يغلبه شيء، ومن يخذله الله لا ينصره شيء.

حق على المؤمنين ألا يتوكلوا ولا يثنوا إلا على الله، عز وجل.

قال الشيخ - رحمه الله -: فتوكل: أي اعتمد على ما وعد، واجتهد في الوفاء بما عهده، وفوض كل أمره إلى الله؛ إذ علم أنه - بكلّيته - لله، وإليه مرجعه، وبهذه الجملة عهد أن ينصر دينه، ولا يوليّ عدوّه دبره، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا حَآيِينَ ﴿١٢٧﴾

وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾

يذكرهم - عز وجل - ألا يتكلموا إلى أنفسهم لكثرتهم ولقوتهم ولعدّتهم، ولا يثقوا

(١) الجبن: ضد الشجاعة، والجبان من الرجال: الذي يهاب التقدم على كل شيء، ليلاً كان أو نهاراً. ينظر: اللسان (٥٣٩/١) (جبن).

(٢) ذكره الطبري في تفسيره من قوله (٤٩٧/٦)، وينظر: تفسير أبي حيان (٥٠/٣)، وتفسير الرازي (٨/١٨١).

(٣) في ب: إنه هو.

بأحد سواه، بل على الله يتوكلون، وإليه يكلون، وبه يثقون؛ لأنه أخبر أنهم كانوا أذلة ضعفاء فنصرهم، وأمدّ لهم بالملائكة حتى قهر عدوهم - مع ضعفهم، وقلة عددهم - يوم بدر. ويوم أحد: كانوا أقوياء كثيري العدد؛ فوكلوا إلى أنفسهم، فكانت الهزيمة عليهم.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾

يعني: اتقوا معاصيه

﴿اعْلَمْكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

فيه دلالة أن الشكر إنما يكون في طاعته، واتباع معاصيه، وأن المحنة إنما تكون في الشكر لما أنعم عليه، والتكفير لما سبق منه من الجفاء والغفلة، والله أعلم. وقوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾، وذكر في سورة الأنفال: ﴿يَأْتِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ مِثْرَاتٌ مَرْدُوفَاتٌ﴾ [الأنفال: ٩] فاختلف فيه:

قيل: كانوا عشرة آلاف^(١)؛ لأنه ذكر مرة:

ثلاثة آلاف، ومرة:

خمس آلاف.

ومرة: ألفاً - مردفين؛ فيكون ألفان، فذلك عشرة آلاف.

وقيل: كانوا تسعة آلاف^(٢): ثلاثة آلاف وخمسة آلاف، وألف

وقيل: كانوا كلهم خمسة آلاف^(٣): ثلاثة آلاف؛ وألفان مدد لهم.

ثم اختلف فيه:

قال بعضهم: كان يوم أحد^(٤).

وقال آخرون: يوم بدر^(٥).

(١) تفسير الرازي (١٨٥/٨ - ١٨٦)، وتفسير أبي حيان (٥٢/٣).

(٢) تفسير الرازي (١٨٥/٨ - ١٨٦)، وتفسير أبي حيان (٥٢/٣).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٧٣/٧) (٧٧٥٤) عن قتادة، وعن الربيع بن أنس أخرجه عنه ابن أبي حاتم (٢/٢) (٥٢١) (١٣٥١)، وابن جرير (١٧٨/٧) (٧٧٥٥)، وذكره السيوطي في الدرر (١٢٤/٢) وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٤) أخرجه ابن جرير (١٨٤/٧) (٧٧٧١) عن عكرمة، وعن مجاهد أخرجه عنه ابن جرير (١٨٤/٧) (٧٧٧٣)، وابن أبي حاتم (٥٥٢/٢) (١٣٥٥)، وعن الضحاك بن مزاحم أخرجه عنه ابن أبي حاتم (٥٢١/٢) (١٣٥٣).

(٥) أخرجه ابن جرير الطبري (١٧٤/٧) برقم (٧٧٤٦)، وابن أبي حاتم (٥٢٠/٢) (١٣٥٠) عن =

وقوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] يوم بدر، ولا ندري كيف كانت القصة؟ وليس لنا إلى معرفة القصة حاجة؛ سوى أن فيه بشارة للمؤمنين بالنصر لهم، والمعونة بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ جعل في ذلك تسكين لقلوب المسلمين.

ثم اختلف في «قتال الملائكة»: قال بعضهم: قاتل الملائكة الكفار. وقال آخرون: لم يقاتلوا، ولكن جاءوا بتسكين قلوبهم ما ذكر في الآية، ولا يحتمل القتال؛ لأنه ذكر في الآية: ﴿وَيُقَلِّدُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤]، ولو كانوا يقاتلون لم يكن لما يقلل معنى؛ ولأن الواحد منهم كاف لجميع المشركين، ألا ترى أن جبريل - عليه السلام - كيف رفع قريات لوط إلى السماء فقلبتها؟! فدل^(١) لما ذكرنا، والله أعلم.

وقيل: قاتلوا يوم بدر، ولم يقاتلوا يوم أحد^(٢).

فلا ندري كيف كان الأمر؟^(٣).

وقوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾:

قيل: «منزليين»؛ «ومسومين» سواء، وهو من الإرسال؛ ومن التسويم.

= الشعبي، وعن الحسن أخرجه ابن جرير (٧٧٤٥)، وابن أبي حاتم (٥٢٤/٢) (١٣٦٥). وعن قتادة أخرجه ابن جرير (١٧٧/٧) (٧٧٥٤)، وابن أبي حاتم (٥٢٤/٢) (١٣٦٦)، وأخرجه أيضًا ابن جرير من قول ابن عباس (١٧٤/٧) (٧٧٥٠)، ومن قول الربيع بن أنس (١٧٨/٧) (٧٧٥٥)، ومن قول مجاهد (١٧٨/٧) (٧٧٥٧)، ومن قول عكرمة (١٧٩/٧) (٧٧٥٩)، وقد انتصر لهذا القول العلامة أبو السعود وبين ضعف من قال: إنه كان يوم أحد بأوجه وجيهة، كما في محاسن التأويل (٢٢١/٤).

وقال الطبري: فأما في يوم أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها في أنهم أمدوا، وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا، وينال منهم ما نيل؛ فالصواب فيه من القول أن يقال كما قال تعالى ذكره. ينظر: جامع البيان (١٨١/٧).

(١) في ب: فدل أنه.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٧٥/٧) (٧٧٥٠) عن ابن عباس، وعن مجاهد أخرجه عنه ابن جرير (١٧٨/٧) (٧٧٥٧)، وعن عكرمة أخرجه عنه ابن جرير (١٧٩/٧) (٧٧٥٩)، وابن أبي حاتم (٥٢١/٢) (١٣٥٢)، وذكره السيوطي في الدر (١٢٤/٢).

(٣) ذكر العلامة القاسمي أن الظاهر أن إعانة الملائكة تشمل الأمرين معًا: القتال مع المسلمين، وتكثير سواد المسلمين وتثبيت قلوبهم. ثم قال: وقد سئل السبكي عن الحكمة في قتال الملائكة مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فأجاب بأن ذلك لإرادة أن يكون الفضل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مددًا على عادة مدد الجيوش؛ رعاية لصورة الأسباب التي أجراها الله - تعالى - في عبادته، والله فاعل الجميع.

ينظر: محاسن التأويل (٢٢٢-٢٢٣/٤).

وقيل: معلمين بعلامة^(١)، وذلك - والله أعلم - لِيُعْلِمَ الْمُؤْمِنِينَ حاجتهم إلى العلامة، [لا أن]^(٢) الملائكة يحتاجون إلى العلامة؛ وكذلك روي عن نبي الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوم بدر: «تَسَوَّمُوا؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ تَسَوَّمَتْ»^(٣).

وقوله: ﴿وَمَا أَلْتَصَّرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

ليعلم أن في النصر لطفًا من الله لا يوصل إليه بشيء من خلقه؛ لأنه نفاه عنهم مع مدد الملائكة؛ ليعلم أن كل منصور على آخر - إنما كان ذلك من الله - عز وجل.

وقوله: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ [الآية]^(٤).

قال قتادة: «كان يوم بدر قتل صناديدهم وقادتهم في الشر»^(٥).

وقيل: ﴿طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: جماعة^(٦).

وقيل: ﴿طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ...﴾: يعني: أهل مكة.

وقوله: ﴿أَوْ يَكْتُمُهُمْ﴾:

قيل: يخزيهم^(٧).

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «الكبت: الهزيمة»^(٨).

وقيل: الكبت: هو الصرع على وجهه^(٩).

وقوله: ﴿فَيَنْقَلِبُوا حَآيِينَ﴾:

(١) أخرجه ابن جرير (١٨٨/٧) (٧٧٨٥) عن السدي، وعن مجاهد أخرجه ابن أبي حاتم (٥٢٧/٢) (١٣٧١)، (١٣٧٢)، وذكره السيوطي في الدر (١٢٤/٢) وعزاه للطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس.

(٢) بدل ما بين المعقوفين في ب: لأن.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري (١٨٦/٧) برقم (٧٧٧٦) عن عمير بن إسحاق، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤٥٢/١)، والسيوطي في الدر (١٢٥/٢).

(٤) سقط من ب.

(٥) أخرجه ابن جرير (١٩٢/٧) (٧٧٩٦)، وابن أبي حاتم (٥٣١/٢) (١٣٨٢)، وذكره السيوطي في الدر (١٢٥/٢) وزاد نسبه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٦) أخرجه بمعناه ابن جرير (١٩٢/٧) (٧٧٩٨)، وابن أبي حاتم (٥٣١/٢) (١٣٨١)، عن الحسن البصري، وذكره السيوطي في الدر (١٢٦/٢).

(٧) أخرجه ابن جرير (١٩٧/٧) (٧٨٠٢) عن قتادة، وعن الربيع بن أنس أخرجه عنه ابن جرير (٧/١٩٤) (٧٨٠٣)، وابن أبي حاتم (٥٣١/٢) (١٣٨٤)، وذكره السيوطي في الدر (١٢٦/٢).

(٨) ذكره أبو حيان في البحر المحيط (٥٥/٣) عن ابن عباس والزجاج، وابن عادل في تفسيره اللباب (٥٢٧/٥)، وعزاه للكلبي، والرازي في تفسيره (١٨٩/٨).

(٩) ذكره ابن جرير في تفسيره (١٩٣/٧) ولم ينسبه لأحد، وأبو حيان في البحر المحيط (٥٥/٣) وعزاه لأبي عبيد واليزيدي، والرازي في تفسيره (١٨٩/٨).

والخائب: هو الذي لم يظفر بحاجته، أي: رجعوا ولم يصيبوا ما أُملوا^(١).

قال الشيخ - رحمه الله - : ما ذكر من حضور الملائكة الحرب فهو - والله أعلم - في حق محنة الملائكة، والله أن يمتحنهم بما شاء من الحضور والمعونة، والكف عن ذلك، أو الدعاء لأوليائه بالنصر، وبما شاء الله من الوجوه التي يمتحن بها عباده، وفيهم من قد امتحنه على الأرزاق والأرواح، والأمطار والأعمال، وأنواع الأذكار والأفعال؛ إذ هم خلق اصطفاهم واختارهم لعبادته وطاعته في جميع ما يأمرهم؛ ليجل به قدرهم، ويعلى رتبهم، ثم لو أذن لهم بالمعونة أعانوا المؤمنين على قدر الإذن لهم؛ إذ هم - على ما وصفهم الله - : ﴿لَا يَسْتَفْتُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

وقوله: ﴿يَسْتَحُونَ لَمْ يَأْتِلْ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٣٨] وغير ذلك مما وصفهم بالطاعة له، والاتباع لأمره، وما أكرمهم من هبة جلاله، وخوف عقابه، صلوات الله عليهم أجمعين.

ثم كان للمؤمنين في حضورهم أنواع البشارات فيما لم يكن أذن لهم بالقتال، وأنواع الآيات فيما قد أذن لهم، على ما ذكر من أمر بدر وغيره؛ مما أخبر الله - عز وجل - من إرسال جنوده، وهزيمة أعدائه؛ بمته وفضله، من ذلك: ما^(٢) قال الله - عز وجل - : ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا لِلَّيْلِ مَأْمُورًا...﴾ الآية [الأنفال: ١٢]، أن يكون الله يؤيدهم بما به تشجيع قلوب المؤمنين على ما قد أمكن أعداءه من أنواع الوسواس^(٣)، التي لديها تضطرب قلوبهم، وتنزل أقدامهم، فمثله يمكن أوليائه في تشجيع المؤمنين، ليسكن قلوبهم، ويثبت أقدامهم، والله أعلم.

والثاني: أن يكون الذي جُبل عليه الخلق أن يكون كل أحد عند معاينة الحاجة إلى دعائه، وما يحتمل وسعه من معونة؛ عليه أقبل وبه أرغب؛ فيكون للمؤمنين بحضورهم رجاء النصر بدعائهم، ويخرج قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا...﴾ الآية [غافر: ٥١]، وقوله - تعالى - : ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾، والله أعلم.

أو كان رسول الله ﷺ في عصرهم يبشرهم بحضورهم؛ فيكون لهم بذلك فضل ثبات وقرار حياة منهم بما أعلموا إطلاعهم على ذلك، أو يكون لهم فضل قوة بذلك، وإقبال

(١) أخرجه ابن جرير (١٩٣/٧) (٧٨٠١)، وابن أبي حاتم (٥٣٢/٢) (١٣٨٦) عن ابن إسحاق، وذكره أبو حيان في البحر (٥٥/٣) وعزاه للمبرد، وذكره ابن عادل في اللباب (٥٢٧/٥).

(٢) في ب: على ما.

(٣) الوسواس: من الوسوسة: وهي حديث النفس، يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة ووسواسا والوسواس: الشيطان. ينظر: اللسان (٤٨٣٠/٦) (وسس).

على الأمر؛ على ما جبل الخلق من الإقبال على الأمور المهمة، وإذا كثروا على ذلك قوله: ﴿إِذْ أَفْجَيْتَكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥] ولعلمهم - أيضاً - بما يطمعون أنهم لو أطاعوا الله، وثبتوا لأعدائه - أن لهم النصر والدفع، فكان ذلك بعض ما يستبشرون؛ وعلى ذلك أكثر ما بلى أصحاب رسول الله ﷺ بالهزيمة، إنما كان يصرف قلوبهم إلى بعض ما جبل عليه البشر من حب الدنيا، والإعجاب بالكثرة، ونحو ذلك، ثم من أعظم الأعلام في ذلك ما قال الله - عز وجل - : ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِيَنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ وَمَا أَتَخَضَّرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فتكون البشارة والطمأنينة بالذي جبل عليه البشر على ما بينت، ويكون النصر من عند الله، الذي متى أراد نصر أحد لن يغلب، قلت أعوانه أو كثرت، وذلك لطف من الله العزيز العليم؛ يريهم النصر من الوجه الذي لا يعلمه إلا هو، وفي حال الأنفس من أنفسهم أن يقوم لعدوهم؛ ليعلموا عظيم لطفه الذي بمثله ارتفعت درجات الأخيار، وشرفت منازلهم، ولو كان لهم بالإذن؛ على ما ذكر من قوة جبريل - عليه السلام - في قلب قريات لوط بجناح واحد، لم يكن يقوم لمثله أهل الأرض، فضلاً عن عدد يسير منهم، ولكنهم لا يتقدمون بين يدي الله، والله لم يكن أذن لهم في القتال عند كل مشهد، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنِ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٩) وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ...﴾ الآية.

قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: إنما أنت عبد مأمور؛ فليس لك من الأمر؛ إنما ذلك إلى الواحد القهار، الذي لا شريك له ولا نذ؛ كقوله: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ أَلَامَرُكُمْ كُلُّكُمْ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ ...﴾ الآية فيه: أنه كان من النبي ﷺ معنى قولاً وفعلاً، حتى ترك قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾، ولكننا لا نعلم ذلك المعنى، غير أنه قيل في بعض القصص: إن النبي ﷺ شج يوم أحد في وجهه، وكسرت رباعيته، فدعا عليهم؛ فنزل قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾^(١).

(١) أخرجه أحمد (٩٩/٣)، ومسلم (١٤١٧/٣): كتاب الجهاد: باب غزوة أحد (١٠٤-١٧٩١)، والترمذي (١٠٥/٥) في التفسير: باب سورة آل عمران (٣٠٠٢)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٤٩٥/٥، ٤٩٦) كتاب الفتن: باب الصبر على البلاء (٤٠٢٧)، والطبري في تفسيره (١٩٥/٧) (٧٨٠٥)، (١٩٦/٧) (٧٨٠٦) (٧٨٠٧)، والبغوي في شرح السنة (٣٧٤٨) من حديث أنس.

وقيل: إن سرية من [أصحاب رسول الله ﷺ] ^(١) خرجوا إلى قتال المشركين يقتاتلونهم حتى قتلوا جميعاً، فشق على النبي ﷺ وأصحابه بقتلهم، فدعا عليهم باللعنة - يعني: على المشركين - أربعين يوماً في صلاة الغداة؛ فنزل قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ^(٢). وعن ابن عمر - [رضي الله عنه - أنه] ^(٣) قال: قال النبي ﷺ يوم أحد: «اللَّهُمَّ الْعَنْ أَبَا سُفْيَانَ، اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا، حتى لعن نفراً منهم» فنزل قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ...﴾ الآية ^(٤).

وقيل: «إن نفراً من المسلمين انهزموا، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فنزل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾» ^(٥)، فأمره بكف الدعاء عنهم، والله أعلم بالقصة في ذلك. وقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾:

فإن كانت القصة في الكفار فكأنه طلب التوبة والهدى، وأفرط في الشفقة فقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فيهديهم لدينه، ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ على كفرهم؛ ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ كقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. فإن كان في المؤمنين فقوله: ﴿يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عن ذنبهم الذي ارتكبوا، ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ بذنبهم، ولا يعفو عنهم، والله أعلم بذلك.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية.

فيه دلالة ما ذكرنا في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إنما الأمر إلى الله، الذي له ما في السموات وما في الأرض، هو الذي يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء.

(١) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٢) أخرجه البخاري (١٨٠/٣) في كتاب الاستسقاء: باب دعاء النبي ﷺ، رقم (١٠٠٦)، وطرفاه في: (٢٩٣٢)، (٣٣٨٦)، ومسلم في صحيحه (٤٦٦/١ - ٤٦٨) كتاب الساجد ومواضع الصلاة: باب استحباب القنوت في جميع الصلاة، إذا نزلت بالمسلمين نازلة بركة رقم (٦٧٥ - ٦٧٧)، وأحمد (٢٣٩/٢)، (٢٥٥)، (٤٧٠)، (٥٠٢)، والدارمي (١٦٠٣)، وابن خزيمة (٦١٩)، وابن ماجه (٢/٤٠٤، ٤٠٥) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ماجاء في القنوت في صلاة الفجر (١٢٤٤)، والنسائي (٥٤٦/٢) كتاب التطبيق، باب القنوت في صلاة الصبح، والحميدي (٩٣٩).

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٤) أخرجه أحمد (٩٣/٢)، والطبري (٢٠٠/٧) (٧٨١٩)، والترمذي (١٠٦/٥) كتاب التفسير، باب ومن سورة آل عمران (٣٠٠٤)، وعبد الرزاق في مصنفه (٤٤٦، ٤٤٥/٢) (٤٠٢٧) وفي التفسير (١٣٢/١)، والنسائي (٢٠٣/٢)، وفي سننه الكبرى (٥٧٨)، وأبو يعلى (٤٠٣/٩)، (٥٥٤٧)، وابن خزيمة (٣١٥/١) (٦٢٢)، والطحاوي في مشكل الآثار (٥٦٧)، وفي شرح المعاني (١/٢٤٢)، وابن أبي حاتم في التفسير (٥٣٣/٢) (١٣٨٩)، وابن حبان (١٩٨٧-الإحسان)، والطبراني في الكبير (١٣١١٣)، والبيهقي (١٩٨/٢)، والبعوي في التفسير (٤١٧/١).

(٥) تقدم قريباً.

وفي قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ جواز العمل بالاجتهاد؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - عمل بالاجتهاد لا بالأمر، حتى منع عنه، والله أعلم.

قال الشيخ - رحمه الله - قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ يحتمل أن يكون على أثر أمر مما جبل^(١) عليه البشر ما رأى في ذلك صلاح الخلق، ومما عليه التدبير بحيث الإطلاق فقيل هذا، وإن كان على ما رأيت فليس لك من أمر هذا شيء، وإنما الذي إليك الصفح عن ذلك والإعراض، والله أعلم ما كان.

ويحتمل أن يكون يتدئ القول به من غير أن يسبق منه ما يعاتب عليه أو يمنع منه؛ ليكون - أبداً - مُتَقَبِّلاً الإذن له في كل شيء والأمر، ولا يطمع نفسه في شيء لم يسبق له البشارة به، على أن النهي والوعيد أمران جائزان، وإن كان قد عصم عن ركوب المنهي، ووجوب الوعيد؛ إذ هنالك تظهر رتبة العصمة، ولا قوة إلا بالله.

والظاهر أن يكون على إثر أمر استعجل ذلك من: دعاء الإهلاك أو الهداية لقبول الحق والخضوع له؛ فيقول: ليس لك شيء من ذلك في أحد على الإشارة إليه، إنما ذلك إلى الله، يصنع فيهم ما عنده من الثواب أو التعذيب، على قدر ما يعلم من إقبالهم على الطاعة له أو نفاذهم عنها، والله أعلم^(٢).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَرْبَابًا أَضْعَفًا مِّنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَرْبَابًا أَضْعَفًا مِّنْكُمْ﴾.

قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَرْبَابًا﴾ - كقوله: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ ففيه نهى عن الأخذ؛ كقوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦١]؛ فعلى ذلك قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَرْبَابًا﴾، أي: لا تأخذوا.

وقوله: ﴿أَضْعَفًا مِّنْكُمْ﴾.

فإن قيل: ما معنى النهي عن المضاعفة وغير المضاعفة حرام؟! لكنه يحتمل هذا وجوهاً:

(١) يقال: جبل الله الخلق يجبلهم ويجبلهم: خلقهم، وجبله على الشيء: طبعه، وجبل الإنسان على هذا الأمر، أي: طبع عليه. اللسان (٥٣٨/١) (جبل).

(٢) وفي الاعتراض: أي في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ تخفيف من حزنه لكفرهم وحرصه على هدايتهم؛ كما قال - تعالى -: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، أفاده العلامة القاسمي.

ينظر: محاسن التأويل (٤/٢٢٤).

يحتمل: أن يكون هذا قبل تحريم الربا^(١)، فنهوا عن أخذ المضاعفة.
 ويحتمل قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَرْبَا﴾: أي: لا تكتثروا أموالكم بأخذ المضاعفة.
 ويحتمل: ﴿أَضْعَفًا مُضَاعَفَةً﴾، أي: لا تصروا على استحلال الربا فتثبتون عليه آخر الأبد.

ويحتمل: ﴿أَضْعَفًا مُضَاعَفَةً﴾: تضعيف العذاب.
 ويحتمل ما قيل: كان أحدهم يبيع الرجل إلى أجل، فإذا حل الأجل زاد في الربح، وزاد الآخر في الأجل، وذلك كان ربا الجاهلية.
 قال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَرْبَا﴾.
 يحتمل الأكل؛ لأنه نهاية كل كسب.

ويحتمل الأخذ؛ كقوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ أَرْبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦١] وقوله: ﴿وَدَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ أَرْبَا﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وقوله: ﴿أَضْعَفًا مُضَاعَفَةً﴾: في الأخذ، أي: لا تأخذوا لثكثروا أموالكم، أو تقصدوا بذلك تضاعف أموالكم إلى غير حد؛ وليس فيه أن القليل ليس بمحرم، لكن ذلك هو مقصود أكله؛ فنهوا عن ذلك، وحرمة القليل بغير ذلك من لثكثروا أن يكون في نازلة عليها، خرج النهي لا على الإذن بدون ذلك، ولو كان على حقيقة الأكل فهو على النهي عن التوسع بالربا أو الأمر بالعود إلى ما لا ربا فيه، وإن كان

(١) الربا - لغة - : الفضل والزيادة، وهو مقصور على الأشهر، ويشئ فيقال: ربوان - بالواو على الأصل - وقد يقال: رببان - على التخفيف - وينسب إليه فيقال ربوي. قاله أبو عبيد وغيره.
 راجع: المصباح المنير (١/ ٣٣٣) (ربا).

وشرعاً: اختلف الفقهاء في تعريف الربا تبعاً لاختلاف المذاهب في استنباط علة تحريمه من حديث الأصناف الستة الذي ورد في الربا

وهو ما رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٢١٠) كتاب المساقاة، باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقداً، رقم (٨٠-١٥٨٧)، وأبو داود (٣/ ٢٤٨) كتاب البيوع، باب في الصرف، رقم (٣٣٤٩)، وغيرهما عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تبيعوا الذهب بالذهب، ولا الورق بالورق، ولا البر بالبر، ولا الشعير بالشعير، ولا التمر بالتمر، ولا الملح بالملح، إلا سواء بسواء، عينا بعين، يدا بيد... » الحديث. فعرفه الحنفية: بأنه فضل شرعي خال عن عوض شرط لأحد المتعاقدين في عقد المعاوضة.

وعرفه المالكية: بأنه عقد معاوضة على نقد أو طعام مخصوص بجنسه مع التفاضل أو مع التأخير مطلقاً.

وعرفه الشافعية: بأنه عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد أو مع تأخير في البدلين أو أحدهما.

وعرفه الحنابلة: بأنه الزيادة في أشياء مخصوصة.

راجع: حاشية ابن عابدين (٤/ ١٩٦-١٩٧)، حاشية البجيرمي على الخطيب (٣/ ١٦)، المغني لابن قدامة (٤/ ١٢٢).

في ذلك ضيق، والله أعلم.

ويحتمل أن يكون في الآية إضمار؛ فيقول: لا تأكلوا الربا؛ لأنكم إن أكلتموه بعد العلم بالتحريم - تضاعفت عليكم المآثم والعقوبات، وقد جعل الله للربا أعلامًا دلت على ما غلظ شأنها؛ نحو ما وصف من لا يتقيه لا ينفيه بالخروج بحرب الله وحرب رسوله^(١) ﷺ وبالتخبط يوم القيامة، وانتفاخ البطن وما جرى في معاقبة اليهود، وبتحريم أشياء لمكان ذلك، وقوم شعيب ما حل بهم بلزومهم بتعاطي الربا، والله أعلم، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولا تأخذوا الربا ولا تستحلوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢). وقوله: ﴿وَأَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

فيه دلالة أنها إنما أعدت للكافرين، لم تعد لغيرهم، فذلك يرد على المعتزلة؛ حيث خلدوا صاحب الكبيرة في النار، والله - تعالى - يقول: إنها أعدت للكافرين، وهم يقولون: ولغير الكافرين.

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾:

يحتمل: للذين اتقوا الشرك؛ كقوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ويحتمل: للذين اتقوا جميع أنواع المعاصي؛ فإن كان التأويل هو الأول - فكل من لم يستحق بفعله اسم الكفر - فهو في الآية؛ إذ قال في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، لم يجز أن تكون هي أبدًا لغيرهم؛ لوجهين:

أحدهما: إذ لا يجوز أن تكون الجنة المتخذة للمؤمنين تكون لغيرهم؛ فكذلك النار المعدة للكافرين، وهذا أولى بجواز القول في إيجاب الجنة لمن لا يكون منه الإيمان؛ نحو الذرية، وفساد القول فيهم بالنار، والله أعلم.

والثاني: أنها إذا جعلت لغيرهم أو أعدت لغيرهم - كان لا يكون للكفر فضل هيبة

(١) كما ورد في قوله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

(٢) ومما يعلم به حكمة نظم هذه الآية في سلك قصة أحد: ما رواه أبو داود (٢٥٣٧) عن أبي هريرة أن عمرو بن أقيش كان له ربا في الجاهلية، فكره أن يسلم حتى يأخذه، فجاء يوم أحد فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأحد، قال: أين فلان؟ قال: بأحد، قال: فأين فلان؟ قالوا: بأحد. فلبس لأخته وركب فرسه، ثم توجه قبلهم. فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو، قال: إني قد آمنت. فقاتل حتى جرح، فحمل إلى أهله جريحا، فجاء سعد بن معاذ، فقال لأخته: سليه: حمية لقومك - أو غضبا لهم - أم غضبا لله؟ فقال: بل غضبا لله ولرسوله. فمات فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة.

ينظر: محاسن التأويل للقاسمي (٢٢٧/٤).

ولفعله فضل فرع في القلوب بوجود ذلك، ومعلوم أن ذلك بالعواقب لا بنفس الفعل - ثبت أنه لا يجب خلود من ليس بكافر فيها حتى يكون ممن أعدت له، ولغير أثر وتحذير لا تحقيق ذلك كله، والله أعلم.

وإن كان التأويل هو الثاني من اتقاء جميع المعاصي؛ فيكون لذلك بعد عبارتان: إحداهما: أن قد ظهر أهل الجنة وأهل النار، وبينهم قوم لم تبلغ بهم الذنوب الشرك، فيدخلون في الوعيد بالنار المعدة لهم، ولا اتقوا جميع المعاصي؛ فيكونون في الوعد المطلق فيمن أعدت له الجنة؛ فحقه الوقف فيه حتى يظهر ذلك في قوله: ﴿وَيَعْرِفُ مَا دُونُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]، وفي قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦٤] وقوله: ﴿وَأَخْرَجُوا عَنْهَا أَقْوَامًا يَذُوبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٢] الآية، وغير ذلك من آيات العفو والمغفرة، وما كان ذلك واجباً في الحكمة، فيكون القائم به يستحق وصف العدل لا العفو والمغفرة - ثبت أن ذلك فيما قد وجب، أو يكون فيمن يجزيهم جزاءهم ويدخلهم الجنة؛ إذ أخبر أنه لا يجزي السيئة إلا بمثلها، وبالتخليد مضاعفة ذلك من وجهين:

أحدهما: أنه عذاب الكفر، وهذا دونه.

والثاني: منع لذة الحسنة بكليتها، بل حق ذلك أن يكون كقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ الآية [الزلزلة: ٧] أن يجزي بالأمرين جميعاً، ولا قوة إلا بالله.

والثاني: أنه قد جاء بمقابل السيئة من الحسنات، ومقابل كل أنواع من المعاصي من الطاعات، وقد وعد على الحسنة عشر أمثالها؛ فمحال أن يقابل مثل الذي دون الشرك من السيئات - الشرك في إحباط العمل، ولا يقابل مثل الذي دون الإيمان الإيمان في إحباط الذنوب، ويجب له الجنة، ثم مع ذلك الإيمان الذي لا أرفع منه، وهو الذي بعثه على الخوف والرجاء وقت الإساءة، وعلى أنه لو خشي على نفسه كل بلاء ورجا كل نفع في الكفر بربه - لم يؤثر ذلك مع ما وعد على الحسنة عشر أمثالها، ثم يبطل لذة ذلك كله، ويلزم الخلق القول فيه بالكرم والعفو والرحمة، ولا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

ذكر - والله أعلم - طاعة الرسول؛ لأن من الناس من لا يرى طاعة الرسول؛ فأمر - عز وجل - بطاعة رسوله - لئلا يخالفوا أمر الله ولا أمر رسوله، وأن من أطاع الله ولم ير طاعة رسوله فهو لم يطع الله في الحقيقة.

ويحتمل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في أمره ونهيه، وأطيعوا الرسول فيما بين في سننه أو دعا أو

بلغ، والقصد في الآية إلى فرض طاعة الرسول، وأطيعوا الرسول في أمره ونهييه، كما أطيعم الله في أمره ونهييه.

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣)

وقوله: - عز وجل - ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

يحتمل أن يكون هذا موصولا بقوله - عز وجل - : ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم مِّنْ أَصْحَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٠] أي : لا تأخذوا الربا أضعافا مضاعفة فتكثروا أموالكم، وحقيقته: وسارعوا إلى ما فيه وعد المغفرة من ربكم: بالإجابة له إلى ما دعا، والقيام به بحق الوفاء.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في استحلال الربا؛ لأن من استحل محرما فقد كفر، وحقيقته: اتقوا ما أوعدكم ربكم عليه النار.

وأصل الطاعة: الائتمار بأمر المطاع في كل أمر، فمن أطاع الله فيما أمر، وأطاع رسوله - رحمه ربه، وفي الطاعة رحمة الخلق؛ على ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ [حَتَّى] تَرَاحُمُوا؛ قَالُوا: كُلُّنَا نُرَاحِمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ قَالَ: لَيْسَ رَحْمَةً الرَّجُلِ وَلَدُهُ؛ وَلَكِنَّهُ رَحْمَةٌ عَامَّةٌ»^(١).

قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في تحريم الربا، وأطيعوا الرسول: في تبليغه إليكم تحريم الربا والنهي عن أخذه.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي: ارحموا الناس وترحموهم في ترك أخذ الربا، ترحمون أنتم، وتنجون من النار ومن^(٢) عذاب الله.

ثم قال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

أي: بادروا بالتوبة والرجوع عن استحلال الربا والترك عن أخذه، والمغفرة هي فعل الله، لكنه - والله أعلم - كأنه قال: بادروا إلى الأسباب التي بها تستوجبون المغفرة من ربكم، والمغفرة: هي السر في اللغة^(٣).

ثم يحتمل وجهين:

يحتمل: ألا يهتك أستاركم في الآخرة إذا تبتم.

(١) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١٩٠/٨) ورجاله رجال الصحيح، قاله الهيثمي. وسيدكره المصنف مرة ثانية عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة آل عمران.

(٢) في ب: من.

(٣) ينظر: القاموس المحيط (ص: ٤٠٦) (غفر).

ويحتمل: أن ينسى عليكم سيئاتكم في الجنة؛ لأن ذكر المساوي في الجنة تنقص عليهم نعمه، فأخبر - عز وجل - أنه ينسيهم مساوئهم في الجنة؛ لئلا ينقص ذلك عليهم، والله أعلم.

وقوله: - عز وجل - : ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾:

وبادروا - أيضًا - بالتوبة عن استحلال الربا إلى جنة عرضها السموات والأرض، فمعنى ضرب مثل الجنة بضرب السموات والأرض، وذلك - والله أعلم - ذكر هو أن للسموات والأرض أحوالاً ليست تلك الأحوال لغيرها من الخلاق؛ بقوله - عز وجل - : ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]؛ وذلك أنهما عندهم من أشد الخلاق وأقواها، فقال: إن الذي قدر على اتخاذ ما هو أشد وأقوى وأصلب - لقادر على إنشاء ما هو دونه، وهو هذا العالم الصغير.

ووصف - أيضًا - السموات والأرض بالغلظ والكثافة والشدة؛ لقوله - عز وجل - : ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ ﴿شِدَادًا﴾^(١) وغلاظًا، ثم أخبر - عز وجل - أنها مع غلظها وكثافتها تكاد أن تتشق لعظيم ما قالوا بأن الله ولداً وشريكاً بقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩١]؛ ليعلموا عظيم^(٢) القول وقبحه؛ لئلا يقولوا في الله ما لا يليق به.

ووصف - أيضًا - السموات والأرض بالدوام إلى وقت يبعد فناؤهما في أوهام الخلق، وإن كانا فانيان بقوله - عز وجل - : ﴿خَلِيدَتِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧]، فإذا كان للسموات والأرض ما ذكرنا من الأحوال عند الخلق، ليست تلك الأحوال لغيرها من الخلاق؛ من شدتها وقوتها، وصلابتها وكثافتها وسعتها - شبه عرض جنته وسعتها بسعة السموات والأرض وعرضهما؛ لما هما عند الخلق ليسا بذوي نهاية، وإن كانا ذوي نهاية وغاية؛ كما وصف أهل الجنة وأهل النار بالدوام فيهما بدوام السموات والأرض، وإن كانا فيهما غير دائمين أبداً؛ لبعد فئتهما عن أوهام الخلق؛ فعلى ذلك الأول، والله أعلم.

وفيه دلالة أن الجنة ذو نهاية المكان في العرض، وإن لم تكن بذات نهاية الوقت وغايته؛ لأنه ذكر العرض لها، وكل ذي عرض يحتمل نهاية عرضه - والله أعلم - ولو لم يكن ذا نهاية من حيث العرض، فكأن الله غير موصوف بالقدرة على الزيادة، ومن زال عنه

(١) ورد ذلك في قوله - تعالى - : ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبا: ١٢].

(٢) في ب: أعظم.

وصف ذلك - انقطع عنه الطمع، واضمحل الرجاء.

وبعد، فإن ثم داراً أخرى سوى الجنة، فأوجب ذلك نهاية الجنة من حيث العرض. إذ كان غير الجنة دار أخرى مثلها في ارتفاع نهاية الوقت، وجائز وجود أمرين مختلفين على اتفاق في الوقت، ومحال وجودهما في مكان واحد اتفاق بمكان؛ لذلك لزم نهايتهما، وإن زالت عنهما نهاية الوقت^(١).

وقوله: - عز وجل - ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾:

والإتقاء: هو من الطاعة في كل أمره ونهي، وترك مخالفته في ذلك كله، ثم سبب التقوى يكون بوجوه ثلاثة: بذكر عظمته وجلاله ورفعته عن مخالفة أمره ونهي؛ فيذله^(٢) ذلك ويحقره، فيمنعه عن مخالفته.

أو بذكر نعمته وإحسانه، فيمنعه ذلك عن ارتكاب ما نهى عنه حياء منهم. والثالث: بذكر نعمته وعذابه في مخالفة أمره ونهي؛ فيتقي بذلك عذاب الله ونعمته. قال الشيخ - رحمه الله - : وقوله - عز وجل - ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ثم فسّر الذين يتقون إلى آخر ذلك، فهو يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون المراد: من^(٣) أعدت له، [له]^(٤) من جميع الذي ذكر. والثاني: أن يريد بـ ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا الشرك بالذي أخبر - عز وجل - بقوله: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأَنْفَال: ٣٨]. ثم وصفهم بالذي ذكر من الأفعال المحمودة؛ لا أن ذلك بكليته شرط لأن يعد له الجنة حتى يحرم من لم يبلغ ذلك، فإن كان على الأول - فكأنه وصف النهاية لمن أعدت الجنة، وقد يجوز أن يكون لهم أتباع

(١) قال القرطبي: ونبه تعالى بالعرض على الطول؛ لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض، والطول إذا ذكر لا يدل على قدر العرض. قال الزهري: إنما وصف عرضها، فأما طولها فلا يعلمه إلا الله. وهذا كقوله تعالى: ﴿مُتَكِينٌ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَاقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، فوصف البطانة بأحسن ما يعلم من الزينة؛ إذ معلوم الظواهر تكون أحسن وأتقن من البطائن، وتقول العرب: بلاد عريضة، وفلاة عريضة: أي واسعة.

وقال قوم: الكلام جارٍ على مقطع العرب من الاستعارة، فلما كانت الجنة من الاتساع والانفساح في غاية قصوى حسنت العبارة عنها بعرض السموات والأرض، كما تقول للرجل: هذا بحر، ولشخص كبير من الحيوان: هذا جبل. ولم تقصد الآية تحديد العرض، ولكن أراد بذلك أنها أوسع شيء رأيتموه.

ينظر: تفسير القرطبي (٤/١٣٢).

(٢) في ب: فيذله.

(٣) في ب: ممن.

(٤) سقط من ب.

في الشركة، وإن لم يبلغوا تلك الرتبة بفضل الله، أو بما أعطى من ذكر فيهم من الشفاعة، أو بما شاركوا أولئك في أصل الاعتقاد بقبول ذلك، وإن كان منهم تقصير على أنه قد يذكر في [كل] (١) أمر من الأمور العظيمة، والنهاية في ذلك على مشاركة من دونهم لهم في ذلك، وعلى ذلك ما ذكر من بعث الرسل إلى الفراعنة على دخول من دونه في ذلك، وعلى مخاطبة أهل الجلال في ذلك، ودخول من دونهم في الحق؛ وكذلك ذكر الخطاب في أهل الرفعة والعلو على تضمين من دون ذلك؛ فكذاك الأول؛ وكذلك الله - سبحانه - ذكر في القرآن من الكفرة الذين جمعوا مع الكفر العناد والتمرد، وذكر أهل الإيمان الذين لهم مع ذلك الخيرات مثلاً منه، إن ذكر هؤلاء بأعلى [ما استحقوا من الثناء، والأول] (٢) بأعلى ما به يصير لمقتته، من غير تخصيص في أصل له الوعد والوعيد، إلا من حيث التشديد والتفضيل، فمثله الأول؛ أيد ذلك قسمته أهل الجنة قسمين: السابقين، - وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ، ثم قال في الذين من ذكر: الَّذِينَ ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، وقد بين في آخر ذلك ما يدل على ذلك، وهو من ذكر من الذين يأتون الفواحش والظلم، ثم ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾، ويكون في ذلك وجهان:

أحدهما: أن الله - تعالى - بمنه يوفقه لما يرضيه في آخر أمره؛ ليختمه به؛ إذ كان في وقت ارتكابه ما ارتكب، وتقصيره فيما قصر - معتقداً جلال ربه، خائفاً عظمته، راجياً رحمته، متعرضاً لما عرفه من الكرم والعفو، فيكون هو شريك من ذكر في الخاتمة، وإن كان منه تخلف عنه في الابتداء، والله أعلم.

أو أن يكون يجزيه عما قصر وفرط؛ حتى يطهره مما كان من الخلط؛ فيرجع إلى ما وافق الأول في جملة الاعتقاد، فتكون معدة لمن جمع ذلك، والجمع يكون بالذي ذكر، أو بالعفو والجود؛ إذ جعل الجزاء طريقه الجود والكرم، لا الاستحقاق، والله أعلم.

وإن كان على معنى الثاني - فالآية تخرج مخرج الترغيب في جميع تلك الأوصاف، وتكون الجنة في الإطلاق معدة للمتقين، الذين اتقوا الشركة والدرجات وما فيها من الفضائل والمراتب، على قدر ما يبقى من أنواع الخلاف في الأفعال، ويتوسل إلى الله - تعالى - بالمبادرة والمسارعة إلى ما فيه الرغائب؛ وعلى ذلك أمر الوعد بتفضيل الدرجات في الجنة، وتفريق الدرجات في النار، على ما أعدت النار في الجملة للكفرة، ويتفاوت أهلها بتفاوت الأفعال من الخلاف والتمرد، والله الموفق.

(١) سقط من ب.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من ب.

ثم السبب الذي به يستعان على التقوى ثلاثة:

أحدها: أن يذكر المرء عظمته وجلاله وقدرته عليه في كل أحواله؛ فيتقوى مخالفته بالهيبة والإجلال.

والثاني: أن يذكر عظم^(١) مته عليه، ونعمه عنده، وأياديه التي فيها يتقلب، وبها يتمتع؛ فيتقيه حياء منه.

والثالث: أن يذكر نفسه عظم^(٢) نعمته الموعودة، وعذابه المعد لأهل الخلاف له؛ فيتقيه إشفاقاً على نفسه، والله الموفق.

وجملة ذلك: أن من تأمل ما إليه مرجعه، والذي منه بدؤه وما فيه متقلبه، من أول أحواله إلى منتهي آجاله، حتى صير ذلك كله كالعيان لقلبه - سهّل عليه وجه التقوى؛ لما عند ذلك تذهب شهواته، وتضمحل أمانيه، والله الموفق.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظَّيْنِ وَالْفَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤) **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاَسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (١٣٥) **أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** (١٣٦) **وقوله:** - عز وجل - : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ﴾.

قيل: السراء: الرخاء، والضراء: الشدة^(٣).

وقيل: السراء: السعة، والضراء: الضيق^(٤)؛ وهو واحد.

وقيل: السراء: ما يسرهم الإنفاق؛ من نحو الولد وغيره، يسره الإنفاق عليه، والأجنبي يضره^(٥).

وعلى تأويل الأول: أن الإنفاق في حال الرخاء والسعة - أيسر وأهون على المرء من الإنفاق في حال الضيق والفقر، فإذا أنفق في الأحوال استوجب بذلك المدح، والله أعلم.

والسبب الذي يُيسّر عليه الأمر وجهان:

(١) في ب: عظيم.

(٢) في ب: عظيم.

(٣) قاله سعيد بن جبير أخرجه عنه ابن أبي حاتم (٥٤٨/٢) (١٤٣١، ١٤٣٤).

(٤) قاله ابن عباس ولفظه «في العسر واليسر»، أخرجه عنه الطبري (٢١٤/٧) (٧٨٣٨)، وابن أبي حاتم (٥٤٧/٢) (١٤٣٠).

(٥) ذكره الفخر الرازي في تفسيره (٧/٩).

أحدهما: علمه بأن الذي في يديه^(١) في الحقيقة في يد الله ؛ فهو يصرف ذلك حيث يصرفه ، لم يخرج من يد مَنْ يَدُهُ فِي يَدِهِ ، كأنه يعد في يده .
والثاني: بعلمه بجود^(٢) ربه وقدرته ، حيث يكون ذلك فيما به قضاء حاجته ، والوصول إلى منفعتة مع ما يعلم بالجود^(٣) ، وكثرة الانتفاع بما لا ملك للمنتفع به ، وحرمان ذي الملك ذلك فيه .

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾: يحتمل فيما يسرهم ويضرهم ، أو في حال يسر وعسر ، أو حال بلاء ونعمة .
ثم السبب الذي يسهل سبيل الإنفاق في تلك الأحوال - وإن كان بالذي ذكر في تسهيل التقوى - هذا وجوه ثلاثة :

أحدها: أن ترى مالك لمن له يد امتحك بحق ذلك وحفظه ، وأنت إذا بذلته ارتفعت عنك مئونة الحفظ ، ومراعاة الحق على ما لم يكن ذاك عنك نفعه الذي كان له وقت كونه في يدك ؛ إذ هو بعد البذل في يد من يدك قبله في يده ، فكأنه لم يخرج من يدك بحيث النفع ، وإنما سقطت عنك ما ذكرت من المئونة ؛ إذ معلوم وجودها لك في الظاهر ؛ لا منتفع به ، ومن لا ملك له في الشيء منتفع به ، على العلم باستواء الأمر على من له بذلت ، والله أعلم .

والثاني: أن تشعر قلبك جوده بمن آثره على ما عنده ، وقدرته على إعطائه إياه من خزائنه التي لا تنفذ ، ولا يتعذر عليه ، فتيقن بذلك ، وتعلم أنه لك على الإيصال إليه ؛ فيما لم يكن أوصله ، وعلى ذلك فيما أعطاه في القدرة واحد ؛ فيهن عليه ذلك ؛ والله أعلم .
والثالث: أن تعلم أن الذي عليه جبل وإليه دفع ؛ ليس للوقت الذي فيه ؛ ولكن ليتزود لمعاده ، ويكتسب به الحياة الدائمة ، والمنفعة التي لا تنفذ ، فيصير كبائع الشيء بأضعاف ثمنه ، أو كباذل ما فيه فكاك رقبته ، أو كمقدم ما يمتن إلى مكان مهنته ، أو كمن يعد الشيء في مسكنه لوقت حاجته ، فإن مثله آثر الشيء على الطبيعة ، وألذ شيء في العقل . ولا قوة إلا بالله .

ثم الأصل في قوله: ﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: من لم يبلغ بما يرتكب من المعاصي - الكفر ، لم يمتنع من احتمال التسمية المتقين على إرادة خصوص التقوى ؛ وهو ممتنع

(١) في ب: يده .

(٢) في ب: بوجود .

(٣) في ب: بالوجود .

عن^(١) احتمال التسمية بالكفر على صرف الآية في إعداد النار إلى خصوص^(٢) أو عموم^(٣)، ثبت به خروج صاحب الكبائر عن^(٤) أهل الاسم الذي أعدت له النار، ولم يثبت خروجه عن أهل الاسم الذي له أعدت الجنة، [فالقول فيه، وإنما ذلك في الجنة فاسد بأوجه:

أحدها: مع الإشكال فيما يحرم الجنة^(٥) والإحاطة بأن النار لم يذكر أنها أعدت له أدخل فيها، فيكون في ذلك إسقاط [شهادة تثبت يقيين بالشك، وإيجاب شهادة لم تجب بالخيال.

والثاني: أن يكون في ذلك إسقاط^(٦) اسم العفو والرحمة؛ إذ لو لم يجعل لمثله - لبطل أن يكون له موضع لما في غيره استحقاق، والله أعلم.

والثالث: ما فيه إسقاط الموازنة والمقابلة مع مجيء الآيات بالكتب التي تقرأ الموازين التي توزن؛ مع ما في ذلك مخالفته التوهم بالكريم الذي أمرنا أن نسميه بها؛ مع ما قد جاء من التجاوز عن السيئات والتقبل للحسنات من واحد، وفي ذلك قلب ذلك، والله أعلم. وقوله - عز وجل - : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾.

روى عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا - وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَىٰ إِنْفَاقِهِ - مَلَأَهُ اللَّهُ أَثْمًا وَإِيمَانًا»^(٨).

والغيظ متردد بين الحزن والغضب، والحزن على من فوقه، والغضب على من دونه، والغيظ بين ذلك، مدحهم - عز وجل - بترديد حزنهم وغيظهم في أجوافهم.

(١) في ب: على.

(٢) الخصوص: كون اللفظ متبادلاً لبعض ما يصلح له لا لجميعه. ويقال: خصوص في كون اللفظ متناولاً للواحد المعين الذي لا يصلح إلا له.

راجع: البحر المحيط للزركشي (٣/٢٤٠)، التمهيد للإسنوي (ص ٣٦٨)، نهاية السؤل (٢/٣٧٤)، المستصفى (٢/٣٢).

(٣) العموم - لغة - : جمع عام: وهو في اللغة شمول أمر لمتعدد، سواء كان الأمر لفظاً أو غيره. واصطلاحاً: اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له من غير حصر. راجع: البحر المحيط للزركشي (٣/٥)، نهاية السؤل (٢/٣١٢)، غاية الوصول للشيخ زكريا ص(٦٩).

(٤) في ب: على.

(٥) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٦) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٧) في ب: نبي.

(٨) أخرجه الطبري (٧٨٤٢) من طريق عبد الرزاق قال أخبرنا داود بن قيس عن زيد بن أسلم عن رجل من أهل الشام يقال له عبد الجليل عن عمِّ له عن أبي هريرة عن النبي ﷺ به. وهذا إسناد ضعيف. لجهالة اثنين من رواه. وذكره السيوطي في الدر (٢/١٣٠) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وابن المنذر.

وقوله - عز وجل - ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.
أي: عمن ظلم.

وروي عن رسول الله ﷺ [أنه]^(١) قال: «مَا عَفَا رَجُلٌ عَمَّنْ ظَلَمَهُ إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ بِهَا عِزًّا»^(٢) ومن عفا عن الناس عن مظلمة - فقد أحسن بذلك؛ كما يقال: فلان يحسن بكذا؛ ولا يحسن.

وقوله - عز وجل - : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

والإحسان يحتمل وجهين:

يحتمل: العلم والمعرفة^(٣):

ويحتمل: أن يفعل فعلاً ليس عليه من نحو المعروف والأيدى الذي ليس عليه، إنما فعله الإفضال، ذكر - ههنا - المحسنين وحبته، وأخبر في الآية الأولى أَنَّ الجنة أعدت للمتقين بقوله - عز وجل - : ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ثم قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وأخبر أَنَّ النار أعدت للكافرين.

ثم اختلفوا فيه: قال بعضهم: من لم يكن من المتقين لم تعدَّ الجنة له، فهو ممن أعدت له النار، وهو قول الخوارج والبلغاء^(٤).

وقال آخرون: إنه أخبر أَنَّ النار أعدت للكافرين، فهو إذا لم يكن كافراً - ليس ممن أعدت له النار، فهو ممن أعدت له الجنة.

وقال غيرهم: أخبر أَنَّ النار أعدت للكافرين وأخبر أَنَّ الجنة أعدت للمتقين، فوصف المتقين: فهم الذين اتقوا معاصيه، وتركوا مخالفة أمره ونهيه، فإذا كان قوم لهم مساوئ -

(١) سقط من ب.

(٢) أخرجه أحمد (٢/٢٣٥، ٣٨٦، ٤٣٨)، ومسلم (٤/٢٠٠١): كتاب البر والصلة والآداب، (٦٩ - ٢٥٨٨)، والترمذي (٣/٥٥٢): أبواب البر والصلة (٢٠٢٩)، وابن خزيمة (٢٤٣٨)، وأبو يعلى (٦٤٥٨)، وابن حبان (٣٢٤٨)، والبيهقي (٤/١٨٧)، (٨/١٦٢)، (١٠/٢٣٥) من طريق العلاء ابن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بغوٍ إلا عزّاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله».

(٣) العلم والمعرفة معناهما واحد عند المصنف وأتباعه، فالعلم عند عامة أهل السنة والجماعة إدراك المعلوم على ما هو به، وبعضهم عرفه بقوله: معرفة المعلوم على ما هو به. ينظر: أصول الدين للبزدوي (ص ١٠).

(٤) البغاة: يقال في اللغة: بغى على الناس بغياً، أي: ظلم واعتدى فهو باغ، والجمع: بغاة، وبغى: سعى بالفساد، والبغاة: هم الخارجون من المسلمين عن طاعة الإمام الحق بتأويل، ولهم شوكة. راجع: اللسان (١/٣٢٣) (بغى)، المصباح المنير (بغى)، حاشية ابن عابدين (٣/٣٠٨)، مواهب الجليل (٦/٢٧٨)، كشاف القناع (٦/١٥٨).

لم يدخلوا في إطلاق قوله - عز وجل - : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ولا دخلوا في قوله : ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فيكون لهم موضعًا بالنار .

وأما عندنا : فإنه يرجى دخول من ارتكب المساوي من المؤمنين في قوله - عز وجل - : ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، بقوله - عز وجل - : ﴿اعْرِضُوا لِذُنُوبِهِمْ حَلْطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخِرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] ذكر خلط عمل الصالح مع السيئ ، ثم وعد لهم التوبة بقوله - عز وجل - : ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ والعسى من الله واجب .

والثاني : قوله - عز وجل - : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦] فإذا تجاوز لم يبق لهم مساوي ؛ فصاروا من أهل هذه الآية : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

وقوله - أيضًا - : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ قالوا : ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ . أخبر أنهم ﴿إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ : وقد ذكرنا فيما تقدم أنهم لأي معنى ظلموا أنفسهم ، حيث لم يسلموا أنفسهم لله خالصين ، والظلم : هو وضع الشيء في غير موضعه ، فإذا لم يسلموا له - وضعوا أنفسهم في غير موضعها ، لذلك صاروا ظلمة أنفسهم .

﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي : طلبوا لذنوبهم مغفرة ، وأقروا أنه لا يغفر الذنوب إلا الله .

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ على ذنوبهم ، والإصرار : هو الدوام عليه ، ثم أخبر أن جزاء هؤلاء المغفرة من ربهم ؛ ﴿وَجَنَّتْ تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا...﴾ ، إلى آخر ما ذكر . دلت هذه الآيات على تأييد قولنا : إن أهل المساوي والفواحش إذا تابوا صاروا ممن أعدت لهم الجنة ، وإن لم يكونوا من المتقين من قبل ، فمثله إذا تجاوز الله عن سيئاتهم ؛ وعفا عنهم بما هو عفو غفور ، والله أعلم .

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله - عز وجل - : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...﴾ الآية :

يحتمل أن يكون الظلم غير الفاحشة .

ويحتمل أن يكون واحدًا^(١) في المراد ؛ إذ قد يكون في المعنى أن كل عاص ظالم

(١) في ب : واحدًا واحدًا .

لنفسه، بمعنى ضرّها؛ ونحس^(١) لحظّها؛ إذا فعل ما ليس له الفعل ووضع اختياره في غير موضعه، وهما معنيا الظلم، وكذلك من تعدى حدّ الله أو أثر ما يزره العقل والشرع - فقد فحش فعله، وذلك معنى الظلم الذي وصفت؛ إذ فعل ما ليس له، واختياره غير الذي له - هو الذي يزره العقل والشرع، والله أعلم.

ويحتمل وجها آخر غير هذين: وهو أن الظلم يجمع كل وجوه الخلاف؛ عظم أو صغر، ولذلك قد نسب ذلك إلى زلات الأخيار، نحو ما قيل لآدم - عليه السلام - في أكل الشجرة: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقيل في الشرك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

والفواحش: ما [ظهر وتبين]^(٢) قبحه؛ لا ما قلّ أو كثر في الذنوب، وعلى ذلك النقصان ظلماً بقوله - عز وجل -: ﴿وَلَمْ تَظَلِمْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ [الكهف: ٣٣]، وقد يوصف العيب والنقصان بالفحش؛ لكنه إذا كثر وظهر فمثله في الزلات، ويكون كالطيب في المحلّلات من المباح ونحوه في الدرجة، والله أعلم.

ثم ليس بنا حاجة إلى معرفة المقصود بالذكر في الآية؛ لما فيها الرجوع عن ذلك، وطلب المغفرة، وكل أنواع المآثم بالتوبة تغفر بما وعد الله في الشرك، والزنا، والقتل؛ فما دونه - بقوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ...﴾ [الفرقان: ٦٩] إلى تمام^(٣) الآية، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾.

يحتمل الفاحشة: ما فحش في العقل وقبح.

وقال آخرون: كل محرم منهّي فهو فاحشة.

والأول كأنه أقرب؛ لأن الشيء ما لم يبلغ في الفحش والقبح غايته؛ فإنه لا يقال: فاحشة، وإذا بلغ الغاية - فحينئذ كالطيب، أنه إنما يقال ذلك إذا بلغ غايته في الحل واللذة، فأما أن يقال لكل حل في الإطلاق طيباً - فلا، فعلى ذلك: الفواحش؛ لا يقال لكل محظور محرم، إنما يقال ما بلغ في القبح والفحش غايته، فأما أن يقال ذلك لكل محرم منهّي - فلا، وبالله التوفيق^(٤).

(١) النحس: الجهد والضُّرُّ، والنحس: خلاف السعد من النجوم وغيرها. ينظر: اللسان (٦/٤٣٦٦) (نحس).

(٢) بدل ما بين المعقوفين في ب: يظهر ويتبين.

(٣) في ب: آخر.

(٤) قال القرطبي: والفاحشة تُطلق على كل معصية، وقد كثر اختصاصها بالزنا حتى فسر جابر بن عبد الله والسدي هذه الآية بالزنا.

ينظر: تفسير القرطبي (٤/١٣٥).

والطيب: ما استطابه الطبع؛ فإذا بلغ طيبه غايته في الطبع؛ فهو طيب، والله أعلم.
وقوله - عز وجل - : ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنها معصية فلا يقيمون عليها، ولكن يتوبون، فمن تاب من ذنبه فجزاؤه مذكر^(١).

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَّاكَ لِلنَّاسِ وَهَدَى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

وقوله - عز وجل - : ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾.
يحتمل أحكاماً، والأحكام تكون على وجهين: حكم يجب لهم، وهو الثواب عند الطاعة، واتباع الحق، وعذاب يحل بهم عند الخلاف والمعصية.
ويحتمل «السنن»: الأحكام المشروعة.
﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حتى تروا آثار من كذب الرسل وما حلَّ بهم من العذاب؛ بالتكذيب.

أو ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: أي سلوا من يعلم ما الذي حلَّ بهم حتى يخبروكم^(٢) ما مضى من الهلاك في الأمم الخالية، فهذا تنبيه من الله - عز وجل - إياهم أنكم إن كذبتهم الرسول - فيحلَّ بكم ما قد حلَّ بمن قد كان قبلكم، وإن أطعتم الرسول ﷺ - فلكم من الثواب ما لهم، فاعتبروا به كيف كان جزاؤهم بالتكذيب.
وما في القرآن مثل هذا فمعناه: لو سئلت لأخبروك.

وقيل: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: أي: تفكروا في القرآن يخبركم عن الأمم الماضية؛ فكأنكم سرتهم في الأرض، وما في القرآن مثل هذا - فمعناه: لو سألت لأخبروك؛ فإن فيه خير من كان قبلكم من الأمم، وما لهم من الثواب بالتصديق والطاعة، وما عليهم من العقاب بالتكذيب، والله أعلم.

(١) قال القرطبي: الذنوب التي يتاب منها إما كفر أو غيره، فتوبة الكافر: إيمانه مع ندمه على ما سلف من كفره، وليس مجرد الإيمان نفسه توبة. وغير الكافر: إما حق لله - تعالى - وإما حق لغيره: فحق الله - تعالى - يكفي في التوبة منه الترك غير أن منها ما لم يكتف الشريعة فيها بمجرد الترك، بل أضاف إلى ذلك في بعضها قضاء: كالصلاة والصوم، ومنها ما أضاف إليها كالحج في الإيمان والظهار وغير ذلك. وأما حقوق الآدميين فلا بد من إيصالها إلى مستحقيها، فإن لم يوجدوا تصدق عنهم، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسار فغفو الله مأمول، وفضله مبذول؛ فكم ضمن من التبعات وبدل من السيئات بالحسنات!

ينظر: تفسير القرطبي (٤/١٣٧).

(٢) في ب: يخرجوكم.

وفي قوله - عز وجل - : ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ يحتمل في المكذبين بالرسول والمصدقين، ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يحتمل: لو سرتهم فيها لرأيتم آثارهم، ولعرفتم بذلك ما إليه ترجع عواقب الفريقين.

ويحتمل: الأمر بالتأمل في آثارهم، والنظر في الأنبياء عنهم؛ ليكون لهم به العبر، وعما هم عليه مزدجر^(١).

ويحتمل «السنن»: الموضوع من الأحكام، وبما به امتحن من قبلهم؛ ليعلموا أن الذي بلوا به ليس ببديع؛ بل على ذلك أمر من تقدمهم؛ كقوله: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وكقوله - عز وجل - : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، والله أعلم.

وقوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾.

يحتمل قوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ﴾ يعني: القرآن؛ هو بيان للناس، وهدى من الضلالة. ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: يتعظ به المتقون.

ويحتمل ﴿بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾: ما ذكر من السنن التي في الأمم الخالية.

دل قوله - عز وجل - : ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُذَوِّلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] أن الله في صرف الدولة^(٢) إلى أهل الشرك فعل وتدبير؛ إذ أضاف ذلك إليه ما به الدولة، ثم ذلك معصية وقهر وتذليل، فثبت جواز كون ما هو فعل معصية إلى الله من طريق التخليق والتقدير، والله أعلم؛ إذ ذلك لهم بما هم عصاة به - عز وجل - والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾:

ولا تضعفوا في محاربة العدو، ولا تحزنوا بما يصيبكم من الجراحات والقروح؛ كقوله - تعالى - : ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ويحتمل قوله - عز وجل - : ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: في الحرب وأنتم تعملون^(٣)؛ إذ هم لا

(١) ليس المراد بقوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ الأمر بذلك لا محالة، بل المقصود تعرف أحوالهم، فإن حصلت هذه المعرفة بغير المسير في الأرض كان المقصود حاصلًا. ولا يمتنع أن يقال أيضًا: إن لمشاهد آثار المتقدمين أثرًا أقوى من أثر السماع؛ كما قال الشاعر:

إِنْ آثَارُنَا تَدَلَّ عَلَيْنَا فَاَنْظُرُوا بَعْدُنَا إِلَى الْآثَارِ
قاله الفخر الرازي. ينظر: مفاتيح الغيب (١١/٧).

(٢) الدولة: انقلاب الزمان، والعقبة في المال. ويُضْمُّ، أو الضم فيه، والفتح في الحرب، أو هما سواء، أو الضم في الآخرة، والفتح في الدنيا. راجع: القاموس المحيط (ص: ٩٠٠) (دول).

(٣) في ب: تعلمون.

يضعفون فيها، وهم يعملون للشیطان.

وقوله - عز وجل - : ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما فاتكم من إخوانكم الذين قتلوا.

ويحتمل: ما أصابكم من القروح؛ أي: تلك القروح والجراحات لا تمنعكم عن قتال العدو؛ ولكم الآخرة والشهادة.

وقوله - عز وجل - : ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾.

قيل فيه بوجوه:

قيل: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ في الآخرة.

وقيل: ﴿الْأَعْلَوْنَ﴾ المحققون بالحجج.

وقيل: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ في النصر؛ أي: ترجع عاقبة الأمر إليكم.

ويحتمل أن النصر لكم إن لم تضعفوا في الحرب، ولم تعصوا الله - عز وجل - ورسوله ﷺ.

ويحتمل: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾:

لكم الشهادة إذا قتلتم؛ وأحياء عند الله، وهم أموات^(١).

وقوله - عز وجل - : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

ليس على الشرط؛ ولكن على الخبر؛ كقوله - عز وجل - : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا

خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] أي: إذ كن يؤمن بالله^(٣)، وإن كنتم مؤمنين بالوعد والخبر.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٠) وَلِيَمِخَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ﴿

وقوله: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾.

اختلف فيه: قيل: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ في آخر الأمر^(٤)؛ يعني في أحد؛ فقد مَسَّ

المشركين قرح مثله يوم بدر، يذكر هذا - والله أعلم - على التسكين؛ ليعلموا أنهم لم يخلصوا بذلك.

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٢/٧).

(٢) بدل ما بين المعقوفين في ب: «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

(٣) سقط من ب.

(٤) في ب: الآية.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

تحتمل الآية وجوها: يوماً للمؤمنين ويوماً عليهم، وذلك أن الأمر بمجاهدة العدو والقتال معهم محنة من الله - تعالى - إياهم يمتحنهم وبتليهم؛ مرة بالظفر لهم والنصر على عدوهم، ومرة بالظفر^(١) للعدو عليهم؛ كقوله - عز وجل -: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وكقوله: ﴿وَبَلَّوْهُمْ بِالْهَيْبَةِ وَالنَّسِيَةِ وَالنَّاسِئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] يمتحن عبادهم^(٢) بجميع أنواع المحن، بالخير مرة، وبالشر ثانيًا.

ويحتمل المداولة - أيضًا وجهًا آخر: وهو أن الظفر والنصر لو كان أبدًا للمؤمنين - لكان الكفار إذا أسلموا لم يسلموا إسلام اختيار؛ ولكن إنما آمنوا إيمان قهر وكره وجبر؛ لما يخافون على أنفسهم من الهلاك إذا رأوا الدولة والظفر للمؤمنين، وإن كان الظفر والنصر أبدًا للكفار؛ فلعلهم يظنون أنهم المحقون فيمنعهم ذلك عن الإسلام. ويحتمل أن ما يصيب، [بمعصية]^(٣)، المؤمنين إنما يصيب بمعصية سبقت منهم، أو خلاف كان منهم؛ من ترك أمر أو ارتكاب نهى، والله أعلم.

فإن طعن طاعن من الملاحظة في قوله - عز وجل -: ﴿إِنْ تَصُرُوا اللَّهَ يَصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقوله - عز وجل -: ﴿إِنْ يَصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، أليس وعد أنكم إن نصرتم دينه ينصركم، وأخبر - أيضًا - أنه إن نصركم فلا غالب لكم، فإذا نصرتم دينه فلم ينصركم؛ أليس يكون خلفًا في الوعد؟ أو إن نصركم فغلبتم يكون كذبًا في الخبر.

قيل: لهذا جواب من أوجه:

قيل: يحتمل قوله - عز وجل -: ﴿إِنْ تَصُرُوا دِينَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا يَنْصُرْكُمْ فِي الْآخِرَةِ بِالْحَجَجِ﴾ كقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ الآية [غافر: ٥١]، وكقوله - عز وجل -: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

وقيل: إن تنصروا دين الله ولم تعصوا الله فيه - ينصركم؛ فلا غالب لكم.

وقيل: يحتمل: إن تنصروا دين الله جملةً - ينصركم؛ كقوله - عليه السلام -: «لَنْ يُغْلِبَ اثْنَا عَشَرَ آلَافًا مِنْ قَلَّةٍ، كَلِمَتُهُمْ وَاحِدَةٌ»^(٤) وكقوله - عز وجل -: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ

(١) في ب: بالظفر بالنصر.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٣) سقط من ب.

(٤) أخرجه أحمد (٢٩٤/١، ٢٩٩)، وعبد بن حميد (٦٥٢)، وأبو داود (٢٦١١)، والترمذي (١٥٥٥)، وابن خزيمة (٢٥٣٨)، وأبو يعلى (٢٥٨٧)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٧٢)، =

مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴿إِبْرَاهِيمُ: ٣٤﴾.

وقيل: إن تنصروا دين الله ينصركم؛ أي: يجعل الظفر؛ والنصر في العاقبة لكم، وكذلك: وإن كان في ابتداء الأمر الغلبة على المؤمنين؛ فإن العاقبة لهم في الحروب كلها، ومقدار ما كان عليهم إنما كان لأمر سبق منهم: إما إعجابًا بالكثرة؛ كقوله - تعالى -: ﴿إِذْ أَعْجَبَكُمُ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]، وإما خلافًا لرسول الله ﷺ.

وفي قوله - عز وجل -: ﴿وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُذَوِلْهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ دلالة أن كان من الله معنى لديه تكون الغلبة لهم؛ بقوله - عز وجل -: ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ ولكن هو يجعل أبدًا الدولة لأحد الفريقين، وقد أخبر أنه يجعل لهما، ومعلوم إن كانت الدولة بالغلبة، فثبت أن من الله في صنع العباد - صنع له أضيف [إليه صنعهم]^(١)، والله أعلم. ثم معلوم أن الغلبة لو كانت للمسلمين - كان ذلك ألزم للحجة، وأظهر للدعوة، وأدعى [إلى الإجابة]^(٢)، وفيها كل صلاح، فثبت أن ليس في المحنة شرط إعطاء الأصلح، والله أعلم.

وفي قوله - عز وجل -: ﴿وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُذَوِلْهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ رد قول الأصلح؛ حيث قالوا: إن الله لا يفعل إلا الأصلح في الدين، يقال لهم: أي صلاح للمؤمنين في مداولة الكافرين على المؤمنين؟!.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾:

أي: ليعلم ما قد علم بالغيب أنه يؤمن بالامتحان مؤمنًا شاهدًا، وليعلم ما قد علم أنه يكون كائنًا.

وجائز أن يراد بالعلم: المعلوم؛ كقوله: الصلاة أمر الله، أي: بأمر الله.

وفي قوله - عز وجل -: ﴿وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ الآية، تخرج على أوجه:

= وابن حبان (٤٧١٧)، والحاكم (٤٤٣/١) (١٠١/٢)، والبيهقي (١٥٦/٩) من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس مرفوعًا: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا يغلب اثنا عشر ألفًا من قلة».

وأخرجه عبد الرزاق (٩٦٩٩)، وسعيد بن منصور (٢٣٨٧) وأبو داود (٣١٤، ٣١٣)، والطحاوي شرح المشكل (٢٣٩/١) من طريق الزهري قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره كذا منقطعًا.

وقال أبو داود: والصحيح أنه مرسل.

(١) بدل ما بين المعقوفين في ب: إليهم صنعهم.

(٢) بدل ما بين المعقوفين في ب: للإجابة.

أحدها: أن ما وصفت الله به إذا ذكرت معه الخلق - تذكر وقت كون الخلق؛ لئلا يتوهم قدمه، وإذا وصفت الله - تعالى - بلا ذكر الخلق وصفته به في الأزل؛ نحو أن تقول: عالم، قادر، سميع - في الأزل، فإذا ذكرت المسموع والمقدور عليه والمعلوم - ذكرت وقت كونه؛ لتزيل توهم القدم على الآخر؛ وعلى هذا عندنا القول بـ«خالق» «رازق» ونحو ذلك، والله أعلم.

والثاني: على تسمية معلومة علمًا في مجاز اللغة؛ وذلك كما سمي عذاب الله في القرآن أمره، وسمى الناس الصلاة - وغيرها من العبادات - أمره، على معنى أنها تفعل بأمره؛ وكذلك ما سميت الجنة رحمته، على أن كان فيها^(١)؛ فيكون: ﴿وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: أي: ليكون الذين آمنوا على ما علمه يكون، والله أعلم.

والثالث: ﴿وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في الغيب شهودًا؛ إذ هو عالم الغيب والشهادة، وتحقيق ذلك لا يكون بحادث العلم، وذلك نحو من يعلم الغد يكون؛ يعلمه بعد الغد، وإن لم يكن له حدوث العلم قد كان؛ وعلى هذا قيل: ليعلمه كائنًا لوقت كونه ما قد علمه يكون قبل كونه، والله أعلم.

وقال بعض أهل التأويل: ليكون الذي علمه يكون بالمحنة ظاهرًا موجودًا، وهو يرجع إلى ما بيننا.

وقال بعضهم: ليراه، وهذا من صاحبه ظن أن الكلام في الرؤية لعله أيسر، وعن التشبيه أبعد، وعند من يعرف الله حق المعرفة: هما واحد^(٢)

والأصل في هذا ونحوه في الإضافات إلى الله: أنها كانت بالأحرف المجعولة المتعارف في الخلق، ثم هي تؤدي عن كل ما يضاف إليه، ويشار إليه ما كان عرف من حال ذلك قبل الإضافة، لا أن يقدر عند الإضافة معنى لا نعرفه به لولا ذلك، على ما عرف من الاشتراك في اللفظ^(٣) والاختلاف في المعنى؛ فعلى ذلك أمر الإضافة إلى الله - تعالى - ويوضح ذلك ما لم يفهم أحد من قوله - عز وجل - : ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠] ما فهم من إضافة الحدود إلى غيره؛ وكذلك بيوت الله، وعباد الله، وروح

(١) في ب: بها.

(٢) انظر: بعض هذه الأقوال في اللباب لابن عادل (٥/٥٥٩).

(٣) الاشتراك في اللفظ، أو المشترك: هو اللفظ الواحد المتناول لعدة معان، من حيث هي كذلك، بطريق الحقيقة.

راجع: البحر المحيط للزركشي (٢/١٢٢)، ونهاية السؤل للإسنوي (٢/١١٤)، تيسير التحرير لأمر بادشاه (١/١٨١)، التقرير والتحبير لابن أمير الحاج (١/٢١٣).

الله وكلمته، ونحو ذلك، فمثله الذي نحن فيه.

وجائز - في الجملة - أن يوصف الله بأنه لم يزل عالمًا بكون كل ما يكون كيف يكون؟ وفي وقت كونه كائنًا؛ وبعد كونه قد مضى كونه؛ على تحقيق التغير في أحوال الذي يكون لا في الله - سبحانه وتعالى - إذ تغير الأحوال واستحالتها من آيات الحدث وأمارات الصنعة.

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله - عز وجل - : ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ : قيل فيه بوجهين :

أحدهما : «ولم يعلم»، وهو يخرج على وجهين :

أحدهما : على إثبات أنه علم أنهم لم يجاهدوا؛ كقول الناس : ما شاء الله كان، [وما لم يشأ لم يكن]^(١)، أي : شاء ألا يكون، لا يكون.

والثاني : أنه عالم بكل شيء، فلو كان منكم جهاد لكان يعلمه، وإنما لم يعلمه؛ لأنه لم يكن؛ وعلى ذلك قوله - عز وجل - : ﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾ [المدرثر: ٤٨] أي : ليس لهم.

والثاني : قوله - عز وجل - : ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾ بمعنى : إلا؛ كقوله : ﴿لَمَّا عَلَيَهَا حَانِظٌ﴾ [الطارق: ٤] - بالتشديد^(٢) - بمعنى : إلا عليها حافظ؛ فيكون معنى الآية : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾؟! لا تدخلوها إلا أن يعلم الله مجاهدتكم، أي : حتى تجاهدوا فيعلم الله ذلك منكم موجودًا، والله أعلم.

وكذلك قوله - عز وجل - : ﴿وَيَعْلَمُ الْقَادِرِينَ﴾ أي : ليعلم ما قد علم أنه يصير صابراً؛ وكذلك قوله : ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] أي : ليعلمن الذين قد علم أنهم يصدقون - صادقين، وليعلمن الذين قد علم أنهم يكذبون - كاذبين، وكذلك قوله - عز وجل - : ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ﴾ [محمد: ٣١] أي : حتى يعلم ما قد علم أنهم يجاهدون - مجاهدين، وأصله : قوله - عز وجل - : ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر: ٢٢] ليعلم شاهدًا ما قد علم غائبًا، والله أعلم.

وقوله - عز وجل - : ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ أي : يستشهدون في سبيل الله بأيدي عدوهم.

(١) يدل ما بين المعقوفين في ب: وما لا يشاء لا يكون.

(٢) قرأ بالتخفيف (لَمَّا) أبو عمرو ونافع والكسائي وابن كثير، وقرأ باقي السبعة (لَمَّا) بالتشديد ينظر : الإنحاف (٢/٦٠٢)، الحجة لابن خالويه (ص: ٣٦٨)، السبعة ص(٦٧٨)، النشر (٢/٢٩١).

ويحتمل: ويتخذ منكم شهداء على الناس؛ كقوله - عز وجل -: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وفيه دلالة أنهم لا يستوجبون بنفس الإيمان الشهادة على الناس، حتى تظهر الصيانة والعدالة في أنفسهم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: أي: يمحس ذنوبهم وسيئاتهم.

وقوله: - عز وجل - ﴿وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ﴾: أي: يهلكهم ويستأصلهم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: ما ذكرنا من تمحيص الذنوب على ما روي عن رسول الله ﷺ: «السَّيْفُ مَحَاٌ لِلذُّنُوبِ»^(١).

﴿وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ﴾: أي: يهلكهم، ولا يكون السيف تمحيصاً لهم من الكفر، بل يهلكهم في النار.

وقوله - عز وجل -: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾:

قيل: بل حسبتم أن تدخلوا الجنة^(٢).

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾.

قيل فيه بوجهين:

قيل: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾: أي: ولم يعلم الله الذين جاهدوا منكم؛ أي: لم يجاهدوا^(٣).

وقيل: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾، و«لما» بمعنى: «إلا يعلم»، بمعنى: لا

تدخلون^(٤) الجنة إلا أن يعلم الله الذين جاهدوا منكم؛ وهو كقوله - عز وجل -: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]: من قرأ بالتشديد؛ فكان معناه: «إلا عليها حافظ»، ومن قرأ بالتخفيف؛ فمعناه: «لعلها حافظ، و«ما» صلة.

وفي قوله - عز وجل -: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾، أي: ظننتم ذلك، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ

اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾، وقال في [موضع آخر]^(٥): ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ الآية

(١) أخرجه ابن المبارك في «الجهاد» (٧) ومن طريقه الطيالسي (١٢٦٧)، وابن حبان (٤٦٦٣)، والبيهقي (١٦٤/٩)، وأخرجه أحمد (١٨٥/٤-١٨٦)، والدارمي (٢٠٦/٢)، والطبراني في الكبير (٣١١، ٣١٠/١٧) من حديث عتبة بن عبد السلمي مرفوعاً مطولاً.

وفيه: «إن السيف محاء للخطايا».

(٢) ذكره أبو حيان في تفسيره (٧١/٣)، والقرطبي في تفسيره (١٤٢/٤)، وابن عادل في اللباب (٥/٥٦٢).

(٣) ذكره الزمخشري في تفسيره (٤٢٠/١)، وأبو حيان (٧٢/٣)، ونسبه للزمخشري، وذكره القرطبي في تفسيره (١٤٢/٢)، وابن عادل في اللباب (٥/٥٦٣).

(٤) في ب: تدخلوا.

(٥) بدل ما بين المعقوفين في ب: مواضع أخر.

[آل عمران: ١٦٥]، بمعنى: ولم تجاهدوا، ولم يصيبكم مثل الذي ذكر؛ ففي ذلك وعد أن يصيب أولئك الذين خاطبهم به ما أصاب من تقدمهم، وأن الله قد يعلم أنهم يجاهدون قبل الموت؛ وعلى هذا قال قوم في تأويل قوله - عز وجل -: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] -: أن يدخلوا الجنة إذا أصابهم مثل الذي أصاب من تقدمهم، والله أعلم. فيكون تأويل ﴿وَلَمَّا﴾: ولم، والألف صلة.

وقيل: يحتمل بالتشديد منه: إلا؛ كما قيل في تأويل قوله - عز وجل -: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ بالتشديد: «إلا عليها حافظ»؛ فيكون بمعنى الإضمار: لا تدخلوا إلا أن يعلم الله الذين جاهدوا منكم، وقد بينا ما في العلم في الحرف الأول على أنه له وجهان - أيضاً -:

أحدهما: أن الله لم يعلم بذلك، وهو العالم بكل شيء فلو كان: لكان يعلمه.
والثاني: أن يعلموا أن يكونوا لم يجاهدوا بعد، وسيجاهدون على ما بينا، والله أعلم.
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصَرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كُنَّا مُؤَجِّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾:

قيل فيه بوجهين:

قيل: قوله - عز وجل -: تمنون ما فيه الموت، وهو القتال^(١).

وقيل: تمنون الموت نفس الموت^(٢).

ثم يحتمل وجوها:

يحتمل: يتمنون إشفاقاً على دينهم الإسلام؛ لئلا يخرجوا من الدنيا على غير دينهم الذي هم عليه، ويحتمل أن يكونوا تمنوا الموت، لينجوا أو يتخلصوا من تعذيب الكفار إياهم وتغييرهم؛ على ما قيل: إن أهل مكة كانوا يعذبونهم، طلبوا النجاة منهم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بمعناه (٥٧٧/٢) (١٥٣٨) عن عبد الرحمن بن عوف، وبرقم (١٥٤٨) عن الحسن البصري.

(٢) ذكره الزمخشري في تفسيره (٤٢١/١)، والقرطبي في تفسيره (١٤٢/٤)، وابن عادل في الباب (٥٦٥/٥).

والخلاص، والله أعلم.

وقيل: يتمنون الموت، أي: يتمنون الشهادة^(١)؛ لما سمعوا لها من عظيم الثواب وجزيل الأجر، تمنوا أن يكونوا شهداء لله - عز وجل - أحياء عند ربهم، والله أعلم.
وقيل: في قوله - عز وجل - : ﴿تَمَنُّونَ الْمَوْتَ﴾: وذلك حين أخبر الله - عز وجل - عن قتلى بدر، وما هم فيه من الخير؛ فتمنوا يومًا مثل يوم بدر؛ فأراهم الله يوم أحد [فانهزموا]^(٢)، فعوتبوا على ذلك بقوله: ﴿تَمَنُّونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾، يعني: يوم أحد^(٣).

وقوله: - عز وجل - : ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾.

يحتمل [أيضًا]^(٤) وجوها:

يحتمل: فقد رأيتم أسباب الموت وأهواله.

ويحتمل: فقد رأيتم أصحابكم الذين قتلوا بين أيديكم، على تأويل من صرف قوله - عز وجل - : ﴿تَمَنُّونَ الْمَوْتَ﴾ إلى القتال، والله أعلم.
وقوله - عز وجل - : ﴿وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ﴾.

يحتمل: ﴿وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ﴾ إلى الموت، يعني: إلى موت أصحابكم أو إلى القتال.
ويحتمل: ﴿وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ﴾، أي: تعلمون أنكم كنتم تمنون الموت، والله أعلم.
وقوله - عز وجل - : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾:

يحتمل هذا وجهين:

يحتمل - والله أعلم -: أن يقول لهم: إنكم لما آمنتم بمحمد ﷺ قبل أن يبعث لم تؤمنوا به؛ لأنه محمد [رسول الله ﷺ]^(٥)، ولكن آمنتم بالذي أرسله إليكم، والمؤسّل حي، وإن كان محمد ﷺ قتل أو مات على زعمكم؛ فكيف انقلبتم على أعقابكم!؟

(١) أخرجه ابن جرير (٢٥٠/٧) (٧٩٣٧)، وابن أبي حاتم (٧٨/٢) (١٥٤٧) عن محمد بن إسحاق، وذكره الزمخشري في تفسيره (٤٢١/١)، والقرطبي في تفسيره (١٤٢/٤).

(٢) سقط من ب.

(٣) أخرجه الطبري عن مجاهد (٢٤٨/٧) (٧٩٣٠)، (٢٤٩/٧) (٧٩٣١)، وعن قتادة (٢٤٩/٧) (٧٩٣٢) (٧٩٣٣)، وعن الربيع بن أنس (٢٤٩/٧) (٧٩٣٤)، وعن السدي (٢٥٠/٧) (٧٩٣٦)، وعن ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم (٥٧٧/٢) (١٥٣٩) ونسبه إلى هؤلاء جميعًا وزاد نسبته إلى محمد بن كعب، والحسن البصري، ومقاتل بن حيان.

(٤) سقط من ب.

(٥) ما بين المعقوفين سقط من ب.

قال الشيخ - رحمه الله - : في الآية خبر بانقلاب من علم الله أنه يرتد بموت رسول الله ﷺ كقوله - عز وجل - : ﴿وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

والشاكرون: الذين جاهدوهم، قد أخبر الله - تعالى - أنه يحبهم ويحبونه.
وقال الحسن: إن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - كان - والله - إمام الشاكرين^(١).
ويحتمل وجهًا آخر، وهو أن من كان قبلكم من قوم موسى وعيسى - عليهما السلام - كانوا يكذبون رسلهم ما داموا أحياء؛ حتى قال لهم موسى - عليه السلام - ﴿يَقُولُ لِمَ تُوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥]، وكذلك قال عيسى - عليه السلام - : ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا﴾ الآية [الصف: ٦]، فإذا ماتوا ادعوا أنهم على دينهم، وأنهم صدقوهم فيما دعوهم إليه، وإن لم يكونوا على ذلك، فلم ينقلبوا على أعقابهم؛ فكيف تنقلبون أنتم على أعقابكم إن مات محمد ﷺ أو قتل؟! .
والانقلاب على الأعقاب: على الكناية^(٢) والتمثيل، ليس على التصريح، وهو الرجوع إلى ما كانوا عليه من قبل من الدين.

وقوله - عز وجل - : ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾:
أي: من ارتد بعد الإسلام فلن يضر الله شيئًا؛ لأنه لم يستعملهم لنفسه، ولكن إنما استعملهم لأنفسهم؛ ليستوجبوا بذلك الثواب الجزيل في الآخرة، فإنما يضررون بذلك أنفسهم، لا الله - تعالى .

والثاني: أنه إنما يأمرهم ويكلفهم؛ لحاجة أنفسهم، لا أنه يأمر لحاجة نفسه، ومن أمر آخر في الشاهد: إنما يأمر لحاجة نفس الأمر، فإذا لم يأتمر لحق ضرر نفس ذلك الأمر، فإذا كان الله - سبحانه - يتعالى عن أن يأمر لحاجته؛ وإنما يأمر لحاجة المأمور، فإذا ترك أمره - ضرر نفسه، وبالله التوفيق.

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾:

قيل: الموحدين لله.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٥٢/٧) عن علي بن أبي طالب، وعن العلاء بن بدر (٢٥٢/٧) (٧٩٣٩)، وذكره السيوطي في الدر (١٤٥/٢)، وعزاه لابن جرير عن علي، وذكره أيضًا أبو حيان في تفسيره (٧٥/٣)، وابن عادل في اللباب (٥٧٤/٥).

(٢) الكناية: هو أن يكني عن الشيء ويعرض به، ولا يصرح على حسب ما علموا باللحن والتورية عن الشيء. وقيل: هي إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو ردفه في الوجود فيؤمى إليه ويجعله دليلًا عليه. راجع: المعجم المفصل في علوم البلاغة د. إنعام فوال عكاوى ص (٦٢٨).

وقيل: الذين آمنوا وجاهدوا يجزيهم في الآخرة^(١)، وكل متمسك بأمر الله ومؤتمر بأمره فهو شاكِر.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾:

يحتمل قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أي: لا يموت إلا بقبض المسلط على قبض الأرواح - روحه؛ كقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]: إن مات أو قتل.

ويحتمل: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: إلا بعلم الله.

﴿كِنْنًا مُؤَجَّلًا﴾:

قيل: وقتًا موقتًا، لا يتقدم ولا يتأخر^(٢)، مات أو قتل، ما لم تستوف رزقها وأجلها.

وقيل: ﴿كِنْنًا مُؤَجَّلًا﴾، أي: مبينًا في اللوح المحفوظ، مكتوبًا فيه^(٣).

وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾:

أي: من أراد بمحاسن أعماله الدنيا نؤته منها.

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾:

أي: من يرد بأعماله الصالحات ومحاسنه الآخرة نؤته منها.

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾:

وهو كقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا

نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ على قدر ما قدر ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]؛ فكذلك هذا -

أيضًا - والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا

وَمَا اسْتَعَاذُوا اللَّهَ يُحِبُّ الضَّالِّينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي

أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَعْدَامُنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

وقوله: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾:

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٤٦/٤)، وأبو حيان في البحر (٧٥/٣).

(٢) ذكره الزمخشري في تفسيره (٤٢٤/١)، وأبو حيان في البحر (٧٦/٣)، وابن عادل في اللباب (٥/

٥٧٧)، والقرطبي في تفسيره (١٤٦/٤).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٥٠٠/١)، وأبو حيان في البحر (٧٦/٣)، وابن عادل في اللباب (٥/

٥٧٧).

قيل: فيه لغات:

أحدها: «قاتل معه» بالألف، وتأويله: وكم من نبي قاتل معه ربيون كثير، فقتل؛ على الإضمار.

والثاني: «وكم من نبي قُتل معه ربيون كثير»، برفع القاف.

والثالث: «وكم من نبي قتل معه ربيون كثير» بالنصب^(١).

ومعنى الآية - والله أعلم - : كم من نبي قتل معه [ربيون كثير]، فلم ينقلب أتباعه على أعقابهم؛ بل كانوا بعد وفاتهم أشدّ اتباعاً لهم من حال حياتهم؛ حتى قالوا: لن يبعث الله من بعده رسولا؛ فما بالكم يخطر ببالكم الانقلاب على أعقابكم، إذا أخبرتم أنه قتل نبيكم أو مات؟!.

وفي إنشاء هذه الأمة قصص الأمم الخالية وأخبارهم - وجهان.

أحدهما: دلالة إثبات رسالة [رسولنا]^(٢) محمد ﷺ؛ لأنهم علموا أنه لم يختلف إلى أحد منهم ممن يعلم هذا، ثم أخبر بذلك، فكان ما أخبر؛ فدل أنه علم ذلك بالله.

والثاني: العمل بشرائعهم وسننهم، إلا ما ظهر نسخه بشريعتنا؛ ألا ترى أنه ذكر محاسنهم وخيراتهم؛ وإنما ذكر لتبعضهم في ذلك ونقته فيهم، وذكر مساوئهم وما لحقهم بها؛ لنتهي عنها ونكون على حذر مما أصابهم بذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿رَبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾: اختلف فيه - عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «عالم كثير»، وعنه - أيضاً -: «الجموع الكثير»^(٣).

وعن الحسن - رحمه الله - مثله^(٤).

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (٢٦٤/٧)، والزمخشري في الكشاف (٤٢٤/١)، والرازي في تفسيره (٢٢/٩)، وابن عادل في اللباب (٥٨٣/٥ - ٥٨٦)، وقال العلامة القاسمي: قرئ في السبع: «قتل» بالبناء للمجهول، ونائب الفاعل «ربيون» قطعاً، وأما احتمال أن يكون ضميراً لـ «نبي» ومعه «ربيون» حال. أو يكون على معنى التقديم والتأخير، أي: وكائن من نبي معه ربيون قتل - فتكلف ينبو عن سليم الأفهام، وتعسف يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله، وإن نقله القفال، ونصره السهيلي وبالغ فيه؛ فما كل سوداء تمر.

ينظر: محاسن التأويل (٢٤٦/٤).

(٢) سقط من ب.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٦٦/٧) (٧٩٦١)، (٧٩٦٢) (٧٩٦٤)، (٢٦٨/٧) (٧٩٧٩)، وابن أبي حاتم (٥٨٦/٢) (١٥٦٨) (١٥٧١)، وذكره السيوطي في الدر (١٤٦/٢، ١٤٧)، وزاد نسبه لابن المنذر وابن الأنباري، والطستي.

(٤) أخرجه ابن جرير (٢٦٧/٧) (٧٩٦٦)، (٧٩٦٨)، وابن أبي حاتم (٥٨٨/٢) (١٥٨٠)، وذكره السيوطي في الدر (١٤٧/٢)، وزاد نسبه لابن المنذر، وعبد بن حميد.

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: الألوفاً^(١).

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال في قوله: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّجْيٍ قَتَلَتْ مَعَهُ رَيْثُونَ كَثِيرٌ﴾، يقول: قاتل؛ ألا ترى أنه يقول: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾؟!.

ثم اختلف في قوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾، ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾.

قيل: فما وهنوا في الدين، وما ضعفوا في أنفسهم في قتال عدوهم بذهاب النبي ﷺ من بينهم؛ فما بالكم تضعفون أنتم^(٢)؟! ويحتمل قوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾، يعني: فما عجزوا لما نزل بهم من قتل أنبيائهم، وما ضعفوا في شيء أصابهم في سبيل الله من البلاء. وقيل: قوله - عز وجل - : ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ يرجع إلى : ﴿قَتَلَتْ﴾ إلى المقاتلين وفي "قتل" إلى الباقيين^(٣).

وقوله: ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ :

قيل: لم يذلوا في عدو لهم، ولم يخضعوا لقتل نبيهم؛ بل قاتلوا بعده على ما قاتلوا معه^(٤)؛ فهلا قاتلتهم أنتم على ما قاتل عليه نبيكم؛ كما قاتلت القرون من قبلكم إذا أصيب أنبياؤهم، والله أعلم.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ﴾ :

على قتال عدوهم، وعلى كل مصيبة تصيبهم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِنْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ :

قيل: وما كان قول الأمم السالفة عند قتل نبيهم - إلا أن قالوا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ الآية^(٥)، يقول: يعلم الله هذه الأمة ويعاتبهم: هلا قتلتم أنتم حين نعي إليكم نبيكم كما قالوا القوم في الأمم السالفة!.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٦٦/٧) (٧٩٥٧)، (٧٩٥٨)، (٧٩٥٩)، (٧٩٦٠)، (٧٩٦٣)، وابن أبي حاتم (٥٨٦/٢) (١٥٧٠)، وذكره السيوطي في الدر (١٤٦/٢)، وزاد نسبه لابن المنذر والفرغاني وعبد ابن حميد، والطبراني.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٧٠/٧) (٧٩٨٣)، وابن أبي حاتم (٥٩٠/٢) (١٥٨٥)، (١٥٨٦)، (١٥٨٩) عن السدي، وعن الربيع بن أنس أخرجه ابن جرير (٢٧٢/٧) (٧٨٩٢)، وذكره السيوطي في الدر (١٤٧/٢).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٩١/٢) (١٥٩٣) عن قتادة، وابن جرير الطبري برقم (٢٧٠/٧) (٧٩٨١)، وذكره السيوطي في الدر (١٤٧/٢).

(٤) أخرجه ابن جرير (٢٧٠/٧) (٧٩٨٣) عن السدي، وذكره ابن عادل في اللباب (٥٩٠/٥)، والسيوطي في الدر (١٤٧/٢).

(٥) ذكره ابن عادل في اللباب (٥٩١/٥).

وقوله: ﴿رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، قيل: الذنوب: هي المعاصي^(١).

وقوله: ﴿وَأَمْرًا فَيَأْمُرَنَا﴾: والإسراف: هي المجاوزة في الحد، والتعدي عن أمره. وقيل: هما واحد.

وقوله: ﴿وَكَيْتَ أَقْدَامَنَا﴾.

يحتمل وجهين:

يحتمل: ثبتنا على الإيمان، ودين الإسلام، والقدم كناية؛ كقوله: ﴿فَزَلَّ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤]، أي: تكفر بعد الإيمان، [و] كقوله: ﴿يَزُدُّكُمْ عَلَىٰ غَفْلَتِكُمْ﴾؛ وذكر القدم لما بالقدم يثبت.

ويحتمل قوله: ﴿وَكَيْتَ أَقْدَامَنَا﴾ في قتال العدو، وفزعوا إلى الله - عز وجل - بعد ذهاب نيتهم من بينهم؛ ليحفظهم على ما كان يحفظهم في حياة نبيهم. وقوله: ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾:

يحتمل: النصر عليهم بالحجج والبراهين. ويحتمل: النصر بالغلبة والهزيمة عليهم^(٢).

وقوله: ﴿فَقَالَتْهُمْ اللَّهُ ثَوَابِ الدُّنْيَا﴾:

يحتمل ثواب الدنيا: الذكر والثناء الحسن، وهم كذلك اليوم نتبعهم ونقتدي آثارهم وهم موتى.

ويحتمل -: على ما قيل -: النصر والغنيمة.

وقوله: ﴿وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾:

الدائم، وذكر في ثواب الآخرة «الحُسن»، ولم يذكر في ثواب الدنيا الحسن؛ لأن

(١) ذكره ابن عادل في الباب (٥/٥٩١)، وبلغ «خطايانا» أخرجه ابن جرير (٧/٢٧٢) (٧٩٩٢)، (٧/٢٧٢) (٧٩٩١)، وابن أبي حاتم (٢/٥٩٣)، (١٥٩٩) عن ابن عباس، وعن مجاهد أخرجه ابن جرير (٧/٢٧٢) (٧٩٨٧)، (٧٩٨٨)، وابن أبي حاتم (٢/٥٩٣) (١٦٠٠)، وعن الضحاك أخرجه ابن جرير (٧/٢٧٢) (٧٩٨٩)، (٧٩٩٠)، وابن أبي حاتم (٢/٥٩٥) (١٦٠١).

(٢) قال ابن القيم: لما علم القوم أن العدو إنما يداو عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصير في حق، أو تجاوز لحد. وأن النصر منوط بالطاعة - قالوا: ﴿رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَاتَّخِذْنَا مِنَّا مِثْقَلًا﴾ [آل عمران: ١٤٧]، ثم علموا أن ربهم - تبارك وتعالى - إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم، لم يقدرُوا على تثبيت أقدام أنفسهم ونصرها على أعدائهم؛ فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم، لم يثبتوا ولم ينتصروا، فوفوا المقامين حقهما: مقام المقتضى: وهو التوحيد والاتجاء إليه سبحانه، ومقام إزالة المانع من النصر: وهو الذنوب والإسراف.

ينظر: محاسن التأويل للقاسمي (٤/٢٤٧).

ثواب الآخرة دائم لا يزول أبداً، وثواب الدنيا قد يزول، أو أن يشوب في ثواب الدنيا آفات وأحزان؛ فينقص ذلك، وليس ثواب الآخرة كذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ الإحسان يحتمل وجوهاً ثلاثة:

يحتمل: المحسن: العارف، كما يقال: فلان يحسن ولا يحسن.

ويحتمل: المعروف من الفعل - مما ليس عليه - يصنع إلى آخر؛ تفضلاً منه وإحساناً.

ويحتمل: اختيار الحسن من الفعل على القبيح من الفعل والسوء؛ وكان كقوله: ﴿إِنَّ رَحِمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: هذا يختار المحاسن من الأفعال على المساوئ، والله أعلم.

ويحتمل: المحسنين إلى أنفسهم باستعمالها فيما به نجاتها.

قوله تعالى: ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِدُّكُمْ عَلَىٰ عَاقِبَتِكُمْ فَتَقْلِبُوا خَسِرِينَ﴾ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِمَنَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَّكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ﴿

وقوله: ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِدُّكُمْ﴾:

يحتمل الطاعة لهم: طاعة الدين، أي: يطيعونهم في كفرهم^(١).

ويحتمل: الطاعة لهم في ترك الجهاد مع عدوهم؛ كقوله: ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَّوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً﴾ الآية، وقوله: ﴿يَزِدُّكُمْ عَلَىٰ عَاقِبَتِكُمْ﴾.

قد ذكرنا، أي: يردوكم على دينكم الأول، وهو على التمثيل والكناية، والله أعلم.

وقوله: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾:

(١) اختلف في المقصود بالذين كفروا: فقال القرطبي: يعني مشركي العرب: أبا سفيان وأصحابه. وقيل: اليهود والنصارى. وقال علي - رضي الله عنه - يعني المنافقين في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دين آبائكم. ينظر: تفسير القرطبي (١٤٩/٤).

أي: أولى بكم، أو ناصركم، أو حافظكم، أو وليكم.
﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾:

أي: خير من ينصر من نصره؛ فلا يغلب، كقوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وقوله: ﴿سُئِلْتُمْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الآية:

هذه بشارة من الله - عز وجل - لرسوله ﷺ بالنصر له؛ حيث أخبر أنه يلقي في قلوبهم الرعب، وكذلك روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ»^(١)، وكان ما ذكر؛ لأن رسول الله ﷺ كان يأتيهم بعد ذلك ويقصدهم، لا أنهم أتوه، وكانوا قبل ذلك يأتون رسول الله ﷺ ويقصدونه.

[وقوله: ﴿يَمَّا أَشْرَكُوا يَاللَّهُ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾:

أي: بالشرك ما قذف في قلوبهم من الرعب، من غير أن كان لهم بما أشركوا حجة أو كتاب أو برهان أو عذر؛ قال ابن عباس - رضي الله عنه - : «السلطان في القرآن حجة»^(٢).

وقوله: ﴿وَمَا أُولَهُمُ النَّارُ﴾:

أي: مقامهم في النار.

﴿وَبِئْسَ مَثْوًى الظَّالِمِينَ﴾:

أي: النار بئس مقام الظالمين.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾

أي: أنجز الله وعده؛ حيث أخبر أنه يلقي في قلوبهم الرعب، وقد فعل.

﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾:

قال أهل التفسير: إذ تضلونهم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾:

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦١/١١) رقم (١١٠٤٧) من حديث ابن عباس مرفوعاً: «أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي...» الحديث، وفيه: «نصرت بالرعب حتى إن العدو ليخافوني من مسيرة شهر أو شهرين».

والحديث متفق عليه من حديث جابر مرفوعاً: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر...». أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٣-٥٢١).

(٢) أخرجه بنحوه ابن جرير (٢٧٩/٧) (٨٠٠٢)، وذكره ابن عادل في اللباب (٥٩٦/٥) وينظر: معاني القرآن وإعراجه للزجاج (٤٩٢/١)، والوسيط للواحدي (٥٠٣/١).

هو على التقديم والتأخير: «حتى إذا تنازعتم [و] فسلتم»؛ إذ التنازع هو سبب الفشل [والجبن]^(١)؛ كقوله: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا﴾ [الأنفال: ٤٦].

[وقوله - عز وجل -]: ﴿وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ﴾

قيل: في القصة: إن نفراً من رماة أمرهم رسول الله ﷺ أن يكونوا في مكان، وألا يدعوا موقفهم، فتركوه ووقعوا في غنايمه؛ فعوقبوا على ذلك^(٢).

وقوله - عز وجل - : ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ﴾،^(٣) يحتمل: ما أراكم ما تحبون من الهزيمة والغنيمة.

ويحتمل: ما أراكم من النصر لكم على عدوكم، وإنجاز الوعد لكم.

وقوله: - عز وجل - ﴿مِّنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ الْآخِرَةَ﴾:

روي عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: «ما كنا نعرف [أن]^(٤) أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا، حتى نزل قوله: ﴿مِّنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ الدُّنْيَا﴾^(٥).

وقوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾.

روي عن ابن عباس - رضي الله عنه - في قوله - تعالى - : ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾،

يعني: هُزِمَ المسلمون، يقول: صرفوا عن المشركين منهزمين، بعد إذ كانوا هزموهم، لكن لما عصوا وتركوا المركز صرفهم الله عن عدوه^(٦):

﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾

أي: ذلك الصرف كان لكم من الله ابتلاء ومحنة.

وقيل: كان ذلك العصيان - الذي منكم كان - من الله ابتلاء؛ ليعلم من قد علم أنه

يعصي عاصياً، والله أعلم.

ودلّ قوله - عز وجل - : ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ - وإن كان الانصراف فعلهم - أن الله

(١) سقط في ب.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٩) مطولاً من حديث البراء بن عازب.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٤) سقط من ب.

(٥) أخرجه الطبري (٢٩٥/٧) (٨٠٣٦)، وابن أبي حاتم (٦٠٦/٢) (١٦٤٩)، وابن أبي عاصم في الزهد (٩٨، ٩٩) ص (٥٦٥) والواحد في الوسيط (٥٠٥/١)، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/٣٢٨)، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وأحمد ورجال الطبراني ثقات، وذكره ابن كثير في تفسيره (٤١٣/١).

(٦) روي عن المعنى عن الحسن، أخرجه ابن جرير الطبري (٢٩٧/٧) (٨٠٤١)، وذكره السيوطي في

تفسيره (١٥٣/٢) وهو: لا بأس بجرير.

لفعلهم - على ما عليه فعلهم - خالقٌ، وأن خلق الشيء ليس هو ذلك الشيء؛ إذ ذلك الشيء إذا كان انصرافاً عن العدو معصية، وقد تبرأ الله - تعالى - عن أن تضاف إليه المعاصي، وقد أضاف انصرافهم إلى فعله وهو الصرف - ثبت أنه غير فعلهم، والله أعلم. ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾:

يحتمل وجهين:

يحتمل: ﴿عَفَا عَنْكُمْ﴾؛ حيث لم يستأصلكم بالقتل.

ويحتمل: ﴿عَفَا عَنْكُمْ﴾؛ حيث قبل رجوعكم وتوبتكم عن العصيان.

وهذه الآية قوله - عز وجل - : ﴿ثُمَّ مَكَرَ كُمْ﴾، وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] - ترد على المعتزلة؛ [وكذلك] ^(١) قوله - تعالى - : ﴿لَبَّرَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ [آل عمران: ١٥٤] [إلى آخر] ^(٢) الآية؛ لأنهم يقولون: هم الذين صرفوا أنفسهم لا الله، وهم الذين كتبوا عليهم القتل لا الله، وهم الذين يداولون لا الله، وقد أضاف - عز وجل - ذلك إلى نفسه؛ فعلى ذلك لا يضيف إليه إلا عن فعل وصنع له فيه؛ ولأنهم يقولون: لا يفعل إلا الأصلح لهم في الدين، فأَيُّ صلاح كان لهم في صرفه إياهم عن عدوهم؟! وأَيُّ صلاح لهم فيما كتب عليهم القتل؟! فدل أن الله قد يفعل بعباده ما ليس ذلك بأصلح لهم في الدين، والله أعلم. وقوله - عز وجل - : ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾:

بالعفو عنهم، وقبول التوبة؛ حيث عصوا رسول الله ﷺ وتركوا أمره، وعلى قول المعتزلة عليه أن يفعل ذلك؛ فعلى قولهم ليس هو بذي فضل على أحد، نعوذ بالله من السرف في القول.

قال الشيخ - رحمه الله - : الفائدة في تخصيص المؤمنين بالامتنان عليهم دون جملة من بعث النبي ﷺ فيهم ومنهم، مع ما ذكر منته بالبعث من أنفسهم، وقد بينا وجه المنة في البعث من جوهر البشر - وجهان:

أحدهما: أن من لم يؤمن به لم يكن عرف نعمة من الله - تعالى - وإن كان - في الحقيقة - نعمة منه لهم، ورحمة لهم وللعالمين، فخص من عرفه ليشكروا له بما ذكرهم؛ وهو كقوله - عز وجل - : ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ﴾ [يس: ١١]، أي: هم يقبلون ويعرفون حق الإنذار.

(١) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٢) سقط من ب.

والثاني: أنه صار لهم حجة على جميع الأعداء: أنهم لا يطيعون لمعنى كان منهم، إلا وللمؤمنين عليهم وجه دفع ذلك بما كان عليه ما عرفوه به قبل الرسالة؛ لما فيه لزوم القول بصدقه؛ فيكون ذلك منة لهم وسرورًا ونعمة عظيمة؛ فاستأداهم الله لشكرها^(١)، ولا قوة إلا بالله.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجَكُمْ فَأَتَيْتُمْ عَمَّا يَغْمُرُ لِكَيْلًا تَحَرَّوْا عَلَىٰ مَا قَاتَكُم وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نَّاسًا يَنْشِي طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُوا هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

وقوله - عز وجل - : ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُوا﴾ :

فيه لغتان: «تُصْعِدُونَ» بفتح التاء، وهو من الصعود أن صعدوا الجبل، «وَتُصْعِدُونَ» بالرفع^(٢)، وهو أن أصعدوا أصحابهم نحو الوادي؛ لأن المنهزم الأول إذا التفت فرأى منهزمًا آخر اشتد.

وقيل: الإصعاد هو الإبعاد في الأرض^(٣).

وقيل: تُصْعِدُونَ من صعود الجبل، وتُصْعِدُونَ في الوادي من الجبل^(٤).

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ :

أي: لا تلتفتون على أحد، ولا ترجعون. ﴿وَالرُّسُلُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجَكُمْ﴾.

(١) في ب: شكرها.

(٢) والجمهور على «تُصْعِدُونَ» بضم التاء وكسر العين من أصد في الأرض: إذا ذهب فيها، والهمزة فيه للدخول، نحو أصبح زيد، أي: دخل في الصباح، فالمعنى: إذا تدخلون في الصعود. وقرأ الحسن والسلمي وقتادة: «تُصْعِدُونَ» - بفتح التاء والعين - من صعد في الجبل، أي: رقى. وقرأ ابن محيصن ويروى عن ابن كثير: «يُصْعِدُونَ» - بياء الغيبة، على الالتفات.

ينظر: البحر المحيط (٨٩/٣)، الدر المصون (٢٣٣/٢)، المحرر الوجيز (١/٥٢٥)، مختصر السواذ لابن خالويه (ص: ٣٣).

(٣) ينظر المعنى في: مجاز القرآن لأبي عبيدة (١/١٠٥)، وغريب القرآن لابن قتيبة (١/١١٤)، ومعاني القرآن للفراء (١/٢٣٩)، ومعاني القرآن للأخفش (١/٤٢٤).

(٤) ينظر: المصادر السابقة.

أي: الرسول يدعوكم وينادي وراءكم: إِلَيَّ أنا الرسول.

وقيل: يناديكم من بعدكم: إِلَيَّ أنا رسول الله يا معشر المؤمنين^(١)، وكان يصل نداؤه في آخرهم بأولهم بعضهم بعض، فلم يرجعوا إليه.

وقوله - عز وجل -: ﴿فَأْتَبَكُّمُ عَمَّا يَغْمِرُ﴾:

اختلف فيه، قيل: غم الأول: الهزيمة والنكبة التي أصابتهم، والغم الآخر: الصوت الذي سمعوا: قُتِلَ محمد^(٢) - عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات - فذلك غم على غم.

ويحتمل: ﴿عَمَّا﴾: بعصيانهم رسول الله ﷺ اغتموا، والغم الآخر: أن كيف يعتذرون إلى رسول الله ﷺ بتركهم المركز، وعصيانهم إياه والخلاف له^(٣).

وقيل: قوله - عز وجل -: ﴿فَأْتَبَكُّمُ عَمَّا يَغْمِرُ﴾: أي: مرة بعد المرة الأولى.

وقيل: ﴿عَمَّا يَغْمِرُ﴾، أي: هزيمة بعد هزيمة: أصابتهم هزيمة بعد هزيمة من قتل إخوانهم، وإصابتهم الجراحات.

وقيل: ﴿فَأْتَبَكُّمُ عَمَّا﴾: بعصيانكم رسول الله ﷺ، ﴿يَغْمِرُ﴾: الذي أدخلوا على رسول الله ﷺ بترككم المركز والطاعة له، وفي قوله - عز وجل -: ﴿فَأْتَبَكُّمُ عَمَّا يَغْمِرُ﴾ وهو غم الهزيمة والنكبة، بالغم الذي أدخلوا على رسول الله ﷺ في عصيانهم إياه، وإهمالهم المَقْعَد الذي أمرهم بالمقام فيه.

وقيل: غمًا بالغم الذي له تركوا المركز^(٤)، وهو أن غمهم اغتنام أصحابهم.

وقيل: غم الاعتذار إلى رسول الله ﷺ بالغم الذي جنوه به؛ حيث مالوا إلى الدنيا، وعصوه فيما أمرهم.

وقيل: غمًا [على]^(٥) أثر غم، نحو: القتل، والهزيمة، والإرجاف بقتل رسول الله ﷺ، وحقيقته: أن يكون أحد الغمين جزاء، والآخر ابتداء، وفي ذلك تحقيق الزلة والجزاء؛ وذلك كقوله - عز وجل -: ﴿وَمَا أَصْبَكُمُ مِن مَّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

(١) أخرجه الطبري عن ابن عباس (٣٠٣/٧) (٨٠٥٤)، وعن قتادة (٨٠٥٥)، وعن السدي (٨٠٥٦)، وعن ابن زيد (٨٠٥٨).

(٢) أخرجه الطبري (٣١١/٧) (٨٠٦٧) (٨٠٦٩).

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعراجه للزجاج (٤٩٣/١).

(٤) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٣٩٠/١)، والوسيط للواحدي (٥٠٦/١).

(٥) سقط من ب.

وقوله - عز وجل - : ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ :

يعني: من الفتح والغنيمة، ولا ما أصابكم من القتل والهزيمة.

ويحتمل قوله: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من الدنيا، ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ :

فيها من أنواع الشدائد؛ بما أدخلتم على رسول الله ﷺ من الغم بعصيانكم إياه.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ :

على الوعيد.

[وقوله^(١)]: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نُعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ

أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ :

قيل فيه بوجهين؛ قيل: الطائفة التي آتاها النعاس هم المؤمنون، سمعوا بانصراف

العدو عنهم فصدقوا الخبر فناموا؛ لأن الخوف إذا غلب يمنع النوم، وأما الطائفة التي قد

أهمتهم أنفسهم هم المنافقون، لم يصدقوا الخبر فلم يذهب عنهم الخوف، فلم ينعسوا؛

وذلك كقوله - عز وجل - : ﴿يَحْزَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ [الأحزاب: ٢٠] الآية.

وقيل: كانت الطائفتان جميعاً من المؤمنين، لكن إحداها قد آتاها النعاس؛ لما أمنوا

من العدو، والأخرى لا؛ بعصيانهم رسول الله ﷺ وتوكلهم أمره منع ذلك النوم عنهم؛ إذ

كيف يلتقون رسول الله ﷺ، وكيف يعتذرون إليه؟ والله أعلم.

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: «الثَّغَاسُ فِي الصَّلَاةِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَفِي الْقِتَالِ

أَمْنَةٌ مِنَ اللَّهِ»^(٢).

وقوله - عز وجل - : ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ :

قيل: يظنون بالله ألا ينصر محمداً ﷺ وأصحابه، ذا في غير المؤمنين.

وقيل: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ نوئاً كاذبة، إنما هم أهل شرك وريبة في أمر الله^(٣)،

يقولون: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾.

وقوله - عز وجل - : ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ :

قيل: يقولون بعضهم لبعض: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾، يعني بالأمر: النصر

(١) سقط من ب.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤٩٩/٢) في كتاب الصلاة: باب الرجل يلتبس عليه القرآن في

الصلاة (٤٢١٩)، وابن أبي حاتم (٦١٦/٢) (١٦٨٤)، وذكره الهيثمي في المجمع (٣٢٨/٦) في

التفسير وقال: رواه الطبراني وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة وغيره وضعفه جماعة.

(٣) روي هذا عن قتادة الطبري في تفسيره (٣٢٠/٧) (٨٠٨٧)، وابن أبي حاتم (٦١٩/٢) (١٦٩١)،

وذكره السيوطي في الدر (١٥٥/٢) وعزاه لابن جرير الطبري عن قتادة والربيع.

والغنيمة.

وقيل: قالوا ذلك للمؤمنين.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾

يعني النصر والفتح كله بيد الله.

﴿يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾:

والذين يخفون قولهم: لو أقمنا في منازلنا ما قتلنا ههنا، وقيل: يقولون: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، [قالوا: ليس لنا]^(١) من الأمر من شيء؛ إنما الأمر إلى محمد، ولو كان الأمر لنا ما خرجنا إلى هؤلاء حتى قتلنا ههنا.

قال الله - تعالى - : ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾:

قيل: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ كما يقولون: ﴿لَبَرَزَ﴾، يعني: لخرج من البيوت ﴿الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾؛ ليقتلوا^(٢).

وقيل: من كتب عليه القتل يظهر الذي كتب عليه حيث كان^(٣).

وقيل: إذا كتب على أحد القتل لأثاه، ولو كان في البيت، وكقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، وقيل: متى كتب الله على قوم القتل فلم يموتوا أبداً؟! وفي هذا بيان أن الآجال المكتوبة هي التي تنقضي بها الأعمار: إن كان قتلاً فقتل، وإن كان موتاً فموت، لا على ما قالت المعتزلة: إن القتل تعجيل عن أجله المكتوب له وعليه^(٤)، والله أعلم.

وقوله - عز وجل - : ﴿وَلِيَسْتَلْزِمَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾:

والابتلاء هو الاستظهار؛ كقوله - عز وجل - : ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] تبدي وتظهر، وذلك يكون بوجهين: يظهر بالجزاء مرة، ومرة بالكتاب، يعلم الخلق من كانت سريرته حسنة بالجزاء، وكذلك إذا كانت سيئة، أو يعلم ذلك بالكتاب.

(١) بدل ما بين المعقوفين في ب: قالوا: لو كان لنا.

(٢) ينظر تفسير الطبري (٣٢٤/٧)، وابن أبي حاتم (١٦٩٨، ٦٢١/٢)، اللباب لابن عادل (٦١٨/٥).

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) قال أهل السنة والجماعة: المقتول ميت بأجله، والقتل سبب الموت كالمرض.

وقالت المعتزلة: إنه قطع أجله، وما قالوه فاسد؛ قال الله - تعالى - : ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَنْدِرُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ولأن القتل سبب الموت كسائر الأسباب، والميت بسائر الأسباب ميت بأجله؛ كذا هذا؛ وهذا لأن أجله منتهى عمره، وهذا منتهى عمره. ينظر: أصول الدين للبزدوي (ص ١٦٧).

وقوله - تعالى - : ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ ، أي : ليظهر الله للخلق ما في صدورهم مما (١) مضى ، وليجعله ظاهرًا لهم .

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾

من الذنوب .

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال : «الابتلاء والتمحيص هما واحد» (٢) .

وقوله - عز وجل - : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ :

يقول : هو عالم بما في صدورهم من سرائرهم ، ولكن يجعلها ظاهرًا عندكم .

ويحتمل الابتلاء - ههنا - الأمر بالجهاد ؛ ليعلموا المنافق منهم من المؤمن ، والله

أعلم .

وقوله - عز وجل - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ :

يعني : إن الذين انصرفوا عن عدوهم مدبرين منهم منهزمين يوم التقى الجمعان : جمع

المؤمنين ، وجمع المشركين .

وقوله : ﴿إِنَّمَا أَسْأَزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ :

أي : إنما انهزموا ولم يثبتوا خوفًا أن يقتلوا بالثبات ؛ فيلقوا الله وعليهم عصيان رسول

الله ﷺ ، فكرهوا أن يقتلوا وعليهم معصية رسول الله ﷺ ؛ خوفًا من الله - تعالى -

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾

بما خافوا الله بعصيانهم رسول الله ﷺ .

ويحتمل قوله - عز وجل - : ﴿إِنَّمَا أَسْأَزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ - أن اللعين

لما رآهم أجابوه إلى ما دعاهم من اشتغالهم بالغنيمة ، وتركهم المركز ، وعصيانهم رسول

الله ﷺ دعاهم إلى الهزيمة ، فانهزموا وتولّوا - عدوهم .

ويحتمل قوله : ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ ، أي : بكسبهم ، قال الله - عز وجل - : ﴿وَمَا

أَصْبَحَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى : ٣٠] ؛ فذلك هذا ، والله أعلم .

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ .

قَبْلَ تَوْبَتِكُمْ ، وعفا عنكم ، ﴿حَلِيمٌ﴾ لم يخزكم وقت عصيانكم ، ولا عاقبكم ، أو حلیم

بتأخير العذاب عنكم .

(١) في ب : بما .

(٢) ينظر : تفسير ابن عباس (٥٨) .

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

وقوله - عز وجل - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى﴾ الآية .

اختلف في قوله - تعالى - : ﴿كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، قال بعضهم : نهى المؤمنين أن يكونوا كالذين كفروا في السر والعلانية^(١) .

﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ ، يعني : المنافقين ، ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ .

وقيل : لا تكونوا كالمنافقين قالوا لإخوانهم^(٢) - يعني : لبعضهم - : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا .

وقيل : قالوا لإخوانهم ، يعني : المؤمنين الذين تولوا^(٣) ، وهم كانوا إخوانهم في النسب ، وإن لم يكونوا إخوانهم في الدين والمذهب .

لا حاجة لنا إلى معرفة قائله من كان ، ولكن المعنى ألا يقولوا مثل قولهم لمن قتل . وقوله : ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ، يعني : إذا ضربوا في الأرض تجاراً أو «غزى» ، أي : غزاة .

وقيل : قوله : ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أو كانوا غزاة على إسقاط الألف^(٤) .

وقوله - عز وجل - : ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ :

أي : ليجعل الله ذلك القول الذي قالوا حسرة يتردد في أجوافهم .

ويحتمل قوله : ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً﴾ يوم القيامة ؛ كقوله : ﴿أَعْمَلُهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧] .

وقوله - عز وجل - : ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾

أي : والله يحيي من ضرب في الأرض وغزا ، ويميت من أقام ولم يخرج غازياً ، أي :

(١) ينظر : تفسير ابن جرير الطبري (٣٣٠/٧) (٨١١٠) ، وابن أبي حاتم (٦٢٦/٢) (١٧٢٠) ، الوسيط (٥١٠/١) .

(٢) ينظر : المصادر السابقة .

(٣) ينظر : المصادر السابقة .

(٤) وغزى : جمع غاز ، وقياسه : غزاة ، ولكنهم حملوا المعتل على الصحيح ، في نحو : ضارب وضرب ، وصائم وصوم . ينظر : الباب لابن عادل (٧/٦) .

لا يتقدم الموت بالخروج في الغزو، ولا يتأخر بالمقام وترك الخروج، دعاهم إلى التسليم، إنما هي أنفاس معدودة، وأرزاق مقسومة، وآجال مضروبة، ما لم يفتأها واستوفأها وانقضى أجلها: لا يأتيها.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: وعيد.

وقوله - عز وجل - : ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ﴾: أي أن الموت إن كان لا بد نازل بكم؛ فقتلكم أو موتكم في طاعة الله وجهاده خير من أن ينزل بكم في غير طاعة الله وسبيله.

﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: من الأموال.

﴿وَلَكِنْ مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾:

أي: إن متم على فراشكم، أو قتلتم في سبيل الله - فإليه تحشرون، فمعناه - والله أعلم - أي: إن لم تقدروا على أن لم تحشروا إليه، كيف تقدرون ألا ينزل على فراشكم بكم الموت، وإن أقمتهم في بيوتكم؟! والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿١٦٠﴾﴾

وقوله - عز وجل - : ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ لَّهُمْ﴾:

يحتمل هذا وجهين:

يحتمل: فبرحمة من الله عليك لنت لهم؛ كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ويحتمل قوله: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ لَّهُمْ﴾: فيجب أن يكون الإنسان رحيماً على خلقه؛ على ما جاء في الخبر قال لأصحابه: «لَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَرَاحُمُوا»، فقيل: كلنا نرحم يا رسول الله، فقال: «لَيْسَ تَرَاحِمَ الرَّجُلِ وَلَدُهُ أَوْ أَخَاهُ، وَلَكِنْ يَتَرَاحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا» أو كلام نحو هذا^(١).

وما جاء: «مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَتَا، وَلَمْ يُؤَقِّرْ كَبِيرَتَا - فَلَيْسَ مِنَّا»^(٢)، وما جاء: «مَنْ لَمْ

(١) رواه الطبراني كما عناه له الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٠/٨)، وقال: ورجاله رجال الصحيح، من حديث أبي موسى الأشعري، به.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٤/٤): كتاب البر والصلة: باب ما جاء في رحمة الصبيان (١٩٢١)، وأحمد (٢٥٧/١)، والبغوي في شرح السنة (٤٤٨/٦) رقم (٣٣٤٦) عن ابن عباس.

يُؤْخِمُ أَهْلَ الْأَرْضِ لَمْ يَرْحَمَهُ أَهْلُ السَّمَاءِ»^(١)؛ كما قال الله - تعالى - : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْحَمُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] الآية، وقد أمر الله عباده أن يعامل بعضهم بعضًا بالرحمة واللين، إلا عند المعاندة والمكابرة؛ فحينئذ أمر بالقتال؛ كقوله لموسى وهارون - حيث أرسلهما إلى فرعون - فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، وكان اللين في القول أنفذ في القلوب، وأسرع إلى الإجابة، وأدعى إلى الطاعة من الخشن من القول، وذلك ظاهر في الناس؛ لذلك أمر الله - عز وجل - رسلهم باللين من المعاملة، والرحمة على خلقه، وجعله سبب تأليف القلوب وجمعها، وجعل الخشن من القول والفظ سبب الفرقة بقوله:

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا﴾

[في القول]^(٢)

﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَقُصُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾

أي: لو كنت في الابتداء فظًا غليظًا لتفرقوا ولم يجتمعوا عندك^(٣).
وقوله - عز وجل - : ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ بأذاهم إياك ولا تكافهم، واستغفر لهم فيما بينهم

وبين ربهم.

ويحتمل قوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾

بما عصوك ولا تنتصر منهم، وكذلك أمر الله المؤمنين جملة أن يعفوا عنهم، وألا ينتصروا منهم بقوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٩] وكان أرجى للمؤمنين قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ كما قال الله - تعالى - : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْحَمُونَ...﴾ [الآية [الجاثية: ١٤]، وقوله - أيضًا - : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]: لا جائز أن يؤمر بالاستغفار لهم ثم لا يفعل، وإذا فعل لا يجاب؛ فدل أنه ما ذكرنا، والله أعلم.

وكذلك دعاء إبراهيم - عليه السلام - : ﴿رَبِّنَا أَغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، ودعاء نوح - عليه السلام - : ﴿رَبِّ أَغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ

(١) رواه البخاري (٤٥٢/١٠): كتاب الأدب: باب رحمة الناس والبهائم (٦٠١٣)، ومسلم (٤/

١٨٠٩): كتاب الفضائل: باب رحمته ﷺ، رقم (٢٣١٩)، ولفظه: «من لا يرحم الناس لا يرحمه

الله»، من حديث جرير بن عبد الله.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٣) في ب: من عندك.

دَحَلَ بَيْنَكَ مُؤْمِنًا وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿نوح: ٢٨﴾ لا يجوز أن يدعو هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام - ثم لا يجاب لهم .

وقوله - عز وجل - : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ :

أمر الله - عز وجل - نبيه ﷺ أن يشاور أصحابه في الأمر؛ ففيه وجوه ثلاثة : أحدها: أنه لا يجوز له أن يأمره بالمشاورة فيما فيه النص، وإنما يأمر بها فيما لا نص فيه؛ ففيه دليل جواز العمل بالاجتهاد .

والثاني: لا يخلو أمره بالمشاورة، إما لعظم قدرهم وعلو منزلتهم عند الله، أو لفضل العقل ورجحان اللب^(١)؛ فكيفما كان فلا يجوز لمن دونهم أن يسووا أنفسهم بهم، ولا جائز - أيضًا - أن يأمر نبيه ﷺ بمشاورة^(٢) أصحابه، ثم لا يعمل برأيهم؛ دل أنهم إذا اجتمعوا كان الحق لا يشذ عنهم .

وقال بعضهم: إنما أمر نبيه ﷺ بمشاورتهم في أمر الحرب والقتال، وعن الحسن - رضي الله عنه - : «لما أنزل الله - تعالى - : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ - قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ غَيَّانَ عَنْ مُشَاوَرَتِكُمْ»؛ ولكنه أراد أن يكون سنة لأئمة^(٣)، وعن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه كان يقرأ: «وشاورهم في بعض الأمر»^(٤) .

وقيل: أمر الله نبيه ﷺ أن يشاور أصحابه في الأمور^(٥)، وهو يأتيه وحي السماء؛ لأنه أطيب لأنفس القوم، وأن القوم إذا شاورهم بعضهم بعضًا فأرادوا بذلك وجه الله - عزم الله لهم على أرشده .

وقيل: إن العرب في الجاهلية كانوا إذا أراد سيدهم أن يقطع أمرًا دونهم، لا يشاورهم في الأمر شق عليهم؛ فأمر الله النبي ﷺ أن يشاورهم في الأمر إذا أراد؛ فإن ذلك أعطف لهم عليه، وأذهب لأضغانهم^(٦) .

وفي بعض الأخبار قيل: «يا رسول الله، ما العزم؟ قال: «أن تستشير ذا الرأي، ثم

(١) اللب: العقل، واللب: خالص كل شيء، والليب: العاقل. ينظر: القاموس المحيط (ص ١٢٣) (لأب).

(٢) في ب: بشاورة.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٦/٦) برقم (٧٥٤٢)، وقال: بعض هذا المتن يروى عن الحسن البصري من قوله وهو - مرفوعًا - غريب، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٥٩/٢) وعزاه لابن عدى والبيهقي وقال: حسن عن ابن عباس .

(٤) ينظر: البحر المحيط (١٠٥/٣).

(٥) ذكره الطبري في التفسير (٣٤٤/٧) رقم (٨١٢٧)، والواحد في الوسيط (٥١٢/١)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٥٩/١) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة .

(٦) ينظر: التفسير الكبير للرازي (٥٤/٩)، واللباب لابن عادل (١٩/٦).

تطيعه»^(١).

وكان يقال: ما هلك امرؤ عن مشورة، ولا سعد ثبور، قيل: الثبور: الذي لا يستشير
 ويعمل برأيه.

وقوله - عز وجل -: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾:
 أي: لا تتكلن إلى نفسك، ولا تعتمدن على أحد؛ ولكن اعتمد على الله وِكلِ الأمر
 إليه.

وقيل: فإذا فرق [ذلك]^(٢) الأمر بعد المشاورة فامض لأمرك، فإن كان في أمر الحرب
 على ما قيل فهو - والله أعلم - لا تعجبين بالكثرة، ولا تزيين النصر به، ولكن اعتمد بالنصر
 على الله؛ كقوله - تعالى -: ﴿إِذْ أَغْجَبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ
 شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]، والله أعلم بما أراد، بذلك؛ كقوله: ﴿وَمَا أَلْتَصِرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ
 اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وقوله - عز وجل -: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾:

صدق الله من كان الله ناصره؛ فلا يغلبه العدو من بعد.

﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾

[أي: يترككم]^(٣)

﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم﴾:

والنصر يحتمل وجهين، يحتمل: المعونة، ويحتمل: المنع:

كقوله - تعالى -: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١]. قوله - عز وجل -: ﴿إِنْ
 يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾، أي: أعانكم الله؛ فلا يغلبكم العدو، ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾: [فلم يعنكم]؛ فمن
 [ذا]^(٤) الذي أعانكم سواه؟!

ومن المنع، أي: إن منع الله عنكم العدو، فلا غالب لكم، ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾، ولم
 يعنكم، فمن الذي يمنعكم من بعده؟!

والخذلان في الحقيقة هو: ترك المأمول منه ما أُملَ منه، واستعمل في هذا كما
 استعمل الابتلاء على غير حقيقته.

وقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾:

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦٠/٢) وعزه لابن مردويه.

(٢) سقط من ب.

(٣) سقط من ب.

(٤) سقط من ب.

هو على الأمر في الحقيقة كأنه قال: وعلى الله فتوكلوا أيها المؤمنون. والتوكل: هو الاعتماد عليه، وتفويض الأمر إليه، لا بالكثرة والأسباب التي يقوم بها، من نحو: القوة والعدة والنصرة^(١) والغلبة، وفي الشاهد إنما يكون عند الخلق بثلاث: إما بالكثرة، وإما بفضل قوة بطش، وإما بفضل تدبير ورأي في أمر الحرب، وجميع نصر رسول الله ﷺ وغلبته على عدوه إنما كان لا بذلك؛ ولكن بالتوكل عليه وتفويض الأمر إليه؛ دل أن ذلك كان بالله - عز وجل - وذلك من آيات نبوته ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦١) أَفَمَنْ أَنْتَبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ إِسْخَاطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْأَصْنِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ، وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤) ﴿

وقوله - عز وجل - : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ﴾

فيه قراءتان^(٢): «يغل» بنصب الباء، ورفع الباء ونصب الغين، ومن قرأه^(٣) بنصب الباء فذلك يحتمل وجهين: يحتمل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ﴾ أي: لم يكن نبي من الأنبياء غللاً قط، وهو أحق من لا تهتمونه؛ لعلمكم به؛ فكيف اهتمموه هنا بالغلول؟! وقيل: إن ناساً من المنافقين حشوا ألا يقسم رسول الله ﷺ الغنيمة بينهم؛ فطلبوا القسمة^(٤)؛ فنزلت [هذه]^(٥) الآية.

وقيل: قالوا: اعدل يا محمد في القسمة؛ فنزل هذا^(٦).

ويحتمل قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ﴾ أي: قد كنتم عرفتموه من قبل أن يرسل، فما

(١) في ب: والنصر.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بفتح الباء وضم الغين «يغل»، وقرأ باقي السبعة «يغل». ينظر: الحجة لأبي زرعة (٣/٩٤)، حجة ابن خالويه (١٧٩، ١٨٠)، السبعة لابن مجاهد (٢١٨)، إتحاف فضلاء البشر (١/٤٩٣)، اللباب (٦/٢٣).

(٣) في ب: قرأ.

(٤) انظر: تفسير اللباب لابن عادل (٦/٢٤)، والرازي في الكبير (٩/٥٧).

(٥) سقط من ب.

(٦) أخرجه البخاري (٦/٣٦٦) كتاب فرض الخمس: باب ومن الدليل على أن الخمس لنواب المسلمين (٣١٣٨)، ومسلم (٢/٧٤٠) في كتاب الزكاة: باب ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٦٣)، وأحمد (٣/٣٥٣ - ٣٥٥)، وابن ماجه (١/١٧٦) في المقدمة: باب ذكر الخوارج (١٧٢)، والبيهقي في الدلائل (٥/١٨٥ - ١٨٦).

عرفتموه حان قط أو غَلٍّ؛ فكيف يحتمل الخيانة بعدما أرسل؟! هذا لا يحتمل.
ومن قرأه بالرفع [أي: يُعَلِّ] فهو - أيضًا - يحتمل وجهين، أي: يتهم بالغلول^(١) في الغنيمة؛ فهو يرجع إلى تأويل الأول.

ويحتمل قوله: «أَنْ يُعَلِّ» أن يخان في الغنيمة، لا يخون ولا يحل أن يخان النبي ﷺ في الغنيمة؛ فإنه يطلع على ذلك، يطلع الله ورسوله، على ما جاء في بعض الأخبار أنه مرّ بقبر، فقال: إنه في عذاب، قيل: بماذا يا رسول الله؟! فقال: «إِنَّهُ كَانَ أَخَذَ مِنَ الْغَنِيمَةِ قَدْرَ دِرْهَمَيْنِ أَوْ نَحْوَهُ»^(٢).

ويحتمل: خصوص الغنيمة بما يتناول الغالَّ جُلُّه، بما لا يعرف له صاحب؛ كالمال الذي لا مالك له، وربما يباح التناول منه للحاجة والأخذ بغير البدل بوجه لا يحتمل بتلك أكل الحل من ذلك.

وقوله - عز وجل - : ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْفَيْصَةِ﴾:

أي: يؤخذ به يوم القيامة، وهكذا كل من أخذ من مال غيره بغير إذنه؛ فإنه يؤخذ به. وقال بعض الناس: وإنما خص الغنيمة بفضل وعيد؛ لأن الغلول فيها يجحف بحق الفقراء وأهل الحاجة، أو يضر ذلك أصناف الخلق، وسائر الأموال ليس كذا. وقيل: إنما جاء الوعيد في هذا أنهم كانوا أهل نفاق، يستحلون الغلول في الغنيمة والأخذ منها، وهذا كأنه أشبه.

وعن ابن عباس^(٣) - رضي الله عنه - قال: بعث [رسول الله]^(٤) جيشًا فغلوا رأس ذهب؛ فنزلت [الآية]^(٥): ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - أيضًا - قال: فُقِدَتْ قطيفة حمراء يوم بدر مما

(١) الغلول: الخيانة. ينظر: القاموس (ص: ٩٣٦) (غلل).

(٢) أخرجه الحميدي (٨١٥)، وأحمد (١١٤/٤)، وعبد بن حميد (٢٧٢)، وأبو داود (٢٧١٠)، وابن ماجه (٢٨٤٨)، والسنائي (٦٤/٤)، وابن الجارود (١٠٨١)، والحاكم (١٢٧/٢)، والبيهقي (٩/١٠) من طرق عن يحيى بن سعيد عن محمد بن يحيى بن حبان عن أبي عمرة عن زيد بن خالد قال: مات رجل ببخير فقال رسول الله ﷺ: «صلوا على صاحبكم، إنه غلَّ في سبيل الله». ففتشنا متاعه فوجدنا فيه خرزًا من خرز يهود ما يساوي درهمين.

وأبو عمرة مجهول، قال الذهبي: ما روى عنه سوى محمد بن يحيى بن حبان. ينظر: الميزان (٤٠٨/٧).

(٣) أخرجه بنحوه ابن جرير (٣٥٣/٧)، رقم (٨١٥٢)، (٨١٥٣) عن قتادة وعن الربيع بن أنس (٨١٥٤)، وذكره السيوطي في الدر (١٦١/٢)، وعزاه للطبراني عن ابن عباس بسند جيد.

(٤) بدل ما بين المعقوفين في ب: النبي.

(٥) سقط من ب.

أصيب من المشركين؛ فقال الناس: لعل رسول الله ﷺ أخذها لنفسه؛ فأنزل الله - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَمَ^(١)...

وقوله - عز وجل -: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾:

قيل: أفمن لم يغل، ولم يأخذ من الغنيمة شيئاً - كمن غلّ وأخذ منها؟! ليسا سواء؛ رجع أحدهما برضوان الله، والآخر بسخطه^(٢).

ويحتمل: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾: أفمن أطاع الله واتبع أمره، كمن عصى الله واتبع هواه؟! ليسا بسواء.

وقوله - عز وجل -: ﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾:

والدرجات - والله أعلم -: ما يقصدها أهلها. والدركات: ما تدرّكهم من غير أن يقصدها؛ كالدرك في العقود يدرك من غير قصد.

وقيل: الدرجات: ما يعلو. والدركات: ما يشفّل^(٣)، والله أعلم. فهذا في التسمية المعروفة أَنَّ سُمِّيَتِ النار دركات والجنة درجات، وحقيقة ذلك واحد، والآية تدل على الأمرين.

وقوله - عز وجل -: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾:

وجه المنة فيما بعث الرسل عليهم من البشر، ولم يرسلهم من الملائكة ولا من الجن - وجوه:

أحدها: أن كل جوهر يألف بجوهره، وينضم إليه ما لم يألف بجوهر غيره، ولا ينضم إلى جنس آخر، فإذا كان كذلك، والرسل إنما بعثوا لتأليف قلوب الخلق وجمعهم، والدعاء إلى دين يوجب الجمع بينهم، ويدفع الاختلاف من بينهم - فإذا كان ما وصفنا بُعِثُوا من جوهرهم وجنسهم؛ ليألفوا بهم وينضموا إليهم، والله أعلم.

والثاني: أن الرسل لابد لهم من أن يقيموا آيات وبراهين لرسالتهم، فإذا كانوا من غير جوهرهم وجنسهم لا يظهر لهم الآيات والبراهين؛ لما يقع عندهم أنهم إنما يأتون ذلك بطباعهم دون أن يأتوها بغير إعطائهم إياها ذلك.

والثالث: أن ليس في وسع البشر معرفة غير جوهرهم وغير جنسهم من نحو الملائكة

(١) أخرجه ابن جرير (٣٤٨/٧ - ٣٥٠) (٨١٣٦)، (٨١٣٨ - ٨١٤٢) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في الدر (١٦١/٢) وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر والطبراني.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٦٥/٧) (٨١٦٩) عن الضحاك، وذكره السيوطي في الدر (١٦١/٢) وعزاه لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.

(٣) ذكره بمعناه السيوطي في الدر (١٦٥/٢)، وعزاه لابن المنذر عن الضحاك.

والجن؛ ألا ترى أن البشر لا يرونهم؟! فإذا كان كذلك بُعثوا منهم؛ ليعرفوهم ولتظهر لهم الحجة، والله أعلم.

ثم المنة الثانية: حيث بعثهم من نسبهم وجنسهم وحسبهم لم يبعثهم من غيرهم؛ وذلك أنهم إذا بعثوا من غير قبيلهم وجنسهم لم يظهر لهم صدقهم ولا أمانتهم فيما ادعوا من الرسالة، فبعثهم منهم^(١)؛ ليظهر صدقهم وأمانتهم، لَمَّا ظهر صدقهم وأمانتهم في غير ذلك؛ فبدل ذلك لهم أنهم لما لم يكذبوا بشيء قط ولا خانوا في أمانة - لا يكذبون على الله تعالى.

والثاني: أنهم إذا كانوا من غير نسبهم فلعلهم إذا أتوا بآية أو براهين يقولون: إنما كان ذلك بتعليم من أحد، واختلاف إلى أحد ممن يفعل بمثل هذا، بعثهم الله منهم؛ ليعلموا أنهم إذا لم يتعلموا من أحد، ولا اختلفوا فيه - أنهم إنما علموا ذلك بالله - تعالى - لا بأحد من البشر، والله أعلم.

ألا ترى أن ما أتى به موسى - صلوات الله عليه - من الآيات من نحو: العصا، واليد البيضاء وغير ذلك لو كان سحراً في الحقيقة لكان من أعظم آيات رسالته: لأنه لم يعرف أنه اختلف إلى أحد في تعلم السحر قط، وقد نشأ بين أظهرهم، فكيف ولم يكن سحراً؟! فدل أن الله على خلقه منة عظيمة؛ فيما بعث الرسل من نسبهم وقرباتهم، ومن نشأ بين أظهرهم لمعنى الذي وصفنا، والله أعلم.

وقيل: قوله: ﴿رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: من العرب معروف النسب أمياً^(٢)؛ ليعلموا أنه إنما أتى به ما أتى سماوياً وخيائياً، وألا يرتابوا في رسالته وفيما ينسبوا، فقوله: ﴿وَلَا تَخْطُئُ بِمِيزَانِكُ إِذَا لَازَتْكَ أَلسِنَةُ الْمُبْطِلِينَ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٨].

وقوله - عز وجل - : ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾:

يحتمل: إعلام رسالته ونبوته، ويحتمل الآيات الحجج والبراهين، هما واحد، ويحتمل: آيات القرآن.

وقوله - عز وجل - : ﴿وَرُكَّعِهِمْ﴾:

يحتمل: التزكية من الزكاء والنماء، وهو أن أظهر ذكرهم، وأفشى شرفهم ومذاهبهم؛ حتى صاروا أئمة يذكرون ويقتدون بهم بعد موتهم؛ كقوله - تعالى - : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾

(١) في ب: منة.

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في الشعب (٢/٢٣٢) عن عائشة موقوفاً، وذكره السيوطي في الدر (٢/١٦٥) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن عائشة.

[الشمس: ٩]: أظهره ولم يُخمل ذكهم؛ ألا ترى أنه قال: ﴿وَقَدْ حَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ [الشمس: ١٠] أي: أخفاها وأخملها؟! ويحتمل: ﴿وَيُرَكِّبُهُمْ﴾، أي: يطهرهم بالتوحيد، وقيل: ﴿وَيُرَكِّبُهُمْ﴾، أي: يأخذ منهم الزكاة؛ ليطهرهم.
وقوله - عز وجل -: ﴿وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ﴾
أن ينصرف إلى وجوه، وقد ذكرناه في غير موضع.
وقوله - عز وجل -: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾:
وقد ذكرنا الضلال أنه يتوجه إلى وجوه: إلى الهلاك، وإلى الحيرة، وإلى خمول الذكر وغيره.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّقَى الْجَمْعَانِ فَإِذَنْ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا فَتُقْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْنَمُ فَتَالَا لَآتَيْنَكُمُ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبَ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾
وقوله - عز وجل -: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً﴾:

يوم أحد؛ حيث قتل منكم سبعون.

﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾

يوم بدر: قتلتم سبعين وأسرتم سبعين.

وقيل: إن ذلك كله يوم أحد كانت الدائرة^(١) والهزيمة على المشركين في البداية^(٢)، ثم هُزم المؤمنون، يقول^(٣): إن أصابكم في آخره ما أصاب، فقد أصابهم - أيضاً - مثلاًها؛ يذكر هذا لهم - والله أعلم - على التسلي بما أصيبوا؛ ليتسلى ذلك عنهم، أو يذكرهم نعمة عليهم بما أصيب المشركون مثلى ذلك؛ ليشكروا له عليها، وليعلموا أنهم لم يُخْصُوا هم بذلك^(٤).

(١) في ب: الدبرة.

(٢) في ب: ابتدائهم.

(٣) في ب: يقولون.

(٤) وهذا اختيار الزجاج، وطعن الواحدي في هذا الوجه، فقال: كما أن المسلمين نالوا من المشركين يوم بدر، فكذلك المشركون نالوا من المسلمين يوم أحد، ولكنهم ما هزموا المسلمين ألبتة. أما يوم أحد فالمسلمون هزموا المشركين أولاً ثم انقلب الأمر. قاله الرازي في مفاتيح الغيب (٦٦/٩).

وقوله - عز وجل - : ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ :

كأنه يعاتبهم - والله أعلم - بقولهم : ﴿أَنَّى هَذَا﴾ ؛ فقال ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ : يعاتبهم بتركهم الاشتغال بالتوبة عما ارتكبوا من عصيان ربهم ، والخلاف لنبيهم ﷺ ؛ إذ مثل ذلك الكلام لا يكون إلا ممن كان متبرئاً عن ارتكاب المنهي والخلاف لأمره ، فأما من كان منه ارتكاب المناهي والخلاف لربه ؛ فلا يسع ذلك أو كان ما أصابهم إنما أصاب محنة منه ، والله أن يمتحن عباده بأنواع المحن على يدي من شاء^(١) ؛ إذ كلهم عبيده ، فعاتبهم لما لم يعرفوا محنة ، و﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ ، ونحن مسلمون [نقاتل]^(٢) في سبيل الله ، وهم مشركون؟! فقال : ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ ، يقول : بمعصيتكم الرسول ﷺ ، وبترككم ما أمركم به من حفظ المركز وغيره ؛ كقوله : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء : ٧٩] .

قال الشيخ - رحمه الله - في قوله - تعالى - : ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ : يخرج إن كان من أهل النفاق مخرج الاستهزاء ، أي : لو كان ما يقول محمد ﷺ من النصر له والرسالة^(٣) حقاً ؛ فمن أين بلى بهذا؟! وذلك كقولهم : ﴿لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ [آل عمران : ١٥٤] ، وقولهم يوم الخندق : ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب : ١٢] ، وغير ذلك مما عليه معتمدهم في إظهار الإسلام ، والله أعلم .

وإن كان ذلك من أهل الإيمان فهو سؤال تعريف الوجه الذي بلوا به ، وهم أنه انتصر الله ، وقد وعد لأنصار دينه النصر ، وإن الذي ينصر الله لا يغار من شيء ، وكان قد وعدوا إلقاء الرعب في قلوب أعدائهم ، أو بما كانوا رأوا الدبرة^(٤) عليهم والهزيمة من الأعداء ، فيقولون : بيم انقلب علينا الأمر ؛ فبين أنه بما قد عصوا ومالوا عن الله ، وإن كان ذلك عن بعضهم لا عن كلهم^(٥) : فجائز ذلك بحق المحنة ؛ إذ قد يجوز الابتداء به مع ما يكون ذلك عن المعاصي أزجر ، وللاجتماع على الطاعة أدعى ؛ إذ المحنة بمثلها تدعوا كلاً إلى اتقاء الخلاف ، ومنع إخوانه - أيضاً - عن ذلك ؛ فيكون به التآلف وصلاح ذات البين ، والله أعلم

(١) في ب : يشاء .

(٢) سقط من ب .

(٣) في ب : أو الرسالة .

(٤) الدبرة : نقیض الدولة ، والعاقبة ، والهزيمة في التال . ينظر : القاموس المحيط ص (٣٥١ ، ٣٥٢)

(دبر) .

(٥) في ب : جلهم .

وقوله - عز وجل - : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ :

من النصر والهزيمة، ولكن ما أصابكم إنما أصاب بمعصيتكم ربكم، وخلافكم رسوله ﷺ، أو أصابكم؛ محنة منه إياكم.

وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّفَى الْجَمْعَانِ﴾ :

جمع المؤمنين، وجمع المشركين.

﴿فَيَاذِنِ اللَّهُ﴾ :

قيل^(١) : فبمشيئة الله وإرادته، وقيل : ﴿فَيَاذِنِ اللَّهُ﴾^(٢) : فبتخليفة الله إياكم لما لعلمهم رأوا النصر والغلبة بالكثرة، أو بالقوة والعدة؛ فخلاهم الله بينهم وبين عدوهم؛ ليعلموا أن أمثالهم مع قلتهم وضعفهم لا ينتصرون من أمثال أولئك مع كثرة عددهم، وقوة أبدانهم^(٣)، وعدتهم في سلاحهم، ولكن بالله ينتصرون منهم، ويتغلبون عليهم.

وقيل^(٤) : ﴿فَيَاذِنِ اللَّهُ﴾ : بعلم الله، أي : يعلم الله ما يصيبكم من خير أو شر، ليس عن سهو وغفلة منه يصيبكم^(٥).

وقوله - عز وجل - : ﴿وَلْيَعْلَمِ الْمُؤْمِنِينَ. وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ :

كما ذكرنا فيما تقدم؛ ليعلم ما قد علم أنهم يؤمنون، ويصبرون على البلايا والقتال مؤمنين صابرين محتسبين؛ وكذلك ليعلم ما قد علم أنهم ينافقون، ويصبرون منافقين، غير صابرين، ولا محتسبين^(٦).

وقوله - عز وجل - : ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَلِّكُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾ :

قوله: ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾ : يحتمل : ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾، أي : كثروا السواد؛ لأن المشركين إذا

(١) ذكره الرازي في تفسيره (٦٨/٩)، وابن عادل في تفسيره (٣٩/٦).

(٢) ذكره الرازي في تفسيره (٦٨/٩)، وابن عادل (٣٩/٦).

(٣) في ب : أمانهم.

(٤) ذكره الرازي (٦٨/٩)، وابن عادل في اللباب (٣٩/٦).

(٥) وقيل : إن المراد من الإذن الأمر؛ بدليل قوله : ﴿ثُمَّ مَكَرَكُمُ عَنْهُمْ لَيْبَتِكُمْ﴾ [آل عمران : ١٥٢]، والمعنى : أنه - تعالى - لما أمر بالمحاربة، ثم صارت تلك المحاربة مؤدية إلى ذلك الانهزام - صح على سبيل المجاز أن يقال : حصل ذلك بأمره.

وقيل : إن المراد من الإذن : قضاء الله بذلك وحكمه به، وهو المنقول عن ابن عباس. وهذا أولى؛ لأن الآية تسلية للمؤمنين بما أصابهم، والتسلية إنما تحصل إذا قيل : إن ذلك وقع بقضاء الله وقدره؛ فحينئذ يرضون بما قضى الله. أفاده الرازي في مفاتيح الغيب (٦٨/٩).

(٦) والعلم هنا علم عيان ورؤية يتميز به أحد الفريقين عن الآخر تميزاً ظاهراً. أفاده القاسمي في محاسن التأويل (٢٨٧/٤).

رَأَوْا سَوَادَ الْمُؤْمِنِينَ [كثيْرًا] ^(١) يُزْهِبُهُمْ ذَلِكَ وَيُخَوِّفُهُمْ؛ كَقَوْلِهِ - عز وجل - : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] ^(٢).
ويحتمل: أو ادفَعُوا العدو عن أنفسكم؛ لما لعلهم يقصدون أنفس المؤمنين المقاتلين،
أو ادفَعُوا عن أموالكم وذرائعكم ويقصدون ذلك، أو ادفَعُوا عن دينكم إذا قصدوا دينكم،
وقد يقصدون ذلك، أو أن يكون قوله - عز وجل - : ﴿فَنَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا﴾ -
واحدًا، أي: قاتلوا في سبيل الله وادفعوا، والله أعلم.

وقوله - عز وجل - : ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ﴾

يعني: المنافقين، قيل: قال المنافقون الذين تخلفوا في المدينة ^(٣) لرسول الله ﷺ،
وقيل: قال ذلك غيرهم.

وقوله - عز وجل - : ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾:

يعني: المنافقين، أخبر أنهم إلى الكفر أقرب من الإيمان للكفر وإلى الكفر من الكفر،
كل ذلك لغة، وفي حرف حفصة: هم «إلى الكفر أقرب»، وتأويله - والله أعلم - : أن
المنافقين كانوا لا يعرفون الله - عز وجل - ولا كانوا يعبدونه؛ فإنما هم عباد النعمة،
يميلون إلى حيث مالت النعمة: إن كانت مع المؤمنين؛ فيظهرون من أنفسهم الوفاق لهم،
وإن كانت مع المشركين فمعهم؛ كقوله - عز وجل - : ﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ
فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ...﴾ الآية [النساء: ١٤١]، وكقوله - عز وجل - :
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ...﴾ الآية [الحج: ١١]، وأما الكفار: فإنهم كانوا
يعرفون الله، لكنهم كانوا يعبدون الأصنام والأوثان لوجهين:
أحدهما: لما اتخذوها أربابًا.

والثاني: يطلبون بذلك تقريبهم إلى الله زلفي؛ كقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ
زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]، لكنهم إذا أصابتهم الشدة، ولم يروا فيما عبدوا الفرج عن ذلك -
فزعوا إلى الله عز وجل، كقوله - تعالى - : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

(١) سقط من ب.

(٢) ومن أجمل ما يروى في هذا: ما ذكره القرطبي في تفسيره (١٧٠/٤) قال: وقال أنس بن مالك:
رأيت يوم القادسية عبد الله بن أم مكتوم الأعمى وعليه درع يجر أطرافها، ويده راية سوداء؛ فقيل
له: أليس قد أنزل الله عذرك؟ قال: بلى، ولكني أكثر سواد المسلمين بنفسي. وروي عنه أنه قال:
فكيف بسوادي في سبيل الله!؟

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٧٨/٧ - ٣٨٠) (٨١٩٣) عن الزهري وغيره، (٨١٩٤) عن ابن إسحاق
(٨١٩٥)، عن السدي، (٨١٩٦) عن عكرمة، ذكره السيوطي في الدر (١٦٧/٢).

الَّذِينَ ﴿[العنكبوت: ٦٥]، فإذا ذهب ذلك عنهم عادوا إلى دينهم الأول، وقوله - عز وجل - : ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ الآية [الزمر: ٨]، وأما المؤمنون: فهم في جميع أحوالهم: في حال الرخاء والشدة، والضراء والسراء - مخلصون لله صابرون على مصائبهم وشدائدهم قائلون: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وقوله - عز وجل - : ﴿هُمُ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ﴾: يحتمل هذا وجوها: قيل: إنما كانوا كذا؛ لأنهم كانوا يقولون للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ وإن كان للكافرين نصيب قالوا: ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]: ذكروا كونهم مع المؤمنين، وذكروا في الكافرين استحواذهم عليهم، ومنعهم من المؤمنين؛ فذلك آية الأقرب منهم.

ويحتمل: أقرب منهم للإيمان؛ لأن ما أظهروا من الإيمان كذب، والكفر نفسه كذب؛ فما أظهروا من الإيمان فهو كذب إلى الكذب الذي هم عليه أقرب، وهو الكفر.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - : ﴿هُمُ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ﴾، قال: «هم يومئذ يسرون الكفر، ويظهرون الإيمان، وسر العبد أولى من علانيته، وفعله أولى من قوله»^(١).

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾:

وهو قولهم، وقيل: وهم منهم أقرب؛ لأنهم كانوا في الحقيقة كفارًا على دينهم.

وفي قوله - تعالى - : ﴿هُمُ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ﴾ - يحتمل الدم، وقيل: كقوله - عز وجل - : ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَنفَكُوا﴾ [الأحزاب: ١٤]؛ فيكون الوصف بالقرب على الوقوع والوجوب؛ كقوله - عز وجل - : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، أي: هي لهم - وبالله التوفيق - وذلك لأنهم كانوا أهل نفاق، والكفر لم يكن يفارق قلوبهم، وما كان من إيمانهم كان بظاهر اللسان، [ثم]^(٢) قد يفارقها في أكثر أوقاتهم، والله أعلم.

وقد يكون على القرب من حيث كانوا شاكرين في الأمر، والشاك في أمر الكفر والإيمان تارك للإيمان؛ إذ حقيقته تصديق عن معرفة، ولم يكن لهم معرفة، والكفر قد يكون بالكذب؛ كأن له بما يكذب علم بالكذب أولاً؛ فلذلك كان الكفر أقرب إليهم، ويحتمل: أقرب إليهم: أولى بهم، وهم به أحق أن يعرفوا؛ بما جعل الله لهم من إعلام

(١) أخرجه ابن جرير (٣٧٩/٧) (٨١٩٤) عن ابن إسحاق، وذكره الرازي في تفسيره (٧٠/٩).

(٢) سقط من ب.

ذلك في لحن القول^(١)، ثم في أفعال الخير، ثم في أحوال الجهاد، ومما يظهر منهم من آثار الكفر في الأقوال والأفعال مما جاء به القرآن، والله أعلم.

فإن قيل في قوله: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ -: كيف عم هؤلاء بالعقوبة، وإنما كان العصيان والخلاف في الأمر من بعضهم لا من الكل، قيل: لما خرج لهم ذلك مخرج الامتحان والابتلاء، لا مخرج الجزاء لفعلهم، والله أن يمتحن عباده ابتداء بأنواع المحن من غير أن يسبق منهم خلاف في الأمر أو عصيان، وكل عقوبة خرجت مخرج جزاء عصيان أو خلاف في أمر - لم يؤخذ غير مرتكبها؛ لقوله - عز وجل -: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥]، وما خرج مخرج الامتحان جاز أن يعمهم؛ لما ذكرنا أن له ابتداء امتحان، أو إن كان ما كان منهم بمعونة غيرهم؛ فعمهم لذلك بذلك، كقطع الطريق وكشراق أن تعمهم العقوبة جميعاً: مَنْ أخذ ومن لم يأخذ، ومن تولى ومن لم يتول؛ فكذا هذا، أو كانوا جميعاً كنفس واحدة؛ فعمهم بذلك، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِهِمْ﴾

قيل: لإخوانهم في الدين، ومعارفهم من المنافقين: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾

ولم يخرجوا إلى الجهاد
﴿مَا قُتِلُوا﴾.

وقيل: لإخوانهم في النسب والقربة، وليسوا بإخوانهم في الدين والولاية؛ كقوله - عز وجل -: ﴿وَالَّذِينَ تَتَذَكَّرُ بِهِ نَبِيِّهِمْ مَا هُمْ أَوْلَىٰ لِمَنْ يَدْعُوهُ بِلِسَانٍ يَدْعُونَ﴾ [الأعراف: ٧٣] ليس بأخيهم في الدين [ولا] في الولاية؛ ولكن كان أخاهم في النسب والقربة. ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾

وقعدوا عن الخروج في الجهاد ﴿مَا قُتِلُوا﴾ في الغزو.

ثم قال - عز وجل - لنبيه ﷺ أن قل لهم: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ أَي: ادفعوا عن أنفسكم الموت﴾
﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

بأنهم لو قعدوا في بيوتهم ما قتلوا؛ فمعناه - والله أعلم -: أن من قتل في سبيل الله

(١) يقال: لحن له: قال له قولاً يفهمه عنه، ويخفى على غيره، وألحنه القول: أفهمه إياه. ينظر: القاموس المحيط ص (١١٠٨) (لحن).

فمكتوب ذلك عليه، ومن مات في بيته فمكتوب ذلك عليه، فإذا لم تقدرُوا دفع ما كتب عليكم من الموت؛ كيف زعمتم أنهم لو قعدوا ما قتلوا، وهو مكتوب عليهم كالموت؟! . وهذه الآية ترد على المعتزلة قولهم؛ لأنهم يقولون: إن من قتل مات قبل أجله، أو قبل أن يستوفي أجله^(١)؛ فهم واليهود فيما أنكر الله عليهم قولهم لو أطاعونا وقعدوا ما قتلوا - سواء بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١) وقوله - عز وجل - : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ :

قيل فيه بوجوه، قيل: إن المنافقين قالوا للذين قتلوا بأحدٍ وبندٍ: إنهم ماتوا؛ فأنزل الله - عز وجل - : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأحدٍ وبندٍ ﴿أَمْوَاتًا﴾ كسائر الموتى؛ بل هم أحياء عند ربهم .

وقيل: قالوا: إن من قتل لا يحيا أبداً ولا يبعث؛ فقال - عز وجل - : بل يحيون وبيعثون كما يحيا ويبعث غيرهم من الموتى^(٢) .

وقيل: إن العرب كانت تسمي الميت: مَنْ انقطع ذكره إذا مات ولم يذكر، أي: لم يبق له أحد يُذكر به؛ فقالوا: إذا قتل هؤلاء ماتوا، أي: لا يذكرون؛ فأخبر الله - عز وجل - أنهم مذكورون في الملائكة، ملاء الملائكة، وملاء البشر، وهو الظاهر المعروف في الخلق أن الشهداء مذكورون عندهم^(٣) .

وقيل: قوله - عز وجل - : ﴿بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: يُجْزِي أعمالهم بعد قتلهم، كما كان يُجْزِي في حال حياتهم، فهم كالأحياء فيما يجري لهم ثواب أعمالهم وجزائهم، ليسوا بأموات . وقيل: إن حياتهم حياة كلفة؛ وذلك أنهم أمروا بإحياء أنفسهم في الآخرة؛ ففعل المؤمنون ذلك: أحيوا أنفسهم في الآخرة؛ فسموا أحياء لذلك، والكفار لم يحيوا أنفسهم

(١) تقدم ذكر هذه المسألة، وراجع: أصول الدين للبزدي (ص ١٦٧) .

(٢) وهناك أسباب أخرى أخرجها الطبري في تفسيره (٣٨٦/٧-٣٨٧) .

(٣) كما قال الشاعر:

موت التقى حياة لا فناء لها قد مات قوم وهم في الناس أحياء
ينظر: تفسير القرطبي (١٧٢/٤-١٧٣) .

بل أَمَاتُوهَا؛ فسمى أولئك أحياء، والكفار موتى.

وقيل: سَمِيَ هؤلاء أحياء؛ لأنهم انتفعوا بحياتهم، وسمى الكفار أمواتاً؛ لما لم ينتفعوا بحياتهم. ألا ترى أنه - عز وجل - سماهم مرة ﴿صُمُّ بِكُمْ عُتًى﴾ [البقرة: ١٨]؛ لما لم ينتفعوا بسمعهم ولا ببصرهم ولا بلسانهم، ولم يسم بذلك المؤمنين؛ لما انتفعوا بذلك كله؟! فعلى ذلك سَمِيَ هؤلاء أحياء؛ لما انتفعوا بحياتهم، وأولئك الكفرة موتى؛ لما لم ينتفعوا بحياتهم، والله أعلم.

وقال الحسن: إن أرواح المؤمنين يعرضون على الجنان، وأرواح الكفار على النار^(١)؛ فيكون لأرواح الشهداء فضل لذة ما لا يكون لأرواح غيرهم من المؤمنين ذلك، ويكون لأرواح آل فرعون فضل ألم وشدة ما لا يكون لأرواح غيرهم من الكفرة ذلك؛ فاستوجبوا بفضل اللذة على غيرهم اسم الحياة. ألا ترى أنه قال - تعالى - : ﴿يَرْزُقُونَ﴾: فيها، ﴿فَرِحِينَ يَمَآءَاتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وقيل^(٢): إن الناس كانوا يقولون فيما بينهم: من قتل بـ«بدر» وأحد مات فلان ومات فلان؛ فقال الله - عز وجل - : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ﴾ [البقرة: ١٥٤]^(٣).

وقوله - عز وجل - : ﴿فَرِحِينَ يَمَآءَاتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾:

روي عن مسروق^(٤)، قال: سألت عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية؛ قال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ؛ فقال: «أَرْوَاحُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خَضِرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرُحُ فِي الْجَنَّةِ فِي أَيَّهَا شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلِهَا...»^(٥) والحديث طويل.

(١) ذكره ابن عادل بنحوه في اللباب (٤٨/٦).

(٢) أخرجه بنحوه ابن جرير (٣٩٢/٧) (٨٢٢١) عن الضحاك.

(٣) قال الواحدي: الأصح في حياة الشهداء ما روي عن النبي ﷺ من أن أرواحهم في أجواف الطير، وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون.

ينظر: محاسن التأويل (٢٩٠/٤).

وهذا الخبر المروي عن النبي ﷺ أخرجه أحمد (٢٦٦/١) وأبو داود عن ابن عباس مرفوعاً.

وقد أطال الفخر الرازي النفس في تفسير حياة الشهداء، فليراجع مفاتيح الغيب (٧٦-٧٣/٩).

(٤) مسروق بن الأجدع الهمداني أبو عائشة الكوفي الإمام القدوة: ثقة لا يسأل عن مثله؛ كما قال ابن معين. مات سنة ٦٣ هـ.

راجع خلاصة الخزرجي (٢١/٣)، سير أعلام النبلاء (٦٣/٤) رقم (١٧).

(٥) أخرجه مسلم (١٢١-١٨٨٧) عن مسروق قال: سألنا عبد الله - هو ابن مسعود عن هذه الآية - : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْزُقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] قال: أما إنا =

وقوله - عز وجل - : ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ...﴾ الآية :
عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال : «تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ صُحُفٌ مَكْتُوبٌ فِيهَا مَنْ يَلْحَقُ بِهِمْ
مِنَ الشُّهَدَاءِ؛ فَبِذَلِكَ يَسْتَبْشِرُونَ»^(١).

وقيل : «يستبشرون» لإخوانهم الذين فارقوهم على دينهم وأمرهم؛ بما قَدِمُوا عليه من
الكرامة والفضل والنعم، الذي أعطاهم الله^(٢). وقيل : «يستبشرون»، يعني : يفرحون
﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾، يعني : من بعدهم من إخوانهم في الدنيا^(٣) : رأوا قتالا؛
استشهدوا؛ فلحقوا.

وقيل : ﴿لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ :

الذين يدخلون في الإسلام من بعدهم.

والاستبشار : هو الفرح أو طلب البشارة؛ كأنهم طلبوا البشارة لقومهم؛ ليعلموا
بكرامتهم عند الله ومنزلتهم؛ كقول من قال : ﴿بَلِّغْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . يَمَّا عَفَرَ لِي رَبيَّ وَحَعَلَى مَنْ
الْمُكْرِمِينَ﴾ [يس : ٢٦-٢٧].

وقيل : إن الحياة على ضربين : حياة الطبيعي، وحياة العرضي، وكذلك الموت على
وجهين : موت الطبيعي، وموت العرضي، ثم حياة العرضي على وجوه :

أحدها : حياة الدِّين والطاعة؛ كقوله - عز وجل - : ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾
[الأنعام : ١٢٢]. وحياة العلم والبصيرة واليقظة، يسمى العالم حيًّا، والجاهل ميتًا. وحياة
الزينة والشرف، على ما سَمَى الله - تعالى - الأرض ميتة في حال يَبُوسَتِها، وحية : في
حال خروج النبات منها بقوله - عز وجل - : ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي
أَحْيَاهَا﴾ [فصلت : ٣٩]. وحياة الذكر واللذة؛ فجاز أن يكون الله - تعالى - لما أخبر أنهم
أحياء عند ربهم أن يكون لهم حياة من أحد الوجوه التي ذكرنا : حياة ذكر ولذة، أو حياة
زينة وشرف، أو حياة العلم لهم بأهل الدنيا على ما كان لهم قبل ذلك، أو حياة دين
وعبادة، أو يُجري عليهم أعمالهم على ما كان لهم قبل الشهادة، وإن كانت أجسادهم في
الحقيقة ميتة في أحكام الدنيا عند أهل الدِّنيا، وهذا يقوي قولنا في المرتد : إنه إذا لحق

= قد سألنا عن ذلك، فقال : «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش...»
الحديث.

(١) أخرجه بنحوه ابن جرير (٣٩٧/٧) (٨٢٣١) عن السدي.

(٢) أخرجه بنحوه ابن جرير (٣٩٦/٧) (٨٢٢٦) عن قتادة، وعن ابن جريج (٣٩٦/٧) (٨٢٢٧)، وعن
ابن إسحاق (٣٩٧/٧) (٨٢٢٩)، وعن ابن زيد (٣٩٧/٧) (٨٢٣٠).

(٣) ينظر : السابق.

بدار الحرب يحكم في نفسه وماله بحكم الموتى في قسمة الموارث، وقضاء الديون وغيرها، وإن كان هو في الحقيقة حيًا على ما حكم في أموال الشهداء وأنفسهم بحكم الموتى في حكم الدنيا؛ لما لا يعودون إلى الدنيا، وإن كانوا عند ربهم أحياء؛ فعلى ذلك يحكم في نفس المرتد وأمواله بحكم الموتى؛ لما لا يعود إلى دارنا، وإن كان هو في الحقيقة حيًا عند الله لما جاز أن يكون حيًا عند الله، ميتًا عندنا، وجاز أن يكون ميتًا عندنا حيًا عند الله، والله أعلم.

وحياة الطبيعي: هو حياة جوهر، وما به يقوم النفس، وموت الطبيعي هو هلاكه، وفوته [والله أعلم^(١)].

وموت العرضي: هو جهله؛ والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿يَسْتَشِيرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾:

يحتمل ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي: بدين من الله؛ كقوله - تعالى -: ﴿فَأَصْبَحْتُ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، قيل: بدينه^(٢)، ويحتمل: ﴿يَسْتَشِيرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾: الجنة، ﴿وَفَضْلٍ﴾: زيادات لهم وكرامات من الله، عز وجل.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

أي: لا يضيع من حسناتهم وخيراتهم وإن قل وصغر؛ كقوله - عز وجل -: ﴿تَقَبَّلْ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٦] [وكقوله - عز وجل -]^(٣): ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]، كقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ [النساء: ٤٠] الآية.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِنَّ سَوَاءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يَحْوِفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

وقوله - عز وجل -: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾:

قيل: أجابوا الله - عز وجل - والرسول ﷺ إلى ما دعاهم إليه^(٤)، وأطاعوا فيما أمرهم

(١) بدل ما بين المعقوفين في ب: ولا قوة إلا بالله.

(٢) ينظر: الوسيط للواحدي (٤٧٤/١).

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٤) أخرجه ابن جرير (٤٠١/٧) (٨٢٣٥) عن ابن إسحاق، وذكره السيوطي (١٨٠/٢)، وعزه لابن

المنذر عن سعيد بن جبیر.

به من بعد ما أصابهم القرح، أي: الجراحة.

قيل: دعاهم إلى بدر الصغرى بعد ما أصابهم بأحد القروح والجراحات؛ فأجابوه، فذلك قوله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾ الآية^(١).

وقوله - عز وجل -: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾:

في الإجابة له بعدما أصابتهم الجراحة، وشهدوا القتال معه.

﴿وَاتَّقُوا﴾:

الخلاف له، وترك الإجابة، ويحتمل: اتقوا النار وعقوبته.

﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾:

في الجنة وثواب جزيل، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ...﴾ الآية:

قيل: إن المنافقين قالوا لأصحاب رسول الله ﷺ بعد ما انهزم كفار مكة وولوا أدبرهم:

﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾، يخوفونهم؛ حتى لا يتبعوهم على أثرهم، فذلك

عادتهم لم ترل؛ كقوله - تعالى -: ﴿مَا زَادَكُمُ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] أي: فسادا.

وقيل: إنه إنما قال ذلك لهم رجل يقال لهم: نعيم بن مسعود^(٢)، ولا^(٣) ندري كيف

كانت القصة^(٤)؟.

(١) ذكره السيوطي في الدر (١٧٨/٢)، وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة.

(٢) هو نعيم بن مسعود الأشجعي، أبو سلمة، صحابي أسلم يوم الخندق قتل يوم الجمل مع علي. ينظر: الإصابة ترجمة (٨٨٠٤)، الخلاصة (٩٨/٣).

(٣) في ب: لا.

(٤) أخرجه ابن جرير (٤٠٦/٧) (٨٢٤٣)، وذكره ابن عادل في اللباب (٥٧/٦، ٥٨)، والرازي في تفسيره (٨٠/٩، ٨١)، وقال الطبري: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: إن الذي قيل لرسول الله ﷺ وأصحابه من أن الناس قد جمعوا فآخشوهم، كان في حال خروج رسول الله ﷺ وخروج من خرج معه في أثر أبي سفيان، ومن كان معه من مشركي قريش منصرفهم عن أحد إلى حمراء الأسد؛ لأن الله - تعالى ذكره - إنما مدح الذين وصفهم بـ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، لما قيل لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] بعد الذي قد كان نالهم من القروح والكَلُوم بقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢]، ولم تكن هذه الصفة إلا صفة من تبع رسول الله ﷺ من جرحى أصحابه بأحد إلى حمراء الأسد.

وأما الذين خرجوا معه إلى غزوة بدر الصغرى: فإنه لم يكن فيهم جريح إلا جريح قد تقادم اندمال جرحه وبرأ كلمه. وذلك أن رسول الله ﷺ إنما خرج إلى بدر الثانية إليها، لموعد أبي سفيان الذي كان واعد اللقاء بها بعد سنة من غزوة أحد في شعبان سنة أربع من الهجرة. اهـ. وقال ابن كثير: والصحيح أن الآية نزلت في شأن غزوة حمراء الأسد. ينظر: تفسيره (١/٤٣٠).

وقوله - عز وجل - : ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ :

لما وجدوا الأمر على ما قال لهم رسول الله ﷺ ووعد لهم، لا على ما قال أولئك؛ فزادهم ذلك إيمانًا، أي: تصديقًا.

زادهم: قيل: جراءة وقوة وصلابة على ما كانوا من قبل في الحرب والقتال، ويحتمل: زادهم ذلك في إيمانهم قوة وصلابة وتصديقًا.

وقيل: قوله - عز وجل - : ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾، أي: تصديقًا ويقينًا بجرأتهم على عدوهم، ويقينهم بربهم، واستجابتهم لنبيهم ﷺ^(١).

فإن قال قائل: ما معنى قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ على أثر قوله - عز وجل - : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾، وقول ذلك قول لا يحتمل أن يزيد الإيمان، وليس كقوله - عز وجل - : ﴿وَإِذَا تُلِيتَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]؛ لأنها حجاج، والحجج تزيد التصديق، أو تحدث، أو تدعو إلى الثبات على ذلك؛ فيزيد الإيمان؛ فقولهم^(٢): اخشوهم، كيف يزيد؟ قيل: يخرج ذلك - والله أعلم - على وجوه:

أحدها: أنهم إذا علموا أنهم أهل النفاق، وأنهم يخوفون بذلك، وقد كان وعدهم رسول الله ﷺ بصنيعهم، فكذبوهم بذلك، وأقبلوا نحو أمر رسول الله ﷺ إجابة لأمره؛ وتصديقًا بوعده، ومجانبة لاغترارهم بأخبار أعدائه والنزول على قولهم؛ فكان ذلك منهم - عند ذلك - زائدًا في إيمانهم مع ما في تكذيبهم؛ ذلك نحو قوله - عز وجل - : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...﴾ [التوبة: ١٢٥] الآية: إنه إذا زاد بتكذيب آيات الله رجسًا؛ فمثله تكذيب المكذب بالآيات؛ لذلك يزيد إيمانًا، والله أعلم.

والثاني: أن يكون رسول الله ﷺ أخبرهم بتفريق أعداء الله، وتشتت أمرهم، وأخبرهم المنافقون بالاجتماع؛ فصاروا إلى ما نعتهم به رسول الله ﷺ؛ فوجدوا الأمر على ما قال [رسول الله ﷺ]^(٣)، وذلك من أنباء الغيب، [والإنباء عن الغيب]^(٤) من أعظم آيات النبوة؛ فزادهم ذلك إيمانًا، والله أعلم، وذلك، قوله - عز وجل - : ﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ...﴾ الآية.

والثالث: لم لما يغتروا بقول المنافقين، ولا قصدوا لذلك، ولا ضعفوا؛ فأنزل الله -

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حبان (٣/ ١٢١، ١٢٢).

(٢) في ب: فقولهم.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٤) بدل ما بين المعقوفين في ب: وأنباء الغيب.

تعالى - سكينته على قلوبهم؛ ليزيد لهم بذلك إيماناً؛ كقوله - تعالى - ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية [الفتح: ٤]، وبالله التوفيق.

ثم معنى زيادة الإيمان يتخرج على وجوه:

أحدها: بحق الابتداء في حادث الوقت؛ إذ له حكم التجدد في حق الأفعال بما هو للكفر به تارك؛ وعلى ذلك قوله - تعالى - ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ الآية [النساء: ١٣٦]، فيكون ذلك بحق الزيادة على ما مضى، وإن كان بحق التجدد في حق الحادث والفرد.

والثاني: أن يكون له الثبات عليه؛ إذ حجج الشيء توجب لزومه، والدوام عليه؛ فسمى ذلك زيادة.

ويحتمل: أن يكون يزداد له في أمره بصيرة، وعلى^(١) ما رغب فيه إقبالاً، ولحوقه مراعاة؛ فيكون في ذلك زيادة في قوته أو في نوره، أو بزيته وتماحه، وذلك أمر معروف. ويحتمل: أن يكون ذلك داع إلى محافظة حقوق، والتمسك بأدلتها، والوفاء بشرائطها؛ فيزيد ذلك فضله؛ كما عدت صلاة واحدة في التحقيق ألفاً؛ بما في ذلك من حفظ الحقوق ومراعاتها، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾:

فزعوا إلى الله - تعالى - بما رأوا من صدق وعد رسول الله ﷺ لهم وظهور كذب قول المنافقين: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ...﴾ الآية، أو قالوا ذلك عند قول المنافقين إياهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾؛ فوضوا أمرهم [إلى الله تعالى]^(٢)، وسلموا لما رأوا النصر منه؛ رضاء منهم بكل ما يصيبهم، كقوله - عز وجل -: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]: مدحهم الله - عز وجل - بما رأوا أنفسهم لله؛ فكذاك هذا.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: ذو من عظيم، يدفع المشركين عن المؤمنين.

وقوله - عز وجل -: ﴿فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَيْهِ وَفَضْلٍ﴾.

يحتمل النعمة: [نعمة الدين]^(٣)، على ما ذكرنا.

(١) في ب: على.

(٢) بدل ما بين المعقوفين في ب: إليه.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ب.

وقيل: انقلبوا بنصر من الله والغنيمة، ويحتمل: النعمة من الله: الأمن من العدو؛ لأن المنافقين كانوا يخوفونهم بقولهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾، ويحتمل: النعمة: الجنة، وفضل الزيادة على ذلك.

وقيل: انصرفوا بأجر من الله وفضل، وهو ما تشوقوا به من الشوق^(١):
﴿لَمْ يَمَسَّهِنَّ سَوَاءٌ﴾
ولا قتل، ولا هزيمة.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾
أي: اتبعوا العمل الذي به رضوان الله، ورضاء رسوله ﷺ.
وقيل: اتبعوا طاعته ورضاه.

ويحتمل قوله: ﴿بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: الزيادة في الإيمان، وهو الصلابة والقوة فيه.
وقوله: ﴿لَمْ يَمَسَّهِنَّ سَوَاءٌ﴾: مما كانوا يخوفونهم بقوله: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾.

ويحتمل قوله - تعالى -: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، أي: رجعوا بمحمد، ﷺ.
وقوله - عز وجل -: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا﴾
يخوف أوليائه وأعداءه، لكن أعداءه لا يخافونه، وأوليائه يخافونه؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١]: ومن لم يتبع، لكن من اتبع الذكر كان يقبل إنذاره، ومن لم يتبع الذكر لا؛ وإلا [فإنه] كان ينذر الفريقين جميعاً؛ فعلى ذلك الشيطان كان يخوف أوليائه وأعداءه جميعاً، لكن أعداءه لا يخافونه، وأوليائه يخافونه.
ويحتمل قوله: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُمْ﴾، أي: بأوليائه، وجائز هذا في الكلام؛ كقوله: ﴿وَنُذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ [الشورى: ٧]، أي: بيوم الجمع؛ ألا ترى أنه قال: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِكُفَّارٍ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجْدِلُوهُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]؛ فعلى ذلك قوله: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُمْ﴾، أي: بأوليائه، والله أعلم.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: يخوفكم أوليائه^(٢)، وهذا يؤيد تأويل من يتأول: يخوف بأوليائه، والله أعلم.

(١) أخرجه ابن جرير (٤١٤/٧)، (٤١٥)، (٨٢٥١)، (٨٢٥٢) عن مجاهد، وعن السدي بمعناه: أخرجه ابن جرير (٤١٥/٧)، (٨٢٥٥).

(٢) أخرجه ابن جرير (٤١٦/٧)، (٨٢٥٨)، وعن ابن إسحاق: أخرجه ابن جرير (٤١٦/٧)، (٨٢٥٩)، وعن سالم الألفطس (٤١٦/٧)، (٨٢٦٠).

وقوله - عز وجل - : ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾

أي: لا تخافوه لمخالفتكم إياه، ﴿وَخَافُوا﴾، أي: خافوا مخالفتكم أمري؛ كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمْ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠] أخبر أن ليس له سلطان على الذين آمنوا؛ إنما سلطانه على الذين يتولونه؛ لذلك قال: لا تخافوه؛ لما ليس له عليكم سلطان، وخافون؛ لما [لى] (١)

عليكم سلطان، وبالله العصمة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٧) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنََّّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١٧٨)

وقوله - عز وجل - : ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾

يحتمل الآية وجهين:

يحتمل: ولا يحزنك الذين ظاهروا غيرهم من المشركين عليكم، وقد ظاهر (٢) أهل مكة غيرهم من المشركين على رسول الله ﷺ فيقول الله لرسوله: ﴿وَلَا يَحْزَنَكَ﴾ مظاهرتهم عليك؛ فإن الله ينصرك؛ فيخرج هذا مخرج البشارة له بالنصر على أعدائه والغلبة عليهم. ويحتمل - أيضًا - وجهًا آخر: وهو أن رسول الله ﷺ كان يشتد عليه كفرهم بالله، ويحزن لذلك، كقوله - تعالى - : ﴿لَمَّا كَبُحَ ثَمُودُ أَنَّهُمْ أَكْفَرُوا بِآيَاتِهِ لَنَافٍ لَهُمْ نَادُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الشعراء: ٣]؛ فيخرج قوله: ﴿وَلَا يَحْزَنَكَ﴾ مخرج تشكين الحزن، ودفعه عنه، والتسلي عن ذلك، لا مخرج النهي (٣)؛ إذ الحزن يأخذ الإنسان، ويأتيه من غير تكلف ولا صنع، وكقوله - تعالى - : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ لَعِنٌ﴾ [التوبة: ٤٠]؛ هو على مخرج التسكين والدفع عنه، لا على النهي؛ فكذلك الأول - والله أعلم - وكقوله - تعالى - لأم موسى - عليه السلام - : ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ [القصص: ٧].

وقوله - عز وجل - : ﴿إِنَّهُمْ لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ :

(١) سقط من ب.

(٢) في ب: ظاهروا.

(٣) وقال القرطبي: هؤلاء قوم أسلموا ثم ارتدوا خوفًا من المشركين؛ فاغتم النبي ﷺ فأنزل الله - عز وجل - : ﴿وَلَا يَحْزَنَكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [آل عمران: ١٧٦] وقال الكلبي: يعني به المنافقين ورؤساء اليهود؛ كتموا صفة النبي ﷺ في الكتاب؛ فتزلت. ينظر: تفسير القرطبي (٤/١٨١).

يحتمل قوله: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾، أي: لن يضرّوا أولياء الله - عز وجل - إنما ضرر ذلك عليهم، كقوله - تعالى -: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

ويحتمل: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾؛ لأنه ليس لله في فعلهم وعملهم نفع، ولا في ترك ذلك عليه ضرر؛ إنما المنفعة في عملهم لهم، والضرر في ترك عملهم عليهم، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ﴾:

هذه الآية تنقض على المعتزلة قولهم؛ لأن الله - تعالى - يقول: أراد ألا يجعل لهم في الآخرة حطًّا؛ والمعتزلة يقولون: بل أراد أن يجعل لهم حطًّا في الآخرة؛ إذ يقولون: أراد لهم الإيمان، وبالإيمان يكون لهم الحظ في الآخرة، فثبت بالآية أنه لم يكن أراد لهم الإيمان، والآية في قوم خاص علم الله - تعالى - أنهم لا يؤمنون أبدًا؛ فأراد ألا يجعل لهم حطًّا في الآخرة، ولو كان على ما تقوله المعتزلة: بأنه أراد أن يجعل لهم حطًّا في الآخرة - لما أراد لهم أن يؤمنوا، ولكن لم يؤمنوا لكان حاصل قولهم: أراد الله ألا يجعل لمن أراد يؤمن في الآخرة، وذلك جور عندهم، وبالله التوفيق.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾:

وذكر مرة: ﴿أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٧] ومرة: ﴿شَدِيدٌ﴾ [آل عمران: ٤]؛ لأن التعذيب بالنار أشد العذاب في الشاهد وأعظمه؛ لذلك أوعد بها في الغائب، وجعل شرايبهم وطعامهم ولباسهم منها، فنعوذ بالله من ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾:

قد ذكرنا تأويل هذا فيما تقدم.

﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾

ما ذكرنا أنه على الوجهين اللذين وصفتهما، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنْفُسِهِمْ﴾ الآية:

اختلف في قراءتها، قرأ بعضهم بالياء:

وبعضهم بالتاء^(١): فمن قرأ بالتاء صرف الخطاب إلى رسول الله ﷺ، فقال: لا

تحسبن يا محمد أنما نملي لهم خير لهم؛ إنما نملي لهم ليزدادوا شرًا.

(١) قرأ الجمهور بالغيبة، وقرأ حمزة بالخطاب. ينظر: الحجة لأبي زرة (٣/١٠١)، حجة القراءات (١٨٢)، السبعة (٢١٩، ٢٢٠)، الإتحاف (١/٤٩٥)، اللباب (٦/٦٨).

ومن قرأ بالياء: صرف الخطاب إلى الكفرة، فقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ﴾ يكون خيراً لهم؛ بل إنما نملي لهم ليكون شراً وإثماً لهم؛ فالآية على المعتزلة، لكنهم تأولوا بوجهين:

أحدهما: على التقديم والتأخير؛ كأنه قال: «ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم ليزدادوا إثماً؛ إنما نملي لهم خير لأنفسهم»؛ فيقال [لهم]^(١): لو جاز جعل الآية وصرفها على ما حملتم عليه وصرفتم إليه، جاز حمل جميع الآيات التي فيها وعد للمؤمنين، وصرفها إلى الكافرين، وما كان فيها وعيد للكافرين إلى المؤمنين؛ إذ لا فرق بين هذا وجعلكم الخير مكان الإثم، والإثم مكان الخير، وبين جعل الوعد في موضع الوعيد، والوعيد في موضع الوعد.

والوجه الثاني: قالوا: أخبر الله - تعالى - عما يثول أمرهم في العاقبة، لا أن كان في الابتداء كذلك؛ كقوله - تعالى - : ﴿فَالْفَظَةُ ۚ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، ومعلوم أنهم لم يلتقطوا ليكون لهم عدوًّا وحزناً؛ ولكن إخبار عما آل أمره في العاقبة أن صار لهم عدوًّا وحزناً؛ وكذلك يقال للرجل: سرقت لتقطع، وقتلت لتقتل، وهو لم يسرق ليقطع، ولا قتل ليقتل؛ ولكن إخبار عما آل أمره وحاله في العاقبة؛ فكذا هذا، لكن الإخبار عما يثول الأمر يخرج مخرج التنبيه عن السهو والغفلة في الابتداء، فالحمد لله - سبحانه وتعالى - يتعالى عن ذلك؛ فخرج ذلك مخرج التحقيق في الابتداء، لا مخرج الإخبار عما يثول الأمر في العاقبة، وبالله التوفيق.

والثاني: أن من أراد أمراً يعلم أنه لا يكون فهو لجهل يريد ذلك أو لعبث، فالحمد لله - سبحانه - يتعالى عن الجهل بالعواقب، أو العبث في الفعل؛ دل أنه كان على ما أراد، لا ما لم يرد، ولو كان الله - سبحانه وتعالى - لا يفعل بخلقه إلا ما هو أصلح لهم في الدين وأخير - لم يكن لنهي رسول الله ﷺ عن الإعجاب بما أعطى الكفرة من الأموال والأولاد بقوله - سبحانه وتعالى - : ﴿فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ ... ﴿[التوبة: ٥٥] الآية؛ دل أنه قد يعطى ما ليس [هو]^(٢) بأصلح في الدين ولا أخير، والله أعلم.

وقال الشيخ - رحمه الله - : في قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾، وقوله - تعالى - : ﴿فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّهُ يَرْيَدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ ... ﴿[التوبة: ٥٥]، وقوله - تعالى - : ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمَلِّيهِمْ مِنْ

(١) سقط من ب.

(٢) سقط من ب.

مَالٍ وَبَيْنَ . شَارِعُ هُمْ فِي الْحَيَرَةِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ [المؤمنون : ٥٥ - ٥٦] ونحو ذلك من الآيات - فيها وجهان على المعتزلة:

أحدهما: قولهم في الأصلح: إن الله - تعالى - لو فعل بالخلق شيئاً غيره أصلح لهم في الدين في حال المحنة - كان ذلك جوراً، ومعلوم أن الفعل بهم؛ ليزدادوا إثماً لا يبلغ في الصلاح في الدين الفعل بهم؛ ليزدادوا به بؤراً، ومعلوم أنه لو كان كذلك لم يكن ليجوز أن يحذر رسوله ﷺ عن ذلك، فيقول: لا يعجبك كذا؛ فكأنه قال: لا يعجبك الذي هو صلاح في الدين، ثم يؤكد ذلك بأنه جعل لهم ذلك ليعذبهم بها، ثم شهد على من حسب ما حسبه المعتزلة بأنهم لا يشعرون؛ فكان ذلك شهادة منه - عز وجل - على كل من وافق رأيه رأي أولئك الكفرة: أنهم لا يشعرون، ومعلوم أن الجبابة والفراغة لو لم يجعل الله - تعالى - لهم تلك الحواشي والملك والقوة لم يكن ليجترئوا على دعوى الربوبية، ويبلغوا في المآثم ما بلغوا؛ فيكون فوت ذلك أصلح لهم في الدين، وقد قال الله - تعالى -: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ...﴾ الآية [الزخرف: ٣٣]، ثم كان معلوماً أنه إذا كان بما يجعل ذلك للكفرة يكفرون، فلو جعل للمؤمنين يؤمنون، ثم لم يجعل كذلك، [والله أعلم]^(١). وأيد ذلك قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا...﴾ الآية [التوبة: ٥٥].

والثاني: أن الإرادة إذ هي صفة لكل فاعل مختار في الحقيقة، وقد أخبر لأي وجه أعطى؛ ثبت أنه أراد ذلك مع ما كان المتعالم من فعل كل أحد لا يخرج على ما أراه ولا يبلغ به ما لو فعل أنه يكون على جهل أو سفه.

فالأول: يكون فعله على ظن أن يكون ذلك فلا يكون.

والثاني: إذا علم ألا يكون؛ فيكون له به عابثاً سفيهاً، جلّ الله - تعالى - عن الوجهين؛ ثبت أن فعله لما علم أنه يكون لا لغيره ليلحقه به وصف جهل أو سفه؛ وبهما سقوط الربوبية.

ثم وجهت المعتزلة الآية إلى وجهين:

أحدهما: على التقديم والتأخير بمعنى: ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم ليزدادوا إثماً إنما نملي خيراً لأنفسهم. وذلك فاسد لوجهين:

أحدهما: لو كان جعل الخير شراً والشرّ خيراً بالتأويل، وصرف الآية عن سياقها ونظمها - لجاز ذلك في كل وعد ووعد، وأمر ونهي، وتحليل وتحريم؛ فيصير كل أمور

(١) ما بين المعقوفين سقط من ب.

الدنيا مقلوبًا.

والثاني: أنه لو كان كذلك لكان يجب أن يعجب به رسول الله ﷺ؛ إذ على كل ذلك معجبًا، ولكانوا فيما حسبوا أن ذلك ضرر لهم - يشعرون، لا ألا يشعرون، مع ما قيل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء في بعض القراءة، ومتى كان يحسب الكفرة ذلك شرًا حتى يعاتبوا على الحسبان؟! والله الموفق.

والثاني: قالوا ذلك خبر عما يثول الأمر إليه؛ كقوله - تعالى -: ﴿فَالنَّفْطَةُ ۚ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، وهم لا لذلك^(١) التقطوا، وكمن يقول للسارق: سرت لتقطع يدك، وكما يقال: [من الوافر]

... .. لدوا للموت وابنوا للخراب^(٢)

والذي قالوه إنما هو تنبيه وإيقاظ لقوم لا يذكرون عواقب الأمور، فيحرصون عليها عن غفلة بالعواقب، فأما الله - سبحانه وتعالى - فمحال أن يكون أمره على ذلك ليكون فيما يذكره ذلك؛ ألا ترى أن أحدًا لا يقول: ولدت للموت، أو بنيث للخراب؛ لأنه لا لذلك يفعل، وإن كان إليه يثول، وإنما هو قول الواعظ لهم بما ذكرت؛ كذلك بطل هذا رأي قوم فرعون لم يقل: ليكون لهم عندهم؛ إنما هو ليكون لهم عند الله تعالى، وبما أراد الله، وكان كذلك، ولا قوة إلا بالله.

وقد بينا ما في الحكمة تحقيقه من طريق الاعتبار - ولا قوة إلا بالله - والأصل في ذلك أن الله - تعالى - عالم بمن يؤثر عداوته ويعاند آياته، فأرادته ألا يكون منه ذلك حاجة إليه في موالاته، أو إيجاب غلبة عليه في بعض ما يريد، جل الله عن هذا الوصف.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُلُونَهَا وَتَقْتُلُوا فَلََكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٩)

وقوله - عز وجل -: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾:

(١) في ب: كذلك.

(٢) هذا عجز بيت وصدرة:

له ملك ينادي كل يوم
وهو للإمام على. ينظر في: ديوانه ص(٣٨)، خزائن الأدب للبغدادي (٥٢٩/٩) ويسب لأبي العتاهية.

قيل فيه بوجه :

قيل : لا يترك الله المؤمنين على ما أنتم عليه أيها المنافقون ؛ ولكن يمتحنكم بالجهاد وبأنواع المحن ؛ ليظهر المنافق لهم من المؤمنين^(١) .

وقيل : ليظهر الكافر لهم من المؤمنين المصدق^(٢) .

وقيل فيه بوجه آخر : وذلك أن المنافقين كانوا يطعنون لأصحاب رسول الله ﷺ ويستهزئون بهم سراً ؛ فقال الله - عز وجل - : لا يدع المؤمنين على ما أنتم عليه من الطعن فيهم ، والاستهزاء بهم ؛ ولكن يمتحنكم بأنواع المحن ؛ لتفتضحوا وليظهر نفاقكم عندهم . ويحتمل وجهاً آخر : وهو أن قوله : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ ، أي : لا يدع المؤمنين على ما أنتم عليه من النفاق والكفر في دار واحدة ؛ ولكن يجعل لكم داراً أخرى يميز فيها الخبيث من الطيب . [يجعل الخبيث في النار ، والطيب في الجنة ؛ كقوله - عز وجل - : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾^(٣) وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ ﴾ الآية [الأنفال : ٣٧] . وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ :

قيل فيه بوجهين :

قيل : إنهم كانوا يقولون : لا نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي الأنبياء ؛ كقولهم : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ؛ ومثل قوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ﴾ [المدثر : ٥٢] ؛ فعلى ذلك قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ إلا من اجتباة لوحيه ، وجعله موضعاً لرسالته ، أي : لا يجعلكم رسلاً ؛ إذ علم الغيب آية من آيات رسالته ، والله أعلم .

وقيل : إن الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء ، فيسترقون ؛ فيأتون بأخبارها إلى الكهنة قبل أن يبعث رسول الله ﷺ ، ثم إن الكهنة يخبرون بها غيرهم من الكفرة ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ : بعدما بعث رسول الله ﷺ نبياً ، كما كنتم تطلعون على أخبار السماء قبل بعثه .

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَخْتَصِي بِرُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾

أي : يصطفي من يشاء ، فيجعله رسولاً ، فيوحي إليه ذلك ، أي : ليس الوحي من

(١) أخرجه ابن جرير (٤٢٤/٧ ، ٤٢٥) (٨٢٦٨) عن مجاهد وعن ابن جريج (٤٢٥/٧) (٨٢٦٩) .

(٢) قاله بنحوه قتادة ، أخرجه عنه ابن جرير (٤٢٥/٧) (٨٢٧٢) ، وكذا قاله السدي ، أخرجه أيضاً ابن جرير (٨٢٧٣) .

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ب .

السما إلى غير الأنبياء، عليهم السلام.

ويحتمل قوله - تعالى - : ﴿يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، أي: لا يُطْلَعُ أَحَدًا مِنْكُمْ عَلَى الغيب إلا من اجتبه منكم لرسالته.

ويحتمل [قوله] ^(١): ﴿يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، أي: لا ينسخ شرائعه وأحكامه برسول آخر؛ نحو ما بين موسى إلى عيسى - عليهما السلام - ولكنه إن كان فيما بينهما نبي لم يجعل له أحكامًا سوى أحكام موسى - عليه السلام - أبقى تلك الأحكام والشرائع؛ وكذلك ما بين عيسى إلى محمد - عليهما الصلاة والسلام - فاجتبي هؤلاء؛ لإبقاء شرائعهم وأحكامهم، والله أعلم.

وقوله - عز وجل - : ﴿فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ :

ظاهر

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ : برسله كلهم.

﴿وَتَقُوا﴾ : المعاصي.

﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

ويحتمل: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا وَتَقُوا﴾ الشرك [فلكم أجر عظيم] ^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيرِثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٨٠) لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُونُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢)

(١) سقط من ب.

(٢) بدل ما بين المعقوفين في ب: كذا، اختلفوا: من المخاطب بالآية؟ على أقوال: فقال ابن عباس والضحاك ومقاتل والكلبي وأكثر المفسرين: الخطاب للكفار والمنافقين: أي ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق وعداوة النبي ﷺ.

وقيل: هو خطاب للمشركين، والمراد بالمؤمنين في قوله ﴿لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٩] - من في الأصلاب والأرحام ممن يؤمن، أي: ما كان الله ليذر أولادكم الذين حكم لهم بالإيمان على ما أنتم عليه من الشرك حتى يفرق بينكم وبينهم، وعلى هذا: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٩] كلام مستأنف. وهو قول ابن عباس وأكثر المفسرين.

وقيل: الخطاب للمؤمنين، أي: وما كان الله ليذكركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من اختلاط المؤمن بالمنافق حتى يميز بينكم بالحنة والتكليف؛ فتعرفوا المنافق الخبيث والمؤمن الطيب. وقد ميز يوم أحد بين الفريقين. وهذا قول أكثر أهل المعاني. أفاده القرطبي في تفسيره (١٨٤/٤).

وقوله - عز وجل - : ﴿وَلَا يَحْصِبَنَّ الَّذِينَ﴾

أوتوا العلم بالكتاب أن ما يؤتون من المال، وينالون من النيل بكتمان بعث محمد ﷺ وصفته وتحريفهما - أن ذلك^(١) خير لهم.

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾

في الدنيا والآخرة، ولو لم يكتنوا كان خيرا لهم في الدنيا ذكرا وشرقا، وفي الآخرة ثوابا وجزاء.

وقيل: نزلت في مانعي الزكاة؛ بخلا منهم وشحا^(٢)؛ فذلك وعيد لهم. والأول أشبه، والله أعلم. وإن كان في الزكاة - قيل: الجحود بها؛ كقوله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٧].

وقوله - عز وجل - : ﴿سَيُطَوَّفُونَ مَا جَلُّوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾:

فإن كان على التأويل الأول من كتمان نعتة وصفته؛ فهو - والله أعلم - يطوق ذلك في عنقه يوم القيامة؛ ليعرفه كل أحد؛ كقوله - عز وجل - : ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣].

وإن كان على التأويل الثاني - قيل: إن الزكاة التي منعها تصير حية ذكرا شجاعا أقرع ذو ذنبتين، يعنى: نابين؛ فيطوق بها في عنقه، فتنهشه بنابيه؛ فيتقيها بذراعيه، حتى يقضي بين الناس، فلا يزال معه حتى يساق إلى النار^(٣)، والله أعلم.

وقوله - عز وجل - : ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

في الآية دلالة أن أهل السموات يموتون، ليس على ما يقوله القرامطة: إنهم لا يموتون؛ لأنه أخبر أن له ميراث السموات والأرض، والوارث هو الذي يخلف المورث؛ دل أنه ما ذكرنا، وإن كانوا هم وجميع ما في أيديهم لله - عز وجل - ملكا له وعبيدا؛ ألا ترى أنه روي في الخبر: «لَا يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ، وَلَا الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، إِلَّا الْمَوْلَى مِنْ عَبْدِهِ»^(٤) سمي ما يكون للمولى من عبده ميراثا، وإن كان العبد وما في يده ملكا للمولى:

(١) بدل ما بين المعقوفين في ب: «ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو».

(٢) أخرجه ابن جرير (٤٣٢/٧) (٨٢٧٨) عن السدي، وذكره السيوطي في الدر (١٨٤/٢)، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي.

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٩/٢، ٣٥٥)، والبخاري (١٤٠٣)، والنسائي (٣٩/٥)، وابن خزيمة (٢٢٥٤) من حديث أبي هريرة مرفوعا: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني: شديقه - ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْصِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ...﴾ [آل عمران: ١٨٠] الآية.

(٤) أخرجه البخاري (٥٤٢/١٣): كتاب الفرائض: باب لا يرث المسلم الكفار (٦٧٦٤)، ومسلم (٣/ =

فعلى ذلك الأول: سمى الله - عز وجل - ذلك ميراثاً له، وإن كان عبده وما في أيديهم ملكاً له، والله أعلم.

قال الشيخ - رحمه الله - : [وقوله - تعالى^(١)]: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: وكانت له لا بحق الميراث؛ لوجهين:

أحدهما: على الإخبار عن ذهاب أهلها، وبقائه - عز وجل - دائماً؛ إذ ذلك وصف الموارث أن تكون لمن له البقاء بعد فناء من تقدم، والله - عز وجل - هو الباقي بعد فناء الكل، مما^(٢) يجوز القول بما هو له في الحقيقة من قبله بالميراث؛ من حيث مَلَكَ غيره الانتفاع بذلك؛ وعلى ذلك المروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ، وَلَا الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، إِلَّا الْمَوْلَى مِنْ عَبْدِهِ»^(٣)، وليس ذلك في الحقيقة ميراثاً، إذ كان له في حال حياته؛ ولكن كان ولاية الانتفاع به فزال؛ وعلى مثل هذا وراثة المسلمين الجنة، لا على انتقال من غيرهم إليهم، ولكن على بقائهم فيها، وحصول أمرها لهم، أو على وراثة ما لو كان من لم يؤمن آمن، وما ادعوا أنها لهم بقولهم: ﴿كَانَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانً﴾ [البقرة: ١١١]، فصارت ميراثاً لغيرهم ما ادعوا أنها لهم، والله أعلم.

والثاني: أن يعلم كل بالموت حقيقتها أنها له فأضيفت إليه بالميراث عنهم؛ كما قال - تعالى -: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١]، ﴿وَالِئِنَّ الْمَصِيرَ﴾ [المائدة: ١٨]، والمرجع ونحو ذلك من غير غيبة عنه، ولكن ما يعلم كل إذ ذاك ذلك؛ وكذلك قوله - عز وجل -: ﴿وَالْأَمْرُ يُؤَيَّزُ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، وهو في الحقيقة كل يوم له، ولا قوة إلا بالله.

وفي الذكر والإخبار أنها له ميراث - تحريض على الإنفاق والتزود؛ إذ هي في الحقيقة لغير أهلها؛ وإنما لهم ما ينفقون ويتزودون دون ما يمسكون، وفيه منع الإمساك؛ وذلك كقوله - تعالى -: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية [الحديد: ١٠].

= (١٢٣٣): كتاب الفرائض (١٦١٤)، وأحمد في المسند (٢٠٠/٥)، وأبو داود (١٤٠/٣): كتاب الفرائض: باب هل يرث المسلم الكافر (٢٩٠٩)، والترمذي في سننه (٦٠٩/٣، ٦١٠) في كتاب الفرائض: باب ما جاء في إبطال الميراث بين المسلم والكافر (٢١٠٧)، من حديث أسامة بن زيد مرفوعاً: «لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر».

(١) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٢) في ب: مع ما.

(٣) تقدم في الحديث السابق.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: وعيد منه - عز وجل - إياهم.

وقوله - عز وجل - : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾: قيل: لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ الآية [البقرة: ٢٤٥]، قالت اليهود: ربكم يستقرض منكم ونحن أغنياء^(١). وليس في الآية بيان أن ذلك القول إنما قاله اليهود أو غيرهم من الكفرة، ولكن فيه أنهم قالوا ذلك؛ فلا ندري من قال ذلك، ولا يجوز أن يشار إلى أحد بعينه إلا ببيان، ثم يحتمل ذلك القول منهم وجوها:

يحتمل أن يكون قال ذلك أوائلهم؛ على ما قال في قتل الأنبياء - عليهم السلام - وهؤلاء لم يقتلوا؛ ولكن إنما قتلهم أوائلهم، أضيف ذلك إليهم؛ رضاء منهم بصنيعهم؛ فعلى ذلك القول الذي قالوا يحتمل ما ذكرنا.

ويحتمل أن يكون هؤلاء قالوا ذلك بحضرة أصحاب رسول الله ﷺ وبمشهدهم، أو قالوا ذلك في سر.

فإن قال ذلك أوائلهم؛ فإنه يحتمل وجهين:

يحتمل أن يكون الله - تعالى - أعلم ذلك رسول الله ﷺ؛ تصبيراً منه إياه وتسكيناً؛ ليصبر على أذى الكفار؛ حيث قالوا في الله ما قالوا فكيف فيه؟! [والله أعلم ويحتمل أن يكون ذلك ليكون [ذلك]^(٢) آية من آيات رسالته.

وإن كانوا قالوا ذلك بحضرة أصحابه ﷺ؛ ففيه - أيضاً - وجهان:

أحدهما: ما ذكرنا من التسكين والتصبير على أذاهم.

والثاني: ليعلموا أن جميع ما يقولون محفوظ عليهم، ليس بغائب عنه، ولا غافل عنه؛ كقوله - تعالى - : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ...﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢]، لكنه يؤخر ذلك إلى وقت.

وإن كانوا قالوا ذلك سراً؛ ففيه - أيضاً - وجهان:

أحدهما: ما ذكرنا أن يكون آية من آيات النبوة^(٣)؛ ليعلموا أنه إنما علم ذلك بالله، على علم منهم أنه لم يكن فيما بينهم من يُنهي الخبر إليه.

والثاني: خرج على التعزية له والتصبير على أذاهم.

(١) أخرجه ابن جرير (٤٤٣/٧، ٤٤٤) (٨٣٠١، ٨٣٠٠) عن ابن عباس، و(٨٣٠٥)، (٨٣٠٦) عن الحسن البصري وعن قتادة (٨٣٠٧)، (٨٣٠٨)، وذكره السيوطي في الدر (١٨٦/٢، ١٨٧) وزاد نسبه لابن أبي حاتم عن ابن عباس، وابن المنذر عن قتادة.

(٢) سقط من ب.

(٣) في ب: رسالته.

ثم معنى قوله - تعالى - : ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل : ٢٠]، و﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] - يحتمل وجهين:

أحدهما: لثلاثا يمنوا على الفقراء بما يتصدقون عليهم؛ إذ يعلمون أنه ليس بفقير ولا محتاج ليستقرض لفقره ولحاجته، وكل من أقرض آخر لا حاجة له في ذلك القرض ولا فقر؛ ولكن ليكون ماله عنده محفوظاً في الشاهد - فإنه لا يُمْنُ الْمُقْرِضُ عليه؛ بل تكون المنة للذي عنده القرض على الْمُقْرِضِ؛ حيث يحفظ ماله في السفاتج^(١)؛ فعلى ذلك المال الذي يقترضون ويتصدقون على الفقراء، يكون محفوظاً عند الله ليوم حاجتهم إليه؛ فلا منة تكون على الفقير، والله أعلم.

والثاني: إنباء عن جوده^(٢) وكرمه؛ لأن العبد وما في يده له، فلو أراد أن يأخذ جميع ما في يده لكان له ذلك، ثم يطلب منه ببدل يضاعف على ذلك.

والثالث: أن المولى في الشاهد إذا طلب [من عبده]^(٣) القرض؛ يكون في ذلك شرف للعبد وعظم؛ فعلى ذلك الله - تعالى - إذا طلب من عبده القرض، على علم منه في أنه غني بذاته، لا يجب أن يبخل عليه، وفي ذلك شرفه وعظمه، والله أعلم.

وقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾، قال أهل التفسير: قالت اليهود، وذلك تنبيه بصنيعهم وشدة سفههم؛ حتى زعموا أن يد الله مغلولة، لكن ليس في الآية بيان القائلين، ولا في النسبة إلى أحد تقع سوى خوف الكذب؛ لو لم يكن ذلك منه، لكنهم قالوه، والأغلب على مثله أن يكونوا قالوه سراً، يكون في إظهاره آية الرسالة، أو كانت الأوائل يقولون فيكون في ذلك ذلك؛ إذ لا يحتمل أن يُصْبَرَ لمثله: يقال بحضرة الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - إلا أن يكون في وقت أمرؤ بالكف؛ فيكون في ذلك بيان قدر طاعتهم لله، مع عظيم ما سمعوا من القول، وجملة ذلك أن في ذكر ذلك دعاء إلى الصبر على أذاهم وسوء قولهم؛ إذ هم مع تقبلهم في نعم الله - تعالى - وعلمهم بأنهم لم ينالوا خيراً إلا بالله - تعالى - اجترءوا عليه بمثل هذا القول، وبلغ عُتُوُّهُمْ هذا،

(١) السفاتج: جمع السفنجة: بضم السن وفتح التاء - فارسي معرب، وهي أن يعطي مالا لآخر، وللآخر مال في بلد المعطي، فيوفيه إياه ثم، فيستفيد أمن الطريق، وهي في الاصطلاح - قال العلامة ابن عابدين: إقراض لسقوط خطر الطريق.

وفي حاشية الدسوقي على الشرح الكبير: هي الكتاب الذي يرسله المقرض لوكيله ببلد؛ ليدفع للمقرض نظيره ما أخذه منه ببلده، وهي المسماة بالبوليصة، أي: الكمبيالة. ينظر: القاموس المحيط ص (١٧٧) (سفتج)، حاشية ابن عابدين (٢٩٥/٤)، حاشية الدسوقي (٣/٢٢٥).

(٢) في ب: وجوده.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ب.

والله - جل ثناؤه - مع قدرته وسلطانه يَحْلُمُ^(١) عنهم ليومٍ وعدهم فيه الجزاء؛ فمن ليس منه إليهم نعمة ولا تقدم عليهم منه كثير منة - أحق بالصبر لأذاهم، وإعراضٍ عن مكافأتهم؛ وعلى ذلك قوله - تعالى - ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ...﴾ الآية [الجاثية: ١٤]، وقال [الله تعالى لرسوله] ﷺ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]^(٣).

وقوله - عز وجل -: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾:

قيل: سنجزئهم جزاء ما قالوا^(٤)، وقيل: سنحفظ ما قالوا، وسنثبت، وسألزم^(٥)، كقوله - عز وجل -: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعُهُ فِي عُرْفِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]، والله أعلم. وقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾:

قد ذكرنا هذا فيما تقدم أنه يحتمل: إذ قتل أوائلهم؛ فأضيف إليهم لرضائهم بفعلهم؛ كقوله - تعالى - ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]؛ لرضاء بقتله^(٦).

(١) في ب: يحكم.

(٢) بدل ما بين المعقوفين في ب: لرسول الله.

(٣) قال الرازي: وأعلم أنه ليس في الآية تعيين هذا القاتل، إلا أن العلماء نسبوا هذا القول إلى اليهود واحتجوا عليه بوجوه:

أحدها: أن الله - تعالى - حكى عنهم أنهم قالوا: إن يد الله مغلولة، يعنون أنه بخيل بالعتاء، وذلك الجهل مناسب للجهل المذكور في الآية.

وثانيها: ما روي في الخبر أنهم تكلموا بذلك على ما رويناه في قصة أبي بكر. وثالثها: أن القول بالتشبيه غالب على اليهود، ومن قال بالتشبيه لا يمكنه إثبات كونه - تعالى - قادراً على كل المقدورات، وإذا عجز عن إثبات هذا الأصل عجز عن بيان أنه غني وليس بفقر. والوجه الرابع: أن موسى - عليه الصلاة والسلام - لما طلب منهم أن يوافقوه في مجاهدة الأعداء قالوا: ﴿فَآذِهِبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فموسى - عليه السلام - لما طلب منهم الجهاد بالنفس قالوا: لما كان الإله قادراً فأبيح حاجة به إلى جهادنا؟! وكذا ههنا؛ فإن محمداً - عليه الصلاة والسلام - لما طلب منهم الجهاد ببذل المال قالوا: لما كان الإله غنياً، فأبيح حاجة به إلى أموالنا؟! فكان إسنادهم هذه الشبهة إلى اليهود لاثقاً من هذا الوجه. وإن كان لا يتمتع أن يكون غيرهم من الجهال قد قال ذلك، والأظهر أنهم قالوه على سبيل الطعن في نبوة محمد ﷺ، يعني: لو صدق محمد في أن الإله يطلب المال من عبده لكان فقيراً، ولما كان ذلك محالاً ثبت أنه كاذب في هذا الإخبار، أو ذكره على سبيل الاستهزاء والسخرية. فاما أن يقول العاقل مثل هذا الكلام عن اعتقاد فهو بعيد.

ينظر: مفاتيح الغيب (٩٥/٩-٩٦).

(٤) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان ١٣٦/٣.

(٥) ينظر: السابق.

(٦) ينظر: ابن جرير (٤٤٦/٧)، والبحر المحيط لأبي حيان (١٣٦/٣)، والسيوطي في الدر (١٨٧/٢)، =

فإن قيل: ما الحكمة في قوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْآلِئِيَّاءَ يَغَيِّرُ حَقِّي﴾، والأنبياء - عليهم السلام - لا يرتكبون ما يجب به قتلهم؛ كقوله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ...﴾ الآية [الأحزاب: ٥٧]، أطلق القول فيه من غير ذكر اكتساب شيء يستوجب^(١) به ذلك، وشرط في المؤمنين اكتساب ما يستوجبون به؛ كقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَغَيِّرُ مَا اكْتَسَبُوا...﴾ الآية [الأحزاب: ٥٨]، فكيف ذكر ههنا - القتل بغير حق، وهم لا يكتسبون [ما]^(٢) يستوجبون به القتل؟! قيل: يحتمل قوله: بغير حق، أي: بغير حاجة؛ لأنهم كانوا يقتلون بلا منفعة تكون لهم في قتلهم؛ على ما قيل: إنهم كانوا يقتلون كذا كذا نبيًا، ثم يهيج لهم سوق^(٣)؛ فإذا كان كذلك يحتمل قوله: ﴿يَغَيِّرُ حَقِّي﴾، أي: بغير حاجة؛ كقول لوط - عليه السلام -: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فقالوا: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود ٧٨-٧٩]، أي: من حاجة، والله أعلم.

ويحتمل قوله - عز وجل -: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْآلِئِيَّاءَ﴾، أي: قصدوا قصد قتل رسول الله ﷺ؛ فكأن قد قتلوه، أو قتلوا أصحابه - رضي الله عنهم - فأضيف إليهم، والله أعلم. وقوله - عز وجل -: ﴿وَنَقُولُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: أي: المُحْرِق، وقد ذكرنا هذا.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيكُمْ﴾:

ذكر الأيدي؛ لما بالأيدي يقدم، وإن لم يكن هذا مقدمًا باليد في الحقيقة؛ وكذلك ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] لما باليد يكتسب، والله أعلم.

= وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم عن العلاء بن بدر، وقال القرطبي: أي: ونكتب قتلهم الأنبياء، أي: رضاؤهم بالقتل، والمراد: قتل أسلافهم الأنبياء؛ لكن لما رضوا بذلك صحت الإضافة إليهم. وحسن رجل عند الشعبي قتل عثمان - رضي الله عنه - فقال له الشعبي: شركت في دمه. فجعل الرضا بالقتل قتلا، رضي الله عنه.

(١) في ب: فيستوجب.

(٢) سقط من ب.

(٣) وقيل: إن قتلهم الأنبياء كان بغير حق في اعتقادهم أيضًا؛ فهو أبلغ في التشنيع عليهم. قاله القاسمي في محاسن التأويل (٧٣/٤).

وقد جاء الخبر عن رسول الله ﷺ أن بني إسرائيل قتلت ثلاثة وأربعين نبيًا من أول النهار في ساعة واحدة؛ فقام مائة رجل واثنا عشر رجلا من عباد بني إسرائيل، فأمرؤا من قتلهم بالمعروف ونهؤهم عن المنكر، فقتلوا جميعًا من آخر النهار في ذلك اليوم. أخرجه الطبري (٦٧٧٧)، والبراز كما في مجمع الزوائد (٢٧٢/٧) وفيه ممن لم أعرفه اثنان، قاله الهيثمي.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ لَآئِنَّا أَلَّا تُؤْمِرَ بِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِ يٰلَيْسَتَ وَيٰلَآذَىٰ قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَآءُوا يٰلَيْسَتَ وَالرُّبْرُ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾
وقوله - عز وجل - : ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ لَآئِنَّا أَلَّا تُؤْمِرَ بِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِنَا بِقُرْبَانٍ﴾ :

قيل : إنهم لما دعوا إلى الإسلام - يعنى : اليهود - قالوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ لَآئِنَّا أَلَّا تُؤْمِرَ بِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾^(١) ، وكان ذلك آية في بنى إسرائيل ؛ فسأل اليهود من : [نبينا]^(٢) محمد ﷺ ذلك .

وقيل : كان من قبلنا ، في الأمم الخالية ذلك ؛ فسألوا من رسول الله ﷺ ذلك^(٣) ، ولكن لم يكن القربان من آيات النبوة والرسالة إن كان ؛ فهو من آيات التقوى ؛ كقوله - عز وجل - : ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ يٰلَحَقَ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] كان القربان من آيات التقوى ؛ ألا ترى أنه قال : يا محمد ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِ يٰلَيْسَتَ وَيٰلَآذَىٰ قُلْتُمْ﴾ يعنى : القربان ؛ ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ﴾

أي : إن كان ذلك من آيات النبوة ، لم قتلتم الأنبياء الذين أتوا به ؟! أو لم قتل أوائلكم الأنبياء ؛ إذ أتوا بالقربان ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ﴾ : أنه من آيات النبوة ، أو ﴿إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ﴾ : أنه عهد إليكم ألا تؤمنوا به حتى يأتى بقربان ، والله أعلم .

وفي قوله - عز وجل - أيضاً : ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِ يٰلَيْسَتَ وَيٰلَآذَىٰ قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ﴾ - فهو ، والله أعلم ، ادَّعُوا أَنْ أُوَاطِلَهُمْ ادَّعُوا الَّذِي ذَكَرُوا مِنَ الْعَهْدِ ، وَهُمْ تَبِعُوا أَوْلَكَ ، فَعَرَفَهُمْ صُنْعٌ مِنْ بَدْعَوَاهُمْ اِحتجوا ؛ ليكون لهم فيه آية ، أما تكذيبهم بما اِحتجوا بوصية المتقدمين في ذلك ، فَبَطَلَ عذرهم ؛ إذ هم قتلوهم ؛ فلا يجوز تصديقهم على العهد الذي ادَّعوا وذلك صنيعهم ، أو يقولوا أنهم أُخْبِرُوا بالعهد من غير أن كان كذباً وباطلاً ؛ فبطل حجاجهم .

على أن في الآية : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] ، فجعل ذلك آية التَّقَى لا آية النبوة . والأصل فيه : أنا لما عرفنا آيات الرسل - عليهم السلام - لا يُذكر فيها

(١) ينظر : تفسير ابن جرير ٧/(٤٥٠) ، وتفسير الرازي ٩/(١٠٠) والسيوطي في الدر ٢/(١٨٨) وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي .

(٢) سقط من ب .

(٣) ينظر : الرازي ٩/(١٠٠) ، البحر المحيط ٣/(١٣٨) ، وذكره السيوطي في الدر ٢/(١٨٨) وعزاه لابن أبي حاتم عن قتادة .

القرابين؛ ثبت أن هذا الذي ادعوا ليس هو بعهد جاء به الرسل - عليهم السلام - ولكنه جيل السفهاء بتلقين الشياطين ووَخِيهِمْ؛ لذلك لم يجب الذي ذكروا، والله أعلم.

وقوله - عز وجل - : ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ :

يا محمد في القول، وما جئت من آيات تدل وتوضح أنك رسول الله، وأنت صادق في قولك

﴿فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾

يعزي نبيه - عليه الصلاة والسلام - ويصبره؛ ليصبر على أذاهم وتكذيبهم إياه؛ كما صبر أولئك على أذاهم وتكذيبهم؛ كقوله - عز وجل - : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْرِ مِنَ الرُّسُلِ...﴾ الآية [الأحقاف: ٣٥].

وفي قوله - تعالى - أيضاً - : ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وجوه: أحدها: أن يصبره على ذلك^(١) بما له فيه أجر أن صبروا، على عظم ذلك عليهم؛ وذلك قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْرِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

والثاني: على رفع العذر عنه في ترك الإبلاغ؛ فإن ذلك لم يمنع من تقدمه. والثالث: على الأنبياء أنهم أصحاب تقليد في التكذيب، لا أن يكذبوا من محنة وظهور؛ فذلك أقل للتأذي، ولتوهم الارتياح في الأنبياء؛ ليستيقن من حضره، وصدقه - أن ذلك منهم على الاعتناد والتقليد دون المحنة والظهور، والله أعلم.

وقوله - عز وجل - : ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ :

قد ذكرناها فيما تقدم في غير موضع.

وقوله - عز وجل - : ﴿وَالزُّبُرِ﴾ :

قيل: أحاديث الأنبياء - عليهم السلام - من قبلهم بالنبوة على ما يكون.

وقيل: الزبر: هي الكتب، أي: جاءوا بالبينات والزبر، يعني: الكتب.

﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ :

قيل: الزبر والكتاب واحد.

وقيل: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾: هو الذي فيه الحلال والحرام، والأحكام المكتوبة

عليهم. والمنير: هو الذي أنار قلب كل من تمسك بالهدى؛ كما قيل في الفرقان أنه يفصل ويفرق بين الحق والباطل، والله أعلم.

وتسمى كتب الله كلها فرقاناً ومنيراً؛ بما تفرق بين الحق والباطل، وتبين السبيلين

(١) في ب: وذلك في.

جميعاً، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾
وقوله - عز وجل - : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ :
فيه دلائل :

أحدها: دليل إثبات الرسالة؛ لأنه ليس في العقل ألا تبقى هذه الأنفس أبداً، ولا تدوم، ولا فيه آثار فنائها وموتها، ثم وجود العلم من كل منهم بالموت، والتسليم له، والإقرار منهم أن كل نفس تموت - يدل أنهم إنما عرفوا ذلك وأيقنوا به من خبر السماء بالوحي، والله أعلم.

ثم إن كل حي يتلذذ بحياته، وحُبب ذلك إليه، ويتكره الموت ويبغضه؛ دل أن هذا العالم لم يكن بالطباع، ولكن كان بغيره؛ لما يتلذذ طبع كل منهم بالحياة، ويتكره بالموت ويتنقص به؛ إذ لو كان به: لكان يختار ما يتلذذ به، ويدفع ما يتكره به؛ فدل أن غيراً فعلاً ذلك وخلق؛ لما ذكر: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ الآية [الملك: ٢]؛ وفي ذلك بطلان قول أصحاب الطبايع.

وأيضاً: أن كل نفس يجتمع فيها الطبايع المختلفة المتضادة، التي من طبعها التنافر - لم يجز أن يكون بنفسه تجتمع؛ دل أن له جامعاً. وأيضاً: إن كان العالم لو كان بنفسه وطبعه لا اختار كل لنفسه أحوالاً: أحسن الأحوال وألذها؛ فيبطل به الشرور والتبائع؛ فدل وجود ذلك على كونه بغيره. ثم فيه أن ذلك الغير - الذي كان به العالم - واحد لا عدد^(١)؛ إذ لو كان بعدد لم يحتمل وجود العالم على الطبايع المختلفة والهمم المتفرقة: لما جَمَعَ هذا فَرَّقَ الآخر، وما أثبت هذا نفي الآخر، وفي ذلك فساد الربوبية؛ فدل وجوده على ما ذكرنا: أنه واحد لا عدد؛ فانسق تدبيره ونفذ أمره، مع ما كان الأمر المعتاد بين الملوك في الشاهد: أن من فعل هذا نقض الآخر، وما رام هذا إيجاده يريد الآخر إعدائه، وما أبقى هذا أراد الآخر إفناءه؛ وفي ذلك تناقض وتناف؛ فدل الوجود على أن الذي به كان - واحد لا عدد، ثم يحتمل على الاصطلاح منهم؛ لأنه يدل على العجز والجهل: أن العجز والجهل هو الذي حملهم على الاصطلاح، والعاجز والجاهل لا يَضْلُح أن يكون إلهاً ورباً^(٢)، وبالله التوفيق.

(١) في ب: عدة.

(٢) في ب: ربا.

ثم الدلالة على حكمته وعلمه: ما لم يُعَايَنُ شَيْءٌ وَلَا يُشَاهَدُ إِلَّا وفيه حكمة عجيبة، ودلالة بديعة مما يَعْبُزُّ الحكماء عن إدراك مائته، وكيفية خروجه على ما خرج، وعلم كل أحد منهم بتصور علمه على ما عنده من الحكمة، والعلم عن إدراك كُنْهِ ذلك فيما ذكرنا، وخروج الفعل متقناً محكماً - دلالة حكمة مبدعه وخالقه، وبالله التوفيق.

ثم الدلالة أنه لم يخلق الخلق للفناء خاصة؛ ولكن خلق للعواقب: يتأمل ويرجى ويخاف ويحذر - خروج فعل كل أحد في الشاهد من الحكمة إذا بنى للفناء والنقض، فإذا كان الحكمة التي هي جزء يُخرج فعله عن الحكمة؛ إذا كان ذلك للفناء والهلاك خاصة، فخرج الكل عن ذلك لذلك أخرى وأولى أن يكون سفها لا حكمة، والله الموفق.

قال: دلت طمأنينة القلوب بموت كل نفس، وترك حكماء البشر الاحتيال - في دفعه، على ما ليس في الجوهر دليله، ولا في العقل امتناعه - أنه عرف ذلك بمن له التدبير فيها بالوحي إليه؛ وفي ذلك إيجاب القول بالرسول، ثم دل قهر جميع الحكماء به على حب الحياة إليهم، وبغض الموت عندهم - على خروج جميع الأحياء عن تدبيرهم، وفي خروجهم خروج الأموات؛ إذ هم تحت تدبير الأحياء.

ثم في طمأنينة كل قلب على الموت دلالة التدبير للواحد؛ إذ لو كان لأكثر لجوز التمانع وإبطال الوارد من الحي؛ وفي ذلك ارتياب، مع ما كانت كل نفس تحت أمور تقهرها، وتحوجها إلى أمور تعلم أن مدبرها هيأها على ذلك وطبعتها، وأنه العليم بما به صلاحها وقوامها وإليه حاجتها، وعلى ذلك جبلها؛ ليظهر عظيم حكمته وتعالیه عن الشرك في التدبير، أو المعونة في التقدير.

ثم لا يحتمل نشوء مثله على ما جرى عليه من حكمته في موت كُلٍّ - أنه كان للموت أنشأ لا لغير؛ إذ تدبير فعل واحد للفناء خاصة من حكماء البشر - يُخْرِجُ عن معنى الحكمة، ويدل على قصور صاحب ذلك وسفه؛ فجملة العالم الذي كانت حكمة الحكماء جزءاً منها، وعقل العقلاء بعضاً منها - أحق وأولى؛ فثبت أنها أُنْشِئَتْ ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [المطففين: ٥-٦]، ويوم تجزى كل نفس بما كسبت، وذلك قوله - تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ الآية.

وقوله - عز وجل - : ﴿وَلِئَمَا تَوْفِيقَاتٍ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾

لما ذكرنا أنهم لها خلقوا - أعنى^(١): الآخرة - للجزاء والثواب.

وقوله - عز وجل - : ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّكَارِ﴾:

(١) في ب: يعني.

قيل: بُعِدَ وَنُحِيَ عنها^(١).

﴿وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾:

قيل: فاز: نجا، وقيل: سَعِدَ^(٢)، وقيل: الفائز: السابق، وقيل: فاز: غنم.

وأصل الفوز: النجاة، أي: نجا مما يخاف ويحذر، ويظفر بما يتأمل ويرجو.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾: حياة الدنيا للدنيا غرور؛

كقوله - عز وجل -: ﴿أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠] حياة الدنيا للدنيا لعب ولهو وغرور، وللاخرة: ليست^(٣) بلعب

ولا لهو ولا غرور. وأصل الغرور: هو أن يتراءى الشيء في ظاهره حسناً مموهاً؛ يغتر بها كل ناظر إليها ظاهراً، فإذا نظر في باطنها وجدها قاتلة مهلكة، نعوذ بالله من الاغترار بها.

وقيل: الحياة الدنيا - على ما عند أولئك الكفرة - لعب ولهو، وعند المؤمنين حكمة.

قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ

قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ

وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ **لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَوْتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا**

بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَاقِرٍ مِنَ الْعَذَابِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

وقوله - عز وجل -: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾:

يحتمل الابتلاء في الأموال والأنفس: أن يُبْلَوْا بالنقصان فيها؛ كقوله - عز وجل -:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ...﴾ الآية [البقرة: ١٥٥].

ويحتمل: أن يُبْلَوْا بما جعل فيها من العبادات، [من نحو: الزكاة في الأموال

والصدقات والحقوق التي جعل فيها، وفي الأنفس: من العبادات]^(٤): من الصلاة

والجهاد والحج، وغيرها^(٥) من العبادات، والله أعلم^(٦).

وقوله - عز وجل -: ﴿لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾:

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٠٢/٩).

(٢) قاله ابن عباس، أخرجه عنه الطستي في مسائله، كما في الدر المنثور (١٨٨/٢).

(٣) في ب: ليس.

(٤) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٥) في ب: وغيرهما.

(٦) قال الرازي: قال القاضي: والظاهر يحتمل كل واحد من الأمرين؛ فلا يمتنع حمله عليهما.

ينظر: مفاتيح الغيب (١٠٤/٩).

يعني: الذين لهم علم بالكتاب ومن غيرهم.

﴿أَذَى كَثِيرًا﴾

[أي: تسمعون أنتم من هؤلاء أذى كثيرًا، على ما سمع إخوانكم الذين كانوا من قبلكم من أقوامهم أذى كثيرًا]^(١)؛ كقوله - عز وجل -: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

وقوله - عز وجل -: ﴿وَإِنْ نَصَرُوا﴾:

على أذاهم.

﴿وَتَتَّقُوا﴾:

مكافأتهم، على ما صبر أولئك واتفقوا مكافأتهم.

﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَذَابِ الْأُمُور﴾:

قيل: من خير الأمور؛ هذا يحتمل.

وقيل: ﴿وَلَسَّمْعٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾

من قولهم: عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله، ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، يعني: العرب،

﴿أَذَى كَثِيرًا﴾، يعني: نصب الحروب فيما بينهم، والقتال، والسب وغير ذلك،

﴿وَإِنْ نَصَرُوا﴾: على ذلك والطاعة له، ﴿وَتَتَّقُوا﴾: معاصي الرب، ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ

عَذَابِ الْأُمُور﴾:، يعني: من حزم الأمور.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾:

أي: الذين أوتوا العلم بالكتاب، وأخذ الميثاق؛ ليعينوا، أي: يُبَيِّنُوا للناس ما في

الكتاب من الأمر والنهي، وما يحل وما يحرم، وغير ذلك من الأحكام، ولا يكتموا ذلك.

ويحتمل: أن أخذ عليهم الميثاق: أن يُبَيِّنُوا للناس بعث محمد ﷺ وصفته، ولا تكتموه

بالتحريف وبترك البيان.

وقوله: ﴿فَتَبَدُّوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾

أي: لم يعملوا بما فيه، ولا بينوا للناس؛ فهو كالمنبوذ وراء ظهورهم.

﴿وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ الآية:

قد ذكرنا معناه في غير موضع^(٢).

(١) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٢) كما في تفسير قوله - تعالى -: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ﴾ الآية ٧٩ من سورة البقرة.

وعن علي - رضي الله عنه - قال: «ما أخذ الله ميثاقاً على أهل الجهل بطلب العلم، حتى أخذ ميثاقاً من أهل العلم ببيان العلم؛ لأن العلم كان قبل الجهل». وقوله - عز وجل - : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾:

قيل: بما غيروا من نعت محمد ﷺ وصفته في كتابهم وكنموه، وتبديلهم الكتاب، وإعجاب الناس ذلك وحمداهم عنى ذلك.

وقيل: إيا اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ، فقالوا: نحن نعرفك ونصدقك - وليس ذلك في قلوبهم - فلما خرجوا من عند [رسول الله] ﷺ^(١) قال لهم المسلمون: ما صنعتم؟ فيقولون: عرفناه وصدقناه؛ فيقول المسلمون: أحسستم، بارك الله فيكم: يحمدهم المسلمون على ما أظهروا من الإيمان، وهم يحبون أن يحمداوا على ذلك^(٢)؛ فذلك تأويل قوله: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾^(٣).

وقيل: إنهم قالوا: نحن أهل الكتاب الأول والعلم، وأهل الصلاة والزكاة. ولم يكونوا كذلك، وأحبوا أن يحمداوا على ذلك^(٤)، والله أعلم بالقصة^(٥).

وفي قوله - عز وجل أيضاً - : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا...﴾ الآية - دل ما ذم الله عباده، وأوعدهم عليه أليم عقابه فيما أحبوا الحمد على ما لم يفعلوا - على تعالى الرب عن قول المعتزلة في قولهم: ليس لله في الإيمان

(١) بدل ما بين المعقوفين في ب: النبي.

(٢) أخرجه أحمد (٢٩٨/١)، والبخاري (١٠٢/٩): كتاب التفسير: سورة آل عمران، باب «لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا» (٤٥٦٨) ومسلم (٢١٤٣/٤): كتاب صفات المنافقين، (٨ - ٢٧٧٨)، والترمذي (١١٣/٥): كتاب التفسير، باب (سورة آل عمران) (٣٠١٤) من حديث ابن عباس قال: «إنما دعا النبي ﷺ يهود، فسألهم عن شيء؛ فكنموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا من كتمانهم» الحديث.

(٣) قال بنحوه قتادة: أخرجه عنه ابن جرير الطبري (٤٧١/٧)، (٨٣٥٠، ٨٣٥١).

(٤) قال بنحوه ابن عباس: أخرجه ابن جرير الطبري (٤٦٨/٧) (٨٣٤٤).

(٥) وهناك سبب آخر لنزول هذه الآية؛ فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رجلاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمداوا بما لم يفعلوا؛ فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨]. أخرجه البخاري (١٠٢/٩) كتاب التفسير: باب «لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا»، (٤٥٦٧)، ومسلم (٢١٤٣/٤) كتاب صفات المنافقين، (٧-٢٧٧٧).

قال العلامة القاسمي: ولا منافاة بين الروايتين [حديث ابن عباس وحديث أبي سعيد]؛ لأن الآية عامة في جميع ما ذكر، ومعنى نزول الآية في ذلك: وقوعها بعد ذلك، لا أن أحد الأمرين كان سبباً لنزولها. ينظر: محاسن التأويل (٣٢٠/٤).

تدبير سوى الأمر، ولا ضنغ، وقد أحب أن يحمد عليه بقوله - عز وجل - : ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، وبقوله - عز وجل - : ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقوله - تعالى - : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ [النور: ١٠] في غير موضع من القرآن، ولا قوة إلا بالله.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨٩)
قال الله - تعالى - : ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ :

امتدح - جل ثناؤه - بإدخال كلية الأشياء تحت قدرته، وبه خوف من عائد نعمته، وأطمع من خضع له عظيم ثوابه؛ فلئن جاز إخراج شيء تحت القدرة عن قدرته، لاضمحل الخوف عما خوفه، والرجاء فيما أطمعه؛ إذ لم يظهر على ذلك قدرته إلا بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠]، وما لا صنع لأحد في شيء إلا بأقداره، ومحال أن يقدر على ما لا يقدر هو عليه، أو يزول به قدرته؛ لما فيه ما ذكرت؛ فلذلك قلنا في بطلان قول المعتزلة بإخراج أفعال صنع الخلق عن قدرة الله، وامتناعه عن تدبيره، ولا قوة إلا بالله.

قال الله - عز وجل - : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ إلى قوله - عز وجل - : ﴿لَا يَبْتَغِي لَدُولِي الْأَلْبَتَبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] :

نقول - وبالله نستعين - : أخبر الله - تعالى - أن فيما ذكر آيات لمن ذكر، ومعلوم أن الآيات إنما احتيج إليها لمعرفة أمور غابت عن الحواس، يوصل إليها بالتأمل والبحث عن الوجوه التي لها جعلت تلك الأشياء المحسوسة، التي يغني من له اللب دخولها تحت الحواس - عن تكلف العلم بها بالتدبير، بل علم الحواس هو علم الضرورات وأوائل علوم البشر الذي منه يرتقي إلى درجات العلوم؛ فيلزم طلب ذلك؛ فيبطل به قول من قال: العلوم كلها ضرورات لا تقع بالأسباب، ولا يلزم الخطاب دون تولى الرب إنشاء العلم في القلوب بحقيقه ما فيه الخطاب؛ إذ ذلك يرفع حق الطلب، ويستوفي فيه الموصوف باللب وغير الموصوف، والمتفكر في الأمر وغير المتفكر، وقد قال الله - تعالى - : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [آل عمران: ١٩١]، وفي ذلك دليل أن المقصود مما أظهر ليس هو ما أظهر، إذ لزم التفكير بالذي أظهر؛ ليوصل به إلى العلم بالذي له أنشأ الذي أظهر، ويعلم ما جعل في الذي دليله وعلمه، وهذا لكل أنواع العلوم أن منها ظاهراً مستغنيا بظهوره عن الطلب، وخفياً يطلب بما له في الذي ظهر من أثر ينبئ عنه التأمل^(١)،

والله أعلم.

وفي ذلك دليل لزوم التوحيد باللبّ؛ إذ صيرها آيات لمن له ذلك، وأوّل درجات الآيات أن يُعرَف منشئها وجاعلها آيات، والله أعلم.

ثم دلّ اتصال منافع السماء والأرض على تباعد ما بينهما، حتى قام بها وحي جميع من دب على وجه الأرض وانتفع بشيء، ثم في إيصال الليل بالنهار في منافع كل حي على تضادّ ما بينهما؛ حتى صارا كالشكيلين، والسماء والأرض كالقرينين - على أن منشئ ذلك كله واحد، وأنه لو اختلف الإنشاء لتناقض التدبير، وبطلَ وجوه النفع، وأن الذي أنشأ ذلك علم^(١) كيف يدبر لاتصال المنافع واجتماعها بغيرها^(٢)، على اختلاف ما بينهما، وأنه حكيم وضع كل شيء على ما لو تدبر الحكماء فيه - لم يكن يُعرَف اتصال أقرب في المنافع، على اختلاف في الجواهر، وتضاد في الأحوال - أبلغ من ذلك؛ بل تقصر حكمتهم عن الإحاطة بوجه الحكمة، أو الظفر بطرف منها، إلا بمعونة من دبر ذلك سبحانه، وذلك هو الدليل على قدرته وعلو سلطانه؛ إذ سخر ذلك كلها لبذل ما فيها من المنافع لمن جعلها له، وجعل لبعض على بعض سلطاناً وقهراً؛ ليُعَلِّم أن التدبير يرجع إلى غير ذلك، ويُعَلِّم أن من قَدَرَ على ذلك، وعلم قبل خلق المتنفعين بما خلق على أيّ تدبير [يخلق ذلك، وبأيّ وجه يصل كل خلق في ذلك إلى منفعته بها، وما الذي سوى معاشهم، وعلى أيّ تدبير]^(٣) دلهم عليه - لقادر على إعادة مثله، والزيادة منه على أنواع ذلك؛ إذ كل أمر له^(٤) حق الابتداء - كان ذلك أبعد عن التدبير مما له حق الاحتذاء بغيره أو الإعادة، مع ما كان في إعادة الليل والنهار، وجعل كُلّ من ذلك [كالذي]^(٥) مضى، وإن كان الذي مضى - مرة - دلالة كافية للبعث والقدرة عليه، والله الموفق.

ومنها: أنها جعلت على تدبير يُعرَف صَاحِبُهَا ومُنْشِئُهَا، وأنه دبرها على ما فيها من وجوه^(٦) الحكمة التي صارت الحكمة جزءاً منها، وفنون العلم التي تنال بالتأمل فيها، مما يوضح أن الذي أبرمها حكيم عليم، مع ما فيها من آثار الإحكام والإتقان الكافية في الإنشاء عن الإنشاء للحكمة، وأن الذي أبدع ذلك ليس بعابث ولا سفيه.

(١) في ب: علم علم.

(٢) في ب: لغيرها.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٤) في ب: له له.

(٥) سقط من ب.

(٦) في ب: وجود.

ثم معلوم أن الفعل للهلاك والفناء غير داخل في الحكمة؛ ثبت أن ذلك غير مقصود؛ فصار المقصود من ذلك وجهًا يبقى؛ فثبت أن مع هذه دارًا أخرى تبقى، فهي المقصود، وجعلت^(١) بحق الجزاء؛ وفي ذلك لزوم المحنة والقول بالرسالة؛ ليعلم بالوحي كيفية وجوه المحنة مع ما لم يخل شيء من أن يكون فيه آثار النعمة، من غير أن كان منه ما يستحق ذلك؛ فثبت أنه في حق الابتداء، ولازم شكر المنعم في العقول؛ فيجب به وجهان:

أحدهما: القول بالرسل؛ لبيان وجوه الشكر؛ إذ النعم مختلفة، وأصل الشكر يتفاضل على قدر المنعمين؛ وكذلك النعم تتفاضل على قدر تفاضل متوليها، لا بد من بيان ذلك ممن يعرف حقيقة مقادير النعم، وجلالة حق المنعم، وبالله التوفيق.

فكان فيها آيات الرسالة والتوحيد، وحكمته وقدرته وعلمه وجلاله عن الأشباه والشركاء، وبها جل عن احتمال الشرك في صنعه، أو الشبه في فعله على أن كَلَيْتَ كُلٌّ مَنْ سِوَاهُ تَحْتَ الْقُدْرَةِ، وهو المتعالي عن ذلك.

وفيه دلالة البعث؛ لما ذكرت، ولما إذ لزم الشكر بما ذكرت - لزمت عقوبة^(٢) الكفران، وقد يخرج المعروف به سليمًا غريقًا في النعم، وفي الحكمة والعقل عقوبته - لزم أن يكون ثم دارٌ أخرى، مع ما كان خلق الخلق، لا لمن يعرف الحكمة من السفه، والولاية من العداوة، والخير من الشر، والرغبة من الرهبة، لا معنى له بما فيه تضييع الحكمة، وجمع بين الذي حقه التفريق في الحكمة والعقل، وذلك آية السفه، ومحال كونه ممن الحكمة صفته والعدل نعتة؛ فلزم [به]^(٣) خلق الممتحن بالذي ذكرت؛ فصار جميع الخلائق للمحن.

ثم لا بد من ترغيب وترهيب؛ إذ على مثله جُبل محتملو المحن؛ فلزم به القول بالدار الأخرى، وهو البعث؛ ليكون إحداهما بحق ابتداء النعم، والأخرى: بحق استحقاق الجزاء، وإن كان لله التكليف بلا، جزاء سابق النعم، ولا قوة إلا بالله.

والمعاقبة واجبة في الحكمة للجفاء والكفران، وبالله التوفيق.

وقوله - عز وجل - : ﴿فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَارَءٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾

وقيل: [بمفازة، أي: بنجاة من العذاب^(٤)]، وهو ما ذكرنا من الفوز أنه نجاة على ما

(١) في ب: جعلت.

(٢) في ب: العقوبة.

(٣) سقط من ب.

(٤) قاله الضحاك: أخرجه عنه ابن المنذر كما في الدر المنثور (١٩٣/٢) وقاله أيضًا ابن زيد أخرجه عنه الطبري (٤٧٢/٧)، رقم (٨٣٥٣).

يخاف ويحذر، أي: ليسوا هم بنجاة^(١) من العذاب، بل لهم عذاب أليم.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

يشبه - والله أعلم - أن يكون هذا جواباً لقولهم: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاكُمْ﴾ أي: كيف جاز نسبة الفقر إليه والحاجة، وله ملك ما في السموات وما الأرض؟! ونسبة الغنى إلى أنفسكم، وأنتم عبيده وإماؤه، وما في يد العبد يكون لمولاه؟!.

أو أن^(٢) يكون جواباً لقولهم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦] أي: كيف يجوز أن يتخذ ولداً، وله ملك ما في السموات وما في الأرض، كلهم عبيده وإماؤه؟! والولد في الشاهد إنما يَتَّخِذُ لأحد وجوه ثلاثة: إما لوحشة أصابته فيستأنس به، أو لحاجة تبدو له فيُدْفَعُ به، أو لقهـر وغلبة^(٣) يخاف من عدوٍّ؛ فيستنصر به على أعدائه، ويرث^(٤) ملكه إذا مات. فإذا كان الله له ملك السموات والأرض وتعالى^(٥) عن أن يصيبه شيء من ذلك؛ كيف جاز لكم أن تقولوا: اتخذ ولداً؟! وإن كان الخلق كلهم عبيده وإماؤه، وأنتم لا تتخذون الأولاد من عبيدكم وإمائكم؛ كيف زعمتم أنه اتخذ ولداً من عبيده؟!^(٦).

وقوله - عز وجل -: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: وهذا على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: لا يقدر على خلق فعل العبد، وعلى قولهم: غير قادر على أكثر الأشياء، وهو قد أخبر أنه على كل شيء قدير.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠)
الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُوهِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ قِيَمًا عَذَابُ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَءَايِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾

(١) بدل ما بين المعقوفين في ب: ببعيد.

(٢) في ب: وأن.

(٣) في ب: غلبة.

(٤) في ب: يرث.

(٥) في ب: يتعالى.

(٦) وقيل: المعنى: لا تظنن الفرحين ينجون من العذاب؛ فإن لله كل شيء، وهم في قبضة القدير؛

فيكون معطوفاً على الكلام الأول، أي: إنهم لا ينجون من عذابه، يأخذهم متى شاء.

ينظر: تفسير القرطبي (٤/١٩٦).

وقوله - عز وجل - : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ :
في الآية وجوه .

أحدها : أنه خلق السموات والأرض للبشر ولمنافعهم ، لا أنه خلقهما لأنفسهما : لا منفعة لهما بخلقه إياهما ؛ حتى يكون خلقه لأنفسهما ؛ إذ خلق الشيء لا لمنفعة أحد أو للفناء خاصة - عبثٌ ، فإذا كان ما ذكرنا أنه لا منفعة لهما في خلقهما - دل أنه إنما خلقهما لمنافع البشر ، وسخرهما لهم ، ثم جعل منافع السماء مع بُغْدِها من الأرض متصلة بمنافع الأرض ؛ حتى لا تقوم منافع هذا إلا بمنافع الآخر ؛ فيصيرهما كالم متصلين ؛ لاتصال المنافع مع بعد ما بينهما ؛ فدل هذا أن الذي أنشأهما واحد .

وكذلك : ﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ : هما مختلفان : أحدهما ظلام والآخر نور ، يُفْنِيان الأعمار ويقربان الآجال ، وليس بينهما في رأي العين تشابُه ولا تشاكُل ؛ إذ أحدهما نور والآخر ظلام ، وهما متضادان ، لكن خلقهما لمنافع البشر ، والمقصود بخلقهم بنو آدم لا أنفسهم ، على ما ذكرنا أن لا منفعة لهم في خلقهم ، ثم صيّرهما مع اختلافهما وتضادهما كالشكليين ؛ لاتصال منافع بعضها ببعض ؛ دل أن منشئهما واحد ، وأنه عليم حكيم ؛ حيث جمع من المتضادين المختلفين وصيّرهما كالشكليين ؛ وهما لعلم وحكمة وتدبير صارا كذلك .

وفيها دلالة البعث ؛ لأنهما يفنيان حتى لا يبقى من الليل أثر حتى يجيء النهار ، فيذهب النهار أيضا حتى لا يبقى من النهار أثر ، فيجيء آخر ، لا يزالان كذلك ، فإذا كان قادرا على خلق الليل وإنشائه من غير أثر بقي من النهار ؛ وكذلك قادر على إنشاء النهار من غير أن بقي من الليل أثر ظلام - لقادر على أن ينشئ الخلق ثانيا ويحييهم ، وإن فُتُوا وهلكوا ولم يبق منهم أثر ؛ فإذا كان ما ذكرنا من خلق السموات والأرض وما فيهما لمنافع البشر ، وهو المقصود من خلقهما لا غيرهم من الخلائق ؛ لما ركب فيهم من العقول والبصر الذي بهما يميزون بين المنافع والمضار ، وبين الخبيث والطيب ، وبين الحسن والقبيح ، ولم يركب ذلك في غيرهم من الخلائق - لابد من أمر ونهي : يأمر بأشياء ، وينهى عن أشياء ؛ يمتحنهم على ذلك ؛ إذ هم أهل التمييز والفهم والبصر ؛ فإذا كان ما ذكرنا ، لابد - أيضا - من دار أخرى للجزاء ، يُكْرَمُ المطيع له فيها والولى ، ويُعَاقَبُ العدو فيها والعاصي ، ولا قوة إلا بالله .

وقوله - عز وجل - : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ :

يحتمل هذا لما جعل الله - تعالى - على العبد في كل حالٍ نعمةً ليست تلك في غيرها من الأحوال، نحو: أن جعل القيام نعمة في قضاء حوائجه وتقلبه في تلك الحال، وجعل القعود راحة له عند الإعياء، وكذلك الاضطجاع؛ فاستأدهم بالشكر له في كل نعمة على حال من تلك الأحوال، ومدحهم على ذلك إذا فعلوا.

ويحتمل: أن يكون - تعالى - أمرهم أن يذكروه^(١) في كل حال: في حال الرخاء والشدة، وفي الضراء والسراء، لا في حال دون حال، على ما يفعله بعض خلقه: يذكرونه في حال الشدة والضراء، ولا يذكرونه في حال الرخاء واليسر، ويذكرونه في^(٢) حال الرخاء واليسر، ولا يذكرونه في حال الشدة والبلاء، فمدح المؤمنين أنهم يذكرونه في كل حال، لا على ما يفعله أهل الشرك [على إرادة نفس القيام]^(٣)، ونفس القعود والاضطجاع؛ ولكن على كل حال وفي^(٤) كل وقت، والله أعلم.

وقيل: إنه جاء في رخصة صلاة المريض: يصلي قائمًا إن استطاع، وإلا فقاعداً إن لم يستطع، وإلا فمضطجعاً، وكذلك روي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال ذلك^(٥).

وقوله - عز وجل - : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

إذ في خلقهما دليل وحدانيته، وشهادة ربوبيته.

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾:

أي: عبثًا، ولكنَّ خَلَقَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى وحدانيتك، وشاهد على ربوبيتك.

وقوله - عز وجل - : ﴿سُبْحَانَكَ﴾:

هو للتبرئة، والتنزيه: هو إبعاده عن العيب، وتبرئته^(٦) منه، وتطهيره عما يقول الكفار،

وهو حرف يقدم عند حاجات ترفع إليه، ودعوات يدعى بها.

وقوله - عز وجل - : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾:

(١) في ب: بذكره.

(٢) في ب: على.

(٣) بدل ما بين المعقوفين في ب: على غير إرادة القيام.

(٤) في ب: في.

(٥) ينظر: تفسير القرطبي (١٩٨/٤).

وقال الرازي: والحمل على الأول أولى؛ لأن الآيات الكثيرة ناطقة بفضيلة الذكر. ينظر: مفاتيح

الغيب (١١١/٩).

(٦) في ب: تبرئة.

قيل: أَدْلَلْتُهُ وَفَضَحْتُهُ وَأَهْنَيْتُهُ^(١).

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾:

أي: مانع يمنع عنهم العذاب ويدفع، ويحتمل الأنصار: الأعوان، أي: ليس لهم أعوان يعينونهم في الآخرة.

وقوله - عز وجل -: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾:

يحتمل هذا وجهين:

أحدهما: على حقيقة السمع أن سمعوا منادياً يدعوهم إلى الإيمان، وهو رسول الله ﷺ أو القرآن، كلاهما يدعوان الخلق إلى الإيمان بالله.

ويحتمل قوله: ﴿سَمِعْنَا﴾، أي: عقلنا، وعَقْلُ كُلِّ أَحَدٍ يدعو^(٢) إلى التوحيد والإيمان

به.

وقيل: سمعوا دعوة الله فأجابوها، وصبروا عليها^(٣).

وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: المنادى: محمد ﷺ، ثم قرأ: ﴿لَا تُذِرْكُم بِهِ وَنَآءُ بَلْعًا...﴾ الآية^(٤) [الأنعام: ١٩].

وعن غيره: المنادى هو القرآن^(٥)، يدعوهم ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾.

[وقوله - عز وجل -: ﴿فَقَامَنَا رَبَّنَا﴾]

فيه دلالة أن الإيمان ليس هو جميع الطاعات، على ما يقول بعض الناس؛ ولكنه فرد تصديق؛ لأنه لما قال لهم: آمنوا بربكم لم يطلبوا التفسير، ولا قالوا: كم أشياء تكون؟!، ولكن أجابوه إجابة موجزة، فقالوا: ﴿فَقَامَنَا رَبَّنَا﴾^(٦). ثم فيه دلالة أن لا ثُبُتًا في الإيمان؛ لأنهم أطلقوا القول في الإخبار عن إيمانهم من غير ذكر حرف الثبوت؛ دل أن

(١) ينظر: تفسير الرازي (١١٥/٩)، واللباب في علوم الكتاب (١١٥/٦ - ١١٦).

(٢) في ب: يدعى.

(٣) قاله قتادة: أخرجه عنه الطبري (٤٨١/٧) (٨٣٦٥)، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (١٩٦/٢).

(٤) وقاله ابن جريج: أخرجه عنه الطبري (٤٨١/٧) (٨٣٦٣)، وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (١٩٦/٢)، وقاله أيضاً ابن زيد. أخرجه عنه الطبري (٤٨١/٧) (٨٣٦٤)، وقاله ابن مسعود وابن عباس وأكثر المفسرين كما في اللباب (١٢٠/٦).

(٥) قاله محمد بن كعب القرظي: أخرجه عنه الطبري (٤٨٠/٧) (٨٣٦٢)، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والخطيب في «المتفق والمفترق» كما في الدر المنثور (١٩٦/٢)، وأجاب من قال: إنه محمد -: إن من سمع القرآن فكأنما لقي النبي ﷺ، وهذا صحيح المعنى، أفاده القرطبي في تفسيره (٢٠٢/٤).

(٦) ما بين المعقوفين سقط من ب.

الإيمان مما لا يحتمل الثبنا.

وقوله - عز وجل - : ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ :

قيل: قولهم: ﴿فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: التي كانت فيما مضى من عمرنا، ﴿وَكُفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾، أي: اعصمنا فيما بقى من عمرنا، أو: وفقنا للحسنات التي تكفر سيئاتنا؛ لما قد يلزم العبد التكفير لما أساء.

وقيل: المغفرة والتكفير كلاهما سواء؛ لأن المغفرة هي الستر، وكذلك التكفير؛ ولذلك سُمي الحراثون: كفاراً؛ لسترهم البذر في الأرض؛ وكذلك الكافر سمي كافراً؛ لستره الحق بالباطل، ولستره جميع ما أنعم الله عليه بتوجيه الشكر إلى غيره، والله أعلم^(١).

وقوله - عز وجل - : ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ :

يحتمل قوله: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾، أي: توفنا واجعلنا مع الأبرار. ويحتمل: وتوفنا من الأبرار وفي الأبرار.

ثم اختلف في البر: قيل: هو الذي لا يؤدي أحداً^(٢)، وقيل: الأبرار: الأخيار. ويحتمل: توفنا على ما عليه توفيت الأبرار، وتوفنا وإننا أبرار. والبر: الطاعة، والتقوى: ترك المعصية.

وقوله - عز وجل - : ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ :

قيل فيه بوجهين:

قيل: وآتنا ما وعدتنا على ألسن رسلك، على إضمار «ألسن» كقوله - عز وجل - : ﴿وَيُنِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَآنُ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فُضْلًا﴾ [الأحزاب: ٤٧]

وقيل: ﴿مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾، أي: ما جعلت عليهم من الاستغفار للمؤمنين^(٣)؛ كقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنُوكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وكقول إبراهيم - عليه السلام - : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وكقول نوح - عليه السلام - : ﴿زَيِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨].

ثم بيننا وبين المعتزلة كلام في الآية: قالت المعتزلة: يجوز الدعاء والسؤال عنه بما قد أعطى، وما عليه أن يعطي نحو ما ذكر من السؤال بما وعد، وما وعد لا شك أنه يعطي،

(١) ينظر: تفسير الفخر الرازي (١١٧/٩)، واللباب في علوم الكتاب (١٢١/٦).

(٢) قاله الحسن: أخرجه عنه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٢٩٩/٢).

(٣) ينظر: تفسير الفخر الرازي (١٢٠/٩).

وأنة لا يخلف الميعاد، ونحو قوله - عز وجل - ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] وهو لا يحكم بالجور.

وأما عندنا: أن السؤال عما عليه أن يعطي - يخرج مخرج الدعاء له ربنا لا تَجُزْ ولا تُظْلَم، إن هذا لا يقال إلا لمن يخاف الجور منه والظلم؛ إذ يعلم أن ذلك عليه، والسؤال عما قد أعطى محال؛ لأنه يخرج مخرج كتمان ما أعطى، أو ليس عنده ما يعطيهم؛ فيخرج مخرج السخرية به؛ لذلك بطل السؤال، والله أعلم.

ثم تأويل الآية عندنا على وجوه:

أحدها: قوله: ﴿وَأَيْنَا مَا وَعَدْنَاهُ عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾، يحتمل أن يكون الوعد منه لرسله باستغفار الرسل، إذا كان من المؤمنين استغفار وسؤال؛ كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ...﴾ الآية [النساء: ٦٤]: وعد لهم المغفرة لهم باستغفار الرسول؛ إذا كان منهم^(١) استغفار وسؤال، يقول: اجعل دعائي دعاء من جاء إلى النبي ﷺ مستغفراً فاستغفر له، وكقوله - أيضاً-: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خُلْدٌ كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّتَّوَلًا﴾ [الفرقان: ١٦].

والثاني: يحتمل أن يكون الوعد لهم؛ إذا ماتوا على ذلك، فالدعاء كان منهم، والسؤال: أنه إذا أماتهم يميئتهم على الإيمان، على ما كانوا أحياء، والمغفرة والرحمة حينئذ تكون لهم؛ ألا ترى أنه قال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ [الأنعام: ١٦٠] فله كذا، ولم يقل: من عمل بها فله كذا، ولكن ذكر مجيئه بها، فعلى ذلك الأول، والله أعلم.

ثم يحتمل ما ذكرنا، والله أعلم.

وفيما ذكر من تأويل الآية في الابتداء كفاية من ذلك، والله أعلم.

والثالث: يدعو؛ ليجعلهم من الجملة الذين كان لهم الوعد؛ إذ الوعد غير مُبَيَّنٍّ لمن هو؛ فسألوا أن يجعلهم في تلك الجملة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)﴾ وقوله - عز وجل -: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾

هذا يدل أن الوعد لهم كان مقروناً بشرط السؤال؛ لأنه قال: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ﴾،

والاستجابة تكون على أثر السؤال؛ كقوله - عز وجل - : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ...﴾ الآية [البقرة: ١٨٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنتُ بَعْضُكُمْ مِّن بَعْضٍ﴾ .
 قيل: من الخلق كلهم، لكن جعل جزاء أعمال الكفرة في الدنيا؛ كقوله تعالى: ﴿تَوَفَّىٰ
 إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] وأما المؤمنون: في الدنيا والآخرة، وأما
 الكفار فإنما يعطيهم ابتداء ليس بجزاء .

وقوله - عز وجل - : ﴿تَوَفَّىٰ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: نردها عليهم، وهم لا يبخسون
 أرزاقهم .

وقيل: قوله: ﴿مِّنْكُمْ﴾ - إشارة إلى المؤمنين خاصّة؛ كقوله - عز وجل - : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ
 وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الآية [التوبة: ٧١] .

وقوله - عز وجل - : ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي...﴾ الآية:
 الذين هاجروا: إلى الله تعالى ورسوله طوعاً، ﴿وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾، أي: اضطروهم
 حتى خرجوا من ديارهم فهاجروا، ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾، أي: في طاعتي، ﴿وَقَتَلُوا﴾:
 حتى ﴿وَقَتَلُوا﴾ .

ويحتمل هذا كله أن هاجر بعض طوعاً، وبعض أخرجوا من ديارهم حتى هاجروا،
 وقاتل بعض حتى قتلوا، وقاتل بعض ولم يُقتلوا، وقُتل بعض .
 وقوله: ﴿وَلَا ذُلٌّ لَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾ الآية
 تأويلها ظاهر .

قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ (١٩٦) مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمَ وَيُسَ
 الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِّنْ عِندِ
 اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ
 إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْرُونَ بَاعَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ
 اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصِدُّوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
 تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

وقوله - عز وجل - : ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ . مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾ :
 يحتمل تقلبهم وجوهاً .

وذلك نعمة من الله عليهم؛ لتزكّهم يَتَجَرَّون في البلدان مع كفرهم بربهم .
 والثاني: أعطاهم أموالاً يتنعمون فيها ويتلذذون .

والثالث: ما أخر عنهم العذاب والهلاك إلى وقت.

يقول: لا يغرنك يا محمد ذلك؛ إنما هو متاع يسير، [و] مصيرهم إلى النار؛ كقوله - تعالى -: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ...﴾ الآية [التوبة: ٥٥]؛ وكقوله: ﴿وَلَا يَحْزَنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلَ لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلَ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا...﴾ الآية [آل عمران: ١٧٨].

قال: وليس الاغترار في نفس القلب؛ لأنه جهد ومشقة؛ ولكن لما فيه من الأمن والسعة والقوة؛ دليله قوله - تعالى -: ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ﴾، ثم قال: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾، وسعيهم للأخرة متاع لا ينقطع.

وقوله - عز وجل -: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ يعني: الشرك^(١)

﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾ إلى آخر ما ذكر ﴿تَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. يحتمل أن يكون الأمر ما ذكر في بعض القصص: أن بعض المؤمنين قالوا: إن الكفار في خصب ورخاء، ونحن في جهد وشدة؛ فنزل: لا يغرنك تقلبهم في ذلك؛ إنما هو متاع قليل، وذلك ثوابهم في الدنيا، وأما ثواب الذين اتقوا ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار... إلى آخر ما ذكر.

وقوله - عز وجل -: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: القرآن.

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾

يعني: التوراة.

ثم اختلف في نزوله: قال بعضهم: نزل في شأن عبد الله بن سلام وأصحابه: أقرؤا بأنه واحد لا شريك له، وصدقوا رسوله ﷺ وما أنزل عليه... الآية^(٢). وقيل: نزل في شأن النجاشي^(٣)، وروي عن جابر بن عبد الله^(٤) - رضي الله عنه - أن

(١) في ب: الشركة.

(٢) قاله مجاهد: أخرجه عنه الطبري (٤٩٩/٧) (٨٣٨٤)، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٢/٢٠٠). وقال الطبري: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله مجاهد.

وقاله الحسن: أخرجه عنه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٢/٢٠٠).

(٣) النجاشي ملك الحبشة هو أصحمة الحبشي، ملك عادل أسلم، ولم يز النبي ﷺ ولما مات نعاه النبي ﷺ لأصحابه، وصلى عليه صلاة الغائب، ويعد من الصحابة. ينظر: سير أعلام النبلاء (١/٤٢٨).

رقم (٨٥)

(٤) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، الصحابي المشهور، روى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة. مات =

النبي ﷺ لما صلى على النجاشي قال أناس^(١) من المنافقين: يصلي على حبشي مات في أرض الحبشة! فأنزل الله - عز وجل - : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ . . . ﴾ الآية^(٢).

وعن الحسن قال: لما مات النجاشي، قال رسول الله ﷺ: «استغفروا لأخيكم» قالوا: يا رسول الله، لذلك العُلج! فأنزل الله - عز وجل - : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ . . . ﴾ الآية، وقيل: لما صلى عليه [رسول الله ﷺ]^(٣)؛ قال المنافقون: صلى على من ليس من أهل دينه؛ فأنزل الله الآية^(٤).

وعن الزهري^(٥) عن أصحاب رسول الله ﷺ - أن نبي الله ﷺ صلى على النجاشي، فكبر عليه أربع تكبيرات، وصفقنا في المصلّى خلفه، وكان مات بالحبشة^(٦).

قال: والنوازل على وجهين: من ترك بسببه خيرًا وسعة فله فيه فضل؛ لأنه كان مفتاح الخير، ومن ترك بسببه ضيقًا فعليه فضل لوم؛ كأنه مفتاح الضيق.

وأما الأحكام: فإنه ينظر إلى ما فيه نزل فيشترك فيه الخلق، ولا يجوز أن يقال: نزل في شأن فلان؛ إنما أنزل لما في شأن فلان، لا في شأنه.

وقوله - عز وجل - : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا﴾

قيل: على أداء الفرائض والعبادات، وقيل: اصبروا على البلايا والمصائب والشدائد:

= سنة ٧٨ هـ.

ينظر: الخلاصة (١٥٦/١)، سير الأعلام (١٨٩/٣) رقم (٣٨).

(١) في ب: ناس.

(٢) أخرجه الطبري (٤٩٦/٧) (٨٣٧٦) وقال: ذلك خبر في إسناده نظر.

(٣) سقط من ب.

(٤) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور (٢/٢٠٠)، وأخرجه النسائي في التفسير (٣٥٦/١) رقم (١٠٨)، والبزار (٨٣٢ - كشف الأستار) من حديث أنس. ينظر: تذكرة الحفاظ (١٠٢/١).

(٥) هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أحد أكابر الحفاظ والفقهاء تابعي من أهل المدينة توفي سنة ١٢٤ هـ.

(٦) أخرجه مالك (٢٢٦/١) رقم (١٤)، ومن طريقه أحمد (٤٣٨/٢)، (٤٣٩) والبخاري (٥٦٢/٣): كتاب الجنائز: باب التكبير على الجنائز أربعا (١٣٣٣)، ومسلم (٦٥٦/٢): كتاب الجنائز: باب التكبير على الجنائز، (٦٢-٩٥)، وأبو داود (٢٣٠/٢): كتاب الجنائز: باب في الصلاة على المسلم يموت في بلاد الشرك، (٣٢٠٤)، والنسائي (٧٠/٤): كتاب الجنائز: باب الصفوف على الجنائز، من طريق ابن شهاب الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلّى، فصَفَّ بهم وكبر عليه أربع تكبيرات.

﴿وَصَابِرُوا﴾

في الجهاد لعدوكم^(١).

وقيل: اصبروا على أمر الله وفرائضه، وصابروا مع النبي ﷺ وعلى آله وصحبه في المواطن^(٢).

وعن الحسن قال: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضى الله لهم، وهو الإسلام، ولا يدعوا دينهم؛ لشدة ولا لرخاء، ولا ضراء، ولا سراء، حتى يموتوا، ويكونوا يصابرون الكفار، حتى يكونوا هم يميلون عن دينهم، وأمروا أن يربطوا المشركين^(٣).
وقيل: اصبروا على الجهاد، وصابروا لعدوكم

﴿وَرَابِطُوا﴾

أي: داوموا على دينكم^(٤).

﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

قال: والصبر في نفسه خاصة في طاعة يصبر عليها، ومعصية يصبر عنها وفي بلوى، والمصابرة مع غيره، وقد يكون كل واحد على المعنيين؛ لأنه لا يخلو عن مصابرة عدو فيما يطيع ربه.

وقيل: رابطوا مع عدوكم ما أقاموا، واتقوا الله فيما أمركم به، فلا تدعوا ذلك مع نبيكم، وذروا ما نهاكم عنه^(٥)، ولا قوة إلا بالله.



(١) قاله الحسن: أخرجه عنه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٢/٢٠٢).

(٢) قاله سعيد بن جبير: أخرجه عنه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور.

(٣) أخرجه الطبري (٧/٥٠١، ٥٠٢) (٨٣٨٦)، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٢/٢٠١).

(٤) قاله زيد بن أسلم أخرجه عنه الطبري (٧/٥٠٣) (٨٣٩٢)، والبيهقي في الشعب (٤/٤٢٠٥)، وعبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٢/٢٠١).

(٥) قال بنحوه محمد بن كعب القرظي: أخرجه عنه الطبري (٧/٥١٠) (٨٣٩٩)، وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٢/٢٠١).

فهرس المحتويات

٣	آية ١٧٧
٦	من آية ١٧٨ إلى ١٧٩
١٦	من آية ١٨٠ إلى ١٨٢
٢٢	من آية ١٨٣ إلى ١٨٥
٤٨	من آية ١٨٦ إلى ١٨٧
٥٨	آية ١٨٨
٥٩	من آية ١٨٩ إلى ١٩٥
٦٩	من آية ١٩٦ إلى ١٩٧
٩٣	من آية ١٩٨ إلى ٢٠٣
١٠٠	من آية ٢٠٤ إلى ٢٠٧
١٠٢	من آية ٢٠٨ إلى ٢١٢
١٠٧	من آية ٢١٣ إلى ٢١٥
١١٢	من آية ٢١٦ إلى ٢١٨
١١٦	من آية ٢١٩ إلى ٢٢٠
١٢٢	آية ٢٢١
١٣٢	من آية ٢٢٢ إلى ٢٢٣
١٣٩	من آية ٢٢٤ إلى ٢٢٧
١٥٤	من آية ٢٢٨ إلى ٢٣٠
١٧٠	من آية ٢٣١ إلى ٢٣٢
١٧٦	آية ٢٣٣

١٨٥	من آية ٢٣٤ إلى ٢٣٥
١٩٥	من آية ٢٣٦ إلى ٢٣٧
٢٠٩	من آية ٢٣٨ إلى ٢٣٩
٢١٥	من آية ٢٤٠ إلى ٢٤٢
٢١٧	من آية ٢٤٣ إلى ٢٤٥
٢٢٢	من آية ٢٤٦ إلى ٢٤٨
٢٢٦	من آية ٢٤٩ إلى ٢٥٢
٢٣٢	من آية ٢٥٣ إلى ٢٥٤
٢٣٤	آية ٢٥٥
٢٣٨	من آية ٢٥٦ إلى ٢٥٧
٢٤٤	من آية ٢٥٨ إلى ٢٦٠
٢٥٠	من آية ٢٦١ إلى ٢٦٣
٢٥٢	من آية ٢٦٤ إلى ٢٦٦
٢٥٩	من آية ٢٦٧ إلى ٢٧١
٢٦٥	من آية ٢٧٢ إلى ٢٧٤
٢٦٩	من آية ٢٧٥ إلى ٢٨١
٢٧٤	من آية ٢٨٢ إلى ٢٨٣
٢٨٩	من آية ٢٨٤ إلى ٢٨٦

تفسير آل عمران

٢٩٦	من آية ١ إلى ٧
٣١٣	من آية ٨ إلى ٩
٣١٧	من آية ١٠ إلى ١١
٣١٨	من آية ١٢ إلى ١٣
٣٢١	من آية ١٤ إلى ١٧

٣٣٠	من آية ١٨ إلى ٢٠
٣٣٩	من آية ٢١ إلى ٢٢
٣٤٣	من آية ٢٣ إلى ٢٥
٣٤٤	من آية ٢٦ إلى ٢٧
٣٥٠	من آية ٢٨ إلى ٢٩
٣٥٢	من آية ٣٠ إلى ٣٢
٣٥٤	من آية ٣٣ إلى ٣٧
٣٦٠	من آية ٣٨ إلى ٤١
٣٦٧	من آية ٤٢ إلى ٤٧
٣٧٣	من آية ٤٨ إلى ٥١
٣٧٨	من آية ٥٢ إلى ٥٣
٣٨١	من آية ٥٤ إلى ٥٧
٣٨٨	من آية ٥٨ إلى ٦٣
٣٩٣	آية ٦٤
٣٩٤	من آية ٦٥ إلى ٦٨
٤٠٠	من آية ٦٩ إلى ٧١
٤٠٢	من آية ٧٢ إلى ٧٤
٤٠٧	من آية ٧٥ إلى ٧٦
٤١١	من آية ٧٧ إلى ٨٠
٤١٥	من آية ٨١ إلى ٨٣
٤١٩	من آية ٨٤ إلى ٨٥
٤٢٠	من آية ٨٦ إلى ٨٩
٤٢٢	من آية ٩٠ إلى ٩٢
٤٢٥	من آية ٩٣ إلى ٩٤
٤٢٧	من آية ٩٥ إلى ٩٧

٤٤٠	من آية ٩٨ إلى ١٠٠
٤٤٢	من آية ١٠١ إلى ١٠٣
٤٤٨	من آية ١٠٤ إلى ١٠٩
٤٥٤	من آية ١١٠ إلى ١١٢
٤٥٩	من آية ١١٣ إلى ١١٥
٤٦١	من آية ١١٦ إلى ١١٧
٤٦٣	من آية ١١٨ إلى ١٢٠
٤٦٦	من آية ١٢١ إلى ١٢٢
٤٦٨	من آية ١٢٣ إلى ١٢٧
٤٧٣	من آية ١٢٨ إلى ١٢٩
٤٧٥	من آية ١٣٠ إلى ١٣٢
٤٧٩	آية ١٣٣
٤٨٣	من آية ١٣٤ إلى ١٣٦
٤٨٩	من آية ١٣٧ إلى ١٣٩
٤٩١	من آية ١٤٠ إلى ١٤٢
٤٩٧	من آية ١٤٣ إلى ١٤٥
٥٠٠	من آية ١٤٦ إلى ١٤٨
٥٠٤	من آية ١٤٩ إلى ١٥٢
٥٠٨	من آية ١٥٣ إلى ١٥٥
٥١٣	من آية ١٥٦ إلى ١٥٨
٥١٤	من آية ١٥٩ إلى ١٦٠
٥١٨	من آية ١٦١ إلى ١٦٤
٥٢٢	من آية ١٦٥ إلى ١٦٨
٥٢٨	من آية ١٦٩ إلى ١٧١
٥٣١	من آية ١٧٢ إلى ١٧٥

٥٣٦	من آية ١٧٦ إلى ١٧٨
٥٤٠	آية ١٧٩
٥٤٢	من آية ١٨٠ إلى ١٨٢
٥٤٩	من آية ١٨٣ إلى ١٨٤
٥٥١	آية ١٨٥
٥٥٣	من آية ١٨٦ إلى ١٨٨
٥٥٦	آية ١٨٩
٥٥٩	من آية ١٩٠ إلى ١٩٤
٥٦٤	آية ١٩٥
٥٦٥	من آية ١٩٦ إلى ٢٠٠

TAʾWĪLĀT AHL AS-SUNNAH

(The exegesis of the Holy Qurʾān)

by

Al-Imām Abu Maṣṣūr Al-Māturīdī

Edited by

Dr. Majdī Bāsallūm

Volume II

Handwritten text at the top of the page, possibly a title or header, which is mostly illegible due to fading. Some characters like 'A', 'N', 'S' are visible.

Handwritten text at the bottom of the page, possibly a footer or signature, which is mostly illegible due to fading.

المأثور

بأولادنا



البقرة ١٧٧
آخر آل عمران

٦

دار
الكتبة
العلمية
بيروت